محمود عبد الحليم

عضو الهيئة التأسيسية

الإخوان المسلمون

أحداث صنعت التاريخ

رؤية من الداخل

الجزء الأول

١٩٢٨ – ١٩٤٨

دار الدعوة

للطبع والنشر والتوزيع

٩ شارع معتا . محرم بك (الإسكندرية)

الطبعة الخامسة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

- إلى روح الرجلين العظيمين .. اللذين وضع أولهما الأساس للدعوة الإسلامية فى هذا العصر وثبته فى الأعماق وأشعل جذوة الإيمان .
ثم جاء الثانى فرفع القواعد وسط الرياح الهوج والأعاصير العاتية .. وراح كلاهما شهيدى هذه الجذوة أن تنطفئ .
- إلى الرجال الذين استجابوا لندائهما واتبعوهما وعزروهما ونصروهما .. "فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا"
- إلى شباب هذا الجيل الذى حجبت عنه الحقائق لينشأ غريبا عن أهله ودينه وقيمه .. لعله يرجع إلى أصالته ودينه وقيمه بعد غيبة قاربت ثلاثين عاما

محمود عبد الحليم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم :
الداعية الأستاذ مصطفى مشهور

إن هذه الشجرة الطيبة التى غرسها الإمام الشهيد حسن البنا منذ أكثر من خمسين عاما ورواها بدمه هو والشهداء من قبله ومن بعده تعمقت جذورها وامتدت فروعها واستعصت على أعداء الله أن يقتلعوها رغم محاولاتهم الشرسة المتتالية ، إنها فى الحقيقة دعوة الله ، والله غالب على أمره ولن يطفئ نور الله بشر .

واستقراء من سنة الله فى الدعوات ، توقع الإمام الشهيد ما ستتعرض له هذه الجماعة من الابتلاءات والمحن ومن إلصاق التهم الباطلة بها من أعداء الله لصد الناس عن سبيل الله .فكتب للإخوان يصارحهم بهذة الحقيقة :

> أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم

كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات ، وفى هذا الوقت تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد . سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم ، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام ، وينكر عليكم جهادكم فى سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم .

وسيتذرع الغاصبون (١) بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون فى ذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان . وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة وأن يظهروها للناس فى أبشع صورة معتمدين على قوتهم وسلطانهم ، ومعتدين بأموالهم ونفوذهم . «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون» .

وستدخلون بذلك ولا شك فى دور التجربة والامتحان : فتسجنون ، وتقتلون ، وتشردون ، وتصادر مصالحكم ، وتعطل أعمالكم ، وتفتش بيوتكم ، وقد يطول بكم مدى

(١) المستعمرون

هذا الامتحان : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لا يفتنون» ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين : «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم .... فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين» فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله ؟ (١)

وحدث ماتوقعه الإمام ، ودخل الإخوان دور الامتحان والابتلاء ، ولقوا كل ألوان التعذيب والتنكيل ، وطال بهم مدى هذا الامتحان فصبروا وما جزعوا وضربوا الأمثال فى الوفاء بالعهد وصدق اللقاء ... وحفظ الله هذه الدعوة وقيض لها الإمام حسن الهضيبي رحمه الله فى تلك الفترة وكان رمزا للثبات والصمود وعدم التفريط فى أمانات الدعوة وصلابة الحق أمام بطش وجبروت أهل الباطل حتى لقى الله وقد قرت عيناه : أن هذه الجماعة لن يحلها قرار حل ولن تجتث شجرتها .

وان كانت هذه الظروف القاسية والصراع المرير والواجبات التى تتزاحم والمسئوليات الملقاة على عاتق هذه الجماعة فى طورها العالمى الجديد يجعل تسجيل تاريخ الجماعة لا يجد الوقت والجهد المناسب فى الوقت الذى ينقرض فيه الجيل الذى حمل عبء الدعوة فى مراحلها الأولى ، ولكن رغم ذلك فهناك جهد يبذل فى هذا الجانب والحمد لله .

والأخ الفاضل الأستاذ محمود عبد الحليم ، من الرواد الأوائل الذين سبقوا إلى هذه الجماعة وعاشوا وجاهدوا فى ظلها وعاصروا أحداثها منذ الثلاثينات ، وقد حباه الله بذاكرة جيدة وحافظة قوية ، فعز عليه أن يرى

(١) عن رسالة «بين الأمس واليوم» للامام الشهيد حسن البنا

أعداء الله والمغرضين والأقلام المأجورة يزورون تاريخ الجماعه ويزيفون الحقائق ويشوهون الصورة ، وشعر أن السن تتقدم به ــ وأحس بواجب تسجيل هذه المذكرات ؛ لتكون مادة تعين الباحثين على مهمة التأريخ الصادق لهذه الجماعة ، ومصدراً يرجع إليه كل إنسان شريف ينشد الحقيقة فى مظانها الصحيحة .. فجزاه الله خير الجزاء على ما بذل من جهد .

هذا وكما قال الأخ محمود فى المقدمة ، عما أبداه من رأى وتحليل لبعض القضايا التى كانت تعرض فى مذكراته ، كان تعبيراً عن رؤيته الشخصية ووجهة نظره الفردية «ليس من حتى أن أقرر أن تحليلى هو التحليل الأوحد ، أو أن رأيى هو الرأى الأصوب فلكل إنسان أسلوب فى التحليل ورأى فيما يعالج من قضايا» وهذا وإن كان أمرا بديهيا ولكن ذكره له فى التقديم تذكير مشكور .

وإذا كان تسجيل تاريخ أى حركة هو جزء من الحركة وأمر لازم ومفيد ، فأحب أن ألفت نظر الأخ القارئ أن مثل هذه المذكرات التى تروى بعض جوانب حركة الأخوان المسلمين تعطى دروسا تربوية للأجيال الناشئة لا مجرد سرد لأحداث وما أكثر العبر والدروس فى تاريخ الحركات الإسلامية وما أحوج الأجيال الناشئة إليها حتى لا يبدأوا من فراغ .

وأسأل الله أن ينفع بهذه المذكرات وأن يجازى الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم خيرا ، وأن يؤيد هذه الجماعة الظاهرة على الحق وكل عامل للإسلام حتى يأتى نصر الله ويمكن لدينه فى الأرض .. إنه تعالى أكرم مسئول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

مصطفى مشهور

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة الله وسلامه على رسوله الكريم ؛ محمد الذى أرسله إلى الناس كافة منقذاً ومصلحاً ومبشراً ونذيرا ، وأنزل عليه الكتاب الذى وصفه لنا بقوله تعالى :

«ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»

«وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟»

وبعد

فإن دعوة الإخوان المسلمين هى صدى الدعوة الأولى وليست بالدعوة المستحدثة ، فهى طور من أطوار الدعوة الإسلامية ظهرت فى هذا القرن بظهور حسن البنا سنة ١٩٢٨ .. وتتأهب فى أيامنا هذه لطور جديد .

والذى بين دفتى هذا الكتاب ليس تاريخاً لهذه الدعوة ، وإنما هى جوانب منها عاصرتها وشاركت فى أحداثها وكنت جزءاً منها ... ولا أدعى أن هذه الجوانب هى كل جوانبها . ولا يستطيع أحد أن يدعى لنفسه مثل ذلك ، فى دعوة بلغت من اتساع الرقعة حداً يقصر عن الإحاطة بمداه نظر ناظر واحد — مهما قوى بصره — وتشعبت تشعباً جعل متابعته فى كل اتجاه أمراً مستحيلا ، فحسب كل ناظر أن يصف ما وقع فى مجال نظره ، وحسب كل ذى موقع فيها أن يتحدث عما مكنه موقعه من الإحاطة به..وبعد أن يصف الجميع ما رأوا ، وبعد أن يتحدث جميع ذوى المواقع فيها عما أحاطوا ، يأتى دور المؤرخين الذين يجمعون كل ما رأى الراءون وتحدث المتحدثون ليخرجوا من مجموعه بتاريخ لهذا الطور من أطوار هذه الدعوة .

والذى يتمرس بدراسة هذا الطور من الدعوة الإسلامية سيجد نفسه أمام سلسلة متداخلة الحلقات من الأحداث . وأقصد بالتداخل أنها ليست أحداثا مترادفة يتلو بعضها بعضاً ، فكلما انتهى حدث

بدأ آخر ، بل إن أكثر من حدث قد يقع فى وقت واحد ، ذلك بأن هذه الدعوة تعمل فى أكثر من ميدان ، وتحارب فى أكثر من جبهة .. ومن هنا رأيت أن أقرر للقارئ - بادئ ذى بدء - حقيقة يجب أن أقررها هى أنى حين أكتب هذه الصفحات لن أكون مؤرخا يجمع شتات الأحداث ، ويجرى وراءها حيث كانت حتى لا يفلت منه شئ ، وإنما أنا أكتب عن أحداث وقعت بين يدى وشاركت فيها .. وقد أكون خالفت هذه القاعدة فى نقطتين اثنتين : أولاهما ما كتبته عن قيام الدعوة فى الاسماعيلية ، وقد راعيت فيه الاختصار التام ، وقد سمعته من الأستاذ الإمام نفسه ، والأخرى بطولات الإخوان فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وقد أثبت فى بابها أنى نقلت أكثر ما كتبته عنها من كتاب الأخ الكريم الأستاذ كامل الشريف الذى كان من كبار قادتها .

* * *

وتحليل الأحداث ، وإبداء الرأى فى القضايا ، أمر لا مفر منه لإنسان عاصر هذه الأحداث وباشر هذه القضايا . ولكن ليس من حقى أن أقرر أن تحليلى هو التحليل الأوحد ، وأن رأيى هو الرأى الأصوب ، فلكل إنسان أسلوب فى التحليل ، ورأى فيما يعالج من قضايا .. وحسبى أنى بسطت المواضيع ، وألقيت الأضواء على الظروف والملابسات ، وكشفت القناع عن كثير مما غشيه الغموض .. وهذه هى المعلومات الكافية لتغذية القوة الحاسبة فى العقل البشرى لتخرج لك الحكم الصحيح والرأى السديد .

* * *

وليس المقصود من تسطير ما سطرت ، ومن سرد ما أوردت ، ومن الإشارة فيما أوجزت ومن الإفاضة فيما أسهبت .. هو إمتاع القارئ بقصة طولها خمسون عاماً ، يملأ بها فراغ وقته ، ويزيد بمعلوماتها مخزون علمه ، وإنما المقصود من ذلك أن أبرز له صورة محددة المعالم للفكرة الإسلامية ، وأوضح له كيف حمل الفرد المسلم أعباء هذه الفكرة ، وكيف أخذ بها نفسه ، وكيف خاطب بها مجتمعه . وأبين له كيف تلقت المجتمعات هذه الفكرة : فمجتمع الأكثرية المغلوبة على أمرها من الفقراء والضعفاء ، تلقوها بترحاب . ومجتمع الأغنياء والمترفين والحكام تلقوها برفض وصلف . ومجتمع ذوى المصالح من المستغلين والمستعمرين تلقوها بحذر ومكر وتآمر - وأجلى له الأسلوب الذى واجه به حامل هذه الفكرة هذه المجتمعات ، والصراعات التى نشأت خلال هذه المواجهات ، وكيف اشتدت ، وكيف احتدمت ، وكيف تفاقمت ، وإلى أية نهاية انتهت .

* * *

وقراء هذه المذكرات من أبنائنا من هذا الجيل الجديد ، سيجدون أنفسهم حين يقرأونها أمام أحداث وشخصيات لا عهد لهم بأكثرها .. فهل يصرفهم ذلك عن قراءتها أم يكون ذلك حافزاً لهم

على الإقبال عليها واستيعابها ؟ .. فإذا صرفهم ذلك عن قراءتها فسيكون ذلك دليلا على أن المؤامرة العالمية ضد الدعوة الإسلامية قد تم لها النجاح ، واكتملت لها أسباب الفوز ، فإن الحلقة الأخيرة في سلسلة هذه المؤامرة هي إسدال ستار كثيف على هذه الأحداث وعلى هذه الشخصيات ، ومحاولة محوها من صفحة التاريخ ، وإذا لم يكن بد من إبراز بعضها فليكن إبرازه في صورة مقلوبة أومشوهة على الأقل .. ذلك أن مدبرى المؤامرة العالمية حريصون كل الحرص على أن لا يعرف هذا الجيل والأجيال التى تليه أن هذه الأحداث هى التى صنعت التاريخ الذى يعيشونه .

* * *

ومن نافلة القول أن نقول : إن شعباً يجهل حقيقة ماضيه محال أن يتطلع إلى مستقبل مشرق . والمعلومات التاريخية لا تؤخذ عن الطريق الرسمى ، لأن حرص الحكام على استبقاء أزمة السلطة فى أيديهم وفى أيدى شيعتهم من بعدهم ، يدفعهم عادة إلى صياغة التاريخ بالأسلوب الذى يحقق أمانيهم ويظهرهم فى أعلى قمم العدالة ، ويظهر منافسيهم فى أدنى درك من الخسة والنذالة .. وهم لايقتصرون فى الصياغة على تزوير الأحداث التى تجرى فى أيامهم فحسب ، بل تمتد أيديهم إلى الأحداث التى سبقتهم فيعملون فيها المسخ والتزوير . ولو اداركه علمهم فى أحداث المستقبل لزوروها لحسابهم..ولكنهم مع قصور علمهم بأحداث المستقبل يثقون فى أنهم مسيطرون عليها بما زوروا من أحداث أيامهم وأحداث سابقيهم ؛ فعقول الجيل التى صيغت بالمعلومات المزورة ، ونشئت عليها وملئت بها لن تبنى مستقبلها إلا على ضوء ما ملئت به من زيف وتزوير ..

ومن هنا كان الخطر الداهم والكارثة المروعة .. ومكمن الخطر والترويع فى ذلك أن هذا الجيل حين يتجه بمستقبل بلاده إلى الهاوية — إكمالا للخط الذى رسم له فى ماضيه وحاضره — يتجه واهما أنه متجه إلى الأمن والسلامة ؛ فهو لا يلتفت إلى محذور ، ولا يستمع إلى ناصح .. وأمثال هؤلاء أنبأنا القرآن عنهم وحذر من خطورة انحدارهم إلى الهاوية وهم غافلون فقال «قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» .

وإذا كان الله عز وجل قد تكفل لكلمة الحق أن لا تطفأ شعلتها وأن لا يخبو ضوؤها ، فهذا شأنه سبحانه وهذه مشيئته .. أما أن يكشف معصوبو العيون العصائب عن أعينهم ليروا هذه الكلمة فهذا شأن آخر تركه سبحانه لعباده إن شاءوا رفعوها فرأوا ، وإن شاءوا أبقوا عليها وتشبثوا بها لظلوا فى ضلالهم سادرين «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» والله رتب على هذا التخيير الثواب

والعقاب وحدد يوماً للحساب «إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» كما تحيط العصابة – التي يتشبثون بها – بأعينهم فتحاصرها عن رؤية الحق وهم بذلك راضون وعن الحق ناكبون . .

* * *

ومما ينبغي أن يعلمه القارئ أن هذه الدعوة .. على مكانتها بين دعوات العالم ، ومع صراعها مع الظلم والطغيان في الداخل والخارج طيلة خمسين عاماً – فإنها لم تعن بجانب التسجيل عناية كافية. ولقد لا يحس بخلوها من هذه الناحية الهامة إلا من عرض نفسه – مثلي – لتسجيل أحداثها ..

وقد يعزى ذلك إلى أن هذه الدعوة قد تملكت من أول يوم أفئدة من آمنوا بها وعاهدوا على العمل لها ، بحيث لم تدع لأحد منهم فرصة يخلو فيها إلى نفسه ، أو يخلد فيها إلى راحته ، فهو دائب الحركة ، يواصل الليل بالنهار ، متنقلا بين المجتمعات ، غارقاً في محادثات ومناقشات ، عاكفاً على إعداد خطط ومناهج .. حتى إذا أوى إلى فراشه منهكاً لا تكتحل عيناه بنوم حتى تجتر مخيلته ما عاني طول يومه من حقوق الدعوة عليه .. ويصحو من نومه حين يصحو على ما أوى إلى فراشه عليه من التفكير في الدعوة وحقوق اليوم الجديد ، فهو في سباق مع الزمن ، لا يفرغ لحظة من ليل أو نهار .. فأنى لهؤلاء أن يسجلوا ؟!

ثم كانت أحداث جسام ، وظلمات طال ليلها ،ولهرو كبت وتعذيب وإعنات .. طال الامد على الكلمة المسجونة في أغوار الذاكرة أكثر من عشرين عاماً ، حتى بات استخراجها منها أمراً عسيرا.واختلطت الكلمات في سجنها بعضها ببعض بفعل الزمن حتى لم يعد صاحب الذاكرة يعرف أيها السابق وأيها اللاحق ، وتداخلت التواريخ ، وأصبح صاحب الذاكرة على خطر عظيم .

* * *

هذه حقائق مرة واجهتها في أول يوم أمسكت فيه بالقلم لأسجل أحداثا لهذه الدعوة عاصرتها وشهدتها وساهمت في الكثير منها .. وجدت مخزون ذاكرتي على ما صورت . وحاولت الرجوع في شأن هذه الأحداث إلى مرجع فوجدت الساحة خاوية الوفاض .. أغفل الإخوان في غمرة تفانيهم في دعوتهم أن يولوا ناحية التسجيل أدنى اهتمام .. ثم أتت يد الإثم والعدوان من عربدة الحكام على الوثائق والمحررات والصحف والمجلات في كل مكان خاص وعام ، فلم يبق شيء يرجع إليه أو يعتمد عليه .. حتى المكتبات العامة جردوها من كل ما يمت إلى هذه الدعوة بصلة .

وبالرغم من طول الأمد ، وترادف الأرزاء ، وانقطاع الصلات ، فإن الأحداث التي عاصرتها لم تند عن خاطري لأنها كانت فلذة من كبدي ، وقطعة من ذات نفسي ، وجزءاً من

أصحابي ودمي ، فكيف أنساها ؟ .. ولكن الذي أعياني هو الترتيب الزمني لبعض هذه الأحداث وهو أمر جوهري لا غنى عنه لمن أراد يسجل أحداثاً .

ولم أجد أمامي إلا مراجعة الصحف اليومية التي صدرت في خلال أربعين عاماً مضت .. ولقد عكفت على مراجعة هذه الصحف ردحاً طويلا من الزمن ، فوجدت فيها طلبتي في الترتيب الزمني لما في خاطري من أحداث .. ولقد أفدت من مراجعتي هذه الصحف فائدتين ، أولاهما ترتيب الأحداث كما قدمت ، والأخرى نصوص بعض المذكرات والخطابات ..

ومما يدل على أن جانب التسجيل لم ينل حظه في دعوة الإخوان المسلمين ظهور كتاب في هذه الأيام يضم «مذكرات الدعوة والداعية» للأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله ، فقد جاءت هذه المذكرات برهانا قاطعاً على إغفال هذه الناحية الهامة ، فلم يسجل في هذه المذكرات عشر معشار مامر بصاحبها من أحداث . ولم يكن - رضي الله عنه - عاجزا عن تسجيلها وتحليلها ولكن هكذا شاءت الأقدار .

وهذا الفراغ في ميدان التسجيل الذي رأيت دعوة الإسلام في هذا القرن تعانيه هو الذي دفعني إلى النهوض بهذا الواجب ملأ لجزء من هذا الفراغ ، وأداء لحق هذه الدعوة علي ، وإعذاراً إلى الله في حق هذا الجيل والأجيال القادمة .

* * * *

ولقد تعرضت في هذه المذكرات لمعالجة نقاط ذات حساسية بالغة ، وربما تحاشى الكثيرون التعرض لها ، وحاولوا تفاديها . ولكنني آثرت التعرض لها مدفوعاً إلى ذلك بدوافع منها :

أن هذه النقاط - مهما بلغت درجة حساسيتها - هي جزء من تاريخ هذه الدعوة ، وكان لها آثار عميقة في هذا التاريخ . وما كان ينبغي لعارض أحداث تاريخ أن يغفل جزءاً منه استحياء من ذكره أو طمساً لمعالمه ، أو إهالة التراب عليه حتى لا يراه الناس .. والتاريخ - كما يقولون - لا يرحم . فإذا تعامى عنه أصحابه وأغفلوه فسيتولى نشره غيرهم .. وحينئذ لا يلام الناشرون إذا هم نشروه مشوها أو محرفاً .

ومن هذه الدوافع أنني كنت أكثر الناس ملابسة لهذه النقاط ، وأشدهم اتصالا بها ، وأقربهم رؤية لحقائقها ، فكان لزاماً علي أن أتعرض لها لأكشف النقاب عن كثير مما غاب عن الرائين من بعد من لمساتها ، وأن أميط اللثام عما خفي من ظروفها وبواعثها ، وأن أقضي حق التاريخ في تمحيصها وتجليتها .

ودافع ثالث هو أن ألفت النظر – نظر أصحاب الدعوات وأتباعها من الأجيال القائمة والأجيال القادمة – إلى أن إطلاق العنان للعواطف – مهما نبلت هذه العواطف ومهما حسن مقصدها – قد يجنى على الدعوات ومجتمعاتها. وأن السبيل الأقوم دائماً فيما يتصل بالمجتمعات هو الاقتصاد فى العواطف والسيطرة عليها والحد من انطلاقها.

كما ألفت نظر القائمين على شئون الدعوات الشريفة إلى أن تملق للوسيم بأبهة المناصب فيها، ومحاولة الاستئثار بمواقع السلطة والنفوذ بها، قد يكون عاملا مدمراً لهم ولها.. وأن هذه الدعوات لا يصلح لها إلا من يحبها بقلبه كله ووجدانه كله .. أما الذين يتذبذبون بين نداء دعوتهم ونداء مصالحهم الشخصية أو العائلية، فسرعان ما تشدهم الجاذبية الأرضية بمغرياتها فيهوون إلى القرار «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه» .

ولما كانت الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، لم تأت لتخاطب طائفة معينة، ولا لتتعامل لفئة محدودة، ولا لتعالج قضايا زمن خاص أو مكان محدد، فقد كان عليها أن يكون كتابها منشوراً لا يخفى صغيرة ولا كبيرة دون أن يبرزها بين يدى العالم كله .. فلا حجب ولا أسرار، ولا خصوصيات يحتفظ بها وراء أستار .. ولقد تعرض القرآن الكريم نفسه لأحداث هى من أخص خصوصيات محمد صلى الله عليه وسلم وأسرته، قد يتحاشى الكثيرون إذا وقع لهم مثلها أن يسمحوا بذكرها بل يحاولون إخفاءها حتى لا يطلع عليها الناس .. ولكن القرآن تناولها فى آياته التى تتلى ليل نهار، وعلى ملأ الدنيا كلها، وعلى مر الزمن فى كل مكان .. تناولها لا بمجرد الإيماء والإشارة العابرة، بل تناولها بالبسط والإسهاب وبالتحليل والتفصيل والتعقيب، وخرج منها بقواعد عامة تنتفع بها المجتمعات .. وما نبأ حادثة الإفك ببعيد .

* * * *

وقد يكون من حق القارئ أن أعتذر إليه فيما قد يلاحظه فى الصفحات الأولى من هذه المذكرات من أسلوب هو أقرب إلى الهدوء منه إلى الإثارة ... ذلك أننى .. كما قدمت – لست أتخير موضوعات لمجرد الإمتاع، وإنما أنا ملتزم بالتمشى مع هذه الدعوة فى أطوارها . فإذا كانت الدعوة فى مهدها لا تزال تخطو حابية وليدة – كدأب كل كائن وليد – فما كان لى أن أنتحل لهذا الوليد ما ليس من طبيعته وما هو فوق طاقته .

وعلى القارئ أن يوطن نفسه على أن الذى بين يديه فى هذه المذكرات تاريخ حياة، لا قصة من نسج الخيال. ولكل طور من أطوار الحياة سمات وخصائص، فلا يتعجل ما ينشد من أحداث مثيرة، فإن الوليد الذى تضرب فوقه الكلل، وتسدل من حوله الستائر، لن يلبث حين يشب أن ينبثق عنه فارس مغوار يأتى بالعجب العجاب، ويأخذ بالقلوب والألباب.

* * * *

وهناك قضية جديرة أن يضعها القارئ موضع التمحيص والمناقشة؛ هى أن يجنح كاتب المذكرات فى ثنايا تسجيله لأحداث الدعوة ومواقفها إلى تناول بعض جوانب حياته ومعالم شخصيته.. فهل فى هذا ما يعد خروجا عن الموضوع، وانتقالا بالقارئ من ميدان هيأ نفسه وفكره لاستطلاعه إلى ميدان آخر لا يعنيه أمره؟.

أما أنا فأعتقد أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل فى كتابة المذكرات بل وفى تأليف الكتب عامة، فإن القارئ حين يقرأ كتابا لا يعرف عن مؤلفه إلا اسمه، يكون كالغريب الذى يرتاد مدينة واسعة الأرجاء، مترامية الأطراف، لا عهد له بها، دون دليل معه من أهلها. فقد يضرب فى شوارعها وحاراتها وأزقتها على غير هدى، وقد يرى من معالمها ما تقع عليه عيناه، وقد يأوى فى النهاية إلى مأوى فيها.. لكنه فى ذلك كله لا يشعر بألفة ولا بائتناس، ولا يخرج بصورة واضحة عنها – أو يكون الذى يتخبط طريقه فى الظلام بغير مصباح يكشف له معالمه، ويدخل الاطمئنان إلى نفسه، فهو يخطو ما يخطو متوجسا خائفا.

فتقديم المؤلف نفسه إلى قارئه، وكشفه له عن بعض جوانب نفسه، وإلقاء الضوء بين يديه عن شيء من معالم حياته.. يدخل الأنس إلى نفس القارئ، ويبعث روح الألفة بينه وبينه، فيسير فى قراءة الكتاب وقد عقد مع المؤلف صداقة أتاحت لهما أن يكونا متلازمين فى رحلة طولها طول الكتاب.. وكلما قرأ عن موقف أو حدث أو فكرة قرأها وهو يرى جذورها التى تنبت منها وبذورها التى انفلقت عنها. فلا تكون القراءة فى هذه الحالة قراءة سطحية لا يصل أثرها إلى أعماق النفس.

ثم إن حياة الدعوات ليست إلا حياة رجالها ودعاتها. والفصل بين حياتهم وحياتها أمر غير مستطاع لا سيما إذا كانت الدعوة قد شكلت حياتهم، وسيطرت على كل تصرفاتهم حتى فنوا فيها فصاروا وإياها كما قال الشاعر:

وما زلت إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت

ومرتى بها وجداً حياة هنيئة وإن لم أمت فى الحب عشت بغصة

فكيف إذن نفصل بين حياة الدعوة وحياة دعاتها ؟ .. وإذا تجردت حياة الدعوة من حياة دعاتها صارت مجرد فكرة مجالها الدراسة العلمية الفلسفية ، وانقطعت صلتها بواقع الحياة .

* * * *

وتقع هذه المذكرات بطبيعة موضوعها فى ثلاثة أجزاء . يعالج الجزء الأول منها الدعوة فى عهد المرشد الأول ، ويعالج الجزء الثالث منها الدعوة فى عهد المرشد الثانى .ويعالج الجزء الثانى الدعوة فيما بين العهدين

ولما شرعت فى تبويب الجزء الأول لاحظت أن أطوارالدعوة فيه مرتبطة بالأمكنة التى شغلها المركز العام فى خلال تلك الحقبة من الزمن ، فعنونت كل باب منها بعنوان من عناوين المركز العام فجاءت بذلك أربعة أبواب .

وقد وطأت للمذكرات بمدخل قدمت فيه نفسى إلى القارئ ، وأومأت إلى تأثير نشأتى فى الجامعى الذى انتهى بى إلى دعوة الإخوان المسلمين ، والطريق الذى سلكته إليها .

* * * *

على أنى وقد طرقت باب التسجيل فى دعوة الإخوان المسلمين ، لا أدعى أنى ألممت بكل شئ . وحتى القليل الذى ألممت به لا أدعى أنى أوفيت فيه على الغاية .. ولكنه جهد المقل .. وحسبى أن تحسست الطريق وارتدته لمن يرغب فى سلوكه من بعدى .

* * * *

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا المجهود لوجهه ، وأن يتقبله فيما يتقبل من العمل الصالح ، وأن يرفعه وينفع به ، إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول ، وإنه نعم المولى ونعم النصير .

محمود محمد عبد الحليم

الاسكندرية فى ٥ من شهر ربيع الأول ١٣٩٨
١٢ من فبراير ١٩٧٨

المدخل

إلى متى تمضي بنا الأيام والسنون وعامل التسويف هو العامل المتصرف فى حياتنا وأعمالنا ؟ فنفكر ثم نعزم ثم يقوم عامل ما فنؤجل . وتمضي الأيام سراعاً – وليتها تمضي مليئة بالعمل – ثم نتذكر فنفكر ونعزم ثم يكون التأجيل ... وماهو العمر حتى يتسع لعشرات من هذه الدورات التى لا تكاد تنتهى حتى تبدأ ؟ !..

وقد لا يكون موضوع التفكير والعزم مثيراً وهاماً لأن أصحابه لم ينتهوا إلى النهاية المثيرة التى تستحق الإعجاب وتثير الاشتياق ؛ إلا أن الحكم بمجرد النهاية قد يكون حكماً قاصراً وظالماً ، فقد يكون استعراض سلسلة الأحداث مما يغير رأى الذين لاينظرون إلا إلى النهايات وحدها .... ثم إن اعتبار الهزيمة نهاية أمر فيه نظر ،فانهزام الأشخاص فى حياة الدعوات لايعدو أن يكون أمراً عارضاً وإن هو إلا طور من أطوارها ؛ كالبذرة التى يعتبر دفنها واختفاؤها تحت التراب زمناً حتى تطأها أقدام الغافلين طوراً من أطوار حياتها لا تستقيم حياتها إلا به .... وهذه ظاهرة فيما أعتقد وأعلم تلازم كل الدعوات على اختلاف أهدافها وأفكارها .. وقد اعتبرها الإسلام سنة لم يستثن نفسه منها ؛ فتاريخ الدعوة الإسلامية منذ بزغ نوره تتنابه هذه السنة ... فصباحه بين التبلج والخفوت حتى يظن أنه أنطفأ .

وإذا كان لكل شئ عدو من جنسه ، فالدعوة التى تقوم على فكرة اقتصادية تنبرى لها فكرة اقتصادية أخرى همها الانتصار عليها غير مبالية بما سواها من دعوات تقوم على أفكار أخرى والدعوة القائمة على فكرة اجتماعية تنبرى لها فكرة اجتماعية أخرى همها دحرها واحتلال مكانها ، وهكذا تتبع كل فكرة الفكرة التى من جنسها حتى تقضى عليها وتحل محلها ... فالدعوة الإسلامية بشمولها نواحى الحياة جميعاً من عقيدة إلى اقتصاد إلى اجتماع إلى سياسة إلى لغة إلى عادات ..... قد جرت عليها طبيعة الشمول هذه الأعداء من كل جانب ومن كل اتجاه...وبذلك كانت محاولات القضاء عليها ومحوها من الوجود أمراً لا مفر منه لولا استنادها إلى عنصر خلت منه كل الدعوات وهو ركونها إلى ركن شديد من تكفل الله جلت قدرته لها بالنصر « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » (١٧١ – ١٧٣ الصافات)

ولقد برزت على طول الزمن أفكار ودعوات تألقت حيناً ثم خفتت ثم اختفت من الوجود وحل محلها أفكار أخرى مناقضة لها تصدت لها وظلت تطاردها حتى قضت عليها إلى الأبد ، حتى

صارت مجرد ومضة برقت فى التاريخ ومضت مضى البرق الذى لا رجعة له، ثم تصدت هذه أيضاً فكرة أخرى فعلت بها ما فعلت هى بسابقتها وهكذا حتى صار الجميع مجرد حديث يرويه التاريخ ولا أثر له فى الوجود ... أما الدعوة الإسلامية بأفكارها وأهدافها ووسائلها فانها لم تكن بمثابة ومضة البرق التى تضىء فتبهر ثم تختفى إلى غير رجعة ، بل إنها كانت بمثابة الشمس التى أشرقت فأخرجت العالم من ظلام الليل إلى وضح النهار ، ثم اعتورتها سحب منها الخفيف ومنها الكثيف فكانت تحجب من ضوئها بقدر كثافتها حتى خيل إلى بعض المغرورين أنهم استطاعوا أن يستأصلوا شأفة الشمس مضللين من حولهم بكثافة السحب ... ثم لم تلبث هذه السحب الكثيفة أن انجابت فبرزت الشمس ساطعة كما كانت وذهبت السحب إلى غير رجعة « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين » (٣٨ القصص) « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاديبين. فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين » (من ٥١-٥٦ الزخرف)

وهكذا نقرأ التاريخ فتبدو لك شمس الدعوة الإسلامية ساطعة ثم يخبو ضوؤها حيناً – مهما طال ذلك الحين – وراء سحب من المؤامرات التى تحاك لها من داخلها أو من خارجها ، ثم لا تلبث هذه السحب – مهما ادلهم ظلامها – أن تنجلى لتبرز لك شمس الدعوة الإسلامية متألقة كما كانت . ولعل هذا مصداق قول صاحب هذه الدعوة إذ يقول « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ التوبة) وقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ الحجر).

والدوافع وراء المؤامرات التى تدبر للدعوة الإسلامية تنحصر عادة وتنبع دائماً من حب السيطرة الذى يستولى على نفوس بعض الحكام سواء أكانوا من المنتسبين إلى الإسلام بحكم مولدهم أم كانوا من غير المسلمين ، يجد هؤلاء فى الدعوة الإسلامية العقبة الكبرى أمام تحقيق مطامعهم فى السيطرة لأن الإسلام بطبيعته ما جاء إلا لتحرير الانسان والقضاء على الاستبداد والاستعباد لغير الله.

ولتوضيح ذلك يجمل بنا ونحن فى مستهل الحديث عن طور من أطوار الدعوة الإسلامية أن نحاول تصوير هذه الدعوة تصويراً مجملا ، مبرزين الخطوط العريضة المكونة لهيكلها فنجدها ثلاثة هى : أولا : العقيدة ثانيا : العبادة ثالثا : المعاملة

أولا : العقيدة :

هى حجر الأساس وهى الركيزة العظمى التى لا قيام للدعوة الإسلامية إلا عليها ، كما لا قيام لأية دعوة إلا عليها ... ولكل دعوة سواء أكانت ديناً سماوياً أو وضعيا عقيدة. وعلى قدر سلامة العقيدة ينجح العمل المبنى عليها... ونقصد بسلامة العقيدة ، موافقتها للفطرة للعقل والمنطق، ومجافاتها للأوهام والتعقيد ، وتجاوبها مع الفطرة السليمة .

وعقيدة الاسلام لله وحده، هى هى مانزل وما دعا إليه كل نبى ورسول سبق نبينا الكريم، فهى نفس عقيدة المسيح عيسى وعقيدة موسى وعقيدة إبراهيم « قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٨٤ آل عمران) إلا أن أطماع الدنيا وتسلطها على نفوس من آلت إليهم أمور الإفتاء فى شئون الدين بعد الأنبياء فعلت فعلها فجعلت من هؤلاء الورثة أداة طيعة فى أيدى المستبدين من الحكام فحرفوا فى كتبهم وأخفوا منها وزادوا عليها حتى يستقر الأمر لهؤلاء الطغاة من الحكام « وقطعناهم فى الارض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون . فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (١٦٨-١٦٩ الأعراف)

وكيف يستطيع حاكم مستبد أن يحكم قوماً وفى أعماق كل رجل منهم وامرأة وطفل مناد يهتف بهم فى كل وقت من ليل أو نهار أن لا خضوع إلا لله وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وأن لا خوف إلا من الله وأن لا فضل إلا من عند الله « قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ » (١٦٤ الأنعام) . « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير » (الأنعام ١٧) . « قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم » (الأنعام ١٤) . « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » (الزمر ٣٦) . « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم.

إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » (آل عمران ١٧٣-١٧٥)

والعداء بين الطغاة من الحكام وبين العقيدة الإسلامية مستحكم من قديم ، فهذا الحاكم المستبد الذى أحس خطورة هذه العقيدة على استبداده فاستدعى « إبراهيم » عليه السلام وهو فى غرور سلطته وأدار معه حواراً على النحو الذى ورد فى الآية الكريمة « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » (البقرة ٢٥٨) وينهزم الحاكم المستبد حين يدخل مع العقيدة الإسلامية فى الحوار فيطيش صوابه ولا يجد فى جعبته إلا البطش والإرهاب فيأمر بإحراق صاحب هذه العقيدة لعلها تحترق باحتراقه وتبيد ويستريح منها ولا يجد أمام استبداده عائقاً يقف فى وجهه « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون » (العنكبوت ١٧) « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » (العنكبوت ٢٤ ، ٢٥) .

والجلادون فى كل عهد من عهود الاستبداد هم يد الطاغية التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وعينه التى ينظر بها وأذنه التى يسمع بها ، ولولاهم لما قامت لمستبد قائمة ، ولا تلطخت صفحات التاريخ بين الحين والحين بأقذار الطغيان . ولذا نجد القرآن لا يوجه الإنذار للطاغية وحده بل يخاطب معه حاشيته وزبانيته فيقول : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » (الزخرف ٣٩) . « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » (غافر ٤٦) . « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (البقرة ١٦٦ - ١٦٧) . « وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيرا » (الأحزاب ٦٧-٦٨) . « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » (الأعراف ٣٨) .

والقارئ للقرآن حين يقرأ قصة موسى وفرعون ويرى القرآن يقلبها بين صفحاته وفى ثنايا سوره على كل وجه من وجوهها ليبرز من معانى الظلم والاستبداد ومن ألوان الزهو والكبر والغرور من فرعون وحاشيته ومن أفانين الاضطهاد والتعذيب وأصناف التنكيل والإبادة الموجهة إلى العقيدة الإسلامية التى كان يحملها فى ذلك الوقت قلة من بنى إسرائيل ... هذا القارئ سيبين له لماذا يكن الملوك المستبدون والحكام الطغاة الكراهية لهذا الكتاب ولماذا يحيكون ضده المؤامرات فهو يؤجج ثورة عارمة ضد كل مستبد ظالم « طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » (القصص ١-٦) .

ورسالة موسى رسالة واضحة صريحة ، لا تخرج عن كونها دعوة لإنقاذ شعب اضطهده حاكم مستبد لا لشئ إلا لأنه مستمسك بعقيدته التى تتعارض وطغيان هذا الحاكم « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » (الشعراء ١٦-١٧) . ويحس فرعون من موسى قوة وصلابة فيحاول استمالته فيقول له « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » (الشعراء ١٨-١٩) ... وقد يلين الرجل إذا ذكر بهذا الفضل الذى لا يجحد فى كل موقف إلا فى موقف واحد هو موقف يتعلق بالعقيدة التى لا مساومة عليها فيرد عليه موسى فيقول « فعلتها إذن وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين » (الشعراء ٢٠-٢١) ثم يقرر موسى مبدأ خطيراً بأن استعباد الناس جريمة يذهب مع فظاعتها كل فضل أتاه المستبد فيقول « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل » (الشعراء ٢٢) .

ويأخذ الطاغية فى أسلوب يحاول به إخفاء صورة طغيانه فيفعل ما فعل طاغية إبراهيم إذ يدخل معه فى حوار « قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » (الشعراء ٢٣-٢٨) وهنا يفحم الطاغية كما أفحم أخ له من قبل فيفقد صوابه حين رأى نفسه أمام حجج لا قبل له بمكابرتها فيكشر عن أنيابه « قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين » (الشعراء ٢٩)

ولسنا بصدد السير مع قصة موسى وفرعون بكل الوجوه التي قلبها القرآن ، فإن ذلك مجال جد فسيح ، وإنما قصدنا إلى إيراد وجه من هذه الوجوه لندرك منه مدى خطورة هذه العقيدة على طموح المستبدين وآمال الطغاة الظالمين ، وكيف أن هذا الكتاب بما جاء به من عقيدة هو تحد قائم لا ينثني وسيف مصلت لا ينثلم حده في وجه الطغيان والاستبداد .

ثانيا : العبادة :

لا شك في أن العبادة وليدة العقيدة ، وكل عبادة ليست وليدة عقيدة إنما هي نوع من النفاق لأن العبادة هي أقوى مظاهر الاعتراف بالفضل ، ومظاهر الاعتراف بالفضل كثيرة متنوعة ، ولكن قمة هذه الأنواع الاعتراف بالعبودية لصاحب الفضل . ويحث الإسلام الناس على الاعتراف بالفضل للمخلوقين بجميع مظاهر الاعتراف إلا بمظهر العبودية الذي حرمه على الناس إلا لله وحده وجعل الاعتراف بمظهر العبودية لغير الله شركا لا يغفره الله « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » (النساء ٤٨) .

والمقصود من العبادة أولا أن يرى الله تعالى من عباده مدى امتثالهم لأمره . والامتثال هو نوع من الطاعة إلا أنه أعلى درجاتها ؛ فإذا كانت الطاعة هي تنفيذ الأمر فيما يسيغه العقل ويسلم به المنطق فإن الامتثال هو الصدوع بالأمر لمجرد أنه أمر ، وكل مبرراته الثقة الكاملة في الذي أصدره . فإذا أمرنا الله تعالى بخمس صلوات في اليوم والليلة في مواقيت محددة وكل منها ركعات محددة فإن هذا التوقيت وهذا التحديد إذا عرضا على العقل والمنطق لم يجدا لهما تعليلا ولا تبريراً ؛ فالتزامك بأداء هذه الصلوات بهذا التوقيت وهذا التحديد هو امتثال لأمر الله لأنك تؤديها لمجرد أنه أمر من الله عز وجل الذي آمنت به من قبل عن طريق العقل والمنطق .. وفي الامتثال معنى العبودية الكاملة التي أرادها الله حيث يقول «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات ٥٦).

والمقصود الآخر من العبادة هو أن تكون وسيلة للتعرف على الله والتقرب إليه واستمداد العون منه باعتباره سبحانه هو وحده القادر الوهاب الفعال لما يريد .. وإذا كانت الحياة الدنيا بشرورها وغرورها ،سلطة على قلب الإنسان.وإذا كان الإنسان بطبيعته لا يقوى على مدافعة هذه الشرور وهذا الغرور وقد قال الله تعالى في شأن الإنسان «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا» (النساء ٢٨) فما كان أحوجه إلى ركن شديد يأوى إليه وإلى سند منيع يفزع إليه ؛ فكان من فضل الله على عباده أن أتاح لهم فرصاً للفزع إليه والاستمداد منه ؛ فشرع لهم العبادة

صلة بينهم وبينه وباباً يهرعون إليه كلما حزبهم أمر أو قست عليهم نوائب الحياة «ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين » (الذاريات ٥٠ – ٥١) . «ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون » (العنكبوت ٥٦) ... ولذا فإن المؤمن لا يتطرق اليأس إلى قلبه مهما ادلهمت عليه الخطوب وأظلمت فى وجهه سبل الحياة... وكيف يجد اليأس سبيلا إلى قلبه وهو يسمع واهب الحياة ومدبر الأمر وصاحب الملك كله يناديه فيقول «ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (الأعراف ١٥٦) . ويقول «ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (يونس ٥٧ – ٥٨) . ويقول «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فأستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » (الأنبياء ٨٧–٨٨) .

والعبادة تلعب الدور الأكبر فى تكوين الأمة ؛ لأنها تكون الفرد وتصقل روحه وتصفى قلبه وتزكى نفسه وتغسل بما فيها من مناجاة الله صدره . فهو بها دائم التذكر لربه دائم الخوف من عذابه ، دائم الشوق إلى جنته ، يرى الجنة دائماً عن يمينه والنار عن شماله ؛ومثل هذا لايصدر منه إلا فضائل الأعمال ... وما الأمة إلا مجموعة من الأفراد «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (آل عمران ١١٠).

والفرد المسلم فى هذه الحالة لا يندفع إلى قول أو عمل إلا من صميم قلبه لا من آمال تتعلق بمتاع الدنيا ، وكلما شدته الدنيا إلى متاعها ، وجرته إلى مغرياتها ، وحاولت تلويثه بهرجها ، وكادت تغمسه فى فتنتها ؛ سمع المؤذن ينادى إلى الصلاة فكان الأذان منبهاً له من غفلته فيترك ما هو فيه من شأن ويجيب النداء فيتوضأ ويقف بين يدى ربه فيذكر الله بلسانه فينبه لسانه قلبه ثم يستعرض فى صلاته عظمة ربه وجلال فضله وشدة عذابه وواسع مغفرته ومدى رقابة الله عليه ومدى احتياجه إلى عونه فيخرج من الصلاة خلقاً آخر كأنما اغتسل من قذر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول «أريتم لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يترك ذلك من درنه شيئاً ؟ قالوا لا قال ذلك مثل الصلوات الخمس» وكما يقول الله تعالى فى الزكاة «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» (التوبة ١٠٢) . وكما يقول فى الصيام «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ١٨٣) . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج «من حج فلم يفسق ولم يرفث رجع كيوم ولدته أمه»

والأمة التي يتجه زعماؤها وحكامها في تربيتها إلى غير هذا الطريق إنما هي أمة تائهة ؛ لأن القوانين – مهما تضمنت من عقوبة – لا تردع الفرد متى استطاع التهرب من طائلتها فإن حراس القانون لايستطيعون مراقبة كل فرد في كل وقت وفي كل مكان . فإذا لم يكن للفرد رقابة على نفسه من نفسه فهيهات أن تجدى القوانين ... وهذه الرقابة النفسية إنما هي الأثر المباشر للعقيدة والعبادة . فالعقيدة تزرعها في النفس والعبادة تتعهدها فترويها وتنميها وإلى ذلك يشير قوله تعالى « وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون عن عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (يونس ٦١).

والتهرب من القانون وحراسه أمر سهل وميسور ، أما التهرب من الله عز وجل فأمر غير مستطاع ولذا فإن القرآن قدجعل الإيمان باليوم الآخر شرطاً لا يقوم الإيمان إلا به ، ففي فاتحة الكتاب التي يرددها المسلم كل يوم سبع عشرة مرة في صلاته يقول «الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » ويوم الدين هو يوم الحساب .. وفي أول سورة البقرة جعل أول وصف للمتقين الإيمان بالغيب وهو الحساب والجنة والنار « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » وأشار القرآن الكريم إلى أن انفراط العقد وحبوط العمل إنما سببه ومرده عدم الايمان بلقاء الله حيث يقول « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذينهم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون» (يونس ٧–٨).

والأمة الإسلامية التي تربت على هذه الأسس أثمرت فيها هذه التربية ثمراً ستظل روعته مضرب المثل في التاريخ ؛ وحسبنا أن نذكر مثالين وأنموذجين : فهذا «ماعز» وقد زل فأتى خطيئة لم يره أحد حين أتاها ولم يعلم بها أحد ويعرف فظاعة عقوبتها ويعرف أنه أصبح بمنجى من هذه العقوبة لكنه مع ذلك نراه يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له يارسول الله : لقد زنيت . فيحاول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصرفه عن هذا الاعتراف فيقول له : لعلك قبلت فيقول : لا لقد زنيت حتى يقول له : لعلك فاخذت فيقول : لا لقد زنيت ويصر على قوله ويطلب تنفيذ الحد عليه فيأمر رسول الله به فيرجم بالحجارة حتى يموت . فيصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى من عمر تخافاً عن الصلاة عليه بدعوى أنه زان ؛ فيغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول « لقد تاب والله توبة لووزعت علىأهل الأرض لوسعتهم» .

وفى موقعة القادسية لما دخل المسلمون إيوان كسرى وزالت بذلك دولة الفرس وأرسلت الغنائم إلى المدينة ووزعت الغنائم كما شرع الله ولم يعد أحد يشك فى أن كل ماغنم قد سلم إلى بيت المال ؛ تقدم جندى من جنود الموقعة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسلمه أثمن ما كان يملكه كسرى ؛ سيفه ومنطقته وزبرجدته. فنظر إليها عمر وقال قولته المشهورة «إن قوماً أدوا هذا ولم يستأثروا به لذوو أمانة ».

ثالثا : المعاملة :

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين المعاملة».وما من دين أنزله الله وما من نبي أرسله إلا وهو يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس بعضهم مع بعض . ولكن الدعوة إلى حسن المعاملة كانت فى كل ما سبق الدعوة المحمدية دعوة مجملة أو مركزة فى ناحية واحدة ؛ فدعوة هود كانت مركزة فى النهى عن التطاول فى البنيان وفى الاقتصاد فى البطش والجبروت .. ودعوة صالح كانت مركزة فى النهى عن الرفاهة وفى الدعوة إلى العدالة فى اقتسام مياه الرى ... ودعوة لوط كانت مركزة فى النهى عن إتيان الفاحشة... ودعوة شعيب كانت مركزة فى النهى عن الغش فى الكيل والميزان ... وهكذا حتى بلغت الإنسانية رشدها فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة وبالكتاب الكامل الشامل فوضع لكل نوع من أنواع التعامل بين الناس حدوداً مفصلة وقوانين محددة ؛ فوضع أسس تكوين الأسرة كما حدد حقوق الفرد نحو مجتمعه وحقوق مجتمعه عليه ، فعلاقة البيع والشراء والعلاقات التجارية والزراعية وحقوق المال وحقوق العمل كما نص على عقوبات الجنايات ... وحسبك أن تعلم أن أطول آية فى كتاب الله إنما نزلت فى معالجة موضوع الديون وكيفية كتابة وثائقها وهى الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

فالإسلام نظام كامل شامل لإدارة الدنيا فى جميع شئونها ونواحيها ، ولا يصلح أن يقتبس منه جزء يرقع به نظام آخر فكل جزء منه مرتبط ببقية الأجزاء فإما أن يؤخذ بالنظام الاسلامى كله وإما أن يترك كله ؛ فإذا لم ترتكز قوانينه فى المال والجنايات والأسرة على أساسين من العقيدة والعبادة كانت هذه القوانين جسماً بلا روح ... وهذا ما تعانيه بعض الدول الإسلامية التى ظهر فيها زعماء لم يفقهوا هذا المعنى فراحوا يدعون إلى الأخذ بالشريعة الإسلامية فى المال والجنايات فى حين أن شعوبهم فاقدة الأصل الأصيل من العقيدة والعبادة فانتهوا إلى مجموعة من المظاهر التى تنتسب إلى الإسلام تخفى تحتها نفوساً لا تمت بصلة إلى الإسلام وصدق الذى قال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا مانرقع

ورحم الله أستاذنا الإمام فقد كان يقول : إن القاضى الذى صقلت نفسه التربية الإسلامية يستطيع بهذا القانون الوضعى أن يخرج لنا أحكاماً تتفق مع روح الشريعة الإسلامية .. أما القاضى الذى ليس له نصيب من التربية الإسلامية فإنه حتى إذا حكم بالقانون الإسلامى فإن أحكامه تكون مجافية للعدالة وروح الإسلام ...

نعم لابد من أن تكون الشريعة هى قانون البلاد ، ولكن لابد من أن ترافق ذلك تربيةإسلامية على أساس من العقيدة والعادة تكون الفرد المسلم الذى سيكون بمثابة الروح لهذه القوانين ، والذى يصبغ بشخصيته المجتمع الذى يعيش فيه أو يتصل به ، والذى يكون الأداة الفعالة للإبداع فى كل عمل يزاوله ، والذى سيعفى الدولة مما تتورط فيه الحكومات من إنشاء رقابة من فوقها رقابة من فوقها رقابات حتى تضمن من أفرادها أداء ما وكلته إليهم من أعمال .

إن محاولة الإصلاح عن طريق القوانين دون التربية الإسلامية لأفراد الأمة هونوع من البناء على الرمال ... فإذا رافقت التربية الإسلامية الحكم بالشريعة كانت أحكام الشريعة فى هذه الحالة أشبه بالبذور تنزل على أرض أخذت حقها من الإعداد والرى فأنبتت نباتاً حسناً وجاءت بأطيب الثمر ... أما إذا نزلت هذه البذور – وهى فى أجود حالاتها – على أرض وعرة أو أرض سبخة لم تمتد إليها يد الإصلاح فإن جودة البذور لن تغنى عنها شيئاً وستموت على هذه الأرض

ولست أقصد من هذا أن تنتظر الأمة الإسلامية فى عصرنا هذا ممثلة فى دولها حتى تتم تربية شعوبها ثم تبدأ بعد ذلك فى الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية .

وإنما الذى أقصده هو أن تتخلص هذه الدول من تصور خاطىء سيطر على تفكير قادتها ، وهو أن النظام الإسلامى منحصر فى الأخذ بالقوانين الإسلامية ضاربة عرض الحائط بماسوى ذلك من أصول التربية الإسلامية القائمة على الأساسين الركينين من العقيدة والعبادة ... فهذه الدول تريد الأخذ بالقوانين الإسلامية فى الوقت الذى تنشر وسائل الإعلام فيها ليلا ونهاراً وفى كل شارع وفى كل بيت الدعوة إلى الفساد والتهتك والانحلال الخلقى .. تريد الأخذ بقوانين الشريعة وهى تاركة لنسائها الحبل على الغارب لإغراء الشباب المجرد من أسلحة المناعة الخلقية .. تريد الأخذ بقوانين الشريعة وكبار موظفيها وصغارهم لا وازع لهم من ضمير ولا رادع لهم من خلق والقوانين الإسلامية وحدها لا تخلق الضمير ولا تنشىء الخلق .

إذا كانت هذه الدول جادة فى الأخذ بقوانين الشريعة فلتأخذ بها فى الوقت الذى تأخذ فيه بأساليب التربية الإسلامية لشعوبها حتى تكون قوانين الشريعة مدعومة بهذه الأساليب التى

يظهر أثرها في وسائل الإعلام وفي صفوف المدارس وفي مكاتب الموظفين وفي مسلك الرجال والنساء . أما الأخذ بقوانين الشريعة وكل أجهزة الدولة سائرة في خط معاكس لهذه القوانين فهو الذي نرفضه لأنه لن يعود على الأمة بفائدة ولا يكون إلا تشويها لسمعة الشريعة الإسلامية .

ولعمري ما أيسر الحكم بالشريعة الإسلامية فإن ذلك لن يكلف الحاكم شيئاً إلا أمراً بذلك يصدره . أما تربية الشعب وإعداده ليكون شعباً مسلماً تعيش في قلب كل فرد منه رقابة الله فإن ذلك هو الأمر العظيم الذي لا يقدر عليه كل أحد ولا يقدر عليه إلا كل عظيم من الناس ؛ لا يقدر عليه إلا القدوة الحسنة.وتحول الفرد إلى أن يكون قدوة حسنة يقتضيه الكثير من التضحيات فهذه هي الوظيفة الكبرى للأنبياء ولايقدر على ذلك من بعدهم إلا ورثة الأنبياء على أن لا يكونوا من الأدعياء .

النشأة :

رأيت أن أبدأ بهذه العجالة التي ترسم الخطوط العريضة للفكرة الإسلامية ، والتي يتبين منها مدى خطورة هذه الفكرة على ذوي المطامع من الجبارين والمستبدين والمستعمرين ؛ ولذا فإن الذي شرعها — عز جاره وجل شأنه — شرع معها الجهاد لحمايتها والذود عنها وجعل هذا الجهاد ذروة سنامها كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه الفكرة بهذا التخطيط والشمول لم يكن لها — منذ خمسين عاماً — وجود في أذهان المسلمين في أنحاء الأرض ، وإنما كان الموجود منها في الأذهان نتفاً وأجزاء .. وكان هذا نتيجة خطط محكمة اختطها الاستعمار الذي كان إذ ذاك مسيطرا على جميع البلاد الإسلامية ، وقد تمكن بهذه الخطط من مسخ الفكرة الإسلامية في أذهان الناس ؛ فأصبحت العقيدة مجرد ألفاظ تلوكها الألسن في حلقات الذكر فاقدة معانيها ؛ فمعنى تحدى الظلم الذي هو أبرز معاني العقيدة حل محله الدعوة إلى العزلة وتحريم التصدي للحاكمين مهما طغوا وظلموا بل وتحريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكانوا إذا رأوا أحداً يتصدى لذلك يقولون له : دع خلق الله في ملك الله» ، «لايقع في ملكه إلا مايريد» «يأيها الذين آمنو عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » (المائدة ١٠٥) .

مع أن الانحراف بهذه الآية الكريمة عن معناها إلى عكسه هو الذي حمل أبا بكر رضي الله عنه وهو على المنبر أن يفسرها ويقول للناس «إنكم تحملون هذه الآية على الدعوة إلى العزلة وترك

الناس تفعل ما تشاء ألا إن معناها هو أن الله تعالى يأمر المؤمنين بأن لا يسيروا فى ركب أهل الضلال مهما كثروا وقويت شوكتهم بل على المؤمنين أن يخالفوهم ويتمسكوا بكتاب الله ... وناهيك بالتمسك بكتاب الله وما فيه من حث على الجهاد ومقاومة للظلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وكان الناس يؤدون العبادة بنفس هذا المعنى الميت ؛ فهى طقوس تؤدى وحركات وألفاظ يرثها جيل عن جيل ليس لها هدف ولا مغزى ... حتى الدروس فى المساجد لم تكن أكثر من حلقات للتسلية والامتاع... وبهذه الصورة لم يكن المستعمر وأذنابه من الحكام يعارضون فى بناء المساجد وفى إتيان الصلاة وإلقاء الدروس بها لأنها لم تكن مصدر إقلاق لهم بل كانت وسيلة من وسائل إشاعة روح التخاذل والإلهاء والخضوع فى الناس على حد ما كانوا يقولون : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وكان الذين يفهمون الإسلام فهماً صحيحاً قلة من الناس . ومن فضل الله على أن أهلى وأسرتى كانوا من هذه القلة . لأنهم لم يأتوه عن طريق رسمى فى مدارس الحكومة وإنما تلقوه من أصوله فى أمهات الكتب التى كانت تزخر بها مكتبتهم التى ورثوها كابراً عن كابر وكان كل جيل يزيد فيها .

ولا شك فى أن أعظم عامل يؤثر فى حياة الفرد هو البيئة التى أحاطت به فى نشأته فإنها كفيلة أن تحدد له اتجاهه فى الحياة لأنها تسكب فى قرارة نفسه وتختلط مع مهجة قلبه وتحفر فى ثنايا عقله قيمها ومفاهيمها ... وهكذا نشأت فى بيئة تجمع بين الدين والعلم والأدب والوطنية ؛ فلقد كانت أسرتنا برشيد متميزة بكل هذه المعانى وكان لها مدرسة تخرج فيها جيل من الناشئين على يدى عمين لى كانا أمة كاملة للسمو البشرى بمختلف ألوانه ؛ فلقد كانا يعيشان لا لنفسيهما بل للمجتمع الذى نشآ فيه ، فكانا قادة كل حركة تقاوم الظلم والاستبداد والاستعمار . عاشا ماعاشا يبذلان ولا يأخذان ، وينفعان ولا ينتفعان .. لم يكونا من حملة الشهادات الدراسية لكنهما كانا طودى علم وأدب

من آثار البيئة :

معذرة للقارىء فقد أكون شغلت جانباً من وقته بحديث قد لا يعنيه ولكن من حق أصحاب الفضل أن يذكروا ... وأعود إلى السياق فأقول ؛ فى هذه البيئة نشأت فوجدت بين يدى كتباً كانت غذاء لعقلى ومهذباً لطبعى . ورأيت بين يدى مثلا حيه لكثير من أروع ما قرأت ؛ فلقد

كان اتصالى بعمى هذين أكثر من اتصالى بأمى وأبى ... وكنت الابن الوحيد فى تلك الآونة للأسرة كلها فعمل كل على بثى كل ماعنده، وعلى تنشئتى على الصورة التى هى فى قرارة نفسه .. وقد هيأ لى هذا الاتصال أن أقرأ وأنا بعد فى سن مبكرة فى دراستى الثانوية كتباً ذات شأن كشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ووفيات الأعيان لابن خلكان ورسالة التوحيد لمحمد عبده والعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للجاحظ والكامل لأبى العباس المبرد كما قرأت ديوان أمرىء القيس وديوان المتنبى وديوان البارودى والمعلقات السبع وغيرها من أمهات كتب الدين واللغة والأدب .

ويجدر بى فى هذه المناسبة أن ألفت النظر إلى الأدب العربى شعره ونثره وإلى ماينطوى عليه هذا الأدب من توجيهات إلى السمو بالنفس عن الدنايا وإلى تبصير الإنسان بما يجعله إنساناً موفور الكرامة . مرفوع الرأس محبباً إلى الناس فهو يوضح له المواقع التى عليه أن يتجنبها وتلك التى يسلكها ويعلمه كيف يعامل الناس وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة» ويخيل إلى أن الحكمة الهادية لا يكاد يجدها المرء بعد كتاب الله وحديث رسوله إلا فى كتب الأدب نثراً وشعراً حتى إنه ليبدو لى أن الأديب حين يكتب وأن الشاعر حين يقول الشعر تتولاه حالة يكون مهيأ فيها لنوع من الإلهام فتراه يضمن كلامه أو شعره حكماً سامية وتوجيهات رائعة ينتفع بها قارئها وقد لا ينتفع هو بها ... ولعل فى هذا إشارة إلى قول الله تعالى «والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم ترأنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا» .. (٢٢٤ – ٢٢٧ الشعراء)

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقة زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى التى منها :

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة — يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه — وإن يرق أسباب السماء يسلم
ومهما يكن عند أمرىء من خليقة — وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال عليه الصلاة والسلام «هذا من كلام النبوة »

وإنك لواجد فى أشعار الشعراء من التوجيهات والحكم مالا تجده فى غيرها وما يوجهك أحسن توجيه فحين تسمع قول الشاعر :

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع

تعرف كيف تسوس نفسك وتحملها على مالا يعيبك وتخرج بذلك من إسار العرف الذى يدعى أن النفس طبعت على طبائع لايمكن التخلص منها   وحين تسمع هذين البيتين :

بلاء ليس يعدله بلاء   عداوة غير ذى حسب ودين

يبيحك منه عرضاً لم يصنه   ويرتع منك فى عرض حصين

تعرف كيف تعامل من لاأخلاق لهم من الناس فلا تحتك بهم ولا تعاملهم معاملة الند للند......

وحين تقرأ :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها   هواناً بها كانت على الناس أهونا

فهمت أن احترام الناس لك مرهون باحترامك لنفسك

وذكر عن على كرم الله وجهه أنه لما بلغه وفاة طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : رحم الله أبا محمد فقد كان كما قال الشاعر :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ماهو استغنى ويبعده الفقر

وأنشد النابغة الجعدى النبى صلى الله عليه وسلم شعره حتى وصل إلى قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

والشعر المأثور عن شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام فى صوره المختلفة وأغراضه المتباينة يزخر بدرر من التوجيهات والحكم لا يمكن تعليل ورودها على ألسنة قائليها إلا بأن وضع الإنسان نفسه فى المجال الموسيقى للشعر يجعله فى تواؤم مع تلقى نوع من الإلهام .

وقد أردت بهذه الإلماحة إلى فضل الأدب والشعر فى توجيه الناس إلى المحامد وصرفهم عن المثالب أن ألفت نظر الجيل الناشىء إلى أن ينظروا إليهما نظرتهم إلى منهل يعينهم على تكوين شخصيتهم المسلمة .

ولولا خصال سنها الشعر مادرى   بغاة العلا من أين تؤتى المكارم

ورضى الله عن الفاروق عمر الذى كان يقول : الشعر ديوان العرب .

التعلق بالقرآن :

إن النفس العربية ، فى البيئة العربية ، وفى جو الأدب الرفيع الذى يدفع إلى السمو ؛ يجد المرء نفسه جاثياً أمام كتاب الله العزيز ، ناهلا من صافى سلسبيله ، مسترويا من عذب مائه ... وهكذا وجدتنى منذ الصغر وأنا فى سن السابعة أجلس بين يدى كتاب الله ، أتلو منه وحدى والله وحده يعلم هل كنت فى أول عهدى به كثير الخطأ فى تلاوته أم قليله .. لأنى لم أكن أتلو أمام غيرى ... وقد جربت فى إحدى الأجازات الصيفية وأنا فى تلك السن المبكرة أن ألتحق بأحد الكتاتيب فى رشيد فلم ترقنى طريقتهم التى تعتمد على الاستظهار والحفظ دون التلاوة ، فانقطعت عنه واكتفيت بالتلاوة المنزلية ؛ فكنت أقرأ المصحف بالترتيب ، ولم أكن – كما قدمت – أوقن أنى أقرأ قراءة صحيحة إلا أنى تنبهت بعد فترة من الزمن – نحو خمس سنين – حين كنت فى أوائل الدراسة الثانوية فوجدتنى ماهراً فى تلاوته ، واستطعت فى خلال دراستى الثانوية أن أجمع إلى المهارة فى التلاوة الحذق فى التجويد دون أن يكون ذلك عن دراسة منظمة لفن التجويد ؛ فاللسان العربى قادر بطبيعته مع القليل من التوجيه والملاحظة على النطق الصحيح وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ... وقد تكون مداومتى على التلاوة دون انقطاع مما سهل لى هذا الأمر .

أول فراق لرشيد :

لم يكن برشيد فى ذلك الوقت مدارس ثانوية ، فكان على أن أرحل إلى الاسكندرية ، وكم كان ذلك شاقاً على نفسى وعلى نفس والدى .. إلا أننى أفدت الكثير من هذا الفصال الذى فطمنى عن عهد الطفولة وأحيا فى نفسى عوامل الرجولة والاعتماد على النفس ، وأوجدنى فى بيئة صممت مزاياها إلى مزايا البيئة التى نشأت فيها ... نعم كنت طالباً «داخلياً» تعد المدرسة لى الطعام والمنام ووسائل النظافة لكن هذا ليس كل شىء فى الحياة ... لقد تعرفت على أقوام من شتى البلاد وخالقتهم وعاشرتهم وأضفت إلى أصدقائى التقليديين من أهل بلدتى أصدقاء آخرين من بلاد أخرى وكان ألصقهم بنفسى الطالب محمد جمال الدين نوح الذى كان والده زميل والدى وكانوا مقيمين فى الاسكندرية إلا أنه كان طالباً «داخلياً» .

ومن أجمل مزايا نظام «الداخلية» تنظيم حياة الطالب ، فالاستيقاظ من النوم فى الصباح فى موعد محدد ، والإفطار الجماعى فى موعد محدد والغداء والعشاء كذلك والوجبات التى تقدم على

مدار الأسبوع أنواع محددة ، ثم المذاكرة فى مكان محدد وموعد محدد وتحت إشراف أستاذ يوجهه ويعين ، ثم النوم فى موعد محدد .

كانت فترة دراستى الثانوية فى الاسكندرية فترة إنضاج فكرى وروحى لى : فلقد دخلت هذه المرحلة فى سن الثانية عشرة وأنا مزود بشحنات من نور القرآن، وبثقافة سياسية وأدبية — وقد أفردت لأول مرة دون من كنت أستمد منهم وأتلقى عنهم — فوجدتنى مهيأ لدور قيادى فى هذه المدرسة . فبغير إرادة منى وجدتنى قدوة يقتدى بى زملائى فى المدرسة ؛ فصلاى التى كانت تلازمنى بجانب فراشى جعلت كل من تهفو نفسه إلى الاستقامة والخير يتجه إلى ؛ ثم فى مسجد المدرسة — وكان مسجداً عظيما . وجدتنى أوجه زملائى .

ومما يدل على أن التدين لا يرتبط بدراسة معينة أن هذه المدرسة كانت تعج بمدرسى اللغة العربية والدين من المتخرجين فى الأزهر ودار العلوم ، ومع ذلك فلم يكن يصلى معنا فى هذا المسجد من المدرسين إلا مدرس واحد هو الأستاذ عفيفى مدرس المواد الاجتماعية ، وهو الذى كان يؤمنا ، كما أن ناظر المدرسة حين رأى إقبال الطلبة على الصلاة فى المسجد انتدب الأستاذ عفيفى ليؤمهم .

ولا أنسى هنا أن أشيد بذكر رجل كان له فضل على كبير فى تنمية ثقافتى الإسلامية ، ذلك هو الشيخ محمد على أمين ، الفراش النوبى المختص آنذاك بمغسل المدرسة ، فقد كان هذا الرجل عالماً عابداً ذا خلق ودين . وكان يقتنى أقيم الكتب ، فقد قرأت من كتبه غير قليل من زاد المعاد لابن القيم والفتاوى الكبرى لابن تيمية وشرح مسلم للنووى والمجموع فى فقه الشافعى للنووى أيضاً وغير ذلك مما غاب عن خاطرى الآن بعد هذه المدة الطويلة ... وهو الذى دلنى على تفسير القرطبى وقت أن بدأت دار الكتب المصرية فى طبعه .. كان هذا الرجل مهذباً كريم المعشر عالى النفس مثلا حياً للإسلام ، وكنت أحترمه كما احترم أقرب أساتذتى إلى نفسى ؛ ولم يكن يدخر وسعاً فى معاونتى على الإلمام بمختلف القضايا التى تتصل بالإسلام ... وكان عضواً فى جمعية أنصار السنة المحمدية بالاسكندرية ؛ ولهذه الجمعية مزايا لا تنكر ؛ أهمها أنها دلت المنتسبين إليها على كنوز من الكتب الإسلامية عفى عليها زمن التخلف الذى شمل العالم الإسلامى بضعة قرون ، ومن بينها كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وكتب السنة عموماً ؛ لقد كان من معالم تقهقر المسلمين فى القرون الأخيرة هجرهم كتب السنة والاكتفاء بتآليف المتأخرين ، وكان كل متأخر يعلق على كلام سابقه حتى نسيت السنة فى غمار هذه التعليقات والمجادلات اللفظية .

ومن حق هذا الرجل على أن أنوه بفضله ، وأن أدعو الله له أن يحسن جزاءه لأن له عندى يداً لا أنساها ؛ فإنه أحس حين لقينى فى غمار عمله ضمن من يلقى من الطلبة أنى أهل لتوجيهه ، وكنت بعد فى سن مبكرة حوالى الثانية عشرة ، ومثلى لم يكن ليستطيع فى مثل هذه السن أن يقرأ فى أمهات كتب الفقه والسنة ، فكيف كشف هذا الرجل بنافذ بصيرته استعدادى للقراءة فى مثل هذه الكتب ؟ لقد كان رجلا متقد الذهن نافذ البصيرة ، كنت تقرأ فى قسمات وجهه وفى بريق عينيه ، وفى شحوب وجنتيه ، وفى وضاءة جبينه ، مع وسامة وهدوء ؛ كنت تقرأ فى ذلك سمة قوام الليل صوام النهار .

ومع أنه كان عضواً بارزاً فى جماعة أنصار السنة المحمدية كما قدمت ، غير أنى – وقد عاشرته خمس سنوات – كانت كلها مدارسة ومناقشة لم أسمع منه كلمة واحدة عن آيات الصفات والاستواء ؛ مع أن أعضاء هذه الجماعة – وقد احتككت بهم فيما بعد فى القاهرة وكانت لى معهم تجارب ومواقع – لم يكن لهم حديث مع الناس حتى العوام منهم إلا عن هذه الآيات التى فرقت آراؤهم فى تفسيرها المسلمين وغرست بذور العداء فيما بينهم ... ولا عجب مع ذلك فى تجنب عضو بارز كالشيخ محمد على أمين الخوض مع الناس فى مثل هذه المواضيع فإن المنشغل بمهام الأمور لايجد وقتاً لسفسافها وصدق البارودى إذ يقول :

ودع من الأمر أدناه لأبعده　　　　فى لجة البحر مايغنى عن الوشل

لقد ازددت على يد هذا الرجل علماً وفقهاً وتعرفت على رجال فى تاريخ الدعوة الإسلامية والفقه الإسلامى لا ينبغى لمسلم يتصدى للدعوة الإسلامية أن يجهلهم كابن تيمية وابن القيم ومحمد ابن على الشوكانى وهو إمام يمنى من أهل القرن الثانى عشر الهجرى أحيا بمؤلفاته مااندثر من السنة ولعل أشهر كتبه «نيل الأوطار» .

وقد لا يكون خروجاً عما نحن بصدده الآن أن نتوقف لحظة عند ابن تيمية .. فهذا الرجل وهو إمام الأئمة ليس له من الآثار ، فى عالم الكتب والتأليف ما يصلح أن يسمى مؤلفاً ؛ فآثاره رسائل صغيرة أكبرها ما يسمى «بالفتاوى الكبرى» ولا يخرج عن كونه مجموعة من الفتاوى صدرت عنه فى مناسبات متفرقة جمعها أحد تلاميذه ... ذلك أن هذا الإمام لم يكن همه موجها إلى تأليف الكتب وتصنيفها لأنه كان منشغلا بما لم يكن أحد يقدر عليه غيره وهو حمل لواء الدعوة الإسلامية ، فهو الذى هدى الله على يديه التتار حين تحدث مع زعمائهم فكان إسلام التتار من المواقف الحاسمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية بل وفى تاريخ العالم... لم يكن وقته يتسع للتأليف

والتصنيف ولكنه استطاع أن يؤلف رجالاً منهم ابن القيم الذى ملأ الدنيا كتباً ومؤلفات تعد من أعظم ذخائر المكتبة الإسلامية .

ولما كان ابن تيمية هو حامل لواء الدعوة الإسلامية فى عصره ، كان كثير الأتباع كما كان كثير الأعداء ،وأعداء الدعاة عادة هم من الحكام أو من اللائذين بالحكام ، وقد غلت مراجل الحقد فى صدور هؤلاء اللائذين من أدعياء العلم على ابن تيمية لا لتفاف الناس حوله ، فوشوا به عند السلطان الذى أودعه السجن حتى مات فيه ، وانتهت حياته بما تنتهى به عادة حياة حملة لواء هذه الدعوة فى كل زمان .

بلورت دراساتى الخاصة فى منزلنا ثم دراساتى على يدى الشيخ محمد على أمين فى المدرسة بلورت الفكرة الإسلامية فى رأسى بحيث تحددت صورتها تماماً ، واختمرت هذه الفكرة ، ولم يكن بد بعد ذلك من أن أوضحها لزملائى ؛ وأتيحت لى الفرص واستجاب كثيرون وكثر المصلون وشعر الجميع سواء فى ذلك زملائى الطلبة وأساتذتى ورجال إدارة المدرسة بأننى الذى يمثل الدعوة الإسلامية ؛ فكانت المدرسة إذا رغبت فى الاحتفال بمناسبة تمت إلى الإسلام بصلة دعتنى للاشتراك مع الإدارة فى تنظيم الحفل ، وكنت أؤم المصلين فى المسجد فى غياب الأستاذ عفيفى .. وكان المشرف على الداخلية — بعد أن هداه الله إلى الصلاة — يرسل إلى كل صباح من يأخذ مصلاى ليؤدى عليها صلاة الصبح .

فى أجازات الصيف

كان طبيعياً أن تكون أجازة الصيف فى رشيد فرصة سانحة لعرض الفكرة الإسلامية بالصورة التى اكتملت فى خاطرى على أصدقائى وزملائى ... وكان مما هيأ لى أحسن الفرص أننا — أنا ومجموعة من أترابى — قد تعودنا على أداء أكبر عدد من أوقات الصلاة فى مسجد «المحلى» ثم ننطلق بعد صلاة العصر إلى الرمال فى خارج رشيد للترييض معاً ... وكان زملاؤنا الطلبة الذين يكبروننا سناً قد أنشأوا نادياً سموه «نادى الطلبة» لم يكن نشاطه يتعدى الاجتماع فيه للمرح واللهو ولم يكن هذا أسلوبنا ... فلما استجاب لى كثير من الأصدقاء والزملاء فكرنا فى إنشاء جمعية لنشر هذه الفكرة ، واستقرت الآراء على تسميتها : «جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وقد اتخذت مقراً لها مؤقتاً فى منزلنا حيث كانت مدرسة أعمامى تعمل نهاراً ، ونستغل نحن المكان لنشاط الجمعية ليلا ... وقد عكفنا على وضع القانون الأساسى لهذه الجمعية ... ومع أننا كنا

صغاراً فإننى لا زلت أذكر أن المواد التى تضمنها هذا القانون قد شملت كل الأهداف الإسلامية ، وأحاطت بما تحتويه من معالجة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأشرنا إلى وجوب إيجاد صلات بين المسلمين فى أنحاء الأرض باعتبارهم أمة واحدة ... وكان هذا فى ذاته أمراً عجباً لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا يفهمون الإسلام على هذه الصورة .

ثم انتقلت الجمعية إلى دار فسيحة فى وسط المدينة تبرع بها والد عضوين معنا وكان لهذه الدار فناء فسيح . وكانت الدار تزخر طيلة اليوم والليلة بعدد كبير من الطلبة وغير الطلبة من الشباب العامل فى مختلف الحرف ، وقد تعرف هؤلاء على الجمعية نتيجة ما كانت تقيم من حفلات تلقى فيها المحاضرات والخطب والقصائد كلها فى شرح الفكرة الأسلامية وفى إيقاظ الهمم لإحياء مجد الإسلام .

وفى صيف سنة تالية كثر عدد الأعضاء وأقبلت عناصر جديدة كانت تستنكف من قبل أن تشترك معنا فلما رأوا نجاح جمعيتنا رأيناهم يأتوننا هرولة .

جمعية الشبان المسلمين برشيد

ضاقت الدار التى كنا نشغلها بالوافدين الجدد الذين تركوا نواديهم وقدموا إلينا ، وما كان لنا أن نرد قادماً أو نرفض وافداً ؛ وسر إخواننا بهذه الوفود الجديدة ؛ ولكننى كنت منقبض الصدر لأننى أعلم أن هؤلاء الوافدين لم يدفعهم إلينا إيمانهم بفكرتنا بل كان الدافع لهم أنهم رأوا لنا نجاحاً أرادوا أن يستغلوه فى الظهور والبروز ... ولم يكن بد من فتح الأبواب لهم ، فلما استقر بهم المقام اقترحوا أن تتخذ الجمعية اسماً آخر غير اسمها ، وصوروا للأعضاء الآخرين من إخوانى وزملائى أن اتخاذ اسم مشهور يبرز الجمعية فى المجتمع ويعلى صوتها ويرفع مكانتها واقترحوا أن يكون الاسم الجديد هو جمعية الشبان المسلمين برشيد ، واستقر الرأى على ذلك .

وكان لى خبرة بجمعية الشبان المسلمين بالاسكندرية فى ذلك الوقت حيث كان لى زميل بالمدرسة مشتركاً فيها وعضواً فى فريق كشافتها وفهمت منه أن هذه الجمعية تهتم بالنواحى الرياضية ولا تولى الناحية الدينية اهتماماً يذكر فلما جلسنا لوضع القانون الأساسى لهذه الجمعية اشترطت على اللجنة المنوط بها هذا الأمر – وكنت عضواً فيها – أن ينص على أن هذه الجمعية برشيد لاعلاقة بينها وبين جمعيات الشبان المسلمين فى القاهرة والاسكندرية وتمسكت بهذا الشرط حتى أجازته اللجنة .

واتخذت الجمعية لأول مرة مقراً مستقلا بأجر شهرى وفى أبرز مكان فى المدينة واتسعت وذاع صيتها حتى أن النحاس باشا – وكان فى ذلك الوقت زعيم البلاد غير منازع – كان مدعواً فى حفل كبير أقامته له لجنة حزب الوفد برشيد، لم يقم بعد انتهاء الحفل بزيارة لأى مكان أو لأية شخصية إلا لهذه الجمعية ؛ والطريف أنه حين قدمنا له دفتر الزيارات ليكتب لنا كلمة فيه سألنا قائلا : هل جمعيتكم هذه فرع من جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة فنفينا ذلك وأطلعناه على قانون الجمعية ومافيه من نص على ذلك فابتسم وقال : لو كانت جمعيتكم فرعاً من جمعية القاهرة ماقبلت أن أكتب لكم شيئاً. ومع أن الجمعية قد استكملت مظاهر الأبهة وتقاطر الناس على الاشتراك فيها فكثرت أموالها إلا أننى كنت أرى عوامل الفشل تدب فى أعضائها وتنخر فى عظامها لقد كثر المتسللون إليها من ذوى الأغراض وطلاب المناصب وعشاق المظاهر وصار من الصعب مقاومتهم حيث صاروا أغلبية فحولوا الجمعية عن أغراضها ولم تعد أكثر من ناد يؤمه الفارغون والمتسكعون فقررت البعد عنها وأعلنت ذلك للجميع .

افتقاد الضالة المنشودة

أعلنت انفصالى عن الجمعية التى أنشأتها ؛ وحملت معى فكرتى الإسلامية التى تمكنت من نفسى تمكناً جعلنى أزن بها كل ما يعرض على ، وأقيس بها ما يقدم لى . ولم أخرج من هذه الجمعية وحدى بل خرجت بالمجموعة التى كنت بثثتها ماعندى من أحاسيس وأفكار ، ولم نكن هذه المجموعة من علية القوم ولامن أكبر مثقفيهم لكنها كانت مجموعة مؤمنة بما أؤمن به وتضطرم نفسها بما تضطرم به نفسى ، وهى المجموعة التى التفت حولى من أول يوم .

كانت وطأة الاستعمار على البلاد على أشدها ، وكان فى البلاد أحزاب يدعى كل منها أنه صاحب الفكرة المثلى لمقاومة الاستعمار فكان حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطنى وحزب الاتحاد ... وبدراسة هذه الأحزاب تبين لى أن الوفد أكثرها جداً وبذلا وتضحية ، واتصالا بالجماهير ومعاداة للملكية فركنت إليه ...

وظهرت فى ذلك الوقت جمعية مصر الفتاة التى أنشأها الأستاذ أحمد حسين المحامى ، وكانت تصلنا فى المدرسة مجلتها «الصرخة» تفيض بالحماسة الدفاقة ؛ وكنت أميل إليها باعتبارها فكرة ناهضة إلا أننى لم اتخذها لى مبدأ وفكرة لأن نفسى كانت تشمئز من الانتهاء إلى التراب ، واتخاذ مصر إلها نقدم له القرابين ؛ إذ كان مبدأها «مصر فوق الجميع» وهو ادعاء على غير أساس وتمييز عنصرى يستطيع كل جنس أدعاءه وما أنزل الله به من سلطان .

وكان «لمصر الفتاة» فى تلك الحقبة إنجاز يستحق التسجيل إذ كان لباس الرأس فى تلك الأيام هو الطربوش المصنوع من الصوف أو الجوخ الأحمر ، ولم يكن أحد يجرؤ على كشف رأسه أو تغطيتها بشيء آخر غير الطربوش ، وكان هذا الطربوش يصنع فى خارج البلاد . فنادى الأستاذ أحمد حسين بتمصير لباس الرأس وتكونت لجنة بمشروع سمته «مشروع القرش» يجمع من المواطنين قروشاً لبناء مصنع فى القاهرة لصنع الطرابيش ونجح المشروع فعلا وأنشىء المصنع ولبس المصريون من انتاجه واستغنوا عن استيراده .

كنت أميل إلى الوفد باعتباره الحزب الذى يقف للملك بالمرصاد ؛ إلا أننى كنت أحس بأن فى الفكرة الإسلامية الغناء عن هذه الأحزاب ؛ ولكن الميدان فى مصر خلو من جماعة تبرز هذه المعانى السياسية فى الفكرة الإسلامية ... وهذا هو الذى كان يحملنى على الانتساب إلى الوفد آملا فى أن أجد فى يوم من الأيام الجماعة الإسلامية التى تملأ هذا الفراغ .

إلى الجامعة فى القاهرة

أول لقاء عابر لى مع الأستاذ حسن البنا

بعد حصولى على شهادة الثانوية العامة نزحت إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة التى كانت تسمى فى ذلك الوقت بالجامعة المصرية لأنها الجامعة الوحيدة فى البلاد ...

وكان أصدق صديق لى خلال دراستى الثانوية – كما قدمت – زميلى محمد جمال الدين نوح ، وكان والده زميل والدى وصديقه ... وقد توطدت الصداقة بينى وبين جمال إلى حد أننا لم نكن نطيق الافتراق ..... وكانت المدرسة قد رشحتنى وجمالا أن نكون من العشرة الأوائل فى شهادة الثانوية العامة معتمدة فى ذلك على مقدرتنا العقلية إلا أن طبيعتنا فى عدم الصبر على الاستظهار لم تتح لنا فرصة أن نكون من العشرة الأوائل كما أملوا فينا ولكننا حصلنا على مجموع لا بأس به

لأول مرة فى حياتى سافرت وزميلى جمالا إلى القاهرة لنلتحق بإحدى الكليات .. وحين وصلنا إلى القاهرة قال لى جمال إن والده أوصاه أول ما يصل إلى القاهرة أن يزور صديقاً له وكان فى يوم من الأيام تلميذاً له أسمه «الأستاذ حسن البنا» وقال لى إن والده أعطاه عنوانه وهو رقم ٥ حارة الروم بالغورية وانطلقنا نبحث عن هذا العنوان فى أحشاء حى عريق فى القدم حتى وصلنا إليه فرأينا بيتاً على الطراز العتيق يشبه الربع وسألنا فيه عن الأستاذ حسن البنا فصعدنا عدة درجات

من سلم جانبي ودخلنا غرفة كبيرة ثبت على جدرانها رفوف خشبية مملوءة بالكتب والمجلدات ، ورأينا مكتباً تحيط به الرفوف من كل جانب يجلس إليه شاب أبيض الوجه مستديره ذو لحية سوداء يرتدى بدلة وعلى رأسه طربوش ؛ فكان هذا منظراً عجيباً حيث لم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت أن يكون أحد معفياً لحيته إلا ويرتدى جبة وعمامة ... فلما رآنا ترك مكتبه وتلقانا بترحيب حار ، وقال إن الأستاذ محمد خلف نوح أستاذى ... وتحدث معنا فيما جئنا إلى القاهرة من أجله وشجعنا على مواصلة الدراسة وألح علينا أن ننزل فى ضيافته فشكرناه ؛ فطلب إلينا أن نتصل به فى كل ما يلزمنا وانصرفنا ؛ ولكن صورة هذا الرجل وحديثه وأسلوبه وأدبه وجلوسه وسط هذه الأكوام من الكتب واللافتة التى رأيناها تعلو باب هذا البيت المكتوب عليها «الإخوان المسلمون» تشغل أفكارنا .

والتحقنا معاً بكلية العلوم فكنا فى صدر المقبولين بها وخيرنا بين البقاء بها والانتقال إلى كلية الطب لكبر مجموعنا فرأى جمال البقاء فى كلية العلوم ورأيت أنا أن أحول أوراق إلى كلية الزراعة وكان لهذا التحويل قصة قد ارجع إليها عند الحديث عن الشيخ طنطاوى جوهرى إن شاء الله .

كيف تعرفت على الاخوان المسلمين

كنا آنذاك فى السنة الدراسية ١٩٣٥-١٩٣٦ وكانت هذه السنة سنة نشاط سياسى كبير ، إذ أعقبت بضع سنوات تولى الحكم خلالها إسماعيل صدقى وفعل – كما أفهمنا زعماء الوفد – بالبلاد الأفاعيل ، وكان من هذه الأفاعيل أنه ألغى دستور سنة ١٩٢٣ ووضع دستوراً بدلا منه سماه دستور سنة ١٩٣٢ كنا ندرسه فى التربية الوطنية فى السنة الثالثة الثانوية وإن كنت الآن قد نسيت محتوياته إلا أننى أذكر أنه فى مجموعه كان يهدف إلى الحد من سلطة الشعب – وكانت الدولة المستعمرة – بريطانيا – تؤازر هذا الاتجاه ... وكنت فى مساء كل يوم أذهب إلى مقر حزب الوفد وكان يسمى «النادى السعدى» وكان يفد إليه خليط من الطلبة وصغار الموظفين والعمال والتجار كما كان أقطاب الحزب يحضرون ... وقد رأى هؤلاء نشاطى فى إقناع الوافدين من الطلبة بفكرة الوفد فأعدوا لى مكتباً بالنادى ... وفى تلك السنة أنشأ الوفد كتائب القمصان الزرقاء فكنت أحد أفراد أول نواة لها وكانت هذه النواة كلها من طلبة الجامعة والأزهر وكان يقودها طالب بكلية الطب اسمه محمد بلال .

أما اليوم الدراسى فى الكلية فكانت تتخلله فترات لا بأس بها من الفراغ كنت استغلها فى

إدارة نقاش سياسى مع الطلبة فى فناء الكلية ، وكان النقاش فى بعض الأحيان يحتدم ويطول ويزداد عدد الطلبة الملتفين حولى ومنهم من يأتف للاشتراك فى المناقشة ومنهم من يلتف لمجرد السماع والملاحظة ، وتنتهى أكثر هذه المناقشات عادة بكسب أنصار للوفد.

وفى أثناء إحدى هذه المناقشات تقدم إلى طالب وأسر فى أذنى أنه يريد أن يتحدث إلى حديثاً خاصاً بعد انتهاء المناقشة ... وانهيت المناقشة فى وقت مناسب ؛ وانتحيت وهذا الطالب جانباً فقال لى : أنا زميل لك بالسنة الأولى ومن الفيوم واسمى «اسماعيل الخبيرى» وأنا خالى الذهن عن أية أفكار أو مبادىء ، وقد استمعت إليك كثيراً وأعجبنى أسلوبك فى المناقشة وأحس فيه الصدق والإخلاص ، وقد رأيت أن اسلمك نفسى لتوجهنى إلى المبدأ الذى تختاره لى ... وأنا أراك تدافع عن الوفد فهل تختار لى أن أكون وفدياً ؟...

فقلت لا ... فتعجب الشاب من هذا الرد الذى لم يكن يتوقعه ... قال : كيف نكون وفدياً ولا تختار لى أن أكون كذلك ؟... قلت إنك شاب عديم الخبرة بالمبادىء والأفكار ، وقد استشرتنى والمستشار مؤتمن . ولا أرضى لنفسى أن استغلك منتهزاً فرصة خلو ذهنك لأحشوه بما أريد .

قال : إذن لماذا ترى ؟....

قلت : الذى أراه أن تذهب بنفسك إلى منتديات الأحزاب وتستمع بنفسك إلى قادتها وتناقشهم وتقضى فى كل ناد عدة ليال ، وتجىء كل صباح تقص على ما رأيت وماسمعت حتى إذا أتممت الجولة على كل النوادى نجلس معاً لتقرر بنفسك الاتجاه الذى تسلكه ... قال إذن أرشدنى إلى أماكن هذه النوادى فأرشدته وكانت هذه النوادى هى : الوفد–الأحرار الدستوريون– السعديون – مصر الفتاة – الحزب الوطنى .

ويجدر بى بهذه المناسبة أن أذكر أننى منذ أقمت بالقاهرة – وكان مقر دراستى وسكنى بالجيزة – كنت حريصاً على أداء صلاة الجمعة دائماً فى مسجد الرفاعى بالقلعة لأن خطيب هذا المسجد الشيخ محمود على أحمد كان خطيباً مفوها وكانت خطبه ذات اتصال بالحياة ، وكان رواد هذا المسجد الفسيح من أعلى طبقات القاهرة ثقافة ... وكنت ألاحظ دائماً بعد الصلاة وفى مستهل الدرس الذى يلقيه الشيخ بعد الصلاة أنه كان يلفت نظر الحاضرين إلى شاب بين يديه مجلات يوزعها ويحثهم على اقتنائها فكنت أحد الذين يشترونها ... وقد تركت هذه المجلة فى نفسى – وكان اسمها «الإخوان المسلمون» – أثراً عميقاً عندما وقع نظرى على واجهتى غلافها ؛ فعلى وجهها وملء

الصفحة رسمت الكرة الأرضية مركوزاً عليها علم كتب عليه «إنما المؤمنون إخوة» . وتمسك بالعلم قبضة يد قوية كتب تحتها «الإخوان المسلمون» – أما ظهرها فيملأه «أكلشيه» بعنوان «عقيدتنا» تحته سبعة بنود يتكون كل بند من جزءين أولهما مبدوء بكلمة «أعتقد» والآخر مبدوء بكلمة «أتعهد» ... وقد لخصت هذه البنود السبعة الفكرة الإسلامية كما تصورتها بجميع أبعادها . إلا أن «التعهدات» قد نقلت هذه الفكرة المجردة إلى معترك الحياة فى جميع ميادينها ... وحرصاً منى على انتفاع القارىء بهذه البنود رأيت أن أثبتها بنصها لأنها خير مايصلح أن يكون دستوراً ينظم حياة الفرد المسلم والأسرة المسلمة والأمة المسلمة فى أوجز العبارات وأدقها وأجمعها للمعانى .

عقيـــدتنا

١ – أعتقد أن الأمر كله لله – وان سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم رسله إلى الناس كافة ، وأن الجزاء حق وأن القرآن كتاب الله . وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة .

وأتعهد بأن أرتب على نفسى حزباً من القرآن الكريم . وأن أتمسك بالسنة المطهرة ، وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة الكرام .

٢ – أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام .

وأتعهد بأن أكون مستقيما أؤدى العبادات وأبتعد عن المنكرات ، فاضلا أتحلى بالأخلاق الحسنة ، وأتخلى عن الأخلاق السيئة ، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت ، وأوثر المحبة والود على التحاكم والتقاضى ، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطراً ، وأعتز بشعائر الإسلام ولغته ، وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة فى طبقات الأمة

٣ – أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والتكسب ، وأن فى ماله الذى يكسبه حقاً مفروضاً للسائل والمحروم .

وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشى ، واقتصد لمستقبلى ، وأؤدى زكاة مالى ، وأخصص جزءاً من ايرادى لأعمال البر والخير ، وأشجع كل مشروع اقتصادى إسلامى نافع ، وأقدم منتجات بلادى وبنى دينى ووطنى ، ولا أتعامل بالربا فى شأن من شئونى ، ولا أتورط فى الكماليات فوق طاقتى .

٤ – أعتقد أن المسلم مسئول عن أسرته وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدى ، وأن أبث تعاليم الإسلام فى أسرتى ، ولا أدخل أبنائى

أية مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم ، وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناوىء تعاليم الإسلام .

٥ — أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بانهاض شعوبه وإعادة تشريعه وأن راية الاسلام يجب أن تسود البشر ، وأن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام .

وأتعهد بأن أجاهد في سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت ، وأضحي في سبيلها بكل ما أملك

٦ — أعتقد أن المسلمين جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية ، وأن الإسلام يأمر أبناءه بالاحسان إلى الناس جميعاً .

وأتعهد بأن أبذل جهدي في توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين ، وإزالة الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم .

٧ — أعتقد أن السر في تأخر المسلمين ابتعادهم عن دينهم، وأن أساس الإصلاح العودة إلى تعاليم الإسلام وأحكامه ، وأن ذلك ممكن لو عمل له المسلمون .

* * *

فكانت هذه أول مرة أصادف قوماً يعتقدون ما أعتقد بتفاصيله ودقائقه ، فكان تجاوباً عجيباً ، ولكن تجربتي السابقة في جمعيات رشيد التي أشرت إليها قبلا ، أفقدتني الثقة في الذين يدعون العمل للاسلام .

كان إسماعيل يقابلني في الكلية كل صباح ، ويقص على ماسمع ومارأى في ليلته الماضية وأناقشه ويناقشني ، ويخرج في كل مرة برأى معين ونقييم لكل مارأى وكل ماسمع .. حتى طاف بجميع الأحزاب والهيئات ولم أره شعر برضاً عن أى منها .. فوجهته إلى جمعيات إسلامية كانت موجودة ومشهورة منها جمعية مكارم الأخلاق والجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة ؛ فطاف بها جميعاً ولم يخرج منها بشيء يرضي شغفه ويملأ فراغ نفسه ، وأحسست منه ضجراً مما قد يسلم إلى اليأس . وتذكرت المجلة التي أشرت إليها آنفاً فقرأت عنوان الدار التي تصدرها وقلت له : لم يبقى في جعبتي إلا جمعية واحدة قرأت عن مبادئها فأعجبتني وملأت نفسي لكن عندي سوء ظن بالناس الذين يعملون بالجمعيات الإسلامية نتيجة تجربة لي سابقة فسأعطيك عنوان هذه الجمعية لتذهب إليها لا لتناقش مبادئها وأفكارها بل لتراقب لي العاملين بها لا سيما رئيسها .. ولقد كنت تقضي في كل حزب أو هيئة ثلاث ليال أو أربع لكني أريد أن تقضي في هذه الجمعية فترة طويلة لا تقل عن الشهر لأن مراقبة العاملين تستغرق وقتاً طويلا ..

ذهب إسماعيل إلى هذه الجمعية فى العنوان الذى كتبته له وهو ١٣ شارع الناصرية بالسيدة زينب وكان كل صباح يقص على مارأى وما سمع ومالفت نظره ، وكان يمكث بالجمعية كل ليلة حتى تغلق أبوابها . أخبرنى عن رئيسها ووصفه لى فتذكرت الرجل الذى زرته وصديقى جمال فى حارة الروم ووجدت أوصافه حين وصفه اسماعيل تنطبق عليه تماماً .

بعد انقضاء الشهر شعرت بأنى أصبحت مقتنعاً بالعاملين فى هذه الجمعية كما شعرت بأن إسماعيل يبادلنى نفس الشعور ، وقد قرر بمحض اختياره أنه يركن مطمئناً إلى هذه الجمعية. وقد زكيت اختياره وقلت له : إذن فاذهب الليلة إليهم وحرر طلب التحاق بها ، وواظب على اجتماعاتها فقال لى : أنا وحدى ؟.. قلت : نعم أنت وحدك . قال ولم لاتكون أنت قبلى وأنت أحق منى وأنفع ؟. قلت : إن لى ارتباطات مع هؤلاء القوم ، والحركة السياسية الآن على أشدها ، ولا أستطيع أن أنسلخ والحالة هذه فيقال إنى جبنت . فذهب إسماعيل والتحق .

كنا نحن — الطلبة الوفديين— نعد العدة للقيام بمظاهرات ضد القصر والحكومة القائمة — وزارة أحمد نسيم — ومن ورائهما الإنجليز . فكنا نجمع الطلبة فى النادى السعدى ونشحنهم بأفكارنا وبالخطب التى كان يلقيها النحاس باشا وبعض كبار أعضاء الوفد .. وكان السكرتير العام للوفد مكرم عبيد يحضر إلى الجامعة ويخطب فيها ويحمله الطلبة على أكتافهم هاتفين — وصحف الوفد فى نفس الوقت تشعل الحماس بمقالات ملتهبة ... كل ذلك هيأ الظروف لقيام مظاهرة ضخمة ضمت عدة آلاف من طلبة الجامعة وسميت هذه المظاهرة فيما بعد بمظاهرة كوبرى عباس .

مظاهرة كوبرى عباس ١٩٣٦

لا شك فى أن مظاهرة كوبرى عباس هذه كانت الخط الفاصل فى حياتى ، كما أنها أيضاً كانت حركة تاريخية جعلت الطلبة والأهالى على بينة من أن الإنجليز أعداء ألداء ، فقد خرج طلبة الجامعة المصرية من كلياتهم بالجيزة فى مظاهرة سلمية لا تمتد يدها إلى تخريب أو عنف ، وإنما كانت تهتف هتافات موحدة بسقوط وزير بريطانى اسمه صمويل هور لأنه هو الذى أوحى بإلغاء دستور سنة ١٩٢٣ ، ويطالبون فى هتافهم بارجاع هذا الدستور ، كما يهتفون بسقوط حكومة نسيم .

وقد سارت المظاهرة فى سلام من حرم الجامعة مخترقة شارع المدارس ثم ميدان الجيزة ثم اتجهت إلى الشارع المؤدى إلى كوبرى عباس الذى يصل القاهرة بالجيزة ، ودخلت الجموع

كوبرى عباس حتى إذا صارت فى منتصفه إذ بالكوبرى يفتح فجأة فيقسم المظاهرة قسمين ، قسم كان قد عبر الجزء المفتوح وأصبح فى الجزء المؤدى إلى الروضه وقسم حال فتح الكوبرى بينه وبين مواصلة السير للحاق بزملائه فكان عليه أن يرجع أدراجه الى الجيزه .

حاول هذا الجزء الرجوع فإذا به يجد نفسه محاصراً بقوات تطلق العيارات النارية ، وحاول الجزء الآخر مغادرة الكوبرى إلى الروضة فإذا به يجد نفسه محاصراً بقوات عند نهاية الكوبرى تطلق العيارات النارية . والذى دبر هذه المؤامرة الغادرة ضباط إنجليز على رأسهم حكمدار القاهرة الإنجليزى « رسل باشا» رأيناهم بأعيننا يصدرون الأوامر إلى جنودنا المغلوبين على أمرهم بضربنا بالرصاص .

كان الرصاص يملأ الأرض والجو ويطلق فى كل اتجاه وامتلأت الأرض بالمصابين ، ولم يكن أمام الطلبة العزل المساكين إلا أن يجروا فى كل اتجاه باحثين عن مهرب من هذا المطر المنهمر من الرصاص كأنما هى حرب بين بلدين غدرت إحداهما بالأخرى بينما كانا على مائدة الصلح ، فإحداهما عزلاء حتى من عصا فى يدها والأخرى كانت تخفى تحت ثيابها أفتك السلاح... غدر لا مثيل له

استطعت بعد الخوض بين جثث الزملاء الملقاة على الأرض أن أغادر الكوبرى وأنزل تحته حيث الأحراش والطين، ومع ذلك لم نسلم من الطلقات فقد تابعونا بالرصاص أيضاً .. ووقفت لحظة مع بعض الزملاء ودوى الرصاص يصم آذاننا ، وهنا تمثلت أمامى صورة لى وقد أصبت وتضرجت فى دمائى وقابلت ربى .. فماذا أقول له حين يسألنى فى سبيل ماذا قتلت ؟ سأقول له فى سبيل دستور ١٩٢٣ ... هل دستور ١٩٢٣ هو الدستور الذى أنزله الله ليحكم هذا العالم ؟ هل هو الدستور الذى قال الله تعالى فى شأنه «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» .

هنا ، وتحت كوبرى عباس ، وتحت وابل الرصاص ... وشبح الموت يطاردنا فى كل مكان ... فى تلك اللحظة قررت إن كتبت لى الحياة لأصححن اتجاهى . ولتكونن حياتى كلها لله وحده ، ولأختطن لنفسى الخط الذى أراد الله للناس أن يسلكوه إليه ، وأن تكون جهودى جميعاً فى سبيل إقامة الدولة الإسلامية التى لا يرضى الله بغيرها بديلا «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

قتل من زملائنا الطلبة فى هذه المظاهرة طالبان هما «عبد المجيد مرسى» و«عبد الحكيم الجراحى» رحمهما الله رحمة واسعة وكان الأول من طلبة كلية الزراعة والآخر من طلبة كلية الآداب ...

أما نحن الذين نزلنا تحت الكوبرى فقد واصلنا السير تحته نخوض في الطين والأحراش حتى خرجنا مقابل مبنى الجامعة .

في الطريق الى المركز العام

كان أول شيء فعلته أن طلبت إلى إسماعيل الخبيري ان يصحبني معه إلى دار المركز العام للإخوان المسلمين ، ولكنه اقترح على أن نخصص هذا اليوم لزيارة طالب من أهل الفيوم ومن الإخوان المسلمين ويقيم في شارع المنيل القريب من الجيزة وسألته عن اسمه فقال إن اسمه عبد الحكيم عدوى عابدين وهو طالب في كلية الآداب وهو أقدم منا عهداً بالقاهرة فهو في السنة الثانية .

فلما التقيت بهذا الطالب في مسكنه وجدتني أمام أديب شاعر متصوف ، وما كاد يحس منى تذوقاً لهذه الألوان نفسها حتى أقبل على كأنما عثر على ضالته فأخذ ينشدني من شعره ويقص على من أنباء شيخه الشيخ سلامه الراضي شيخ الطريقة التي ينتسب إليها ، وهي طريقة صوفية تربي أتباعها بأسلوب فريد ، فهم يجتمعون ليلا في مكان خال بعيد عن الحركة والضوضاء ، ويتخذ كل منهم مكاناً منفرداً بعيداً عن زملائه ، وتطفأ الأنوار ، ويغمض كل منهم عينيه ، ويتابع بمخيلته حياته منذ ولد حتى يموت ثم يدفن ثم يحاسب في قبره ويسأل عن ذنوبه ويوقع عليه عقاب هذه الذنوب ، ثم يرى مكانه في النار ثم يتعرض لفتن القبر ثم يبعث ثم يرى الموقف العظيم وفي أثناء هذا الاستغراق تنبعث الآهات وتعلو الاستغاثات حيث يصل الاستغراق إلى حد غياب المريد عن وعيه .

وقد كانت هذه أول مرة – مع سابق اختلاطي بكثير من المتصوفين – أسمع فيها عن هذه الطريقة وعن أسلوبها في التربية ، وهو أسلوب ولا شك فريد وعنيف ، وقد يمحص الفرد ويزكي النفس ويسمو بها في ليلة واحدة وفي جلسة واحدة مالا يفعله في أشهر أسلوب الوعظ الكلامي الذي هو المتبع في الوزع والتربية .

وقد أنشدني عبد الحكيم قصيدة له تربو على مائة بيت نظم فيها هذا الأسلوب التربوي بجميع أطواره ، وجعل الحديث فيها على لسان أحد المريدين فهو يغمض عينيه في الظلام ويتابع حياته بأطوارها ويصف ما كان منه وما كان له في كل طور حتى يصل إلى الحقيقة وهي الموت والحشر والحساب .

كما أنشدني عبد الحكيم قصائد له أخرى في مختلف الأغراض لكن أكثرها كان يدور حول هذه المعاني الصوفية العميقة الغور التي لا يحسن التعبير عنها إلا من لابسها وتذوقها .

الى دار المركز العام

قلت لإسماعيل فى اليوم التالى سأذهب معك إلى دار الإخوان ولكن لا تعرفنى برئيسهم ولا بأحد منهم كما لا تعرف أحداً منهم بى فإنى أحب أن أراقبهم دون أن يعرفوا .. ونفذ إسماعيل .. لقد دخلنا داراً عتيقة فى شارع الناصرية بالسيدة زينب ، والدار مكونة من أربع غرف وصالة صغيرة ، وكانت الدار هى الدور الأرضى من أحد المنازل المتهالكة .. وكانت ميزتها الوحيدة أن أمامها فناء فسيحاً غير مسقوف يصلح لإقامة الحفلات وإلقاء المحاضرات .

كان الرئيس هو الأستاذ حسن البنا الذى قابلته من قبل مع صديقى جمال ، ولم تكن اللافتة الموضوعة على باب حجرة مكتبه بهذه الدار مكتوباً عليها كما هو متعارف كلمة «الرئيس» بل كان المكتوب عليها كلمة «المرشد العام» .. وكان الموجودون بالدار مجموعة من الشباب أكثرهم من طلبة الجامعة وقليل منهم من صغار الموظفين .. ولمست روح المحبة والود تسود كل من فى الدار حتى العلاقة بينهم وبين المرشد العام كانت علاقة محبة وود ... نعم إنهم يحترمونه ويوقرونه ولكن توقيراً نابعاً من حب ، أما هو فيتعامل معهم كأنه واحد منهم ... ثم إنك لا تسمع حديثاً داخل هذه الدار إلا عن الإسلام وما يتصل به وما يدور حوله ، وليس معنى ذلك أنهم يتناولون فى أمور الفقه وأحكام العبادات كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما يدور حديثهم حول قضايا الساعة ، الاجتماعى منها والاقتصادى والسياسى ويقيسونها بمقاييس الإسلام . وتحس حين تراهم وتسمعهم وتراقب حركاتهم وسكناتهم أنهم يهيئون أنفسهم ليسدوا فراغاً فى هذه الأمة طالما ظل شاغراً نتيجة للجهل ولتدابير المستعمرين ولقهر الظالمين .. فترى الشاب منهم مشتعلا بالفكرةالإسلامية باعتبارها الفكرة الوحيدة لإنقاذ العالم مما يعانيه فى مختلف نواحى الحياة .

فإذا حان موعد الصلاة قام أحدهم فأذن على باب الدار أذاناً شجاعاً ، وهرع الجميع إلى مسجد الدار ، ورأيت باب حجرة المرشد العام قد فتح ودلف المرشد ليؤم الجميع لا يتخلف منهم أحد . وتشعر حين تنتظم معهم فى الصف أنك لست فى صلاة وحسب بل تشعر مرة أنك فى ميدان القتال وتشعر أخرى أنك تدرس على المستوى العالمى طبائع النفوس وأنواعها وعلاج كل نوع منها ... وتخرج من الصلاة وقد تجددت قلباً ونفساً وعقلا وبدناً .

أما عدد رواد الدار فكان قليلا بحيث لا تعد فى ليلة من ليالى الأسبوع أكثر من عشرين فرداً

لكن طابع الجد كان يبدو فى وجوههم جميعاً كأن الواحد منهم يحمل مسئولية أمة كاملة ، مع أن أكثرهم لم يكن مسئولا حتى عن نفسه ، لأنهم كانوا طلبة أو من هم فى مستوى الطلبة . وقد أقنعنى هذا الطابع الذى كان أبرز شئ فيهم وفى رئيسهم بأن هذه الهيئة هى بغيتى وأمنيتى .

نظـــــــام الدار

كانت هناك أربعة أيام فى الاسبوع ينتظم فيها الإخوان لسماع دروس : ثلاثة منها تلقى فى مسجد الدار ، والرابع محاضرة عامة تصف لها الكراسى و «الدكك» فى فناء الدار ويدعى إليها الجمهور فدرس فى التصوف يلقيه رجل كبير السن يدعى «حامد بك عبد الرحمن» كان مفتشاً للرى وأحيل إلى المعاش ، وكان درسه فى شرح حكم بن عطاء الله السكندرى ، وقد أفدت من هذا الدرس حيث صادفت الحكم التى كان يشرحها حامد بك عندما حضرت له صراعاً نفسيا كان يهزنى هزاً فكأنما كان يخاطبنى بتلك الحكم .

ودرس فى تفسير القرآن الكريم يلقيه حكيم الإسلام الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى . وكان يفسر القرآن بالعلوم الحديثة ، وهو لون لم يكن مألوفاً فى ذلك الوقت ، وكان الرجل بارعاً فى التفسير وفى الإقناع حيث كان على قدم راسخة فى التفسير وفى العلوم الكونية معاً .

والدرس الثالث درس التكوين . وهو درس لا تستطيع أن تسميه درس تفسير ولا درس تصوف ولا درس تاريخ ولا درس أخلاق ولا درس سياسة ولا درس أدب وإنما هو جامع لذلك كله ويجمع إلى ذلك آفاقاً أخرى ليس من السهل الإحاطة بها لأن كل هذه العلوم والفنون كانت تقدم إلى السامعين ممزوجة بذوب النفس وعصارة القلب ومهجة الفؤاد ، وهو ما يجعل مزيج هذه العلوم والفنون قادراً على صهر النفوس وصياغتها من جديد .

وكان يلقى هذا الدرس المرشد العام ،ومع أن الدرسين السابقين لم يكن يواظب عليهما إلا سبعة اشخاص أو ثمانية كنت أحدهم فإن درس التكوين لم يكن يتخلف عن حضوره أحد من الإخوان . لأنه طراز لا عهد لأحد بمثله .

أما المحاضرة العامة فبالرغم من المجهود الذى كان يبذله الإخوان فى الإعداد لها وفى دعوة الناس من الشوارع المجاورة لحضورها فإن معظم المقاعد تظل خالية مع أن الذى كان يلقيها فى أكثر الأحيان هو المرشد العام ، ولا يتخلف إلا لعذر فإذا تخلف قام شقيقه «عبد الرحمن الساعاتى» بإلقائها .

وعبد الرحمن الساعاتى خطيب مطبوع مفوه تحس حين تسمعه أنك أمام عقبة بن نافع ممتطياً صهوة جواده يخاطب المحيط الأطلسى بعد أن فتح الشمال الأفريقى حتى وصل إلى شاطئه ويقول : «لو علمت أن وراءك أرضا لخضتك إليها غازياً فى سبيل الله»، كانت خطب عبد الرحمن الساعاتى خطبا تحرك القلوب وتذكر بالأمجاد وتسيل العبرات ... وإذ ذكرت عبد الرحمن الساعاتى وخطبه الرنانة فتحضرنى شخصية شاعر عربى عظيم هو «محمود غنيم» الذى يعتبر بلبل الإسلام الصداح والذى كانت قصائده التى تنشر فى مجلة الرسالة فى المناسبات الإسلامية أنشودة يتغنى بها الأدباء ويقتبس منها الخطباء ويحفظها النابهون من الشباب ، وكان «عبد الرحمن الساعاتى» كثيراً ما يحلى خطبه بأبيات من قصيدة عامرة لمحمود غنيم ، رأيت أن أنقلها هنا لروعتها ولتعبيرها أدق تعبير عن فكرة الإخوان المسلمين ، وقد نشرت بمجلة الرسالة فى العدد الخاص بالهجرة فى سنة ١٩٣٦ :

إنى تذكرت والذكرى مؤرقة ... مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
أنى اتجهت إلى الاسلام فى بلد ... تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
وريح العروبة كان الكون مسرحها ... فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها ... وبات يملكنا شعب ملكناه

كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن ... شكا فرددت الأهرام شكواه
هى الحقيقة عين الله تكلؤها ... فكلما حاولوا تشويهها شاهوا

هل تطلبون من المختار معجزة ... يكفيه شعب من الأحداث أحياه
من وحد العرب حتى كان واترهم ... إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة ... من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاة الإبل مملكة ... ماساسها قيصر من قبل أو شاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة ... وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لاعرب ولا عجم ... ما لامرىء شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم ... فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالاسلام حين رأوا ... أن السلام وأن العدل مغزاه

يامن رأى عمراً تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقاً ... من بأسه وملوك الأرض تخشاه

سل المعالى عنا إننا عرب ... شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هي العروبة لفظ إن نطقت به ... فالشرق والضاد والإسلام معناه
استرشد الغرب بالماضي فأرشده ... ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من ... ضيائه فأصابتنا شظاياه
بالله سل خلف بحر الروم عن عرب ... بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهوا
أين الرشيد وقد طاف الغمام به ... فحين جاوز بغداداً تحداه
ملك كملك بني التاميز ما غربت ... شمس عليه ولا برق تخطاه
ماض نعيش على أنقاضه أمماً ... ونستمد القوى من وحي ذكراه

إني لأعتبر الإسلام جامعة ... للشرق لا محض دين سنه الله
أرواحنا تتلاقى فيه خافقة ... كالنحل إذ يتلاقى في خلاياه
دستوره الوحي والمختار عاهله ... والمسلمون وإن شتوا رعاياه
لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً ... فامنن علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد إلى الإسلام سيرته ... يرعى بنيه وعين الله ترعاه

مجلة الاخوان وشعبهم

كان للأخوان في ذلك الوقت مجلة أسبوعية هي بنفسها التي كنت أشتريها عقب صلاة الجمعة بمسجد الرفاعي والتي على غلافها صورة الكرة الأرضية مركوزاً عليها علم يمسك به قبضتا يدين كتب تحتهما «إنما المؤمنون إخوة» ..

ولم يكن هناك في ذلك الوقت فروع للمركز العام في القاهرة ولا في الإسكندرية ولا في الصعيد وإنما كانت فروعه في الإسماعيلية وما حولها وفي بعض بلاد الشرقية والدقهلية وفي المحمودية . وكان بعض أهالي هذه البلاد من الإخوان يحضرون إلى القاهرة لزيارة المرشد العام كما كان المرشد العام يسافر لزيارتهم .

وكانت هناك شعبة في شبراخيت وأخرى في كفر الدوار ؛ إلا أن هاتين الشعبتين لم تكونا إلا رجلين أثنين ؛ في الأولى الشيخ حامد عسكرية وكان واعظ شبراخيت ، وفي الأخرى الشيخ أحمد عبد الحميد وكان من العلماء الأجلاء وكان مشتغلاً بالزراعة. كما كان هناك أفراد آخرون كانوا يعاملون باعتبارهم شعباً في بلادهم منهم الأستاذ عمر عبد الفتاح التلمساني المحامي بشبين القناطر والأستاذ محمد عزت حسن معاون سلخانة طوخ .

من هم أعضاء المركز العام ؟

قدمت أن أعضاء المركز العام الذين لا يكادون يعدون الأربعين كانوا بين طلبة وصغار موظفين . ولكن من هم هؤلاء الطلبة وهؤلاء الموظفون وكيف وصلوا إلى هذا المركز العام المغمور وسط أحشاء القاهرة والذى لا يكاد يعرفه جيرانه الملتصقون به ؟!! .

لقد استنتجت الإجابة على هذا السؤال لأننى كنت حريصاً على تحليل كل ما أراه فى هذا المركز العام لاسيما مايتصل بالأشخاص ... المركز العام ،فى حى السيدة زينب ... وتستطيع أن تقول إن ثلاثة أرباع هؤلاء الموظفين والطلبة هم من حى السيدة زينب ،وأكثر هؤلاء من شارع واحد هو شارع زين العابدين الذى كان يسكن فيه فى ذلك الوقت الشيخ طنطاوى جوهرى ، والشيخ طنطاوى من أوائل من تعرف على الأستاذ المرشد العام ونجله جمال كان أحد هؤلاء الطلبة وكان طالباً بكلية الهندسة ، وجمال الفندى وكان طالباً بكلية العلوم ومختار إسماعيل وكان مدرساً للرياضة البدنية ، كما كان من سكان الحى الطلبة جمال عامر بكلية العلوم وطاهر عبدالمحسن ومحمود أبو السعود ورشاد سلام بكلية التجارة ومحمد سليمان وابراهيم أبو النجا بكلية الطب ومحمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وأحمد عبد العزيز جلال بكلية الاداب وحسن السيد عثمان ومحمد فهمى أبو غدير بكلية الحقوق . وكان من الموظفين الأستاذ محمد حلمى نور الدين وكان كاتباً فى مصلحة الرى والأستاذ أسعد الحكيم وهو شقيق زوجة الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى وكانا موظفين معاً فى السكة الحديد والأستاذ حسين بدر فى السكة الحديد أيضاً والأستاذ أسعد راجح وكان سكرتيراً لمدير إنجليزى والأستاذ محمد حمص وكل هؤلاء من سكان الحى .

وكان من طلبة الأزهر الشيخ أحمد حسن الباقورى وكان فى التخصص وآل شريت وهى أسرة كريمة من أسر قرية ريفا بأسيوط كان والدهم أستاذ أبالأزهر وكان من أسبق الناس إلى الدعوة ومبايعة المرشد العام وكان أبناؤه جميعاً وأبناء عمومتهم من أخلص الإخوان منهم الشيخ أحمد شريت والشيخ محمود شريت والشيخ حامد شريت وكلهم تخرجوا فى الأزهر أو دار العلوم وابن عمهم الأستاذ فتحى شريت الذى كان موظفاً بالسكة الحديد على ما أذكر .. ومن الأزهر الشيخ عبد البارى عمر خطاب وكان طالباً بالمعهد والشيخ عبد اللطيف الشمشاعى وكان طالباً بكلية أصول الدين والشيخ أحمد الشرقاوى وكان طالباً بمعهد القراءات وقد أفدت منه الكثير فى قراءة القرآن وكل هؤلاء كانوا من حى السيدة زينب أو مما يجاوره .

فإذا أحصيت بعد ذلك الأعضاء من غير الحى أو القريبين منه لم نجدهم يعدون العشرة منهم اسماعيل خيرى وأنا وعبد الحكيم عابدين وثلة آخرون .

الزعــــابدة

أشرت من قبل إلى أن أمارات الجد كانت مرتسمة على وجوه رواد الدار ؛ وكانت دروس التكوين التى يلقيها المرشد العام تذكى فى نفوسهم شعلة الجد ، فكان مجرد التحدث فيما سوى الدعوة يعد شيئاً غريباً ، فإذا وصل الأمر إلى الضحك وإن كان بريئاً فقد يعد جريمة .. وكانت مجموعة من سكان شارع زين العابدين تميل إلى شيء من الضحك أو التهريج المحدود البرىء ، فكانت مجموعتنا الأخرى تعتبر ذلك استهتاراً لا يليق برجال الدعوة وتوجه إليه اللوم والتقريع ... وظل الأمر على ذلك حتى وجدنا أنفسنا نحن رواد الدار قسمين ؛ قسم يبالغ فى الجد وقسم لايتخلف عن أداء حق الدعوة ولكنه يميل إلى الدعابة هم فريق من سكان زين العابدين ، وأطلق الأخ محمد عبد الحميد أحمد وكان طالباً من الحكماء لفظ «الزعابدة» على هذه المجموعة واتسع بعد ذلك مدلول هذا اللفظ حتى صرنا نطلقه على المهرجين أينما كانوا .

شخصيات أخرى

ومن الشخصيات الأخرى التى كانت تتردد على الدار وكانت تلفت النظر الشيخ محمد زكى ابراهيم وكان مدرساً أديباً خطيباً شاعراً متصوفاً ، وكان ممن يفهمون الأسلام فهما صحيحاً وكان يشتعل حماساً للفكرة الإسلامية وممن يحسنون فهم الجو الاجتماعى والسياسى فى مصر وفى العالم الإسلامى ، ولا أدرى لم لم يبرز اسم هذا الرجل بين شعراء مصر مع أنه كان شاعراً مطبوعاً ؛ ولعل السبب فى ذلك أن النزعة الصوفية غلبت عليه ... فقد لاحظت أن الرجل كان ملازماً للأستاذ المرشد طيلة المدة التى كانت فيها الدعوة مغمورة لا يعرفها إلا الأقلون ، فلما برزت الدعوة وأمها الكثيرون أخذ هذا الرجل فى الابتعاد حتى اختفى اختفاء تاماً ... ثم قرأت أخيراً فى أيامنا هذه أنه ألف جماعة سماها «العشيرة المحمدية» ولا أعتقد إلا أن هذه العشيرة تقوم على الفكرة الإسلامية الصحيحة التى كان هذا الرجل من أوائل معتنقيها والعاملين لها والمجاهدين عليها .

وقد أدركت لأول عهدى بهذه الدار شخصيتين كانتا متفرغتين للعمل بالدار هما الأستاذ حمدى الجريسى وكان معروفاً أنه سكرتير المرشد العام والأستاذ محمد طاهر العربى وكان اتصاله بالأستاذ المرشد شخصياً يكلفه بأعمال للدعوة خارج الدار ؛ وقد لاحظت أنهما انقطعا عن الدار انقطاعاً فجائياً وتاماً مما أثار دهشتنا .

ثم «محمود هبة الله» الطالب الأزهرى الذى انقطع عن الدارسة واشتغل بالزراعة فى بلده «جنبواى» مركز إيتاى البارود فكان يقضى أكثر أيامه فى المركز العام يلهب المشاعر بحماسه البالغ وعصاه الغليظة وجسمه الفارع وصوته الجهورى وهو نجل «الشيخ الجنبيهى» من كبار علماء الأزهر الذين آمنوا بالدعوة وبايعوا عليها لأول عهدها بالقاهرة ... وقد عاش محمود هذا ما عاش لدعوته فلما مرض واشتد عليه المرض وأحس باقتراب أجله أبى إلا أن يموت بين اخوانه فطلب من أهله نقله إلى دمنهور حيث كنت أسكن ، وظل بين أيدينا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد شعار دعوته ويسأل الله أن يبعثه عليها رحمه الله رحمة واسعة وغفر الله لنا وله وأوسع له فى رضوانه والحقنا به فى مستقر رحمته .

وبعد أن انقطع عن الدار الأستاذان حمدى الجريسى وطاهر العربى،أحضر الأستاذ المرشد رجلا مسناً صالحاً هو الأستاذ أحمد الحسينى وكان يبدو عليه ضعف البصر حيث تغطى عينيه نظارة سميكة العوينات ،وكنت أحب أن أجالس هذا الرجل ، لأننى اعتقدت أن الأستاذ المرشد لا يأتى إلى الدار بمثل هذا الرجل المسن إلا إذا كان لهذا الرجل تاريخ ... وكان الرجل يأنس لحديث معى ... وقد تبين لى أن هذا الرجل من الأدباء الذين أفنوا أعمارهم وكادوا يفقدون بصرهم بين مراجع اللغة ومجلدات الأدب ودواوين الشعراء حيث كانوا يدرسون الأدب لذاته لا ليتكسبوا من ورائه ، وبعد أن تضلعوا من مناهل الأدب ، وجدوا أنفسهم على قارعة الطريق لا يكادون يجدون قوت يومهم ... فتلقفتهم أيدى بغاة الشهرة من السراة ؛ يستغلونهم أسوأ استغلال ، حيث يجمع لهم الأدباء ما حصلوه من درر الأدب فيأخذه السراة ويصدرون به كتباً تحمل أسماءهم زوراً وبهتاناً ملقين لهؤلاء الأدباء بدريهمات لاتكاد تقيم أودهم كما يلقون بفتات موائدهم إلى القطط والكلاب التى يقتنونها ، وصدق الله العظيم « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم» (آل عمران) .

وقد تكشف لى هذا الأمر عندما ظهر كتاب فى الأدب لكاتب شهير من «بكوات» الكتاب فاشتريته ، فلما رآه معى الأستاذ أحمد الحسينى قص على قصة هذا الكتاب وكيف كان هو ومجموعة من أمثاله من الأدباء المغمورين يستحضرهم هذا «البك» ويعد لهم مكانا فى «بدروم» قصره ليجمعوا له مواد هذا الكتاب، وعين لى الأستاذ أحمد الأبواب من هذا الكتاب التى كانت ثمرة جهده ...

ومع أن هذا الرجل كان موظفاً بالدار فإنه كان من المؤمنين بالدعوة أعمق الإيمان ؛

ويخيل إلى أن الأستاذ المرشد كان شديد الرفق به فلا يكلفه إلا بمالا يشق عليه ولعل مهمته كانت قراءة الوفيات المنشورة فى الصحف ليؤدى الأستاذ المرشد العزاء لا

ومن هذه الشخصيات أيضاً الأستاذ أحمد السراوى وهو شخصية ذات ماض فى الحركات الوطنية كنت تجلس إليه فيأخذ حديثه بلبك فإذا رأيت تصرفاته مع الأستاذ المرشد دهشت وأخذ منك العجب كل مأخذ ... ويبدو أنه كان ذا معرفة بالأستاذالمرشدمن قديم..وكان إذا جلس إلى الأستاذ المرشد تحس أنه موضع عطفه ... وكان الأستاذ يحدثنا عن غريب أطواره ... وكانت آخر تجربة للأستاذ المرشد معه — وكنا عليها شهوداً — يوم جاء إلى الأستاذ يكاد يبكى لسوء الحال ، فاستأجر له الأستاذ محلا واشترى له مطبعة وورقاً ، وحرر بثمن ذلك كله كمبيالات بضمانة الأستاذ المرشد ، واختار له كتاباً يعيد طبعه على ورق مصقول أبيض هو كتاب «احياء علوم الدين» ... وأخرج السراوى عدة أجزاء منه وأقبل الناس على شرائه إقبالا منقطع النظير بالسعر الذى حدده هو طبعاً ؛ ومعنى هذا أنه حقق ربحاً .. إلا أننا فوجئنا بتوقف صدور الكتاب واختفاء السراوى مما اضطر الأستاذ المرشد إلى تسديد ثمن كل هذه الأشياء من جيبه الخاص.

وهذه التجربة وإن عادت على الأستاذ المرشد بخسارة مادية إلا أنها لم تكن فجيعة له ولامفاجأة فإنه كان يتوقع من الأستاذ السراوى مثل هذا التصرف ؛ وكان من طبيعة الأستاذ المرشد أن علمه بحقيقة شخص لا يمنعه من محاولة استغلال بعض مزاياه للدعوة ؛ فالأستاذ من أول يوم قام فيه بالدعوة كان يعلم أن المطبعة من أهم وألزم وسائل الدعوات ، وكان يتمنى أن تتاح له فرصة يستطيع فيها اقتناء مطبعة ، فلما لم تتح له هذه الفرصة حيث لم يكن فى الإخوان فى ذلك الوقت من يستطيع التفرغ لهذا العمل ، انتهز فرصة افتقار السراوى إلى عمل يكتسب منه ، ففعل ما فعل وكان هدفه من ذلك أن يشعر أن هذا المشروع ممكن التحقيق فاختار لذلك المحل قريباً من المركز العام وجعل ربح المشروع كله لجيب السراوى مكتفياً بالاطمئنان على أنه مشروع ناجح ،وبطبع كتاب ينتفع به كثير من الناس وهو يعده أكبر موسوعة إسلامية ... وقد تحقق للأستاذ المرشد ما أراد من هذه التجربة فلما حدث من الأستاذ السراوى ماكان يتوقعه منه لم يفرط الأستاذ فى أدوات الطباعة إلا بالقدر الذى عجز عن سداد ثمنه فا ستبقى منها أكبر قدر يمكن استبقاؤه حيث أبقى على الحروف التى سدت ثغرة كبيرة حين انتقلت الدعوة إلى دار العتبة مما سنشير إليه إن شاء الله فى حينه ... ولم تبرح فكرة المطبعة خاطر الأستاذ المرشد لحظة من ليل أو نهار على أنها أولى الوسائل المكملة لبناء الدعوة حتى حققها أخيراً فيما بعد على صورة أكبر

من هذه وكان ينوى تطويرها لتكون أعظم مطبعة فى الشرق لأن الذين يملكون الكلمة المطبوعة يملكون توجيه العقول والأفكار ، ولكن الظروف السياسية طغت موجتها فجرفت المشروع فيما جرفت .

المهمات المنوطة بالمرشد العام

كان مجهود المرشد العام موزعاً على عدة نواح أهمها : مهنته التى يكتسب منها عيشه ، وإدارة شئونه الخاصة من رعاية منزل وأسرة وأولاد ثم الدعوة ..

أما مهنته ؛ حيث كان مدرساً بمدرسة عباس الابتدائية بالسبتية ، فكان لها وقت محدد – كطبيعة العمل – لم يكن ينتقص منه لحظة بل كان يؤديه كله بأمانة .. ولم يؤثر عنه أنه تأخر يوماً عن ميعاد أو أهمل فى أداء عمل أوقصر عن المثل الأعلى للمدرس . بل إنه كان يرى فى عمله لذة ويحس فيه سعادة لأنه كان يعتقد أنه إنما خلقه الله ليكون مربياً ، وقد أهله لذلك تأهيلا كاملا ؛ فكان يرى فى المدرسة حقل تجارب لنظريات التربية القديمة والحديثة ولنظريات تربية وصل إليها بفكره الخاص ؛ حيث تضم المدرسة التلاميذ والمعلمين والفراشين وهم من مختلف البيئات والمشارب والعقليات والظروف والأعمار .

وكان مما حدثنى به فيما يتصل بذلك؛أنه كان عليه فى فترة من الفترات أن يراقب التلاميذ فى أثناء «الفسحة» وكان الأستاذ «تقلا بك» – أول مراقب مسيحى عين فى هذا المنصب فى وزارة المعارف – قد حضر إلى المدرسة فى ذلك اليوم ... وكان رجال الوزارة يحرصون على التعرف بالأستاذ المرشد حين يحضرون إلى المدرسة ... وكان الأستاذ المرشد يعلم أن التعليمات المبنية على نظريات التربية الحديثة تمنع الضرب فى المدارس لكنه أمسك بمسطرة باعتبارها عصا فى يده وتعمد إبرازها أمام المراقب حتى يسأله فى ذلك ؛ وكان أن سأله فعلا فشرح له شرحاً أثبت له خطأ هذه التعليمات وأن تربية التلاميذ فى هذا السن لابد أن يكون الضرب غير المبرح من وسائلها على أن يكون بقيود معينة حيث هناك من الطباع ما لا يقوم بغير العصا .

وحسبك دليلا على نجاح سياسته فى هذه المدرسة أن تعلم أنه كان موضع حب جميع التلاميذ والمدرسين والناظر والفراشين واحترامهم ، وأنهم جميعاً أحبوا دعوته لحبهم لشخصه ، وكان الجميع يتمنون أن يكونوا فى خدمته ليوفروا له الوقت للقيام بأعباء الدعوة ، لكنه كان حريصاً على أن يقوم هو بنفسه بعمله المدرسى كاملا وأن لا يكلف أحدا بحمل أى عبء عنه .

ولقد كنا نحتاج إليه فى أمر هام يخص الدعوة فى وقت يكون هو فيه فى المدرسة فنتصل بالمدرسة تليفونياً أو نذهب إلى المدرسة لمقابلته ، وفى كلتا الحالتين – إذا كان طلبنا إياه قد صادف وجوده فى حصة من الحصص – كان يقول لمن ذهب ليبلغه بوجودنا لمقابلته أو يبلغه أننا نطلبه على التليفون : قل لهم إنه فى الحصة ولا يستطيع مغادرة الفصل حتى تنتهى الحصة فنضطر إلى الانتظار حتى تنتهى لنقابله أو نتحدث إليه فى التليفون فى فترة الاستراحة بين الحصتين .

وأما شئونه الخاصة فكان يرعاها حق الرعاية ، فلم نسمع بشقاق عائلى فى أسرته ، كما أن أولاده كانوا يحظون منه بما يحظى به الأبناء من والد مثالى . نعم كان الوقت الذى يقضيه فى بيته ضئيلا إلا أن زوجته كانت معواناً له على الدعوة وسنعرض لهذه النقطة بعد ذلك إن شاء الله .

أما الدعوة فكانت هى محور حياته ، بل هى حياته كلها ، لم يكن يشغله عنها شاغل فى ليل ولا نهار . كانت ملء عقله وقلبه بحيث لا مكان فيهما لشىء آخر .. لم أقدر النبوة حق قدرها إلا لما رأيت هذا الرجل ، وجلست إليه ، ولازمته وعاشرته .. حينئذ بدأت أحس بقدر النبى ومكانته،فرجل كحسن البنا هو دون الأنبياء ، ومع ذلك فإن الدعوة شغلته بل صهرته حتى أخرجت منه صورة مجسمة لها ؛ فإذا تكلم تكلم بالدعوة وللدعوة ، وإذا سكت كان سكوته أسلوباً آخر للدعوة ، وإذا تحرك فلها ، وإذا سكن فلها ، وإذا أحب فلها ، وإذا أبغض فلها ، وإذا ضحك فلها ، وإذا بكى فلها ... فكيف بالنبى الذى صنعه الله على عينه ؟ !.. لذا كان مقام النبوة جديراً بقول الله عز وجل «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» ... وهؤلاء من أمثال حسن البنا هم ورثة الأنبياء لا أولئك الذين وإن تمرسوا بعلوم القرآن والسنة فإنهم لم ينفعلوا بها انفعالا أنساهم ما سواها ولن ينفعل بالفكرة الإسلامية إلا من اختلطت بدمه فصارت أساس تفكيره ، وميزان حياته وانحصرت فى أفقها كل آماله ، وصار كل مر من أجلها حلواً فى حلقه .

إن أصحاب الدعوات لا ينبغى أن نسوى بهم العباقرة ؛ فالعبقرية لاشك إحدى صفاتهم ، لكنهم صنف من الناس أوتوا بصيرة نافذة ، وقلوباً حية واسعة ، وألسنة تنطق بالحكمة البالغة ، فهم يرون ما يعجز الناس عن رؤيته ... ومع ذلك فهم قادرون على إقناع الناس بما يرونه مما لا يراه الناس .. والناس يقتنعون بكمال خلقهم قبل أن يقتنعوا بقوة حجتهم ، وطلاقة

ألسنتهم .. تجاس إليهم وأنت غير مكترث إلا بنفسك بل قد تكون لاهياً هازلا ، فتحس بعد قليل أن تياراً دافئاً أخذ ينساب فى داخلك فيشيع الدفء فى جنباتك ، ثم لا يلبث هذا الدفء أن تشتد حرارته حتى إن حرارته لتذيب جمود نفسك وتشعل فى أعماق قلبك آمالا كانت خابية تحت أطباق من الثلوج ... وترى عقلك الذى كان زمامه بيد اللهو قد استدار دورة ألقى فيها بسالف أفكارك فى زوايا النسيان وانفتح لأفكار جديدة تستجيب لصدى ما تحرك فى قلبك من جمود نفسك ... وتقوم من مجلسك شخصاً آخر غير الذى كنت ، ويتغير مجرى حياتك بهذه الجلسة فتقوم وهموم المجتمع الذى أنت فيه هى شغلك الشاغل وهمك القاعد المقيم بعد أن كنت لا تكترث إلا بنفسك ...

ذلك بأن هؤلاء الناس طراز خلقهم الله وفى قلوبهم مراجل تغلى لايهدأ غليانها ، فهى تشيع الحرارة حيث كانت ، وتذيب الجمود ، وتبعث الحياة فيما حولها وفيمن حولها .. ومهما سكبت على هذه المراجل من ثلوج الدنيا فإنها تذوب والمراجل لا يهدأ لها أوار ... هى قوة دافعة خلقت لتدفع ولا تندفع . ولتؤثر ولا تتأثر ... قلوبهم مستودع للحياة تسكبه على من حولها من الموتى فيحيون ، ويحس كل واحد منهم بلذة الحياة بعد الموت .. هؤلاء الناس يعطون دائماً ولا يأخذون ويمنحون ولا يستمنحون ..

هذا فى أصحاب الدعوات أيا ماكانت الدعوات ؛ أما إذا كانت الدعوة فى ذاتها تحمل كل معانى الحق والصدق ، فإن شخصية الداعية تكتسب من صدق دعوته قوة على قوة ، ولا يستطيع أحد فى هذه الحالة أن يقاوم صاحب هذه الدعوة بالحجة والبرهان ، ولا يجد أمامه من وسائل المقاومة إلا الجحود والكذب والنكران ثم وسائل العنف والعسف والجهل والاضطهاد .

هكذا كان حسن البنا ؛ صاحب دعوة وهبه الله قوة أصحاب الدعوات ، وزاده قوة أن دعوته فى ذاتها حق لا مرية فيه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» ولذا كان إيمان حسن البنا بدعوته إيماناً تزول الجبال ولا يتزلزل ... كنت إذا رأيته لم تر إلا دعوته ، وإذا تحدثت إليه لم تسمع إلا دعوته .. حتى فكاهته ، وما كان أجمل فكاهته ، وما كان أسرع بديهته ... حتى الفكاهة ؛ لم تكن إلا فى صميم دعوته تخرج من سماعها وقد أضفت جديداً إلى عقلك وقلبك وإيمانك .

نعم إن آمال هؤلاء الأئمة من الدعاة تبدأ حيث تنتهى آمال جيلهم ... لقد تعرفنا على حسن البنا فى أواسط الثلاثينيات ، فسمعنا منه كلاماً عن المستقبل المأمول طالما قوبل من أكثر

لناس حينذاك بالاستخفاف والاستهزاء والسخرية ... وإنى لألتمس لهؤلاء الناس العذر ؛ لقد ظهر حسن البنا فى وقت خيم فيه الظلام الحالك فلا يستطيع أنفذ الناس بصيرة أن يرى أبعد من أنفه ، كانت مصر لا أقول تئن تحت كلاكل الاحتلال البريطانى بل إنها كانت مستكينة لهذا الاحتلال وادعة مسترخية ... كان الحكام يسبحون بحمد الاحتلال ... وكان الشعب يسبح بحمد هؤلاء الحكام ، وكان المثل السائد على ألسنة الناس هو الذى يقول : ليس فى الإمكان أبدع مما كان وكنت تسمع من المثقفين ومن شباب الأحزاب إذا أنت حاولت انتقاد الحكام قولهم : لا تعاند من إذا قال فعل ... لم تكن مهمة الأحزاب تتعدى التطاحن فيما بينهم على المناصب ، فكانوا فى ذلك أشبه بسواد الشعب الفقير حين يتهافتون على ماتلقيه معسكرات الإنجليز من بقايا الطعام ، فيعتبر من يحظى بقسط من هذه «الزبالة» نفسه فائزاً قد نال قصب السبق : كذلك كان الذى يحظى من الحكام بكلمة رضا من رجال السفارة الإنجليزية يعتبر نفسه قد حقق أمنيته وبلغ الجبال طولا ويقبل عليه زملاؤه بالتهانى يغبطونه على هذا الفوز العظيم . ولم تكن السراى أحسن من هذه الأحزاب .

أما الأزهر ، وهو المصدر الوحيد الذى يتلقى الناس منه تعاليم دينهم فإنه كان أداة طيعة فى يد المستعمر عن طريق الحكام ... نشر فى الناس صورة باهتة مشوهة للاسلام فكان معنى الإسلام فى نظر الناس بفضل الأزهر لا يتعدى طقوساً تؤدى داخل المساجد أو فى البيوت ، وكادت الاستكانة أن تكون مرادفة للإسلام فى نظر الناس .

ويمكن إجمال وصف الوقت الذى ظهر فيه حسن البنا بأنه ظهر والأمة ميتة تماماً لا حراك بها. فإذا خرجت عن دائرة مصر لترى ماحولها من دول عربية وإسلامية ، وجدت كل شعب من هذه الشعوب يغط فى نوم عميق والاستعمار آخذ بخناقهم جميعاً ، وقد فقد الجميع كل شىء حتى الإحساس بالظلم ؛ كما أن شعب كل دولة من هذه الدول يجهل كل شىء عن شعوب الدول العربية والإسلامية الأخرى ؛ بل كان المصرى على سبيل المثال يعرف الكثير عن البلاد الغربية ويزورها ولا يعرف شيئاً عن بلاد شقيقة متاخمة لبلاده ولا يخطر بباله أن يزورها وكذلك كان شعور سكان البلاد العربية والإسلامية الأخرى نحو مصر ونحو بعضها بعضاً .

ولذا فانها كانت مفاجأة مذهلة أن سمع الذين استقروا فى أجداثهم – وارتضوها مساكن لهم – صوتاً كالرعد يناديهم أن قوموا من أجداثكم ، ومزقوا أكفانكم ، وانفضوا التراب عن أجسامكم ، فإن أماكنكم التى أرادها الله لكم هى فوق السحاب لاتحت التراب ؛ ألستم ذرية

الذين قال الله فيهم «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ؟!.. سيروا ووراقى لنحطم الأغلال ، ونبدد سحب الظلام ، لننشر النور فى الآفاق ... قوموا لننسف بروح الأخوة التى سجلها الله لكم فى كتابه ما اصطنع المستعمر من حواجز وهمية بينكم وبين إخوانكم المسلمين فى بقاع الأرض فالمسلمون أمة واحدة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (٩٢ الأنبياء) .

أكثر الذين اخترق آذانهم هذا النداء استقبلوه استقبالهم لحلم كاذب لا يستحق إلا الامتعاض والإعراض . وحملة آخرون على أنه هذيان مخبول من حقه عليهم أن يدعوا الله له بالشفاء ؛ ولم يقع فى موقعه إلا من قلة هى التى كان عندها علم من الكتاب،وهذه القلة الواعية دائماً هى فريق من المطحونين المستضعفين .

لفتة إلى وراء:

المرشد قبل القاهرة

يجمل بنا قبل الاسترسال فى سرد ما نحن بصدده من حلقات متصلة فى تاريخ هذه الدعوة تلك الحلقات التى كنت أحد عناصرها أو كنت أحد مشاهديها ؛ أن نلقى نظرة نطل بها على أيام لهذه الدعوة لم يشأ القدر أن أشارك فيها أو أن أشهدها بنفسى ؛ فإن تعرفى على الدعوة وعلى شخصية مرشدها كما قدمت إنما كان بالقاهرة .. ولكن الدعوة – كما حدثنا الأستاذ المرشد – لم يكن مهدها القاهرة وإنما شاء الله أن يكون مولدها الذى برزت فيه إلى الوجود هو الإسماعيلية .

حدثنا الأستاذ رحمه الله أنه وأسرته من أهالى قرية «شمشيرة» مركز فوة ، وقد نزح والده وهو صغير إلى بلدة المحمودية حيث افتتح الوالد محلا لتصليح الساعات ومن هنا لقب الوالد بالساعاتى ، وقد لصق هذا اللقب بعبد الرحمن شقيق الأستاذ المرشد الذى يليه فى السن فعرف بعبد الرحمن الساعاتى . وتعلم «الأستاذ» فى المدارس الأولية ولما أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور ولما حصل على الدبلوم عين مدرسا فى مدرسة خربتا الأولية مركز كوم حمادة .

وقد رأى أن يواصل دراسته فدرس دراسة خاصة للالتحاق بدار العلوم ، وقد اضطره ذلك إلى الانتقال إلى القاهرة حيث كان مطالباً بالعمل لكسب عيشه فالتحق بعدة أعمال منها أنه اشتغل عاملا فى محل للبقالة ، ولقى فى ذلك مالقى حتى أنه لم يكن يجد وقتاً يستذكر فيه دروسه ، ولما حان موعد الامتحان المؤهل للالتحاق بدار العلوم نفسها وجد أن مطالب

الحياة الضرورية لم تدع له وقتاً تؤهله مذاكرته فيه أن يدخل الامتحان ، فشكا إلى الله الذى يعلم أنه لم يقصر لحظة واحدة ... يقول رحمه الله : ونمت ليلة الامتحان فإذا بى أرى فيما يرى النائم رجلا يواسينى ويقول لى : التفت إلى فألتفت إليه فإذا بيده كتاب المادة التى سأمتحن فيها فى الصباح فيفتح الكتاب عند صفحة معينة ويشير إلى أن أقرأ حتى إذا قرأت الصفحة فتح الكتاب عند صفحة أخرى فأقرأها وهكذا حتى أنهى الكتاب فأغلقه وتركنى ، فلما أصبحت وجدتنى حافظاً كل ماقرأت – وكانت هذه طبيعتى أن أحفظ ما أقرأه – ودخلت الامتحان فإذا الأسئلة كلها هى نفس ماقرأته فى الرؤيا .. وهكذا مرت ليالى الامتحان وأيامه على هذا النحو وظهرت النتيجة فكنت الأول . والحمد لله .

يقول رحمه الله : والتحقت بدار العلوم وكنت أهوى الأدب العربى ماكان منه مقرراً دراسته ومالم يكن مقرراً وكنت أكتب ما يعجبنى من قصائد فى كراريس أعددتها لذلك حتى تكامل عندى من ذلك عدة كراريس ، وكان امتحان الأدب العربى هو الامتحان الرئيسى فى الدار وكان الامتحان فيه تحريرياً وشفوياً ؛ فلما مثلت بين يدى لجنة الامتحان الشفوى فى امتحان الدبلوم النهائى لدار العلوم سألنى رئيس اللجنة عما أحفظ من الشعر فقدمت إليه الكراريس فقال لى : ماهذه الكراريس ؟ . قلت : إن ما فيها هو ما أحفظه فتعجب الرجل وقال : هل أنت على استعداد أن أسمع منك أية قصيدة أختارها من هذه الكراريس ؟ فأجبته بالايجاب .. فطفق يطلب إلى أن أقرأ فأقرأ حتى أطمأن إلى أننى أحفظ مافيها جميعاً . ثم قال لى : إنى سائلك السؤال الأخير : ماأحسن بيت أعجبك فى الشعر العربى ؟ قلت : أحسن بيت أعجبنى هو قول طرفة بن العبد فى معلقته :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى   عنيت فلم أكسل ولم أتبلـــــد

قال : قم يابنى ، هذا سؤال يسأل للنابهين من الطلبة فى كل عام هنا وفى الأزهر فلم يجب أحد بمثل ما أجبت به إلا الشيخ محمد عبده ... إننى أتنبأ لك يابنى بمستقبل عظيم ..

من جهود الطالب حسن البنا

الحملة الصليبية الجديدة أو الغارة التبشيرية

سبق لى أن ذكرت أن الفترة التى قام فى خلالها حسن البنا بدعوته كانت فترة حالكة فى تاريخ هذه الأمة ، وأشير هنا إلى أن هذه الحلكة لم تبدأ مع بدء ظهوره على المسرح وانما كانت

الحلكة مطبقة على الأمة من قبل ذلك ؛ وقد بلغ استهتار الأنجليز بمقدارت هذه الأمة أن تجاهلوا أنها أمة مسلمة ذات مجد وتاريخ ففتحوا للحملات التبشيرية أبواب البلاد ، بعد أن مهدوا لها بنشر الجهل والفقر والمرض ، وبعد أن اطمأنوا إلى أن مقاليد الحكم فى البلاد أصبحت فى يد الفئة التى تدين لهم بالولاء والتى هى فى حقيقة أمرها غريبة عن هذه البلاد فهى كما قال الشاعر :

بلاد قد نرى العربى فيهـــا غريب الوجـــه واليـــد واللسان

انتشر المبشرون فى أنحاء البلاد فى الوجهين البحرى والقبلى ، فى المدن والقرى تحت سمع المسئولين من الحكام وبصرهم ، بل إن هؤلاء الحكام فى المدن والقرى كانوا بحكم تعليمات رؤسائهم يسهلون للمبشرين وسائل دخول المدن والقرى كما يسهلون لهم وسائل الاتصال بالأهالى وإجراء مايشاءون من إجراءات بل وإقامة ما يشاءون من منشآت بل واختطاف من يشاءون من أطفال ونساء ؛ فى الوقت الذى يضربون فيه بيد من حديد كل من تسول له نفسه أن يعترض سبيل هؤلاء الغزاة ولو بكلمة معتبرين ذلك اعتداء على الحكومة ... صار هذا الشعب نهباً مباحاً لهؤلاء المبشرين .

ولم تكن وسيلتهم إلى التبشير بالمسيحية عرضاً لعقيدتهم وشرحاً لها أمام الناس كما هو المتبادر إلى الذهن من لفظ التبشير ، وإنما وسائلهم هى استغلال فقر الناس وحاجتهم وجهلهم فيأخذون هذا الطراز من الناس ويأخذون نساءهم وأولادهم وينفقون عليهم ببذخ على أن يظلوا معهم داخل كنائسهم ويقولوا مثلما يقولون ... أما الشباب من أبناء الأغنياء فكانوا يغرونهم بالنساء ... كانت وسائلهم أخس الوسائل وأحطها ... وقد استمر عملهم هذا فى جميع أنحاء البلاد أكثر من سنة ومع ذلك لم يخرجوا بمحصول يزيد على عشرات الأفراد من هؤلاء الجهلة الفقراء المدقعين ..

لم تكن هذه الحملات العانية للتبشير إذن ذات أثر يذكر فى نتائجها من ناحية تكفير المسلمين لكنها كانت صورة بشعة متوحشة للاستعمار البريطانى أمام شعب أعزل مغلوب على أمره ، تضافرت على قهره حكومته مع الانجليز ... كان الناس يبكون من شدة الغيظ لأنهم يرون بأعينهم من ينتهك حرمة عقيدتهم — وهى أعز ما يعتزون به — وهم لايستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم لأن حكامهم جعلوا الدفاع عن النفس فى هذه الحالة جريمة يعاقب مرتكبها .

كنا فى ذلك الوقت فى رشيد — ولم تكن رشيد هدفاً للمبشرين لأنهم درسوا طبيعة البلاد قبل أن يحضروا من أمريكا وفرنسا وبلجيكا وغيرها من بلاد أوربا فعلموا أن هناك مدنا مغلقة

لا أمل لهم فيها حيث لها طبيعة خاصة وتاريخ لا ينسى ومنها رشيد ، فلم يحاولوا دخولها .. لكننا كنا نسمع عما يفعلون بالمحمودية وقراها من خطف الأطفال وإغراء الفقراء بالمال وإغرا الشباب بالعبث وبالنساء ... وكان أهل المحمودية يحضرون إلى رشيد فيروون ما يحدث عندهم فيبكون ويبكون ..

أما الصعيد فكان مرتعاً خصباً لهم ، حيث الفقر هناك والجهل والمرض أضعاف ماهو عليه فى الوجه البحرى ، وحيث كان الصعيد فى ذلك الوقت يعتبر من المجاهل التى تحتاج إلى من يرتادها ويكشف عن معاناة أهلها المعزولين عن الحياة ... لقد فعلوا فيه الأفاعيل .. وكانت أسيوط نقطة ارتكازهم وكان لهم فيها مستشفى يخطفون الأطفال والنساء من القرى وينقلونهم إليه ، ولا يستطيع أهل المخطوف أن يروه أو يعلموا عنه شيئاً ، كما لايجدون من يشكون إليه .

كاد الناس يفقدون إيمانهم بالله أمام هذه القوى العارمة المتضافرة ثم لا يجدون من يعترض طريقهم ؛ حتى الصحف لم تكن تشير إلى ذلك مع أنها كانت صحافة حرة لكن نفوذ الإنجليز وقانون المطبوعات الذى وضعه الإنجليز ، يعطى حكام مصر المتواطئين معهم السلطة فى مصادرة أية صحيفة أو وقفها أو سحب الترخيص بها إذا هى تعرضت للمؤامرة المدبرة على إذلال الشعب وتكفيره برضاه أو رغم أنفه ؛ كما أن الأموال الطائلة المعتمدة لحملات التبشير من خزائن أمريكا وانجلترا وفرنسا ودول أوربا كانت تنفق على هذه الصحف بسخاء ..

يقول حسن البنا – الطالب بدار العلوم فى ذلك الوقت – كاد صدرى يحترق من زفرات الألم كما كادت تحترق صدور الناس من حولى ، لكننى فكرت فلم أجد لهذا الألم معنى إذا لم يتحول إلى عمل ، ولكن كيف نحوله إلى عمل والحراب مشرعة فى وجوهنا من رجال الحكم الذين كان يجب أن يكونوا هم ملاذ الناس ، والذين صرنا وإياهم كما قال الشاعر :

وقد كان منا إليك الشــــكا ةفأصبحت أنت الذى تشتكى

فكر حسن البنا فرأى أمامه فى الأزهر شخصيات يرجى نفعها لما يلمس فيها من غيرة على الدين واستعداد للعمل إذا وجدوا إليه سبيلا كالشيخ يوسف الدجوى . فاتصل بهذه الشخصيات فوجد فيها تحرقاً إلى العمل لكن الطريق أمامهم مسدود ... ثم لاحت فى مخيلته صورة شخصية أخرى لها كيان علمى وأدبى خاص تفردت به دون غيرها ... ولها من ظروفها ما قد يعين على إيجاد بصيص من نور فى هذه الحلكة القاتمة ... تلك هى شخصية «أحمد تيمور باشا» ذلك العالم الجليل سليل المجد والصديق الشخصى للملك فؤاد .

استصحب حسن البنا معه عددا ممن استجاب له من هيئه كبار العلماء وذهبوا لمقابله احمد باشا تيمور فى منزله ... فاستقبلهم الرجل أحسن استقبال وكان يعرفهم جميعاً عدا هذا الشاب الصغير .. وتقدم هذا الشاب الصغير فتحدث عن الموضوع . حديث الشكل عن فلذة كبدها – ووصف الحال التى تظل البلاد وكيف يعبث المبشرون فى البلاد فساداً تحت سمع الحكومة وبصرها بل وفى حمايتها وانفجر فى البكاء حتى أبكى الباشا فأبكى الحاضرين ... وتداول المجتمعون عسى أن يجدوا مخرجاً ... وجاءت سيرة الملك فؤاد فقال تيمور باشا إنه صديقى وأثق فى غيرته على الإسلام وتعددت الاجتماعات ونوقشت أفكار ومقترحات وانتهت إلى قرار بأن أول إجراء لابد منه أن نصدر مجلة تتصدى لهذه المؤامرة وتفضح اعتداءاتها وتستنهض الهمم لمقاومتها .. وبمجهود تيمور باشا وتدخل الملك فؤاد صدرت مجلة الفتح وأسندت رياسة تحريرها إلى الكاتب الإسلامى العظيم الأستاذ محب الدين الخطيب ..

وقد حضرت فى خاطرى الآن قصة كان قد حدثنا بها الأستاذ المرشد ؛ وهى تتصل بأساليب المبشرين فى إغراء أبناء الأغنياء من المسلمين بالنساء مما أشرنا إليه قبلا ... ومعذرة إلى القارىء إذ فاتنى ذكرها فى موضعها .

وقد حدثنا الأستاذ بهذه القصة فى معرض حديثه عن كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام أبى حامد الغزالى . وكان الأستاذ المرشد يرى أن هذا الكتاب هو أعظم موسوعة إسلامية ، وكانت إحدى أمانيه أن تتيح له الظروف شرح هذا الكتاب . وقد شرع فعلا فى ذلك فأعد درساً أسبوعياً فى منزله لمجموعة من الإخوان فى شرح هذا الكتاب وكان حريصاً على كتابة كل درس يلقيه فى كراسة –مما لم يفعله فى أى درس آخر – ولكن الظروف لم تسعف فقد هبت الأنواء من كل جانب على سفينة الدعوة فعصفت أول ما عصفت بهذه الدروس التى لم تدم إلا بضعة أسابيع ولله الأمر من قبل ومن بعد .

قال الأستاذ : فى أوج الحملة التبشيرية – وكنا إذ ذاك بالمحمودية – كان أحد الشبان –وذكر لنا اسمه ولكننى نسيته – من أبناء أثرياء المحمودية قد أغرى باحدى فتيات المبشرين حتى ملكت عليه فؤاده ... ولما كان الشاب مستقيما متديناً فقد أبدى رغبته للمبشرين فى الزواج منها ، فاشترطوا عليه قبل إتمام الزواج بها أن يتنصر وأن يعمل خادماً فى الكنيسة .. ففعل ودخل الكنيسة يقضى فيها نهاره وليله ولا يخرج منها أملا فى أن ينال رضاهم فيحققوا له رغبته الجارفة .

وفى إحدى الليالى ، بينما هو نائم فى الكنيسة رأى فيما يرى النائم أنه فى الجنة — وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . — ثم رأى رجالا ثلاثة عليهم هيبة ووقار قادمين نحوه ... وتقدم أحدهم فسلم و عرف بنفسه فكان موسى عليه السلام ثم تقدم الآخر فكان عيسى عليه السلام ... ثم أشارا إلى ثالثهم وقال : أتعرف من هذا ؟ قال : لا قالا .. إنه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين قال : فأخذتنى رعدة ... فقالا : إنما جئنا لنعتب عليك فيما فعلت ... وقال عيسى عليه السلام : كيف ترجع على عقبك وتتنصر مع أننى أنا أؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟...

قال الشاب : فاستحييت من النبى صلى الله عليه وسلم وتصببت عرقاً مما فعلت بدافع الشهوة والهوس وحاولت الاعتذار والتوبة فلم أستطع أن أنطق فقد ألجم لسانى ... فسكن النبى صلى الله عليه وسلم من روعى وقال لى : إذا أردت أن تصحح إيمانك فاصعد إلى أعلى الجنة — وحدد لى شجرة معينة — فستجد أبا حامد الغزالى جالساً فى ظلها فتلق عنه كتابه «إحياء علوم الدين» .

قال الشاب : فصعدت حتى رأيت أبا حامد فابتدرنى بقوله : مرحباً بمن بعث به إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم أخذ يفتح كتابه «الاحياء» ويشرح لى وكلما شرح لى باباً انكشف عن قلبى غمة حتى استيقظت من النوم وقد غسل قلبى ولم يعد للفتاة التى أحببتها شىء فى نفسى ، وخرجت من الكنيسة واقتنيت كتاب الإحياء .

قال الأستاذ : وعكف الشاب على الكتاب فصار شغله الشاغل حتى كاد يحفظه وكنا نرجع إليه فى فهم ما يصعب علينا فهمه منه .

وبعد إيراد هذه القصة المعترضة .... أرجع إلى سياق الحديث فأقول :

أخذت مجلة «الفتح» تفضح مؤامرات الإنجليز ، فاضطر الإنجليز إلى الانحناء أمام العاصفة وبدأت الحملة الصليبية لأول مرة تواجه مقاومة . وكانت النتيجة العاجلة لفشل المؤامرة أن اضطر الإنجليز لسحب أذنابهم حكام مصر من المعركة فلم يبق فى أرض المعركة إلا الصليبيون والشعب وجها لوجه .

وتكونت لجنة فى القاهرة برياسة الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى كان من قبل شيخاً للأزهر لمقاومة التبشير وتكونت لها فروع فى المدن والقرى ، ونصدت هذه اللجان لمن يسمون

أنفسهم بالمبشرين ، ومامن مرة تقام مناظرة بين الطرفين علناً إلا انهزم المبشرون بالحجة والبرهان ، بعد أن زال عنصر الترغيب والإغراء ، وعنصر القهر والإرهاب .

ولم تستطع الحملة الصليبية المسعورة بعد ذلك أن تثبت فى اما كنها إلا أياماً معدودة ، فكل يوم تجلو عن البلاد فرقة منهم حتى طهرت منهم البلاد فى أشهر معدودات .

إنشاء جمعية الشبان المسلمين :

كانت هذه الحملة الصليبية من أشد ما أصاب مصر من ويلات الاحتلال البريطانى ؛ إذ كان القصد منها تحويل مصر إلى معسكرين متناقضين كما فعلوا بالسودان ؛ فشمال السودان مسلمون وجنوبه مسيحيون . وقد أرضع مسيحيو الجنوب كراهية مسلمى الشمال ... كذلك أرادوا أن يفعلوا بمصر فقد ركزوا على الصعيد فأنشأوا فيه المركز الرئيسى لهم ، وكانوا ينقلون إليه من يختطفونه من أطفال الوجه البحرى ونسائه.. وشاء الله مع ذلك أن يخرج من هذا الشر المستطير خير ؛ فلولا هذه الحملة المسعورة ما استطاع حسن البنا أن يجمع على العمل للإسلام هؤلاء الرجال الذين لم تكن تجمعهم جامعة ولا تضمهم رابطة وجزى الله الشدائد كل خير .

وكان من ثمرات ذلك إنشاء جمعية تسمى جمعية الشبان المسلمين وأسندت رياستها إلى رجل مسلم غيور هو الدكتور عبد الحميد سعيد . وكان الطالب حسن البنا من أوائل من اشترك فى عضويتها .

وقد وجدت الرياضة فى هذه الجمعية باعتبارها وسيلة لجذب الشباب ، وإن كان تطور الزمن قد غلب الرياضة على جميع أغراضها حتى كادت تفقد المعنى الدينى الذى أنشئت من أجله .

كتاب « الغارة على العالم الإسلامى »

كان اختيار الأستاذ محب الدين الخطيب لتحرير مجلة «الفتح» اختياراً موفقاً ؛ فقد كان من القلائل الذين يفهمون الفكرة الإسلامية فهماً كاملا دقيقاً ، وكان من العلماء بالتاريخ الإسلامى القديم والحديث ، كما كان محيطاً بتواريخ الأمم على اختلافها ، ولم يكن مصرى المولد فالمعلوم أنه كان من أهل الشام . وشارك فى الحركات الإصلاحية الإسلامية فى نواحى العالم الإسلامى ويبدو أنه نزح إلى مصر هرباً من بطش الفرنسيين الذين كانوا لا يطيقون أن يروا كاتباً اسلامياً حراً فقد نفوا زميلا له هو الأمير شكيب أرسلان .. وقد عمل مع الشيخ محمد عبده

ومع الشيخ رشيد رضا...وكانت له مكتبة عظيمة في شارع درب الجماميز وبها المطبعة التي تطبع له الفتح وقد نقل مكتبته بعد ذلك إلى جزيرة الروضة .. وأنا طبعاً لم أحضر مجلة الفتح في أول ظهورها لكنني حين نزحت من أجل الدراسة إلى القاهرة كنت حريصاً على التنائها وكنت أجد في قراءتها متعة عظيمة لأنها هي وحدها التي كانت الصوت المعبر عن الفكرة الإسلامية في ذلك العهد، وهي وحدهاالتي كانت تلتقي على صفحاتها أقلام المجاهدين من أنحاء العالم الاسلامي وكان شعارها المكتوب بجانب اسمها على الغلاف هو هذه العبارة «أنت على ثغرة من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك» .

وكان من أعظم ما أخرجه الأستاذ محب الدين مما سوى مجلة الفتح كتاب « الغارة على العالم الإسلامي » هذا الكتاب يجدر بكل مسلم يريد أن يفهم الحقائق في هذا العالم أن يقرأه . إذ استطاع هذا الكتاب أن يفضح المؤامرة العالمية التي حاكتها الدول المسيحية للقضاء على الإسلام حيث كان.. ولم يعتمد الكتاب في فضح المؤامرة على مجرد التشهير بها والتنويه بخطورتها ورص عبارات التحذير منها ، وإنما اعتمد في ذلك على نشر نصوص اتفاقيات سرية تم عقدها بين هذه الدول في صورة جمعية عالمية للتبشير ألفتها هذه الدول ، وقد استطاع الأستاذ محب الدين الحصول على نصوص هذه الاتفاقيات بطريقته الخاصة . وإذا قرأت نصوص هذه الاتفاقيات وما رصدته هذه الدول لتنفيذها من مئات الملايين من الجنيهات وقرأت الوسائل التي رسموها لتقويض دعائم الإسلام في نفوس معتنقيه لعجبت لبعد نظر هؤلاء القوم ولبراعتهم في التنظيم والتخطيط .

وقد لقي هذا الكتاب حين صدر مقاومة عظيمة واتبعت في مقاومته نفس الأساليب الملتوية التي خططوها للقضاء على الفكرة الإسلامية ، وربما كان من هذه الأساليب شراء كل ما يصدر من الكتاب من نسخ وإعدامها فيحولوا بذلك بين المسلمين وبين اطلاعهم على محتوياته .. وهذا أسلوب من أساليب الاستعمار في محاربة الكلمة المطبوعة .

ليقضي الله أمرا كان مفعولا

تخرج حسن البنا في دار العلوم ، وكان أول دفعته بمجموع يصل إلى النهايات ، وكان المتبع أن يوفد أول الدفعة في بعثة دراسية إلى الخارج ولكن شاء الله أن يحول دون ذلك ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، وتؤسس دعوة الإخوان المسلمين في سنة ١٩٢٨ بعدأن تم تعيينه مدرساً بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية .

كانت الإسماعيلية فى ذلك الوقت مدينة أجنبية بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معان ، بل إن وصفها بهذا الوصف لا يفى بكل معانيها، فهى قطعة من أوروبا ، فغالبية أهلها أجانب من جميع الجنسيات ، والموظفون المحترمون بها أجانب ، وحاكمها « الحكمدار » أجنبى، والجيش المرابط فيها إنجليزى ... وهؤلاء الأجانب الذين يسكنونها يعيشون عيشة أكثر رفاهية وأرغد عيشا وأقوى جاهاً من تلك التى يعيشها أهلهم وذووهم فى فرنسا وانجلترا وغيرها من بلاد أوروبا ... لأنهم فى بلادهم قد لا يجدون من يخدمهم من أبناء جلدتهم إلا القليلين الذين يتقاضون أجراً باهظا قد يعجزون عن أدائه ومع ذلك فإن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم – حين يخدمونهم – إلا معاملة الند للند ، لا يقبلون منهم غطرسة ولا مهانة ولا كبرياء ... أما فى الإسماعيلية فالمصريون لا يكتسبون قوتهم إلا من خدمة هؤلاء الأجانب الذين يعتبرونهم أصحاب البلد الأصليين أما هم فخدم طارئون لا يتقاضون أجراً على خدمتهم إلا التافه القليل .. أشربت قلوبهم الذل فالرجل منهم لا يشعر أنه أهين إذا ما شتمه سيده الأجنبى أو صفعه أو ركله برجله لأن هذا كان هو الشىء الطبيعى المألوف .

كان سكان هذه المدينة ثلاث فئات : جيش الاحتلال البريطانى وشركة قناة السويس وهى خليط من الأجانب ولكن أكثرهم من الفرنسيين والإنجليز والأمريكيين ... والفئة الثالثة هى خدام هاتين الفئتين وهم المصريون ... ولما كانت الطبيعة البشرية تدفع بالأدنى إلى تقليد الأعلى فقد كان هؤلاء الخدم وهم الأهالى وقد فقدوا مقومات التشبه بسادتهم فى عيشة الرفاهية والبذخ لأنهم فقراء فلم يبق أمامهم إلا التشبه بهم فى شرب الخمر والإباحية على طريقتهم الخاصة .

لم يكن أهل الإسماعيلية جميعا عمالا لدى الأجانب بل كان منهم مقاولون ، وما أفخم صدى هذه الكلمة فى الأسماع ، ولكن ماذا كان عمل هؤلاء المقاولين ؟ كان عملهم توريد الخدم (العمال) من المصريين إلى هؤلاء الاجانب ، فكانت تجارة رقيق مقنعة وكان من عملهم نهب خيرات البلاد من مختلف قراها وأسواقها من الأغذية وحرمان الشعب منها وتوريدها للمستعمرين .. وكان من عملها شراء الزبالة التى يلقى بها جيش الاحتلال من بقايا الطعام وفتات الموائد وهو ما كان يسميه هذا الجيش(Rubbish) ويبيعه المقاول الكبير إلى مقاولين صغار وهؤلاء بدورهم ينقلونه إلى مختلف بلاد القطر حيث يتهافت أهالى البلاد المحرومون على شرائه ليقتاتوا به .

لم يكن للحكومة المصرية وجود فى الإسماعيلية ، ولا للقوانين المصرية وجود .. وإنما كان الجيش البريطانى سنداً لحكومة مستقلة ذات سيادة هى شركة قناة السويس .

نزل الشاب الصغير حسن البنا هذه المدينة الصاخبة وهو فى سن العشرين ، فرأى المدينة على الحالة التى وصفنا ، ووجد أنها تتكون من سادة هم الأجانب وخدم هم المصريون ، وهاله ما رأى من صلف السادة ومهانة المصريين .. وأحس أن الله تعالى قد اختار له هذا البلد لتكون المعجزة الاسلامية واضحة بارزة ... درس الشاب المنطقة المصرية من المدينة فوجد أن المساجد بها على ندرتها لا يؤمها إلا الشيوخ الفانون وذوو العاهات،أما آلاف الشباب فلا مقر لهم بعد الخروج من عملهم إلا المقاهى .. ولما كانت الدعوة فى حاجة إلى الشباب فلابد إذن من الاتجاه إلى المقاهى .

أراد أن يلفت إليه الأنظار ، فدخل إحدى المقاهى المكتظة ، وعلى حين فجأة تناول جذوة (بصة) من إحدى النراجيل « الشيشى » وألقى بها وهى ملتهبة من أعلى فنزلت على إحدى المناضد وسط الجالسين وتناثرت ، فارتاع الحاضرون وغادروا أماكنهم مذعورين وتلفتوا يبحثون عن مصدرها فرأوا شابا وسيما واقفا على كرسى يقول لهم « إذا كانت هذه الجذوة الصغيرة قد بعثت فيكم الذعر إلى هذا الحد فكيف تفعلون إذا أحاطت النار بكم من كل جانب ومن فوقكم ومن تحت أرجلكم وحاصرتكم فلا تستطيعون ردها ... وأنتم اليوم استطعتم الهرب من الجذوة الصغيرة فماذا أنتم فاعلون فى نار جهنم ولا مهرب منها » ...

وهكذا استمر فى موعظته يضرب بها على أسماع مرهفة وقلوب متفتحة وأحاسيس فى أشد حالات اليقظة على أثر المفاجأة ، فكان لها أعمق الأثر فى نفوس الحاضرين . واتجهوا إليه يسألونه عن نفسه وعن عمله وعن مقره ، وبدأوا يلتفون حوله ويغرمون بالاستماع إليه ، وقد حببهم فيه أنه شاب ، وأنه متطوع لا يتقاضى على موعظته أجراً ولا يبغى منها لنفسه نفعاً وتوالت كلماته فى المقاهى نتقل الحديث عنه من مقهى إلى أخرى حتى كثر الملتفون حوله فبدأوا فى تنظيم اجتماعاتهم به ، ولما ضاقت بهم المقاهى قرروا تكوين جمعية واتفقوا على تسميتها « الاخوان المسلمون » ثم رأوا أن يقوموا ببناء مسجد ودار يجتمعون فيها وبنوا المسجد والدار فكانت هى أول دار للإخوان المسلمين .

من آثار الدعوة فى الإسماعيلية

بنيت دار الإخوان فى الإسماعيلية وبنى مسجدهم وساهم فى بنائهما الأهالى كما ساهمت شركة قناة السويس باعتبارها عملا دينيا تفهمه الشركة كما كان يفهمه سائر الناس فى ذلك الوقت على أنه دروشة .

شركة جباسات البلاح

وسرت روح الإيمان الجديد من عمال الإسماعيلية إلى زملاء لهم بعيدين فى الصحراء حيث شركة جباسات البلاح وهى شركة أجنبية أيضاً تضم مئات من العمال . وتعلم هؤلاء العمال فيما تعلموا « الصلاة » ورأوا أن عملهم بالشركة يضيع عليهم بعض الصلوات لعدم وجود مكان بالشركة يصلح لأدائها ... فتقدم هؤلاء العمال إلى الشركة يطلبون بناء مسجد فيها لتأدية الصلاة فاستجابت الشركة لهم إذ هو مما لا يضيرها. فلما تم إنشاء المسجد أوعز إليهم الأستاذ أن يطلبوا من الشركة تعيين إمام للمسجد ليصلى بهم .. ولما كانت الشركة لا عهد لها بشروط الإمامة فقد فوضتهم فى اختيار من يصلح لذلك .

كان الشيخ محمد فرغلى طالباً أزهرياً ، نهل من معين الدعوة وارتوى ، وكان قد وضع نفسه فى خدمة الدعوة يوجهه الأستاذ حيث يشاء . فاختاره الأستاذ لهذه المهمة مهمة الامامة وخطبة الجمعة بمسجد الشركة .

ويسر وجود الإمام داخل الشركة للاخوان العمال أن يدعوا زملاءهم للصلاة لتضاعف بذلك عدد المستجيبين للدعوة من عمال الشركة .

جنرال لا إمام

أحس الأجانب المسئولون فى هذه الشركة بعد فترة من وجود هذا الإمام أن عمال الشركة قد تغيروا تغيراً ملحوظاً ، فهم وإن زادوا إخلاصاً فى عملهم حتى ظهر ذلك فى إنتاجهم إلا أنهم صاروا يعتزون بكرامتهم ولا يقبلون إهانة من أى مسئول بالشركة مهما علت مرتبته ومهما كان وراء ذلك من ربح مادى لهم .

إن هذا التطور شئ جديد .. ولم يطرأ على الشركة جديد إلا هذا الإمام الذى عين للمسجد .. إن هذا الامام ينشر أفكاراً صحيحة ونبيلة ومثالية لكنها ستحد من سلطتنا على هؤلاء العمال إذن لابد من إبعاد هذا الإمام .

ذهب أحد كبار المسئولين بالشركة واسمه المسيو فرانسوا فى اليوم التالى إلى المسجد بنفسه ونادى الإمام وقال له : إن الشركة قد قررت الاستغناء عنك وستمنحك مكافأة سخية جداً على أن تغادر المسجد الآن ولا تعود اليه .

فقال له الشيخ محمد فرغلى : ولكننى لا أستطيع مغادرة المسجد لأنك لست الذى جئت بى إلى

هذا المكان . فقال : ومن إذن الذى جاء بك ؟ قال : الأستاذ حسن البنا .. فبعث مدير الشركة فى طلب الأستاذ حسن البنا . فلما حضر قال له : يا أستاذ حسن أنت لم ترسل إلينا إماماً للمسجد وإنما أرسلت لنا جنرالا .

فسأله الأستاذ المرشد قائلا : أحب أن أسألك باعتبارك المسئول الأول فى هذه الشركة ... هل لاحظت منذ جاء هذا الإمام إلى المسجد على العمال تقصيراً فى أداء عملهم؟ قال: لا . قال: هل لاحظت عليهم سوء أدب مع زملائهم أو مع رؤسائهم ؟ قال : لا . قال الأستاذ : إذن لا مانع عندى من سحب الإمام .

زواج المرشد العام

كان من بين من استجاب للدعوة من أهل الإسماعيلية أسرة كريمة من أسرها تدعى أسرة الصولى ، وهم تجار من متوسطى الحال ... وكانت هذه الأسرة من الأسر المتدينة بطبيعتها وممن يربون أولادهم على الدين .. وكانت والدة الأستاذ تزور هذه الأسرة ، فسمعت فى إحدى ليالى زيارتها صوتاً جميلا يتلو القرآن فسألت عن مصدر ذلك الصوت فقيل لها إنها ابنتنا فلانة تصلى فلما رجعت الأم إلى منزلها أخبرت نجلها بما كان فى زيارتها وأومأت إلى أن مثل هذه الفتاة الصالحة جديرة أن تكون زوجة له ، وكان ما أشارت به ، فقد تزوجها فكانت أم أبنائه وهى التى رافقته فى السراء والضراء وكانت خير عون له فى دعوته حتى لقى ربه شهيداً مظلوما

انتشار الدعوة فى المنطقة

كان انتشار الدعوة بعد تأسيسها فى الإسماعيلية أمراً طبيعياً وقد ظل الإستاذ المرشد فى الإسماعيلية نحو خمس سنين انتشرت فى خلالها الدعوة فى منطقة القناة فى الإسماعيلية وبور سعيد والسويس وفى منطقة البحر الصغير من الدقهلية وفى بعض بلاد الشرقية -- وكانت نعقد مؤتمرات لهذه المناطق فى أوقات دورية .

الباب الأول

في شارع الناصرية

- العمل الطلابي المنظم
- الدعوة على مفترق طريقين

مقدمة

إذا كان لصاحب دعوة يبغى من وراء دعوته أن يتوطد مركزه ، ويعلو مقامه ، ويكون فى عز من التفاف الناس حوله ، والتمارهم بأمره ، ومسارعتهم إلى ما يرضيه ، وتنافسهم فى التقرب إليه ، وبذلهم كل نفيس فى سبيله ، فإن ذلك كله قد توفر لحسن البنا فى الإسماعيلية وما حولها .. ونستطيع أن نقول واثقين إن حسن البنا قد صار أعظم شخصية فى هذه المنطقة .

فماذا يريد إنسان بعد ذلك ؟ إن مثل هذا الداعية – وقد تحقق له أعظم ما يخطر بخيال إنسان ليطيب له المقام حيث العز والجاه والسلطة والشهرة دون منافس ولا منازع .

ولكن حسن البنا لم يكن هدفه الحصول لنفسه على هذه المتع الشخصية التى هى منتهى آمال كثير من الدعاة ، وإنما كان هدفه أبعد من هذا بكثير ... إنه كان يرى أنه يدعو إلى دعوة عالمية ، فلا بد أن ينتقل بها إلى حيث يبلغ صوته أوسع دائرة ممكنة من هذا العالم ... نعم إنه سيترك مكاناً يشار إليه فيه بالبنان ، ويتحدث عنه فيه بالإجلال الرجال والنساء والصبيان ، وإذا نادى هرع إليه ألوف من الناس ، وإذا قال ردد قوله ألوف آخرون .. سيترك ذلك إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ، ولن يحظى بتوقير ولا احترام ، وإذا نادى بأعلى صوته لم يستجب لندائه فرد واحد .. سيترك ذلك إلى مكان يكون فيه من غمار الناس ومجهوليهم .. كان يعلم هذا وأكثر منه ولكن طبيعة دعوته تفرض عليه أن ينتقل ..

ومن أطرف ما حدثنا به الأستاذ المرشد مما يتصل بهذه المناسبة قوله : إنه بعد انتقال الدعوة إلى القاهرة بثلاث سنين وانتقال مركزها العام إلى ١٣ شارع الناصرية بالسيدة زينب .. حضر أحد إخوان الإسماعيلية إلى القاهرة لزيارتى ، ولم يكن هذا الأخ قد زار القاهرة من قبل .. وكان يعتقد أن المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة له من الشهرة ما للمركز العام السابق فى الإسماعيلية وأن الأستاذ حسن البنا من أشهر شخصيات القاهرة ..

فلما نزل من القطار فى محطة القاهرة سأل أول من قابلهم من أهل القاهرة عن المركز العام للإخوان المسلمين ، فلما سمعه هؤلاء يسألهم عن شىء مجهول – وكأنه يسأل عن أحد معالم القاهرة

اعتقدوا أنه شخص ساذج وقالوا له —ساخرين — اتجه من هذا الطريق (وأشاروا إلى ناحية ما) ثم اسأل هناك... وظن الأخ أنهم جادون فى كلامهم واتجه حيث أشاروا ثم سأل فأجيب بنفس الطريقة .. وهكذا ظل يضرب فى شوارع القاهرة على غير هدى حتى قابلته صدفة وقد جاوز دار المركز العام بمسافة ... يقول الأستاذ فقص على الأخ ما حدث معتقداً أن هؤلاء الناس دلوه على الطريق وأثنى عليهم .. غير أنه لما قفل راجعاً مع الأستاذ المرشد المسافة التى جاوز بها دار المركز العام قال للأستاذ المرشد : إن كل من سألتهم عن الطريق صدقونى إلا صاحب هذا المحل (وأشار إلى محل على بعد أمتار لاتعدو الخمسين من المركز العام) فقد سألته فقال لى : امش إلى نهاية هذا الشارع (شارع الناصرية) فستجد ميدان السيدة زينب فاسأل هناك عن المركز العام .

ضحك الأستاذ المرشد ، وفهم أن الدعوة حتى بعد انتقالها إلى القاهرة بثلاث سنوات لازالت إحدى النكرات حتى ان الملتصقة دكاكينهم بدار مركزها العام لا يعرفونه .

محال إذن أن من يكون هدفه أن يعيش فى جو من الشهرة والاتباع ، والشيعة والأشياع ، أن يغادر مكاناً يتوفر له فيه كل ذلك ، لينتقل إلى مكان يكون فيه نكرة مجهولة ، وكمية مهملة ولكن المصلح يستجيب لدعوته مهما كلفته هذه الاستجابة .

انتقل فى عمله الخاص الذى يكتسب عيشه منه إلى مدرسة عباس الابتدائية بالسبتية بمصر ، واتخذ لأسرته مسكناً فى حارة الروم بالغورية ، وجعل مقره هذا مقراً للمركز العام بالقاهرة .. أما نعرفى على الدعوة فلم يكن إلا بعد أن اتخذوا للمركز العام مكاناً فى شارع الناصرية ، ويعد هذا الموقع بالنسبة لموقعهم السابق كالخروج من تحت الأرض إلى ظهرها ، وإن كانت الدار كما قلت من قبل داراً قديمة متداعية .

تركيز الجهود على الطلاب

تكوين لجنة الطلبة

تحدثت عن الطلبة الذين التقيت بهم فى المركز العام حين ترددت عليه أيام محاولتى استكناه أمر هذه الدعوة وأمر العاملين فيها . وقد لفت نظرى اهتمام الأستاذ حسن البنا بالطلبة اهتماماً شديداً فإذا تخلف طالب من المنتمين إلى الإخوان لأى سبب من مرض أو غضب أو غير ذلك عطل كل أعماله وخف إلى زيارته فى مسكنه مع مجموعة من زملائه الطلبة ويقضى عنده الساعات الطوال ؛ وهو الرجل الذى يضن بالدقائق أن يقضيها فى استقبال زائر مهما علا مقامه ؛ والرجل

الذى كتب على مكتبه هذه العبارة «الوقت هو الحياة» لأنه كان يخطىء المثل الذى يقول «الوقت من ذهب» ويقول : إن الذهب إذا ضاع أمكن استرداده ولكن الوقت إذا ضاع لم يمكن استرداده . وكان على مكتبه أيضاً لافته تقول «الواجبات أكثر من الأوقات».

كان يرى أن الطالب هو أحق إنسان أن يعتنى به وأن يحرص عليه وأن يبث إليه ما فى العقل والقلب . كان حريصاً على أن تكون أمور الطلبة من اختصاصه هو دون غيره ، ويخيل إلى أن انتقاله إلى القاهرة كان أهم دوافعه أن يكون فى الموقع الذى يمكنه من الاتصال بالجامعة التى كانت فى ذلك الوقت وحيدة لا أخت لها فى بلد آخر من بلاد القطر .. ومن مظاهر حرصه على الاتصال بالطلبة والعناية بأمرهم ماحدثنى به فى ذلك الوقت الأخ الكريم محمد فهمى أبو غدير قال لى : إن الأستاذ المرشد حريص كل الحرص على الاتصال بطلبة الجامعة بكل الوسائل الممكنة ، وكان يعتبر إقناع طالب واحد فى كلية من الكليات أنفع للدعوة من دخول بلد بأسرها فيها ، وكان يتلمس وسائل هذا الاتصال فعلم أن كلية الحقوق قررت على طلبة السنة الأولى بها دراسة مائة حديث نبوى اختارتها .. فهرع الأستاذ إلى هذه الأحاديث المقررة فشرحها شرحاً رائعاً ونشرها فى مجلة الإخوان وقام الاخوان الطلبة بعرض هذا العدد من المجلة على طلبة الكلية فأقبلوا عليها وتهافتوا على اقتنائها.وبهذه الوسيلة اكتسبت الدعوة عدداً جديداً من طلبة كلية الحقوق.

وبعد فترة قصيرة من التحاق بالدعوة رأى الأستاذ المرشد أن يكون للطلبة مجلس إدارة سماه«لجنة الطلبة»تمثل كل كلية فيها بطالب فكان يمثل كلية الآداب محمد عبد الحميد أحمد وكلية الحقوق حسن السيد عثمان وكلية الطب ابراهيم أبو النجا وكلية العلوم جمال عامر وكلية التجارة طاهر عبد المحسن وكنت أمثل كلية الزراعة واختار الأستاذ المرشد حسن السيد عثمان رئيساً للجنة واختارنى سكرتيراً لها .

كان تكوين اللجنة عملا كبيراً فى أثره وإن كان فى مظهره شيئاً تافها ، فلجنة مكونة من ستة شبان صغار فى حجرة صغيرة من شقة متواضعة فى شارع غير مرموق لا تثير شيئاً من الاهتمام ، ولا تبعث فى النفوس آمالا ترتقب ... ولكن الأستاذ حسن البنا بحاسته التى حباه الله بها ، والتى يرى بها من المستقبل مالا يراه جيله ، كان يعرف ما سيكون لهذه اللجنة من آثار بعيدة المدى ، فكان يعقد عليها آمالا عريضة اثبتت الأيام أنه كان على حق فى عقدها .

وإذا كنا نريد أن نعرض لآثار هذه اللجنة فسنقول الكثير ، وسيطول القول ، وسنرى آخر الأمر أن جميع تطورات الدعوة وكل ماقامت به من أعمال وما حققت من آمال وما أخفقت فيه من ذلك ، وأن بروز الدعوة على المسرح المصرى وانتشارها فى المجالين العربى والإسلامى ، ومواجهتها للاستعمار الغربى والغزو الفكرى الروسى منذ سنة ١٩٣٦ حتى الآن : كل ذلك هو آثار من هذه اللجنة .

الفصل الأول

العمل الطلابي المنظم

على أثر تكوين لجنة الطلبة بدأ عمل منظم فى الوسط الطلابى كانت مظاهره مايأتى :

أولا : توزيع مجلة الاخوان

لم تكن مجلة الإخوان المسلمين مجلة خبرية ولا مجلة ثقافية عامة حتى يقتنيها المتشوفون إلى معرفة الأخبار أو الذين ينشدون الثقافة للمتعة والتسلية ، وإنما كانت لساناً معبراً عن دعوة الإخوان المسلمين ، وكان الأستاذ المرشد يكتب بقلمه أكثر ماينشر فيها ، وكان يحاول فى كتابته أن يقنع من يقرأها بالدعوة ؛ فكانت هناك سلاسل من المقالات بعناوين «دعوتنا» ، «إلى أى شىء ندعو الناس» «هل نحن قوم عمليون ؟..» وأمثال ذلك مما يوضح بأساليب منوعة طبيعة الدعوة وأهدافها ، ووسائلها وآثارها ، وكانت بقية المقالات تدور حول المعنى نفسه .

كما لم يكن لهذه المجلة رأس مال للإنفاق منه عليها ، ولما كان محرروها لايتقاضون على التحرير فيها أجراً فإن تكاليفها كانت قاصرة على أجر طباعتها وثمن ورقها وكان الأستاذ المرشد يتكفل شخصياً بالجزء الأكبر من ذلك ... ومجلة هذه حالتها وهذه ظروفها ماكان مصدروها ليفكروا فى حمل عبء آخر من أعبائها بأن يتعاقدوا مع شركة توزيع لتوزيعها ؛ وكيف يقدمون على مثل ذلك وهم عاجزون من ناحية عن تقديم مايتطلبه التوزيع من أجر ، ومن ناحية أخرى لايستطيعون طبع الحد الأدنى من النسخ حتى تصلح للتوزيع فهم يطبعون منها نسخاً بقدر ما يملكون من مال . وهذا القدر لايفى بعشر مايتطلب التوزيع العام فى مختلف الأنحاء .

لهذا كان يطبع من هذه المجلة بقدر عدد الإخوان الذين كانوا يقتنونها من أعضاء شعب منطقة القنال وما حولها وترسل إليهم عن طريق مندوبين من هذه الشعب يحضرون إلى القاهرة لتسلمها أو ترسل إلى هذه الشعب عن طريق مندوبين يحملونها إليهم وقد ترسل عن طريق البريد وكانت الكمية التى تستبقى فى القاهرة يوزعها الموجودون بالمركز العام على أنفسهم ، وقد تبقى بعد ذلك بقية لاتجد من يقتنيها .

ونظرت «لجنة الطلبة» فى موضوع المجلة فوجدت أن توزيع المجلة هو وسيلة من أهم وأجدى وسائل نشر الدعوة ووجدت أن الطلبة قد يكونون أكثر الطوائف فهما لما يكتب فيها وأحوجهم إلى قراءتها وأنفعهم للدعوة إذا اقتنعوا بأفكارها ، فقررت اللجنة أن يلتزم مندوب كل كلية بعدد من النسخ كل أسبوع يوزعه فى كليته .. وبدأت التجربة بعدد قليل وأخذ العدد فى الازدياد وكان الأستاذ المرشد يتابع هذا التوزيع باهتمام لأنه مقياس لمدى نجاح الدعوة فى كل كلية من الكليات .. وكان بعضنا – نحن أعضاء اللجنة – فى أول الأمر يسدد ثمن أكثر ماالتزم به من نسخ من جيبه الخاص ولكن نجاح التجربة أغنى عن ذلك فيما بعد .

ثانيا : نشر الدعوة داخل الكليات

كانت الكليات خلواً من الدعوة الإسلامية فى الوقت الذى كانت تعج فيه بالأحزاب السياسية والأفكار المنحرفة وكانت رؤية الطلبة زميلا لهم يصلى كافية للتشنيع عليه ورميه بالرجعية ولذا كان الطالب الذى تربى فى بيته على المحافظة على الصلاة يجد مشقة فى أداء الصلاة فى كليته ، وكان يستخفى بالصلاة خشية أن يراه زملاؤه فيرشقونه بألفاظ مؤلمة .. وقد يحمل هذا الكلام على محمل المبالغة أو التخيل ... ولذا فسوف أشرح مواقف توضح للقارىء أن هذا الوصف خلو من أى معنى من معانى المبالغة .

التحقت بكلية الزراعة وكانت الكلية فى تلك السنة ١٩٣٥–١٩٣٦ لاتزال مدرسة عليا ، وكانت لا تزال هناك وجبة غداء فاخرة تقدم للطلبة وكانت فترة الغداء هذه تطول أكثر من ساعة وتمتد فترة الدراسة بعدها إلى مابعد العصر ؛ فكان أداء صلاة الظهر أمراً لا مفر منه فى فترة الغداء ... ولما كنت طالباً جديداً وكنت حديث عهد بالكلية فقد تولتنى الحيرة أين أؤدى صلاة الظهر ، فلم أجد أمامى من أتوسم فيه معرفة ذلك إلا الفراشين فدلنى أحدهم على المكان وكان هذا المكان قبة مبنية على الأرض ، ولكى أدخل تحت هذه القبة كان على أن أهبط سبع درجات سلم حيث أدخل مكاناً مظلماً يشغل ثلاثة أرباع مساحته الضئيلة قبر عليه ستار من قماش مهلهل وحول القبر قطع بالية من حصير قذر لا يتسع لصلاة إثنين معاً ..

انقبضت نفسى حين دخلت هذا المكان وتعجبت كيف تؤدى الصلاة فى مثل هذا المكان ، ولكونى طالباً صغيراً حديث عهد بالكلية اضطررت لأداء الصلاة فيه فترة من الزمن ، حتى إذا استقرت فى خاطرى معالم هذه الكلية بدأت أبحث عن طريقة للتخلص من أداء الصلاة فى هذا

الجب البغيض . ولقد لاحظت أنه لحماية هذا المهبط إلى هذا الجب أقامت الكلية سوراً قصيراً من الحديد حوله ولكنه على وجه الأرض طوله نحو ثلاثة أمتار وعرضه نحو ذلك أو يزيد ؛ لتمنيت لو أننا صلينا فى هذا المكان ... ولاحظت أن هناك طالباً مواظباً على أداء صلاة الظهر فأحببته وتعرفت عليه وكان إسمه «محمود مكى» بالسنة الثالثة – وتبين لى بعد ذلك أنه مندوب «مصر الفتاة» » بالكلية – فعرضت عليه أن نصلى فوق الأرض فى المساحة التى يحصرها السور فهمس فى أذنى بأن هذا غير ممكن وإن أحداً لن يجرؤ على الصلاة فوق الأرض ، وأننا نصلى تحت القبة حتى لا يرانا زملاؤنا فيسخروا منا ويتهكموا علينا .

أثارنى هذا الاستخذاء وأجج فى صدرى مرجلا من الغضب فنقلت الحصير البالى من تحت القبة إلى المساحة التى يحصرها السور من سطح الأرض ، ثم وقفت فى هذا المكان وأذنت أذان الظهر بأعلى صوتى فكان أذانى هذا إحدى العجائب إذ تقاطر الطلبة والفراشون وموظفو الكلية من مختلف الجهات إلى حيث أؤذن ليروا بأعينهم مالم يصدقوا فيه أسماعهم .. فكانوا يعتقدون أن اجتماعهم فى مواجهتى وتكأكؤهم على كاف لإخجالى مما أقوم به فأكف عن إكماله ، ولكننى قبل أن أقدم على ما أقدمت عليه كنت مقدراً حدوث ماحدث بل حدوث ماهو أكبر وأنهيت الأذان ، وأقمت الصلاة وصليت والجموع فى مكانها لا تتحرك وأبصار الجميع شاخصة إلى ... وفى اليوم التالى فعلت مافعلت بالأمس . والباطل لاتقوى صولته إلا إذا تخاذل أهل الحق عن حقهم أما إذا اعتزوا بحقهم . ووقفوا شامخين أمام سيل الباطل فإن الباطل ينحسر سيله ويرتد خاسئاً وهو حسير ... فبعد أيام قلائل وجد محمود مكى والطلبة الذين كانوا يستخفون بصلاتهم وجدوا فى أنفسهم الجرأة أن يصلوا معى على وجه الأرض وظل العدد يكثر يوماً بعد يوم حتى ضاقت هذه المساحة بالمصلين .

كان لهذا العمل أثره فى فتح الطريق أمام الدعوة الإسلامية وهى دعوة الإخوان المسلمين ، فلقد كان أمام الطلبة المؤمنين باب مغلق تهيب كل منهم أن يحاول معالجته فكان هذا العمل بمثابة اقتحام الباب «وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين . ياقوم أدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

كان هذا هو العمل الذى لابد منه حتى تجد الدعوة الإسلامية الجديدة لنفسها طريقاً وسط هذا المزدحم الزاخر بالفكر والدعوات التى توطنت واستقرت فى نفوس هذا الشباب المأمول والذى عمل المستعمر وذيوله من قديم على الاستحواذ على عقله وفكره وعواطفه ومشاعره بعد أن ربوا على أيديهم وفى أحضانهم جيلا بثوا فيه أفكارهم ثم ألقوا إليه بمقاليد الأمور .

لقد كان دخول الدعوة الإسلامية كليات الجامعة أشبه برجل فقير ولد له ولد فجاء قوم من الأغنياء فاغتصبوا ولده وطردوا هذا الرجل الفقير وشردوه كل مشرد ، وربوا هذا الطفل فى قصورهم فنشأ لايعرف إلا لغتهم ولا يتغذى إلا بغذائهم ولا يتزيى إلا بزيهم ... فلما اهتدى والده بعد لأى إلى مكانه فى القصر ، اقتحم إليه فقوبل اقتحامه بعاصفة من الدهشة والاستنكار حتى من ولده الذى لم يكن يعرفه .. لما كان من الوالد – وهو صاحب حق – إلا أن ثبت فى مكانه ، وتمادى فى إصراره – ولصاحب الحق صولة – حتى بدأ قلب الولد ينبض بالرابطة الإلهية الأصيلة وألقى بنفسه بين ذراعى والده .

حرم الجامعة :

كانت مصر فى ذلك الوقت لا تزال قريبة عهد بالتعليم الجامعى ، ولم تكن الجامعة حتى ذلك الوقت الذى أتحدث عنه إلا مبنيين أثنين فى آخر شارع المدارس بالجيزة أحدهما لكلية الآداب والآخر لكلية الحقوق ، وبين المبنيين مبنى ثالث تعلوه قبة ضخمة هو إدارة الجامعة . ووسط ذلك كله أرض فسيحة مغطاة بالنجيل الأخضر تسمى «حرم الجامعة» . وكان حرم الجامعة هذا هو معترك أصحاب الدعوات ، حيث كان طلبة كليتى الآداب والحقوق فى ذلك الوقت يعدون أنفسهم بحكم ثقافتهم الأدبية والقانونية قادة الطلبة حيثما كانوا ، وهم الذين تفوضهم الأحزاب فى تمثيلها فى الأوساط الطلابية ، وكانت خزائن الأحزاب مفتوحة للطلبة المشايعين من هاتين الكليتين .

كان حرم الجامعة حتى ذلك الوقت حلبة نزال مستمر بين الأحزاب المصرية ، الوفد والأحرار الدستوريين والسعديين والحزب الوطنى ثم جد عليهم ممثلو « مصر الفتاة » ... ثم استقر رأينا فى «لجنة الطلبة» على النزول بالدعوة إلى حرم الجامعة ؛ وكنت الوحيد من خارج الكليتين العتيدتين الذى أصبح له مكان بينهم فى هذا الحرم .. وكانت المناقشات بيننا وبين ممثلى مختلف الأحزاب تستعر حتى أصبح لنا صوت مسموع فى هذا الحرم .

ثالثا : نشر الدعوة فى الاقاليم

سبق لى أن أشرت إلى أن الدعوة لم تكن معروفة إلا فى إقليم القنال وما يتاخمه من بعض بلاد الدقهلية والشرقية وبلاد معينة لأنها موطن أشخاص معينين من السابقين فى الدعوة كالمحمودية وكفر الدوار وشبراخيت وشبين القناطر ؛ ومع ذلك لم تكن الدعوة فى هذه المناطق معروفة على صورتها الكاملة بل تعرف منها جوانب محددة على القدر الذى كانت تسمح به ظروف الدعاة وظروف المدعوين .

ووجد الأستاذ المرشد ثمرة جهود سنة كاملة بين يديه من شباب الجامعة بل من أنضج شبابها قد يصل عدداً إلى المئة يفهمون الدعوة على أوسع دائرة من الفهم ومن أقدر الناس على توضيحها لغيرهم ، فكان لابد من الإفادة من هذه المجموعة التى يندر وجود مثلها فى هيئة من الهيئات .

أعد الأستاذ المرشد فى أواخر العام الدراسى مذكرة من نحو عشرين صفحة شرح فيها طرق الاتصال بالطبقات المختلفة من الناس والأساليب المثلى لمخاطبة كل طبقة ، وضمنها مجموعة من الآيات والأحاديث التى يستعين بها الداعية ، وطبع هذه المذكرة على «البالوظة» وقسم الطلبة مجموعات يضم بعضها طالبين وبعضها ثلاثة وبعضها أربعة ووزع هذه المذكرات على المجموعات وقسم القطر المصرى على هذه المجموعات فكان نصيب مجموعتنا وتتكون من طالبين: رشاد سلام من كلية التجارة وأنا — مدينة الإسكندرية .

ولما بدأت الإجازة الصيفية انتشرت هذه المجموعات فى أنحاء القطر .. وإلى هذه البعثات يرجع الفضل فى نقل الدعوة إلى كل مكان فى مصر ، وفى الانتقال بالدعوة من طور إلى طور جديد ؛ من طور كانت فيه جمعية موضعية تقارن بالجمعيات الإسلامية الأخرى التى كانت موجودة بالقاهرة مثل جمعية مكارم الأخلاق وجمعية البر والاحسان وجمعية الشفقة الإسلامية وجمعية دفن الموتى وأمثالها إلى طور آخر زاحمت فيه دعوات دينية كانت منتشرة فى كثير من بلدان القطر مثل الجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة كما بدأت تزاحم أفكاراً سياسية مسيطرة فى كثير من البلدان مما تعود الناس إطلاق اسم الأحزاب عليها .

وكانت المفاجأة المثيرة فى هذه البعثات أن الناس لأول مرة رأوا دعاة إلى الدين من شباب لم يكن يمت إلى الدين بصلة رسمية .. إذ كان طلاب الجامعة — وكانوا إذ ذاك عدداً قليلا — يتهمون فى عقيدتهم وينظر إليهم على أنهم أصبحوا غرباء عن بلادهم حتى فى العادات والتقاليد .. فكان

غريباً أن يروا من هذا الشباب من يغشى المساجد ومن يتكلم فى الناس كلاماً حلواً جميلا مطعماً بآيات كريمة من القرآن وبأحاديث شريفة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويكسو هذا الكلام الجميل روعة وجلالا وتأثيراً صدوره من قلوب مؤمنة به طاهرة نقية لا تسألهم عليه أجراً.

تمخضت هذه البعثات عن تكوين شعب فى جميع عواصم المديريات (المحافظات) وفى بعض حواضر المراكز .. نعم كان أكثر هذه الشعب يتكون من عدد قليل من الفقراء ومتوسطى الحال إلا أنهم كانوا مؤمنين بالدعوة فقد استجابوا إليها دون طمع فى منصب أو جاه أو مال ودون خوف من بطش فاصحاب الدعوة أنفسهم مجردون من ذلك كله حتى إن زعيم الدعوة ليس إلا مدرساً فى مدرسة ابتدائية .

رابعا : عام المعارك

بدأ هذا العام - وهو العام الثانى منذ التحقت بالدعوة - وقد أصبح لدعوة الإخوان كيان ملموس ، فقد أحس الطلبة فى بلادهم - وأكثرهم من خارج القاهرة - بدعاة من زملائهم انتشروا فى خلال الصيف فغزوا الريف ودخلوا بالدعوة إلى أحشاء البلاد .. وجاء هؤلاء الطلبة فى العام الدراسى الجديد إلى كلياتهم لامسين الكيان الإخوانى ، فلاعجب إذا هم نظروا إلى زملائهم من الإخوان من طلبة الكلية نظرة توحى بالاهتمام .

وكان لابد لهذا الكيان الملموس - وقد وجد - أن يعمل ، وأن يكون لعمله صدى ، وأن يكون لهذا الصدى دوى يلفت الأنظار ويشغل الرأى العام

(ا) معركة المساجد

من البدهى أن تكون الخطوة الأولى لدعوة إسلامية أن توجد المسجد الذى هو رمز الإسلام وقاعدته التى تنبعث منها أشعته فتضئ ما حولها - ولا ننكر أنه كان فى بعض الكليات مصليات لأداء الصلاة لكنها كانت فى أماكن حقيرة أنشأها عادة السعاة والفراشون ، وكان الطلبة الذين يريدون تأدية الصلاة يستنكفون أن يؤدوها فى هذه الأماكن لحقارتها وقذارتها من ناحية ، ولعدم وجود أماكن للوضوء بجانبها من ناحية أخرى ... ومن هنا نشأ ما نطلق عليه معركة المساجد وقد نشأت هذه المعارك فى اكثر الكليات فى خلال هذا العام لكن أشد هذه المعارك إثارة ما كان فى كليتى الزراعة والآداب لما كان لها من معان كبيرة ودلالات .

فى كلية الزراعة :

أشرت آنفاً إلى المحاولات التى بذلناها فى كلية الزراعة فى السنة الماضية فى سبيل الإعلان بالصلاة والظهور بها من تحت الأرض إلى سطحها ، وما كان لتلك المحاولات – التى عدت جريئة من آثار بعيدة المدى فى نفوس الطلبة والمدرسين وإدارة الكلية . ولم نكن – نحن الإخوان – نتصور أن هذه الآثار قد وصلت إلى حد هيأت فيه النفوس تهيئة عظيمة .

رأينا – نحن إخوان الكلية–أن نطالب إدارة الكلية بفرش هذه المساحة الضئيلة التى نصلى فيها بجانب القبة بحصير جديد ... وأول إنسان اتجه إليه نظرى ، وعول عليه أملى لمساعدتنا فى هذا الأمر هو وكيل الكلية وكان معروفاً بالصلاح والتقوى ، وبأنه من دراويش مسجد الحسين فذهبت إليه وحدثته فى الموضوع وأنا واثق فى الإجابة ، ولكننى سمعت منه كلاماً صدمنى وهدم آمالى حيث قال أولا : لا داعى لهذا ، وهذه القطع من الحصير موجودة فى المصلى من قديم ولم يشك منها أحد غيركم ، فلما طلبت منه أن يحضر للصلاة معنا عليها غضب وقال : إن إدارة الكلية لا شأن لها بمثل هذه الأمور !!

نقلت ما دار بينى وبين الرجل إلى إخوانى بالكلية فأسفوا لخيبة أملهم فى الرجل المصلى الذى لا يدع السبحة من يده والذى لا يدع يوما دون أن يصلى العشاء بمسجد الحسين ثم يطوف بالمقام .. ولكن خيبة أملهم لم تقعد بهم عن مواصلة الجهد واقترحوا أن نتقدم بهذا الطلب إلى العميد – وكان الوكيل قد حذرنا من ذلك خوفاً من أن يسلبنا ما اكتسبناه من حق الصلاة فوق سطح الأرض باعتبار العميد رجلا بعيداً عن هذه الاتجاهات ... ولكن ذلك لم يمنعنا أن نجازف وتقدمنا إلى العميد وكان الأستاذ محمود توفيق الحفناوى (بك)

استمع العميد إلى مطلبنا . وأطرق قليلا ثم بعث فى طلب وكيل الكلية فحضر . فقال له : إن هؤلاء الطلبة يطالبون طلباً متواضعاً . وأنا أتابع موضوع المصلى وتطوراته التى حدثت فى العام الماضى . وأنا معجب بجهود هؤلاء الطلبة المتدينين . وأنا لا أقبل أن تكون مصلى الكلية هذا المكان الحقير . ثم قال للوكيل : أتعرف المكان الذى كان يقام فيه سرادق الفداء فى العام الماضى ؟ قال : أريد أن يقام مكانه مسجد وتلحق بالمسجد حديقة خاصة به ...

ذهل الوكيل مما سمع من العميد ثم زاده ذهولا قول العميد له : أحب أن تتفرغ أنت شخصياً لإنجاز هذا العمل فتقيم المسجد وتفرشه بأفخر فرش وتشرف على زرع الحديقة بالأزهار الجميلة المناسبة ثم تعين له إماما يتفرغ للإمامة وشئون المسجد ..

ثم قال العميد : إن هذا المشروع سيتكلف كثيراً ، ومن الممكن أن نقيمه على حساب الكلية باعتباره منشأة من منشآتها ، ولكنى أحب أن يشعر الجميع بالمعانى السامية التى تدور حول إقامة مسجد بالكلية ولا يكون ذلك إلا إذا ساهم فيه الجميع طواعية ، وسأفتتح الاكتتاب بعشرة جنيهات منى .. وأمر الوكيل بإعلان الاكتتابات وكتابة اسم كل مكتتب والمبلغ الذى اكتتب به على سبورة توضع على حامل فى مدخل مبنى الكلية ... وانهالت الاكتتابات من الأساتذة والمدرسين والطلبة ، وأشاعت هذه الطريقة فعلا روحاً جديدة فى الكلية طلبة وأساتذة .. وجميع مبلغ كبير غطى المطلوب وزاد.

وقد أفدنا من هذه التجربة ما يأتى :

١ ــ أن المجهود النابع من قلوب مخلصة لابد أن يثمر « والعمل الصالح يرفعه »

٢ ــ أن الذين ينحرفون بالمعانى الإسلامية الكبيرة إلى مظاهر الدروشة وما يصاحبها عادة من الضعف والخنوع والاستكانة ، ليسواهم الذين يصلحون أن يعينوا على النهوض بالمجتمع الإسلامى بل هم المثبطون .

٣ ــ أن هنالك رجالا من أولى العزائم فى حاجة إلى ما يكشف عن عزائمهم من عمل جرئ مخلص فيرى الناس من هذه العزائم والهمم جلائل الأعمال التى يعجز عنها أكثر الناس .

وبنى المسجد وبنيت بجانبه دورة مياه خاصة به وألحقت بها حديقة غناء وصار يؤذن فيه وتقام الصلاة ويمتلئ بالمصلين وقد يضيق بهم على سعته .. وكان ذلك فاتحة عهد جديد لدعوة الإخوان المسلمين بالكلية وانتصاراً ساحقاً للفكرة الإسلامية .

فى كلية الآداب :

كان أداء الصلاة فى كلية الآداب أمراً شاقاً لعدم وجود مكان محدد معد لهذا الغرض وفى إبان معركة المسجد بكلية الزراعة استيقظت فكرة إقامة مسجد بكلية الآداب ... ولكن الوضع فى هذه الكلية يختلف عنه فى كلية الزراعة ، فالكلية عبارة عن مبنى واحد ، فليس بداخله مساحات من الأرض يمكن استغلالها فى بناء مسجد . وليس بالكلية مرافق تسهل هذه العملية .. ولذا فإن مجال الاختيار فى هذه الكلية كان محصوراً فى تخصيص حجرة من حجرات الكلية تكون قريبة من دورة مياه .

وتقدم الإخوان بالكلية إلى المسئولين بها يطلبون تخصيص حجرة لتكون مسجداً ، وكما هو

معتاد رد المسئولون يعتذرون بعدم وجود مكان لذلك ، ورفع الإخوان مظلمتهم إلى عميد الكلية وكان الدكتور منصور فهمى (باشا) ولم يكن معروفا عن الرجل اهتماماً بالدين ... وطلب العميد المتظلمين وسألهم عن الحجرة التى يريدونها ، فعينوا له عدة حجرات فقال الرجل : ينبغى أن تخصص للصلاة أكبر حجرة فى الكلية وأفخم حجرة بها .. وقال : أليس مكتب الأساتذة الانجليز يشغل أفخم حجرة فى الكلية ويلحق بها أفخم دورة مياة ؟ قالوا بلى : قال : سأوقع الآن أمراً بإخلاء هذه الحجرة وتخصيصها ودورة المياة الملحقة بها للوضوء والصلاة . وعلى إدارة الكلية إعداد حجرة أخرى لتكون مكتبا للأساتذة الانجليز .وبلغت الدهشة بالإخوان كل مبلغ لأن الإنجليز فى تلك الأيام كانوا سادة البلاد وأصحاب الكلمة والنفوذ وإن هذا الرجل بتصرفه هذا يضع نفسه فى فوهة مدفع قد يعصف بمستقبله فأراد الإخوان أن يفتحوا للعميد بابا للتراجع عن هذا القرار إلى قرار أدنى خطورة منه .

ضحك الرجل وشكر الإخوان على كريم شعورهم نحوه وإيثارهم مصلحته وقال لهم : لعلكم ظننتم أن هذا القرار كان منى وليد حماس بعثته فى نفسى حرارة الموقف وشدة التأثر .. لا والله يا أولادى ... لقد كان هذا القرار فى نفسى منذ سنوات ولكنى كنت محتاجاً إلى من يدفعنى إلى إصداره فكان مجيئكم هو هذا الدافع ...

أنا أعرف مدى سلطة الإنجليز فى بلادنا ومدى الإرهاب الذى جعل حول كل انجليزى هالة يراها المصرى فينكمش مهما كان هذا المصرى عظيماً ... ولكن سراً طويته بين أحناء ضلوعى من قديم وسأفضى به لأول مرة بين أيديكم الآن : لما كنت مبعوثا فى فرنسا واصلت دراستى بها حتى أخذت فى إعداد رسالتى للحصول على الدكتوراه ، وأعددتها فعلا ، ولما عرضتها على الأساتذة الذين سيناقشونها وبيدهم منحى الدرجة وبيدهم منعها أجمعوا على أنهم لن يمنحونى الدرجة — مع إقرارهم بأن الرسالة جديرة — إلا إذا أضفت إليها عبارات أهاجم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وأمام طيش الشباب . وخوفى من الرجوع إلى مصر بغير الدكتوراه فاعتبر خائباً ... أذعنت .. ومنذ ذلك الوقت وأنا نادم وأترقب فرصة تتيح لى عملا أكفر به عن هذه الخطيئة ... وقد أتحتم لى يا أبنائى هذه الفرصة فشكراً لكم ودعونى أعمل هذا العمل لعل ضميرى يستريح ..

وصدر القرار فكان مفاجأة مذهلة للجميع لا سيما للإنجليز الذين — لشدة ذهولهم — لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً إلا التنفيذ — وبذلك تحولت أعظم حجرة بالكلية وأعظم دورة مياه إلى مسجد بملحقاته .

(ب) معركة مع المخابرات البريطانية

مع أنه كانت فى بلادنا حكومة مصرية إلا أنها لم تكن تعرف حقيقة ما يدور على أرض بلادها من حركات فى حين كان الإنجليز يرقبون هذه الحركات ويرصدونها . كان الإخوان فى الكليات حتى ذلك الوقت فى طور التكوين لا يزالون يعرضون فكرتهم الإسلامية عن طريق الإقناع الفردى ، وعن هذا الطريق الفردى صار للدعوة أنصار من طلبة الجامعة كثيرون ... لم تفهم الحكومة المصرية حتى ذلك العهد فكرة الإخوان ولا أهدافهم ولكن الإنجليز تنبهوا لخطورة هذه الدعوة حين رأوا فجأة استجابة لها فى أوساط طلبة الجامعة ... وأقول فجأة لأنهم لم يكونوا يعرفون عن دعوة الإخوان شيئاً قبل أن تصل الجامعة ، وتبين لى أن الأستاذ المرشد كان حريصاً من أول يوم قام فيه بالدعوة على أن يموه على الإنجليز ، ويتفادى أى إجراء يستلفت نظرهم .

ولما تنبه الإنجليز اتخذوا إجراء عجيباً ... أرسلوا إلى القاهرة رجلا إنجليزياً أستاذاً فى التاريخ لزيارة كلية التجارة ، فالتف حوله الطلبة والأساتذة فعرفهم بنفسه فقال إنه إنجليزى مسلم بعد أن اعتنق الإسلام عن اقتناع سمى نفسه « خالداً» وأنه أستاذ فى التاريخ وأنه جاء إلى القاهرة باعتبارها العاصمة الإسلامية الكبرى ليسعد باللقاء والحديث مع رجال الجامعة من الأساتذة والطلاب حديث الأخ لإخوته .. سرى بين الطلبة نبأ هذا الأستاذ الإنجليزى المسلم فتقاطروا عليه كل يريد أن يوجه له سؤالا ... فتن الطلبة به بل والأساتذة . وسرت روح الافتتان إلى كليات أخرى فصارت تتوافد منها مجموعات بعد مجموعات للالتقاء به فى كلية التجارة .

ولا أدرى لم اختار كلية التجارة بالذات ليظهر فيها دون الكليات الأخرى؟ولكن لعل اختيارها كان لكونها تقع فى حى المنيرة فى وسط المدينة ، ولأن الدراسة فيها تسمح للطلبة بالتجمع فى حين كليات أخرى كالطب مثلا وإن كانت فى وسط المدينة إلا أن الطلبة فيها مشتتون بين المعامل وعنابر المرضى .

واستجابة لطلب المفتتنين به من الطلبة والأساتذة نظمت الكلية له محاضرات يلقيها — وأنا شخصياً لم تتح لى فرصة لحضور محاضراته ولا للالتقاء به — ولكن إخوان كلية التجارة كانوا ينقلون إلينا كل شئ عنه يوما بيوم ، لأننا فهمنا الهدف من إيفاده فى هذا الوقت بالذات ، وفهمنا اللعبة الإنجليزية التى طبعا لم تخطر على بال أحد من الطلبة ولا من الأساتذة ...

كانت محاضراته تدور حول كيفية اقتناعه بالدين الإسلامى ثم كان يتطرق من ذلك إلى

شرح الفكرة الإسلامية وأن العقيدة الإسلامية هى العقيدة الوحيدة التى تتمشى مع العقل وتخضع للمنطق، وفى أثناء شرحه للفكرة الإسلامية كان يجنح بها إلى النواحى العبادية والتصوفية ، ومن طرف خفى يقصرها على هاتين الناحيتين فيبالغ بها فيها ويباعد بها عن الشئون الدنيوية والتشريعية وكان أسلوبه هذا يلقى هوى فى نفوس الكثيرين من خلاة الذهن عن حقيقة الفكرة الإسلامية .

والإخوان المسلمون فى فهمهم للفكرة الإسلامية يعرفون أية مواضع منها توغر صدور الإنجليز باعتبارهم قادة المستعمرين فى ذلك العهد . ويعرفون أيضاً الخطط التى وضعها الإنجليز لمحاولة التخلص من هذه المواضع ، ويعرفون أن هذه المواضع هى ما يتصل من الفكرة الإسلامية بالتشريعات التى تنظم الحياة وتكون الدولة الإسلامية المثالية ... فالإنجليز يرتضون من الفكرة الإسلامية – إن كان لابد منها – الجزء الذى يتصل بالعبادة ويحاولون أن يمسخوا هذه العبادة بما يلقون عليها من ظلال الرهبانية مما يسمونه تصوفاً بحيث يتقوقع المسلم على نفسه فلا يبالى بما يدور حوله فى الحياة ، ويستوى عنده أن تكون بلاده حرة أو مستعمرة، لأنه حسب هذا الفهم المشوه للفكرة الإسلامية ، يعتقد أنه أدى كل ما أوجبته عليه .

الإنجليز بالذات – من دون المستعمرين–لم يحاولوا مهاجمة المسلمين بالحديد والنار كما فعل الفرنسيون والإيطاليون وغيرهم ، بل إنهم مكنوا لاستعمارهم فى البلاد الإسلامية بوسيلتين اثنتين معاً : الأولى الاستيلاء بوسائل الإغراء المختلفة – من مال ومناصب – على مراكز التوجيه الإسلامية والأخرى : إبراز الفكرة الإسلامية للشعب مبتورة ممسوخة .

فعلوا ذلك فى مصر ، فبعد أن ضمنوا أن المتربع على عرش البلاد صنيعة لهم – حتى إن الخديوى توفيق طلب حمايتهم واستجابوا له – ضمنوا بذلك أن الذين سيتداولون الحكم فى البلاد هم الفئة الغريبة عن الشعب بعواطفها وآمالها ولغتها .. ثم وجدوا أن مركز التوجية الإسلامى فى البلاد هو الأزهر فعملوا – عن طريق صنائعهم الحكام – على أن تكون مناصبه الرفيعة لمن تستهويهم المناصب ولمن يبيعون دينهم بعرض الدنيا ، وعن طريق هؤلاء سرت الفكرة المبتورة عن الإسلام فى مختلف أوساط الشعب الطيب القلب فانخدع ، وبهذا الأسلوب الهين اللين نام الشعب وغط فى نومه ولم يعد يبالى بما يجرى حوله فى بلده ولا فى أى بلد اسلامى ... فالمجازر تجرى فى سوريا وفى ليبيا وفى المغرب بأقسامه، ويقرأ عنها فى الصحف ، ولا يشعر بأى معنى من معانى التعاطف مع هؤلاء المسلمين الذين يظلمون ويقتلون ، ولا بأى معنى من معانى الغضب حيال من يقترفون هذه الجرائم ... نجح الإنجليز فيما لم ينجح فيه الطليان والفرنسيون حيث استطاعوا بطريقتهم الهادئة

الملتوية إخماد الجذوة الإسلامية فى نفوس المصريين فأصبحوا لا يحسون ولا يشعرون .

وفعلوا مثل ذلك فى الهند ، وقد اختلفت الوسائل فى مظاهرها ولكن الهدف هو الهدف ... اختاروا شاباً مسلماً آنسوا منه رقة فى الدين وتطلعاً إلى المنصب والشهرة والمال ، فأغدقوا عليه وكان اسمه «غلام أحمد» وأوعزوا إليه أن يدعى أنه نبى من عند الله أرسله الله بعد محمد وبشريعة محمد إلا أن الجهاد قد نسخ منها ... وباعتبار الهند فى ذلك الوقت شعباً موغلا فى الأمية والجهل والفقر والخرافة انخدع بعض الناس بهذا الدعى ، كما اشترى الإنجليز له بالمال أتباعاً من أمثاله يروجون له، وينشرون دعوته ، فضلا عن رجال الإدارة والحكم من الانجليز وأذنابهم الذين كانوا جميعاً فى خدمته ... وقد ألف كتاباً سماه « البيان» على ما أذكر وقد اطلعت عليه عند عمى رحمه الله ، ادعى أنه الكتاب الذى أوحاه الله إليه بعد القرآن ... ومن الطريف أنه قد بلغت به الوقاحة والاستخفاف بعقول الناس فى الهند أنه يقول فى هذا الكتاب إن الله قد بعثه بنسخ الجهاد لا سيما ضد الإنجليز ... ولما كان هذا الدعى الوقح من بلدة فى الهند تسمى «قاديان» فقد سمى دينه « بالقاديانية» أو «بالأحمدية» نسبة إلى اسمه ... وأكثر الإنجليز ممن يدعون أنهم مسلمون هم من أتباع هذا الكذاب .

وفعل الإنجليز مثل ذلك فى ايران ثم نقلوه إلى الشام وفلسطين أيام كانت تحت انتدابهم .. فقد ساندوا رجلا إيرانياً اسمه «بهاء» فادعى أنه «باب الإله» فهو درجة بين النبوة والألوهية وأن الله بعثه بدين يجمع بين الأديان السماوية الثلاثة الإسلام واليهودية والمسيحية، وأنه أيضاً جاء بالسلام فلا جهاد ، حتى العبادة جاء بها مخففة فالمسلم البهائى يصلى ركعتين مرة طول حياته ، والمسيحى يصلى صلاته فى الكنيسة مرة واحدة أيضاً وكذلك اليهودى ....

وقد ألقت الحكومة الإيرانية القبض على «بهاء» هذا وحاكته وأعدمته وطاردت فلول أتباعه الذين هربوا من البلاد ... فمن الذى تلقاهم بالأحضان وأوسع لهم؟ تلقاهم الانجليز فأحسنوا وفادتهم ومكنوا لهم فى فلسطين ووضعوهم فى المناصب الحساسة والمناصب الرئيسية .. وقد قرأت فى ذلك الوقت إحصائية لموظفى حكومة الانتداب فى فلسطين وأديانهم فكان البهائيون يمثلون أكبر نسبة ... وهؤلاء الموظفون البهائيون فى حكومة الانتداب بفلسطين هم الذين مهدوا لقيام الصهيونية ومكنوها من أرض فلسطين ومن رقاب أهلها.

ولا داعى للحديث عن الأساليب الإنجليزية الملتوية الأخرى التى أسسوها بالتحالف مع أقطاب اليهود لتفتيت القوميات ، وتقويض العقائد ، وتفكيك أواصر المجتمع كالماسونية وأخواتها مما قد نعرض له فى فصل قادم إن شاء الله ....

وقد فعل الإنجليز كل هذه الأفاعيل بالمسلمين في مختلف بقاع الأرض ، وكان حرصهم على نجاح خطتهم فى مصر أشد من حرصهم على نجاحها فى أى مكان آخر لأنهم يعرفون أن مصر هى مركز الإشعاع للعالم الإسلامى كله ... وقد نجحوا فى مصر كما قدمنا ، واطمأنوا لذلك تمام الاطمئنان ، وطال اطمئنانهم حتى إن الأمور صارت تجرى فى مصر على مايتمنون بالقصور الذاتى دون تدخل منهم أو جهد يبذلونه ... وحتى إنهم أخذوا يحولون جهودهم فى التخريب إلى بلاد أخرى ... غير أنهم أحسوا فجأة بدبيب حياة عاد يدب فى جسم الأمة فى مصر من جديد فهبت أجهزة المراقبة عندهم فتلاوم لم يحسوا بهذا البعث إلا بعد أن وصل إلى الجامعة المصرية ؛ فأخذوا فى وضع تكتيك سريع لأخذ الطريق على هذا البعث فأرسلوا هذا الأستاذ الانجليزى المسلم «خالداً» ......

واستطاع «خالد» بأساوبه البارع الأخاذ أن يستولى على مشاعر الكثرة الغالبة من الطلبة والأساتذة، وأن يصورلهم الفكرةالاسلامية كما أرادتها حكومتهالتى أرسلته...وكان لابد لإخوان كلية التجارة من إفساد التكتيك المحكم لهذا الرجل ، وكان فى كلية التجارة مجموعة من أنضج الإخوان مثل محمود أبو السعود وطاهرعبد المحسن ورشادسلام، وكان محمود أبو السعود يتقن الحديث بالإنجليزية كأهلها .. وكان تكتيكهم الذى رسموه أن يواظبوا على حضورمحاضرات الرجل ، وأن ينبثوا فى أماكن مختلفة بين الحاضرين ، وأن يوجهوا إليه أسئلة متدرجة أعدوها يتناوبون توجيهها ، وهى أسئلة تلزمه أن يتعرض للنواحى التى يتعمد إغفالها وتفاديها من الفكرة الإسلامية وهى ما يتصل بموضوع الإسلام والدولة ، والإسلام والتشريع ، والإسلام والجهاد ، والإسلام والقومية ، والاسلام والوطنية .

وأمطروه بالأسئلة بطريقة مرتبة ومهذبة ، وكان الرجل يجيب عليها بلباقة يتمكن بها من تفادى الاجابات المحددة ؛ فإذا سئل مثلا عن الإسلام والدولة والإسلام والتشريع قال إن الإسلام كغيره من الأديان يشرع لمتبعيه أسلوباً فى الحياة ، ولو اتبع أصحاب كل دين أسلوب دينهم لسعدوا فى الحياة ولصارت لهم دولة قوية ذات شأن ... وهكذا ظل الإخوان يلقون إليه بالأسئلة وهو يتفادى حتى ضيقوا عليه الحصار تضييقاً خانقاً ووضعوه أمام سؤال لا إجابة عليه إلا بلا أو بنعم ؛ قالوا له أنت الآن رجل مسلم فهب أن حرباً نشبت بين المسلمين وبين بريطانيا فمع أى الفريقين تحارب ؟ ... وحاول الرجل التهرب من الإجابة لكن الإخوان حاصروه ؛ لاسيما

ولقد لقى السؤال هوى فى نفوس جميع الحاضرين من الطلبة والأساتذة ، فأيدوا الإخوان فى سؤالهم وطلبوا الإجابة عليه .....

وأحس الرجل أن الحصار قد أحكم حوله ... وأراد الله فضح أمره فنطق – مكرها – باللفظ الذى قوض الصرح الذى بناه منذ أوفد فى مهمته حيث قال : انحاز إلى بريطانيا . فانفض الجمع الحاشد مرة واحدة مشيعينه بالاحتقار واللعنات .

وهكذا فسدت الخطة التى وضعها الإنجليز لأخذ الطريق على الإخوان المسلمين وهم لايزالون فى أول الطريق .

(ج) مع المعركة فى فلسطين

باعتبارى كنت منشغلا بالدعوة الإسلامية منذ الصغر كنت ذا إلمام بشىء غير قليل عن كل بلد إسلامى ، ومن هذه البلاد فلسطين . لكن معلوماتى عن فلسطين لم تكن تتعدى الشكل العام للأطوار التى مرت ببلاد الشام منذ وضعت الحرب الكبرى الأولى أوزارها فى سنة ١٩١٨ وماانتهى إليه الوضع من تواطؤ الاستعمار الغربى على سحب ما كانوا قطعوه للعرب من وعود ، وعلى تقسيم بلاد الشام بين الإنجليز والفرنسيين ،وكانت فلسطين من نصيب الأنجليز حيث انتدبتهم عصبة الأمم لإدارتها ، وكنت على علم بأن بلفور وزير خارجية انجلترا فى سنة ١٩١٧ قد أعطى لليهود وعداً بمنحهم وطنا قومياً فى فلسطين .

لكننى منذ حملتنى قدماى إلى المركز العام للإخوان المسلمين فى شارع الناصرية لاحظت من المرشد العام ومن هذه القلة القليلة من الإخوان بهذا المركز توجيه اهتمام خاص إلى قضية فلسطين ؛ وقرأت فى مجلتهم الكثير عن فلسطين . كما وجدت بالمركز العام مجلات واردة إليه من فلسطين ومن سورية بها من أخبار فلسطين ما كان يعد جديداً على ؛ فهمت مما قرأت أن الإنجليز يقومون بحملة مدبرة للقضاء على الكيان الإسلامى فى فلسطين وتمكين اليهود من الاستيلاء عليها ... ثم رأيت مفتى فلسطين السيد أمين الحسينى ومعه مساعده الشيخ صبرى عابدين وحوله مجموعة من قادة فلسطين رأيتهم يحضرون إلى المركز العام فى الناصرية ذلك المكان المتواضع ويتبادلون الكلمات الملتهبة مع المرشد العام ومع الإخوان الطلبة الذين كانوا أقدم منى صلة بالإخوان ... وسمعت المفتى يشرح مؤامرات الإنجليز التى تلجىء الرجل المسلم الساذج إلى بيع أرضه لليهودى تمهيداً منهم لتمكين اليهود واستيلائهم على مقاليد الأمور بفلسطين بحكم ملكيتهم لأرضها .

وقد استنتجت من زيارتهم لهذا المركز العام المتواضع المجهول وسط أحشاء القاهرة أنهم لا نصير لهم فى القاهرة إلا هذه العصبة التى تأوى إلى هذا المركز العام .. وقد تبين لى فيما بعد أن استنتاجى كان صحيحاً حين دس الإخوان صحفياً كان عضواً بالإخوان إلى رئيس الوزراء يسأله عما سيفعله إزاء تصرفات الإنجليز الظالمة فى فلسطين فرد عليه رئيس الوزراء بقوله : «إننى رئيس وزراء مصر ولست رئيس وزراء فلسطين» . على أن هذا الرد حين نشر بالصحف وقرأه الناس لم يحظ بأى اهتمام من الشعب ولم يقابل بأى اعتراض أو استنكار أو امتعاض باعتبار أن فلسطين وما يتصل بها لا يعنيهم فى قليل ولا كثير فهؤلاء فلسطينيون أما هم فمصريون .

وفهمت فيما فهمت أن السيد أمين الحسينى كون هيئتين لتنظيم العمل ضد المستعمر الإنجليزى واليهود الصهيونيين تسمى إحدى الهيئتين بالهيئة العربية العليا وتسمى الأخرى بالمجلس الاسلامى الأعلى وكان هو رئيس الهيئتين. والسيد أمين كان رجلا ذكياً ورعاً شجاعاً على علم ودراية بالدين وبالسياسة وكان موضع ثقة الجميع ، وقد استطاعت هاتان الهيئتان أن تشنا حرباً شعواء ضد اليهود وحماتهم الإنجليز وقد استشهد فيها الكثيرون مثبتين بذلك أنهم شعب مسلم كريم ... وقد قرأت فى مجلة سورية كانت تصل إلى المركز العام فى تلك الأيام أن بعض ساسة البلاد العربية سألوا المفتى عما بلغهم من أن بعض العرب فى فلسطين يبيعون أرضهم لليهود فرد عليهم بقوله : ليس من طبيعة العربى أن يفعل ما تذكرون كما أنه ليس من طبيعة البلبل أن يكون أخرس ولكن المستعمر قاتله الله هو صاحب الجناية لا العربى ورحم الله الشاعر الذى قال :

بلابل الله لم تخـــــرس ولا ولدت   خرساً ولكن بوم الشؤم رباها

فهمت بعد ذلك أيضاً أن الإخوان المسلمين أخذوا على عاتقهم النهوض بمهمة محددة هى أن يقوموا بجمع تبرعات لمجاهدى فلسطين ؛ فكان الأستاذ المرشد فى كل يوم جمعة يوزعنا على عدة مساجد فى القاهرة ، يرسل إلى كل مسجد اثنين على الأقل أحدهما يخطب بعد الصلاة ويشرح للناس ما يقترفه الإنجليز من مظالم فى فلسطين ويوضح للناس أن فلسطين هى البلد الذى به بيت المقدس ثالث الحرمين وأولى القبلتين وأن الإنجليز يريدون أن يسلموا هذا الحرم المقدس إلى اليهود . ويقوم الأخ الآخر بتلقى التبرعات فى صندوق معه .

وقد نجحت هذه الطريقة فعلا فى تحقيق النتائج الآتية :

١ — فى احاطة الناس علماً بأن هناك بلداً مسلماً بجوارنا سمه فلسطين يراد بيعه لليهود .

٢ — فى إيقاظ الروح الإسلامية فى الشعب المصرى الذى تضافرت قوى الاستعمار وأذنابه من الحكام ومحترفى الدين على تضليله وتخديره حتى نام وأغرق فى النوم .

٣ — فى إيجاد وعى لدى هذا الشعب بأن الإنجليز أعداء لنا وللإسلام ..

٤ — فى إقامة الدليل المادى الملموس على أن الحكومة المصرية مهما كان لونها أو حزبها إنما هى خادم ذليل للمستعمر الغاصب .

٥ — فى جمع مبالغ من المال من تبرعات الناس

أ — أما من ناحية النتيجة الأولى فلقد كان الناس فى فى مصر يجهلون فى ذلك الوقت أن هناك بلداً اسمه فلسطين ، وأن هذا البلد بجوارنا وهو أقرب إلى القاهرة من أسوان .. وبطبيعة الحال فإن من يجهل مجرد وجود بلد بهذا الإسم وأنها بلد مسلم فإنه يكون خالى الذهن عما يجرى بداخله من مؤامرات ... كما سبق أن أشرت إلى أن المصريين كانوا فى ذلك الوقت يعيشون فى عزلة ولا يعرفون أحداً ممن حولهم ولا يعنيهم أن يعرفوا .

وكان الإخوان أول من طرق أسماع المصريين بهذا الإسم ، وأول من لفت نظرهم إليه ، وأول من شغلهم بمتابعة مؤامرات اليهود ومكائد الإنجليز فى هذا البلد المسلم وأول من أثار قضية كان المصريون خلاة البال عنها تماماً وظل الإخوان يرفعون راية هذه القضية حتى شاء الله أن يكون الشاغل الأكبر بل الوحيد لمصر وللعرب وللمسلمين وللعالم كله .

ب — وأما إيقاظ الروح الإسلامية فى مسلمى الشعب المصرى المضلل فإن هذا الموضوع كان معضلة أمام دعوة الإخوان ، والإخوان وقد فهموا دعوتهم ، وجدوا أن بينهم وبين توضيح معالم دعوتهم — وهى المعانى الإسلامية العليا — لهذا الشعب عقبات كأداء مما حشا به المستعمر وأذنابه عقوله من التضليل والأوهام ، ومما تناولوا به عواطفه ومشاعره من تخدير حتى لم تعد تستجيب لداعية ملهم ولا لخطيب مفوه ، ولا تستقيم مع منطق أو برهان .. فكان لابد لكى يصل الإخوان إلى هذه العقول المضللة والمشاعر المخدرة من قارعة تحل قريباً من دارهم توقظ هؤلاء الموتى بزلزالها وتبعثهم من أكفانهم بصواعقها ... فكانت قضية فلسطين هى القارعة وهى الزلزال وهى الصاعقة .

لقد اختصر نهوض الإخوان فى ذلك الوقت بقضية فلسطين الزمن اختصاراً ، وأغنى عن الكثير من الخطب والمحاضرات والمقالات والمؤلفات ؛ فلو أن مائة محاضر مقنع ومائة خطيب مصقع بذلوا أقصى ما يستطيعون فى الإبانة عما تضمنته الفكرة الإسلامية من معانى التعاون والإخاء التى تربط بين المسلمين فى كل مكان ؛ لما أثمرت جهودهم عشر معشار ما كانت تثمره كلمة ثائرة من شاب من الإخوان يوجهها إلى جمهور المصلين بعد صلاة الجمعة يشرح فيها مايرتكبه

اليهود والإنجليز من فظائع ضد إخوانهم المسلمين فى فلسطين ، ويطلب منهم الغوث لإنقاذ بيت المقدس قبل أن ينتزعه الإنجليز من المسلمين ويسلموه لليهود ليحولوه إلى معبد يهودى .

وسأضرب مثلين يوضحان مدى تأثير مثل هذه الكلمات المستمدة من صميم الواقع والتى تعتمد فى لحمتها وسداها على قضية فلسطين ، وقد اخترت هذين المثلين لأننى لمست التأثير فيهما بنفسى : كلفت فى يوم من أيام الجمعة بالقيام بهذا الدور فى مسجد الرفاعى بالقاهرة ، وكان مسجد الرفاعى فى ذلك الوقت — وكما ذكرت من قبل — أفخم مسجد فى القاهرة ويؤمه فى صلاة الجمعة طبقة من أعلى أهل القاهرة ثقافة لأنه فضلا عن فخامته فإن خطيبه الشيخ محمود على أحمد كان خطيباً مفوهاً على مستوى يندر وجود مثله .

وبعد صلاة الجمعة وقفت وخاطبت الناس بالأسلوب المشار إليه آنفاً ، وكنت حريصاً أن أرفع المصحف بيدى طيلة مخاطبتى للجمهور وأقول لهم إن إخوانكم فى فلسطين إنما يقتلون فى سبيل هذا الكتاب وإن اليهود والجنود الإنجليز يقتحمون البيوت ويمزقون هذا الكتاب ويدوسونه بأحذيتهم .... فماذا كان بعد ذلك ؟... وماذا كان من صدى لهذه الكلمات فى نفوس الحاضرين وعقولهم ؟.....

كان التصرف الذى تصرفه خطيب المسجد — تنفيذاً لتعليمات الحكومة المصرية وحفاظاً على وظيفته أن تنتزع منه مع أنه كان من قبل صديقاً للاخوان — أن طلب من المصلين — وكان مطاعاً فيهم ونافذ الأمر عليهم — أن يمنعونى من الكلام. فلم يتقدم أحد.. واكتفوا بهذا الموقف السلبى حياء من الرجل الذى لم يتعودوا أن يعصوا له أمراً ... فلما رأى الرجل تقاعسهم أمر خدم المسجد — وكانوا كثرة أشداء — أن يمنعونى بالقوة فتقدموا نحوى ؛ وهنا نسى الجمهور تقديرهم لخطيب المسجد وبحركة غير إرادية وقفوا فى وجه الخدم وهددوهم إذا مسونى بأذى أن يقذفوا بهم خارج المسجد ، فتراجع الخدم ... فلم يجد خطيب المسجد وسيلة إلا أن يقف فوق كرسى الدرس — وأنا واقف على أرض المسجد — ويخطب ضدى ليفض الناس من حولى ولكن أحداً من الجمهور لم يلتفت إليه وظلوا جميعاً ملتفين حولى متأثرين بكلامى تأثراً ظهر أثره فى ملء الصناديق الأربعة التى كان يحملها زملائى فى نواحى المسجد ، وفى النهاية أقبلوا على يكادون يبكون من التأثر يدعون الله لنا أن يعيننا على هذا الجهاد .

والمثل الآخر صورة مماثلة للمثل السابق غير أنه يختلف عنه فى مستوى المسجد ومستوى المصلين فيه ؛ فبينما كان مسجد الرفاعى يضم عليه القوم وأعلاهم ثقافة ، كان مسجد قنطرة الدكة

بميدان الأوبرا يضم المستوى الشعبى من المصلين ، وحدث فيه نفس الذى حدث فى المسجد السابق إلا أنه فى هذا المسجد بعد أن وجد خطيب المسجد أن الخدم عجزوا عن الوصول إلى تقدم هو بنفسه نحوى وطوق صدرى بذراعيه ، وكنت واقفاً المصحف بيمناى ، فاجتمع المصلون عليه وانتزعونى منه وألقوا بالرجل خارج المسجد وهو يقول للناس : لاتخربوا بيتى إنه يشتم الإنجليز .

وهذا الذى حدث لى فى هذين المسجدين حدث مثله لزملائى فى مساجدهم بل إن منهم من كان رجال الشرطة يدخلون المسجد استجابة لطلب الإمام ويلقون القبض على الأخ الخطيب ويجرونه جراً فى الشارع حتى يصلوا به إلى قسم البوليس .

ولكن الذى أحببت أن أبينه للقارىء هو أن لجوء الإخوان إلى شرح قضية فلسطين لجمهور المسلمين فى المساجد كان أقصر الطرق للوصول بهم إلى فهم الفكرة الإسلامية فهما صحيحاً بما فيها جانب القوة والحرية والجهاد والسياسة وهو ما كانوا يعجزون عن فهمه بالأساليب المجردة من المحاضرات والمقالات وماإليها .

ج — وأما إيجاد الوعى لدى الشعب المضلل بأن الإنجليز أعداء لنا وللإسلام ؛ فقد يبدو لجيل هذه الأيام غريباً أن يكون جيش أجنبى يحتل أرض قوم ولا يشعر هؤلاء القوم بمقت هذا المستعمر والحقد عليه ، ولكن الإنجليز استطاعوا أن يخدعوا الشعب المصرى عن طريق صنائعهم من الحكام فأوهموه أن كل خير إنما يأتى عن طريق الإنجليز ، وشغلوا الشعب بمعارك جانبية حزبية ، فلم يعودوا يشعرون بوطأة الاحتلال فكان على الإخوان أن يقتحموا هذه الأسوار العالية وماكان لهم أن يفعلوا ذلك لولا تذرعهم بقضية فلسطين ومايجرى على أرضها من مؤامرات ومظالم ومذابح ضد العرب والمسلمين .

د — وأما إقامة الدليل على أن الحكومات المصرية على اختلاف نزعاتها وأحزابها إن هى إلا خادم ذليل للمستعمر ؛ فإن الشعب حتى ذلك الوقت لم يكن يرى من حكومة اضطهاداً إلا موجهاً إلى أنصار حزب معارض لها ، أما حينما قام الإخوان بأعباء الدعوة إلى تأييد العرب فى فلسطين فى محنتهم التى دبرها الانجليز فقد رأى الشعب بعينيه أن حكومات مصر على اختلاف أحزابها تقاوم الإخوان وتحاول منعهم عن الدعاية ضد الإنجليز وعن فضح إجرامهم : بل إن الشعب سمع بأذنيه أئمة المساجد وخطباءها الرسميين بإيعاز من حكومتهم يحاولون منع الإخوان ويقولون للناس بصريح العبارة فى معرض تبريرهم هذا المنع : إنهم — أى الإخوان — يهاجمون الإنجليز ، وإذا لم أمنعهم فسيعرضنى ذلك لقطع عيشى .. ففهم الناس لأول مرة أن هؤلاء

السادة الحكام الذين كانوا يعتبرونهم مثلا عليا فى الوطنية ليسوا فى حقيقة امرهم إلا خدما وأذناباً للمستعمر . فاعتماد الإخوان فى حديثهم إلى الناس على قضية فلسطين كان بمثابة جرعة منبهة لهذا الشعب المسكين أخذ يستفيق على أثرها من غشيته وأخذ يرى الأوضاع على حقيقتها .

ه — لم يبق من النتائج إلا جمع المال وهو لم يكن مقصوداً لذاته بل كان وسيلة للتعبير عن المشاركة الوجدانية كما يقولون ؛ بمعنى أننا كنا نريد أن نعرف مدى تأثير حديثنا مع الناس فكانت هذه القروش التى يقدمها السامعون هى تعبيرهم عن تأثرهم بما نقول . ومساهمة ومزية منهم فى استعدادهم لتحمل أعباء المعركة التى يخوضها إخوانهم ضد اليهود والإنجليز . . وهذا المال الذى كنا نجمعه لفلسطين قصة ستأتى فى سياق أحداث الدعوة سنذكرها فى موضعها إن شاء الله .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فلا يفوتنى أن أنوه هنا بحملة من حملات الدعاية لقضية فلسطين كانت هذه المرة خارج القاهرة وكانت فى مسجد السيد أحمد البدوى فى طنطا ، وكان الداعية فيها الأخ عبد الحكيم عابدين وكان إذ ذاك طالباً بكلية الآداب ومعه مجموعة من الإخوان . . وقد أخترت هذه الحملة بالذات لأنها هى وحدها دون غيرها من مئات الحملات قد شاء الله لها أن تسجل بقلم الكاتب الإسلامى الرفيع الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ؛ فقد كان أحد المصلين بالمسجد فى ذلك اليوم ، وقد هاجت الحملة فى نفسه كوامن الأسى على ما آلت إليه حال المسلمين من تدهور وانحطاط فسجل هذه الكوامن كما سجل الأمانى التى بعثتها هذه الحملة فى نفسه : سجل كل ذلك فى مقال رائع على صفحات مجلة الرسالة التى كانت توزع فى ذلك الوقت على على نطاق لايقل عن نطاق توزيع جريدة الأهرام . وكان تسعة أعشار قرائها إنما يقتنونها من أجل مقال الرافعى الذى كان دائماً يتصدرها ... وقد جمعت مقالات الرافعى هذه بعد وفاته فى كتاب «وحى القلم » فى ثلاثة أجزاء .

والمقالة التى سجل فيها الرافعى هذه الحملة سماها «قصة الأيدى المتوضئة » ومن حق القارىء على أن أمتعه بنقل فقرات من هذه المقالة التاريخية المثيرة والبالغة الروعة :

«قال الراوى» : وصعد الخطيب المنبر وفى يده سيفه الخشبى يتوكأ عليه (كانت وزارة الأوقاف تلزم كل خطيب مسجد أن يمسك بسيف من الخشب وهو يخطب الجمعة)فما استقر فى الذروة حتى خيل إلى أن الرجل قد دخل فى سر هذه الخشبة ، فهو يبدو كالمريض تقيمه عصاه ، وكالهرم يمسكه ما يتوكأ عليه ؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين ، كهينة سيفه الخشبى فى كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها .

وتالله ما أدرى كيف يستحل عالم من علماء الدين الإسلامى فى هذا العصر أن يخطب المسلمين خطبة جمعتهم وفى يده هذا السيف علامة الذل والضعة والتراجع والانقلاب والإدبار والهزل والسخرية والفضيحة والإضحاك ، ومتى كان الإسلام يأمر بنحو السيوف من الخشب ونحتها وتسويتها وإرهاف حدها الذى لا يقطع شيئاً ، ثم وضعها فى أيدى العلماء يعتلون بها ذؤابة كل منبر لتتعلق بها العيون ، وتشهد فيها الرمز والعلامة ، وتستوحى منها المعنوية الدينية التى يجب أن نتجسم لترى ؟ ..

أفى سيف من الخشب معنوية غير معنى الهزل والسخافة وبلاهة العقل وذلة الحياة ومسخ التاريخ الفاتح المنتصر ، والرمز لخضوع الكلمة وصبيانية الإرادة ؟...

قال : وكان تمام الهزء بهذا السيف الخشبى الذى صنعته وزارة أوقاف المسلمين ، أنه فى طول صمصامة عمرو بن معدى كرب الزبيدى فارس الجاهلية والإسلام (كان طول الصمصامة سبعة أشبار وافية وعرضه شبراً) فكان إلى صدر الخطيب ، ولولا أنه فى يده لظهر مقبضه فى صدر الرجل كأنه وسام من الخشب .

قال : وكان الخطيب إذا تكلف وتصنع وظهر منه أنه حمى وثار ثائره ، أرتج وغفل عن يده ، فتضطرب فيها قبضة السيف فتلكزه فى صدره كأنما تذكره أن فى يده خشبة لا تصلح لهذه الحماسة (القاعدة الشرعية أن البلد الذى يفتح بالسيف يخطب فيه الخطيب بالسيف . ولما ضعف المسلمون أنف السيف منهم وأطاعهم الخشب) .

قال : وخطب العالم على الناس ، وكان سيفه الخشبى يخطب خطبة أخرى : فأما الأولى فهى محفوظة معروفة ولا تنتهى حتى ينتهى أثرها ، إذ هى كالقراءة لإقامة الصلاة ، وكانت فى عهدها الأول كالدرس لإقامة شأن من شئون الاجتماع والسياسة ؛ فبينها وبين حقيقتها الإسلامية مثل مابين هذا السيف من الخشب وبين حقيقته الأولى ؛ وأما الخطبة الثانية فقد عقلتها أنا عن تلك الخشبة وكتبتها ، وهذه هى عبارتها :

ويحكم أيها المسلمون ... لو كنت بقية من خشب سفينة نوح التى أنقذ فيها الجنس البشرى ، لما كان لكم أن تضعونى هذا الموضع ؛ وما جعلكم الله حيث أنتم إلا بعد أن جعلتمونى حيث أنا ، نكاد شرارة تذهب بى وبكم معاً ، لأن فى وفيكم المادة الخشبية والمادة المتخشبة .

ويحكم .. لو أنه كان لخطيبكم شئ من الكلام النارى المضطرم ، لما بقيت الخشبة فى يده خشبة وكيف يمتلئ الرجل إيماناً بإيمانه ، وكيف يصعد المنبر ليقول كلمة الدين من الحق الغالب ،

وكلمة الحياة من الحق الواجب وهو كما ترونه قد انتهى من الذل إلى ان فقد السيف روحه فى يده :

أيها المسلمون .. لن تفلحوا وهذا خطيبكم المتكلم فيكم، إلا إذا أفلحتم وأنا سيفكم المدافع عنكم،

أيها المسلمون .. غيروه وغيرونى .

قال راوى الخبر : ولما قضيت الصلاة ماج الناس ، إذ انبعث فيهم جماعة من الشبان يصيحون بهم ويستوقفونهم ليخطبوهم ، ثم قام أحدهم فخطب ، فذكر فلسطين وما نزل بها ، وتغير أحوال أهلها ونكبتهم وجهادهم واختلال أمرهم ، ثم استنجد واستعان ، ودعا الموسر والمخف إلى البذل والتبرع وإقراض الله تعالى ، وتقدم أصحابه بصناديق مختومة فطافوا بها على الناس يجمعون فيها القليل والأقل من دراهم هى فى هذه الحال دراهم أصحابها وضمائرهم .

قال : وكان إلى جانبى رجل قروى من هؤلاء الفلاحين الذين تعرف الخير فى وجوههم والصبر فى أجسامهم والقناعة فى نفوسهم والفضل فى سجاياهم ، إذ امتزجت بهم روح الطبيعة الخصبة فتخرج من أرضهم زروعاً ومن أنفسهم زروعاً أخرى ، فقال لرجل كان معه : إن هذا الخطيب خطيب المسجد قد غشنا وهؤلاء الشبان قد فضحوه ، فما ينبغى أن نكون خطبة المسلمين إلا فى أخص أحوال المسلمين .

قال : ونبهنى هذا الرجل الساذج إلى معنى دقيق فى حكمة هذه المنابر الإسلامية ، فما يريد الإسلام إلا أن تكون كمحطات الإذاعة : يلتقط كل منبر أخبار الجهات الأخرى ويذيعها فى صيغة الخطاب إلى الروح والعقل والقلب ، فتكون خطبة الجمعة الكلمة الأسبوعية فى سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع ، وبهذا لا يجئ الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت ، فيصبح الخطيب ينتظره الناس فى كل جمعة انتظار الشئ الجديد ، ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل .

قال : وخيل إلى بعد هذا المعنى أن كل خطيب فى هذه المساجد ناقص إلى النصف لأن السياسة تكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر ، وأن لا يصعد إلا فى إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الوعظ الذى هو مع ذلك نصف وعظ ... فالخطبة فى الحقيقة نصف خطبة أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف ...

قال : وأخرج القروى كيسه فعزل منه دراهم وقال : هذه لطعام أتبلغ به ولأوبتى إلى البلد ثم أفرغ الباقى فى صناديق الجماعة ،واقتديت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت فى صناديقهم كل ما معى ، ولقد حسبت أنه لو بقى لى درهم واحد لمضى يسبنى ما دام معى إلى أن يخرج عنى .

قال الراوى : ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن ،

فإذا هنالك رجال من علماء المسلمين اثنان أو ثلاثة ثم توافى إليهم آخرون فتموا سبعة ... وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها ، فامتدت وعظمت حتى نشرت حولها جواً روحانيا من الهيبة تشعر النفس الرقيقة بتياره على بعد .

قال : وأنصت الشيوخ جميعاً إلى خطب الشبان ، وكانت أصوات هؤلاء جافية صلبة حتى كأنها صخب معركة لا فن خطابة ، وعلى قدر ضعف المعنى فى كلامهم قوى الصوت ، فهم يصرخون كما يصرخ المستغيث فى صيحات هاربة بين السماء والأرض .

فقال أحد الشيوخ الفضلاء : لا حول ولا قوة إلا بالله ... جاء فى الخبر « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم» والله ما تعس المسلمون إلا منذ تعبدوا لهذين حرصاً وشحاً «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» ولو تعارفت أموال المسلمين فى الحوادث لما أنكرتهم الحوادث .

فقال آخر : وفى الحديث «إن الله يحب إغاثة اللهفان» ولكن ما بال هؤلاء الشبان لا يوردون فى خطبهم أحاديث مع أنها هى كلمات القلوب ؟ فلو أنهم شرحوا للعامة هذا الحديث لأسرع العامة إلى ما يحبه الله .

قال الثالث : ولكن جاءنا الأثر فى وصف هذه الأمة «إنها فى أول الزمان يتعلم صغارها من كبارها فإذا كان آخر الزمان تعلم كبارهم من صغارهم » فنحن فى آخر الزمان ، وقد سلط الصغار على الكبار يريدون أن ينقلوهم عن طباعهم إلى صبيانية جديدة .

قال الراوى : فقلت لصديق كان معى : قل لهذا الشيخ : ليس معنى الأثر ما فهمت ، بل تأويله أن آخر الزمان سيكون لهذه الأمة زمن جهاد واقتحام ، وعزيمة ومغالبة على استقلال الحياة فلا يصلح اوقاية الأمة إلا شبابها المتعلم القوى الجرئ كما نرى فى أيامنا هذه ، فينزلون من الكبار تلك المنزلة ، إذ تكون الحماسة متممة لقوة العلم . وفى الحديث «أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره» .

قال الراوى : ولم يكد الصديق يحفظ عنى هذا الكلام ويهم بتبليغه ، حتى وقعت الصيحة فى المكان ، فجاء أحد الخطباء ووقف يفعل ما يفعله الرعد ، لا يكرر إلا زجرة واحدة ، وكان الشيوخ الأجلاء قد سمعوا ما قيل ، فأطرقوا يسمعونه مرة رابعة وخامسة ، وفرغ الشاب من هديره فتحول إليهم وجلس بين أيديهم متأدباً متخشعاً ووضع الصندوق المختوم .

فقال أحد الشيوخ : ممن أنت يابنى ؟ قال : أنا من جماعة الإخوان المسلمين . قال الشيخ :

لم يخف علينا مكانك ، وقد بذلتم ما استطعتم فبارك الله فيك وفى أصحابك .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ...

ثم تحركت النفس بوحى الحالة ، فمد أولهم يده إلى جيبه ثم دسها فيه ، ثم عبث فيه قليلا ثم... ثم أخرج الساعة ينظر فيها .

وانتقلت العدوى إلى الباقين ، فأخرج أحدهم منديله يتمخط فيه ، وظهرت فى يد الثالث مسبحة طويلة ، وأخرج الرابع سواكا فر به على أسنانه ، وجر الخامس كراسة كانت فى قبائه ، ومد صاحب اللحية العريضة أصابعه إلى لحيته يخللها ، أما السابع فثبتت يده فى جيبه ولم تخرج ، كأن فيها شيئا يستحى إذا هو أظهره أو يخشى إذا هو أظهره من تخجيل الجماعة .

وسكت الشاب ، وسكت الشيوخ ، وسكت الصندوق أيضاً ...

قال الراوى : ونظرت فإذا وجوههم قد لبست للشاب هيئة المدرس الذى يقرر لتميذه قاعدة قررها من قبل ألف مرة لألف تلميذ ، فخجل الشاب وحمل صندوقه ومضى .

أقول أنا : فلما انتهى الراوى من «قصة الأيدى المتوضئة» قلت له : لعلك أيها الراوى استيقظت من الحلم قبل أن يملأ الشيوخ الأجلاء الصندوق ، وما ختم عقلك هذه الرواية بهذا الفصل إلا بما كددت فيه ذهنك من فلسفة تحول السيف إلى خشبة ، ولو قد امتد بك النوم لسمعت أحدهم يقول لسائرهم : بمن ينهض إخواننا المجاهدون وبمن يصولون ؟ لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جاهل سخى أحب إلى الله من عالم بخيل» ثم يملأون الصندوق ...

الفصل الثانى

الدعوة على مفترق طريقين

« هل نهاجر ؟ »

كان حسن البنا – كدأب أصحاب الدعوات – حريصاً على أن يرتاد بدعوته أخصب أرض تنمو فيها وتترعرع . وكان يرى – كما كنا جميعاً نرى – أن مصر تزخر بالكثير من مظاهر الانحراف عن الدين مما تألم له نفس الرجل المؤمن ، وكان يفد إلينا فى مصر بين الفينة والفينة أفراد من بلاد عربية وبلاد إسلامية نرى فى علمهم وسلوكهم المثل العليا التى نرتجيها فاعتبرنا هؤلاء الأفراد صورة مصغرة لبلادهم ومجتمعاتهم التى جاءوا إلينا منها ، فتاقت نفوسنا إلى تلك البلاد ووددنا لو انتقلنا إليها بدعوتنا حيث نجد فيها الملاذ الطيب والملجأ المنيع والركن الشديد والخصوبة المأمولة ، وتحدثنا فى ذلك معاً وتحدثنا فيه مع الأستاذ المرشد فوجدنا لحديثنا فى هذا الموضوع صدى طيباً كأنما صادف هوى فى نفسه .

وأخذت هذه الفكرة يعظم أمرها فى نفوسنا وفى نفس الأستاذ المرشد حتى إنه جاء فى يوم من الأيام وكاشفنا بأنه أصبح مقتنعاً بالفكرة وبأن انتقالنا بالدعوة إلى بلد آخر أقرب إلى الإسلام يوفر علينا كثيرا من المشاق وكثيرا من الوقت ولكنه يريد أن يعرف مدى استعدادنا للهجرة يوم تتقرر الهجرة ، وما هى إلا لحظات حتى رأى منا ما يطمئن نفسه ، فسر وانشرح صدره .

ترجمة القرآن الكريم ومعركتها

اقتراح ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى ، اقتراح نشأ فى أروقة الجامع الأزهر ، باعتبار ذلك الوسيلة المثلى لنشر الإسلام فى بقاع الأرض ، حيث اعتقد الأزهر أن وجود القرآن الكريم باللغة العربية هو العائق الأكبر أمام من لا يعرفون العربية ، فاذا أزلنا هذا العائق بإيجاد القرآن مترجماً إلى مختلف اللغات صار انتشار الإسلام سهلا ميسوراً .

والدافع إلى هذا الاقتراح كما يبدو دافع نبيل ، يستهوى نفس كل غيور على الإسلام ، فإذا علم أن الأزهر بثقله العلمى والاسلامى يقف من وراء هذا المقترح فإن أحداً لا يتخلف عن تأييده ويتحمس لهذا التأييد ... ولهذا سرت فكرة الترجمة هذه فى مختلف البلاد ومختلف الأوساط .

وقد استغل هذا الموضوع من الأزهر لمن لا أدري في القاهرة ، وكان يشاع – على قراءة المصحف – أن الحكومة تؤيد هذا الاقتراح ولكنها تقدمه إلى الشعب عن طريق الأزهر حتى يكتسب صبغة تحببه إلى النفوس ، ولا أدري الدوافع من حماس الحكومة إلى تأييد هذا الاقتراح .

ومع أن الأزهر هو الذي قدم الموضوع إلى الشعب والحكومة معاً إلى الشعب من ورائه ، ومع أن علماء الأزهر في ذلك الوقت كانوا يتوجسون إرضاء الحكومة ، فإن رجلاً من رجال الأزهر تصدى للفكرة غير عابئ بالأزهر ولا بالحكومة ، وكتب في جريدة الأهرام سلسلة طويلة من المقالات النارية يفند فيها فكرة الترجمة ويهاجمها مهاجمة لا هوادة فيها ولا رحمة ، أولئك هو العالم الجليل الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة الشرعية العليا بالقاهرة ، وقد أغلقت هذه المقالات موضوع الترجمة ولروعة المقالات التي كانت تكتب تباعاً ولشدة ما كانت تكتسب هذا الرجل لهجومه مفسحة لها «الأهرام» صدر صفحته الأولى فكان الناس يتهافتون على قراءة هذه المقالات يريدون أن يصلوا إلى الحقيقة في أمر خطير يمس الناس جميعاً في أعز ما يعتزون به وهو القرآن الكريم .

وترددت إلى القاهرة وموضوع ترجمة القرآن محتدم على أشده ، فلما اتصلت بالإخوان وجدت الأستاذ المرشد يهاجم فكرة الترجمة ويصفها في دقة بأن الترجمة مستحيلة لأن التراكيب القرآنية العربية في ذاته معجز بحرفيته حتى يحول فهمه فهو يفهمه منه بقدر طاقته في الفهم والتصور ، وقد يفهم منه عربي آخر ما لم يفهمه الأول لأنه أوسع تصوراً – ويفهم من الآية في عصر من العصور ما لم يفهم منها في عصر سابق والآية هي الآية والألفاظ هي الألفاظ ، فالإقدام على ترجمة القرآن إقدام على مستحيل ومسخ للقرآن ونزول به عن مكانته لما يعد اعتداء على الإسلام في أقدس مقدساته ... وكان للإخوان – على قلتهم في ذلك الوقت – أثر ملموس في مهاجمة هذه الفكرة لأنهم كانوا الهيئة الوحيدة التي تهاجمها علناً .

وأذكر أنني بعد التداعي بهذا الرأي كنت مدة في صحيفة الإخوان هاجمت بها فكرة الترجمة من ناحية أخرى وهي ما يرجوه الأزهر من ورائها فقلت ما خلاصته إن الأزهر إذا كان يرجو من وراء ترجمة القرآن أن ينشر الإسلام في بلاد لا يتكلم أهلها العربية فإن هذا وهم ، وإن كان دستور الدعوة إلى الإسلام هو قول الله تعالى «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» فإن الحكمة تقتضي أول ما تقتضي أن يكون الداعي موضع احترام المدعو ... ولما كانت الأمم الإسلامية لا زالت موضع احتقار الأمم الأخرى لأنها أمة متخلفة متأخرة ضعيفة مستعمرة ، فإن الخطوة الأولى ليست هي ترجمة القرآن وإنما هي أن تتخلص هذه الأمم من أسباب الضعف والانهيار حتى تتبوأ مكاناً محترماً بين الأمم وحينئذ تجد الدعوة إلى الإسلام وحدها تلقى قبولاً .

الحج

فست أن الأستاذ المرشد قد كاشفنا بأن فكرة الهجرة بالدعوة إلى بلد آخر من البلاد الإسلامية يكون أقرب إلى الإسلام من مصر قد سيطرت على تفكيره وملأت نفسه ، ولكنه لن يقدم على هذه الخطوة حتى يحدد أى هذه البلاد الإسلامية أشد قرباً من الإسلام ، وخير وسيلة لتحديد هذا البلد هو الحج ، فإن الحج يجمع جميع الطبقات من جميع بلاد العالم الإسلامى .. فإذا اختلطنا بهذه الطبقات من جميع هذه البلاد استطعنا أن نقيم كل بلد من البلاد الإسلامية تقييما صحيحاً .

وقد صحب الأستاذ المرشد فى هذا الحج مائة من الإخوان من مختلف البلاد المصرية وقد وحد زيهم جميعاً فكل منهم يرتدى جلباباً أبيض وطاقية بيضاء .

وسافر وفد الحجيج وقلوبنا ترفرف عليهم حيثما كانوا وأديت فريضة الحج بالوقوف بعرفة وبعد أيام قلائل جاءنا البريد بطرد كبير فتحناه فإذا هو مجموعة كبيرة من العدد الأخير من جريدة « أم القرى » وهى الجريدة الوحيدة التى تصدر فى السعودية فى ذلك الوقت وكانت جريدة شبه رسمية ، فتعجبنا من وصول هذه الجريدة إلينا لأول مرة فقد كانت تصلنا من بلاد إسلامية أخرى مجلات وصحف ولكن هذه الجريدة لم تصلنا إلا هذه المرة ولكنها إذ تصل تصلنا منها هذه الكمية الضخمة، وتصفحنا الجريدة وكانت قليلة الصفحات فوجدنا يشغل مكان الصدارة فيها خطاب للأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ألقاه فى مؤتمر عظماء المسلمين فى الحج ، وقد لاحظنا أن الخطاب على طوله — فهو يشغل أكثر صفحات الجريدة — ليس إلا مجموعات من آيات القرآن الكريم لا يفصل كل مجموعة منها عن الأخرى إلا سطر أو سطران من كلام الأستاذ المرشد

الرجوع من الحج بمفاجآت ومفاهيم جديدة

كنا نعول الكثير على رجوع الأستاذ المرشد من الحج ، فإن مستقبلنا ومستقبل الدعوة كان متوقفاً على نتائج هذه الرحلة ، وقد أعددنا لاستقباله كل ما نستطيع إعداده ، وعلى سبيل المثال كلفنا الأستاذ عبد الرحمن الساعاتى بوضع نشيد نستقبله به فأنشأ نشيداً جميلا لا يحضرنى الآن إلا مطلعه الذى يقول :

مرحباً يوم قدوم المرشد عمت الأفراح أرجاء الندى وقدمنا اليوم كيما نهتدى

وكنا نتمرن جميعاً على إنشاده معاً ، كما أننا حشدنا أكبر عدد من الإخوان بالقاهرة وغيرها حتى امتلأ فناء الدار لأول مرة مع أضواء ساطعة فى أنحائه . وقد حضر الأستاذ المرشد إلى دار المركز العام قبل أن يذهب إلى منزله فلم يره أهله وأبناؤه إلا بعد انتهاء الحفل .

وبدأ الحفل بتلاوة القرآن الكريم ثم ألقينا النشيد ثم تكلم الأستاذ عمر التلمساني المحامى وكانت هذه أول مرة أراه فيها — وأذكر أنه افتتح كلمته بقوله : يسير على من صناعته الكلام أن يقول ويتحدث عن مشاعره ولكني أراني عاجزاً عن القول ... » ثم ألقى الشيخ محمد زكى إبراهيم قصيدة بالغة كانت تقاطع أكثر أبياتها بالهتاف والتكبير — ولم تكن الكلمات التى تلقى سواء منها الشعر والنثر إلا كلمات هادفة عظيمة المدلول — ولا زال يطن فى أذنى بيت من هذه القصيدة استعيد أكثر من مرة لروعته يقول فيه :

وصلاح الدين فى عصمتــه … تهد ذيله قبعات علنـــا

وناهيك بما تضمنه هذا البيت من معان تهدم دعاوى كانت رائجة فى ذلك الوقت ، وكان يدعو لها حتى رؤساء للوزارات فى مصر ورؤساء الأحزاب ، فقد صرح رئيس حزب الوفد — مصطفى النحاس — وكان رئيساً للوزارة بأنه معجب بحركة أتاتورك بدون تحفظ — وتتلخص حركة أتاتورك هذه فى أنه قضى على الدين الإسلامى ، ولبس القبعة وأمر الأتراك بلبسها ، وحتى اللغة التركية أمر بكتابتها بالحروف اللاتينية بعد أن كانت تكتب بالحروف العربية ، مدعياً أن هذه الحركة ستجعل من تركيا دولة عظيمة .

ثم قام الأستاذ المرشد ليلقى كلمته التى كنا نزن كل حرف منها بميزان ، وأستطيع أن أقرر أن هذه الكلمة كانت من أهم وأعظم ما صدر عن الأستاذ المرشد لأنها وضعت أسساً جديدة للدعوة وغيرت كثيراً من المفاهيم ، وأوضحت السبيل وحددته ، ويمكن تلخيص ما اشتملت عليه هذه الكلمة فى نقاط ثلاث :

أولا : ذكر الأستاذ المرشد أن همه كله كان منصباً على الالتقاء بوفود المسلمين من مختلف الطبقات من كل بلد إسلامى فى العالم ، والتحدث معهم ، ودراسة أحوالهم ، ومناقشة مشاكلهم ، والتعرف على مستواهم الحضارى والثقافى والدينى ، ومعرفة مدى تسلط المستعمر على بلادهم ، ومستوى فهمهم للإسلام وعلاقته بالحياة . قال : وقد اتصلت بالمحكومين والحكام فى كل بلد من البلاد الإسلامية وخرجت من ذلك باقتناع تام بأن فكرة الهجرة بالدعوة أصبحت غير ذات موضوع وأن العدول عنها أمر واجب ، فمصر على ما فيها من عيوب هى أحسن بيئة للدعوة الإسلامية .

ثانياً : أن دراسة أحوال المسلمين فى البلاد الإسلامية فى أنحاء العالم ضاعفت العبء الملقى على عواتقنا فقد كنا نعتقد أن هذه البلاد ستكون عوناً لنا على إصلاح مصر ، فتبين لنا أنها هى فى

ذاتها عبء يقتضى منا بذل أضعاف ما نبذله فى مصر لمجرد بعث الحياة فيها ، فالبون شاسع بين مستوى هذه البلاد ومستوى مصر سواء فى الدنيا أو فى الدين .

ثالثا : أن فكرة ترجمة القرآن فكرة ساذجة وخاطئة بل وجريمة قد لا تعدلها جريمة ترتكب فى حق الإسلام ، وساق فى إثبات ذلك مثلا واقعياً فقال : لعلكم تعجبتم حين وصلكم نحو مائة نسخة من جريدة أم القرى وفى صدرها كلمة لى ... إن لهذا الموضوع قصة هى غاية فى الأهمية ، وتجربة فى الدعوة الإسلامية لم تكن تخطر ببالى ولا ببال أحد ، تجربة فسرت آيات فى كتاب الله لم نكن نفهمها على وجهها الصحيح ، وقال : إننى سافرت إلى الحج ولم أكن أنظر إلى فكرة ترجمة القرآن بنفس الخطورة التى أصبحت الآن أنظر إليها .

قال : اعتاد الملك عبد العزيز آل سعود أن يدعو كل عام كبار المسلمين الذين يفدون لأداء فريضة الحج إلى مؤتمر بمكة المكرمة تكريماً لهم وليتدارسوا أحوال المسلمين فى العالم، وكان فى وفود الحجاج من كل بلد إسلامى فى العالم وزراء وأمراء وزعماء سواء فى ذلك البلاد العربية وغير العربية فكان من مصر مثلا الدكتور محمد حسين هيكل ومن سوريا ولبنان والعراق واليمن وإمارات الخليج وشمال أفريقية حكام وزعماء وكان من بلاد أفريقية الوسطى والجنوبية ومن جميع البلاد الإسلامية فى آسيا ومن جاليات المسلمين فى أمريكا الجنوبية وأوربا ؛ كل هؤلاء وجهت إليهم الحكومة السعودية دعوات لحضور هذا المؤتمر ؛ وطبعاً لم توجه إلينا دعوة باعتبارنا من عامة الحجاج .

قال : علمت بموعد هذا المؤتمر وبمكانه الذى سينعقد فيه ، فأعددت نفسى والإخوان المائة فى هيئة موحدة هى الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء ... وفى الموعد المحدد فوجىء علية القوم المجتمعون بمائة رجل فى هذه الهيئة يخطون خطوة واحدة يتوسط الصف الأول منهم رجل منهم هو المرشد العام... فكان هذا حدثاً مثيراً للالتفات... ودخل هؤلاء فاتخذوا أماكنهم فى نهاية الجالسين ؛ وبدأ المؤتمر بكلمة ترحيب من مندوب الملك.

ثم قام مندوب من كل بلد إسلامى فتكلم بلغة بلاده ؛ فألقيت عشرات الخطب بعشرات اللغات ومنها العربية التى ألقى بها الدكتور هيكل وأمثاله ممثلو الدول العربية ... يقول الأستاذ المرشد : وقد لاحظت أن الحاضرين يبدو على وجوههم السأم وغلب على أكثرهم النوم ... وقد ناقشت هذه الظاهرة مع نفسى وأدرتها فى خاطرى فوجدت أن السأم والنوم أمر تمليه الطبيعة البشرية فمادام السامع لا يفهم مايقال – وهو لا يستطيع أن يغادر المؤتمر – فمن حقه أن يسأم وأن يستسلم للنوم

قال فصبرت حتى انقضت الساعات الطوال التى استغرقها المندوبون فى إلقاء خطاباتهم واستغرقها الحاضرون فى النوم ؛ حينئذ أعلن مندوب الملك انتهاء المؤتمر ، وأصبح مسموحاً لمن شاء من الحاضرين أن يتقدم بملاحظاته إن كان له ملاحظات ... قال الأستاذ : فطلبت الكلمة واعتليت المنصة وارتجلت كلمة كانت أطول كلمة ألقيت ، وكانت الكلمة الوحيدة التى أيقظت الحاضرين ، وقوطعت بالإعجاب ، واهتزت لها المشاعر ، وبعثت فى المؤتمر جواً من الحيوية الدافقة ، وما كدت أنهى كلمتى حتى أقبلت على جميع الوفود تعانقنى ، وتشد على يدى ، وتعاهدنى وتطلب التعرف على وعلى من معى ، وتفتح قلوبها للفكرة التى تضمنتها كلمتى .

يقول الأستاذ المرشد : لقد أحسست وأنا جالس فى المؤتمر بأن المستعمر أفلح فى القضاء على أسباب التفاهم بين البلاد الإسلامية بعضها وبعض بالقضاء على اللغة العربية فيها وإحلال لغة غيرها محلها ؛ فأندونيسيا تتكلم بلغة أندونيسية والهند بلغة هندوسية والصين بلغة صينية ونيجيريا بلغة نيجيرية وغانا وغينيا وهكذا ... وفكرت فأسعفنى خاطرى بأن الشىء الوحيد الذى لايزال باقياً بلغته العربية ويقرأه الجميع بألفاظه العربية لأن العبادة لا تكون إلا بألفاظه التى أنزل بها هو القرآن . فالكل على اختلاف بلاده ولغاته ولهجاته يفهمه : فعزمت على أن تكون كلمتى كلها آيات من القرآن أرتبها ترتيباً يوضح كل ما فى نفسى من معانى الإسلام وأهدافه ووسائله ، وكيف يعالج النفس البشرية ويضع حلولا للمشاكل الحيوية ، ولاحظت من أول آية بدأت بها كلمتى أننى ضربت على الوتر الحساس فى قلب كل جالس فى المؤتمر ، وأحسست أن كل كلمة من آية أتلوها تقع من قلوب الحاضرين موقعها ، وتفعل فى نفوسهم فعلها ؛ حتى ذاب الثلج الذى جمد المشاعر طيلة الساعات السابقة ، وبدأ الدفء حتى غلت مراجل القلوب والتهبت المشاعر وكان لابد فى نهاية الكلمة من تجمع هذه القلوب والتفافها .

ويمكن تلخيص نتائج هذه الكلمة وآثارها فى الآتى :-

١ - أثبتت بما لا يتطرق إليه شك أن وجود القرآن باللغة العربية هو الرباط الأبدى الوحيد بين المنتمين إلى الإسلام حيثما كانوا ومهما اختلفت ألسنتهم وثقافاتهم ، وأنه فى صورته هذه التى نزل بها من السماء هو بمثابة الروح فى جسد هذه الأمة الإسلامية ، وأنه هو كلمة السر التى متى سمعها المسلم أنس بقائلها، وأحس أن بجانبه أخاً يحبه ويفتديه مهما اختلفا بعد ذلك فى كل شىء .

٢ - تبين تبيناً قاطعاً أن فكرة ترجمة القرآن ، إما أن تكون فكرة قوم من المسلمين

بلغوا من السذاجة حداً يؤسف له ، وإما أن تكون وليدة تفكير استعماري تبشيري خطير للقضاء على آخر رباط يربط الجسد الإسلامي الممزق ، أو هو قطع الشريان الوحيد الباقي في هذا الجسد ، ولذا كان على المسلمين أن يقفوا لهذه الفكرة المدمرة بالمرصاد .. وتبين كما قال الأستاذ المرشد أن قول الله تعالى عن كتابه العزيز : «إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» معناه أن هذا القرآن لايكون قرآناً إلا إذا كان عربياً وما كنا نعقل حقاً ولا كان أحد يدور بخلده قبل هذا المؤتمر أن عروبة اللغة هي جزء من القرآن لا يتجزأ وأن العروبة اللغوية اللازمة له هي السر الخفي الذي تتحطم على صخرته مؤامرات الأعداء ومكائد الحاقدين على هذا الدين ... وعلى حد قول الأستاذ في كلمته التي ألقاها في تلك الليلة في دار المركز العام إذ قال : إن كان لابد من ترجمة فلتترجم الأمم إلى القرآن ، لا أن تترجم القرآن إلى الأمم .

٣ — أحس الحاضرون لأول مرة بحرارة التيار الإسلامي يسري في مشاعرهم ، ورأوا لأول مرة أن العالم الإسلامي قد تمخض عن داعية من نوع جديد لم يألفوا له مثيلا من قبل ؛ فهو قادر على إثارة المعاني الإسلامية في النفوس ، وقادر على جذب القلوب بالجاذبية الإلهية التي هي القرآن، وقادرعلى جمع المتنافر منها تحت راية الإسلام، وقادر على بث روح الأخوة التي تصهر النفوس في بوتقة الإسلام ، فهرع الجميع يلتفون حول هذا الداعية الجديد ، ومن هنا سارعت «أم القرى» إلى نشر الخطاب بنصه فشغل معظم صفحاتها ، ولم تنشر غيره بل ولم تشر إلى غيره . وبدأ آل سعود يتعرفون على الداعية الجديد .

٤ — بقدر ما كان لهذه المظاهر الإسلامية الرائعة من أثر طيب في نفوس جميع الوفود فيبدو أنها لم تقع من نفس وفد مصر نفس الموقع، فقد شعر هذا الوفد بالمهانة حين رأى جميع الوفود انفضت عنه و لم تعره اهتماماً وهم الوزراء وكبار الساسة وأصحاب البلاد وسادة العباد ، والتفوا حول هذا الرجل النكرة الذي لم يسمعوا عنه ولم يعرفوا اسمه إلا في هذا المؤتمر ... وسوف نتحدث في باب قادم إن شاء الله عن أحداث وقعت في مصر نتيجة هذا الشعور الأثيم .

الباب الثاني

في ميدان العتبة الخضراء

◎ إبراز الاخوان باعتبارهم فئة متميزة ، من الفئات الاساسية فى المجتمع المصرى

◎ الأخذ بأساليب عملية فى التكوين والتربية ونشر الدعوة .

◎ مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

◎ الفتنة الأولى

كان من أثر البعثات الطلابية فى أنحاء البلاد أن انتشرت الدعوة واتسع نطاق الرقعة التى استجابت لها ، وتضاعف عدد أعضائها أضعافاً كثيرة ، كل هذا فضلا عما سبق الإشارة إليه من انتشار الدعوة فى كليات الجامعة والمدارس والمعاهد والأزهر ، ولم تعد الدار بشارع الناصرية صالحة لاستيعاب هذا العدد الكبير من الناس ، وما يستتبعه من اجتماعات ومحاضرات ومؤتمرات وأوجه نشاط ؛ وكان لابد من البحث عن مقر للمركز العام يتسع لذلك ؛ وسرعان ما وفق الله إلى مكان يفى بهذه المطالب ويمتاز بالميزات الآتية :

١ — كثرة عدد حجراته واتساع مساحاتها فقد كان به سبع حجرات ، واحدة منها كانت مساحتها تبلغ مجموع مساحات جميع حجرات المركز العام السابق .

٢ — كان له «فراندة» تتسع لمئات الكراسى وتصلح لعقد المؤتمرات فضلا عن الاجتماعات والمحاضرات .

٣ — كان موقعه أحسن موقع حيث يقع فى ميدان العتبة الخضراء ، وكان إذ ذاك أعظم ميدان فى القاهرة وهو ملتقى المواصلات ومعترك التجارة ومهوى أفئدة أهل القاهرة والوافدين إليها من مختلف البلاد .

ويقع هذا المقر فى العمارة التى بها لوكاندة البرلمان التى كانت هى الأخرى معلماً من معالم القاهرة . وقد اقتضى هذا الانتقال أن ينتقل الأستاذ المرشد من مسكنه إلى مسكن قريب من المركز الجديد لأنه كان حريصاً على قرب مسكنه من المركز العام فاتخذ مسكناً فى شارع محمد على .

وكان الإخوان إلى ماقبل الانتقال إلى هذا المقر الجديد من الضآلة فى العدد ، ومن الاختفاء فى المكان بحيث لم يكن يحسب لهم حساب ، ولا يكاد يحس بوجودهم أحد ، وكانوا ذائبين فى المجتمع ، وكانت صلتهم بالقاهرة التى يعيشون فيها شبه مقطوعة فهى مقصورة على شعبهم القليلة فى منطقة القنال وما حولها ؛ وقد حاول الأستاذ المرشد سدى إشعار القاهرة بوجود الإخوان بمحاضرات يعلن عنها بدعوات وبمنشورات حتى وصل به الأمر إلى أنه انتهز فرصة إقبال شهر ربيع الأول فى تلك السنة فأعلن عن محاضرات يلقيها كل ليلة بالمركز العام فى الناصرية وطبع آلاف الإعلانات عن هذه السلسلة من المحاضرات ؛ وكنا نذهب جميعاً كل ليلة إلى مسجد السيدة زينب نؤدى صلاة العشاء ثم نخرج من المسجد ونصطف صفوفاً يتقدمنا الأستاذ المرشد ينشد نشيداً

من أناشيد المولد النبوى ونحن نردده من بعده فى صوت جهورى جماعى يلفت النظر ، وكانت الفاصلة التى نرددها هى هذا البيت :

صلى الإله على النور الذى ظهـــرا لنا بشهر ربيع الأول اشتهـــرا

وكان الناس يجتمعون فعلا علينا ، ويسيرون معنا فى الطريق ونحن ننشد بنغمة محبوبة وكان أفراد منا يوزعون الإعلانات على الناس والمحلات على الجانبين فى أثناء سير الموكب حتى إذا وصلنا إلى دار المركز العام لم يدخل معنا فيه إلا عدد قليل لا يسمن ولا يغنى من جوع ..

كان الانتقال إلى المقر الجديد طفرة بالنسبة لوضع الإخوان ولإمكانياتهم ، وتستطيع أن تقدر ضآلة هذه الإمكانيات إذا علمت أن الإخوان حتى ذلك الوقت لم يكونوا إلا مجموعة من الطلبة مهما ذكرنا عن تضاعفهم عدداً فانهم لا مورد لهم وبجانبهم عدد من صغار الموظفين هم أنفسهم الذين كانوا موجودين بالمركز العام لأول مرة زرته ... والمقر الجديد يحتاج إلى نفقات كثيرة فإيجاره أضعاف إيجار القديم ونفقات تأثيثه وأجر المياه والنور فيه وأجر الكراسى التى تلزم للحفلات والمحاضرات ... وهذه النفقات لا قبل لهذه المجموعة القليلة الفقيرة بها ... ولكن الأستاذ المرشد كان لا يعير النواحى المادية اهتماماً ؛ فهو يقدم كل ما يملك ويعتقد بعد ذلك أن الله لن يخذله ؛ وكان الله سبحانه دائماً يحقق أمله وصدق الله إذ يقول فى الحديث القدسى «أنا عند حسن ظن عبدى بى» .

وقد دفع الأستاذ المرشد بكل ما معه ، ولم يدخر أحد شيئاً يستطيعه إلا قدمه ، ولم يتخلف إخوان الإسماعيلية وإخوان القنال عما تعودوه دائماً ، فقد كانوا سنداً ورداً للأستاذ المرشد فى كل موقف شديد ، وأتم الله فضله وتم الانتقال ، وأثث المكان ، وأخذ الإقبال يزداد على المكان الجديد الذى وجدوا فيه سعة .

وكان الأستاذ المرشد يرى من وراء هذه النقلة فى المكان التهيؤ لنقل الدعوة إلى طور جديد له السمات الثلاث الآتية باعتبارها أهدافاً يجب تحقيقها :

١ – إبراز الإخوان المسلمين باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى .

٢ – الأخذ بأساليب عملية قوية فى التكوين والتربية .

٣ – فضح مؤامرت الإنجليز والحكومة والانطلاق بقضية فلسطين

الفصل الأول

إبراز الإخوان باعتبارهم فئة متميزة

من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى

اتخذ الأستاذ المرشد لتحقيق هذا الفرض الأساليب الآتية :-

الأسلوب الأول

الشارة والمجلة

ماكاد يستقر بنا المقام فى الدار الجديدة حتى دعانا الأستاذ المرشد إلى اجتماع وعرض علينا فكرته فى وجوب أن تكون لنا شارة مميزة ، ومجلة معبرة ، ووافقنا جميعاً على الفكرة .

الشارة : اقترح كل مناهيئة معينة للشارة وانتهينا إلى أن يكون لنا نوعان من الشارات ؛ نوع يعلق على الصدر فى جانبه الأيسر ونوع يلبس فى إصبع اليد ، وقال لنا الأستاذ فكروا فى هيئة لكل من هذين النوعين من الشارات على أن يكون تفكيركم محصوراً فى صيغة قرآنية ...

وقد أخذ الأستاذ بفكرتى فى هيئة شارة الصدر ؛ وهى أن تكون قطعة معدنية مستديرة فى مساحة القرش محدبة السطح ، يطلى سطحها بالميناء الزرقاء ، ويرسم عليها - وسماً بارزاً - سيفان متقاطعان يحملان على تقاطعهما مصحفاً بلون أحمر ويكتب تحت تقاطع السيفين كلمة «وأعدوا» وقد نال هذا الاقتراح استحسان الأستاذ والإخوان ؛ وتعلق هذه الشارة بدبوس ملحوم فى ظهرها .

وأما شارة الأصبع فكان مقترح هيئتها الأستاذ المرشد ؛ فرأى أن تكون دبلة من الفضة ذات عشرة أضلاع ، ينقش على ضلعين منها بالمينا السوداء كلمتا «الإخوان المسلمون» .

أسباب اختيار هذا الوضع لشارة الإصبع :

يبدوا أن فكرة هذه الشارة بهذا الوضع كانت فكرة راودت الأستاذ المرشد من قديم ، حتى إنه حين عرض علينا موضوع أن تكون لنا شارة خاصة كان يريد أن تكون شارتنا هى هذه

الشارة وحدها دون غيرها ، ذلك أن فكرتها كانت مختمرة فى ذهنه وأن دلالاتها كانت من الروعة بحيث يقتنع بها كل من سمعها أو لاحظها وتتلخص هذه الدلالات أو المعانى أو الخصائص فيما يأتى :-

أولا : أنها باعتبارها تلبس فى الإصبع فإنها تكون ملازمة لصاحبها فى كل وقت وفى كل مكان فى الليل والنهار وفى اليقظة والنوم وحين يلبس ملابسه وبعد أن يخلعها .

ثانياً : أنها مصنوعة من الفضة ، والتختم بخاتم من الفضة من السنة التى فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحث عليها.

ثالثاً : أن كونها ذات عشرة أضلاع تذكر لابسها بآيات كريمة من القرآن تضفى على هذا الرقم لوناً من القدسية فى حياة الناس فى الدنيا والآخرة وهاك بعض هذه الآيات :

أ - الوصايا العشر فى قوله تعالى :

قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم (١) أن لا تشركوا به شيئاً (٢) وبالوالدين إحسانا (٣) ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم (٤)ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن (٥) ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق . ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . (٦) ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده (٧) وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفساً إلا وسعها (٨) وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (٩) وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . (١٠) وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (الآيات ١٥١، ١٥٢، ١٥٣ من سورة الأنعام)

ب - الدرجات العشر فى قوله تعالى :

(١) إن المسلمين والمسلمات (٢) والمؤمنين والمؤمنات (٣) والقانتين والقانتات (٤) والصادقين والصادقات (٥) والصابرين والصابرات (٦) والخاشعين والخاشعات (٧) والمتصدقين والمتصدقات (٨)والصائمين والصائمات (٩) والحافظين فروجهم والحافظات (١٠)والذاكرين الله كثيراً والذاكرات . أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما . (الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

حـ — فى صفات المؤمنين فى قوله تعالى :

(١)التائبون (٢) العابدون (٣) الحامدون (٤) السائحون (٥)الراكعون (٦)الساجدون (٧)الآمرون بالمعروف (٨) والناهون عن المنكر (٩) والحافظون لحدود الله (١٠) وبشر المؤمنين . (الآية ١١٢ من سورة التوبة)

د — مقومات البر فى قوله تعالى :

ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر (١)من آمن بالله (٢)واليوم الآخر (٣)والملائكة (٤) والكتاب (٥) والنبيين (٦) وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب(٧)وأقام الصلاة(٨)وآتى الزكاة(٩)والموفون بعهدهم إذا عاهدوا (١٠) والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (الآية ١٧٧ البقرة)

هـ — الأوامر العشر فى قوله تعالى :

(١)واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً (٢) وبالوالدين إحساناً (٣) وبذى القربى (٤)واليتامى (٥) والمساكين (٦) والجار ذى القربى (٧) والجار الجنب (٨) والصاحب بالجنب (٩) وابن السبيل (١٠) وماملكت أيمانكم . إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا (٣٦ النساء) .

و — صفات المتذكرين فى قوله تعالى :

إنما يتذكر (١) أولو الألباب (٢) الذين يوفون بعهد الله (٣) ولا ينقضون الميثاق (٤) والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل (٥) ويخشون ربهم (٦) ويخافون سوء الحساب (٧) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم (٨) وأقاموا الصلاة (٩) وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية (١٠)ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار (١٩ — ٢٢ الرعد) .

ونفذت الشارتان ، وانتشرتا انتشاراً عظيما فى القاهرة والأقاليم . وصارت هاتان الشارتان مميزتين للإخوان وسط المجتمع .. وكان هذا المظهر بمثابة نزول بالدعوة إلى الميدان ، وهجوم صامت على الأفكار الأخرى ، هذا فضلا عما كان له من أثر فى تعريف الإخوان بعضهم ببعض حيثما التقوا .. وكثيراً ما كانت الشارة لافتة نظر الكثيرين فتقدموا يستفسرون من معانيها فكان هذا الاستفسار فاتحة لشرح الدعوة لهم . كما أنها بدأت تشعر المجتمع والحكومة بأن هناك

فئة جديدة ذات فكرة محددة تتصل بالدين قد وجدت بين ظهرانيهم . وعلى العموم فإن هذه الشارة كما كانت ميزة للإخوان فى المجتمع فانها كانت سبباً فى نشر الدعوة وتوضيحها ودفعها إلى الأمام سواء فى القاهرة أوفى الأقاليم .

المجلة :

جلسنا مع الأستاذ المرشد كذلك وتناولنا موضوع المجلة المعبرة ، وقد يسأل سائل فيقول : ألم تكن للإخوان مجلة تسمى مجلة الإخوان المسلمين ؟ فنقول بلى كانت لنا مجلة «الإخوان المسلمون» ولكن هذه المجلة قد اصطبغت بصبغة خاصة فهى تقتصر على شرح علمى ومنطقى للدعوة قلما تخرج عن ذلك فتمس الأحداث الجارية فى البلاد إلا من بعيد ، وكانت أشبه بمجلة خاصة يقرأها الإخوان ليلموا بأخبار إخوانهم فى مختلف الجهات وليقرأوا تفسير آية أو حديث ، ويقرأوا مقالة للأستاذ المرشد توضح جانباً من جوانب الدعوة ، ولذا فانها لم تكن تخرج عن نطاق الإخوان ... وليس معنى ذلك أنها لم تكن ذات غناء بل إنها كانت جانباً ضرورياً للدعوة فى طورها الذى كانت تصدر فيه ؛ فقد كان الإخوان فى ذلك الوقت فى حاجة إلى استيضاح نواحى فكرتهم ، والتيقن من صحتها ، والتمييز بينها وبين غيرها من النزعات التى انتسبت إلى الإسلام وإلى أنها ذات كفاءة عملية فى المجتمع .

ولذا فإن هذه المجلة كانت وعاء كما قدمنا لمقالات متسلسلة كان يكتبها الأستاذ المرشد فيها تحت عنوان «إلى أى شىء ندعو الناس» وتحت عنوان «دعوتنا» وتحت عنوان «هل نحن قوم عمليون» كانت هذه المقالات تثبيتاً للفكرة الإسلامية فى نفوس الإخوان ، ووسيلة ناجحة لإقناع كثير من الناس بالدعوة. وقد جمعت هذه المقالات فى رسائل كل رسالة بعنوان من هذه العناوين وصارت فى جميع أطوار الدعوة وحتى اليوم إحدى وسائل توضيح معالم الدعوة والإقناع بها.

ومع ذلك فقد اعتور هذه المجلة عقبات أهمها قلة المال فقد كانت ضئيلة الانتشار ، ومعنى ذلك أنها كانت لقلة ما يطبع منها باهظة التكاليف ، كما أنها كانت خالية من الإعلانات ، وقد أدى ذلك إلى انقطاعها لاسيما بعد أن فقد الإخوان مطبعتهم ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك فيما كتبت عن الأستاذ أحمد السراوى .

جلسنا نفكر فى اسم لمجلة نصدرها ، بعد أن شرح الأستاذ المرشد الوضع الذى ستكون عليه هذه المجلة ، وأنها ستكون مختلفة تماماً عن سابقتها ، حيث تكون معبرة عن الطور الجديد الذى انتقلت إليه الدعوة ، واقترح كل منا عدة أسماء ولكن الأستاذ تمسك أيضاً بأن يكون الإسم

من القرآن ... واقترحنا عدة أسماء وردت فى القرآن ثم استقر الرأى على اسم اقترحه الأستاذ هو «النذير» .

وينبغى أن أذكر بهذه المناسبة أن انتقالنا إلى الدار الجديدة هذه ، دفع إلينا بمجموعات كبيرة من الشباب كان منهم شاب اسمه «صالح عشماوى» كان أكبر منا قليلا لأنه كان قد تخرج فعلا فى كلية التجارة وكان له إيراد لا يحتاج معه إلى الالتحاق بوظيفة، وقد وقع عليه اختيار الأستاذ المرشد ليكون رئيساً لتحرير هذه المجلة : ولا أدرى هل اختاره الأستاذ لهذا العمل لمجرد أنه شخص متفرغ، أم لأنه توسم فيه مع ميزة التفرغ أنه كاتب يجيد الكتابة ، مع أنه لم يكن قد مضى على التحاقه بالدعوة إلا فترة قصيرة . وعلى كل ، فقد تكشف لنا حين صدرت المجلة أنه كاتب عظيم وأنه كان أهلا لهذه المهمة .

صدرت مجلة النذير فى ثوب جديد، وفى أسلوب جديد ؛ أسلوب ثورى ناقد ، لايترك حدثاً فى مصر ولا فى بلد عربى أو إسلامى إلا علق عليه من وجهة النظر الإسلامية تعليقاً قوياً . وبقدر ماكانت مجلة «الإخوان المسلمون» يحررها الأستاذ المرشد كلها تقريباً بنفسه ، فإنه ترك تحرير هذه المجلة لصالح متفرغاً هو لما كان يتمنى أن يتفرغ له مما لا يستطيعه غيره .. واجتذبت «النذير» بأسلوبها القوى الثورى الكتاب الشباب الثائرين فكانت فى مجموعها شعلة ملتهبة ، وكان لفلسطين من مقالاتها نصيب الأسد ؛ وقد فضحت مقالاتها ألاعيب الاستعمار فى فلسطين وتخاذل الحكومة المصرية عن مد يد العون إلى أهل فلسطين ...

وقد انتشرت هذه المجلة انتشاراً كبيراً فكان يوزع منها أكثر من عشرة أضعاف ماكان يوزع من المجلة السابقة . وكانت من الوسائل فى نشر الدعوة فى قطاعات كبيرة من الشباب الذى يميل بطبيعته إلى الثورة .... وكان مما سهل لهذه المجلة الطريق أن حروف الطباعة كانت ملك الإخوان وموجودة بالدار ذلك أن الأستاذ المرشد كان حريصاً – بعد أن وقع من الأستاذ السراوى ما وقع فى شأن المطبعة – أن يستبقى شيئاً منها فاستطاع أن يبقى على الحروف .

الأسلوب الثانى

الاتصال بالتجمعات فى مصر

ولم يكن بمصر فى ذلك الوقت تجمعات ذات صبغة غير سياسية إلا «نقابة معلمى التعليم الإلزامى» حيث لم تكن قد تكونت نقابات مهنية ولا عمالية بعد ؛ فكانت هذه النقابة أكبر تجمع

غير سياسي في البلاد ، ويمتاز هذا التجمع بأنه تجمع مثقف ، وله فروع في كل أنحاء القطر ، وكان أعضاؤه منتشرين في العواصم والحواضر والمدن والقرى مهما نأت وصغرت .. ولم تكن هذه النقابة تجد في مصر من يوليها عطفاً ولا اهتماماً .

كان الأستاذ المرشد يعرف كل ذلك عن هذه النقابة ، وكان يحس نحوهم بعاطفة لأنه كان منهم في يوم من الأيام ولأن هذه الفئة كانت فئة مطحونة طحناً من شدة ما كانت ترزح تحته من ظلم . فهذا المعلم – وكان المعلمون في ذلك الوقت لا يعرفون إلا التفاني في العمل والإخلاص في أدائه – هذا المعلم كانت الحكومة تنظر إليه نظرة ازدراء فتمنحه أدنى مرتب لموظف في الدولة، وتحرم عليه الترقي مهما طالت سنوانه في العمل .... وقد انتهز الأستاذ سعة هذه الدار الجديدة ، وأوسع لهم فيها مكاناً يعقدون فيه مؤتمراتهم ونعاون الإخوان معهم في رفع مظالمهم إلى الحكام .

وهذه المجموعة الكبيرة من المعلمين – مع ما كانت ترمى به من ضيق الأفق وضحالة الثقافة ، أبرزت لنا في مؤتمراتها بهذه الدار من الأدباء والخطباء والشعراء من يضاهئون الصفوة الممتازة من مشاهير هذه الفنون في مصر ؛ كم ألقوا من قصائد عصماء ، وخطب رنانة ؛ ولازالت تطن في أذني حتى اليوم عبارة جاءت على لسان أحد خطبائهم إذ يقول : قولوا لدولة رئيس الوزراء «ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟» .. فكان من أروع ما سمعت من اقتباس .

أما الدعوة فقد أكتسبت الكثير من إفساح المجال في دارها لمؤتمرات هذه النقابة العتيدة وتعاونها معهم ؛ فلقد شعر هؤلاء الناس بأن هذه الدعوة دعوتهم ، وانها أجدر الدعوات بالانتماء إليها لأنها هي وحدها التي فتحت صدرها لهم ولأنها هي دعوة القرآن ؛ فبعد أن كانت مؤتمراتهم عندنا يقتصر الحديث فيها على مطالبهم وشئونهم الخاصة ، رأينا هذه المؤتمرات تتناول شئون الدعوة كما يتناولها الإخوان أنفسهم ولازال عالقاً بخاطري شطرة من بيت من قصيدة عامرة ألقاها أحد شعرائهم في أحد هذه المؤتمرات وتناول دعوة الإخوان المسلمين ، وكيف أنها ملكت عليه مشاعره ، وصارت كل شيء في حياته فيقول : ياليت لي من بردها نكفيني .

وعن طريق هذه النقابة دخلت الدعوة كل مكان حتى النجوع والكفور ، فكان أعضاؤها هم حملة الراية حيثما كانوا ... وقد صاغت الدعوة منهم رجالا حملوا الأعباء . وخاضوا الغمرات، وكانوا غرة في جبين الدعوة الاسلامية وما وهنوا وما استكانوا .

وكانت هذه الخطوة من الأستاذ المرشد من أعظم الخطوات المباركة التي أقدم عليها ، ودلت حقاً على أن خبرته بالمجتمع الذي يعيش فيه أعمق وأبعد مدى من خبرة قادة مصر في ذلك العهد .

الأسلوب الثالث

عقد المؤتمرات الإخوانية

كانت المؤتمرات الإخوانية حتى ذلك العهد مؤتمرات موضعية ؛ كانت حفلات للتعارف أكثر منها مؤتمرات ذات قرارات إيجابية ، ولم يكن هذا تقصيراً من المؤتمرين ، وإنما كان جهد المقل حيث لم تكن الدعوة قد جاوزت منطقة القناة وماحولها ... أما والدعوة قد اتسع نطاقها حتى لم تعد تخلو مديرية (محافظة) من عدة شعب بها وبحواضرها كما أصبح للدعوة كيان بالقاهرة ، وصار لها معاقل فى الجامعة والأزهر وفى المعاهد والمدارس بل وصار لها صدى فى بلاد عربية أخرى ـ فقد آن الأوان لعقد مؤتمرات لهؤلاء المستجيبين ولتلك الشعب المتناثرة فى أنحاء البلاد حتى تحس هذه الشعب برباط يربطها معاً وحتى تتاح الفرصة لوجودها معاً فى مكان واحد فتتعارف وتتفاعل وتتوجه وتنتج .

ورأى الأستاذ المرشد أن يعقد مؤتمرين أحدهما للإخوان فى الوجه البحرى والآخر للإخوان بالوجه القبلى وكانت نظريته فى ذلك أن يكون هذان المؤتمران مقدمة لمؤتمر عام للإخوان فى القطر كله يعقد فى القاهرة فيكون أسلوب التدرج هذا تمهيداً صالحاً للمؤتمر العام حتى يكون عقده محوطاً بأسباب النجاح . ورأى الأستاذ أن يعقد المؤتمر الأول فى المنصورة والآخر فى أسيوط .

١ ــ مؤتمر المنصورة :

وقد اختيرت المنصورة لتوسطها الوجه البحرى . ومع أن هذا المؤتمر كان مؤتمراً فرعياً إلا أن القرارات التى اتخذت فيه كانت قرارات خطيرة بل إنها كانت أول قرارات ذات شأن يتخذها الإخوان منذ قيام دعوتهم إذ هى قرارات عملية ... ولعل الأستاذ المرشد رأى أن يخص هذه المؤتمرات الفرعية بهذه القرارات العملية دون المؤتمر العام المزمع عقده باعتبار المؤتمرات الفرعية مهما عظم أمرها فإن الروح العائلية تكون دائماًمسيطرة عليها ، أما المؤتمر العام فهو مؤتمر مفتوح قد يغشاه من غير الإخوانمن يزيدون عن حضوره من الإخوان عدداً ولذا تكون قرارات المؤتمرات قرارات عامة تتصل بشئون الدولة وتعالج مشاكلها.

كان حديث الأستاذ المرشد فى هذا المؤتمر منصباً على موضوع واحد محدد هو وجوب تميز الإخوان وكان حديث الأستاذ فى هذا الموضوع مفاجأة لكثير من الحاضرين ؛ لأن الدعوة كانت حتى ذلك الوقت لا تبالى أن يكون العضو فيها مصطبغاً بصبغات أخرى سواء أكانت

هذه الصبغات الأخرى اجتماعية أم دينية أم اقتصادية أم سياسية ... أما فى هذا المؤتمر فقد بدأت نغمة أخرى تضرب على وتر شديد مثير أخذ يهز السامعين هزاً عنيفاً ...

فهم الحاضرون من حديث الأستاذ الذى خاطب فيه العقول والقلوب أن دعوة الإخوان دعوة جامعة شاملة ينبغى لمن ينتسب إليها أن يرى فيها غناء عن غيرها ، وفهموا أن معنى ذلك هو أن يخير كل ذى مبدأ مع مبدأ الإخوان نفسه بين المبدأين ليختار أحدهما ويدع الآخر .

وتطرق الأستاذ فى حديثه عن التميز إلى نقطة هامة أخرى فقال إن تميز الإخوان يقتضيهم تكاليف قد لا يطالبون بها إذا لم يكونوا إخواناً ، فهذه الدعوة الجامعة الشاملة شاق طريقها ، ثقيل حملها لأنها الدعوة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، فينبغى أن يعد العاملون بها والحاملون أمانتها أنفسهم إعداداً خاصاً بحيث يملكون زمام أنفسهم .

قد رشحوك لأمر لو فطنت لـــــه فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فلنقاوم أنفسنا فيما تعارف عليه الناس من عادات تمكنت منهم حتى ملكت أعنتهم مع أنها أمور إذا لم تضر فإنها لا تنفع وضرب لذلك مثلا بالتدخين وطلب إلى الإخوان المدخنين أن يمتنعوا عن التدخين وعن الكيوف بأنواعها وقال : خير عادة أن لا تكون أسير عادة .

وأذكر أنه كان من بين حاضرى هذا المؤتمر الأخ الكريم الأستاذ محمد الهادى عطيه وكان محاميا شرعيا كبيراً وأستاذاً للشريعة فى كلية المقاصد الخيرية ببيروت وكان إذ ذاك فى سن يناهز الستين فرأيناه ينتصب واقفاً حين سمع كلام الأستاذ المرشد ويخرج من جيبه علبة سجاير ويفتحها ويلقى بما فيها على الأرض ويدوسه بقدمه ويعلن أنه طلق التدخين منذ هذه اللحظة . وقد أخبرنى بعد خروجنا من المؤتمر أنه ظل يدخن أربعين عاماً وكان يدخن فى ذلك الوقت فى اليوم الواحد أربعين سيجارة ... وقد كنت أنا حريصاً على متابعة هذا الأخ الكريم لأعرف عواقب هذا الامتناع المفاجئ دون تدرج فأخبرنى فى لقائى به بعد عدة أشهر بأن شيئاً مما يشاع من انهيار أو صداع أو شئ من ذلك لم يصبه ... ومعنى هذا أن العزيمة الماضية وثقة المرء فى نفسه وفى سلامة الطريق الذى يسلكه كل ذلك يكسبه مناعة ضد العوارض التى تصيب ضعفاء العزيمة الذين يدفعون إلى طريق سلكوا فيه راغمين محرجين . سلكوا فيه ونفوسهم لا زالت تتلفت إلى وراء بشوق ولهفة .

كان لهذا المؤتمر آثار بعيدة المدى سواء فى الناحية الشخصية حيث رأى الإخوان لأول مرة أن الدعوة تتدخل فى شئونهم الخاصة وفى عاداتهم وأمزجتهم . أو فى الناحية العامة فى علاقات الإخوان بالمجتمع الذى يعيشون فيه ويتكيفون حسب مصالحهم معه – لقد استغرق كل أخ من

الإخوان وقتاً طويلا فى مناقشة مقررات هذا المؤتمر مع نفسه حتى ركن إلى جانب من الجانبين .

كما كان لهذا المؤتمر آثار خارج المحيط الإخوانى سنعرض لها فى مكان آخر إن شاء الله .

٢ ـ مؤتمر أسيوط :

لم أحضر هذا المؤتمر ولكن الإخوان الذين حضروه أخبرونى بأنه كان صورة من مؤتمر المنصورة واتخذت فيه نفس القرارات .

صلاة العيد في الاسماعيلية : معذرة فى هذا الاستطراد فكما أنه استطراد منى فى الكتابة الآن فإنه كان استطراداً فى رحلتنا من القاهرة لحضور مؤتمر المنصورة فقد اقترح الأستاذ المرشد أن نمر فى طريقنا على الإسماعيلية ، وقد صادف هذا الاقتراح هوى فى نفوس الجميع لأن للإسماعيلية مكانة خاصة فى نفوس الإخوان باعتبارها الحبيب الأول ومهوى الفؤاد

نقل فؤادك حيث شئت من الهـــوى ما الحب إلا للحبيـــب الأول

وقد نزلنا الإسماعيلية ، وكانت هذه أول مرة فى حياتى ، ولم يكن أمامنا فرصة للتجول فيها لرؤية معالمها والإلمام بصورة كاملة عنها ، حيث كان المقرر أن نبيت بها تلك الليلة ـ وكانت ليلة عيد الفطر ـ ثم نصبح لنصلى فيها صلاة العيد ثم نستأنف سفرنا إلى المؤتمر . وقد قضينا بقية يوم وصولنا بدار المركز العام بها بين احتفاء إخوان الإسماعيلية بنا وبين كلمات الإعجاب التى كنا نزجيها إليهم . وكان من أجمل ما قيل فى هذا اللقاء كلمة الأخ محمد عبد الحميد أحمد ـ حيث قال : إن قيام الدعوة فى الإسماعيلية وهى معقل الاستعمار فى مصر يذكرنا بأن موسى الذى قضى على فرعون قد تربى فى بيته .

وبعد صلاة الفجر ، خرجنا متوجهين لصلاة العيد ، وقد عودهم الأستاذ المرشد على أدائها فى خارج المدينة فى مكان فسيح أشبه بالصحراء ، ولم أر فى حياتى صلاة عيد قبل هذه فى روعةهذه الصلاة ، إن المسلمين على بكرة أبيهم اتجهوا إلىهذا المكان فكل يسلك الشوارع التى تؤدى به إلى مكان الصلاةوالكل يكبر تكبير العيد منذ يخرج من منزله حتىيصل إلىالمكانفكل ، والتكبيربصوتجهورى فكنت ترى جميع شوارع المدينة تسيل بجموع المسلمين تصيح بالتكبير بصورة لا يملك الإنسان أمامها نفسه فترى الدموع تنهمر من العيون لروعة المنظر وروعة ما تسمعه .. وبعد أداء الصلاة لم يغادر أحد مكانه وقام الأستاذ المرشد فخطب الناس خطبة زلزلت القلوب وأبكت العيون ثم قام الناس جميعاً يتصافحون ويتعانقون والكل متجه إلى الإستاذ المرشد ليصافحه .

والحق إن صلاة العيد إذا أديت على حقيقتها بهذا الأسلوب ، فإنها تكون أعظم مظاهرة

إسلامية تحيى ميت المشاعر ، وتبعث الحياة فى نفوس الخاملين .. إنها بعث سنوى للأمة الإسلامية .

٣ — المؤتمر الخامس :

أطلق على هذا المؤتمر اسم «المؤتمر الخامس» على اعتبار أنه سبق بأربعة مؤتمرات عامة بمعنى أنها كانت تمثل فى كل منها شعب الإخوان التى كانت موجودة فى أوقات انعقادها ، ولكن هذه الشعب كانت كما سبق أن ذكرت — قليلة العدد وفى ركن محدد من أركان البلاد ، ولذا فإنها وإن كانت عامة لجمعها كل الشعب إلا أنها كانت موضعية فى حقيقتها، ولعل هذا كان السبب فى أن المجتمع المصرى لم يشعر بها ... أما هذا المؤتمر فهو فى حقيقة الأمر يعد المؤتمر العام الأول لأنه أول مؤتمر اشتمل على خصائص المؤتمرات العامة ...

وقد صادف عقد هذا المؤتمر مناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين فقد عقد فى عام ١٣٥٧ هجرية الموافق ١٩٣٨ ميلادية ... وقد رأى الأستاذ المرشد أن يعقده فى سراى آل لطف الله بالقاهرة مع أن هذا المكان باهظ التكاليف لكن الأستاذ اختاره لأنه كان فى ذلك الوقت المكان المرموق الذى تتجه إليه الأنظار— وهو المكان الذىعقدفيهالمؤتمر البرلمانىالعالمى لمشكلة فلسطين،وكان الأستاذ المرشد يعتبر هذا المؤتمر أول فرصة يواجه فيها المجتمع المصرى والدولى بدعوته،فأعدخطابا جامعاً ضافياً ، وضح فيه غاية الإخوان وخصائص دعوتهم ، ووسائلهم وخطوات منهاجهم ، وموقفهم من الهيئات المختلفة . ونظراً لأهمية هذا الخطاب التاريخى والذى طبع فى رسالة خاصة والذى كان له ما بعده لأنه حدد المواقف بكل وضوح وصراحة فسنوجز للقارئ صورة مصغرة منه إذا لم يتح له أن يقرأ الخطاب بأكمله :

١ — بدأ الحديث بذكر الرجال الذين كانوا أول من فاتحهم بفكرته ووجد الاستجابة منهم فذكر أحمد تيمور باشا كما ذكر من أصدقائه الأستاذ أحمد السكرى والأستاذ الشيخ حامد عسكرية والأستاذ الشيخ أحمد عبد الحميد .

٢ — شرح نظرة الإخوان إلى الإسلام باعتباره الفكرة التى تضم كل المعانى الإصلاحية .

٣ — قرر أن دعوة الإخوان دعوة سلفية سنية صوفية سياسية رياضية علمية ثقافية اقتصادية اجتماعية .

٤ — أشار إلى أن من خصائص دعوة الإخوان ما يأتى :

أ — البعد عن مواطن الخلاف　　　ب — البعد عن هيمنة الكبراء والأعيان

حـ – البعد عن الهيئات والأحزاب   د – التدرج فى الخطوات

هـ – إيثار النواحى العملية على النواحى المظهرية

و – تواؤمها مع روح الشباب   ز – سرعة الانتشار فى المدن والقرى.

٥ – أشار إلى ستة من شباب الجامعة منذ سنوات ، وهبوا الله نفوسهم وجهودهم ، فأيدهم الله فإذا بالجامعة كلها من أنصار الإخوان المسلمين ، كما أشار بمثل ذلك إلى الأزهر .

٦ – تحدث عن تساؤل المتسائلين ، هل فى عزم الإخوان أن يستخدموا القوة وأن يقوموا بثورة عامة ؟ فقال : إن وطناً كمصر جرب حظه فى الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون – أما الإخوان فإنهم سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها ، وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة . وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولا ،وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون فى كرامة وعزة ، ويتحملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وارتياح . وأما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ، ولا يعتمدون عليها ، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها . وإن كانوا يصارحون كل حكومة فى مصر بأن الحال إذا دامت على هذا المنوال ، ولم يفكر أولو الأمر فى إصلاح عاجل سريع لهذه المشاكل ، فسيؤدى ذلك حتما إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم ، ولكن من ضغط الظروف ، ومقتضيات الأحوال،وإهمال المرافق.وليست هذه المشاكل التى تتعقد بمرور الزمن وسيتفحل أمرها بمضى الأيام إلا نذيراً من هذه النذر ، فليسرع المنقذون بالأعمال .

٧ – وتكلم عن الإخوان المسلمين والحكم فقال : فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة ، والحكم بمنهاج إسلامى قرآنى ، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من مناهجهم ، وسيعملون لاستخلاصه من أيدى كل حكومة لا تنفذ أوامر الله .

٨ – وتكلم عن الإخوان المسلمين والوطنية فقال : ومن هنا كان المسلم أعمق الناس وطنية ، وأعظمهم نفعاً لمواطنيه ، لأن ذلك مفروض عليه من رب العالمين ، وكان الإخوان المسلمون أشد الناس حرصاً على خير وطنهم ، وتفانيا فى خدمة قومهم

وهم يتمنون لهذه البلاد العزيزة كل عزة ومجد وكل تقدم ورقى وكل فلاح ونجاح .

٩ – وقال عن القومية العربية : الإخوان المسلمون يعتبرون العروبة كما عرفها النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضى الله عنه «ألا إن العربية اللسان . ألا إن العربية اللسان» ، ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته ، وإعزاز سلطانه ، ومن هنا كان على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها وهذا هو موقف الإخوان من الوحدة العربية .

١٠ – وقال عن الوحدة الإسلامية : الإخوان المسلمون يقدسون هذه الوحدة، ويؤمنون بهذه الجامعة ، ويعملون لجمع كلمة المسلمين وإعزاز أخوة الإسلام ، ينادون بأن وطنهم هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .

١١ – وقال عن الوحدة العالمية : ولى أن أقول بعد هذا إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله فهم ينادون بالوحدة العالمية ، لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله تبارك وتعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

١٢ – ثم تناول موقف الإخوان من الأحزاب السياسية فى مصر فقرر أن العلاج الحاسم الناجح أن تزول هذه الأحزاب مشكورة فقد أدت مهمتها ، وانتهت الظروف التى أوجدتها ، ولكل زمان دولة ورجال كما يقولون .

١٣ – واختتم كلامه بالحديث عن موقف الإخوان من دول الاستعمار ، فبدأ بانجلترا ثم بفرنسا ثم بايطاليا وتكلم عن فلسطين وحيا مفتيها ورجاله ، وحذر الوفود الإسلامية فى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن من مكر انجلترا وخداعها وأشار إلى إجرام الطليان فى طرابلس وفرنسا فى المغرب العربى ، ووجه كلامه إلى الإخوان بهذا الصدد فقال أيها الإخوان : هذا كلام يدمى القلوب ويفتت الأكباد . وحسبى هذه الفواجع فى هذا البيان فتلك سلسلة لا آخر لها وأنتم تعرفون هذا ولكن عليكم أن تبينوه للناس ، وأن تعلموهم أن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ولو كلفهم ذلك الدم والمال، فالموت خير من هذه الحياة ، حياة العبودية والرق والاستغلال . وأنتم إن فعلتم ذلك ، وصدقتم الله العزيمة فلابد من النصر إن شاء الله «كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز» .

الأسلوب الرابع
الاحتكاك بالأحزاب والهيئات

لم يكن الاحتكاك بالأحزاب والهيئات من الأساليب التى يسعى الإخوان إلى انتهاجها ابتغاء التميز الذى يهدفون إليه ، ولكن هذا الاحتكاك دخل فى أساليب التميز رغم أنفهم .. لأن كل ما حرص عليه الإخوان فيما قرروه فى مؤتمراتهم إنما كان لمجرد حفظ كيانهم والاستجابة الكاملة لفكرتهم ، ولم يقصدوا فيما قصدوا مهاجمة غيرهم أو تجريح سواهم .. ولكن الذى حدث هو أن عدداً من الإخوان فى مختلف البلاد – اقتناعاً بمقررات مؤتمرات المنصورة وأسيوط والمؤتمر العام الخامس بالقاهرة – أخذوا ينحازون إلى دعوتهم بكل قلوبهم وعقولهم وبكل ما يملكون ، وتبين فيما بعد أن هذا الانحياز قد اعتبر من جانب بعض الأحزاب والهيئات اعتداء عليها وانتقاصاً من أرضها ، مع أن دعوة الإخوان لم ترغم هؤلاء الذين انحازوا إليها على هذا الانحياز كما أنها لم تغرهم بأى نوع من أنواع الإغراء ، ذلك أنها لا تملك القليل ولا الكثير من وسائل الإرغام ولا وسائل الإغراء ، وإنما هو الإيمان والاقتناع .

والجهات التى آذتها المقررات الإيجابية لمؤتمرات الإخوان جهات ثلاث : الأحزاب السياسية التقليدية والأحزاب السياسية الناشئة والهيئات الدينية .

أما الأحزاب التقليدية وهى فى ذلك الوقت الوفد والأحرار الدستوريون والسعديون ، فهذه أحزاب أوجدتها ظروف معينة وانتهت هذه الظروف وكان يجب أن تنتهى هذه الأحزاب بانتهائها ولكنها تشبثت بالبقاء دون أن يكون لها برامج محددة أو أساليب إصلاحية معينة ، ولم يكن لها جميعاً إلا هدف واحد تسعى إليه هو الوصول إلى كراسى الحكم لا يبالون عن أى طريق يصلون ، وفى غضون هذا التهالك على الحكم ضيعت مصالح البلاد ، وديست كرامتها ، وتمكن المستعمر من رقاب أهلها ، وفقد الشعب الرؤية الصحيحة بعد أن استطاعت هذه الأحزاب قلب المفاهيم لكلمات تتصل بالروح الوطنية ، فاختفت من قاموس هذه الأحزاب كلمة المستعمر وحل محلها الحليف ، واختفت كلمة الثورة وحل محلها المفاوضة ، وزفوا إلى الشعب معاهدة الإذلال والاحتلال فى فى ثوب معاهدة الشرف والاستقلال . هذه الأحزاب بعيدة كل البعد عن دعوة الإخوان المسلمين ولا يكاد يكون بيننا وبينهم وجه شبه فى حين أن بيننا وبينهم كل أوجه الخلاف ، فنحن فى واد وهم فى واد آخر .

أما الأحزاب الناشئة أو الفتية

فهى جماعة مصر الفتاة .. ويأتى الحزب الوطنى يتأرجح بين هذا النوع الفتى وبين النوع التقليدى فهو وإن كان أقدم الأحزاب تكويناً إلا أنه لا يزال يحتفظ بمبادئ محددة ورثها عن مؤسسه الأول مصطفى كامل لكن موجة الانحراف بالوطنية طغت عليه وسلبته فاعليته ولذا قلنا إنه يتأرجح بين النوع الفتى وبين النوع التقليدى ، والذى يهمنا فى هذا القسم هو جماعة مصر الفتاة وقد قدمت فى صدر هذه المذكرات نبذة عن هذه الجماعة وعن مؤسسها الأستاذ أحمد حسين .

وإذا كان الاحتكاك بيننا وبين الأحزاب التقليدية أمراً طبيعيا ، لأن الفروق بين فكرة الإخوان وبين شعارات هذه الأحزاب فروق شاسعة هى أقرب إلى أن تكون كالفرق بين الحق والباطل، فإن القارئ بذلك فى غنى عن شرح أسباب الخلاف ونواحى التناقض ... أما مصر الفتاة باعتبارها هيئة تنزهت عن كثير من عيوب الأحزاب التقليدية ، فإن الاحتكاك بها يدعو القارئ إلى شى من التأمل ، ويقتضى منا التبسط فى شرح نواحى الاختلاف بين فكرة الإخوان المسلمين وفكرة مصر الفتاة، حيث يجمع بين الهيئتين من أوجه الشبه من الإخلاص والطهر ما يجعل الاحتكاك بينهما أمراً بعيد الاحتمال .

قدمت من قبل أننى منذ أول يوم لى بكلية الزراعة تعرفت فى المكان المعد للصلاة بالكلية على طالب يسبقنى بسنتين فى الكلية اسمه محمود مكى وتوطدت الصداقة بينى وبينه ثم تبين لى بعد ذلك أنه هو رئيس طلبة مصر الفتاة بالكلية وبمرور الأيام تعرفت على زملائه بالكلية وتوطدت صلة الصداقة بينى وبينهم ، ذلك أنهم على شاكلتنا شباب طاهر مستقيم يرنو إلى الإصلاح ..... وكانت مثل هذه الصلات تربط الإخوان فى جميع الكليات بزملائهم من أعضاء مصر الفتاة .

ودعوة الإخوان وإن كانت قد تأسست قبل مصر الفتاة ببضع سنين إلا أن مصر الفتاة سبقتنا إلى الجامعة فجذبت إليها مجموعات من الشباب الغض الذى كان متلهفا على فكرة جديدة يشعر فيها بجو جديد غير الجو المألوف من هذه الأحزاب التى جرح كل منها الآخر فأصبحت كلها مجرحة فى نظر الشباب . فلما أراد الله لدعوته أن تدق أبواب الجامعة ، كان علينا – نحن دعاتها – أن نعلنها للجميع . فكنت – كما يفعل إخوانى فى كلياتهم – انتهز الفرصة التى يكون الطلبة فيها يستجمون فى حدائق الكلية وأقف مع بعض الزملاء أتحدث عن فكرتنا فيلتف حولنا زملاء آخرون وتتسع دائرة الملتفين فأشرح لهم أهدافنا ووسائلنا فيتوجهون إلى بالأسئلة لاستيضاح ما يرغبون استيضاحه ، ويتناول الحديث برنامجنا فى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى والسياسى

وعلاقات الدعوة ومواقفها من جميع الأفكار والمبادئ والهيئات والطوائف والدول .. وهـــذه المناقشات لابد أن ينتهى المشتركون فيها إلى موقف من ثلاثة مواقف ، أفراد اقتنعوا عقلا وعاطفة وهؤلاء يعلنون انضواءهم تحت لواء الدعوة ، وأفراد اقتنعوا عقلا ولم يقتنعوا عاطفة وهؤلاء يظلون فى موقف المراقب الذى يريد مزيداً من الاقناع،وأفراد جاءوا لمجرد المجادلة والمكابرة وهؤلاء لا شأن لنابهم ، وبالطائفتين الأوليين تثرى الدعوة ويكثر أنصارها .

والمجاملات فى الصداقة أمر مطلوب إلا فى الأفكار والمبادئ والعقائد ، فلم تكن صداقاتنا مع زملائنا من أعضاء مصر الفتاة تحملنا على مجاملتهم على حساب دعوتنا ... ولكن قيامنا بتقديم فكرتنا إلى زملائنا الطلبة فى الكليات كانت تغضب هؤلاء الأصدقاء لأنها بطبيعتها تحد من انتشار فكرتهم ولم يتعودوا من قبل على مثل ذلك . فقد تعودوا على أن تكون لهم الغلبة دائماً فهم يكسبون من أنصار غيرهم ولا يكتسب أحد من أنصارهم ، فإذا رأوا أن هذه القاعدة التى ألفوها قد تغيرت فإنهم يغضبون .

وكان لابد لنا فى ثنايا عرضنا لدعوتنا أن نتعرض للأفكار العنصرية التى كانت فى ذلك الوقت تسيطر على أفكار الشباب فى مصر وفى أوروبا حيث كانت ألمانيا تدعو بشعار يقول «ألمانيا فوق الجميع» وانجلترا تزهو بأن الإنجليز جنس متميز عن أجناس العالم فهم «الجنس الذى يجرى فى عروقه الدم الأزرق» وتركيا كانت تحكمها «جمعية تركيا الفتاة» وكان تعرضنا لهذه الأفكار والشعارات يدفع السامعين من الطلبة إلى السؤال عن شعار «مصر الفتاة» وشعار «مصر فوق الجميع» وإذ كان تعرضنا للشعارات الأوربية المشار إليها بالمهاجمة على اعتبار أنها تمييز عنصرى لا يقره الإسلام ، كان السامعون يفهمون من تلقاء أنفسهم الرد على سؤالهم دون أن نجيبهم إجابةمباشرة

ولقد آتت الجهود التى بذلناها فى عرض فكرتنا على زملائنا الطلبة فى الكليات أكلها ، فأقبلوا على الدعوة مهرولين،ومن هؤلاء الذى أقبلوا من كان خالى الذهن من سائر الأفكار ،ومنهم من كان معتنقاً فكراً معيناً فلما حضر المناقشات ووضعت فيها الأفكار المختلفة موضع البحث ألم بأخطاء كانت خافية عليه واختار الفكر الأصوب لأنه كان باحثاً عن الحقيقة لامتعصباًلشئ معين.

وتصادف أن كان من الفريق الأخير طالبان من كلية الزراعة كانا عضوين فى مجلس الجهاد الأعلى لمصر الفتاة هما جلال عنبر وزكى صالح ، ولما كان هذا المجلس هو الهيئة العليا لإدارة الحزب،فكان لانتقال عضوين منه الى دعوة الإخوان المسلمين رجة عنيفة فى أوساط مصر الفتاة ، اضطر الحزب معها إلى موالاة اجتماعاته لبحث الأمر ، وكلف المجلس الأعلى أحد أعضائه وكان

طالبا مرموقاً فى كلية الحقوق اسمه حمادة الناحل بالاتصال بهذين العضوين وإقناعهما بالرجوع، واتصل بهما فعلا ودارت بينه وبينهما مناقشات ثم استدعاهما المجلس الأعلى مجتمعاً للمناقشة .

ولقد كنت فى مناقشاتى مع شباب مصر الفتاة بالذات رفيقاً غاية الرفق ، لأنى كنت أرى فيهم مثلا عظيمة غير أنهم فى حاجة إلى قليل من التوجيه ، ولذا فقد كنت – حين أخبرنى الأخوان الكريمان أن المجلس الأعلى قد حدد لها جلسة لمناقشتها – قلت لها إننا لا نرى مانعاً من أن تكونا معهم ومعنا فنحن نرى أنفسنا مكملين لما فى مصر الفتاة من نقص ... ولكن .. لما كانت مصر الفتاة فى ذلك الوقت فى أزهى أيامها ،وفى عنفوان قوتها ، عز عليها أن تقبل بهذا الوضع وقالوا لها : من لم يكن لنا وحدنا كان علينا .

ومنذ هذه الحادثة بدأت مصر الفتاة ترى فى الإخوان المسلمين لأول مرة – على حداثة عهدهم بالجامعة – منافساً قوياً ومزاحماً خطيراً لا تسهل مهاجمته ، إذ ليس له عورات يهاجم منها ... ويجدر بى هنا أن أعيد وأكرر أن تنافسنا مع مصر الفتاة كان تنافساً من نوع كريم ، تنافساً بين نبلاء ، فمصر الفتاة كانت فى تنافسها معنا أكرم من أن تلجأ إلى أساليب الكذب والافتراء التى تستبيحها الأحزاب التقليدية ، لأن أعضاء مصر الفتاة كان أكثرهم من صفوة الشباب وخلاصة الأمة ... ومن الطريف أن أورد هنا بيتين من قصيدة نشرت فى ذلك الوقت فى مجلة النذير للأخ الكريم جلال عنبر – وكان شاعراً عذب الشعر – لخص فيها ما انتهى إليه موقفه فقال :

إن هذا الفتى الذى كان يدعـــــو   مصر فوق الجميع طول الزمـــان
طلق اليوم مبدأ «المجـــــد للنيـــــــل» فناء فى مبدأ الإخوان

نبل ، وتحرك من جهة إلى جهة على أساس مبادئ وأهداف بعضها أنبل من بعض ، ليس فيها أهواء ولا جرى وراء منافع مادية .

كانت مهاجمتهم للإخوان مهاجمة بالعمل الإيجابى ، الذى تراءى لهم أنه العمل الذى سيتفوقون به على الإخوان فى ميدان الأعمال ، والعمل الذى سيشد الأنظار إليهم ، وسيقنع الشباب بأنهم أحق أن يلتف حولهم ، ويظهر الإخوان بمظهر المتقاعدين المتخاذلين ....

تحطيم الخمارات

فى صباح يوم من الأيام قرأنا فى الصحف أن جماعات من مصر الفتاة هاجمت عدداً من الحانات فى القاهرة وحطمت واجهاتها وبعض محتوياتها ، وقد تم القبض على عدد من الجناة ويجرى التحقيق معهم .

وفهمت فى الحال أننا المقصودون بهذا العمل ، وأيد ذلك حين انتظمنا فى الدراسه فى ذلك اليوم أن انطلق طلبة مصر الفتاة يفخرون بهذا العمل الإيجابى ، ويتيهون به على الجميع ويتوجهون بهذا التيه إلى الإخوان ، بل ويفصحون عن ذلك صراحة فى حديثهم مع الطلبة الآخرين ...

ولما كان هذا الإجراء وهذا التحدى موجهاً إلى الإخوان بعامة وإلى إخوان كلية الزراعة بخاصة ، فقد رأيتنى فى موقف يقتضينى أن لا أقف مكتوف اليدين أمام التحدى لاسيما أن طلبة الكلية أحسوا بهذا التحدى وأخذوا ينتظرون منا رداً عليه،ورأيت أن الرد الشفوى فى هذا الصدد لا يجدى لسببين : أحدهما : أن من غير المستطاع جمع الطلبة جميعا فى مكان واحد ليستمعوا،والآخر : لأن الرد الشفوى تصاحبه عادة حالات انفعالية تجعل من العسير على المتكلم جمع أطراف الموضوع والإحاطة به من جميع نواحيه ... وكانت مجلة النذير فى هذه الأيام قد انتشرت وذاع صيتها فى أوساط طلبة الكلية فرأيت أن يكون ردى مقالا على صفحات النذير ليكون إقناعاً لإخواننا وزملائنا بالكلية ولجميع الكليات ولمختلف الطوائف فى القاهرة وفى أنحاء البلاد .

وكان المقال على ما أذكر بعنوان«تحطيم الحجارات» وملخص ما جاء بالمقال هو أن الدعوة الإسلامية باعتبارها دعوة الخلود فإنها لا تعتمد فى خطواتها على الارتجال أو الطفرة ، وإنما تعتمد على أساليب رصينة تتمشى مع العقل وتخضع للنواميس الكونية ... فرسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أول ما دعا إلى الوحدانية ونهى عن عبادة الأصنام ، ومع ذلك ظل فى مكة ثلاثة عشر عاماً يصلى هو ومن معه من المسلمين فى الكعبة والأصنام منصوبة فوقها يعبدها المشركون ،لم يفكر هو ومن معه من المسلمين فى تحطيم واحد منها ،ثم هاجر إلى المدينة مكرهاً ، وظل بها عدداً من السنين يدعو الناس إلى الإسلام حتى التف حوله الناس ، واشتد أزره ، وقوى ساعده ، ورأى فى نفسه وفى أتباعه الكفاءة لملاقاة المشركين بمكة ، فاتجه إليها فاتحاً بعد ثمانى سنوات من الهجرة ، وانتصر واستسلمت مكة بمن فيها دون قتال، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرم وأمر بتحطيم الأصنام فأنزلت من فوق الكعبة وحطمت واحداً واحداً وهو يقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» تحت سمع حماتها وبصرهم دون أن يحركوا ساكنا أو يرفعوا بذلك رأساً ، ودخل الجميع الإسلام دون حرب ولا دماء ... ولم تعد الأصنام إلى الأبد .

لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبر عليه أن تعبد الأصنام وهو يصلى فى الكعبة وحاول تحطيمها فى أول دعوته ، ماذا عسى أن يكون قد حدث له ولدعوته ؟ ... إنه كان سيقتل هو ومن معه وتقتل معه دعوته وهى فى مهدها . ولما كان هناك فى التاريخ دعوة للإسلام ...

ثم أشرت إلى أن هذا الإجراء من تحطيم للحانات وما أشبهه ليس مما يعجز الإخوان ، فإن عدداً قليلا من قطاع الطرق يستطيعون أن يقوموا به .. ثم ما النتيجة من هذا العمل ؟ هل حرمت الخمر فى مصر ؟ هل أغلقت الحانات ؟ ... كل ما كان من نتائج هى أن الخمر استمرت كما هى مباحة، ولم تغلق الحانات ، أما الحانات التى حطمت فقد عوضتها الحكومة من جيوبنا نحن المصريين بأضعاف قيمة ما تحطم من واجهاتها ومحتوياتها فجددت تجديداً زاد من عدد روادها ... ثم ألقى عدد من الشباب الطاهر البرئ الذى لم يحسن توجيهه فى السجون .. هذا عمل كالطبل الأجوف صوت ضخم يلفت الأنظار ثم تلتفت فلا ترى وراءه شيئاً .

ووزعت «النذير» فى هذا الأسبوع توزيعاً واسعاً فالكل متلهف على معرفة موقفنا من التحدى فبقدر ما روجت مصر الفتاة لعملها هذا ووسعت من دائرة الفخر به انتشرت «النذير» .. كان لهذا المقال أثر كبير فى أوساط الشباب ، وكان صدمة لمصر الفتاة ، ألجم دعاتها ، وأفحم المتفاخرين من رجالها بل جعلهم يتواورون خجلا ... وبدأ الإخوان فى الكليات يرفعون رءوسهم ويتبوأون مكانهم ، ويواصلون مكاسبهم من المنتسبين لمصر الفتاة وغيرها .

وكان الذى فاجأ الناس أن قرأوا خطابا موجها من المرشد العام إلى وزير العدل يطالبه فيه بالإفراج عن المقبوض عليهم فى هذا الحادث لنبل مقصدهم ، ويحثه فيه على إصدار القوانين التى تطهر البلاد من المنكرات التى تثير النفوس المؤمنة وتحرج الصدور.

نحن والأحزاب التقليدية

لم تكن الأحزاب التقليدية حتى ذلك الوقت تقيم للإخوان وزناً ، لأنها أولا كانت تعتقد أن السلطة أو الحكم إنما هو دولة بينهم ، يتبادلونه واحداً بعد الآخر ، وأن كائناً من كان مهما قال ومهما فعل ، ما دام لم ينازعهم السلطة والحكم فإنه لا يعنيهم أمره . وثانيا لأن رجال هذه الأحزاب لم يكونوا يفهمون الإسلام على أنه دين ودولة ... إلا أن حدثين حدثا فى تلك الأثناء أرغما هذه الأحزاب على أن تستفيق من غرور السلطة ، وتهبط من علياء بروجها العاجية ، بعد أن أحسوا ببوادر زلزال على الأرض هز بروجهم العاجية هزاً .

أولها : الصبغة الجديدة : فإن كبار رجال هذه الأحزاب فى الريف بدأوا يرون ظاهرة جديدة ، تلك أن أشخاصا . وإن كانوا قلة – ممن كانوا يصطبغون بصبغتهم الحزبية ، بدأوا يرونهم يطرحون هذه الصبغة بحجة أنهم إخوان مسلمون . وكان المعهود حتى ذلك الوقت أن الذى يطرح صبغة حزب من الأحزاب لا يطرحها إلا ليصطبغ بصبغة حزب آخر يتوسم فيه زيادة انتفاع يعود عليه ... أما اطراح الحزبية عامة بدعوى أن الشخص من الإخوان المسلمين فإنها بدعة جديدة تستحق النظر !!

ثانيها : أول مظاهرة إسلامية بالجامعة : بدأت هذه الأحزاب تشعر بشئ من الضيق حين رأت هذه «الجمعية» أخذت تزحف نحو العاصمة «القاهرة» وتتشعب فيها أي تكون لها شعباً ، مع أن القاهرة كانت تعتبر لهذه الأحزاب حرماً آمناً .. كيف لا وهي مقر الحكام ، ومترقبي الحكم ، ومقر دور الأحزاب التي كانت كعبة القاصدين من أنحاء البلاد .

يضاف إلى ذلك أن هذه الأحزاب فوجئت في يوم من أوائل أيام تلك السنة (١٩٣٨) بمظاهرة تخرج من الجامعة المصرية تضم أكثر من أربعة آلاف طالب ، تجوب شوارع الجيزة ، وتخترق شوارع القاهرة ، وتقطع شارع النيل حتى تصل إلى مقر الأمير محمد على ولى العهد ، والمظاهرة تهتف مطالبة بالحكم بالشريعة الإسلامية ... نعم إنها كانت بمناسبة الاحتجاج على الكتابين اللذين قررا على طلبة قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب وفيها تهجم وسباب للنبي صلى الله عليه وسلم مما قد نبسط الكلام عنه فيما بعد إن شاء الله ... إلا أنها كانت مظاهرة إسلامية تدعو إلى الحكم بكتاب الله وبالشريعة الإسلامية .. نغمة جديدة ... ويطل عليها الأمير محمد على ويبادلها التحيات والعواطف ويعد بالعمل على إجابة مطالبها ... مثل هذه المظاهرة لم يكن يستطيع تسييرها ولا تدبيرها إلا حزب واحد فقط بعد إعداد كبير بل وبذل مادى سخى ذلك هو حزب الوفد.

كما أن حزب الوفد-بعد أن حلت فرق «القمصان الزرقاء» التي كان قد أنشأها-رأى لهذه «الجمعية» فرقاً من القمصان الكاكى وإن كانت تسمى كشافة او جوالة إلا أنها فرق لا تختلف عن فرقه التي حلت إلا في لون القمصان وهذه الفرق في نمو مستمر .

إن هذه «الجمعية» تستحق أن يحسب لها حساب ، وتستحق أن ينظر إليها بعين الريبة ، وتستحق أن تعد العدة لمقاومتها ، ووقفها عند حد ، أو إزالتها من الوجود .

لم يثنهم عن هذا العزم أن الأستاذ المرشد كان يقول في محاضرات الثلاثاء : إننا لسنا طلاب حكم وإنما نحن نطالب بالحكم بالشريعة الإسلامية ، من حكم بها من الحكام فإننا مستعدون أن نغسل على قدميه ... كما لم يثنهم أننا كنا في الأقاليم نزور ممثليهم ، ونصل حبال الود معهم ، ونتعاون معهم على النهوض بأحوال البلاد من مواساة الفقراء والمساكين .

بدأوا خطتهم في مهاجمة الدعوة بنشر آراء فاسدة عفى عليها الزمن واندثرت فيما اندثر من أباطيل فإذا بنا نقرأ في جريدة البلاغ وكانت جريدة حزب الوفد المسائية وكانت واسعة الانتشار مقالة عن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد الرازق تشيد فيه بمهاجمة صاحب الكتاب لفكرة أن الإسلام دين ودولة ... وقد لفت نظر الأستاذ المرشد إلى هذا المقال وعرضت عليه أن أكتب رداً عليه فأذن لى وكتبت الرد وطلبت إلى الجريدة نشره في نفس المكان كما يقضى بذلك قانون المطبوعات واضطرت الجريدة لنشره ء

محاولتهم الايقاع بين الاخوان والحكومة

أخذت صحفهم تحاول إبراز جوالة الإخوان على أنها نظام عسكرى ، والقانون يحرم على الهيئات الشعبية أن يكون لها نظام عسكرى ، فيجب أن تلغى كما ألغيت فرق القمصان الزرقاء وفرق القمصان الخضراء ... وتقدم أحد محررى جريدة المصرى – التى كانت فى أوائل أيامها وكانت لسان حال حزب الوفد – إلى الأستاذ المرشد بأسئلة وجهها إليه فى هذا الشأن وطلب منه الإجابة عليها .. وقد اعتقدوا أنهم بذلك قد أحرجوه وأنه سيتهرب من الإجابة .. فإذا به يجيب إجابة تخطت جرأتها وثبات الظنون ....

وظهرت «المصرى» فى اليوم التالى بعنوان بالخط العريض يملأ أعلى الصفحة الوسطى يقول : «المرشد العام للإخوان المسلمين يقول : نعم أنا أدعو إلى تسليح الجيش المصرى وإلى تسليح الشعب» (فى خلال تلك الأيام كان مجرد الحديث عن التسليح يعد جريمة لأن الجيش المصرى نفسه كان محدد العدد وكان تحت رحمة لجنة عسكرية انجليزية) وفى تفاصيل الإجابات يقول : إن فرق الإخوان ليست فرقاً عسكرية وإنما هى فرق جوالة مسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية ، وليس معنى ذلك أننى راض عن هذا الوضع الذى ألزمتنا به قوانين البلاد بل إننى أرى من الواجب أن يكون جيشنا جيشاً قوياً ، وأن يسلح أعظم تسليح ، وأن تنشر الروح العسكرية فى الشعب وأن يسلح هذا الشعب حتى يستطيع أن يحرر بلاده من الاستعمار .

فرحت الأحزاب بهذه التصريحات الخطيرة التى خيل إليهم أنهم استطاعوا أن يجروا الأستاذ المرشد إلى الإدلاء بها حتى يحقق معه ويحال إلى المحاكمة وتلغى جمعيته باعتبارها خارجةعلىالقانون.

وطلب الأستاذ المرشد للمثول أمام رئيس نيابة فى القاهرة كان معروفا عنه أنه يحب الإنجليز وقد أخبرنى الاستاذ المرشد بذلك حين تسلم اعلان النيابة وقال لى : إننى كنت أهدف من حديثى فى جريدة المصرى إلى أن أطلب للتحقيق معى ، ويبدو أنهم اختاروا هذا الرجل بالذات لما يعرفون عن ميوله الإنجليزية .

ومثل الأستاذ المرشد أمام الأستاذ رفقى رئيس النيابة وفتح محضر التحقيق وظل رئيس النيابة يسأل والأستاذ يجيب ويفيض فى الإجابة ويتعب الرجل فأجل التحقيق إلى اليوم الثانى واستغرق التحقيق عدة أيام وملأ أكثر من مائة صفحة ، وقد انتهز الأستاذ المرشد فرصة التحقيق وأخذ يشرح دعوة الإخوان كما أبدى رأيه فى مختلف مرافق الدولة ، وكيفية إصلاحها ، فهو يهاجم الوضع ويشفع هجومه بالوسائل التى يمكن أن يصلح بها . وكان المحقق حريصاً على أن يحصل

من الاستاذ المرشد على اعتراف بما جاء على لسانه بجريدة المصرى فيما يختص بالناحيه العسكريه والتسليح فاعترف الأستاذ بكل كلمة نشرت وزاد على ذلك أنه يحمل الحكومة تبعة التقصير فى حق الجيش وفى حق الشعب لأنها لا تعمل على نشر الروح العسكرية والتسليح ذلك، لأن الإسلام يدعو إلى القوة والحرية .

وانتهى التحقيق وكانت الأحزاب تنتظر انتهاءه بفارغ الصبر، ليروا الأستاذ المرشد مكبلا بالأغلال مقدماً إلى المحاكمة ، وكنا نحن الإخوان لا نقل عنهم اشتياقاً إلى هذا الموقف ... وقد طلب الأستاذ المرشد من المحقق عند انتهاء التحقيق أن يأذن له بنسخة من أوراق التحقيق بحجة احتياجه إليها للدفاع عن نفسه أمام المحكمة فرفض المحقق .. وكان الدافع الحقيقى لطلب الأستاذ نسخة من التحقيق هو أنه كان يرى أن هذا التحقيق هو إحدى الوثائق الرائعة لنشر الدعوة والإقناع بها ، وأذكر أننا حاولنا بعد ذلك الحصول على هذه النسخة بطريقة غير رسمية .

وكانت المفاجأة لنا وللأحزاب أن صدر قرار بحفظ التحقيق ، وهو مالم يكن متوقعاً ، وكان أسفنا لذلك لا يقل عن أسف الأحزاب . وكل يغنى على ليلاه — وطبعاً لم يكن الموعز بالحفظ هو الحكومة ، وإنما كان الإنجليز لأنهم رأوا فى إثارة ماجاء بالتحقيق تنبيها للشعب وإيقاظاً لآماله .

مؤامرة لاغتيال المرشد العام

سأورد هذه المؤامرة كما حدثت وقائعها بين يدى وتحت سمعى وبصرى ، ولكننى لا أستطيع أن أجزم حتى اليوم هل كان تدبيرها والدافع إليها فردياً وشخصياً أم أن ذلك كان بإيعاز من الحزب نفسه ...

كنت ومجموعة كبيرة من طلبة الإخوان ندرس فى الجيزة ونسكن فيها ، وكانت الجيزة فى ذلك الوقت — كغيرها من البلدان المصرية — مدينة ليست بالشاسعة الأرجاء ، وليست مكتظة بالسكان . وهى باعتبارها عاصمة إقليم زراعى ويفى فهى مدينة ريفية، ولكن ينساب إليها التيار الحضرى باعتبارها ضاحية من ضواحى القاهرة ... ومع أن الإخوان لم يكونوا بعد قد أنشأوا لهم شعبة يجتمعون فيها إلا أنها كانت نقطة ارتكاز للدعوة لا يستهان بها ؛ حيث كانت مساكن الإخوان الطلبة فيها شعباً بعدد هذه المساكن، وكان إخوان القاهرة يعرفون هذه المساكن ويفدون إليها للزيارة ولمناقشة موضوعات تهم الدعوة .

وكان لحزب الوفد شخصية قوية فى الجيزة ممثلة فى محام شرعى شهير يدعى ع.ب. وهو من

أهالي الجيزة وله منزل فخم بها أشبه بالقصر يطل على الشارع العمومى المؤدى إلى الهرم ، وكان من ذوى الأملاك وعضواً بمجلس النواب وعضواً بالهيئة الوفدية ومن أكبر أعيان الجيزة .

وكانت مناصب الشيخ وأبهته، وما كان يحيط به نفسه من مظاهر الثراء ؛ وفى مقدمتها كثرة العاملين فى خدمته ، والمروجين له ؛ جعلته فى نظر الناس شيئاً آخر غير عمله الرسمى .

ولم يكن الإخوان باعتبارهم أصحاب دعوة — يرون فى إنسان الخير الذى لا شر معه كما لا يرون فى إنسان الشر الذى لا خير معه ، ولذا فإنهم كانوا يتقدمون بدعوتهم إلى كل إنسان ؛ فإذا كان هذا الإنسان شيخاً وأزهرياً ومعمماً كان أجدر أن يتقدموا إليه لاسيما وأهل الجيزة الأصليون الذين يعيشون فيها كابراً عن كابر قليلون ، والقليل من هؤلاء مثقفون ، والدعوة تتوخى الظفر بمثقفين حيث يكونون عادة أعمق فهماً ، وأوسع أفقاً ، وأقدر على إقناع غيرهم بما اقتنعوا به .

والدعوة موجودة بالجيزة منذ التحقنا بالكليات واتخذنا الجيزة سكناً لنا ، ومضى على ذلك سنتان وهذه هى السنة الثالثة، ولكن لم يخطر ببالنا أن نتصل بهذا الشيخ وهو نائب المدينة وأبرز شخصياتها ، كما لم يخطر ببال الشيخ ونحن على قيد خطوات منه أن يتصل بنا ... ولكن شيئاً جد فى الأمر جعل الشيخ يبحث عنا ، ويتقرب إلينا ، ويفسح لنا من وقته الثمين وداره الفارهة ... إن هذا الشيء الذى جد إنما هو المؤتمرات الإخوانية وما أسفرت عنه مما ألمحنا إليه ، وتصريحات الأستاذ المرشد فى جريدة المصرى وما أحاط بها من ظروف ، وقد كان من أثر هذه المؤتمرات والتصريحات أن دعمت مركز الإخوان وفتحت للدعوة أبواباً كانت مغلقة انسابت منها إلى أوساط جديدة لم تكن نعرف عنها شيئاً .

التقى بى عدد من زملائى الطلبة القاطنين بالجيزة وقالوا لى : إن الشيخ ع.ب. دعاهم إلى مكتبه فى منزله وعرض عليهم تكوين شعبة للإخوان بالجيزة ... وحين طرق سمعى هذا النبأ سرحت بخاطرى فى أجواء متناقضة عشتها ؛ منها جو «الوفد» وجو «الإخوان» وجو «مؤتمر المنصورة» وجو هذا الشعب الطيب الفقير الغافل ، وجو «الذئاب والشياطين» التى تلبس مسوح الهررة والملائكة متحلية أمام هذا الشعب الطيب بما يضفيه عليها المنصب والثراء من حلى تأخذ بالأبصار .

كيف يكون هذا ؟ الوفد يصب فى الأقاليم جام غضبه على القلة القليلة من الإخوان الذين كانوا أعضاء فى الوفد ثم أعلنوا تجردهم لدعوة الإخوان ، والوفد الذى يتآمر عن طريق جريدته «المصرى» ليوقع بين الإخوان والحكومة إيقاعاً لا يؤدى إلا الى نسف الدعوة نسفاً لولا لطف الله وحياطته لدعوته ..

كيف يستقيم هذا مع تقدم الشيخ نائب الجيزة وعضو الهيئة الوفدية إلى الإخوان فجأة يقترح عليهم تكوين شعبة للاخوان بالجيزة ، ويقول له الإخوان : إذن نبحث عن مكان للشعبة فيقول : لا داعي للبحث ، تنشأ هنا في منزلي ؟!!!... لقد أحسست أن وراء الأمر شيئاً مريباً ... ولكني لم أبد للإخوان شيئاً مما دار في خاطري ، وعزمت على لقاء الرجل والاستماع إليه ، وملاحظة ما يدور حوله ... وقابلت الرجل ووجدت منه استعداداً كبيراً بل تهالكاً على إنشاء الشعبة ، واحتضانها ، والتكفل بكل ما يلزم من نفقات ... وأحضر لافتة كتب عليها اسم الشعبة ، وعلقها على الدور الأرضي من منزله ، وجعل الاجتماعات في مكتبه ، وقد واظبت على هذه الاجتماعات فترة من الزمن ألممت فيها بالكثير مما كنت حريصاً على الإلمام به ، مما ضاعف ما في نفسي من شكوك .

وكلفت مجموعة من الإخوان المتمرسين بالتعرف على اتجاهات المجتمعات بالنسبة للإخوان ؛ وهي مجموعة متخصصة لها القدرة على التكيف بجو الهيئة المطلوب معرفة اتجاهها تكيفاً يشعر المسئولين بهذه الهيئة أنهم أخلص العاملين لها ؛ وبذلك يغشون الجلسات المضروب حولها نطاق السرية ، ويظهرون بذلك على أدق أسرارها .

وقد أكد لي هؤلاء ما كان يتردد في نفسي من شكوك ؛ وأخبروني أن الشيخ ورجاله سيقيمون للأستاذ المرشد حفلا كبيراً بمناسبة لا أذكرها الآن – لعلها كانت المولد أو الهجرة أو الإسراء ،وأنهم سيحاولون في خلال هذا الحفل إحداث شغب وفي غمرة هذا الشغب يغتالون الأستاذ المرشد .

وفعلا طلب الشيخ أن يقام حفل كبير لهذه المناسبة وأصر على دعوة الأستاذ المرشد إليه متكفلا هو بكل نفقات الحفل ، وما كان الإخوان ليرفضوا عرضاً كهذا ، وحدد الموعد ، ووجهت الدعوات لحضور أهل الجيزة ، ووجهت الدعوة إلى الأستاذ المرشد .

وأرسيت قواعد سرادق فخم كبير ، ولم يبق على ليلة الحفل إلا ليلة واحدة ، ولم أكن قد قابلت الأستاذ المرشد في خلال الأسبوع السابق لانشغالي بالجيزة ، وبما يعده الناس الطيبون من أمور في الخفاء والله يكتب ما يبيتون ... ذهبت إلى المركز العام في تلك الليلة وقابلت الأستاذ المرشد على انفراد وطلبت إليه أن لايحضر هذا الحفل ، وألححت عليه في ذلك ، فتعجب وسألني عن السبب ، فقلت له : لا داعي لمعرفة السبب ولكني أرجو منك بحق الدعوة عليك أن لاتحضر هذا الحفل ؛ فأصر على حضوره مالم يعرف السبب فقلت له : إن القوم وضعوا خطة لاغتيالك

وقصصت عليه القصة ... فضحك وقال لى يا محمود أنخاف الموت ؟.. كيف نخاف الموت ونحن نعلم الناس أن لا يخافوا الموت ؟ والله لأحضرن إن شاء الله هذا الحفل .. وأظننى بكيت حينئذ وتركته .

تركته وسارعت بالاجتماع مع مجموعة من الإخوان المسئولين من الجيزة والقاهرة ، وأخبرتهم بما كان بينى وبين الأستاذ وقلت لهم لابد إذن من وضع خطة محكمة ، فنحن نعرف الأشخاص الذين وكل إليهم تنفيذ المؤامرة ونعرف مهمة كل منهم ... ووضعت الخطة وهى تتلخص فى قيام جوالة الإخوان بإحكام الرقابة على تنظيم الحفل .

وبدأ الحفل ، وانتظر المدبرون أن يحدث شىء مما بيتوه ولكن شيئاً لم يحدث ، ورأوا بأعينهم رجالهم الذين أعدوهم للقيام بأدوارهم ثابتين على مقاعدهم كأنما سمروا عليها ، وكأنما خيطت شفاههم أو سدت أفواههم ، ولا يستطيعون حتى أن يتلفتوا يمينا ولا شمالا فأحسوا بفشلهم ، وشعروا بأن الإخوان قد كشفوا مخططهم فلم يستطع الشيخ بعد هذا الفشل إلا أن يحاول الغض من قدر الأستاذ المرشد بأن قدم قبله عدداً كبيراً من زملائه وأصدقائه ممن يعتقد أنهم من قوة البيان والقدرة الخطابية بحيث لا يكون للأستاذ المرشد بعدهم قيمة ، ثم إنه عمل على أن يشغل الوقت بهذا العدد الكبير من الخطباء بحيث يستنزفون يقظة الحاضرين ؛ فلا يجد الأستاذ إذا قام بعدهم استعداداً لسماعه ، أو انتباها لكلامه ، بل إنه اعتقد أنهم لتأخر الوقت الذى يحين فيه دوره سيكون أكثر الحاضرين قد سئموا الاستماع وسيخرجون ويتركونه .

ونفذت هذه الخطة الجديدة بمهارة ، وكثر الخطباء وتعددوا ، وأطالوا قاصدين وأملوا وأسأموا ، وأخذ الكرى بمجامع الأجفان ، وترنح الجالسون نائمين على مقاعدهم ، حتى إذا ما تحقق للشيخ ما أراد وقد قارب الليل على الانتصاف قدم الأستاذ المرشد ؛ فوقف وحمد الله وأثنى عليه ثم نزع ببيتين أو ثلاثة أبيات من الشعر القديم وما كاد ينتهى من البيت الثالث حتى رقصت مشاعر الحاضرين ولا أكاد أذكر من هذه الأبيات الآن إلا شطرة من بيت تقول «لأنت اليوم أحسن منك أمس» ، لعبت هذه الأبيات حين ألقاها بقلوب النائمين فاستيقظت طرباً ، وكأنما استيقظوا على حلم جميل .

وظل الأستاذ يهدر من قلب مفعم متأجج ، يقذف بشآبيب من نور تشق طريقها إلى ظلمات النفوس فتبددها ، وكأنما يتلقى من عل أنوار السماء ، ويلقى بها على الناس فيحس الناس أنهم ارتفعوا من فوق الأرض حتى حلقوا فى السماء ؛ وظل كذلك ساعة وأكثر من ساعة ، وتكبير

الناس قد بلغ عنان السماء ، حتى إذا ختم كلمته . قام الناس مقبلين عليه ، ولقد رأيت شاباً فى ربيع العمر من أهل الجيزة يقول له : أ أنت حسن البنا أقسم بالله إنك لست حسن البنا ، إنما أنت ملك .

وهكذا انتهت الليلة «بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعدالله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً » ....

وبدأ الشيخ منذ ذلك اليوم يتراجع فى حماسه المصطنع للإخوان ، ويتملص وينسحب حتى رجع إلى حقيقته ورفعت اللافتة التى كان يعلم الله ماذا يقصد من ورائها ، واكتسبت الدعوة عن طريق هذا الرجل ، ورغم أنفه ، خلقاً كثيرين ، ماكانوا ليتصلوا بالدعوة لولا ما كان من أمره . وإن الله–كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم–لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر «والله من ورائهم محيط» .

نحن والهيئات الدينية

يمكن حصر الهيئات الدينية فى مصر فى ثلاث فئات : الصوفية والسنية والخيرية . وحديثنا مما يتصل بالموضوع الذى نعالجه سيكون مقصوراً على الفئتين الأوليين دون الثالثة لأن هذه بطبيعتها لا تقوم على أساس تصور معين للفكرة الإسلامية ، ثم إن أعمالها التى قامت من أجلها كانت مستوعبة ضمن أعمال شعب الإخوان فى كل مكان .

كانت أولى خصائص دعوة الإخوان منذ أول يوم وستظل كذلك بإذن الله «البعد عن مواطن الخلاف » وخير توضيح لهذه الخصيصة ما ضمنه الأستاذ المرشد خطابه الجامع فى المؤتمر الخامس حيث قال :

«فأما البعد عن مواطن الخلاف الفقهى ؛ فلأن الإخوان يعتقدون أن الخلاف فى الفرعيات أمر ضرورى ، لابد منه ، إذ أن أصول الإسلام آيات وأحاديث وأعمال تختلف فى فهمها وتصورها العقول والأفهام. لهذا كان الخلاف واقعاً بين الصحابة أنفسهم ، ومازال كذلك وسيظل إلى يوم القيامة ؛ وما أحكم الإمام مالك رضى الله عنه حين قال لأبى جعفر المنصور وقد أراد أن يحمل الناس على الموطأ : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى الأمصار ،

وعند كل قوم علم ، فإذا حملتهم على رأى واحد تكون فتنة (. وليس العيب فى الخلاف ولكن العيب فى التعصب للرأى ، والحجر على عقول الناس وآدائهم – هذه النظرة إلى الأمور الخلافية جمعت القلوب المتفرقة على الفكرة الواحدة ، وحسب الناس أن يجتمعوا (على ما يصير به المسلم مسلماً) . كما قال زيد رضى الله عنه . وكانت هذه النظرة ضرورية لجماعة يريدون أن ينشروا فكرتهم فى بلد لم تهدأ بعد فيه ثائرة الخلاف على أمور لا معنى للجدل ولا للخلاف فيها ».

ومقتضى هذه النظرة أن ندعو المسلمين إلى مالا خلاف عليه وندع جانباً ما فيه خلاف ، ولكن هذه النظرة وإن لقيت الاستجابة والترحيب من أكثر الناس إلا أنها قوبلت باعتراض ومقاومة من أقوام من الفئتين المشار إليهما آنفاً .

أولا : الصوفية

الأصل فى الصوفية أخذ النفس بأسلوب يطهرها من أدرانها ويزكيها ويصقلها فيرقى بها فى مدارج الكمال الإنسانى حتى يكون المسلم أداة نافعة لنفسه ولذويه وللمجتمع ؛ وعلى هذه الأسس الرفيعة نشأت فكرة الصوفية وهى فكرة يقرها الإسلام ويعمل لنشرها ويحث عليها ؛ لأنها بهذا الأسلوب أساس لكل إصلاح ، ودعامة لكل نهضة ، وضمان لكل نجاح .

ولا بأس أن يتصدى لتربية النفوس بهذا الأسلوب رجال أوتوا مقدرة على التربية والتوجيه ، ومن هنا نشأت مدارس أو باللفظ الاصطلاحى نشأت طرق صوفية لكل طريقة شيخ ومريدون أو تلاميذ :

وكلهم من رســــــول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

ونحن–الإخوان المسلمين – نعتبر أسلوب التربية الروحية أساس دعوتنا لأن تكوين الفرد المسلم متوقف على الأخذ بأكبر نصيب من هذا الأسلوب مع مداومة الأخذ به ، واللجوء إليه ،والاستمداد من فيضه .

ولكن ليس معنى ذلك أن ينقطع المسلم لهذا الأسلوب ، وينعزل عن المجتمع لايبالى ماينال هذا المجتمع من خير ومايصيبه من مصائب .. وليس معنى ذلك أن يتخذ هذا الأسلوب وسيلة للارتزاق وجمع المال ، والتسلط على الناس ، وكسب الصيت والشهرة .

ومما يؤسف له أن بعض مشايخ الطرق قد انحرفوا بأتباعهم عن الطريق السوى واتخذوا طرقهم وسائل لألوان من هذه الأغراض المادية المشوهة لسمعة الصوفية والدين نفسه ، ومنهم من أراد أن ينعزل بمريديه عن المجتمع .

وهذان النوعان من الإنحراف - مع أنهماطرفا نقيض هما اللذان اعترضاطريقنا في الدعوة وراحا يعلنان الحرب علينا مادمنا لا نقرهما ولا نرضى سبيلهما سبيلا ؛ أما دعاة العزلة فقد أحسوا بأن تيار العمل الإسلامي الإيجابي قد استدرج عدداً كبيراً من أنصارهم الذين كانوا يعتقدون أن العزلة هي السبيل الأقوم لتحصيل ثواب الله ورضاه ؛ فلما عرضت عليهم الفكرة الإسلامية بشمولها وإحاطتها بكل شيء عرفوا أنهم لم يكونوا على شيء في انتهاجهم سبيل العزلة ، فخرجوا من عزلتهم ، وساروا مع الركب حتى صاروا في المقدمة .

وأما الآخرون من المشايخ الذين اتخذوا الصوفية مرتزقاً ، ووسيلة إلى الكسب المادى ، وسبيلا إلى استغلال جهل المسلمين وسذاجتهم فهؤلاء مفسدون فى الأرض وكان لنا معهم دور ؛ حيث كان انتشار الدعوة في مكان بمثابة إعلان حرب على هؤلاء ، فالدعوة بطبيعتها تثقف معتنقها وتوسع مداركه وتعطيه مقياساً يقيس به الأمور فيعرف به الخير والشر ويعرف به الحق والباطل.ويعتبر هؤلاء المشايخ تفتيح أذهان الناس وتنوير عقولهم إعلان حرب عليهم ... وهؤلاء المشايخ يجدون الطريق أمامهم ممهداً في الأرياف والأقاليم حيث السذاجة وطيبة القلب وحسن الظن والأمية والجهل ؛ وسأعرض بين يدى القارىء مثالا واقعياً وكانت وقائعه معى شخصياً بين القاهرة ورشيد :

تعرف على هذا الشيخ ، ولا أدرى كيف تعرف على ، فقد كنت فى ذلك الوقت فى القاهرة أغشى كل مكان واتصل بكل المجتمعات حتى المقاهى البلدية فى أحشاء القاهرة لأعرض الدعوة على كل مجتمع بالأسلوب الذى يناسبه وكان الكثيرون من مختلف الأوساط يستجيبون للدعوة وكان ملتقاى معهم دور شعب الإخوان ودار المركز العام ، ولكن هذا الشيخ استجاب لى واختار أن يكون ملتقاى معه فى البيت الذى أسكنه فى الجيزة ؛ فكان يزورنى ويبيت عندى .

كان هذا «الشيخ» شاباً ، لايكبرنى إلا بسنوات قلائل ، وكان وسيما يلبس ملابس المشايخ من القماش الأبيض الناصع من قمة رأسه إلى إخمص قدمه ، وكان يدعى الشيخ (م.ف)من صان الحجر وكان متوقد الذهن ، مشتعل الذكاء وإن كان حظه من التعليم ضئيلا ، وكان سريع الخاطر ألمعياً ألوفاً كثيرة المعارف والأصدقاء ... وقد لاحظت أن أصدقاءه من طبقة الأغنياء المتعلمين ، وقد عرفنى بعدد منهم فى القاهرة والجيزة .

وقد أثار عجبى أن أصدقاءه هؤلاء أو قل مريديه يسكنون الشقق الفخمة والفلل الفارهة وعندهم الرياش والخدم ويعيشون فى بذخ ،ويتمنى كل واحد منهم أن يكون الشيخ ضيفه الدائم ويلحون عليه أمامى إلحاح الملتمس من بركاته ، ومع ذلك فقد كان يأبى الاستجابة لهم ، ويؤثرنى

عليهم ، وهو يعلم أن سكنى ومعيشتى دون ذلك ، وأنه لن يجد الراحة عندى كما يجدها عندهم .

وكان مما سرنى منه أنه كان حين يعرفنى بأحد هؤلاء ، يعرفه بى باعتبارى من الإخوان المسلمين ويفاخر بذلك ويثنى ويأخذ فى شرح الدعوة لهم ... كما كان يعجبنى منه أنه لم يكن يربطنى بنفسه فى غدواته وروحاته . باعتباره ضيفاً عندى - بل كان يقوم من الصباح فلا أراه إلا بالليل ، اللهم إلا الساعات القلائل التى كان يصحبنى فيها لتعريفى بأصدقائه هؤلاء الأثرياء .

وليس معنى أنه كان يلوذ بى أنه كان دائم الوجود عندى ، وإنما كان يلوذ بى فى فترات تردده على القاهرة فقد تردد عليها فى خلال تلك السنة نحو ثلاث مرات ، يمكث فى كل مرةنحو أسبوع ، وكان حين يعزم على السفر يقول إنه مسافر لحضور مولد سيدى كذا فى بلدة كذا .

وجاءت إجازة الصيف ، وسافرت إلى رشيد لقضاء فترة بها ، وبعد وصولى إليها بأيام وبينما أنا فى منزلنا جاءنى شاب لا أعرفه وقال إنه موفدمنقبل الشيخ(م.ف). وقد أرسلنى إليك لأخبرك أنه حضر اليوم إلى رشيد وهو موجود الآن بقهوة كذا ويرجو أن يراك هناك . فقلت للشاب اذهب وأحضره معك إلى هنا ، فذهب ثم جاء يقول إن الشيخ يشكرك ويرجو أن يراك فى المقهى ... وذهبتإلى المقهى والتقيت به مرحباً وعاتبته على عدم إجابته دعوتى إياه للمنزل فشكر .. ولاحظت أن أصحاب المقهى ورو ادها من العمال يحتفون بالشيخ .. ثم كانت المفاجأة

قال لى : أتعرف لماذا جئت بالذات إلى رشيد ؟.. قلت : لزيارة أخيك .. قال هذا أحد الواجبات لكن الذى جاء بى فى هذا الوقت بالذات وفجأة أنى رأيت فى المنام ؛ وقص على رؤيا ملخصها أن «سيدى على المحلى» المدفون فى أكبر مسجد فى رشيد - جاءه فى المنام وعاتبه على أنه لم يحىء له مولداً وحدد له يوم كذا موعداً للمولد - وهذا اليوم المحدد يوافق اليوم التالى لحضور الشيخوانتهى من قصته وطلب إلى أن أعينه علىهذه المهمة حتى يفىبوعده للولى...وهنا بدأ الخلاف - لأول مرة - بينى وبينه ، ونصحته بأن يعدل عن هذا العزم ، فرأيت منه إصراراً ، فرجوته بحق مابينىوبينهمنصداقةأنيعدل فرفض باصرار ؛ فأخذت أشرح له أن هذا يتعارض مع اتجاهى ، وأن البلاد كثيرة ولا داعى لاختيار رشيد لأن فى هذا الإصرار تحدياً لى وهو مالا أنتظره منه ، فلم يخفف ذلك كله من إصراره .

فقلت له : إن معنى هذا أنك لن تجد منى المعونة التى تطلبها فقال : إنك إذا لم تعنى فأهل الخير غيرك كثيرون . فقلت له : إنك بإقامتك هذا المولد ستمتهن حرمة المسجد ،وستجعل منه ساحة للفجور حيث يجتمع حولك السفلة من الرجال والنساء والأطفال ممن لا يعرفون للمسجد حرمة

ولا يجتمعون إلا على اللهو واللعب والفسق والفجور ، وأنت فى غنى عن أن تكون سبباً فى ذلك فاتق الله واعدل عن عزمك .

لم يزده ذلك كله إلا تمسكا برأيه وإصراراً على عزمه ، ويبدو أنه رأى فى رواد هذا المقهى من الأميين والبسطاء عينة مشجعة .....

وافترقنا وتركته فى المقهى ونحن على خلاف شديد بل على تناقض مؤلم . واستعدت الماضى ففهمت اللغز الذى طالما حيرنى حين كان يؤثرنى بالمبيت عندى رافضاً إجابة رجاء مريديه الأثرياء فى المبيت عندهم ، وفهمت لماذا كان يشيد بى وبدعوة الإخوان أمامهم ؛ لقد كان هذا طعماً ألقاه إلى ليصطادنى به فى الوقت المناسب ، ومقدمة لما يحدثنى الآن بشأنه ... وأسفت أشد الأسف أن يجعل هذا «الشيخ» هدفه من تعرفه بى أن يجعلنى سلماً يتسلق عليه ليصل إلى رشيد ؛ المدينة الهادئة الوادعة التى لم يطرقها «شيخ» من قبل ليستغلها باسم الدين ويقيم لأحد من أوليائها مولداً ... ومعنى أن يقيم شيخ فى بلد من البلاد مولداً أنه أضاف إلى موارده السنوية مورداً جديداً مما سيجبيه من أهالى هذا البلد باسم المولد من فقرائها وأغنيائها ومما سيقدمه السذج رجالا ونساء إلى الشيخ من قرابين لعلاج ما استعصى من مشاكلهم وأمراضهم ! !

جمعت إخوان شعبة رشيد ، وشرحت لهم علاقتى بهذا الرجل ، وماكان بينى وبينه ، وما فاجأنى به من عزمه على إقامة مولد برشيد ، وبينت لهم خطورة السكوت على ذلك .. والإخوان حيث كانوا يفهمون فكرتهم وعلى ضوء هذه الفكرة يبدون رأيهم فيما يعرض لهم من أمور وستجدهم جميعاً دون اتصال فيما بينهم رأيا واحداً واتجاهاً واحداً ... واتفقنا على الوقوف فى وجهه آخذين فى اعتبارنا ذكاء هذا الشاب وقوة دهائه .

وبدأ الشيخ فأعد لنفسه مجلساً بالمسجد بجانب مقصورة الولى المدفون وسط المسجد . وعلق فوق مجلسه أنواراً ساطعة جعلت الليل نهاراً ، واتصل ببعض من جاءوا يتعرفون عليه من أهل البلد ممن بهرهم المنظر وطلب من كل منهم طلباً سارعوا إلى تلبيته فبعضهم أرسل مئات الأرغفة ، وبعضهم أرسل إليه الشاى وبعضهم أرسل السكر وبعضهم أرسل إليه نقوداً .. ومد الرجل الموائد ، وتوافد عليه حثالة الناس ممن لم يغشوا المساجد من قبل ... وأخذ الشيخ يشنع على الإخوان فيخرج من جيبه إحدى بطاقات الدعاية للدعوة كان قد حصل منى عليها من قبل وكان يعتز بها ولكنه الآن يعرضها ويقول للناس : انظروا : إنهم يقولون إن لهم مبادىء .. إذن هم حزب وليسوا دعوة دينية ... والتف حول الشيخ فى هذه الليلة — وهى الأولى من سبع

ليال أعلن عنها –محبو السهر فى المقاهى التى لا يجدون فيها من الفوضى والتهريج مايجدونه هنا مما يبعث النشوة فى نفوسهم ... وتوافد الشباب المتسكع ، والنساء الساقطات على المسجد يأكلون ويشربون ويعبثون ؛ وهو مع ذلك كله ، ووسط ذلك كله يقيم حلقة الذكر وهو جالس وسطها يغذى المترنحين فيها بين الفينة والفينة بكلمة أو صيحة .

ووضع الإخوان خطة حكيمة كان من نتيجتها أن انفض الناس من حول الشيخ فوجد نفسه وحيداً مما أيأسه من هذا البلد فغادره إلى غير رجعة ووقى الله رشيد أن تكون فريسة لدجالين يتخذون الدين وسيلة لإضلال الناس وابتزاز أموالهم .

ثانيا : السنية

وهذه الفئة كانت تمثلها هيئة واحدة تسمى «الجمعية الشرعية» ثم انشقت عنها جماعة أخرى سمت نفسها «جماعة أنصار السنة المحمدية» . وتركز الجمعيتان على تنقية العقيدة الإسلامية مما علق بها من شوائب وعلى مقاومة البدع وإحياء السنن ، وتختلفان فيما بينهما فى نظرة كل منهما إلى كيفية تنقية العقيدة مما قد نرجىء الإشارة إليه إلى وقت آخر ...ولهاتين الجمعيتين أنصار كثيرون فى القاهرة وفى الأقاليم وفى طوائف المثقفين وفى طلبة الجامعة ممن لقنوا هذه الأفكار فى بلادهم قبل التحاقهم بالجامعة . والأفكار التى قامت من أجلها هاتان الجمعيتان أفكار طيبة لاشك فيها ، ولكن تصورها فى أدمغة من يحملونها إلى الناس ثم يصور المنقولة إليهم لها بعد ذلك أنشأ ما أدى إلى التطرف والتحريف فى كثير من الأحيان « وما آفة الأخبار إلا رواتها» ..

وسأضع بين يدى القارىء مثالين يوضحان هذا المعنى الذى أومأت إليه وكنت فى المثالين أحد الشاهدين :

الجمعية الشرعية : فى عام ١٩٣٩ كنت أسكن فى ضاحية بجانب الجامعة تسمى « بين السرايات»وكنت أصلى الجمعة دائماًفى القاهرة لكننى اضطررت مرة إلى الصلاة فى هذه الضاحية فدخلت مسجداً قريباً من سكنى فإذا به أحد مساجد الجمعية الشرعية ، وصعد المنبر شيخ معمم ذو لحية طويلة وخطب الناس ... فاذا كان موضوع الخطبة فى تلك الأيام التى كانت فيها فلسطين شعلة من النيران وكان الإنجليز يقتحمون بيوت المسلمين ويحطمون كل ما فيها ويمزقون ما بها من مصاحف ويطأونها بأحذيتهم، ويأخذون المجاهدين ويسومونهم ألوان العذاب ويطردون المسلمين والمسلمات من بيوتهم ليسلموها لليهود ....

كان موضوع الخطبة : قراءة سورة الكهف في المساجد يوم الجمعة ... وأفرغ الخطيب جهده في تقرير أمر عجيب ، هو أن قراءة سورة الكهف في المساجد يوم الجمعة كفر ، ولم يكتف سيادته بذلك بل قال : لا أقول إنها كفر بالنعمة بل كفر بالله ورسوله بحيث لا يقبل الله من فاعلها صرفاً ولا نصراً ..... وقد أحسست أن موجة استياء قد عمت المصلين حتى إن بعضهم بدأ يفكر في جذب الخطيب من فوق المنبر وكادت تحدث في المسجد فتنة .

جمعيةأنصار السنة : في خلال هذه السنة أو في السنة التي قبلها كنت في الإجازة الصيفية وكنت في موطني رشيد ، وكان عندي صديق كان طالباً في إحدى كليات الأزهر وكان ضيفاً عندي لأنه من بلدة أخرى .. وقد رأى أن نتريض بعد صلاة العصر على كورنيش النيل ، وبينما نحن نسير في هذا الطريق والجو هادىء وممتع رأى صديقي رجلا قادماً يبدو أنه قطع الطريق الذي بدأنا فيه ثم قفل راجعاً فقال لي إن هذا الرجل القادم صديق له ، والتقينا به فإذا به شاب في ربيع العمر معمم وذو لحية عريضة فتعانقا وصافحته .. وأخذ صديقي يعتب عليهفي انقطاعه الطويل عنه ، فاعتذر قائلا : إنني كنت نزيل المستشفى مدة تزيد على الشهر ولم أغادرها إلا منذ أيام ، فسأله صديقي عن سبب دخوله المستشفى فقال : السبب هو جهل هذا الشعب وسوء أدبه ووقاحته فسأله صديقي وما علاقة هذا بدخولك المستشفى ؟ .. قال : أوفدتني الجمعية فيالاسكندرية لألقي درساً في مسجد (حدده) بالرمل ، فجعلت موضوع الدرس «الصلاة في النعلين» فقلت للناس إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في نعليه فقال لي أحد الحاضرين : لم تكن الشوارع في مكة والمدينة بها من النجاسات مثل ما في شوارعنا ثم إنهم كانوا يصلون على الحصى ... قال فقلت لهم : هذه سنة وعلينا أن نقتدي بالرسول وأن نصلي في نعالنا ندلكها ثلاث مرات ثم ندخل المسجد بها ونصلي فيها.فقامت اعتراضات كثيرة منأنحاء المسجد فوقفت وأمسكت بنعلي وقلت لهم:أليس هذان نعلي ؟.. قالوا : بلى قلت : انظروا وأخذت أدلك بهما وجهي وأقول : لكي تقتنعوا . فرأيتهم قد قاموا وهجموا علىبنعالهم وظلوا يضربونني بها حتىفقدت رشدي ولم أدر إلا وأنا بالمستشفى ومعظم أجزاء رأسي ووجهي وذراعي وظهري وصدري عليها الأربطة .

فأخذصديقييواسيهحتى طيبخاطره ثم سأله عما جاء به إلى رشيد فقال إن الجمعية أوفدتهلإلقاء درس بمسجد المحلي ... فأحسست كأن الله عز وجل أتاح لي فرصة اللقاء مع هذا الداعية الأحمق لأعفي أهل بلدي رشيد من غوائل حمقه . واتصلت بإخواني في الشعبة فحالوا بين الرجل وبين الاتصال بالجماهير حتى رجع إلى جمعيته عازماً على أن لا يعود إلى رشيد مرة أخرى .

أما فى الجامعة فقد كان زملاؤنا الطلبة من أعضاء هاتين الجمعيتين ينتقدوننا قائلين : كان عليكم قبل أن تدعوا إلى ماتدعون إليه أن تدعوا أولا إلى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع .. وقد كان لنا مع زملائنا هؤلاء مناقشات مستفيضة وجلسات طويلة انتهت آخر الأمر باستجابتهم للدعوة واقتناعهم بأسلوبها وفكرتها ، فصاروا من أقوى الإخوان إيماناً وأثبتهم على العهد وأجرأهم فى الحق وأصبرهم على مكارهه .

ولم يكن ردنا على إخواننا هؤلاء فى خلال هذه الفترة من حياة الدعوة رداً موضوعياً بحيث نناقش فيه تفاصيل العقيدة وتوصيف البدعة بل كنا نقول لهم : انظروا إلى العالم الإسلامى بجميع أجزائه هل ترون فيه بلداً واحداً حراً طليقاً أم أنه جميعاً مستعبد رازح تحت أثقال من الاستعمار ؟ إن مثلنا ومثلكم كمثل أسرة ورثت بيتاً شبت فيه النيران ؛ فهل يتجادل الورثة فى كيفية اقتسام البيت وترتيب أثاثه أم يلقون بحقوقهم فى الاقتسام جانباً ويتفرغون متحدين أولا لمكافحة النيران ؟ ...

وقبل أن نختم الحديث عما كان من علاقات بيننا وبين الهيئات الدينية فمن حق هذه الهيئات أن نقرر أن الخلاف بيننا وبينها لم يكن خلافاً عميق الجذور كذلك الذى كان بيننا وبين سواهم من القطاعات وإنما كان خلافاً أخوياً كانت الغيرة على الإسلام الباعث من ورائه ، وإذا كان من صور منفرة فإنها لم تكن إلا من أفراد معينين أو من مجموعات محددة لا ينبغى اتخاذها أساساً فى الحكم على هذه الهيئات العتيدة التى يرجع إليها فضل كبير فى إثراء الدعوة بأكرم مجموعة من رجالها وأنصارها .

الأسلوب الخامس

الاتصال بزعماء المسلمين فى مصر والخارج

بدأت الجهات التى تعمل باسم الإسلام الرسمى منها وغير الرسمى تحس بوجود الإخوان . وأخذ المجاهدون القدامى يتنسمون فى الإخوان روح التضحية المؤمنة التى طالما افتقدوها ؛ فأخذوا يأوون إلى كنف الدعوة بطرق مختلفة ليس بينها الطريقة العلنية الظاهرة .

التقى بالأستاذ المرشد فى تلك الحقبة من المجاهدين القدامى عزيز المصرى ومحمود لبيب وعبد الرحمن عزام وصالح حرب ومحب الدين الخطيب ... وأذكر يوم زار عبد الرحمن عزام الأستاذ المرشد بهذه الدار أننى كنت فرحاً ؛ لأننى كنت أعلم الكثير عن هذا الرجل أيام سياحتى فى

مركز أبي المطامير حيث مكثت نحو شهر أتنقل بين كبار رجالاته وشيوخه الذين كان لهم تاريخ مازال مجهولا فى حرب الطليان الإجرامية – بمعاونة الإنجليز – للشعب الليبى المجاهد ، وقد حدثونى عن جهود هذا الشاب عبد الرحمن عزام وإيمانه وبسالته وتضحيته .....

ولما كنت أعلم عن اتصاله بالسنوسية ، وحرصاً منى على تجلية فكرة الإخوان له ، كتبت فى مجلة النذير مقالا عن السنوسية – والسنوسية دعوة قام بها السيد أحمد الشريف السنوسى فى ليبيا وكانت تقوم على التصوف والجهاد ، وكان لها أتباع كثيرون هم الذين قاوموا الاستعمار الإيطالى المؤيد بالنفوذ البريطانى وكان منهم عمر المختار ، وصار منهم عبد الرحمن عزام حين أعلنت إيطاليا الحرب على المجاهدين السنوسيين فترك عبد الرحمن عزام دراسته فى كلية الطب فى مصر وتطوع مع المجاهدين السنوسيين وأبلى أعظم بلاء – وقد تحدثت فى هذا المقال عن تسلسل قيادات الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث ومنها جمال الدين الأفغانى ثم الإخوان المسلمون ؛ ووازنت بين هذه الأطوار للدعوة الإسلامية ؛ وأثبت أن دعوة الأخوان قد استوعبت الدعوتين وزادت عليهما بنظام أشمل ، وقيادة أشد إحكاماً وأبعد نظراً .

وعزيز المصرى كان من قواد الجيش المصرى الذين لم يطق الإنجليز وجودهم فيه ، وكان هذا الرجل من المؤمنين بالفكرة الإسلامية وبالدولة الإسلامية العالمية ، وقد عمل مع الترك أيام الخلافة العثمانية باعتبارها رمزاً للدولة الإسلامية وله فى ذلك المجال تاريخ مجيد ... وعلى شاكلة عزيز المصرى كان صالح حرب فقد كان هو أيضاً غصه فى حلق الإنجليز .. وقد توفى فى تلك السنة الدكتور عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين فرشح الأستاذ المرشد اللواء صالح حرب خلفاً له .

ومحب الدين الخطيب كاتب اسلامى أشرت إليه فى صدر هذه المذكرات ، وكان بلا شك أعظم كاتب صحفى إسلامى فى مصر ، وكان من أوسع الناس علماً وخبرة بالتاريخ الإسلامى والحركات الإسلامية القديم منها والحديث .

أما محمود لبيب فكان زميلا لعزيز المصرى وصالح حرب ، وله جولات فى تركيا مركز الخلافة ، وله إحاطة بتاريخ الحركات العسكرية السرى منها والعلنى ، وكان يمتاز بأنه رجل عمل ، عميق الإيمان ، عميق الأفكار ، هادىء الطبع وإن كان يطوى ضلوعه على بركان ثائر لايهدأ له أوار ... وقد قطع حياته العسكرية عند رتبة الصاغ (الرائد) وكرس حياته بعد ذلك للعمل الصامت للدعوة الإسلامية ... وله فى دعوة الإخوان آثار بعيدة المدى سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

أما شمال أفريقيا وهو المغرب العربي وإن كانت الظروف السياسية لم تتح لمقابلات بين المجاهدين فيه وبين الإخوان فإن الإخوان كانوا حريصين على مراسلة هؤلاء المجاهدين للتعرف على حقائق الأحوال عندهم فكانت هناك مراسلات بيننا وبين عبد الحميد بن باديس فى الجزائر الذى كان يتزعم حركة لمقاومة خطة «فرنسة» الجزائريين للقضاء على عروبتهم وإسلامهم ، فكون جمعية جعلت مهمتها إنشاء مدارس إسلامية ..وكانت السلطات الفرنسية تلاحق هذه المدارس بالقوانين الجائرة التى تضيق الخناق عليها وتضع العقبات فى طريق إنشائها وفى طريق الملتحقين بها والمتخرجين فيها ....

وكانت هناك مراسلات بيننا وبين المجاهدين فى مراكش مثل علال الفاسى وحزبه الذين كانوا يقاومون الاستعمار الفرنسى ويقاومون «الظهير البربرى» وهو قانون أصدره الفرنسيون بذروا به بذور الشقاق بين عنصرى الأمة المغربية التى تتكون من العنصر البربرى وهم سكان البلاد الأصليون ، والعنصر العربى وهم السكان الفاتحون ... ولما كانت طبيعة الإسلام تقضى على النعرات القبلية والدعوات العرقية فقد انصهر العنصران فى بوتقة الإسلام وخرج من الإنصهار شعب لا يعرف انتماء إلا الى الإسلام فجاء الغزاة الفرنسيون ليوقظوا ما أماته الإسلام من التعالى بالآباء والأجداد ... وقد استماتت هؤلاء المجاهدون من كلا العنصرين فى مقاومة هذه الفتنة وكان صدى هذه المقاومة لا يحس به فى مصر إلا الإخوان المسلمون ولا يظهر أثره إلا على صفحات مجلاتنا .

ولا داعى هنا لذكر مفتى فلسطين وزعمائها ومجاهديها فهذه قضية تبنتها الدعوة عند إنشائها يوم كان ساسة مصر وزعماؤها يعلنون أنهم ليسوا مسئولين عن هذه القضية ولا يعنيهم أمرها .

ولقد كان المجاهدون فى خارج مصر يشعرون أن قد صار لهم بوجود الإخوان موئل ومكان وصدر مفتوح ذراعاه دائماً يتلقاهم فى شوق وحب ، فكانت رسائلهم تنهال على المركز العام .. ولا أنسى يوم سمحت سلطات الاستعمار للأمير شكيب أرسلان – وكان منفياً من بلاده سورية بأمر الفرنسيين إلى سويسرا ، وسمح له بالرجوع إلى سورية فرأى أن يمر على مصر – ولم يكن مسموحا له بالإقامة فيها – فأبرق الى الإخوان بموعد مروره، فتلقاه الأستاذ المرشد والإخوان وتعانق الجميع كأنما كانوا أصدقاء منذ نعومة الأظفار مع أن أحداً منهم لم ير الآخر من قبل «ولكن الشكوك أقارب» .

والأمير شكيب أرسلان ليس أميراً بالمعنى المتعارف عليه من الانتساب إلى بيت مالك ؛ وإنما أمره قلمه ؛ فهو كاتب لا يشق له غبار وقد لقب بأمير البيان . وهو بلاشك أقوى قلم كتب عن الإسلام والدعوة الإسلامية .. لم أقرأ مما كتب عن القرآن والدعوة الإسلامية أقوى ولا أنفذ إلى لب المعانى مما كتب الأمير شكيب فى مقدمة كتابه «حاضر العالم الإسلامى» .

وإذا كتب مؤرخ عن الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث فلا بد أنه سيكتب عن كتاب «حاضر العالم الإسلامى» لأنه أوسع وأوضح وأجمع ماكتب عن هذا الموضوع .والأصل فى هذا الكتاب رحلة قام بها مستشرق أمريكى يدعى «ستودارد» طاف فيها بأنحاء العالم الإسلامى وكتب عما شاهده رسالة أو كتيباً صغيراً سماه «حاضر العالم الإسلامى» فجاء الأمير شكيب وعلق على ماجاء بهذه الرسالة فجاء التعليق أكثر من عشرين ضعفاً للرسالة وكان التعليق أعظم من الكتاب حتى إن الكتاب كله كان معروفاً ومنسوباً إلى الأمير شكيب ... والكتاب مرجع لاينبغى لمن يرشح نفسه أن يكون داعية للإسلام أن يغفل قراءته . وقد كنت استعرته من الأستاذ المرشد وقرأته – وهو يقع فى أربعة أجزاء – ولخصته فى كراسة فقدت فيما فقد .

مقابلة المرشد لمحمد محمود باشا :

محمد محمود باشا من الشخصيات التى غمطت حقها لأن استمساكها بالمثل وتعلقها بأهداف النبل وترفعها عن الدنايا ، جعلها حصاداً سهلا لجحافل تجار السياسة ، وموطئاً ليناً لمواكب النفاق ومزورى التاريخ وعباد الحكم ...كان رجلا من عظماء مصر الذين ساهموا فى جميع أطوار الجهاد الوطنى ، وفى مقدمة المجاهدين ، ولكنه كان ذا دين وخلق ، فأبى أن يتاجر بجهاده كما تاجر زملاء له .

ورث المجد عن آبائه ، وكان على أعلى درجة من الثقافة الغربية ، ولكنه مع ذلك كان حريصاً على آداب الإسلام وتقاليد القرية...فمع توليه رياسة الوزارة أكثر من مرة لم يؤثر عنه أنه أعطى الدنية فى وطنه ، كما لم يؤثر عنه أنه جعل زوجته أو بناته عرضة لأعين الناس ولانهباً لنظراتهم ؛ بل عاش ما عاش – رحمه الله – وعاشت زوجته وبناته من بعده ما عشن لم تنهشهن عين مصرى ولا أجنبى .

ولم أكن أعلم عن هذا الرجل إلا ما نوهت عنه مما فيه الكفاية أن يجعل صاحبه موضع التقدير والتبجيل والاحترام – كما لم يكن غيرى من الناس يعلم عنه أكثر من ذلك – حتى كنت فى إحدى رحلاتى لنشر الدعوة فى إقليم البحيرة فى أواخر الثلاثينيات وقضيت فترة منها فى مركز أبى المطامير ، واتصلت هناك بشيوخ القبائل ورجالات المنطقة فكشفوا لى فى ثنايا أحاديثهم عن صفحة مجيدة مطمورة من تاريخ هذا الرجل ، عمل أعداؤه على حجبها عن الشعب ، ولم يحاول هو الكشف عنها مع أنه كان قادراً على ذلك فقد تولى رياسة الوزارة أكثر من مرة – كما قدمت – مكتفياً بما عند الله .

قال لى هؤلاء الشيوخ :

لما أعلنت إيطاليا الحرب على المسلمين فى ليبيا ، شدد الإنجليز قبضتهم على مصر حتى تقطع الصلة بينها وبين ليبيا فلا يتسرب إلى ليبيا من مصر شىء من المساعدة المادية أو الأدبية فى خلال تلك الملحمة غير المتكافئة حتى يتم لإيطاليا افتراس ليبيا والقضاء التام على المجاهدين فيها .. وكان للانجليز فى كل محافظة فى مصر موظفون من الإنجليز يشغلون المناصب الحساسة فيها حتى يكونوا عيوناً على الموظفين المصريين الكبار والصغار . وكان محافظ البحيرة فى ذلك الوقت هو محمد محمود باشا ؛ فرأى الرجل أن وقوف المصريين موقفاً سلبياً من إخوانهم فى ليبيا لا يليق ولا يقره عرف ولا دين ؛ فاتصل سراً بشيوخ مركز أبى المطامير على أن يعدوا قوافل من الطعام والسلاح والذخيرة ليرسلوها إلى المجاهدين فى ليبيا من طرق غير مطروقة ، وكلما أعدوا قافلة أخبروه قبل إطلاقها فى الطريق حتى يرسل إليهم من يلقى القبض عليهم ويودعهم الحجز فى المحافظة إلى أن تصل القافلة بسلام ... فإذا ضبط الإنجليز قافلة من هذه القوافل لم يكن هؤلاء الشيوخ مسئولين عنها لأنهم كانوا فى الحجز قبل ميعاد ضبطها .

وفى سنة ١٩٣٨ كان هذا الرجل رئيساً للوزراء . وكان معنا فى ذلك الوقت أخ كريم — أنسيت اسمه — كان موظفاً كبيراً فى وزارة الزراعة وكان صديقاً حميماً لمحمد محمود باشا ... ولشدة إعجاب هذا الأخ بشخصية الأستاذ المرشد أكثر من الحديث عنه لصديقه رئيس الوزراء حتى أغراه بأن يقابله ولكنه اشترط أن تكون المقابلة برياسة الوزارة وأن لا تزيد على ربع ساعة لكثرة شواغله وارتباطاته .... وتمت المقابلة وتناقش الرجل مع الأستاذ المرشد فى مواضيع شتى حتى انتهت ربع ساعة فقام الأستاذ مستأذناً فرفض الإذن له حتى انتهى الربع الثانى والثالث وهكذا إلى ساعتين كاملتين ... وقام رئيس الوزراء فودعه بنفسه ... فلما قابله صديقه قال له محمد محمود باشا :

«والله لولا العرف والتقاليد لعينت هذا الرجل وزيراً للخارجية ، وأنا موقن أنه سيجعل لمصر فى ظرف أشهر معدودة مكانة مرموقة بين دول العالم » .

وناهيك بالعرف والتقاليد فى تلك الأيام ... إنها كانت أقوى من القوانين ؛ فلم تكن المناصب الوزارية يتبادلها إلا أشخاص معينون لا يقلون عن سن معينة ، ومن أسر معينة .. وكان الأستاذ فى ذلك الوقت شاباً فى حوالى الثلاثين ومدرساً فى مدرسة ابتدائية .

لقاء المرشد العام بالملك فاروق :

كان الملك فاروق فى ذلك الوقت فى مستهل أيامه فقد تولى العرش فى عام ١٩٣٨ ، وكان

الناس يتوسمون الخير فى الملك الشاب ... وكان الأستاذ المرشد يرى أن أقصر طريق لتحقيق أهداف الدعوة ، والأخذ بالأسلوب الإسلامى فى إصلاح البلاد إنما يكون بالاتصال بهذا الملك الشاب وإقناعه بالدعوة ... ومعنى هذا الإقناع أن يوقن بأن انتماءه لهذه الدعوة سيصلح البلاد ويحفظ له عرشه .

وفى سبيل ابراز هذه الفكرة إلى حيز الواقع اتصل المرشد برجل محايد كان يأنس فى رجاحة عقله وفى صدق وطنيته ونزاهته ، وكان فى نفس الوقت من أقرب الشخصيات إلى الملك حيث كان أستاذه من قبل ؛ ذلك هو «على ماهر» ...وكان على ماهر من القلائل الذين يفهمون فكرة الإخوان ويقدرونها كما يقدرون الأستاذ المرشد كل التقدير ، وكان يعرف غير قليل عن قوة الصف الإخوانى وتماسكه ، وكان يرى ما كان يراه الأستاذ المرشد من أن أقرب الطرق وأسلمها لإصلاح هذا البلد هو فى إقناع الملك بدعوة الإخوان وانتمائه لفكرتهم واستناده إلى صفهم .

وكان الإخوان قد أقاموا فى صيف ذلك العام معسكراً ضخماً فى «الدخيلة» بجانب الإسكندرية وكان الإخوان من مختلف البلاد يفدون إلى هذا المعسكر ليقيموا فيه أياماً ثم يرجعون إلى بلادهم ليفد غيرهم ... وكان الأستاذ المرشد شبه مقيم بهذا المعسكر الذى كان مقرراً أن يستمر شهراً ...

وقد زرت المعسكر فى أواخر الشهر الذى كان محدداً له ضمن مجموعة من إخوان رشيد ، وكنت عازماً على قضاء سحابة النهار ثم مغادرته مساء لكن الأستاذ المرشد أصر على بقائنا ثلاثة أيام فنزلنا على أمره ، ولم أكن أعرف سبب إصراره ولكن تبين لى بعد ذلك أنه كان لأمر هام .

كنت أعرف رأى الأستاذ المرشد فيما يتصل بالملك ، ولكنى لم أكن أعرف أن استبقاءنا كان ذا علاقة بهذا الشأن حتى جاء اليوم الثالث من فترة بقائنا – وكان يوم جمعة – فإذا بالأستاذ يطلب منا جميعاً أن نرتدى زى الجوالة . ورأيناه قد ارتدى الزى قبلنا ، ثم أخبرنا أن الملك سيؤدى اليوم صلاة الجمعة فى مسجد سيدى جابر وبأننا سنكون فى استقباله أمام المسجد وبأننا سنصلى الجمعة معه ؛ وفهمت بعد ذلك أن هذا الأمر قد اتفق عليه من قبل ، ورتبت خطواته بين على ماهر والأستاذ المرشد .

وقد وضح هذا وضوحاً تاماً ، حين ذهبنا إلى المسجد واصطففنا أمامه وكنا أكثر من مائة جوال يتقدمنا الأستاذ المرشد بملابس الجوالة ، وحضر الركب الملكى يتقدمه الملك وبجانبه على ماهر – وكان فى ذلك الوقت رئيساً للديوان الملكى فيما أذكر – فحييناه هاتفين له وللإسلام ؛

فأخذ على ماهر بيد الأستاذ المرشد وقدمه للملك فسلم عليه الأستاذ مصافحاً باحترام دون تقبيل يده كما كان العرف فى ذلك الوقت — ودون انحناء.

رجعنا بعد صلاة الجمعة إلى معسكرنا ، وكان الأستاذ يشعر بالرضا النفسى لأنه أحس أنه خطا الخطوة الأولى التى كان على الداعية المصلح أن يبدأ بها ، ثم لا عليه بعد ذلك إن هى لقيت استجابة أم لقيت إعراضاً .. المهم أنه أعذر إلى الله وإلى الناس وإلى التاريخ ... حتى لا يأتى فى يوم من الأيام من يقول : لو أن هذا الداعية عرض دعوته على ولى الأمر قبل أن يسلك بها هذه المسالك .

وكنا نعتقد فى ذلك الوقت بسذاجتنا وحسن ظننا أن الله تعالى قد اختصر لنا الطريق ، واختار لنا غير ذات الشوكة ، وأن هذا الشاب الذى يبدو وادعاً فى مظهره ، وبجانبه الرجل العاقل على ماهر لابد أنه سيتجه اتجاهاً إسلامياً فيسعد ويسعد الناس ... ولم نكن نعلم ما خبأه القدر لنا كدعوة ولهذا الشاب كملك طائش مغامر ... وكأنه قد غاب عنا أن حاشية هذا الشاب . وإن كان فيها على ماهر فإن فيها ألف شيطان .

الفصل الثانى

الأخذ بأساليب عملية
فى التكوين والتربية ونشر الدعوة

كان أسلوب التربية فى دار الناصرية يتمثل فى درس كان يلقيه الأستاذ المرشد ليلة فى الأسبوع فى مسجد الدار الصغير ، يحضر هذا الدرس من شاء من الإخوان فقد يحضر مرة عدد قليل وقد يكثر حاضروه فى مرة أخرى ، وكان هذا الدرس يستغرق نحو الساعة ... ثم تحول هذا الدرس فترة من الزمن إلى درس فى تلاوة القرآن ، ولا أنسى أننى أفدت من هذا الدرس فى التلاوة كلمة كنت أقرأها خطأ ولم أصححها إلا بعد أن سمعت الأستاذ يقرأها أمامى فى درس من دروس التلاوة وكان يقرأ سورة يونس هى كلمة «يهدى» فقد كنت أقرأها بغير تشديد الدال وذلك فى قوله تعالى «أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى » .

وكان أكثر وقت الأستاذ المرشد يقضيه فى إقناع شخص أو شخصين بالدعوة ، وكذلك كنا نفعل ، وتستطيع أن تقول إن هذه الفترة كانت طور الدعوة الفردية ، حيث لم يكن ممكناً أن تقوم تنظيمات على غير أشخاص ؛ فما دام العنصر الضرورى غير موجود وهو الأشخاص المؤمنون بالفكرة الإسلامية المستعدون للعمل لها ، والبذل فى سبيلها ، فلا تنظيم ولا تكتيك ... والواجب الذى تفرضه المرحلة هو بذل الجهد لتوفير العنصر الأساسى .

وقبيل الانتقال إلى الدار الجديدة كانت الدعوة قد أثمرت وآتت أكلها سواء فى خارج القاهرة والأقاليم — وقد أشرت إلى ذلك فى سياق البعثات الطلابية التى أوفدها الأستاذ المرشد إلى الأقاليم فى نهاية العام الدراسى ١٩٣٦ — فلما تم الانتقال إلى الدار الجديدة حيث الموقع والسعة تدفق الشباب على الدار ؛ فلما وجدت المادة الخام كان على الصانع الماهر أن ينتفع بها أتم الانتفاع ، وأن يصهرها فى بوتقته ، ويستخلص منها المعدن النقى بعد أن يقشع عنه ما كان يخالطه من شوائب ، وكان عليه أن يصوغ من هذا المعدن ما ينفع الناس .

فلما توفرت المادة الخام بدأ الصائغ الصناع صياغتها بالأساليب التالية :

الأسلوب الأول

نظام الكتائب

نظام الكتائب نظام فريد مبتكر ، ولعل الأستاذ المرشد قد اشتقه من اجتماعات دار الأرقم بن أبي الأرقم حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع المؤمنين به في ذلك الوقت المبكر — وكانوا قلة — فيبثهم ما عنده ، ويفضى إليهم بذات نفسه ويأخذهم بأسلوب من التربية الروحية العالية حتى خرج من تلك الدار المتواضعة من كانوا أعلام الهدى ومن حملوا شعلة النور الإسلامى فأضاءوا بها جنبات الدنيا ....

وهذا النظام بين مختلف أنظمة التكوين يعد نظام التكوين المركز وأسلوب التربية العميقة المباشر لأنه وحده هو النظام الذى يجد فيه الموجه والموجه نفسيهما متجردين متفرغين كل منهما للآخر وجهاً لوجه لا تشغل أيامنهما عن نفسه ولا عن صاحبه شاغله فيكون القلب والعقل معاً في أسمى حالات التهيؤ للتلقى والإلقاء وبالتعبير الحديث للاستقبال والإرسال .

وكان في نية الأستاذ المرشد أن يتدرج في إنشاء الكتائب حتى يسلك فيها كل إخوان المركز العام على أن يقوم هو بنفسه فيه بدور التوجيه والتربية ، فبدأ أول خطوة فيه بأن جمع من الرعيل الأول أربعين أخاً كانوا هم الكتيبة الأولى ثم ما لبث أن جمع أربعين آخرين فكانوا الكتيبة الثانية وكان النظام يقتضى أن تتم كل كتيبة أربعين أسبوعاً .

ويتلخص نظام الكتيبة في الآتى :

١ — تبيت الكتيبة ليلة في الأسبوع في المركز العام ويبيت معهم الأستاذ المرشد .

٢ — يصلون مع الأستاذ المرشد المغرب والعشاء .

٣ — يتناولون طعام العشاء معاً طعاماً رمزياً .

٤ — يتذاكرون معاً ويتسامرون .

٥ — بعد صلاة العشاء بوقت قصير ، وفي لحظة محددة ينامون على الأرض في حجرة واحدة واسعة ، ويتخذ كل منهم حذاءه وسادة له وينام الأستاذ المرشد معهم على نفس الهيئة .

٦ — يستيقظون قبل الفجر بساعتين ويتوضأون ويتهجدون بعض ركعات فرادى .

٧ — تطفأ الأنوار ويجلسون منصتين إلى تلاوة نحو جزء من القرآن الكريم يتلوه قارىء الكتيبة وكان الدكتور محمد أحمد سليمان .

٨ — يضاء النور ويستمعون إلى درس من الأستاذ المرشد في التكوين النفسى والروحى والعلمى للداعية مع عرض لتاريخ الدعوات والدعاة ، وبيان مواطن الضعف في كل منها وفي

كل منهم ، وما يقابل ذلك فى الدعوة الإسلامية وكيف يتجنب الداعية مواطن الضعف التى عصفت بسابقيه .

٩ – فترة قبيل الفجر للاستغفار .

١٠ – أذان الفجر ثم صلاة الفجر خلف الأستاذ المرشد .

١١ – توزيع الورد القرآنى على أعضاء الكتيبة وقيام الأستاذ المرشد بتفسيره تمهيداً لحفظه . والورد القرآنى هو ورقة يجمع فيها الأستاذ المرشد الآيات القرآنية ذات الهدف الواحد ، فورد للإيمان وورد للوفاء وورد للأمل وورد للجهاد وورد للتفكر وهكذا ، وسأحاول عرض بعض أمثلة من هذه الأورادة فى نهاية الكتابة عن هذا الأسلوب من أساليب التربية إن شاء الله .

١٢ – فإذا طلعت الشمس قرأ الجميع معا فى صوت خافت «الوظيفة» وهى أدعية من القرآن الكريم ومن السنة النبوية كان يدعو بها النبى صلى الله عليه وسلم إذا أصبح وإذا أمسى .

١٣ – إفطار بسيط ثم يتجه كل منهم إلى عمله .

ويلحق بنظام الكتيبة أيضاً ما يلى :

(أ) شعار هذا النظام هو «كل وأنت شبعان ونم وأنت مستيقظ» ومعنى هذا الشعار الطاعة التامة ، والالتزام الكامل بالنظام المقرر فقد يكون إلزام نفسك بالأكل وأنت شبعان أثقل على نفسك من إلزامك بالامتناع عن الأكل وأنت جائع وكذلك نومك وأنت مستيقظ أصعب من استيقاظك وأنت نائم .

(ب) ومن شعار هذا النظام الامتناع عن تناول المكيفات من شاى وقهوة فضلا عن الدخان .

(ح) كان يوزع على كل فرد من أعضاء الكتيبة فى أول كل شهر كشف يسمى استمارة المحاسبة ، وهو يضم عشرين سؤالا يجيب عليها الفرد كل ليلة حين يأوى إلى فراشه «بنعم أو «بلا» كتابة أمام كل سؤال وفى خانة اليوم حيث يضم الكشف ثلاثين خانة لشهر كامل – وفى نهاية الشهر يجمع عدد «لا» وعدد «نعم» فإذا رجحت «نعم» حمد الله وطلب منه التوفيق إلى الزيادة منها وإذا رجحت «لا» أسف وندم واستغفر الله وجدد التوبة وحاول مراقبة نفسه فيما حددته له الاستمارة من مواطن الضعف فى نفسه وفى تصرفاته .

(د) كان يوزع على أفراد الكتيبة رسالة تسمى «المنهج العلمى» وهى تضم أسماء مجموعة مختارة من الكتب فى كل فن من فنون العلوم الإسلامية والتاريخية والتربوية ، ويطلب من عضو الكتيبة أن يقرأ ما يستطيع من هذه الكتب لتزوده بذخيرة من المعلومات تنير له الطريق فى دعوته ، وتجعله أهلا لقيادة الدعوة فى مختلف الأماكن والظروف .

ولا شك فى أن نظام الكتائب هذا هو النظام الأمثل للتربية لأنه يجمع كل وسائل التربية الحديثة التى تحدثت عنها الكتب العلمية المتخصصة ، والتى تدرس على أنها ترف علمى يحلق بدارسه فى آفاق الخيال ؛ جمعها هذا النظام وأخرجها إلى حيز الوجود ، وطبقها تطبيقاً دقيقاً رائعاً ، وصقل بها نفوساً ، وثقف بها عقولا ، وسما بأرواح أصحابها سمواً ملائكياً ، مع مزج هذه النفوس معاً فى بوتقة واحدة هى بوتقة الفكرة الإسلامية مزجاً صاغ منها صفا متراصاً متماسكاً .

ومن تمام روعة هذا النظام أنه لم يكن يقتصر تأثيره على الليلة التى كانت محددة للمبيت ؛ وإنما كان أثره ممتداً طيلة الأسبوع ، فكشف المحاسبة أو استمارة المحاسبة كان لابد من ملء خاناتها كل ليلة ، والورد القرآنى كان يحفظ ويكرر صباح كل يوم والوظيفة كانت تقرأ كل يوم فى الصباح وفى المساء .

وإذا علمنا أن ليالى الكتائب لم تكن كلها تقضى بدار المركز العام بل كان الكثير منها يقضى خارجه ، فقد قضينا بعض هذه الليالى فى مدرسة خاصة فى شبرا – لا أذكر اسمها الآن – وكنا نصلى الفجر فى مسجد الخازندار القريب من المدرسة . وأذكر بهذه المناسبة أن الناس تعودوا أن يقرأ الإمام فى فجر الجمعة آيات من سورة السجدة تبدأ بقوله تعالى «وقالوا إذا ضللنا فى الأرض أ إنا لفى خلق جديد» وكان الأستاذ المرشد قد تعود أن يقرأ بنا فى صلاة فجر الجمعة سورة السجدة كلها من أولها لأن السنة هى ذلك ، فلما بدأ يصلى بنا الفجر فى هذا المسجد وأخذ فى قراءة السورة من أولها – وكان يصلى معنا كثيرون من أهل الحى ممن اعتادوا الصلاة فى المسجد – تعالت أصوات المأمومين يقولون «وقالوا أ إذا ضللنا » ظناً منهم أن الإمام نسى أن اليوم يوم الجمعة فقرأ بسورة أخرى .

كما قضينا بعض هذه الليالى خارج القاهرة ، وقد قضينا إحدى هذه الليالى فى ضاحية بجانب المعادى اسمها «البساتين » وفى صباح تلك الليلة باشرنا أنواعاً من الرياضة منها ركوب الخيل .

وكان من روعة هذا النظام أننا كنا نرى قائدنا وإمامنا لا يتميز عنا بشىء فى مأكل ولا مشرب ولا ملبس ولا منام بل كان هو أكثرنا تضحية حيث كنا فى ذلك الوقت عزاباً وكان هو يترك بيته وزوجته وأولاده ، الأمر الذى زادنا حباً له وإجلالا .

وأثر هذا النظام وروعته لا يكاد يحس بعمقها فى النفوس ، ولا بامتزاجها بالقلب إلا من كابده وعاناه . وحسبك أن تتصور إنساناً خرج من بيته مهاجراً إلى مكان ما ، وفى هذا المكان تجرد من مظاهر الدنيا فاتخذ الأرض فراشه ، وحذاءه وسادته ، ثم فى وقت السحر قام من نومه وتوضأ وناجى ربه فى سجوده ثم استمع فى هدأة الظلام إلى جزء من القرآن يتلوه متجرد مثله

ثم أصغى بعد ذلك إلى حديث من قائد متجرد يبثه ما فى نفسه ، ويهدى إليه خلاصة تجربته ، ويذكره بفضل ربه ، ويتركه بعد ذلك يستغفر ربه ويتوب إلى خالقه حتى يؤذن الفجر .

وبعد صلاة الفجر ، فى هذا الجو الروحى ، وضمن هذه الجماعة الواعية المتجردة تزاول رياضة بدنية عادية داخل الدور إن كان المبيت فى الدور – أو رياضة قوية كالسباق وركوب الخيل والمصارعة إن كان المبيت فى ضاحية خارج الدور .

ثم لا يزال عضو الكتيبة فى كل يوم من أيام الأسبوع يعد نفسه للإجابة على أسئلة استمارة المحاسبة التى لابد أن يقف بين يديها كل ليلة قبل أن يأوى إلى فراشه ، وهذه الأسئلة لا تدع كلمة تكلمها ولا حركة تحركها ، ولا عملا صدر منه ، ولا خاطراً هجس فى نفسه إلا حاسبته عليه وطلبت منه الإجابة فى شأنه ... ولا يزال كذلك طيلة الأسبوع حتى يحين موعد الليلة التالية للمبيت بالكتيبة .

إن هذا الأسلوب قد خرج ملائكة تمشى على الأرض ، وخرج مجاهدين لا يخافون فى الله لومة لائم ، وخرج علماء بهذا الدين على نور وبينة منه ، ودعاة يهتدى بهم الناس ؛ وهم مع ذلك أساتذة كل فى فنه ومهنته .

وفى خلال إقامتنا بهذه الدار – دار العتبة – كون الأستاذ المرشد الكتيبتين الأولى والثانية ولم تتم أى من الكتيبتين المناهج المعدة لها لأسباب سنذكرها إن شاء الله فى فصل قادم .

١ – ورد المعرفة

١ – وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون – البقرة ١٨٦ .

٢ – وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون – الأنعام ٣ .

٣ – وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير – الأنعام ١٣ : ١٨ .

٤ – الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحى

إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون – الزمر (٦٢ : ٦٧) .

٥ – وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون – الزخرف (٨٤و٨٥) .

٦ – فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم – الجاثية (٣٦و٣٧) .

٧ – ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين – الذاريات (٥٠ – ٥١) .

٨ – هو الله الذى لاإله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم – الحشر (٢٢ : ٢٤) .

٩ – ياأيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى – الفجر (٢٧ : ٣٠) .

١٠ – قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد – الإخلاص .

٢ – ورد الوفاء

١ – يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون – البقرة (٤٠).

٢ – ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون – البقرة (١٧١) .

٣ – ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب – التوبة (٧٨).

٤ – أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار – الرعد (١٩ : ٢٤).

٥ – وأوفو بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون – النحل (٩١) .

٦ – وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا – الإسراء (٣٤) .

٧ – من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا – الأحزاب (٢٣).

٨ – إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما – الفتح (١٠).

٩ – لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما – الفتح (١٩) .

١٠ – يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص – الصف (٤) .

٣ – ورد التفكر

١ – إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيابه الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون – البقرة (١٦٤) . .

٢ – إن فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار – آل عمران (١٩٠ و ١٩١) .

٣ – إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم.

وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون – الأنعام (٩٥:٩٩) .

٤ – إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين – الأعراف (٥٤).

٥ – هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله السموات والأرض لآيات لقوم يتقون – يونس (٥ – ٦) .

٦ – الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون – الرعد (٢ : ٤) .

٧ – وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون – النحل (١٤ – ١٦) .

٨ – ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين – المؤمنون (١٢ – ١٤) .

٩ – ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور – فاطر (٢٧ – ٢٨).

١٠ – الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله

على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما – الطلاق (١٢).

٤ – ورد المراقبة

١ – وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألاله الحكم وهو أسرع الحاسبين . – الأنعام (٥٩: ٦٢) .

٢ – وماتكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين – يونس (٦١) .

٣ – سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله – الرعد (٩–١٠)

٤ – إن ربك يعلم ماتكن صدورهم ومايعلنون . ومامن غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين – النمل (٣٧، ٧٥) .

٥ – يابنى أنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أوفى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور – لقمان (١٦ – ١٧) .

٦ – وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين – فصلت (٢٢– ٢٣) .

٧ – أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون – الزخرف (٧٩ – ٨٠)

٨ – ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد–ق(١٦–١٧)

٩ – ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم

ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم – المجادلة (٧).

١٠ – وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (الملك ١٣ –١٤) .

٥ – ورد الاخلاص

١ – صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ، قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون – البقرة (١٣٨ – ١٣٩) .

٢ – يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبينا . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما.مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراًعليما–النساء(١٤٤:١٤٧)

٣ – إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علماً أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنو ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون – الأنعام (٧٩ – ٨٢)

٤ – قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون –الأنعام (١٦١ –١٦٤) .

٥ – قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً – الكهف (١١٠) .

٦ – إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار . لو أرادوا الله أن يتخذ ولداً لا صطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار – الزمر (٢–٤)

٧ – قل إنى أمرت أن أعبد مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصاً له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون (الزمر ١١–١٦).

٨ – هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون (المؤمنون ١٣–١٤)

٩ – الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (غافر ٦٤ – ٦٥) .

١٠ – وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ذلك دين القيمة (البينة ٥) .

٦ – ورد الايمان

١ – يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم .الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . (آل عمران ١٧١–١٧٥) .

٢– ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنو بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا أو قتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب(آل عمران ١٩٣ – ١٩٥)

٣ – إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (الأنفال ٢–٤) .

٤ – إن الذين آمنو وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا

ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولا يتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير (الأنفال ٧٢) .

٥ – إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين (التوبة (١١١ – ١١٢) .

٦ – قد أفلح المؤمنون. الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون. والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (المؤمنون ١٠ –١١).

٧ – ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (العنكبوت ١–٣)

٨ – لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤ منون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . (الأحزاب (٢١–٢٣) .

٩ – قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون (الحجرات ١٤ – ١٥) .

١٠ – فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم (التغابن ٨ – ٩) .

الاسلوب الثانى

نظام الجـــــــوالة

عند الحديث عن الدعوة فى دار شارع الناصرية فاتنى أن أذكر أنه كان مما اشتملت عليه حجور المركز العام حجرة صغيرة لفرقة الرحلات وكان برأس فريق الرحلات الطالب محمد أحمد سليمان بكلية الطب والذى أذكره أننا جميعاً كنا أعضاء فى هذا الفريق ، وكنا نلبس الملابس الخاصة به فى المناسبات وكانت هذه الملابس تشبه ملابس ركوب الخيل فهى قميص كاكى وبنطلون كاكى طويل بمنفاخ .. ويخيل إلى أن الأستاذ المرشد رسم فى ذهنه صورة لوسائل إبراز حقيقة الدعوة الإسلامية ، فوجد أن هذه الصورة لا تكتمل إلا بوجود مظهر للقوة البدنية ولم يستطع التعبير عن هذا المظهر فى ذلك الوقت كما لم تسعفه الوسائل إلا بتخصيص حجرة من حجرات المركز العام وإن كانت أصغرها لهذا النشاط ووضع على بابها لا فتة باسم هذا النشاط وإن ظلت هذه الحجرة مغلقة دائماً أو ما يقارب الدوام .

كما أنه أراد فى دار شارع الناصرية أن يعبر عن معنى الجهاد فى الفكرة الإسلامية فكلف نجاراً – بإرشاد من أحد العسكريين – بصناعة أنموذج لبندقية ، وكان هذا الأخ العسكرى يدربنا فى فناء الدار على استعمال البندقية فى مختلف الظروف والأوضاع بهذا النموذج الخشبى .

فلما تم الانتقال إلى الدار الجديدة فى العتبة ، ووجدت السعة ، ووجد الشباب المتطلع إلى الحركة والنشاط رأى الأستاذ الفرص مواتية لإبراز الصورة التى فى ذهنه إبرازاً أوضح فطور فريق الرحلات إلى فريق الجوالة .

والصورة التى رسمها الأستاذ فى ذهنه منذ قام بدعوته فى الإسماعلية عن هذا الجانب من نشاط الدعوة لم تكن هى فريق الرحلات أو فريق الجوالة ، وإنما كانت فريقاً عسكرياً يحقق فكرة الجهاد فى الإسلام ؛ إلا أن الرجل وقد آتاه الله الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا» لم يكن يؤمن بالطفرة ، بل كان يؤمن بالتطور وبأنه قانون الحياة ، ولا بد للدعوات أن تخضع لقوانين الحياة ، إذا هى أرادت أن تشق طريقها ، ولم يكن الرجل يتجاهل ماحوله ، ولا يتعامى عما بين يديه ، فتدرج بالصورة التى فى خاطره تدرج الأم بمولودها .

وكان هذا الرجل – بثاقب فكره ، ومرهف حسه ، وبخاصية أودعه الله إياها – يتحدث إلى الناس عن أمور يراها هو واقعة لا محالة ، وهى فى خواطرنا شىء من هواجس النفس ، وأوهام الخيال ؛ فإنه كان يعد من حياطات الحذر من أخطار يتوقعها ولانكاد نصدق وهو يحذرنا

منها ... ثم لاتقع هذه الأخطار إلا بعد سنوات ... وعندما تواجهنا نرى أسباب الحيطة التى اتخذها منذ سنوات – دون مبرر فى نظرنا إذ ذاك – هى وحدها التى تحصننا إزاء هذه الأخطار .

كان الأستاذ يتحرق شوقاً إلى إبراز النشاط العسكرى لتجلية فكرة الجهاد ، ولكنه رأى الدعوة لازالت فى مهدها ، ولم تتجاوز فى طورها الجديد مرحلة الحبو ، ورأى الحكومات المصرية ومن ورائها الإنجليز لابد أنهم متربصون – فى يوم ما–بالدعوة الدوائرلأنها عدوهم الأساسى ؛ إذن فلابد من أن تتحاشى الدعوة فى هذا الطور كل ما يعتبرونه فى عرفهم خروجاً على القانون. وكنا إذ ذاك فى الثلث الأخير من الثلاثينيات وكان تكوين منظمات عسكرية لايعد خروجا على القانون فحسب بل يعد إحدى الكبائر ، ... لهذا لجأ فى إبراز الطور الجديد فى خاطره إلى مظهر ألبسه لباس القانون .

لم يكن فى مصر إذ ذاك صورة فيها رائحة العسكرية مسموح بها إلا جمعية الكشافة الأهلية ، وكان صغار السن من المنتسبين اليها يسمون «كشافة» وكان الكبار يسمون «جوالة» وصار الإخوان المسلمون فرقة جوالة منتسبة إلى جمعية الكشافة الأهلية .

وتبنى الإخوان قانون الكشافة وهو يتمشى مع الفضائل الاجتماعية التى يدعو اليها الإسلام . وأذكر أننا لم نعدل فيه إلا لفظاً واحداً من إحدى مواده التى تقول : وأن أطيع رؤسائى طاعة عمياء .عدلناها إلى طاعة تامة لأن الإسلام لا يعترف بالطاعة العمياء –وشرحنا قانون الكشافة بآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم وربما كان فريق الإخوان المسلمين هو الفريق الوحيد من المنتسبين إلى جمعية الكشافة الأهلية الذى استعمل هذا القانون استعمالا كاملا وطبقه أحسن تطبيق .

مشكلة الملابس

بانتساب جوالة الإخوان إلى جمعية الكشافة الأهلية صاروا ملزمين بملابسهم المميزة الموحدة وهى تتكون من قميص كاكى وبنطلون كاكى قصير ... ولما كان الإخوان قد تعودوا أداء الصلاة فى أوقاتها مهما كانت الظروف فإنهم كانوا يؤدون الصلاة وهم فى هذه الهيئة حين يحين وقت الصلاة ... فانطلقت أفواه واسعة تسلقهم بألسنة حداد ، وكانت هذه الأفواه لطائفتين ؛ طائفة دفعتها الغيرة على الإخوان ومبلغ علمهم أن هذه الهيئة تتنافى مع الصلاة ، والطائفة الأخرى من أولئك الحاقدين الملتمسين للبرءاء العيب ؛ فما كادوا يرون الإخوان يصلون فى هذه الهيئة حتى ذهبوا يملأون الدنيا تشنيعاً ، وكانت الجمعيات الإسلامية التى أشرنا إليها فى الفصل السابق من الطائفة الأولى .

وظل الإخوان صابرين تحت هذا الوابل من النقد اللاذع أكثر من عام حتى وجد الأستاذ

المرشد حل هذا الإشكال فى كتاب البخارى تحت عنوان على ما أذكر «ماتجوز الصلاة فيه» وكان المرشد يقول إن الإمام البخارى فى كتابه الصحيح لم يكن مجرد محدث فحسب بل كان فقيهاً مجتهداً صاحب مذهب والعناوين التى جعلها لأبواب صحيحه هى آراؤه ومذهبه وتحت هذا العنوان حديث معناه : أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسأله عن الملابس التى نؤدى بها الصلاة فقال له : «صل فى ثوبين ، صل فى ثوب وسروال صل فى ثوب واحد ، صل فى كذا ... حتى قال له صل فى تبان» والتبان هو ما يلبسه المصارعون .

ويكاد يكون هناك ما يشبه التلازم بين الكتائب والجوالة فعضو الكتائب يكون فى أغلب الأحيان جوالا لأن الأستاذ المرشد كان هو رئيس النظامين ؛ وإذا استثنينا الكتيبتين الأوليين اللتين تحدثت عنهما فان أسلوب الجوالة كان فى أكثر الأحوال هو الخطوة الأولى للشباب الذين انضموا تحت لواء الدعوة لأنه نظام عسكرى المظهر فيه معنى الفتوة التى تستهوى الشباب ، وكم من الشباب تم إصلاحه وظهرت مواهبه عن طريق نظام الجوالة وكان من قبل شباباً لاهيا عابثاً .

وقد لا أكون مغالياً إذا قلت إن نظام الجوالة بما فيه من مبادىء سامية وأهداف رفيعة تحث على الأخوة والإيثار والشجاعة والمروءة والتضحية لم يكن له وجود قبل إنشاء جوالة الإخوان المسلمين ، فلقد كنت على اتصال بهذا النظام منذ كنت طالباً بالدراسة الثانوية وكنت أتتبع أخباره فى مختلف البلاد المصرية وكان هذا سبباً فى أننى رفضت أن أنضوى تحت لوائه لأننى لم أر فريقاً من المنتسبين إليه كان جاداً فى انتحال مبادئه والاهتداء بتوجيهاته : حتى إننى أسأت الظن بالنظام نفسه واتهمته بأنه فى ذاته نظام غير جاد ... فلما انتسب الإخوان إلى هذا النظام شعرت كأنما كان هذا النظام جسداً لا روح فيه فكان الإخوان هم روحه ردت إليه فبعثت فيه حرارة الحياة .

ولقد كان نظام الجوالة فى الإخوان المسلمين وسيلة لإصلاح الشباب بطريقتين :

الطريقة الأولى أن الشباب الذين انتظموا فى سلكه صاغهم كما قلت صياغة جديدة بعثت من أعماق نفوسهم ما كان كامناً فيها من طاقات خارقة ، ومواهب باهرة ، وصاروا مثلا عليا فى الاستقامة والإيثار والتضحية . والطريقة الثانية بما كانت تبعثه جموعها الحاشدة ، وطوابيرها المنظمة ، وخطواتها المتسقة ، وطبولها المثيرة ،وهتافاتها المزلزلة ، وعسكريتها غير المحترفة ؛ من روح تشعر هذا الشعب بأن للحق قوة تحميه فتطمئن قلوب تحب الحق ولكنها كانت خائفة ، وتهتز فرقاً قلوب كانت سادرة فى الباطل فكانت تجاهر بباطلها اعتماداً على أن الطريق أمامها سهل مفتوح ، فلما رأت بعينها قوة الحق انكمشت بباطلها مستخفية مرتجفة .

وقد يجمل بي – في صدد حديثنا عن الجوالة – أن أنقل للقارى من قصيدة لعمي الأستاذ محمود عبد الحليم الكبير رحمه الله وكان شاعر وشهولالب شعبة الإخوان بها يصف فيها هذه الفرق المتيدة ، التي أخذت بلبه ، وأشعلت جذوة الأمل في نفسه فقال :

لقفا نحيي الشباب الناهضين لقفا … الرافعين لمصر ذكرها شرفا
وكبروا لرجال كالسيوف ترى … نظم السيوف وتجواب الفلا ترفا
ساروا بقلب يروع الأسد جرأته … وصدق عزم إلى العلياء منصرفا
تقلدوا الجد والإقدام واطرحوا … ثوب النعيم وعافوا اللهو والسخفا
واستبطنوا محض حب الخير واستبقوا … واستظهروا حكمة في نصرة الضعفا
أهلا بفتيان صدق شب جمهمو … على المروءة والإخلاص والتلفا
لهم ليوث . على النفس اعتمادهمو … لا يضمرون لما ينتابهم أسفا
طابوا نفوساً كما طابت شمائلهم … وللفضيلة أضحى حبهم كلفا
راضوا نفوساً بخفض العيش منبتها … واستبدلوا بمجاني خفضه شظفا
شعارهم أن تخذوا للدهر أهبتكم … فيما تكدر من حالاته وصفا
فإن تصونوا قوى الأبدان نامية … حفظتمو الروح والأوطان والخلفا
إن الحياة كبيداء فإن لبست … برد الشباب تبدت روضة أنفا
وليس أعجز من قد أتيح له المـ … ـحيا معافى ولاقى حتفه دنفا
وجوهر الروح أسمى في الحقيقة من … أن يرتضى المرء مختاراً له التلفا
الله فيها فقد شاءت عنايته … باللؤلؤ الرطب أن سوى له الصدفا
والشعب إن زاد للعلياء تعطشه … ففي قوى النشء منه للغليل شفا
جيش أعد لمصر كي تفل به … جيش الرذيلة والأرزاء إن زحفا
يخوض غمرة هول الدهر مقتحما … ويمتطي غارب البيداء معتسفا
إن صوب الدهر سهماً قام معترضا … في وجهه ناصباً أبطاله هدفا
من كل عضب إذا شاقته مكرمة … مضى سراعاً وإن شام الخنا صدفا
يهتز للبر إذ يدعى لمرحمة … مساعفاً أو رأى مستنجداً هتفا
فادعوه « بكشاف » مجازفة … حتى رأوه لعادى الضر قد كشفا
تلك الفضائل .... ماترعون حرمتها … أرضيتم الله والأوطان والسلفا
ستشكرن مصر والتاريخ نهضتكم … ما مجد الدهر من تاريخها صحفا

وأيام كانت الهيئات السياسية تنشىء فرقاً عسكرية من شبابها ، كانت جوالة الإخوان المسلمين موضع سخرية من هذه الهيئات ذات القمصان الملونة فالقمصان الزرقاء للوفد والقمصان الخضراء لمصر الفتاة وكانت مصر الفتاة تتيه علينا بفرقها ذات القمصان الخضراء وترمينا بالضعف لركوننا فى فرقنا إلى نظام رسمى ، وكنا نشكو إلى الأستاذ المرشد حملاتهم علينا فى هذا الصدد ونتمنى لو أن الأستاذ قبل رجاءنا وخلصنا من نظام الجوالة لنكون فرقاً ذات قصان بلون نختاره ؛ فكان الأستاذ يطمئن نفوسنا ويقول لا تعبأوا بأقوالهم واصبروا وسترون أن العاقبة لنا ... ودارت الأيام وجاءت حكومة أصدرت قانوناً يحرم على الهيئات أن تكون لها فرق عسكرية أو شبه عسكرية ذات قصان ملونة فألغيت هذه الفرق بين يوم وليلة ولم تبق إلا فرق جوالة الإخوان لأنها نظام معترف به فى الدولة والفرق مسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية ؛ .. وقد رأينا أن الرجل كان أبعد نظراً منا ومن غيرنا .

وكان لنظامى الكتائب والجوالة أنشدة تومىء إلى أهداف الدعوة ومعانيها فكان النشيد الأول الذى كنا ننشده بدار الناصرية وردحاً من دار العتبة هو نشيد «يارسول الله» من نظم الشيخ الباقورى وهذا نصه :

يارسول الله هل يرضيك أنـا ... إخـوة فى الله للإسـلام قمـنا
ننفض اليوم غبـار النوم عنـا ... لا نهـاب المـوت لا بل نتمنى

أن يرانا الله فى ساح الفـداء

إن نفساً ترتضى الإسـلام دينا ... ثم ترضى بعـده أن تستكينا
أو ترى الإسـلام فى أرض مهينا ... ثم تهوى العيش نفس لن نكونا

فى عداد المسلمين العظمـاء

حبـذا الموت يريح البائسين ... ويرد المجـد للمستعبدين
فلنمت نحن فـداء المسلمين ... سادة الدنيا برغم الكاشحين

وليسد فى الأرض قانون السماء

آن للدنيـا بنا أن تطهـرا ... نحن أسد الله لا أسد الشرى
قد قطعنـا العهـد ألا نقبرا ... أو نرى القرآن دستور الورى

كل شىء ما سوى الدين هباء

أيقظت جمعيـة الإخوان فينـا ... روح آباء كرام فاتحـينا
أسعدوا العالم بالإسـلام حينا ... فاستجبنـا للمعالى ثائرينـا

وتسابقنا إلى حمـــل اللواء

غــــيرنا يرتاح للعيش الـــذليل وسوانا يرهب الموت النبيـــل

إن حيينـــا فعلى مجـــد أثيل أو فنينا فإلى ظـــل ظليل

حسبنا أنا سنقضى شهـــداء

وحين كنا ننشد هذا النشيد فى دار الناصرية اقترحت على الإخوان تغيير الشطرة التى تقول «أيقظت جمعية الإخوان فينا» إلى «قد أثارت دعوة الإخوان فينا» باعتبارنا أصحاب دعوة لا أعضاء جمعية .

ولما انتقلنا إلى دار العتبة نشر عبد الحكيم عابدين ديوانه «البواكير» وكان يضم مجموعة من الأناشيد اختار منها الإخوان نشيداً سموه نشيد الكتائب وهذا نصه :

هو الحق يحشـــد أجنـــاده ويعتقـــد للموقف الفاصـــل

فصفوا الكتائب اســـــاده ودكوا به دولـــــة الباطـــل

***

نبى الهـــدى قد جفونا الكرى وعفنـــا الشهى من المطعـــم

نهضنا إلى الله نجلـــوا السرى بروعـــة قرآنـــه المحـــكم

ونشهـــد من دب فوق الثرى وتحت السما عـــــزة المسلم

دعـــاة إلى الحق لسنـــا نرى له فـــدية دون بـــذل الدم

***

هو الحق يحشد أجنـــــاده ويعتـــد للموقف الفاصـــل

فصفوا الكتائب آســـــاده ودكوا به دولـــــة الباطـــل

***

تآخت على الله أرواحنـــــا إخاء يروع بنــــــاء الزمن

وباتت فـــدى الحق آجالنـــا بتوجيه «مرشـــدنا» المؤتمن

رفاق إذا ما الـــدجى زارنـــا غمرنا محـــاريبنا بالحزن

وجنـــد شداد إذا رامنـــا لبأس رأى أســـداً لاتهن

***

هو الحق يحشد أجنـــــاده ويعتـــد للموقف الفاصل

فصفوا الكتـائب اســـــاده ودكوا به دولـــــة الباطل

***

أخا الكفر إما تبعت الهـــــداه   فأصبحت فينا الأخ المفتـــدى
وإما جهلت فنحن الكمــــاه   نقاضى إلى الروع من هـــددا
إذن لأذقناك ضعف الحيـــاه   وضعف الممات ولن تنجـــدا
فإنا نصـــول بروح الإلـــه   ونقفو ركاب بنى الهـــدى

***

إلى النصر فى الموقف الفاصل   إلى النصـر فى الموقف الفـاصل

المعسكرات

ويلحق بنظام الجوالة إقامة المعسكرات ، وكان الإخوان بين الفينة والفينة يقيمون معسكرات فى ضواحى القاهرة ، وكانت معسكراتهم تدريباً على الصبر والاحتمال ، وتعويداً للنفس على تحمل أشق الظروف . وكانوا يقيمون هذه المعسكرات باعتبارهم من فرق الجوالة المسجلة فى جمعية الكشافة الأهلية ، وكان من حقهم بهذا الاعتبار أن يستغلوا الأماكن التى أعدتها هذه الجمعية لإقامة المعسكرات الكشفية ، فكثيراً ما أقام الإخوان معسكرات كانت فى بعض الأحيان تستمر طول الصيف فى معسكر الكشافة بحلوان . وكان لكل معسكر برنامج يستوعبه أفراد كل دفعة يتضمن أنواعاً من الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية والتربية الروحية ومنها حفظ قدر معين من القرآن الكريم مع تفسيره ، ويعقد فى نهاية المدة امتحان للدفعة قبل تسريحها .

وفى صيف سنة ١٩٣٨ قرر الإخوان إقامة معسكر عام كبير فى الدخيلة فى الإسكندرية ، وقرر الأستاذ المرشد أن يكون على رأس القائمين بأمر هذا المعسكر ، وضربت فى أرضه الرملية خيام ضخمة . وتوافد الإخوان على هذا المعسكر من مختلف البلاد ؛ فكان بمثابة مركز عام فى تلك الفترة ، وكان هذا المعسكر فرصة عظيمة أتاحت لكثير من الإخوان من بلاد مختلفة أن يتعارفوا . كما كانت فرصة لشباب الإخوان أن يجلسوا ويقضوا أياماً وليالى مع كبار الإخوان ، ويتناقشوا معهم ، ويمتزجوا بهم .

وقد كنت عازفاً عن المشاركة فى هذا المعسكر ؛ وربما كان سبب ذلك هو أننى حين زرته لأول مرة ؛ أحسست أن فيه ما يشبه الترف إذا ما قيس بما عهدناه من قبل فى معسكرتنا... ولكننى فهمت أخيراً أن الأستاذ المرشد – الذى كان مقيماً فى المعسكر –كأنما قصد إلى هذا ليشرك فيه طبقة من الإخوان لم يتعودوا على معيشة الشظف التى ألفناها ... وقد تحقق ذلك فقد رأيت كثيرين من هذه الطبقة وهو يحاول أن يمزجهم بغيرهم من سائر الإخوان

بأسلوبه العذب المحبب ، وقد استطاع فعلا أن يجعل من هذا المعسكر أداة لمزجهم ..

ولعل القارىء يذكر أننا نوهنا عن هذا المعسكر فى الفصل السابق حين تكلمنا عن لقاء الأستاذ المرشد بالملك فاروق .

الاسلوب الثالث

لجنة الأربعة والعشرين

فى أوائل صيف عام ١٩٣٨ بعد أدائنا الامتحانات وقبيل ظهور النتيجة .. وكان ثلاثى كلية الآداب محمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وعبد الحكيم عابدين – وهم يسبقوننى فى الدراسة بعام – الدفعة الأولى وباكورة الذين يتخرجون فى الكليات من طلبة الإخوان ... دعا الأستاذ المرشد إلى اجتماع فى بيته فى شارع محمد على ؛ وكانت دعوة شخصية موجهة إلى أشخاص معينين تنبىء عن أهمية خاصة لهذا الاجتماع . والتقينا فى بيت الأستاذ فكان اجتماعاً يضم عدداً قليلا من ذوى السابقة فى الدعوة ، وكانت مجموعتنا من الطلبة الذين كانوا يحملون عبء الدعوة ضمن المدعوين .

ثم تكلم الأستاذ فقال ما ملخصه : إن الدعوة قد اتسع نطاقها ، وثقلت تبعاتها ، ولم يعد يكفى أن يحمل عبئها رجل واحد . وقال إنه فكر فى مجموعة تشاركه حمل هذا العبء وانتهى تفكيره إلى عقد هذا الاجتماع الذى يضم من يتوسم فيهم القدرة على هذه المشاركة .

وقال : إن المشاركة فى حمل هذا العبء تقتضى من صاحبها أن يجعل حياته ومستقبله وآماله طوع مشيئة هذه الدعوة ، بحيث يقدم مصلحتها على مصلحة نفسه ، ويحصر آماله فيها ، ويشكل حياته ومستقبله بحيث تكون هى الأصل ، وكل ما سواها يضحى به عن رضا نفس ... وضرب مثلا بنفسه فقال : إننى كنت أستطيع بما أكرمنى الله به من خصائص ، وما حبانى به من مواهب أن أسلك طريقاً فى الحياة يسرع بى إلى أعلى المناصب ، ويوفر لى ولأسرتى حياة الاستمتاع والرفاهية ؛ لكننى وجدت هذه الدعوة تقتضينى أن أهبها كل وقتى وكل جهدى ، فلم أتردد فى تنكب طريق المناصب والرفاهية ، وأعرضت عن ذلك كل الإعراض ، وسلكت الطريق الذى يوفر لدعوتى ماتريد ، وأنا أعلم أن مثل هذا الطريق ليس فيه لى ولأسرتى إلا حياة الخشونة والكفاف .

وتكلم الأستاذ المرشد فى ذلك وأفاض ، ونقلنا إلى جو من الجد لم ينقلنا إلى مثله من قبل ، وواجهنا فى صراحة بأمور خطيرة لم نعهدها منه من قبل ؛ فلقد كان من عادته – مهما ادلهمت

الأمور – أن يكون من الرفق بنا بحيث لا يمسنا من مخاطرها إلا أقل القليل فى الوقت الذى يواجه المخاطرة هو وحده . ولا أدرى لعله حتى ذلك الوقت لم يكن يرى فينا من النضج ما نكون معه أهلا لمواجهة المخاطر ، وتحمل التبعات .

وانتهى فى حديثه إلى أنه يريد تكوين لجنة من أربعة وعشرين عضواً يرشحون أنفسهم من بين الحاضرين يشاركونه حمل أعباء الدعوة على الأسس وبالشروط التى شرحها ... وقال إنه لايلزم أحداً من الحاضرين بمالا يستطيعه بل كل فرد مخير فى سلوك الطريق الذى يرى أنه الأمثل له فى الحياة ، لأن هذا يوم له مابعده ، وسيقرر كل فرد مصيره بنفسه دون إكراه ودون مجاملة ... ومهما اختلفت بنا طرق ا لحياة فسنكون مع ذلك أصدقاء وأحباء .

ومرت فترة ؛ أخذ كل من الحاضرين يراود نفسه ، ويستعرض من آماله ، ويعجم عود نفسه ، ويتخيل ما هو مقبل عليه من تضحيات لن تمسه وحده بل إنها ستشكل حياة أسرته ، ثم أخذ كل واحد يدلى بما استقرت عليه نفسه ، ويعلن ما انتهى إليه من قرار .

ولست فى هذا المجال بصدد سرد تفاصيل ماقيل فى هذا الاجتماع ، ولا بصدد ذكر من الذى توقف ومن الذى واصل السير ، ولا بصدد تحليل الشخصيات التى ضمها الاجتماع ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القارىء بقدر ما يعنينى أن أعرض لشرح خاصية من خاصيات هذا الرجل المرشد ، آتاه الله إياها ولم يؤتها إلا لقلة من القادة الذين يبنون الأمم ، ويوجهون التاريخ .

كان الأستاذ المرشد إذا دعا لاجتماع ، حدد له هدفاً وأعلنها ، إلا أنه يكون قد احتفظ لنفسه بأهداف أخرى لهذا الاجتماع ... ولا يكاد ينتهى اجتماع إلا بإصابة جميع الأهداف ؛ المعلن منها وغير المعلن دون أن يشعر أحد من الحاضرين بأن غير الهدف المعلن كان مقصوداً .

ففى هذا الاجتماع الخطير الهدف ، لاحظت وجود مستويات متفاوتة ؛ منها ما يسامت الهدف ويساميه ومنها ماهو دونه بقليل ومنها ماهو بعيد عنه ، وعجبت حين أظهرنا الأستاذ على هدف هذا الاجتماع لم دعا اليه كل هذه المستويات؟ أما كان الأنسب أن تقتصر الدعوة إليه على المستوى المسامت للهدف ؛ لاسيما وهو أدرى الناس بجهد كل أخ وطاقته وآماله ؟

وانتهى الإجتماع مسفراً عن نتائج نجملها فيما يلى :

١ – مجموعة أعطت الكلمة ، وعاهدت على المواصلة ، وسارعت إلى البيعة .

٢ – مجموعة أعطت الكلمة ، وعاهدت على المواصلة ، مؤجلة البيعة .

٣ – مجموعة اعتصمت بالصمت مبيتة نية الفرار .

لقد قصد الأستاذ من جمع هذه المستويات المتباينة إلى أن يستمعوا إلى حديثه هذا المثير الملتهب وهو يعلم أن أفرادا من الحاضرين - هو يعرفهم - لايعتبرون الحديث إلا ترديداً لما تمتلىء به نفوسهم وقلوبهم فهم به مستبشرون .ويعلم أن أفراداً آخرين من الحاضرين هم معادن نفيسة لكن الكشف عن نفاستها فى حاجة إلى طرق شديد ؛ فجاء بهم إلى هذا الإجتماع لتكون حرارة حديثه مع ما يبديه الفريق الأول من شجاعة وفتوة وفدائية بمثابة طرق عنيف لنفوسهم فى حال التهابها .. ويعلم أن أفراداً غير أولئك وهؤلاء ارتبطوا بالدعوة ، حين كانت بعيدة عن التيارات ، فى سلام وأمن وأمان ، ربط بعضهم رباط من صداقة أو قرابة أو نسب أو غيرها ،وتعودوا أن يكونوا المتصدرين فيها ، ومع تطور الدعوة وتغير ظروفها لا زالوا متشبثين بهذه الصداوة ولم يعودوا أهلا لها ؛ فصاروا بذلك عبئاً على الدعوة ، وليس من الذوق -بما لهم من قدم عهد بمناصبهم فى الدعوة - إقصاؤهم بطريقة مباشرة ؛ فجاء بهم إلى هذا الاجتماع ليستمعوا إلى الحديث نفسه وإلىمبادرات الآخرين إزاءه فيقتنعوا بأنهم سيطالبون بما لا يستطيعون فيقصون أنفسهم بأنفسهم وتتخلص الدعوة من أعباء هى فى غنى عن حملها .

ويخيل إلى أن هذا الاجتماع لم يكن هدفه إلا ماذكرت ؛ فإن لجنة الأربعة والعشرين لم تدع لاجتماع بعد هذا ... وكل الذى حدث بعد الاجتماع التاريخى أن رأينا إخواناً كانوا (راكنين) إلى الدعة قد دب فى نفوسهم النشاط ، وبدأوا ينخرطون فى سلك العاملين المجدين ، ورأينا مجموعة من ذوى القرابات والنسب والصداقات الشخصية لم يكونوا إلا أثقالا على الدعوة توهن كاهلها وقد انقطعوا عن الدار ؛ فتحررت الدعوة وانطلقت بعد أن كثرت شكوى الإخوان منهم حيث كان وجودهم عائقاً ومشكلة .

أما مجموعتنا فإنها كانت شغل الأستاذ الشاغل ، وهدفه الأصيل حيث كانت محط آماله ومنتهى رجائه وكان حريصاً على أن يحدد كل فرد منها موقفه ، ويعلن عن مدى تحمله ، كأنما كانت هى بيت القصيد فى هذا الاجتماع لا سيما وقد تمخضت عن أول بواكيرها فقد تخرج فى ذلك العام ثلاثى كلية الآداب ... والطالب طالما كان طالباً فهو الشخصية المطلقة المتحررة من كل قيد المعفاة من كل مسئولية ، فإذا ماتخرج مواجها مسئوليات الحياة لأول مرة فهو شخصية أخرى ؛ ولذا فإن الأستاذ فى حديثه كان فى أكثره موليا وجهه نحونا ، متجها ببصره إلينا كأنما كان يخصنا بهذا الحديث ، وبعد أن فرغ من حديثه اتجه إلينا بكليته وأخذ يسأل كلا منا على حدته ما الذى استقر رأيه عليه، ثم توقف طويلا عند ثلاثى كلية الآداب وبالتحديد عند عبد الحكيم عابدين وعبد المحسن الحسينى ، فإن الأستاذ المرشد كان يعلم من صفاء نفس

محمد عبد الحميد أحدهما يجعله أهلا لوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنه لولم يطع الله لم يعصه» ولكنه كان يعلم أن الاثنين الآخرين تكتنفهما ظروف معقدة ؛ ولذا فقد أولاهما التماساً خاصاً ، ووجه إليهما أسئلة محددة ، وطلب عنها إجابات صريحة .

ولقد كان الزميلان صريحين واضحين كل الوضوح ؛ أما أولهما وهو عبد الحكيم عابدين فقد وضع نفسه رهن إشارة الدعوة ، وقال إنه يعلم أن الطريق أمامه مفتوح فى كليته ولكنه قرر إيثار الدعوة بكل وقته وأنه سيكتفى بوظيفة إدارية لا تقتطع من وقته إلا القليل ، وأنه يبايع على ذلك مع استعداده لترك وظيفته إذا اقتضت ظروف الدعوة ذلك مع شدة حاجته إلى مورد هذه الوظيفة .

وأما الآخر فقد كان شجاعاً حسبما علمته الدعوة ، وقال : إننى فى حاجة إلى سلوك طريق الدراسة ، وإننى أعتقد أن إكمالى الدراسة مع تخصص فيما يتصل بالقرآن من العلوم العربية لن يبعدنى عن ميدان الدعوة ، وأفاض فى الإبانة عن وجهة نظره ، محاولا إقناع الاجتماع برأيه .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الأستاذ المرشد كان قد بدأ يشعر وقد حققت الدعوة بروزاً فى المجتمع المصرى وأن فكرتها قد تبلورت تبلوراً أحس معه أعداؤها بأنها أضحت ذات شوكة لا ينبغى الغض من قيمتها ولا التغاضى عن خطورتها فأخذوا يعدون العدة للهجوم عليها من كل كل جانب – شعر الأستاذ بذلك فسارع إلى النداء فيمن يأنس فيهم القدرة على الوقوف معه فى الصف الأول أمام العدو فى المعركة الوشيكة الوقوع .

لقد كان فى موقفه هذا كموقف قائد الجيش الذى رأى جيش الأعداء مقبلا على مرمى النظر فانتدب لقائهم كبار ضباطه ؛ فإذا ببعضهم يعتذر بحجة أنه يريد الاستزادة من دراسة العلوم العسكرية فى كلية أركان الحرب .

ومعذرة إلى القارىء إذا أنا أنهيت الحديث عن هذا الموضوع دون أن أتعرض بالذكر لأسماء الذين دعوا إلى هذا الاجتماع ولأسماء الذين استجابوا ولأسماء الذين تخلفوا مكتفياً بأمثلة ، وحسب القارىء أن رأى بعينيه كيف تطورت الأمور بالدعوة وكيف تناوحتها الأحداث الجسام بعد ذلك وعمن تمخضت هذه الأحداث الجسام .

الفصل الثالث

مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

ظلت قضية فلسطين — مع كل ما بذله الإخوان فى سبيل تنبيه الأذهان إليها — شبه مجهولة إلا فى حدود المساجد التى نغشيها الإخوان بكلماتهم فى أيام الجمع ؛ وهى مهما كثرت عدداً فإنها لاتصل إلى عشر مساجد القاهرة ...

وبانتقال الدعوة إلى الدار الجديدة فى العتبة قرر الأستاذ المرشد أن ينطلق الإخوان بهذه القضية انطلاقة واسعة تنتهى إلى الهدف الأساسى وهو أن نشعر الناس جميعا بها ، وأن نجعلها قضية عالمية تقض مضاجع الإنجليز واليهود .

وقد اتخذ الإخوان لتحقيق ذلك الوسائل الآتية :—

أولا : استمر نظام الخطابة فى المساجد وجمع التبرعات .

ثانياً : سلط الأستاذ على الحكومة وعلى الإنجليز قلم صالح عشماوى فى مجلة النذير ، وقد نجح صالح فى كتابة مجموعة من المقالات النارية أدت فى كثير من الأحيان إلى مصادرة المجلة ، وقد كنا نهرب أعداداً منها ... ولما كان الأسلوب الهجومى العنيف محبباً إلى نفوس الشباب ، فقد انتشرت المجلة انتشاراً واسعاً فى الجامعة وفى المصالح الحكومية وفى الأقاليم بل وقد طار صيتها إلى الأقطار الشقيقة مثل سوريا والأردن ولبنان والعراق .

ثالثاً : بدأنا فى طبع منشورات نهاجم فيها الإنجليز ونشرح مظالمهم فى فلسطين ونبين فيها خطر اليهود ، وكنا نوزعها فى الكليات والمصالح الحكومية والمحلات التجارية والمقاهى وفى الأقاليم .

رابعاً : دعونا إلى مقاطعة المحلات اليهودية فى القاهرة ، وطبعنا كشفاً بأسماء هذه المحلات وعناوينها ، والأسماء الحقيقية لأصحابها وذيلنا هذه الكشوف بهذه العبارة :

«إن القرش الذى تدفعه لمحل من هذه المحلات إنما تضعه فى جيب يهود فلسطين ليشتروا به سلاحاً يقتلون به إخوانك المسلمين فى فلسطين ».

وقد وزعنا هذه الكشوف على أوسع نطاق فى القاهرة والأقاليم ، فكان لها دوى هائل لأنها أول دعاية مست العصب الحساس لليهود ، وقد بلغ من تأثير هذا الأسلوب فى الدعاية أن علقت عليه الصحف الإنجليزية تستعدى الحكومة المصرية على مصدرى هذه المنشورات .

وإتماماً لفضح الخطة الصهيونية أصدرنا رسالة أو كتيباً صغيراً يضم أسماء الصحف اليهودية التى يصدرونها فى أنحاء العالم والبلد الذى تصدر فيه كل صحيفة والأسماء التى يتستر خلفها أصحابها الحقيقيون من اليهود ووزعنا هذا الكتيب على أوسع نطاق .

ومع أن الحكومة المصرية مدفوعة من الإنجليز قد جردت حملات قوية لمصادرة هذه المنشورات بالذات إلا أنها لم تتمكن من الوصول إلى شىء منها وكانت تفاجأ برؤيتها فى أيدى الناس فى الشوارع والمحلات وفى المدارس والمعاهد والجامعة وكان كبار موظفى الدولة والوزراء يذهبون فى الصباح إلى مكاتبهم فيجدون هذه المنشورات عليها ... ذلك أننا كنا حريصين على أن لا تدخل هذه المنشورات دار المركز العام وإنما كنا نطبعها فى أماكن بعيدة عن الأعين ونودعها فى مثل هذه الأماكن .

خامساً : كتاب «النار والدمار فى فلسطين»

أحب أن أنبه القارىء بهذه المناسبة إلى أن النقود التى كنا نجمعها لفلسطين من المساجد والمقاهى والبارات لم يكن القصد من جمعها إعانة إخواننا المجاهدين الفلسطينيين بها فهم كانوا من هذه الناحية فى غير حاجة إليها لأن أغنياء أهل فلسطين من التجار كانوا من وراء هؤلاء المجاهدين ، وقد حضر السيد أمين الحسينى فى بعض زياراته للمركز العام للإخوان ومعه بعض هؤلاء التجار وعرفنا بهم ... وإنما كان جمعنا لهذه التبرعات – كما قدمت فى فصل سابق – أسلوباً من أساليب التأثير فى نفوس الناس بهذه القضية وربطاً لقلوب الناس وعقولهم بها ، واختباراً لمدى تجاوبهم معها .

وأضيف الآن إلى ذلك أن هذه المبالغ لم تكن ترسل إلى المجاهدين بل كانت تصرف فى شئون الدعاية لهذه القضية بأمر اللجنة العربية العليا ثم إن اللجنة كانت ترسل إلينا من أموالها الخاصة مبالغ طائلة لنضيفها إلى ما عندنا للانفاق على هذه المهمة الخطيرة التى كانت اللجنة تعتبرها أهم وألزم للقضية من الجهاد المسلح الذى يقوم بأعبائه المجاهدون فى فلسطين نفسها ... وإلا لما كان

للإخوان وهم لا زالوا فى مهدهم أن ينهضوا بمهام الدعاية المجلجلة التى ألفت مضجع الإمبراطورية البريطانية والتى تحتاج إلى إنفاق واسع النطاق .

استطاعت اللجنة العربية العليا لفلسطين أن تطبع كتاباً سمته «النار والدمار فى فلسطين» وأمدتنا بعشرات الألوف منه . ويقع هذا الكتيب فى نحو ثمانين صفحة تشرح ألوان الفظائع والتعذيب التى ارتكبها الإنجليز ضد مجاهدى فلسطين .. وكل نوع من هذه الفظائع معزز بصور فوتوغرافية وبأسماء المجاهدين الذين ارتكب معهم هذا التعذيب ، فكان فى الكتاب أكثر من خمسين صورة كل واحدة منها توضح نوعاً من أنواع التعذيب أو جريمة من فظائع الإنجليز ، فصورة توضح هجومهم على أحد بيوت المجاهدين وتبرز صور الجنود الإنجليز وهم يمزقون المصحف الشريف ويدوسونه بأحذيتهم ، وصورة توضح الجنود الإنجليز وهم يعلقون مجاهداً من رجليه ورأسه إلى أسفل ويضربونه بالسياط وهو فى هذا الوضع ، كما جاءوا بصور لمجاهدين ربطهم الجنود الإنجليز من أعضاء حساسة يخجل المرء من ذكرها ...

ولقد كانت اللجنة من المهارة ومن حسن الإعداد بحيث استطاعت تسجيل هذه الفضائح على الإنجليز بالكاميرا دون أن يشعروا .. وقد جمعوا هذه الصور المثيرة التى تحرك الجبان فى هذا الكتاب وأرسلوه إلينا .

وقد قمنا بتوزيعه فى أسرع وقت فلم تمض ثلاثة أيام حتى عم الكتاب القاهرة وأنحاء الأقاليم ، وقامت قيامة الصحف البريطانية والبرلمان البريطانى لمواجهة هذه الكارثة المدمرة .

وداهمت المركز العام قوة من رجال البوليس وفتشت الدار وكان باقياً من الكتاب سبعمائة وخمسون نسخة فتحفظت عليها ، وسأل رئيس القوة عن صاحب هذه الكتب فتقدم إليه الأستاذ المرشد وقال له : أنا صاحبها . فنقلت القوة النسخ إلى سيارة كانت تنتظرها وطلب الضابط من الأستاذ المرشد أن يصحبه إلى النيابة وبدأ وكيل النيابة فى التحقيق مع الأستاذ على الوجه الآتى :

س : هل أنت صاحب هذه الكتب ؟

ج : نعم أنا صاحبها .

س : ألا تعلم أن هذه الكتب تهاجم السلطات وتثير الشعب ضد دولة صديقة وحليفة بحكم المعاهدة ؟

ج : أعلم ذلك وقد قصدت مهاجمة هذه السلطات ومهاجمة هذه الدولة الحليفة .

س : ألا تعلم أن القانون يعاقب على هذه الجريمة ؟

ج : أعلم وأنا لا أمانع فى إحالتى إلى القضاء لأنى معترف بهذه الجريمة ومصر عليها .

وأنهى وكيل النيابة التحقيق ووقعه الأستاذ المرشد وقرر وكيل النيابة حبس الأستاذ المرشد على ذمة هذه القضية حتى تحدد جلسة لنظرها .

ورفع التحقيق إلى النائب العام كما قدمت صورة منه إلى وزارة الداخلية — وأحب أن أنبه هنا إلى حقيقة مؤلمة كانت تعانى منها البلاد فى تلك الأيام هى أن وزارة الداخلية كانت فرعاً من السفارة البريطانية لقد كان وكيل هذه الوزارة بالذات ترشحه فى حقيقة الأمر هذه السفارة من المصريين الموالين لها فهو مصرى الجنسية بريطانى النزعة ، وكان لهذا الوكيل — فيما يمس مصالح الإنجليز — سلطة الوزير وفوق سلطة رئيس الوزراء .

وقامت وزارة الداخلية بتقديم صورة التحقيق إلى السفير البريطانى فى انتظار كلمة ثناء منه على هذه الخدمة العظيمة .. وقرأ السفير التحقيق حتى وصل إلى نهايته فقطب جبينه وقال لصنيعتهم : إنك بهذا التحقيق قدمت لحسن البنا أعظم خدمة دون أن تدرى .. لقد استطاع هذا الرجل أن يضحك عليكم ... لقد وزع الكتاب وأصبح فى أيدى الناس فى كل مكان .. وما صادرتموه منه لا يعد شيئا يذكر بجانب ما تم توزيعه ، إن أمنية هذا الرجل هى أن يقدم إلى القضاء ليتخذ من منصة الدفاع عن نفسه فى هذه القضية السياسية وسيلة إلى نشر أفكاره ، وإلى التشهير بنا وفضيحتنا وتوصيل ما تضمنه الكتاب إلى أسماع من لم يصل إليه عن طريق الصحف التى ستتبارى فى نشر ما يقال فى القضية كدأب الصحف فى القضايا السياسية ... هذا التحقيق يجب أن يحفظ وأن يفرج عن الأستاذ البنا فى الحال»

وأفرج عن الأستاذ المرشد فعلا قبل أن يتم فى الحبس أربعا وعشرين ساعة ، وقد فوجئ الأستاذ بهذا الإفراج لأنه كان يعتقد أن حكام مصر من الغباء بحيث لا يفهمون هدفه .. وقد زالت الحيرة من هذه المفاجأة حين جاءت عيوننا التى كانت ترصد التحركات وأخبرونا بما كان من أمر الداخلية مع السفير البريطانى ..

دوسيه لحسن البنا بالسفارة البريطانية :

وقد أخبرنا عيوننا هؤلاء أنه منذ ذلك اليوم بدأ الإنجليز يهتمون بحسن البنا وأعدوا له دوسيها جمعوا فيه تاريخ حياته ، وأخذوا يعدون العدة للقضاء عليه وعلى دعوته .

لقد كان هذا الكتاب صاعقة على الإنجليز حقاً ، لقد اقترف الإنجليز فى فلسطين فظائع يندى لها جبين الإنسانية خجلا ، وظنوا أنهم بمكرهم وبملكهم للدنيا قد أحاطوا بكل شئ قدرة وعلماً ، فارتكبوا ما ارتكبوا مطمئنين إلى أن جرائمهم هى فى طى من الكتمان وأن فلسطين نفسها أصبحت

فى عزلة عن العالم كله ، وكان الله تعالى أشد منهم مكراً فأمد هؤلاء المجاهدين بالمقدرة التى تمكنوا بها من تسجيل مخازيهم لا بالقلم وحده بل بما هو أدق وأصدق وأعمق تأثيراً فى النفوس وهى الصور الشمسية الواضحة الناطقة المعبرة . «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين»

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقــة ... وإن خالها تخفى على الناس تعــلم

سادسا :

« مظاهرات لأول مرة فى جميع أنحاء القطر »

قبل حلول اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر فى تلك السنة وهو يوم ذكرى وعد بلفور المشئوم وضع الإخوان خطة بحيث يقوم الإخوان فى جميع شعب القطر كله فى ذلك اليوم بمظاهرات صاخبة ، يهتفون فيها بهتافات محددة . ولقد نجحت هذه الفكرة وقامت هذه المظاهرات . وكان قيامها فى يوم واحد وبهتافات واحدة فى جميع أنحاء البلاد دليلا على قوة الدعوة ، وهزاً لمكانة الحكومة ، التى أمرت بإلقاء القبض على مدبرى هذه المظاهرات .. كما أن نجاح هذه المظاهرات جعل الإنجليز يشعرون أنهم أصبحوا لأول مرة يواجهون عدواً حقيقياً متغلغلا فى أحشاء الشعب وليس من السهل قهره لأنه يعتصم فى جميع تصرفاته بالدين .

ولقد كانت هذه المظاهرات أول تنبيه لأذهان الشعب المصرى فى القرى والمدن نحو قضية فلسطين بعد أن كان التنبيه مقتصرا تقريباً على القاهرة ولكن التنبيه فى هذه المرة جاء تنبيها قوياً مثيرا أغنى عن كثير من وسائل التنبية السابقة التى اختصت بها العاصمة .

وكما أن هذه المظاهرات كانت كسباً رائعاً لقضية فلسطين ، فإنها عادت على دعوة الإخوان المسلمين بفوائد كبيرة وأظهرت فى هذا الشعب المغلوب على أمره مواهب مذهلة ، وتوضيحا لذلك سأضرب للقارئ مثلا بما تم فى هذا الصدد بإحدى شعب الإخوان :

قام الإخوان بشعبة رشيد بمظاهرة كغيرها من الشعب ، وفى اليوم التالى وصلنى خطاب بالقاهرة يطلب حضورى إلى رشيد لأمر هام فسافرت فوجدت أن المظاهرة سببت نزاعاً بين فريقين ، أحدهما يمثله الإخوان الصغار سنا من الطلبة والعمال الذين قاموا بالمظاهرة واعتقل بعضهم ، والفريق الآخر يمثله الإخوان الكبار سنا ومكانة أدبيه والذين جاءبهم الإخوان الصغار سنا وأسندوا إليهم المناصب الرئيسية فى الشعبة ليكونوا واجهة لهم أمام الأهالى ، والذين كان بعضهم قد قبل الانضمام إلى الشعبة مجاملة لى شخصياً حيث كانت تربطنى بهم صلات .

تقدم إلى هؤلاء الإخوان الكبار وقالوا : أيرضيك أن يقوم الإخوان فى الشعبة بمظاهرة يهتفون فيها هتافات ضد الحكومة وضد الإنجليز ويوقفوننا بذلك فى موقف حرج مع رجال البوليس

الذين طلبوا إلينا أن نأمر الإخوان بفض المظاهرة ، فلما حاولنا ذلك رفضوا واستمروا فى المظاهرة حتى قبض على عشرة منهم وهم الآن فى سجن المركز ؟

قلت لهم : أتعرفون لماذا قاموا بالمظاهرة؟ قالوا : لأن المركز العام أرسل منشورا بذلك .

قلت : ما داموا قد فعلوا ما فعلوا تنفيذاً لأمر المركز العام فإنهم يستحقون الشكر .

قالوا : إذن أنت موافق على عملهم . قلت : نعم .

قالوا : إذن فلتسمح لنا بالاستقالة من الشعبة لأننا لا نستطيع تحمل هذه التبعات

ومما ينبغى ملاحظته أن هذه كانت أول مظاهرة تقوم فى رشيد أو فى أقاليم مصر بوجه عام منذ مظاهرات سنة ١٩١٩ .

والذى حدث فى شعبة رشيد من ابتعاد أشخاص لمسوا فى الدعوة خشونة كانت فوق طاقتهم قد حدث فى الشعب الأخرى . وكانت هذه أول هزة للكيان الإخوانى أو بمعنى آخر كانت أول تصفية تمخضت عن تخلص هذه الشعب من أشخاص ضعاف– أدوا دورهم – ولم يعد وجودهم بها إلا ثقلا على كاهلها .

من مواهب هذا الشعب :

من طرائف ما حدث للإخوان العشرة الصغار سنا – الذين كانوا بين طالب وعامل وصانع وصياد – والذين ألقى القبض عليهم فى رشيد وأودعوا سجن المركز ، وقد تخلى عنهم – كما قدمت إخوانهم الكبار ذوو الحيثية فى المدينة والمقربون إلى رجال الإدارة بالمركز ، أنهم أودعوا فى زنازين ، كل فى زنزانه على انفراد ولم يكن فيهم فى ذلك الوقت من تجاوز السادسة عشرة إلا القليل ، وقد أحضر أهلهم لهم طعاماً فمنع عنهم ، وعوملوا أسوأ معاملة – وتصادف أن كان فى سجن المركز بجانبهم شخص من أهل رشيد يعتبر رئيس عصابة ويعتبر أخطر مجرم فى المدينة ، وقد ارتكب عدة جنايات وسجن أكثر من مرة ، وكان فى هذه المرة متهماً فى جناية ...

وصبر الإخوان الصغار – الذين لا نصير لهم – على الإيذاء والجوع حتى حان موعد الصلاة فقام أحدهم وأذن للصلاة داخل زنزانته بأعلى صوته ، فجاء زبانية السجن وطرقوا عليه الباب وهددوه إذا هو لم يوقف الأذان أن يفتحوا عليه الزنزانة ويؤدبوه ...

وهنا سمع صوت من الزنزانة المجاورة يهدد هؤلاء السجانين بقتلهم إذا لم يتركوا الشاب الذى يؤذن يكمل أذانه وإذا لم يحضروا له ولزملائه لوازم الوضوء وإذا لم يفرشوا لهم فرشاً طاهراً يؤدون عليه الصلاة ...

كان هذا الصوت هو صوت الرجل الخطر ، الذى كانت حياته سلسلة من الجرائم المروعة ، كان صوت «محمد أبو العلا» .

وهنا توقف الزبانية عن خطتهم وبدأوا يتفاهمون مع «محمد أبو العلا» عما يريده متعجبين من اهتمامه بشباب يعملون للدين ، ولا يتصور العقل أن يكون المدافع عنهم محمد أبو العلا ملك الإجرام فى رشيد ولم يكن أمام الزبانية إلا الاستجابة كارهين لطلبات محمد أبو العلا ، الذى شفع تهديده لهم بقوله : «كل ما تريدون أن توجهوه لهؤلاء الشباب من الإهانة وجهوه إلى أنا نيابة عنهم ، أما هؤلاء فأنا أضعهم داخل عينى ، ويجب أن تضعوهم أنتم أيضا داخل عيونكم لأنهم يدافعون عن الدين» .

ويسرت للاخوان وسائل الوضوء والصلاة ، وصاروا يؤذنون لجميع الأوقات ، وسمح بدخول الطعام اليهم ، وفتحت لهم أبواب الزنازين ، وقضوا الفترة التى قضوها فى هذا الحجز معززين مكرمين ، وصدق الله العظيم إذ يقول «إن الله يدافع عن الذين آمنوا» وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول «إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر» .

وإذا كان من تعليق على هذه الظاهرة المثيرة للدهشة فإننا نقول : إن عاطفة الانتصار للدين غريزة فى أعماق كل نفس مهما تنوعت مسالك أصحاب النفوس فى الحياة ، وإن كثيرين ممن وصمهم مجتمعهم بأنهم من عتاة المجرمين ليسوا فى حقيقة الأمر مسئولين عن مسلكهم هذا بقدر ما تقع المسئولية فى ذلك على مجتمعهم .. وقد أعجبنى مقال نشر فى إحدى المجلات الأدبية للأستاذ توفيق الحكيم فى أواخر الثلاثينيات يقول فيه : إن العقل البشرى مقسم إلى مناطق ، كل منطقة مستقلة تماماً من أخواتها ، وأن من هذه المناطق منطقة للدين ، وضرب مثلا برجل سكير تراه وهو يعاقر الخمر يسمع من يطعن فى الدين فينبرى له ثائراً فى وجهه من أجل الدين .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أشير إلى أن عدداً لا بأس به ممن كانوا قطاع طريق قد استجابوا للدعوة وصلح أمرهم وصاروا من المؤمنين الأقوياء .

سابعا :

أول مؤتمر عربى من أجل فلسطين

أقضت جهود الإخوان فى سبيل هذه القضية مضاجع الإنجليز ، فاشتعل الشعور بالنقمة عليهم لا فى الجامعة المصرية فحسب بل أحسوا بهذا الاشتعال فى أنحاء البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها وكانت سياسة انجلترا تقوم على أساس فصل مصر عن البلاد العربية ، واستطاعوا فعلا

تحقيق هذا الهدف من سياستهم حيث أقنعوا المصريين بأنهم فراعنة وليسوا عرباً ، كما أقنعوا البلاد العربية بأنهم هم العرب وأن المصريين ليسوا عرباً وإنما هم فراعنة ... وكنت تشعر فعلا بأن المصريين مقتنعون بهذه الفكرة الماكرة الخبيثة كما تشعر بأن أهل الشام والعراق والحجاز واليمن والمغرب مقتنعون أيضا بذلك ، وكانت لنا مناقشات طويلة وحادة فى حرم الجامعة مع ممثلى الأحزاب فى هذه النقطة بالذات لأنها نقطة جوهرية فى دعوتها .

وكان الذى دفع الإنجليز إلى ترسيخ هذه الفكرة فى أدمغة المصريين وأدمغة سكان البلاد العربية الأخرى اعتقادهم بأن نجاح استراتيجيتهم الاستعمارية فى الشرق متوقف على عزل مصر عن البلاد العربية الأخرى فمصر تعتبر رأساً والبلاد العربية الأخرى بقية الجسد فإذا فصل الرأس عن الجسد فقد الرأس الحياة وفقد الجسم الحياة ، وعاث الإنجليز فساداً دون أن يصادفوا فى أى مكان من يعترض طريقهم أو يقف فى وجههم .

وخدع المصريون بهذه الفكرة ردحاً طويلا من الزمن ، وقامت زعامات سياسية كبيرة سايرت الخدعة ولم يخطر لها ببال أن تولى موضوع العروبة أى اهتمام . واطمئنانا إلى نجاح هذه الخدعة دبر الإنجليز جريمة بيع فلسطين لليهود وهم فى مأمن من أية مقاومة .. وكيف لا يأمنون وقد استطاعوا أن يجعلوا المصرى المثقف حين تطلب منه مساعدة لمجاهدى فلسطين يتساءل : : وأين تقع فلسطين هذه أهى فى أوروبا ؟ كما استطاعوا أن يجعلوا رئيس وزراء مصر حين يسأله أحد الصحفيين ماذا أعددتم لقضية فلسطين ؟ فيجيب : أنا رئيس وزراء مصر ولست رئيس وزراء فلسطين .. ومعنى هذا أن مصر حكومة وشعباً صاروا معزولين عزلا تاماً عن الأمة العربية ، وأخطر ما فى هذا العزل أنهم عزلوا قلباً وشعوراً وعاطفة .

لقد استطاع الإخوان المسلمون ، والإخوان المسلمون وحدهم أن يفسدوا على الإنجليز خطتهم ، وأن ينسفوا الجدار الشاهق السميك الذى شيده الإنجليز ليفصل مصر عن بقية الأمة العربية . ولكنهم لم يستطيعوا إنجاز هذه المهمة الخطيرة إلا بجهود مضنية متواصلة مكثفة استمرت أكثر من خمس سنوات متوالية . حققوا فى نهايتها المعجزة حين وصلوا قلوب شعب مصر بقلوب إخوان عرب لهم فى فلسطين ، وحين صارت قضية فلسطين قضية عامة فى مصر يتألم قلب المصرى لها ، ويكره الإنجليز من أجلها ... وبذلك استطاع الإخوان أن يمدوا بين مصر والأمة العربية أول جسر ربط بينها .

ولقد عبرت مشاعر المصريين نحو فلسطين ممثلة فى جهود الإخوان عن طريق هذا الجسر إلى

البلاد العربية فكانت بمثابة جرعة منبهة لهذه البلاد فبدأت تحس بأنها الجسد الذى كان يفتقد رأسه وقد وجد رأسه فى مصر .

وقد استغل الإخوان هذا الجسر الذى أقاموه خير استغلال فوجهوا الدعوة لرجالات البلاد العربية لعقد مؤتمر لدراسة مشكلة فلسطين فى مصر واستجاب الكثير منهم ومثلت أكثر البلاد العربية بنخبة من كبار رجالها فى ذلك الوقت ، ولم يبق فى ذاكرتى من أسمائهم بعد هذه المدة الطويلة إلا الأستاذ فارس الخورى وهو مسيحى من ذوى المستوى الرفيع فى التفكير الذى يترفع عن التعصب ويقدر المعانى الإسلامية العليا التى تنظم العقائد والأجناس والألوان المختلفة فى سلك واحد نضيد هو الأمة الإسلامية العتيدة ، وكان هذا الرجل زعيما سوريا عظيما ، تولى رياسة الوزارة فى سوريا أكثر من مرة وكان خطيباً مفوهاً ، ومع أنه كان فى ذلك الوقت مشتعل الرأس شيباً إلا أنه شاب الروح والقلب تكلم فى المؤتمر فألهب المشاعر وأثار الشجون .

وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر عربى يعقد من أجل فلسطين ، وقد عقد فى دار المركز العام بالعتبة ، وتعاقب فيه الخطباء من مختلف البلاد ثم تكلم الأستاذ المرشد . وانتهى المؤتمر بقرارات تطالب حكومات الدول العربية بالتدخل من أجل إنقاذ فلسطين من المؤامرة الانجليزية اليهودية وكان لهذا المؤتمر آثار بعيدة المدى لأنه جعل الحكومات العربية تحس لأول مرة أن عليها مسئولية تجاه مشكلة فلسطين .

ثامنا :

المؤتمر البرلمانى العالمى

تطايرت أنباء المؤتمر العربى الذى انعقد بدار المركز العام بالعتبة بالقاهرة إلى أنحاء البلاد العربية والإسلامية وإلى أنحاء العالم كله ، وكان أشد الناس اهتماماً بهذا المؤتمر الإنجليز .

وصار يتوافد على دار المركز العام رجال كثيرون من زعماء البلاد العربية والإسلامية ومن ذوى الرأى فيها ، وكان ممن توافد الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود والأمير أحمد بن يحيى ومعهما بعض إخوتهما ، أوفدوا من قبل والديهم ملك السعودية وإمام اليمن ليتفاهموا مع الحكومة المصرية ومع الإخوان المسلمين فيما يجب عمله لإنقاذ فلسطين

ولما كانت أكثر البلاد العربية فى ذلك الوقت رازحة تحت أثقال الاستعمار ، فقد تمخض التفاهم بين زعماء البلاد الإسلامية والإخوان عن وسيلة يتفادون بها اللجوء إلى هذه الحكومات المكبلة ، وتبرز بها البلاد العربية والإسلامية متضامنة ، وكان ذلك بأن توجه الدعوة إلى جميع برلمانات العالم لعقد مؤتمر فى القاهرة لمعالجة قضية فلسطين .

وقد وجهت الدعوة وأوفدت كثير من البرلمانات ممثلين لها ، وانعقد المؤتمر بسراى آل لطف الله بالقاهرة ، وكان هذا أول مؤتمر عالمى من أجل فلسطين ، وتحدث الكثيرون من زعماء العالم ، وشرحت القضية من جميع جوانبها ، وانتهى المؤتمر بقرارات موجهة إلى جميع دول العالم عامة وإلى حكومة انجلترا خاصة بوجوب تسوية هذه القضية بما يحفظ حقوق أهل فلسطين .

وهنا بدأت إنجلترا تشعر بأن سياستها فى فلسطين أصبحت مهددة ، فأوقفت حملات القتل والسجن والتعذيب والتنكيل ، وأبدت استعدادها للتفاهم ، وطلبت عقد مؤتمر من أجل فلسطين فى لندن يضم العرب واليهود وممثلى الحكومة البريطانية ، وكان من ممثلى العرب عدا عرب فلسطين الأميران فيصل بن عبد العزيز وأحمد بن يحيى واشترك الإخوان فى المؤتمر باعتبارهم سكرتيرين للأميرين ومترجمين لهما . وأذكر أن ممن أوفد معهما من الإخوان الأخ محمود أبو السعود وكان طالبا بكلية التجارة ويجيد اللغة الإنجليزية كتابة وتحدثاً ، وسمى هذا المؤتمر بمؤتمر المائدة المستديرة .

وما كان الإخوان لينتظروا من مؤتمر المائدة المستديرة قراراً يحل المشكلةأو يرد الحق إلى نصابه ، وإنما كان هدفهم أن يكون مجرد عقد هذا المؤتمر خطوة جديدة على طريق إسماع العالم مظلمة أهل فلسطين التى طالما حاول الإنجليز ومن ورائهم يهود العالم أن يلقوا عليها ستاراً كثيفاً يحجبها عن العالم .

الفصل الرابع

الفتنة الأولى

« أولا » أضواء على نواح من شخصية حسن البنا

(١) رأى الشيخ طنطاوى جوهرى :

عهد إلى الأستاذ المرشد فى يوم من أيام هذا العام ١٩٣٨ أن أنقل له فى كراس أرجوزة جمع فيها ناظمها كل ما يتصل بالتصوف من أهداف ووسائل ودرجات وآداب وأصول ، وأكاد أذكر أنى كنت أنقلها من كتاب لابن عجيبة فى شرحها .. وكنت جالساً ظهر ذلك اليوم وحدى فى المركز العام ، واتخذت لى مقعداً ولمطراً فى شرفة الدار .

وبينما كنت أنقلها فى شغف – حيث كان لى سابقة اتصال بالمتصوفة عملا ، كما كنت أعكف الساعات الطوال فى الأيام والليالى على قراءة «إحياء علوم الدين» للغزالى ... بينما أنا كذلك إذ دخل على رجل أحبه وأجله ، وكنت مشتاقاً إلى لقائه كما كنت أحس أنه يحبنى ولم أكن رأيته منذ كنا فى ١٣ شارع الناصرية ، ذلك هو الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى ، الذى كان يلقب فى ذلك الوقت «بحكيم الإسلام» وأظننى تحدثت عنه فى أوائل هذه المذكرات حديثاً عابراً .. ولقد علقت نفسى هذا الرجل من أول لقاء ، وقد سمعت عنه الكثير قبل أن أنزح إلى القاهرة فلقد كان الرجل شخصية بارزة فى مصر ، فلما التقيت به فى القاهرة رأيت فيه الرجل الذى يقول ما يفعل ويفعل ما يقول ، فمع أنه كان أستاذا فى دار العلوم ، ولم ألقه إلا بعد إحالته إلى المعاش بأكثر من عشر سنين إلا أنك كنت ترى فيه شاباً فى عنفوان شبابه ، فهو متوقد الذهن ، يتحدث معك فى كل علم من العلوم الكونية من نبات وحيوان وحشرات وجيولوجيا وكيمياء وطبيعة ورياضة وميكانيكا وفلك وموسيقى كأنما هو متخصص فى كل واحد منها ، وتراه عن طريق هذه العلوم يدلك على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته ورحمته .

هذا فضلا عن العلوم العربية بأنواعها من نحو وصرف وبلاغة وأدب ، وقد ألف كتابا سماه «الجواهر» فى تفسير القرآن الكريم فى ستة وعشرين جزءاً أتبعها بعد ذلك كما أخبرنى بستة أجزاء أخرى ، وقد كنت أطالع فى هذا التفسير بدار الكتب ، وهو يفسر الآيات التفسير المعتاد ثم يتبع هذا التفسير بتفسير علمى يقود القارئ إلى الإيمان بالله إن كان غير مؤمن ، ويزيده إيمانا إن كان من المؤمنين .. ومما أذكره من دروسه التى كان يلقيها علينا فى دار شارع الناصرية وكانت سببا فى تشوقى إلى دراسة العلوم الزراعية بعد أن كنت قد التحقت بكلية أخرى حيث كان يفسر لنا قوله تعالى «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت» أنه قال لنا إن علماء النبات بدراستهم توزيع أوراق الأشجار على فروعها ، وجدوا أن هذا التوزيع فى أشجار العالم كله خاضع لنظام معين لا يخرج عنه أبداً هو نظام المتواليات العددية — وهى إحدى قوانين علم الجبر — فكل عائلة من عائلات النبات تـوزع أوراقها عـلى فروع أشجارها بموجب متوالية عددية ذات أس لا تحيد عنه مهما كثرت أشجار هذه العائلة وتعددت أماكنها واختلفت البيئات التى تنمو فيها ... وقد حاولت ملاحظة ذلك بنفسى فوجدته صحيحاً فكيف يلمس هذا النظام الرائع إنسان ثم لا يؤمن بأن لهذا الكون إلها واحداً وصدق الله تعالى إذ يقول «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون» وحيث يقول «إنما يخشى الله من عباده العلماء» .

ولقد كان الشيخ طنطاوى جوهرى فى أيامه ذائع الصيت فى مصر وفى خارج مصر ، وكثيراً ما كان يقصده العلماء من البلاد الشرقية ومن الغرب ، من أمريكا وانجلترا وفرنسا ، يتلقون على يديه علوماً معينة .. وأذكر فى فترة من أيام شارع الناصرية أنه كان يحرص بعد إلقاء درسه علينا فى المركز العام أن يكون فى بيته مبكراً — بعد العشاء — لأن مستشرقة فرنسية قدمت من فرنسا خصيصاً لتحضر عليه شرح «الرسالة القشيرية» وهى من المراجع الاساسية فى علم التصوف ، وتعد من الرسائل الفلسفية المعقدة .

وقد تقدم فى إحدى السنوات ببحث فى الموسيقى لنيل جائزة نوبل للسلام — وما كانت هذه الجائزة لتعطى لمصرى فى ذلك الوقت حتى لو لمس السماء بيده — وقد اطلعت على هذا البحث فوجدته كتيباً فى نحو مائة صفحة من القطع المتوسط . ومع أنه بحث فى الموسيقى إلا أنك إذا قرأته وجدت كل ما فيه بحوثا فى الكيمياء ولكنه أثبت بالقوانين الكيماوية — بطريقته الخاصة — أن هذا الكون إن هو إلا موسيقى .

ولم يكن هذا الرجل يدرس القرآن وما يتصل به من علوم ، ويدرس التصوف وما يحيط به من فلسفة ، بقصد الدراسة العلمية ليتشدق بها ، ويبرز فى المجتمع .. والرجل لم يكن بحاجة إلى

ما يبرزه فقد كان ذائع الصيت كما قدمت ، رفيع المكانة عند الكافة ، بل كانت دراسته دراسة يتقرب بها إلى خالقه ، وقد استنتجت ذلك من موقفين له :

الموقف الأول : أن هذا الرجل على علو قدره ، وذيوع صيته ، ورفيع مكانته ، وكبر سنه وسعة علمه، لم يستكبر عن أن ينضوي راضيا تحت لواء الإخوان المسلمين، وتحت قيادة حسن البنا الذي لم يكن في ذلك الوقت أكثر من شاب مغمور ، مدرس في مدرسة ابتدائية لا يكاد يعرفه أحد

الموقف الآخر : أن هذا الرجل كان يلقي علينا درسه في المركز العام بشارع الناصرية بين المغرب والعشاء ، فكان في كثير من الأحيان يأتينا قبيل المغرب فيكلف أحدنا بشراء رغيف صغير جاف وحبة طماطم واحدة ، وحين يؤذن المغرب يأكل الرغيف بحبة الطماطم مع قليل من الملح ويكتفي بذلك إفطاراً من صيامه . ويتبين لنا في أكثر هذه الأيام أنه كان في بلدته «وراق العرب» وهي من ضواحي القاهرة وتبعد عنها أكثر من عشرة كيلو مترات وأنه ذهب إليها في الصباح ماشيا ورجع منها في المساء ماشياً .

استطردت هذا الاستطراد ليعرف القارئ قيمة هذا الرجل ، وسمو قدره ، وعلو كعبه سواء في العلم والعمل حتى يستطيع هذا القارئ أن يقدر حديثه حق قدره ، و يحل ما يصدر عنه المحل الذي يناسب قدره ومنزلته وهاك هذا الحديث :

دخل على هذا الرجل العظيم وأنا جالس في شرفة المركز العام بعد الظهر وحدي أنقل أرجوزة التصوف التي أشرت إليها من قبل مسلم وقمت من مكاني وتلقيته بما يتناسب مع مقامه، وأعددت له مقعداً بجانبي فابتدرني سائلا ماذا تفعل ؟ فأجبته فقال لي : إنها أرجوزة جميلة في التصوف اقرأها علي فأخذت أقرأها فقال لي : ما هكذا يقرأ الشعر يابني قلت ؛ هل لحنت في شيء مما قرأت؟ قال : لا إنك لم تلحن ولكن ما هكذا يقرأ قلت : إذن فكيف يقرأ ؟ قال : هل كانوا يقرأونه في سوق عكاظ كما تقرأه ؟ قلت : إذن فكيف كانوا يقرأونه ؟ فتناول الكتاب وأخذ يقرأه بنغمة حلوة كأنه يغنيه ثم قال . لا معنى للشعر إذا لم يقرأ بهذه الطريقة ، ولذا فإنهم كانوا ينشدون الشعر لا يقرأونه ، أليس الشعر موسيقى ؟..

ثم قال لي عندما وصل في الأرجوزة إلى أبيات تتحدث عن الحجب والكشف : أنصت إلي يامحمود فأنصت إليه فقال : إن الرجل ليأخذ نفسه بأساليب الرياضة النفسية فيرقى من درجة إلى أخرى حتى يدرك اسمى درجات السمو فيصل إلى درجة الكشف حيث ينكشف له الكون ويرى بنور الله ماستره الله عن خلقه من الغيب . فهل هناك منزلة أعلى من هذه المنزلة ؟ !..

قلت : لا أعتقد أن هناك منزلة أعلى من تلك .

قال : بل هناك منزلة أعلى من تلك . قلت متعجباً : وما عساها تكون تلك المنزلة ؟..

قال : هى منزلة رجال يصطنعهم ربهم ، ويختارهم من بين خلقه ، ويكل إليهم مقارعة الفساد ، ومنازلة الظلم ، وإشعال جذوة الإيمان بالله فى القلوب ، وبث روح الأخوة بين المؤمنين ؛ حتى تتكون لدعوة الله قوة ترفع صوت الله فى الأرض ، فتقف للظلمة والمفسدين بالمرصاد .. ثم قال الشيخ : واعلم يابنى أن هذه المهمة التى يختار لها الله تعالى هؤلاءالرجال تقتضى أن يحجبهم عن غيبه لهم دائما محجوبون لكنهم مع هذا الحجب أعلى درجة من أهل الكشف ؛ لأن أهل الكشف لا ينتفع بهم الناس ، أما هؤلاء فينتفع بهم خلق كثيرون بل تنتفع بهمأمم ينقلونهامن حال إلىحال... قال واعلم يابنى أن من هذا النوع من الرجال الرسل فموسىأعلىدرجة من الخضر ، وسليمان أعلى درجة من الذى عنده علم الكتاب ، ومنهم كبار الصحابة من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومنهم كبار المصلحين ومنهم حسن البنا .

قلت : أهكذا ترى حسن البنا ؟...

قال : نعم . قلت : وكيف عرفته ؟ .

قال : سمعت عنه فذهبت اليه وجلست معه وسألته إلام تدعو ؟

قال : أدعو إلى القرآن .

قلت : دع هذا اللفظ الكريم من حديثنا ؛ فإن هذا اللفظ الكريممظلوم ظلماً بيناً : لقد انتحله الجميع وانتسبوا إليه ؛ ما من فرقة قامت فى الدولة الإسلامية – مهما كانت زائغة عن الإسلام – إلا وادعت أنها تدعو إلى القرآن ... فأجبنى بتفاصيل ما تدعو إليه فى كل ناحية من نواحى الحياة ... قال فشرح لى تفاصيل دعوته فوجدتها فى حدود كتاب الله ...

قال : ثم رأيت فى الشاب وآرائه وفهمه لكتاب الله ، وإحاطته بالتاريخ ، وفهمه للمجتمع الذى نعيش فيه ،وذكائه وألمعيته وشخصيته الأخاذة ، ومقدرته على جمع الناس على دعوته ، وصبره على المكاره، وتعففه عما فى أيدى الناس ، وبذله فى سبيل دعوته ، ولين جانبه، وتواضعه بحيث لا تكاد تميزه من أتباعه ؛ قال فرأيت فيه صفات القائد الذى يفتقده العالم الإسلامى.

أقول : وحرصاً منى على أمانة النقل أقرر أن هناك بقية لهذا الحديث ولكنى لا أذكر هل الذى قالها لى هو الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى أم أن الذى قالها لى هو الأستاذ المرشد بعد أن حدثته بما دار بينى وبين الأستاذ الكبير من حديث ، تلك هى : أنه بعد انتهاء الحوار بينهما على النحو الذى ذكرت وبعد أن أعلن الشيخ اقتناعه قال له الأستاذ المرشد : ياسيدى الأستاذ ؛

إنك أستاذنا وأستاذ الجميع وأنت حكيم الإسلام وأراك أحق بمنصب الإرشاد لهذه الدعوة مني .. وهذه يدي أبايعك ..

فقال الشيخ : لا ياأخي ... أنت صاحب الدعوة وأنت أقدر عليها وأنت أجدر بها ... وأنا أبايعك على ذلك – ومديده فبايعه – ولم ينكث – رحمه الله بيعته إلى أن لقي ربه ... حتى إنه لما وقعت الفتنة الأولى وانشق جماعة من الإخوان مما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله وأسسوا جماعة «شباب محمد» ذهبوا إليه وطلبوا منه أن يكون مرشداً عاماً لهم رفض قائلا «لا يجوز أن يكون للمسلمين إلا مرشد عام واحد » .

(٢) قوة روحية جارفة :

قد يلاحظ القارىء أنني حين أصف حسن البنا لا أتعرض لميزاته العقلية والذهنية مع أنه كان فيها الذروة التي لا تسامى خصوبة ذهن وحدة ذكاء وانقاد قريحة وحافظة تعى فلا يفلت منها شيء وذاكرة لكل مارأت أو سمعت حتى أسماء الأشخاص مهما طال عليها الزمن وتباعدت بها البلاد فقد يزور قرية في أعماق الصعيد ويلتقي بعد سنوات في القاهرة بفرد منها فتراه يناديه باسمه ولقبه ويسأله عن أبنائه بأسمائهم – ومع ذلك فانا لا أتعرض لهذه الميزات لأن كثيراً من الزعماء يتمتعون بأنصبة متفاوتة منها .

ولكن الميزة التي تتقطع دونها الأعناق والتي قلما يجود الزمان بزعيم يظفر بنصيب منها هي القوة الروحية الخارقة ولقد كان حسن البنا – رحمه الله – عميق الإيمان بالله ، شديد الثقة فيه ، يؤمن بالغيب الذي يسمونه الآن «ماوراء الطبيعة» وكان كثيراً مايردد قول ابن الفارض .

ولاتك ممن طيشتــه طروســه	بحيث استقلت عقلـــه واستبدت
فإن وراء العقل علمـاً يجـل عن	مدارك غايات العقول السليمة

وكان يرى في القرآن ما لايراه غيره ؛ وإن كنا جميعاً نردد عبارات مؤداها أننا نؤمن بأن القرآن هو كل شيء لكننا في تصرفاتنا في الحياة نتصرف وكأنما لا نؤمن بما نردد .. أما هو فكان القرآن هو حياته وهو عمله وحركته ، وهو تفكيره وسكونه ، وهو كلامه وسكوته ، وهو دائرة آماله وهو مرجعه ولا مرجع له غيره .. لقد كنت أحار في تصور قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه كان «خلقه القرآن » حتى لقيت حسن البنا وصاحبته فبدأت الصورة تتضح أمامي .

لم أر إنساناً يحفظ القرآن كما يحفظه هذا الرجل ؛ لم يكن يتحدث مع أي أحد كان في أمر

من الأمور إلا صدع بالآية دون ما إعمال فكر كأنما أنزلت عليه ... ولم أكن أقدر هذه المقدرة حق قدرها إلا بعد أن حفظت القرآن وقرأته غيباً على نفسي وعلى غيري عشرات المرات ، ومع ذلك كنت إذا حاولت تذكر آية معينة فى موضوع معين أعجز فى أكثر الأحيان عن الإتيان بها ... وفهمت من ذلك أن حفظ القرآن شيء وخاصية الاستشهاد بآيات منه فى مواضع مختلفة شيء آخر .

سألته مرة أي التفاسير تنصحني أن أقرأ ؟ فقال لى : إن كنت تريد نصيحتي فلا داعى لقراءة تفاسير ... إن القرآن واضح .. حسبك أن تعرف معانى الكلمات الغريبة عليك وهى قليلة ثم اقرأه وتدبر معانيه وافتح له قلبك ، وأنت تعرف سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذا فعلت فإنك سيتضح لك من معانيه مالا تظفر به من كتب التفسير .

وكان له مصحف من القطع الذى هو فوق المتوسط ، وكنت أرى فيه فى مواضع متعددة ملاحظات كتبها بخطه ؛ لعلها معانى سنحت له وومضت فى قلبه فرأى أن يقيدها أمام الآيات قبل أن ينساها ....

لم يكن يدع لحظة فراغ إلا ملأها بالقرآن ؛ حين كنا نصاحبه فى السفر ، سواء أكان السفر بالقطار أم بالأتوبيس كان يمضى الطريق مغمضاً عينيه يتلو القرآن حتى نصل إلى الجهة التى نريدها .

حدثنى مرة أنه قرأ فى كتاب – سماه لى وقتها ولكنى أنسيت اسمه الآن – أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد بن حنبل وشكا له أن أخاه تنتابه حالة يفقد فيها وعيه ، ويمزق ملابسه ، ويهاجم من حوله ، ويريد أن يفتك بأقرب الناس إليه ، وقال إنه عرضه على الأطباء حتى يئسوا منه ولا يدرون ماذا يفعلون ... وكان الإمام أحمد بالمسجد فقال للرجل أحضر أخاك وهو فى هذا الحال فلما أحضره أمره أن يرقده ثم أخذ الإمام يقرأ القرآن حتى سمع الجميع صوتاً منبعثاً من جسم الرجل المريض يستغيث بالإمام ويقول له : حسبك وسأفعل ماتريد . فقال له الإمام : دع هذا الرجل واخرج من إصبع قدمه قال الصوت سمعاً وطاعة . وخرج من إصبع قدم الرجل وإذا بالمريض يستيقظ كأنما حل من عقال ، وكأن لم يكن مصاباً من قبل .

قال لى الأستاذ : وقد شغلتنى هذه القصة وكنت أتأهب – حسب جدول زيارات – لزيارة إخوان السويس . وركبت القطار وظللت طيلة الطريق أفكر فى هذه القصة وأتعجب لما فيها وأقول : أهو سر الإمام أحمد أم هو سر القرآن أم أن القصة فيها مبالغة ؟.. ولم تزل هذه الأفكار

تراودنى حتى وصل القطار محطة السويس ، ونزلت من القطار فوجدت الإخوان متجمعين فى انتظارى فعانقتهم ، ولاحظت أن واحداً منهم كان يقف وحده بعيداً ، فقربت منه فرأيت على وجهه أثر الحزن ؛ فتركت الإخوان وانتحيت به جانباً وسألته عما يحزنه . فقال لى : إن الذى يحزننى أمر خطير ، وإننى قد ضقت ذرعاً بالحياة ، وسدت أمامى الطرق ، وأحاط بى اليأس من كل جانب ... إن زوجتى امرأة صالحة مطيعة ، ولى منها أبناء صغار ، وقد اعتراها منذ عام مرض ينتابها بين الحين والحين ؛ تفقد فيه رشدها ، وتتحول إلى وحش كاسر ؛ إذا استطاعت الوصول إلى أى منا حاولت قتله ، وتحطم كل شىء أمامها ... وقد عرضتها على الأطباء هنا وفى القاهرة حتى يئسوا ... وقد انتابها المرض اليوم ، ولما كنت أعلم بقدومك اليوم أدخلتها حجرة أغلقتها عليها وجئت أنتظرك لأعرض عليك مصيبتى لعلك تعيننى فيها ....

يقول الأستاذ لى : فابتسمت ، والأخ لايعلم لم ابتسم ... وتذكرت قول ابراهيم عليه السلام «رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ... الآية » قال الأستاذ : قلت له هيابنا إلى البيت .. واستأذنت من الإخوان . ودخلنا البيت ودخلنا الحجرة المغلقة فرأيت امرأة بها ، فقلت له : ادخل وغطها تماماً بملاءة بحيث لا يبين منها شىء . ففعل ثم دخلت الحجرة ووقفت بجانب السرير وأغمضت عينى وأخذت أقرأ القرآن ، وظللت أقرأ حتى سمعت صوتاً منبعثاً من جسم المرأة ولكنه صوت رجل يقول : كيف تكون يابنا إماماً للناس وتنظر إلى عورات النساء ففتحت عينى فرأيت جزءاً من ساق المرأة قد انكشف نتيجة ماينتابها من حركات عنيفة ... فأمرت زوجها فغطاها ثم واصلت قراءة القرآن حتى سمعنا صوت الرجل المنبعث من جسم المرأة يقول فى نغمة استعطاف : إنك إمام المسلمين وتريد أن تحرقنى وأنا مسلم ... قال الأستاذ فقلت له : إن كنت مسلماً لما آذيت مسلمة .. قال : وماذا تريد منى ؟ قلت دع هذه المرأة واخرج . قال أمهلنى .. فواصلت القراءة . فقال بعد قليل استحلفك بالله إلا أمسكت عن القراءة حتى لا أحترق وسأخرج ...قلت إن كنت خارجاً فاخرج من إصبع قدمها . فأراد أن يساوم فواصلت القراءة فصرخ مستغيثاً وخرج من إصبع قدمها فقامت المرأة كأنما حلت من عقال وكأن لم تكن أصيبت من قبل .

وكان مما حدثنا به الأستاذ المرشد فى صدد ماكان من الأستاذ أحمد السراوى معه ؛ أنه فى أوائل أيام نقله إلى القاهرة من الإسماعيلية ومعرفه بالأستاذ السراوى أن طلب إليه الأستاذ السراوى أن يصاحبه فى قضاء مصلحة له فسار معه حتى دخل معه منزلا فوجد نفسه فى مكان يشبه أن يكون عيادة طبيب ، وجاء الطبيب فبالنى وأخذ يحملق فى عينى وأنا أنظر إليه فى تعجب

ولا أدرى ماذا يريد منى .. يقول الأستاذ المرشد : وبعد نحو ساعة وقف الطبيب وقال للسراوى : صاحبك هذا قوة روحية خارقة ، ليس فى الدنيا الآن قوة تستطيع التغلب عليها ولا أن تعادلها ؛ لقد حاولت معه بجميع الوسائل ولم أتركه إلا بعد أن أحسست أننى إذا زدت على ذلك لحظة فسأنام أنا ..

قال الأستاذ المرشد وبعد أن خرجنا سألت السراوى عن هذه المفاجأة فقال لى لقد لاحظت أن فيك قوة روحية خارقة ، فحاولت أن أعرف مدى هذه القوة ، فاتفقت مع هذا الرجل – وهو أقوى منوم مغناطيسى فى مصر – على مبلغ كبير إذا هو استطاع أن ينومك ، ولم أشأ أن أن تعرف عن عزمى هذا شيئاً حتى آخذك على غرة دون أن تستعد . وقد خسر الرجل المبلغ .

(٣) بصيرة نافذة ورأى منهم : حول سيد قطب

انتهى سوق الأدب فى مصر بل فى الشرق العربى كله إلى مجلة «الرسالة» التى كانت تصدر فى القاهرة . كان يصدرها أديب كبير هو الأستاذ أحمد حسن الزيات . وقد استطاع هذا الرجل بحكمته أن يجعل مجلته هذه ملتقى أفكار الأدباء وأقلامهم على اختلاف نزعاتهم ، وتباين وجهاتهم فقد كان يكتب فيها مصطفى صادق الرافعى وهو حامل لواء الأدب الإسلامى ، كما كان يكتب فيها عباس محمود العقاد وكان معروفاً عنه فى ذلك الوقت أنه يمثل الجانب الآخر .

وكان لكل من الرجلين مدرسة على شاكلته ومريدون . وكان من تلامذة العقاد فى ذلك الوقت شاب أديب درعى اسمه «سيد قطب» ولم يكن سيد قطب مجرد تلميذ للعقاد بل كان أقرب تلاميذه إليه والصقهم به وأشدهم تشيعاً لأدبه وأفكاره واتجاهاته ؛ حتى إن مجلة الرسالة بعد أن لقى الرافعى ربه ظلت فاتحة صفحاتها للكتابة عن الرافعى ردحاً من الزمن فكان أشد الكتاب تهجماً على الرافعى وإشادة بالعقاد هو سيد قطب ... وكان هذا التهجم على الرافعى يحز فى نفوس الألوف من قراء «الرسالة» الذين كانوا لا يقتنونها كل أسبوع إلا لمقالة الرافعى التى كان الزيات يجعلها دائما المقالة الافتتاحية لكل عدد ، ونأتى من بعدها مقالات العقاد وغيره من أمثال أحمد أمين وطه حسين وأحمد زكى ، وكان الناس يتدارسون مقالة الرافعى حتى إن منهم من كان يحفظها عن ظهر قلب .

على أن «الرسالة» مهما أفسحت من صفحاتها للأضداد ؛ فقد كان لها من الكرامة والرهبة والوقار ما يجد الكاتب فيها نفسه ملتزماً بهذا الوقار مهما كان بطبيعته مسفاً منحلا ؛ وقد يجد هؤلاء فيما سوى «الرسالة» من الصحف مجالا لنشر آرائهم وإبراز إسفافهم .

وقد قرأت فى ذلك الوقت فى جريدة «الأهرام» مقالا لسيد قطب يدعو فيه دعوة صريحة إلى العرى التام وأن يعيش الناس عرايا كما ولدتهم أمهاتهم – وكانت هذه البدعة قد انتشرت فى بعض بلاد أوربا – وقد أثارنى هذا المقال إثارة لم أستطع معها أن أقاوم القلم الذى وجد فى العقل والمنطق والخلق والحياء ألف دليل ودليل يدحض هذه الدعوة ، ويثبت أنها دعوة تخريبية بهيمية دخيلة .

حملت المقال الذى كتبته وذهبت إلى الأستاذ المرشد – كدأبى فى كل مقال أكتبه فى غير مجلتنا – وكنت مزمعاً نشره فى «الأهرام» مطالباً إياه بنشره فى نفس المكان الذى نشر فيه المقال المردود عليه ... قرأه الأستاذ المرشد ثم أطرق طويلا – على غير ما عودنى – ثم التفت إلى وقال : يامحمود إن المقال متين الأسلوب ، قوى الحجة ، جدير أن ينشر ، وقد سبق أن أجزت لك ما نشرته فى بعض الصحف اليومية .. ولكن فى هذه المرة مرت بخاطرى عدة خواطر أحب أن أعرضها عليك فقال :

أولا : لاشك فى أن فكرة المقال فكرة مثيرة تجرح قلب المؤمن .

ثانياً : كاتب هذا المقال شاب متأثر بالبيئة التى تعرفها ونعرفها جميعاً وهى التى تغذيه بمثل هذه الأفكار .

ثالثاً : إن هدف هذا الشاب من كتابة هذا المقال ليس هو مجرد التعبير عما يؤمن به ، وإنما هو محاولة جذب الأنظار إليه على أساس عرفهم من أن الغاية تبرر الوسيلة .

رابعاً : إن قراء «الأهرام» عدد محدود بالنسبة لسكان هذه البلاد . وليس كل قراء «الأهرام» قد قرأوا هذا المقال ، فأكثر قراء الأهرام لا يقرأون فيه إلا الأخبار . وأكثر الذين قرأوا المقال لم يستوعبوا فكرته لأنهم اعتادوا قراءة المقالات غير الرئيسية قراءة عابرة .

خامساً : إذا نشرنا رداً على هذا المقال فى الأهرام «كانت لذلك النتائج الآتية :

أ) سيثير نشر الرد اهتمام الذين لم يقرأوا المقال الأصلى إلى البحث عنه وقراءته ، كما سيدفع الذين قرأوه قراءة عابرة أن يقرأوه مرة أخرى قراءة متأنية ، وستبرز بذلك فكرة المقال فى مختلف المجتمعات وتكون موضوع مناقشة واهتمام .. ونكون بذلك قد عملنا – –من حيث لا نقصد – على تحقيق مأرب صاحب المقال من جذب الأنظار إليه وجعل اسمه على الألسنة .

ب) نكون – من غير قصد – قد تسببنا فى لفت الأنظار إلى لون من الرذائل وربما علقت

به بعض النفوس الضعيفة ولو لم نرد عليه لمرت الدعوة إلى هذه الرذائل فى غفلة من الناس غير معارة أى اهتمام ولطمرت فى طيات النسيان .

ﺟ) الرد نوع من التحدى ، والتحدى يخلق فى نفس المردود عليه نوعاً من العناد ، وهذا العناد يجعله يتعصب لرأيه مهما اقتنع بخطئه ، ونكون بذلك قد قطعنا عليه خط الرجعة ؛ وفى هذا خسارة نحن فى غنى عنها .

وهذا الكاتب شاب وترك الفرصة أمامه للرجوع إلى الحق خير من إحراجه ... وما يدريك لعل هذا الشاب يفيق من غفلته ، ويفىء إلى الصواب ، ويكون ممن تنتفع الدعوة بجهوده فى يوم من الأيام .

ثم قال : مارأيك فى هذه الخواطر ؟ ..

قلت : إنها مقنعة تمام الإقناع .... ومزقت الرد بين يديه ..

ولا داعى للإشارة إلى ماكان من أمر هذا الشاب ، وما يسره الله إليه من اليسرى حتى صار علماً من أعلام الدعوة ، ثم كان من شهدائها ... وإن كان شىء من نبوءة الأستاذ المرشد رحمه الله لم يتحقق فى حياته .

ثانياً : ضوء على بعض شخصيات الدعوة

أحمد رفعت :

كان ذلك فى عام ١٩٣٧. شاب لم يجاوز العشرين ، كنت تلمح فى قسمات وجهه وسامة الإيمان ، وفى بريق عينيه الذكاء والنضج ، وفى نبرات حديثه تحس الطيبة المنبعثة من قلب سليم ، كما تشعر بحماس جارف وتفان فى سبيل فكرته التى يؤمن بها – كان شاباً صغيراً إلا أنه جاد فى كل أحواله لا يعرف الهزل ولا يميل إليه ، ولا يعترف به .. تحس فى حركاته المنطلقة انطلاق السهم مدى ما يحتمل فى نفسه من آلام وآمال . يحسن الحديث ، ويقدر على الإقناع .. إذا رأيته أحببته، وإذا خالطته ازددت له حباً ... لم يكن ينقصه مع كل هذه المزايا إلا الخبرة بالحياة والتجارب التى تجعل نظره الذكى نظراً شاملا ... كان طالباً فى مستهل الدراسة بكلية التجارة فى القاهرة ، وكان ممن تعرفوا على الدعوة بعد انتقالها إلى دار ميدان العتبة ، إلا أنه كان داعية مثمراً فى كليته ، وكان والده موظفاً فى القاهرة ويقيمون فى حى المنيرة

صديق أمين :

صنو أحمد رفعت وزميله فى الكلية وفى الإخوان وفى السن وفى السنة الدراسية وفى المستوى

الثقافى والعقلى ، ولم يكونا يفترقان إلا وقت النوم ، ولم يكن يذكر أحد رفعت إلا ذكر معه صديق أمين فيقال : رفعت وصديق ، ومعنى ذلك أن لرفعت القيادة ... وصديق من سكان المنيرة أيضاً ، ووالده مقاول ، وهو كصنوه شخصية ذكية محببة على إيمان وعزم .

عزت حسن :

شخصية إخوانية قديمة الصلة بالدعوة لم أسعد بلقائه إلا عفواً ، ولكنى كنت معجباً به لما كنت أقرأ له من مقالات فى مجلة «الإخوان المسلمون» التى كانت تصدر قبل اتصالى بالدعوة . كان له قلم سيال ، وأسلوب طلى ، وتحس حين تقرأ له أنك تقرأ لعاشق شغفته الدعوة حباً ، وأفنت قلبه صبابة . وإذا قرات له أحسست أنك تقرأ لأديب كبير ، ضليع فى اللغة والأدب . ولقد كنت أتصوره – وأنا أقرأ له – أنه من أفذاذ من تخرجوا فى كلية الآداب أودار العلوم حتى فوجئت بأنه ليس على الصورة التى تصورتها وإنما هو رجل لم تسعفه الظروف بأن يواصل مراحل التعليم فاقتصر على المرحلة الابتدائية ، وانسلك فى سلك الوظائف الصغيرة حتى كان فى تلك الأيام معاون سلخانة طوخ ، وكان إذ ذاك فى العقد الرابع من السن تقريباً ، وكان مقيما فى طوخ ، ولا يحضر إلى القاهرة إلا لماماً ... فإذا حضر استقبله الأستاذ المرشد بالعناق ؛ لأنه كان يحبه ، ويقدر فيه جمال الأسلوب ، وحسن الأداء ، وفيض الروحانية ... وكان الأستاذ المرشد – باعتباره من أعلم الناس باسرار اللغة وآدابها ، ومن أقدرهم على التعبير عما فى نفسه بل وفى نفس غيره سواء باللسان أو بالقلم – كان قديراً على فهم الرجل من كتابته . ولقد كنا نحب هذا الرجل لحب الأستاذ المرشد له .

حسن السيد عثمان :

طالب فى كلية الحقوق من أسرة مرموقة فى طما بالصعيد ، وكان أكبرنا – نحن الطلبة – سناً وجسما ، متفان فى الدعوة ، وكان عنواناً كريماً لدعوته ، وكان من الأغنياء الأسخياء ، وكنا نعده فى ذلك الوقت عثمان الدعوة وقد اتخذناه – بتوجيه من الأستاذ المرشد – رئيساً للجنة الطلبة ...ومع كل هذه الميزات الطيبة ، فقد كانت تغلب عليه روح التطرف الناشئة عن البراءة المطلقة كبراءة الطفولة ؛ فلا يكاد مثلا يسمع أو يقرأ أن المسلمين الآن لا إمام (خليفة) لهم ، وأن لصلاة الجمعة علاقة بالإمامة ؛ فيمتنع عن أداء صلاة الجمعة حتى يصير للمسلمين إمام – وهو أمل يحتاج فى تحقيقه إلى أجيال وأهوال – ومع ذلك فإنه كان يبذل الكثير فى سبيل دعوته ، وكان محبباً إلينا جميعاً ، ومحبباً إلى الأستاذ المرشد .. وكان صديقه الذى لا تكاد نراه إلا معه

هو الأخ الكريم محمد فهمى مصطفى أبو غدير ، زميله فى الكلية ومن أسرة كريمة فى الواسطى أسيوط ، وقد التحقا بالدعوة معاً أو لعل فهمى كان أسبق ، وعلى كل فهو يشترك مع صنوه حسن فى كل صفاته الطيبة ، وفى درجة إيمانه بدعوته ، لكنه كان يختلف عنه فى أنه كان أوسع أفقاً فى فهم الفكرة الإسلامية وفى معالجة الأمور بمقاييسها ، وبهذه المرونة كان فهمى أكثر إنتاجاً لدعوته وكانت مناقشاته أكثر نجاحاً ، وكان محبباً كثير الأصدقاء ، حتى من غير الأوساط الإسلامية – وكثير من هؤلاء – بهذه المرونة – صار من الإخوان ، ومن لم يصر منهم صار من محبى الدعوة وأصدقائها .

عيسى عبده :

وكان مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة فى القاهرة فى ذلك الوقت ، وكان بالطبع أكبر منا سنا ، وقد أخبرنا الأستاذ أن عيسى كان من أسرة مسيحية أسلمت جميعها عن اقتناع .. وكان الأستاذ المرشد يحب عيسى ويقربه ويؤثره ، ويقدمه دائماً للحديث إلى الإخوان ، لأنه كان محاضراً لبقاً ، ومحدثاً طويل النفس ؛ وكان عيسى مندمجاً فى منظمات الإخوان فكان أحد أعضاء الكتائب ؛ إلا أنه لم ينتظم فى سلك الجوالة .. وكان كأنما يرى أنه من جيل غير جيل الطلبة؛ فلم تكن بينه وبيننا نحن الطلبة صلات وثيقة ترفع فيها المجاملات ؛ مع أنه كان معنا من هو أكبر منه سناً وهو الأخ الكريم الأستاذ محمد حلمى نور الدين وكان نجله زميلا لى بالكلية ؛ ومع ذلك كنت إذا رأيته بيننا لم تحس إلا أنه طالب معنا .. وليس معنى ذلك أنه كانت بيننا وبين الأخ عيسى جفوة ، بل إننا كنا نحبه ونقبل عليه وكان يبادلنا هذا الحب والإقبال .

أحمد حسن الباقورى :

أقدم منا جميعاً صلة بالدعوة ، وقد التحقنا بالدعوة فوجدناه «شاعر الاخوان» وممثل الأزهر. والطريف أنه كان زعيما لطلبة الأزهر ومع ذلك لم يلتحق حتى ذلك الوقت من الأزهريين – الطلبة – بالدعوة غيره وآل شريت وعبد اللطيف الشعشاعى وعبد البارى عمر خطاب – ومع ذلك كان من أقرب الشخصيات إلى الأستاذ المرشد .

كان يكبرنا بسنوات قليلة إلا أنه لم يكن يحس بعد تخرجه إلا بإحساس الطالب ، ولاأعتقد أنه يحس بغير ذلك حتى الآن ؛ لأن ميزة إحساس الطالب هى تلك الحيوية الدفاقة فى أفكاره وتصرفاته وآماله .

التحقنا بالدعوة فوجدنا نشيدها من وضعه ، وإذا قرأت النشيد استطعت أن تعرف منه

شخصية الباقورى وأفكاره وما يعتمل فى نفسه - وقد أثبتنا هذا النشيد فى فصل سابق .

وقد قضت الظروف بأن تكون مجموعة من الإخوان منها الباقورى وأنا على اتصال شبه دائم لفترة طويلة تزيد على العام ، وقد استطعت خلالها أن أحس حقاً بأن جوانح هذا الشاب إنما تنطوى على قلب شاعر . ولست أقصد بذلك ما تعارف عليه الناس من الاتجاهات اللفظية للشعر ، وإنما أقصد بالقلب الشاعر ، القلب المترع بالمشاعر النبيلة ، والعواطف الجياشة ، والأحاسيس المرهفة الدفاقة .. ومعنى أن إنساناً تنطوى جوانحه على قلب شاعر ؛ أن كل مايصدر عنه لا تراه إلا مصطبغاً بألوان هذه العواطف والأحاسيس وأنه يتجه حيث الحب والامتزاج النفسى ، والانصهار الروحى ، والآمال المحلقة .

ظللنا فترة طويلة فى دار العتبة نقضى اليوم كله منذ الظهيرة حتى منتصف الليل بدار المركز العام ، وكثيراً ما كان الأستاذ المرشد يكون معنا ؛ ولم يكن لنا غداء إلا ما يحضره لنا «عبد الوهاب فراش المركز العام» من فلافل شارع عبد العزيز حتى صار شعارنا شطرة قالها الباقورى بعد أن أخذت منه الفلافل كل مأخذ : «أم الفلافل ملجأ الإخوان ».

ومن الطرائف أن الأستاذ المرشد كان بعد الغداء يقيل ساعة على إحدى مقاعد المركز العام وينصحنا أن نفعل مثله إلا أننا لم نكن نفعل لقضائنا الوقت فى الحديث معاً ، ثم يستيقظ الأستاذ من النوم ونصلى معه العصر ؛ فيتذكر أن ستقام الليلة - بعد المغرب - ندوة بالدار أو محاضرة أو مناظرة أو مؤتمر فيقول للباقورى : ياشيخ أحمد اعمل لنا قصيدة تلقيها الليلة بمناسبة كذا ، فيجلس الباقورى فى ناحية وفى خلال الساعة الباقية على ميعاد الحفلة يخرج لنا بقصيدة عصماء قد يحتاج غيره لإعداد مثلها إلى أيام وأسابيع .

وبمناسبة هذا الغداء بالمركز العام ، كنت أذهب إلى المركز العام فى مثل هذا الوقت وأكون بالصدفة صائماً صيام نفل ؛ فيتفقدنى الأستاذ المرشد على مائدة الطعام فلا يجدنى فيسأل : أين ذهب فلان فيقولون له إنه أخبرنا أنه اليوم صائم ، فيدعونى ويقول لى : ماهدفك من هذا الصيام ؟ فأقول : ثواب الله فيقول لى : إذن فكل معنا وستحصل على ثوابين معاً ؛ ثواب الصيام بالنية ، وثواب أعظم منه بإدخال السرور على إخوانك بمشاركتك لهم فى الطعام .

ومع هذه الشاعرية الدافقة فى الباقورى فإنه لم يخرج لنفسه ديواناً ، ولم يسمح لنفسه أن يلقى قصيدة خارج نطاق الإخوان فى ناد من النوادى ولا فى حفل من الأحفال ولا فى صحيفة ولا فى مجلة ؛ وكثيراً ما كنت أعتب عليه فى ذلك ، وأنا أعتقد لو أنه أراد لنفسه هذا الاتجاه لكان من أشهر الشعراء .

ويبدوان قلبه الشاعر كان يتحكم حتى فى إرادته ، وأذكر بهذه المناسبة أنه فى إحدى الليالى التى كان يقضيها معنا فى الجيزة فى منزل الأخ عبد الفتاح البساطى - وكثيراً ما كنا نترك بيوتنا الأيام والليالى سواء منا من كان يسكن فى الجيزة مثلى أو يسكن فى القاهرة مثل عبد الحكيم عابدين وعبد المحسن الحسينى ومحمد عبد الحميد احمد والباقورى ، ونقضى تلك الأيام والليالى معاً فى بيت البساطى - فى إحدى تلك الليالى بينما كان الباقورى يعبث بكتب على مكتب عبد الفتاح إذا به يفتح كتاباً منها وينظر فيه ثم ينفجر مكبراً مهللا وهو يقول : الحمد لله وجدت ما أعيانى البحث عنه . فالتفتنا إليه وسألناه ماهذا الذى أعياك البحث عنه وماهذا الذى وجدته ؟ قال : إننى أقبل يد الأستاذ المرشد وبعد كل مرة أقبل فيها يده ، أسأل نفسى هل هذا عمل يرضاه الإسلام وهل لهذا العمل سند من السنة ؟ ومع مايتلجلج فى نفسى من هذا التصرف من شكوك ومع ماوصلت إليه من يأس من العثور على أثر فى السنة أستند إليه ، فقد كنت دائماً لاأستطيع أن أقاوم نفسى فى تقبيل يد الأستاذ ... والآن وأنا أعبث فى هذه الكتب وليس فى نيتى البحث عن شىء ، تناولت هذا الكتاب وفتحته فتحاً عشوائياً فإذا بعينى تقع على هذا الحديث - (كان كتاب رياض الصالحين للإمام النووى) وقرأ لنا الحديث وكان راوى الحديث على ما أذكر عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وفى سياق الرواية يقول «فتقدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلت يده ثم ساق الحديث .

ولقد كان لهذا الحديث أجمل الوقع فى نفوسنا جميعاً فقد كان يتلجلج فى نفوسنا ما كان يتلجلج فى نفس الباقورى ، ولا نملك مع ذلك إذا التقينا بالأستاذ إلا أن نقبل يده - على كره منه ومقاومة شديدة - فكان هذا الحديث إرضاء لعقولنا فى عمل كان ينطلق من صميم قلوبنا متخطيا حواجز العقل والقياس والمنطق .

ولا أدرى حتى اليوم السبب الذى من أجله عزف الباقورى عن مجاراة طبيعته الشعرية ومحاولته إخفاء هذه الطبيعة عن المجتمع ، أهو السبب الذى من أجله نسب إلى الإمام الشافعى قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يـــــزرى لكنت اليوم أشعر من لبيـــــد

أم هو سبب آخر ، ولكن الذى أتصوره أن مصادرة المرء لطبيعة أصيلة فيه، قد تؤدى - دون أن يريد ودون أن يحس - إلى إبراز عواطفه وانفعالاته فى صورة مشوهة لا يستطيع تداركهـا ولا تهذيبها ولا السيطرة عليها ، مع أنه لو جارى طبيعته مع شئ من القصد والمراقبة لأتت تصرفاته وتعبيراته عما فى نفسه سديدة محكمة مثيرة لإعجاب كل قارئ وكل سامع ، ولصار صاحبها من الناس ملء السمع والبصر ...

وقد يعجز الكاتب الأديب عن التعبير عن معى عميق الفور فى نفسه إذا ألزم نفسه التعبير النثرى ، فى حين يجد المجال فسيحاً فى عالم الشعر فى لمس هذا المعنى وتصويره ، ذلك أن الشعر يسع من العواطف مالا يتسع له النثر .

وإذا كان للشاعرية من المزايا ما يعجب ويبهر ، فإن لها جانباً آخر قد يبعث على الحيرة ويثير الدهشة ، فلقد كان للباقورى مع ذلك شطحات تلقى به خارج المركز العام فنفتقده بالشهور حتى نكاد فى غمرة العمل المتواصل للدعوة أن ننساه ، لكن الأستاذ المرشد لم يكن ينساه بل كان كأنما يتغافل عنه حتى إذا احتاج إليه بعث فى طلبه فحضر بين يديه وألقى على كاهله من أعباء الدعوة ما شاء أن يلقى .

عبد الحكيم عابدين :

أوردت هذه الأسماء التى ألقيت شعاعاً من الضوء على كل منها لأن لها اتصالا بعنوان هذا الفصل ولكن عبد الحكيم عابدين لا علاقة له ولا اتصال بهذا العنوان وإن كانت فصول قادمة إن شاء الله شبيهة بهذا العنوان سيكون هو قطب رحاها ، فرأيت أن أختم به تلك الأسماء فى معرض إلقاء الضوء عليها ، لا سيما وذكر الباقورى يقتضى ذكر عبد الحكيم عابدين لأنهما فرسا رهان ، ورضيعا لبان ، نهلا من منبع واحد ، وصدرا بعد ارتواء ، تجمعهما سجية أدبية ، وسليقة عربية ، وقلب شاعر يفيض بالعواطف الدفاقة والأحاسيس المرهفة .

وقد سبق فى أوائل هذه المذكرات أن نوهت بما طبع عليه عبد الحكيم من شاعرية حين تعرفت عليه فى أول لقاء لى معه عن طريق إسماعيل الخبيرى . وحين أنشدنى قصيدة طويلة يصف فيها وسائل الطريقة الصوفية التى كان ينتسب إليها فى تربية مريديها وتهذيب نفوسهم ، ولا زال لهذه القصيدة وقع فى نفسى حتى اليوم لأنها فريدة فى بابها ، فريدة فى هدفها ، بعيدة المدى فى دلالاتها ، فهى من الناحية الشعرية لا يكاد يصدق صدور مثلها جزالة ورصانة وتصويراً من شاب لا يجاوز العشرين فضلا عن أن هذه الوسيلة فى تربية النفس هى فى ذاتها من السمو بقدر ما هى من العنف بحيث لا تتوق إليها ولا تتحمل مشقة معاناتها إلا نفس صافية شفافة عركت صاحبها الحياة وفعلت بها الأفاعيل ، ولا تكون هذه النفس عادة إلا نفس كهل على الأقل إن لم تكن نفس شيخ ... فإذا كان الذى يضع نفسه تحت طائلة هذه المحاسبة العنيفة للنفس شاباً غض الإهاب فإنه إذن لشاب فى فى نضج الشيوخ فهما وصبراً وعقلا .. ولذا فقد علقت نفسى هذا الشاب. منذ هذا اللقاء الاول فقد كشفت لى قصيدته هذه عن معدن نفسه ودخائلها واعتمالاتها واتجاهاتها .. ولعله بادلنى نفس

الشعور حين لاحظ وقع هذه القصيدة فى نفس ومناقشتى له فى بعض أبياتها ومقاطعها . وحين أحس منى تذوقاً للشعر من الناحية الأدبية وتذوقى لمعانى القصيدة من الناحية الصوفية .

كانت كلية الآداب كما قدمت تقوم على الثلاثى الإخوانى محمد عبد الحميد أحمد وعبد المحسن الحسينى وعبد الحكيم عابدين.وليس معنى هذا أنهم وحدهم كانوا الإخوان بها، فقد كان بها إخوان كثيرون ولكن هؤلاء الثلاثة كانوا عماد الدعوة وركيزتها ، وكان الثلاثة فى صف دراسى واحد وفى قسم اللغة العربية وفى مقدمة صفهم ، وكان لكل منهم ميزة تخصص لها : أما محمد عبد الحميد فكان حكيما ينطق بالكلمات القصار أو يكتبها فترى فيها روعة الفكرة وجمال الابتكار .. وأما عبد المحسن فكان مجادلا عن الدعوة قوى الإقناع ، وكان همه منصباً على محاولة ربط الدعوة بالتاريخ الاسلامى ، ولذا فإنه كان كثير الغوص فى مراجع التاريخ ...

وأما عبد الحكيم فكان له طريق وحده ، كان يشارك زميليه فى القيام بأعباء الدعوة فى الكلية إلا أنه كان قليل الحضور إلى المركز العام أيام كان فى شارع الناصرية ، ولعله مع إيمانه بالدعوة كان لا يزال مشدوداً إلى طريقته الصوفية... كما أن نضوجه الأدبى ، وسرعة بديهيته ، ونزعته الشعرية الأصيلة قد قربته من أساتذته فكان طه حسين يأنس إلى الجلوس معه ، ويناقشه ويحادثه ويطارحه الشعر ... ومعنى ذلك أنه وإن شغل بذلك عن ارتياد المركز العام فى ذلك الوقت؛ فإنه كان يسد ثغرة كان لا بد من سدها وهى تقديم الدعوة إلى الأساتذة فى الوقت الذى كنا نحن فيه مشغولين بنشرها بين الطلاب .

ومثالا لذلك نومىء إلى المظاهرة التى أشرنا إليها فى الفصل الأول من هذا الباب والتى دعا إليها الإخوان فى الجامعة احتجاجاً على الكتابين اللذين قررتهما كلية الآداب على قسم اللغة الإنجليزية فيها وفيها سب للنبى صلى الله عليه وسلم وافتراء وقح عليه .. فنقول : إنه كان من آثار هذه المظاهرة أن ألغى الكتابان وأغلقت الجامعة إلى أجل غير مسمى وظلت مغلقة والدكتور طه حسين عميد الكلية معتصم ببيته وأعلن أنه لن يغادره إلى الجامعة إلا فى رفقة الطالب عبد الحكيم عابدين ... وقد ذهب عبد الحكيم إلى الدكتور طه وصحبه إلى الجامعة حيث التقيا بالأستاذ أحمد لطفى السيد مديرها فى مكتبه فأخذ لطفى بك يسأل عبد الحكيم عن دعوة الإخوان .. وشرع عبد الحكيم يشرح له الفكرة ووسائلها وأهدافها ولكن بدا بعد هذه الإفاضة فى الشرح كأن الأمر لم يتضح للطفى بك كما ينبغى ولاحظ الدكتور طه ذلك فقال : يالطفى بك .. هل تريد أن تعرف كل شىء عن الإخوان المسلمين قال : نعم .. قال : سأختصر لك ذلك فى كلمتين اثنتين : إنهم يريدون أن يستردوا الأندلس . فكان هذا من طه حسين فهما قد استوعب فيه من أهداف دعوة الإخوان ما لم يستوعبه كثير من المنتمين إليها .

هذا ولقد شاءت الظروف أن أعرف عبد الحكيم عن قرب ... وقد عرفني بوالده حين حضر إلى القاهرة لزيارته وكان رجلا أميا فارع الطول ، وسيما تلمح فى بريق عينيه ، وفى قسمات وجهه سلامة القلب ، ونقاء السريرة وتحس فى ثنايا حديثه وفى جرس صوته براءة البداوة ، وتستطيع أن ترى قرارة نفسه على طرف لسانه ، لا يحول بينها حائل من مكر أو خداع .. ولم يكن لقائى مع الرجل لقاء عابراً بحيث يتصنع فيه ما شاء من التصنع ، بل كانت رفقة الأيام والليالى ذوات العدد ، فقد كنا معشر هذه المجموعة من الإخوان دار كل منا هى دار جميعنا وجيب كل منا جيب جميعنا .

وقد تركت هذه البداوة بذكائها اللماح ، وعواطفها الفياضة ، وبراءتها الطفلية الطاهرة ، طابعها الوراثى فى نفس عبد الحكيم وفى كل ما يأتى من قول وعمل وسكون وحركة وتخيل وتصور ومع أن للبداوة جمالا عبر عنه المتنبى بقوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وللبداوة حسن غير مجلـــوب

فان واقع الحياة قد يصطدم بها ويتمرد عليها،فالصراحة – وهى من خصائص البداوة – وإن كانت فى ذاتها فضيلة إلا أنها – على إطلاقها – قد لا تستقيم مع طبيعة الحياة ، ولعل مما يشير إلى هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تكاشفتم ما تدافنتم» فطبيعة التعامل مع الناس تقتضى أن لا يفيض المرء بكل ما فى نفسه من عواطف بل عليه أن يستبقى فى قرارة نفسه قسطاً كبيراً من شعوره ولا يبرز منه إلا بقدر ، وفى ذلك يقول الهادى إلى أقوم سبيل صلى الله عليه وسلم «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» .

ومن هذا الجانب النبيل من جوانب البداوة التى طبع عليها أتى عبد الحكيم ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

ولقد كان الباقورى ممن تجيش صدورهم بفيوض غامرة من العواطف المتأججة والأحاسيس لكنه كان يحجزها بسد منيع من الخوف ، الخوف من النقد .. حتى إذا أمن هذا الجانب ، ووجد نفسه بيننا فى منزلنا بالجيزة – حيث تجتمع المجموعة التى نوهت عنها آنفا – انطلق على سجيته والتقت سجيته بسجية عبد الحكيم وتبادلا من العواطف ما كان الأخ محمد عبد الحميد أحمد يسميه «بالشاعريات» وكما كان لهذه «الشاعريات» فى الدعوة آثار طيبة لأنها لم تخرج عن كونها مظهراً من مظاهر الود الذى تطرب له النفس الشفافة المشرقة ، إلا أنه اتخذ بعد ذلك ذريعة لذوى النفوس الحاقدة والقلوب المريضة مما جر على الدعوة كوارث ، ما كان أغنانا عن خوض غمارها .

ولا ينبغى أن ننسى – فى غمار إلقائنا الضوء على شخصية عبد الحكيم عابدين – أن نذكر ديوانه «البواكير» الذى نشره فى خلال تلك الفترة من دار العتبة ، وقد لقيت هذه البواكير من الأوساط الأدبية على اختلاف نظراتها ومستوياتها ترحيباً وتقديراً حيث كان أكثرها ثمراً جنيا فى تمام النضج وكمال الازدهار ، كما تلقفته الأوساط الإسلامية فى شوق باعتباره أول ديوان إسلامى تغنى بكل معانى الدعوة ، ونظم من أهدافها أناشيد رائعة هتف بها الصغير والكبير وردده فى اعتزاز القريب والبعيد .

ثالثا : خيوط الفتنة

أطلقت «الفتنة الأولى» على هذه الفتنة التى أنا بصدد الحديث عنها ، وأنا أعلم أن فتنة قبلها وقعت فى الإسماعيلية قبل نزوح الأستاذ المرشد إلى القاهرة ، ولقد سمعت عن هذه الفتنة وقرأت كتيبا كان ضمن المطبوعات المهملة بدار المركز العام بشارع الناصرية .. وقد فهمت من قراءتى لهذا الكتيب أنها كانت أسلوبا مألوفاً مكروراً يحدث فى كل مجتمعاتنا حين يبعث الحقد بعض ذوى النفوس الضعيفة على الكيد لرجال أحبهم الناس والتفوا حولهم .. ووجد هؤلاء الحاقدون أنفسهم أهون على الناس من أن يعيروهم اهتماماً فلم يجد هؤلاء إلا الكذب والافتراء والاختلاق أملا فى فض هؤلاء المحبين عن محبوبهم ، ورجاء تمزيق صفهم حتى يجدوا فى هذا التمزق راحة لنفوسهم ، وإرضاء لنزوات الحقد المشتعل فى قلوبهم... وأمثال هؤلاء قلما تتحقق آمالهم بل سرعان ما ينكشف زيفهم ، ويفتضح أمرهم ، وينقلبوا خاسرين دون أن تمس الدعوة بأذى أو ينتقص منها شىء وهذا هو ما حدث فعلا فى الإسماعيلية .

أما هذه الفتنة فهى نوع آخر ، مثلها ومثل سابقتها كمثل بيت معمور بالسكان شبت النار خارجه ومدت ألسنتها نحوه ، فتنبه الناس من خارجه ومن داخله يكافحونها حتى أخمدوها دون أن تنال من البيت شيئا ، وبعد فترة من الزمن شبت نار من داخله ولم يحس بها السكان إلا بعد أن استشرت وتأججت بما أتت عليه مما جاورها من أثاث ، فقام أهل البيت يوقظ بعضهم بعضاً ليتعاونوا على مكافحتها بعد أن كادت تأتى على ما بالبيت كله ، فكان على أهل البيت وحدهم عبء مكافحتها لأن أحداً ممن هم خارج الدار لا يعلم شيئاً عما يعانيه أهل البيت...وكان الأدهى والأمر أن عدداً كبيرا من سكان البيت رفضوا التعاون مع المكافحين مستمرئين ما يصل إليهم من دفء بعثته النيران فيهم قبل أن تصل إليهم بلهيبها ، فصارهم المكافحين همين هم مكافحة النار وهم ركل هؤلاء المستمرئين بأقدامهم حتى يتحركوا قبل أن تأكلهم النيران .

لم تنشأ هذه الفتنة عن فساد فى النفوس ، أو ضعف فى الأخلاق ، أو استهتار بالدين ، ولا عن تسابق إلى مغانم أو تلهف على عرض من أعراض الدنيا .. وإنما نشأت بين مجموعة بلغت

نفوسها من الصفاء درجة الشفافية ، وسمت أرواحهم حتى حلقت مع الملائكة ... لا أعتقد أنه كان على وجه الأرض فى ذلك الوقت قوم أصفى نفوساً ولا أنقى قلوباً ولا أعلى هماً ، ولا أشد حباً للإسلام ولا أسمح بالنفس والمال فى سبيله من هذه المجموعة التى أوقدت نار هذه الفتنة وكانت هى وقودها .

وليس أشد على دعوة من الدعوات أو مجتمع من المجتمعات ، من فتنة تنشأ من داخله .. إنها الخطر المدمر الفتاك ، الذى إذا نجح ينسف المجتمع نسفاً ويذره قاعاً صفصفاً .

ولقد هوجمت الدولة الإسلامية ، وتألبت عليها الأمم من كل جانب ، وتناسى المختلفون من الأعداء اختلافاتهم وجمعوا قوتهم ليضربوا الأمة الإسلامية ضربة رجل واحد ، فما نال كل ذلك من صلابة قناتها ولا أوهن من عزمها ولا انتقص من سلطانها ... ولكن الذى فعل بالدولة الإسلامية الأفاعيل ، وأوقف المد الإسلامى الذى عجز الأعداء عن وقفه هو تلك الفتن التى نشأت بين الحين والحين من داخل الدولة .

وقد تنشأ هذه الفتن الداخلية عن حسن قصد أو سوء نية إلا أنها تتساوى فى نتائجها المدمرة وفى أخطارها التى تصعب الإحاطة بها .

أما فتنتنا هذه التى نحن بصدد الحديث عنها فإنها كانت فتنة داخلية منبعثة من حسن قصد ، وصادرة عن قلوب لا يشك فى إخلاصها ... وكان الأستاذ المرشد كثيراً ما يحذرنا من مداخل الشيطان الخفية إلى قلوب الصالحين ، ومن افتنانه فى الاحتيال على هذه القلوب فيدفع بها إلى المغالاة فى الخير مغالاة تخرج بها من حدود الخير وتلقى بها فى بحار الشر ، ويذكرنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»

كانت الدعوة فى تلك الحقبة من الزمن فى أزهى أيامها ، تشق طريقها فى جميع البيئات والأوساط كما تشق السفينة البحر الهادئ والريح رخاء ، كل يوم تخرج بربح من رجال وشباب يقبلون على الدعوة ويبايعون عليها ... وكادت الدار — على سعتها — تضيق بالوافدين ، وأصبح للدعوة صوت مسموع فى جميع القضايا سواء على المستوى المصرى والمستوى العربى الإسلامى ، وصدرت رسالة «نحو النور» تعالج كل هذه القضايا علاجاً واضحاً عملياً لا لبس فيه ، وكأن الدعوة كانت تتهيأ لتأخذ مكانها القيادى .

بينما نحن فى ذلك إذ بمجموعة من أطهر الإخوان قلباً تستوقف هذا الركب السائر لتوجه إليه حديثاً ، فوقف الركب يستمع فإذا بالأخ أحمد رفعت يعترض على كل ما تتخذه الدعوة من

أساليب ، ويدعو الإخوان إلى أساليب أخرى ... ولم ير الإخوان فى هذا الاعتراض ما يلفت النظر فلكل أخ الحق فى نقد ما يرى أنه يستحق النقد وتنشأ عن هذا النقد مناقشة بين الاطراف تنتهى إلى الطريق الأقوم . وفى هذا كسب كبير للدعوة ونماء وثراء .

ولكننا حين أخذنا فى مناقشة أحمد رأيناه جانحاً – على غير عادته – إلى التعصب لرأيه ، رافضاً الاستماع إلى حجج من يناقشه ثم رأينا مجموعة من حوله تتعصب لأحمد وتكاد تهدد من يعارضه ، وبدا لنا أحمد فيمن حوله كأنما هو شيخ حوله مريدوه يأمر فيهم وينهى وهم يسارعون فى مرضاته... ومع كل هذا لم نعر الأمر اهتماماً خاصاً وانطلقنا فى طريقنا ولكننا رأينا بعض من كان ينطلق معنا من جنود قد توقفوا ليسيروا فى ركاب أحمد ... ورأينا أحمد ومجموعته لا يدعون اجتماعاً عاماً أو خاصا ينعقد فى الدار إلا وفرضوا أنفسهم عليه وتحدث فيه أحمد بالأسلوب المهاجم الذى لا يقبل مناقشة ولا معارضة ، فتعطلت بذلك الاجتماعات والدروس حتى محاضرة الثلاثاء .

ورأيت الأستاذ المرشد مهموماً وحاولت مواساته فطلب إلى أن أحاول إقناع أحمد ، لأن الأستاذ كان يعلم أن لى مكانة خاصة فى نفس أحمد ، فجلست إلى أحمد وحاولت إقناعه لكننى لاحظت أنه يعاملنى كأنما لم يعرفنى من قبل ، بل أحسست كأن المجموعة التى حوله تحاول التحرش بى ، فأخبرت الأستاذ المرشد بما كان من أمره معى ، فازداد الأستاذ هماً وحزناً وطلب إلى لأول مرة منذ بايعته أن أكون بجانبه فى هذه المحنة ، وأن أبدأ بإعداد كلمة ألقيها فى اجتماع الكتيبة الأولى ، ففعلت وكانت كلمة تدور حول جمع الكلمة ونبذ ما يدعو إلى الفرقة ، وأن الاجتماع على نصف الحق خير من التفرق على الحق كله وتمثلت فى ذلك بقول على كرم الله وجهه «كدر الجماعة خير من صفو الفرد» وكان لهذه الكلمة تأثير فى مجموعة من إخوان الكتيبة حصنتهم من أن ينجرفوا فى تيار الفتنة .

والظاهرة العجيبة التى لاحظتها هى أن دعوة أحمد رفعت كانت تلقى من كثير من الإخوان آذاناً صاغية واستجابة سريعة ، ولا أدرى أكان هذا لقوة حجته وبراعة إقناعه ، أم لأن دعوته المتطرفة صادفت فترة كان الإخوان فيها فى حالة جلوة روحية نتيجة النظام التربوى العنيف الذى أخذهم الأستاذ المرشد به فى تلك الأيام فكانوا يتمنون أن يجدوا من يدعوهم إلى تخطى رقاب الزمن ليحققوا ما احتبس فى صدورهم من آمال ، فلما كادوا يسمعون أحمد رفعت حتى وجدوا دعوته صدى لما يتردد فى جنبات نفوسهم فأقبلوا عليه .

مطالب أحمد رفعت :

وعقد الأستاذ المرشد جلسة ضمت صفوة الإخوان وتحدث ما شاء الله له أن يتحدث ثم دعا

أحمد رفعت ليحدد اعتراضاته على الإخوان ومطالبه التى يريدها فقام أحمد وحدد اعتراضاته ومطالبه فى ثلاثة بنود :

الأول : أنه يرى أن الإخوان تجامل الحكومة وتتبع معها سياسة اللف والدوران ويجب على الإخوان أن يواجهوا الحكومة بالحقيقة التى قررها القرآن فى قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون »

الثانى : موضوع المرأة وإلزامها حدود الإسلام فى عدم التبرج والاحتشام ، يرى أحمد أن الإخوان لم يتخذوا إجراء-ما فى شأنه مكتفين بدعوة المرأة إلى ذلك بالنصيحة والكلام دون العمل . ويرى أحمد أن يسلك الإخوان بصدد هذا الأمر الخطير مسلكاً عملياً بأن يوزع الإخوان أنفسهم فى شوارع القاهرة ومع كل منهم زجاجة حبر كلما مرت أمامه فتاة أو امرأة متبرجة ألقى عليها من هذا الحبر حتى يلطخ ملابسها فيكون هذا رادعاً لها .

الثالث : موضوع فلسطين : يرى أحمد أن وقوف الإخوان فى مساعدة مجاهدى فلسطين عند حد الدعاية لهم وجمع المال لهم هو تقصير فى حق هذه القضية وقعود عن الجهاد وتخلف عن المعركة وعلى الإخوان أن يتركوا أعمالهم ويتطوعوا فى صفوفهم وإلا كانوا من الخالفين .

وتصدى بعض الحاضرين للرد على أحمد فى الاعتراضين الأولين فقالوا :

إن مواجهة الحكومة يجب أن لا تكون إلا بعد توفر عاملين :

١ — توعية الشعب بالحقائق الإسلامية التى لا زال حتى اليوم خالى الذهن منها ، ولا زال الشعب يجهل علاقة الإسلام بالحكم وعلاقة الإسلام بالتشريع — ونحن لولا اتصالنا بدعوة الإخوان ما فهمنا هذه المعانى .

٢ — اكتساب الدعوة قوة شعبية تستند إليها إذا ما أرادت مواجهة الحكومة ، ولازالت الدعوة حتى اليوم دعوة وليدة فى حاجة إلى تثبيت لدعائمها وبسط لرواقها .

والمواجهة بغير توفر هذين العاملين لن تكون إلا انتحاراً لا نتيجة له ولا جدوى من ورائه .

أما موضوع المرأة فكان ردهم عليه هو أننا لو أخذنا باقتراح الأخ أحمد لكانت النتيجة فى اليوم الأول للأخذ بهذا الأسلوب أن يلقى القبض على جميع الإخوان ويجرى معهم التحقيق ويودعوا السجون حتى يحاكموا أمام القضاء الذى يقضى بمعاقبتهم بالسجن والغرامة وإذا قضوا العقوبة وعادوا إلى نفس الأسلوب فإن العقوبة تضاعف ، ومادامت التى لطخت ثيابها ستعوض ثمن هذه الثياب مضاعفاً من جيوب الإخوان ثم ترى الذى لطخ ثيابها قد أودع السجن فما الذى يمنعها

من لبس ما كانت تلبسه وإذن فلا جدوى من وراء هذا الأسلوب فى ردع المتبرجات وكل الذى نجنيه هو إلقاء شبابنا فى السجون وتعطيلهم عن الدراسة وقد يكون فى تلك الأحكام قضاء على مستقبلهم .

أما موضوع فلسطين فكان الأستاذ المرشد قد اتصل فى شأنه بالسيد أمين الحسينى مفتى فلسطين فرد على الأستاذ المرشد بخطاب قرأه علينا فى هذا الاجتماع وفيه يقول سماحة المفتى :

«إن المجهود الذى يبذله الإخوان فى الدعاية لقضية فلسطين فى مصر هو القدر المطلوب والذى نحن فى أمس الحاجة إليه ولا يستطيعه غيرهم ، ولسنا فى حاجة إلى متطوعين » .

والعجيب الذى لا أزال أذكره أن بعض عقلاء الإخوان رأيتهم يقفون فى هذا الاجتماع ويتحدثون تأييداً لأحمد رفعت بعد أن اقترح هذه الاقتراحات وأذكر منهم الأستاذ عيسى عبده الذى كان موقفه هذا صدمة شديدة للأستاذ المرشد الذى ما كان يتصور منه هذا الموقف .

وانتهى هذا الإجتماع وقد ازداد عدد مؤيدى أحمد ، ولعل ذلك قد بعث فى نفسه شيئاً من الغرور فبدأ يتحدى الأستاذ المرشد مباشرة ويوجه إليه ألفاظاً نابية ويخاطبه بأسلوب لا يليق به ثم أزدادوا تطرفاً فصار هو وشيعته يسبون الأستاذ المرشد ويوجهون إليه الشتائم مما أثارنا وأخرجنا عن طورنا وحاولنا مواجهتهم بشىء من العنف ولكن الأستاذ المرشد غضب وحال بيننا وبين ما نريد وأبى علينا أن ننالهم ولو بكلمة تؤلمهم ، ومع ذلك فلم يخجلوا أمام هذا النبل بل كانوا يضاعفون من سفاهتهم .

ولا يفهمن القارىء من قولى إن عدد مؤيديهم قد كثر أن قد صار معهم أكثر الإخوان ، فالكثرة الغالبة من الإخوان فى القاهرة كانت كلها فى موقف المستاء من تفكير هذه الفئة ومن تصرفاتهم ولكنهم كانوا يرون الأستاذ المرشد يحميهم من بطش الإخوان بهم فكانوا فى حيرة من أمرهم فكان الأخ من هؤلاء الإخوة الكرام إذا جاء كعادته إلى دار المركز العام تلقاه أفراد هذه الفئة فإما التزم بفكرهم وإلا أسمعوه مايكره من سبه وسب الأستاذ المرشد ورميهم بأقذع التهم ، حتى كره الإخوان أن يحضروا إلى المركز العام حتى خلا المركز العام لهذه الفئة لا يشاركهم فيه أحد سواى تقريباً حيث كنت حريصاً على الحضور كل ليلة لأكون بجانب الأستاذ كما طلب إلى .

موقف مؤلم ومدمر لا نحسد عليه ؛ فلا نحن بمستطيعين تحديهم تحدياً مباشراً خوفاً من أن يدخلوا معنا فى معارك بالأيدى والأرجل كما بدا منهم أكثر من مرة ، ولا نحن بمستطيعين منعهم من شتم الأستاذ وسبه، ولا نحن بمستطعين أن نقنع الأستاذ برفع حمايته عنهم أو الإقلال من حنوه عليهم وعطفه نحوهم .

توقف كل شيء في المركز العام :

مامعنى هذا ؟ المركز العام للإخوان المسلمين تتوقف فيه الحركة توقفاً تاماً فلا جلسات للهيئات الإدارية تعقد ولا اجتماعات للجوالة ولا اجتماعات للكتائب ولا محاضرات الثلاثاء ولا اجتماعات للطلبة ولا للعمال ، وينقطع جميع الإخوان عنه ، حتى إخوان الأقاليم إذا حضر وفد منهم حالت هذه الفئة بينهم وبين مقابلة الأستاذ المرشد وينصرفون دون مقابلته — وهو موجود بمكتبه بالدار — بعد أن يسمعوا ما يكرهون من سبهم وسب أستاذهم ويغادرون الدار باكين .

لابد من وضع نهاية لهذا العبث ولابد من التفكير في عمل ولابد من التفكير في حل .

الحل :

لقد وصلت إلى حل ، لكن هذا الحل متوقف نجاحه على قبول الأستاذ المرشد بفكرة انقطاعه تماماً عن المركز العام . وذهبت إلى الأستاذ وقلت له : ياأستاذ إن هذه الدعوة دعوتنا جميعاً وإنى أطالبك باسم جميع الإخوان الذين لا زالوا على العهد والبيعة أن تنقطع عن المركز العام منذ اليوم انقطاعاً تاماً .

قال : لماذا ؟... قلت لأن خطة قد وضعت لمقاومة هؤلاء الخارجين . والخطة تقتضى أن لايجد هؤلاء الحنان والحماية اللتين لا تستطيع أن تتخلى عنهما فى معاملتهم . قال : ولكنى لا أقبل أن يصاب أحد من هؤلاء الإخوة بأذى مهما قالوا . قلت : نعطيك الكلمة على أن لا نمسهم بأذى . قال مادام انقطاعى عن المركز العام يعين على القضاء على هذه الفتنه فأنا عند رأيكم .

هل هو تسام أم انحدار إلى الحضيض : ؟ :

لقد كان حنو الأستاذ عليهم ، والتزام صفوة الإخوان بيوتهم ، وتفرد هؤلاء الخارجين بنشر فكرتهم عن طريق المركز العام دون مقاومة ، واكتسابهم كل يوم أفراداً من الإخوان الحديثى العهد بالدعوة ، كان كل ذلك مغرياً لهم بالتمادى فى ضلالهم ، والتغالى فى انحرافهم ، حتى وصل بهم الغرور إلى الحد الذى أدعى فيه أحمد رفعت أنه يتلقى تعليمات وأوامر تلقياً مباشراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ادعى أولا أنه عليه الصلاة والسلام يأتيه فى الرؤيا ويوجه إليه أوامره . وقد وجد من يصدقه فى ذلك ومنهم أفراد من أكرم الإخوان وأخلصهم فمنهم صديق أمين ومنهم محمد عزت حسن ومنهم حسن السيد عثمان .. وكانت هذه الأوامر والتعليمات كلها منصبة على أن الإخوان المسلمين قد تخاذلوا عن القيام بدعوتهم ، وأنهم خانوا الدعوة ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد اختار أحمد رفعت للقيام بأعباء الدعوة بالطريقة التى شرح لنا طرفاً منها .

ثم تعاظم به الغرور فادعى أنه يتلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاراً نهاراً فى تمام اليقظة ، ثم ادعى أنه صلى الله عليه وسلم يحضر معه الغداء ويتناول معه الطعام . ويتلقى منه الأوامر والتعليمات على المائدة .

ولماصار حسن السيد عثمان من مصدقيه ، والمؤمنين بخرافاته ؛ وكان حسن كما قدمت شاباً ميسورا الحال يسكن هو وإخوته الطلبة فى منزل فسيح وثير الأثاث ؛ فقد أفسح من بيته لأحمد ، وانقطع هو وأحمد وصديق من كلياتهم كما انقطع محمد عزت حسن عن عمله وحضر إلى القاهرة للإقامة معهم .

وكان مما أثارنى ، وحملنى على التفكير فى خطة حاسمة للوقوف فى وجه هذه الفتنة المتفاقمة ، أننى رأيت إخواناً كراماً من ذوى العقل والسبق والرزانة يحضرون هذه الجلسات فى منزل حسن السيد عثمان ، وعلمت أنهم كادوا يقعون فى حبائلهم بدليل توالى ترددهم على جلساتهم فى هذا المنزل ، ومن هؤلاء الإخوان الشيخ أحمد الباقورى .

تنفيذ خطة المقاومة :

لما قبل الأستاذ أن ينقطع عن المركز العام اعتبرت ذلك إيذاناً بنجاح الخطة ، وكانت الخطوة الأولى أن أحضرت كشفاً ، وكتبت فيه أسماء الإخوان الذين احتفظوا بإيمانهم بدعوتهم وقيادتهم ولزموا بيوتهم ، فوجهت إلى كل منهم دعوة لاجتماع بمنزل الأخ عبد الفتاح البساطى فى الجيزة .. وقد أستجابوا جميعا لحسن صلتى بهم – وانعقد الاجتماع وتحدثت إليهم عن تطورات الفتنة ، وما وصلت إليه،وعن قبول الأستاذ المرشد فكرة انقطاعه عن المركز العام وشرحت لهم شرحاً أقنعهم بأن التزامهم بيوتهم ، وتركهم المركز العام لهذه الفئة المخرفة ، إنما هو بمثابة إعانتهم على التمادى فى ضلالهم ، وأن حق الدعوة عليهم يقتضيهم ارتياد المركز العام كل ليلة لا يتخلف منا أحد .

ويجدر بى قبل الاسترسال فى تفصيلات هذا الاجتماع أن أستدرك فأشير إلى نقطة هامة اضطررت من أجلها إلى تأجيل موعد هذا الاجتماع أكثر من مرة حتى أستوفى بحثها ، فلقد أعددت لهذا الاجتماع العدة لسد كل ثغرة من ثغرات الشك قد تكون تطرقت إلى نفوس بعض من يحضرون ، فجمعت فى كلمتى من الآيات والأحاديث والحكم ووقائع التاريخ ما يقنع كل متردد ، إلا نقطة واحدة وقفت أمامها ساهما عاجزاً ، هى ادعاء هؤلاء رؤية النبى صلى الله عليه وسلم والتلقى عنه .

قد يكون من السهل الإقناع ببطلان ما يدعى هؤلاء المدعون أنهم تلقوه عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذا كان هذا الذى تلقوه يتعارض مع نص صريح من نصوص الشريعة الإسلامية .... ولكن إذا كان الذى تلقوه مما هودون ذلك من أمور يجوز فيها الخلاف كالوسائل والخطط التى تسلك للنهوض بأعباء الدعوة ، فإن الحكم ببطلان ادعائهم فى ذلك ليس أمراً ميسوراً .

وقد شغلتنى هذه النقطة وأقضت مضجعى ، وظللت دائب البحث عن رد مقنع وإجابة شافية تملأ النفس وتزيل الحرج حتى أراد الله — وإذا أراد الله شيئاً يسر أسبابه — فقد كنت فى زيارة أخ كريم من إخواننا الطلبه الصالحين بكلية الصيدلة هو الأخ عبد المنعم أبو الفضل ، وكان والده من كبار العلماء ، فبينما أنا أعبث فى مكتبة والده التقطت كتاباً وتصفحته فوقع نظرى عفواً على عنوان الموضوع الذى يشغل بالى فقرأته بتلهف فوجدت فيه طلبتى وكل بغيتى ، فالمؤلف يقول إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً — فإن الشياطين لا تتمثل بى» حديث صحيح لا شك فيه ، ولكن هذا الحديث موجه إلى فئة معينة هى فئة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم دون غيرهم ، لأنهم هم وحدهم الذين رأوا رسول الله صلى عليه وسلم رأى العين وفى مخيلتهم صورته الحقيقية ، وهم بذلك الذين يستطيعون إذا رأوا فى منامهم من يدعى أنه رسول الله أن يحكموا هل هذا المدعى صادق أم كاذب ... أما من سوى هؤلاء الصحابة ممن لم يروا النبى صلى الله عليه وسلم رأى العين فإنهم إذا جاءهم فى المنام من يدعى أنه رسول الله فكيف يحكمون بصحة ادعائه وليس فى مخيلتهم صورته صلى الله عليه وسلم الحقيقية ؟

وكان هذا الكتاب هو كتاب «الاعتصام» للإمام الشاطبى .. وقد جعلنى ما قرأت من تحليل هذا الرجل لهذا الحديث أزداد إيماناً بأن فى سلفنا الصالح رضوان الله عليهم عباقرة . وقد رتب الرجل على هذه المقدمات نتائج ملخصها الحكم ببطلان كل ما يأتى عن طريق هذا الادعاء .

أثلج صدرى وقوعى على هذه الدرة الثمينة ، وأحسست بأن الله تعالى معيننا على ما نحن بسبيله ، وضاعف ذلك من همتى ، وانعقد الاجتماع كما قدمت ، وأثرت هذه النقطة وأوردت قول الشاطبى فيها ، ولقد شعرت بأن إثارتها وإيراد الرد عليها قد أزال حرجاً كان يتردد فى النفوس ولم يكن بد من إزالته . وانتهينا فى هذا الاجتماع إلى مقررات محددة هى :

أولا : الاعتقاد بأن أحمد رفعت ومجموعته ومن يلوذ بهم على خطأ

ثانيا : تعهد كل فرد من المجتمعين بارتياد المركز العام كل ليلة حسب النظام الذى سيوضع لذلك

ثالثا : التعهد بعدم مس أحد من مجموعة أحمد رفعت بأى نوع من الإيذاء

رابعا : تعهد كل فرد من المجتمعين منذ اليوم بمقاطعة أحمد رفعت ومجموعته مقاطعة تامة بمعنى

أن لا يلقى عليهم السلام وأن لا يرد عليهم السلام إذا ألقوه عليه ، وأن لا يتحدث إليهم ، وأن لا يرد عليهم إذا وجهوا إليه حديثاً ، وأن لا يغير هم سمعه ، وأن لا يومئ إليهم ولو بإشارة حتى إذا شتموه لا يرد عليهم .

خامسا : كل من يرتاد منزل حسن السيد عثمان – حيث يقيم أحمد رفعت – يسري عليه نظام المقاطعة

سادساً : تكوين لجنة – كنت أحد أعضائها – تكون مهمتها تنفيذ هذه المقررات – وإذا رأت هذه اللجنة أن أحد الإخوان أخل بهذه المقررات قدمته إلى لجنة أخرى تناقشه وتحدد موقفه وتعلنه حتى يعامل على أساس موقفه المعلن .

سابعا : يجدد المجتمعون البيعة للأستاذ المرشد على مبادئ الدعوة وعلى الطاعة في المنشط والمكره وعلى تنفيذ هذه المقررات .

وقد أعد محضر سجل فيه كل ما دار في هذا الاجتماع من كلمات ومناقشات وما انتهى إليه من مقررات ، ووقع جميع الحاضرين عليها ، وقد رفعته إلى الأستاذ المرشد في بيته .

ومنذ ذلك اليوم بدأ تنفيذ نظام المقاطعة ، وقسمنا الإخوان على أيام الأسبوع السبعة بحيث يحضر كل يوم عدد محدد حتى يتمكن الإخوان من الجمع بين تنفيذ المقررات وبين قضاء مصالحهم من مذاكرة وغيرها .

وكان مشهداً رائعاً ومؤلماً معاً حين يدخل أحمد رفعت وخلفه مريدوه إلى المركز العام فيجدوه غاصاً بالإخوان – على غير ما اعتادوا – فيلقون السلام فلا يرد عليهم أحد ، فيكررون إلقاء السلام فلا يتلقون رداً ، فيجلسون ويتوجهون نحو هؤلاء الإخوان بالشتائم فلا يردون عليهم .. ثم يدخل رواد من الإخوان حديثي العهد بالدعوة فيتلقاهم إخواننا مرحبين ويبلغونهم المقررات التي اتخذت في الاجتماع وبأن الأستاذ المرشد أقرها فيلتزم هؤلاء الرواد بنظام المقاطعة ويرجع هؤلاء إلى زملائهم وأصدقائهم من الإخوان في كلياتهم ومعاهدهم ومكاتبهم فيبلغونهم ما بلغوا ، ومن أراد من هؤلاء أن يشهر في وجه الخارجين سلاح المقاطعة حضر إلى المركز العام ليشترك مع المكلفين بالحضور ، وامتنع الباقون عن الحضور إلى المركز العام خوفا من أن يحرجهم الخارجون فيردوا عليهم محرجين أو مجاملين فيقعوا تحت طائلة المقاطعة .

وبذلك استطعنا أن نخلي دار المركز العام بعد أيام إلا منا ومنهم ، وصرنا وجهاً لوجه ، فيجلسون الساعة والساعتين لا يجدون من يتحدث إليهم ولا من يتحدثون إليه ، ويبحثون عن الأستاذ المرشد فلا يجدون له أثراً .

وتكرر هذا نحو ثلاثة أسابيع شعر هؤلاء الخارجون بعدها أنهم قد عزلوا عزلا كاملا عن المجتمع بل عن الحياة نفسها ... وبدأ الذين كانوا يلعبون على الحبلين من الإخوان ، والذين

اتخذوها لعباً ولهواً يشعرون أن نظام المقاطعة الذى هادنهم فترة فى أول الأمر قد اقترب منهم وكاد يطبق على أعناقهم فانسحبوا من الموكب الذى طالما عززوه وصفقوا له ، وكانوا سبباً فى إيغال قائده فى الضلال ، انسحبوا منه مكرهين ولزموا بيوتهم ...

ووجد أحمد رفعت وحواريوه أن من كانوا حولهم أخذوا فى الانفضاض عنهم ، حتى لم يبق حولهم أحد ، فاضطروا إلى عدم الحضور إلى المركز العام ، الذى صار بالنسبة لهم سجناً .. ومحاولة منهم فى البحث عن مجتمع قد يجدون فيه تفريجاً لكربهم ومجالا لنشر آرائهم رضوا بما كانوا يرفضونه من قبل ، وهو الرجوع إلى كليتهم كلية التجارة التى كانوا يرون أنفسهم أعظم من أن ينتظموا طلبة فيها ، وكيف لا وقد أصبحوا أنبياء أو أقرب إلى الأنبياء .

وقد خاب رجاؤهم حين دخلوا الكلية فوجدوا طلبتها يصدون عنهم صدوداً حيث كان إخواننا الكرام بالكلية ملتزمين بنظام المقاطعة وكانوا قد أعطوا زملاءهم الطلبة صورة كاملة عن أفكار أحمد وزمرته وخرافاتهم ..

حينئذ وجد أحمد نفسه حبيساً فى بيت حسن السيد عثمان وليس معه إلا صديق أمين ومحمد عزت حسن لا أحد غيرهم يطرق عليهم البيت بالليل ولا بالنهار ، فأصيب أحمد بما يشبه الجنون . حتى رق إلينا له ولمن معه ، وبعثت إليهم من يعرض عليهم الصلح على أن يرجعوا إلينا تائبين ، معلنين توبتهم ، فاختلفت إجاباتهم ، أما صديق فإنه جاء إلينا وأعلن توبته ، وأما حسن السيد عثمان فإنه أعلن أنه سيلزم بيته غير متعرض للدعوة بشر ، وأما محمد عزت حسن فلا أدرى ما كان من أمره غير أنه قد اختفى اسمه من مجتمع الدعوة منذ ذلك اليوم ويقال إنه ظل متابعاً لأحمد .. وأما أحمد فقد عز عليه أن يرجع إلى الصف ويعلن توبته بعد أن صور له الوهم وأوهمه من حوله - وجنوا عليه - أنه يوحى إليه ...

قرر أحمد السفر إلى فلسطين لينضم إلى المجاهدين فى محاربة الإنجليز واليهود ... ولما علمنا بعزمه هذا أرسل إليه الأستاذ المرشد وطلب إليه الحضور ليجهزه بالمال والسلاح ، ويسلمه إلى مجموعة من المجاهدين الفلسطينيين الذين كانوا يتصلون بنا حتى يؤمنوا له الطريق ، لأن المجاهدين يشكون فى كل من يرونه فى طريقهم - ماداموا لا يعرفونه - ويعدونه جاسوساً عليهم ويقتلونه فرفض أحمد طلب الأستاذ المرشد وأصر على الذهاب وحده ، وذهب فعلا ، ولقى مصرعه كما كنا نتوقع على أيدى المجاهدين .

ولعمرى لقد فعل أحد رفعت ما فعل ، ولكن قلوبنا لا تزال إلى اليوم تتقطع وتتفطر حزناً عليه فلقد كان شاباً نادر المثال ولكنه ضل الطريق .

خاتمة :

استغرقت هذه الفتنة منذ كانت بصيصاً تحت الرماد حتى قضى عليها قرابة نصف عام كانت الدعوة فى خلاله ، عرضة للانتهاء والزوال ، ولكن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ... صحيح أن الدعوة توقفت توقفاً تاماً فترة تزيد على الشهر ، وهى الفترة التى كان لابد من احتجاب الأستاذ المرشد فى بيته خلالها ، ولكنها خرجت منها أقوى مما كانت ، واكتسبت من تجربتها هذه فوائد كانت لها عوناً فى أيامها التالية .

كان مما تعلمته الدعوة من هذه التجربة أن اتخاذ الحماس مقياساً تولى على أساسه الثقة للفرد المتحمس أمر يجب أن يعاد فيه النظر ، فالحماس مع السطحية فى فهم كتاب الله وتاريخ الدعوة الإسلامية والخبرة بواقع الحياة أمر من الخطورة بمكان ، فإن هذه السطحية تجعل من الحماس منحدراً إلى الحضيض ، وإن خيل لصاحبه أنه مرق فى السماء ، فأحد لم يكن له قبل الانضمام إلى الدعوة أدنى معرفة بالإسلام ولا بالقرآن ولا بالسيرة ولا بالتاريخ الإسلامى ، وحين اقتنع بالفكرة الإسلامية انقض عليها بحماس بالغ ، وقبل أن يتزود بكل معالم الطريق اندفع اندفاعاً غير بصير فاصطدم وتحطم وكاد يحطم معه الدعوة

وكان مما تعلمته الدعوة أيضا من هذه التجربة أن اللين وإن كان هو الصفة التى يجب أن تتحلى بها القيادة فى كل أطوارها ، فإن هناك مواقف تحتاج إلى الحسم ، ولما كان الحسم يتعارض مع اللين فكان من كياسة القائد حينئذ أن يتوارى ويخلى الطريق لغيره —وقد يكون هذا الغير أصغر منه ولكن لا يفل الحديد إلا الحديد ، وترك الطابة يتفاعلون كان أجدى من تدخل القيادة بينهم

وكان مما تعلمته الدعوة كذلك أن الدعوات يجب أن نكون أشد حذرا على نفسها من أتباعها المقربين منها على نفسها من أعدائها الخارجيين ، فان أتباعها أقدر على إصابتها فى مقتل .

ولقد كنت سجلت كل ما قلته وما تحدثت به وكل ما خطر ببالى فيما يتصل بهذه الفتنة وكل ما اتخذناه من أساليب لمعالجتها فى كشكول ، دونت فيه كل المقررات وأسماء المبايعين عليها وتوقيعاتهم وآثار تلك المقررات وأودعته أحد الإخوة الكرام الذين كانوا معنا فى ذلك الوقت ولا

أدرى ألا يزال هذا الكشكول موجوداً أم عدا عليه ما عدا على غيره من غارات المباحث العامة التى لم تكن تنقطع .

وقد تكون خير خاتمة لهذه التجربة القاسية أن أثبت هنا ما جاء على لسان الأستاذ المرشد بصددها فى خطابه الجامع الذى ألقاه فى المؤتمر الخامس تحت عنوان : مصارحة :

«أيها الإخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم : اسمعوها منى كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر فى مؤتمركم هذا الجامع – إن طريقكم هذا مرسومة خطواته ،موضوعة حدوده ولست مخالفاً هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ، أجل قد تكون طريقاً طويلة ولكن ليس هناك غيرها – وإنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال ، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات ، ومن صبر معى حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة وتصلح الثمرة ويحين القطاف فأجره فى ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون : ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول . وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق فى أضواء الخيال الزاهية البراقة ، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة ، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هى منكم ببعيد .

أيها الإخوان المسلمون: إنكم تبتغون وجه الله وتحصيل مثوبته ورضوانه ، وذلك مكفول لكم مادمتم مخلصين ، ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال ولكن كلفكم صدق التوجه وحسن الاستعداد ، ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين ، وإما مصيبون فلنا ضعف أجر الفائزين المصيبين ، على أن التجارب فى الماضى والحاضر قد أثبتت أنه لا خير إلا فى طريقكم ، ولا إنتاج إلى مع خطتكم ، ولا صواب إلا فيما تعملون ، فلا تغامروا بجهودكم ولا تقامروا بشعار نجاحكم واعملوا والله معكم ولن يتركم أعمالكم والفوز للعاملين «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم.»

خسائرنا فى هذه الفتنة :

إن فتنة كادت تودى بالدعوة ، مهما نصرنا الله عليها ، وأنقذنا من براثنها ، لا يمكن أن

نخلص منها دون خسائر ، ولسنا ننكر أنه كانت خسائر لكنها كانت فى أضيق الحدود ونجملها فيما يلى :

١ — خسرنا أحمد رفعت ومحمد عزت حسن وكانا أخوين عزيزين .

٢ — خسرنا عدداً من الإخوان الكرام ولكن خسارتنا إياهم لم تكن خسارة أبدية بل كانت خسارة مؤقتة فقد اختار هؤلاء الإخوة أن يلزموا بيوتهم لأنهم كانوا لا يزالون فى شك من أن الدعوة تسلك طريق القوة والجد الذى ينبغى أن تسلكه الدعوة الإسلامية .. ولقد لزموا بيوتهم فعلا ردحاً من الزمن حتى أثبتت لهم الأيام أنهم كانوا على خطأ حين تعجلوا مواقف قبل أوانها ، وقد دارت الأيام وواجهت الدعوة المواقف التى تعجلوها ولكن بعد أن ثبتت أركانها ، وتعمقت فى قلوب الناس جذورها ، فخرجوا من بيوتهم ولحقوا بالركب مرة أخرى وكان منهم حسن السيد عثمان وعيسى عبده

٣ — خسرنا مجلة «النذير» لأن صاحب امتيازها تخلف عن الركب ، ومع أن المركز العام للإخوان المسلمين هو صاحب الامتياز الحقيقى لهذه المجلة ، ولم يكن الأستاذ محمود أبو زيد إلا مجرد اسم اختير لأنه كان محامياً ولتتم الصورة الرسمية لإصدار الترخيص بالمجلة ، مع هذا رأى الأستاذ المرشد ترك المجلة له حين رآه متمسكا بالحقوق الرسمية

٤ — خسرنا عدداً قليلا من خيرة الإخوان على رأسهم الأخ محمد المغلاوى رحمه الله وكان محاسباً وأخا من العباد الذين يطيلون الصلاة ركوعاً وسجوداً وكان بينى وبينه مودة خاصة وحب عميق وقد صارحنى بأنه يكن لى ولإخوانى كل حب وتقدير ولكنه لا يستطيع الصبر على ما اختطته الدعوة لنفسها من أسلوب بطىء ومع ذلك فهى أحسن التكوينات الموجودة فى مصر ولذا فإنه سيحاول إنشاء تكوين جديد حثيث الخطى يتجاوب فى خطو سريع مع ما يجيش فى صدورنا وتضطرم به نفوسنا .

وقد صدق ما وعد وأسس تكوينا جديداً سماه «شباب محمد» وقد التقى فى آماله بآمال شخصية مسلمة هى شخصية الأستاذ حسين يوسف فكونا معاً هذا التكوين الجديد ، وانضم معهم مجموعة من الإخوان المتعجلين وأفراد آخرون

والأستاذ حسين يوسف رحمه الله كان مدرساً فى مدرسة الفنون التطبيقية ومع ذلك فإنه كان ناقما على ما جرت عليه هذه المدرسة من رسم الرجال والنساء عاريات وكتب فى ذلك الكثير من الاحتجاجات . وكان عضواً فى مجلس الجهاد الأعلى لمصر الفتاة ، وقد التقيت

به فى مدرسة الفنون التطبيقية حين كنت أحضر اجتماعات طلبة الإخوان بالمدرسة – وكان لنا بها شعبة قوية – فكان الأستاذ حسين يحضر هذه الاجتماعات ، ودارت بينى وبينه مناقشات وقد اقتنع بأن مصر الفتاة ينقصها عنصر الدين ولكنه يرى أن الإخوان المسلمين تعوزهم الجرأة .. ولذا فإنه ما كاد يلتقى بالأخ المغلاوى فكان وإياه كالمثل العربى الذى يقول «وافق شن طبقه» فنهضنا بإنشاء التكوين الذى يرضى ضمائرهما

ولكن هل حقق هذا التكوين الجديد آمالهما ... هذا ما أجاب عليه الزمن ، ولا داعى لأن نثبت هنا حكم الزمن وإجابته فكلنا نعرفها ، وما أيسر التحليق فى سماء الخيال وما أشق مواجهة الواقع ، وكم من خيالات محلقة طواها الزمن إذا ما حاولت النزول إلى ميدان الواقع .

الباب الثالث

في ميدان الحلمية الجديدة

في المبنى القديم

- سمات هذه المرحلة وخصائصها
- في البناء الداخلي
- في العمل الوطني في ظل الحرب العالمية الثانية

مقـدمة

مد جديد :

خرجنا من هذه المأساة الأليمة ، وفى القلوب جراح لا تندمل على مر الزمن ، لأنها تتصل بأخوة قلوب لا صداقة طريق ... ولم يكن مناص من استئناف المسير بعد هذا التوقف الطويل .. ودوى نداء القائد فسرعان ما استجاب الجنود ، ورأينا الدعوة تشق طريقها شقاً ما كانت تستطيعه من قبل ... وأحسست فى التفاف الإخوان حول قائدهم كأنما شعروا وأيقنوا أن دعوتهم وقد عبرت المحنة .. هى دعوة الحق .. ودعوة الحق جديرة بالتفانى فيها والبذل فى سبيلها ، فصار الإخوان ألصق بدعوتهم من ذى قبل ...

ورأينا الشباب . من كل مهنة ، ومن كل حى ، يتقاطرون على المركز العام أفواجاً يلتمسون طريق الله لإصلاح الناس ليلتزموه وليكونوا حماته والداعين إليه ... وكانت الظاهرة الجديدة أننا رأينا بابنا يطرقه طوائف من العمال والتجار وذوى المهن ، ولم يكن حتى قبيل المحنة يطرقنا إلا الطلبة وقلة من صغار الموظفين ، وهنا بدأت فكرة تكوين شعب ذات كيان حقيق فى أنحاء القاهرة ، وهو ما كان يتوق إليه الأستاذ المرشد من قديم .

العجيب حقاً..أن الدعوة خرجت من هذه المحنة وكأنما نشطت من عقال فالإقبال عليها من كل فج عميق ، والدار ضاقت بروادها ، واتجه فكر الأستاذ إلى البحث للمركز العام عن مكان آخر يتسع للنشاط الجديد .

الانتقال إلى الحلمية الجديدة :

اهتدى الأستاذ المرشد إلى دار فى ميدان الحلمية الجديدة ، وهى منزل كامل لاجزء من منزل كالمقرين السابقين فى الناصرية والعتبة ... وميدان الحلمية الجديدة يقع فى قلب القاهرة القديمة لكنه أجمل وأنظف حى فيها . والمنزل يطل على الميدان نفسه ويتكون من دورين أحدهما يقع نصفه تحت الأرض ونصفه الآخر فوقها ، والدور الآخر مما يسمونه «السلاملك» حيث تصعد إليه بصف من الدرج.وفوق هذا السلاملك سطح فسيح.ويلحق بالمنزل فناء واسع تقرب مساحته من مساحة المنزل كله ، وبجانب بوابة المنزل على يمين الداخل حجرة منفردة كأنها حجرة البواب

ولابد أن الله تعالى علم من مستقبل دعوته ما لم نكن نعلم ، فهيأ لها مكاناً ما كنا نحلم به وموقعاً وسطاً ، كما يسر للأستاذ المرشد سكناً قريباً جداً من هذا المكان ، وهو ما كان الأستاذ المرشد دائماً حريصاً عليه .

مرحلة جديدة :

كان الانتقال بالمركز العام من دار إلى أخرى مرتبطاً بالانتقال بالدعوة من مرحلة إلى مرحلة جديدة ، فكانت فترة الإقامة بدار شارع الناصرية مرحلة من مراحل الدعوة لها حدودها ولها خصائصها ولها سماتها كما بينا ، ثم كانت فترة الإقامة بدار ميدان العتبة مرحلة أخرى لها حدودها وسماتها الخاصة بها والمميزة لها ، ثم كان الانتقال إلى دار ميدان الحلمية إيذاناً بمرحلة جديدة لها سماتها ولها خطرها ... وكانت مراحل الدعوة فى نقلاتها الثلاث أشبه بالبادرة التى صارت شجيرة ثم غلظ عودها وأخرجت شطأها فآزرها وطال ساقها وألقت بفروعها ذات اليمين وذات الشمال .. نعم إنها بذلك قد اكتسبت ثباتاً وقوة لكن استطالتها وارتفاعها قد جعلها عرضة لمهب الرياح من كل اتجاه ، لقد كانت فى مرحلتيها الأوليين وهى بادرة ثم وهى شجيرة فى مأمن من أن تنال منها هبات الرياح ، أما فى هذه المرحلة وقد غلظت واستطالت وتفرعت وتشعبت فإنها صارت عائقاً فى طريق الرياح من أية ناحية هبت ، فعليها حينئذ أن توطن نفسها على استقبال صفعات الرياح وأن ترد عليها بمثلها أو أن تحاول تحاشيها بحركة ماكرة ماهرة .

كان حسن البنا يعلم كل هذا وهو يعد العدة للانتقال بالمركز العام من العتبة إلى الحلمية الجديدة ، وسترى إن شاء الله خططه التى وضعها منذ الشهور الأولى فى هذه الدار ما يدلك على أن كل هذه المعانى كانت فى خاطره .

لم يغب عن خاطر الأستاذ لحظة أن عدوه الطبيعى الذى يتربص به ، والذى عليه أن يواجهه فى كل لحظة إنما هو الإنجليز .. عدو قوى ماكر : واسع الحيلة ، حسن الاستعداد ، قادر على المواجهة لكنه يؤثر التستر وراء صنائع له من أهل البلد الذى يريد السيطرة عليه ... لم يغب عن خاطر الأستاذ أن عليه أن يواجه كل هذه الأساليب ، ولم يغب عنه أن صنائع الإنجليز فى مصر كثيرون ، وقد زودهم الإنجليز بمختلف وسائل السلطة ، وأن هؤلاء الصنائع بعد أن تربوا فى أحضان الإنجليز ، وتمرغوا فى خيرات بلادهم التى سلبها الإنجليز وخصوهم بها دون أصحابها ، أصبح هؤلاء الصنائع أشد عداوة لبلادهم من الإنجليز .

لم يغب شئ من هذا عن خاطره ، كما لم يغب عنه لحظة أن الإنجليز بوسائلهم الخاصة وبواسطة أذنابهم المصريين يراقبونه ويعدون عليه أنفاسه ، ويعدونه عدوهم الأصيل وعدوهم الوحيد ، لأنه هو وحده صاحب مبدأ وصاحب فكرة ، وهذا وحده كاف أن يجعله مصدر خطر عليهم ، فكيف وأن هذا المبدأ وهذه الفكرة إنما تقوم على أساس القرآن الذى لا يجتمع والظلم فى مكان واحد ، لابد أن يقضى واحد منهما على الآخر .

لقد عمل حسن البنا فى المرحلة السابقة كل جهده أن يتحدى الإنجليز تحدياً سافراً لفضح مظالمهم من ناحية ، وليلفت الأنظار إلى دعوته من ناحية أخرى . لأن دعوته كانت فى أمس الحاجة إلى وسيلة من وسائل الإعلام ليحس بها هذا الشعب الغافل ... أما فى هذه المرحلة فإنه لم يعد فى حاجة إلى وسائل إعلام فقد أحس الناس بالدعوة ، وأقبلوا عليها ، حتى امتلأت السفينة ولم يعد بين حافتها وبين الماء قيد شبر .. ودفعتها الرياح حتى وصلت إلى وسط البحر . وركبت أمواجه المتلاطمة ، وصارت مهمة القائد أن يحسن توجيهها ، وأن يحاول أن يتفادى ما يتدافعها من أمواج حتى تصل إلى مرفأ أمين . وعليه مهمة أخرى لابد أن ينهض بها فى وقت واحد مع مهمته الأولى ، تلك هى إعداد هؤلاء الركاب بحيث لا يأخذهم على غرة لصوص البحر وقطاع الطريق وما أكثر عددهم وأشد بأسهم .

سمات هذه المرحلة وخصائصها :

أرسى الأستاذ المرشد قواعد العمل فى هذه المرحلة على الأسس الآتية :

أولا : بدأت هذه المرحلة مع بدء اندلاع الحرب العالمية الثانية فى ١٩٣٩ ، وكان الاستاذ المرشد يرى أن الحرب العالمية تغير وجه العالم ، وتفعل فى سنواتها ما لا يتم فعله من تغيير فى مئات السنين ، فهى تختصر الزمن .. وعلى العقلاء الانتفاع بهذه الميزة قبل فواتها

ثانياً : ومن هنا فإنه يرى أن المرحلة التى يحتاج الإخوان فى قطعها إلى عشرات السنين ، يمكنهم – بالانتفاع بهذه الميزة – أن يقطعوها فى سنوات قلائل

ثالثاً : أن مواجهة الأعداء والخصوم بهيئة ضعيفة وتكوين هزيل مجازفة غير مأمونة بل إنها قد تؤدى بالفكرة الإسلامية إلى الزوال . فإذا أضفت إلى ذلك أن هذه المواجهة ستكون فى ظروف كلها ظروف استثنائية وكل المرافق مسخرة للمستعمر ، والمستعمر أعصابه على أشدها لأنه يخوض حرب حياة أو موت ، كانت المواجهة انتحاراً لا شك فيه ولا إفلات منه

رابعاً : كما أنه يرى أن انشغال المستعمر بالحرب ومن ورائه الحكومة المصرية ، فرصة للعمل للدعوة دون عوائق ، وعلى الإخوان فى هذه الحالة أن يكثفوا من جهودهم حتى ينجزوا أكبر قدر من العمل فى أصغر قدر من الزمن قبل أن تنتهى الحرب فجأة فيتفرغ هؤلاء – المستعمر والحكومة – للكيد للدعوة وبث العراقيل فى طريقها قبل أن تكون قد استكملت عناصر قوتها

خامسا : أنه يرى أن عناصر القوة التى يجب استكمالها فى أقرب وقت هى عنصران : التشعيب والتكوين . أما الأول فهو العمل على أن تصل الفكرة الإسلامية إلى كل فرد فى أنحاء

مصر وأن يصل صداها إلى البلاد العربية والإسلامية وأن يكون للدعوة شعبة في كل حاضرة ومدينة وقرية وعزبة في جميع أنحاء مصر . وأما التكوين فيكون بالعمل على ربط المنتمين إلى الدعوة معا بروابط من الأخوة والحب والتعاون في ظل أسلوب عمل من التربية البدنية والروحية والثقافية

سادساً : أنه في سبيل إنجاز هذا العمل الكبير . يجب على الإخوان - في خلال فترة الحرب أن يغضوا الطرف عن الشئون السياسية فيتجنبوا اتخاذ مواقف سياسية محددة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا مكتفين بالتعرض لما سوى ذلك من الشئون التربوية والاجتماعية والاقتصادية وإذا دهمهم موقف سياسي معين فعليهم أن يتفادوه وأن يطوعوه لخدمة هدفهم الكبير

سابعاً : أنه يرى أنه إذا سلك الإخوان هذا المسلك فإنهم سيفاجئون العالم بعد انتهاء الحرب بأقوى هيئة قادرة على المواجهة وقادرة على النهوض بأثقل التبعات ، ويستحيل على أية قوة في الأرض أن تقضي عليها ، لأنها تكون قد تركزت في النفوس ، واختلطت بالمهج ، وضربت بجذورها في الأعماق .

على هذه الأسس السبعة سار العمل طيلة سنوات الحرب ، وشقت السفينة طريقها في بحر هادئ كالحصير ، وكلما هبت عاصفة عمل القائد الماهر على تفاديها حتى وصلت إلى شاطئ الأمان فكانت هي السفينة الوحيدة التي وصلت في سلام بجميع ركابها الذين أقلعت بهم من أول الطريق وبأضعاف هؤلاء من ركاب السفن الأخرى التي أشرفت على الغرق في أثناء الطريق فمدت إليهم يد الإنقاذ فتعلقوا بها من كل جانب .

الفصل الأول
فى البناء الداخلى

التركيب البنائى للدعوة فى هذه المرحلة

حتى ماقبل هذه المرحلة لم يكن للدعوة تركيب بنائى بالمعنى الاصطلاحى المعروف ، وإنما كان هناك المركز العام فى القاهرة وفى الأقاليم شعب متناثرة ، وتتلقى هذه الشعب تعليماتها من المركز العام وكان المركز العام يخص نفسه بأساليب معينة فى التربية لايطالب الشعب بالقيام بمثلها مثل نظام الكتائب ، ونستطيع أن نجمل النظام البنائى الذى كان سائداً بأنه كان أقرب إلى النظام المركزى ...

فلما انتشرت الدعوة وعمت أنحاء البلاد وكثرت الشعب حتى لم تعد مدينة ولا حاضرة ولا قرية تخلو من شعبة كان لا بد من نظام بنائى جديد يسهل معه العمل وتتوزع فيه المسئولية وتتحدد به الحقوق والواجبات وتتيسر عن طريقه الاتصالات والمتابعة .

والخطوط الرئيسية للنظام البنائى الجديد هى :

أولا : المكاتب الإدارية :

اعتبر كل إقليم إدارى فى الدولة مكتباً إدارياً ومعنى هذا أنه صار للإخوان المسلمين فى كل عاصمة لمحافظة مكتب إدارى هو بمثابة المركز العام للإخوان فى أنحاء المحافظة فكل شعب المحافظة تابعة له وهو يشرف عليها ويصدر إليها التعليمات ويتابع تنفيذها . ومنوط به نشر الدعوة فى الأماكن التى لم تصل إليها الدعوة فى حدود المحافظة ، كما أنه مكلف بمعالجة ما يجد من مشاكل فى شعب المحافظة وعليه نقل النظم التربوية التى يضعها المركز العام إلى جميع هذه الشعب والإشراف على الأخذ بها كما أن عليه توضيح ما تتخذه الهيئات العليا للدعوة من قرارات للشعب التابعة له مع متابعة تنفيذ هذه القرارات .

ويتكون المكتب الإدارى من أعضاء مجلس الإدارة لشعبة عاصمة المحافظة مضافاً إليهم نواب الشعب الرئيسية فى المحافظة ، وعلى كل شعبة من شعب المحافظة المساهمة بجزء من ماليتها فى تكوين رصيد للمكتب الإدارى يخصص للانفاق منه على نشر الدعوة .

ثانياً : مجالس إدارات الشعب :

يدير شئون الدعوة فى كل شعبة مجلس إدارة يتكون من عدد من الإخوان ينتخبهم أعضاء الشعبة فيما بينهم ويرأس كل مجلس إدارة نائب الشعبة ، ومهمة مجلس إدارة شعبة عاصمة المركز مع شعب بلاد المركز هى نفس مهمة المكتب الإدارى بالنسبة لشعب عواصم المركز ، وهكذا تتسلسل القيادة وتتدرج المسئولية .

ثالثاً : المركز العام :–

تعتبر القاهرة كغيرها من المحافظات مكتباً إدارياً تتبعه شعب القاهرة ، وفى القاهرة أيضاً المركز العام للإخوان المسلمين وهو شىء آخر غير المكتب الإدارى للقاهرة فهو يتعامل مع المكتب الإدارى للقاهرة كتعامله مع أى مكتب إدارى آخر .

والمركز العام هو المقر الذى يجمع اللجان والأقسام التى تمثل أوجه النشاط التى يقوم الإخوان بمباشرتها أداء لحق الدعوة وتحقيقاً لأهدافها وهذه اللجان والأقسام هى :

لجنة الطلبة واللجنة الثقافية وقسم العمال وقسم الجوالة وقسم نشر الدعوة وقسم الكتائب والأسر وقسم الخدمة الاجتماعية وقسم الاتصال بالعالم الإسلامى وقسم الأخوات المسلمات .

ولكل لجنة من هذه اللجان ولكل قسم من هذه الأقسام فرع فى كل مكتب إدارى، تتلقى هذه الفروع تعليماتها من اللجنة الموجودة بالمركز العام وترفع إليها تقاريرها وتستعين بها فى تنفيذ برامجها ... وقد لا يكون لبعض الأقسام فروع فى المكاتب الإدارية لأن طبيعة مهمتها ترتبط بالقاهرة دون غيرها من البلاد مثل قسم الاتصال بالعالم الإسلامى .

قيادة الدعوة :

ويمثلها هيئات ثلاث هى :

أولا : الهيئة التأسيسية :

وهى الهيئة العليا للدعوة يناط بها رسم الخطوط الرئيسية لسياسة الدعوة ، ويرجع إليها فى كل ما يمس هذه السياسة أو ما يجد من أمور خطيرة أو ما يستدعى تعديلا فى هذه السياسة أو ما يتصل بكيان الدعوة من قوانين أو إجراءات أو تصرفات ... واجتماعها العادى مرة كل عام ولكن للمرشد العام دعوتها للاجتماع فى أى وقت يرى ضرورة لاجتماعها لعرض مسائل جوهرية عليهـــــا .

وقد تكونت هذه الهيئة أول ماتكونت فى سنة ١٩٤١ من مائة عضو اختارهم الأستاذ المرشد مراعيا فى اختيارهم الشروط الثلاثة الآتية :

١ – أن يكونوا من السابقين الأولين فى الدعوة .

٢ – أن يكونوا ذوى كفاءات ممتازة أو ذوى تضحيات بارزة ومن أهل الرأى

٣ – أن يكونوا ممثلين لمحافظات القطر ما أمكن .

وتعتبر الهيئة التأسيسية الجمعية العمومية للإخوان المسلمين ، ومن اختصاصها أن تنتخب من بين أعضائها لجنتين تكمل بهما هيئات قيادة الدعوة هما مكتب الإرشاد العام ولجنة العضوية .

ثانياً : مكتب الإرشاد العام :

ويتكون من اثنى عشر عضواً ومهمته تنفيذ السياسة التى أقرتها الهيئة التأسيسية وحددت خطوطها العريضة ، وإصدار القرارات فى مختلف شئون الدعوة ، تلتزم بتنفيذه المكاتب الإدارية وشعبها ... وهو يعتبر مجلس الإدارة للدعوة يمثلها أمام الرأى العام وأمام الجهات الرسمية

ثالثاً : لجنة العضوية :

وتتكون من سبعة أعضاء مهمتها اختيار الأعضاء الجدد للهيئة التاسيسية ، وتحقيق ما يثار حول أعضاء هذه الهيئة وإصدار القرارات فى شأنهم ... وقد رأى الأستاذ المرشد أن أكون عضواً فى هذه اللجنة لما يعلم من صلتى بالكثيرين من قدامى الإخوان وحديثيهم فى القاهرة وغيرها من البلاد ، ولهذا فقد طلب إلى أن أكون بجانبه عند اختياره للأعضاء المائة ليكونوا أعضاء الهيئة التأسيسية حتى يكون ذلك نبراساً لى عند اختيار أعضاء جدد عن طريق لجنة العضوية فيما بعد . على أن أعضاء الهيئة التأسيسية لم يزد عددهم حتى منتصف الخمسينيات عن مائة وخمسين عضواً مع أنه كان من حق لجنة العضوية قانوناً اختيار عشرة أعضاء جدد كل سنة ولكن ظروفاً نشأت أعفت اللجنة من أجلها بعض الأعضاء حالت دون استيعاب هذا العدد .

ولقد كان من حكمة الأستاذ المرشد وبعد نظره أن أنشأ الهيئة التأسيسية فى هذا الوقت بالذات فقد ظهر بعد ذلك من المواقف والمشكلات والأزمات والخلافات مالولم تكن هذه الهيئة موجودة لقضى على الدعوة وانهار صرحها . وسوف يرى القارىء إن شاء الله الكثير من ذلك فيما بقى من هذه المذكرات .

كما أن وجود هذه الهيئة قد أغنى عن عقد المؤتمرات التى كانت تعقد كل سنة أو سنتين يحشد فيها أكبر عدد من مختلف بلاد القطر ليلخص أمامهم الأستاذ المرشد ما قطعته الدعوة من

خطوات منذ المؤتمر السابق وليشرح لهم بعض ملامح الخطة المستقبلة وكانت هذه المؤتمرات تكلف الإخوان الكثيرين الذين يحضرون من بلادهم الكثير من الجهد والمال كما تكلف المركز العام مثل ذلك... ومع ذلك فقد كانت طبيعة هذه المؤتمرات لا تتيح فرصة مناقشة ما يعرض من تقارير عن الماضي أو مقترحات للمستقبل .

على أن هذه المؤتمرات لم تكن ليصلح عقدها بعد أن كثرت الشعب وكثر عدد الإخوان في كل مكان بحيث تضيق بمندوبيهم الأمكنة في القاهرة مهما اتسع نطاقها للاجتماع والنوم .. أما وقد أنشئت الهيئة التأسيسية على القواعد الثلاث التي أشرت إليها فإن الأستاذ المرشد كان يدعوها بأعضائها المائة فتضمهم حجرة فسيحة من حجرات المركز العام فيعرض عليهم ما يشاء ويناقشهم ويناقشونه ويقترح عليهم ويقترحون عليه ، ويتحدث كل منهم عن مشاكل محافظته ويصلون في النهاية إلى قرارات مدروسة محددة ، فيرجع هؤلاء الأعضاء إلى محافظاتهم فيشرحون لإخوانهم ما تم في الإجتماع بتوضيح وتفصيل ... فيتحقق بهذا الأسلوب ما لا تحققه المؤتمرات مع إعفاء الدعوة وإعفاء الإخوان من كثير من الجهد والمال والمشقة .

ولهذا فقد كان المؤتمر السادس الذى عقد قبيل تكوين الهيئة التأسيسية في ٩ يناير سنة ١٩٤١ هو آخر المؤتمرات .

استطراد :

لست أدرى هل يعد استطراداً أن أترك هذا الحديث العام لأتحدث عن أمور تخصني ، أم أن حديثي عن هذه الأمور هو من الحديث المتصل ؟.... إن هناك مجموعة في هذه الدعوة لم تعد حياتها الخاصة منفصلة عن الدعوة بل هي جزء منها؛ لأنها ارتضت يوم خيرها الأستاذ في اجتماع لجنة الأربعة والعشرين في منزله أن تضع حياتها ومستقبلها رهنا بما تطلبه الدعوة .

لقد كانت الدعوة في شخص مرشدها تتحكم في وقت هذه المجموعة فتوجهها التوجيه الذى تريده . فكان الأستاذ المرشد مع شدة احتياجه أن نكون بجانبه ، يمنعنا من الحضور إلى المركز العام طيلة الشهر الذى يسبق الامتحان لأنه يرى في إنهائنا حياتنا الدراسية نفعاً للدعوة لا يتوفر لها إذا طالت هذه الحياة الدراسية . وكان الفرد من هذه المجموعة حين يتخرج لا يتجه إلى حياة عملية إلا بعد أن يستشير الأستاذ المرشد باعتباره أبصرنا بالاتجاه الأنفع للدعوة .... أفليس الحديث في هذه الأمور إذن حديثاً في صلب الدعوة وفي صميمها ؟...

بعد التخرج :

يحسن قبل التطرق إلى ما كان من شأنى بعد التخرج أن أبدأ بإشارة موجزة إلى الحالة الاجتماعية التى كانت سائدة فى مصر فيما يتصل بالوظائف والموظفين حتى يكون القارىء على صورة واضحة ؛ كان المتخرجون فى أية كلية من الكليات أو مدرسة عليا كما كان أكثرها يدعى فى ذلك الوقت لا يجد أمامه عملا يلتحق به ويرتزق منه ... كانت فرص العمل نادرة ندرة تصل إلى درجة العدم ، ولم يكن العمل إذ ذاك موجوداً إلا فى وظائف الحكومة ..

كان المتخرج يوم يتخرج يكتب طلبات التحاق بعدد وزارات الحكومة ومصالحها ويرسلها جميعا وينتظر لعله يصادف عملا فى أى منها ، ولم يكن عادة يصله رد .. ويظل هكذا عاطلا ، وبعد كل ستة أشهر يعيد كتابة الطلبات وتحفى أقدامه فى ارتياد الوزارات التى يتوسم أن يجد فيها عملا أياً كان ، فإذا كان محظوظاً وجد بعد سنتين من تخرجة عملا باليومية فى إحدى الوزارات ؛ ومعنى ذلك أنه لا يضمن أن يستمر فى العمل طول العام فقد يستغنى عنه فى أى يوم من الأيام .

لم يكن فى نيتى العمل فى وظيفة حكومية بعد تخرجى حتى ولو وجدت وظيفة مناسبة ، وإنما كانت نيتى معقودة على القيام بعمل حر ، بل إننى حددت نوع العمل أن يكون فى الألبان ، ولم نكن ندرس الألبان فى كلية الزراعة إلا فى السنة النهائية .

كاشفت الأستاذ المرشد بعزوفى عن الالتحاق بالوظائف الحكومية ، وبعزمى على الاشتغال الحر بالألبان، فزكى الفكرة ، وأبدى استعداده لمؤازرتى فى هذا السبيل ، ومن قبل نالت الفكرة قبولا لدى والدى وأبدى استعداده لإمدادى بالمال اللازم .

مشروع الألبان :

كانت الفكرة مختمرة فى نفسى ، وعزمى على تنفيذها على أشده ، ولكن كيف أنفذها ، وكيف أنتقل بهذا الحلم إلى واقع الحياة ؟ كانت معضلة أمام شاب ناشىء لا خبرة له بالحياة .

وبعد أيام نادانى الأستاذ ، وكان لتوه راجعاً من رحلة له فى الصعيد وقال لى : لقد عثرت لك على طلبتك . ذهبت إلى منفلوط من أجلك لأنى أعلم أن أخاً كريماً فيها وزميلا لك تخرج فى كليتك منذ أربعة أعوام ، كان قد أنشأ معملا للألبان بها ، وقد رأيت أن أقابله وأعرض عليه فكرتك ، وقد قابلته وعرضت عليه الفكرة فزكاها ، وأخبرنى بأنه أغلق المعمل لأنه محتاج إلى شريك ، ورحب بك شريكاً له .. وكذلك ذلل الأستاذ المرشد عقبة كئوداً كانت فى طريقى .

وكان لى زميل فى الدراسة تخرج معى هو عباس نجل الأخ الكريم الأستاذ محمد حلمى نور الدين ، وقد اقترح والده أن يكون شريكاً ثالثاً فى المشروع فرحبنا به ..

كنا فى ذلك الوقت عقب امتحان البكالوريوس مباشرة أى فى أواخر يونية وأوائل يولية سنة ١٩٣٩ ولما كان موسم الألبان يبدأ مع ظهور البرسيم فى الحقول فقد كانت أمامنا فترة نقضيها فى القاهرة قبل الذهاب إلى مغاغة حتى يجىء شهر أكتوبر على الأقل .

مفاجأة :

لم يكد يمضى علينا بعد ذلك شهر واحد وإذا بوفد من إخوان مغاغة — محافظة المنيا — يطرقنا فى المركز العام على غير موعد ويعرض علينا مشكلة غريبة .

تتلخص هذه المشكلة فى أن فى مغاغة مدرسة ابتدائية أهلية تملكها جمعية قبطية . وهى المدرسة الابتدائية الوحيدة —(المدرسة الابتدائية فى ذلك الوقت تعادل فى أيامنا هذه المدرسة الإعدادية) — التى يلتحق بها أبناء مغاغة وضواحيها الكثيرة ... وناظر المدرسة من قديم هو الأستاذ الشيخ حسن سيد وهو من العلماء وإمام وخطيب المسجد الكبير بمغاغة ... فلما أنشئت شعبة للاخوان المسلمين بمغاغة انضم إليها فضلاء أهالى مغاغة ومنهم الأستاذ الشيخ حسن سيد وأسندت رياستها إليه ... ولم يدر بخلد الإخوان ولا بخلد الأستاذ الشيخ حسن سيد أن فى هذا تعارضاً مع مصلحة المدرسة ... ولكن يبين أن هناك عقولاً ضعيفة ، وصدوراً لا تنطوى إلا على الحقد والضغينة رأت فى انضمام الأستاذ الشيخ حسن إلى الإخوان خروجاً على الطاعة،وتمرداً على العبودية،فلم يفاتحوه فى ذلك ليقنعهم بخطأ نظرتهم إلى الإخوان المسلمين ، ويشرح لهم أن هذه الدعوة إنما تريد الخير لا للمسلمين وحدهم بل لجميع سكان البلاد على اختلاف عقائدهم ؛ وأن الإخوان — حين انضم إليهم واختاروه رئيساً لهم — لم يروا فى عمله فى مدرسة الأقباط ما يتعارض مع دعوتهم ....

لم يفاتحوه فى ذلك بل أسروه فى نفوسهم حتى انتهى العام الدراسى فلم يفاتحوه أيضاً ، وانتظروا حتى قاربت إجازة الصيف على الانتهاء وتيقنوا أن جميع المدارس الأهلية فى القطر قد استوفت العدد اللازم لها من المدرسين والنظار وأن جميع المدرسين والنظار قد تم تعاقدهم مع المدارس ، حينئذ فاجأوا الرجل الذى أفنى زهرة شبابه فى خدمتهم بخطاب يقولون فيه إن الجمعية قد قررت الاستغناء عنه .

وينبغى أن يعلم القارىء أن المدارس الأهلية — أو كما تسمى الآن المدارس الخاصة — فى ذلك الوقت لم تكن تحت إشراف حازم من وزارة المعارف لا سيما ما يتصل بحقوق العاملين فى هذه المدارس من نظار ومدرسين وكتبة وعمال بل كان كل هؤلاء تحت رحمة ملاك هذه المدارس ؛ فهم الذين يتعاقدون معهم على المدة التى يريدونها وعلى المرتب الضئيل الذى يحددونه ، وعلى عدد

الحصص التى يدرسونها فى اليوم وفى الأسبوع ، وهم الذين يلغون هذه العقود فى أى وقت يشاءون ودون إبداء الأسباب .

وكانت مرتبات هؤلاء المدرسين من الضآلة بحيث لا تكاد تصدق ؛ فقد لا يصل مرتب المدرس إلى ثلاثة جنيهات ... كما لا يخفى أن مرتبات موظفى الحكومة كما قدمت – وإن كانت أحسن حالا من ذلك ، إلا أن مرتبات أئمة المساجد فى وزارة الأوقاف لم تكن أحسن حالا من مرتبات المدارس الأهلية فكان مرتب الإمام المتخرج فى الأزهر ويحمل شهادة العالمية فى حدود الجنيهات الثلاثة .

وقد رأيت أن أشير إلى ذلك حتى يتضح للقارىء فداحة المصيبة التى أصابت هذا الرجل الذى خدم هذه المدرسة ثمانية عشر عاماً والذى كان يعول أسرة كبيرة ، وقد رتب معيشته ومعيشة من يعول على أساس هذا المورد الذى يكتسبه من عمله بهذه المدرسة حيث لم يكن مرتبه من وظيفته فى الأوقاف يبلغ نصف مرتبه من المدرسة ... وفى الوقت الذى انقطع عنه فيه هذا المورد أصبح عاجزاً أن يجد عملا يعوضه عنه لأن التوقيت الذى اختاروه لإخطاره بنبأ الاستغناء عنه توقيت مدبر ، أملاه الحقد الأسود بقصد القضاء على هذا الرجل قضاء تاماً ، وفضيحته أمام الناس حيث تظهر الفاقة عليه وعلى أولاده وذويه ، ويضطر إلى الاستدانة والاستجداء ... ولم يكن فى ذلك الوقت فى تلك المدارس حق للمفصول أو المستغنى عنه فى معاش ولا مكافأة .

وامعتصماه :

كان وقع هذه القصة حين قصها وفد إخوان مغاغة على سمع الأستاذ المرشد كوقع كلمة «وامعتصماه» على سمع الخليفة العباسى المعتصم بالله حين نقلت إليه عن المرأة المسلمة التى أسرت ببلاد الروم متهزين فرصة أنها امرأة وحيدة لا نصير لها فى بلادهم .. وكان رد الأستاذ المرشد تماماً كرد الخليفة إذ قال لإخوان مغاغة وهو يبتسم «لا بأس . إذن تنشىء له مدرسة يكون هو ناظرها وصاحبها »

لم يكن لقولة الأستاذ المرشد هذه معنى فى عرف العقل والمنطق والقياس للأسباب الآتية :

أولا : لم يبق على بدء الدراسة إلا أقل من شهر واحد .

ثانياً : أن هذا المشروع إذا أريد تنفيذه فإنه يحتاج إلى رأس مال لا يقل عن بضعة آلاف من الجنيهات فى ذلك الوقت ؛ على أن يستغرق تنفيذه إذا وجد هذا المال سنة على الأقل.. فكيف يمكن مجرد التفكير فيه وليس لدى الشعبة ولا لدى المركز العام شىء من هذا المبلغ .

ثالثاً : إذا افترضنا جدلا أن مدرسة كاملة المبانى وافية بجميع ما يشترط من الشروط

الصحية والاجتماعية أنزلت لنا من السماء الآن ، فإن العقبة الكبرى التي لا يمكن تذليلها هي العثور في هذا الوقت على مدرس واحد يتعاقد معه بعد أن ارتبط كل مدرس بمدرسته .

رابعاً : أن إعداد المقاعد والقماطر والسبورات اللازمة لمدرسة كهذه يحتاج إذا وجد المكان والمال إلى عدة أشهر .

خامساً : إذا افترضنا جدلا أن هذه المدرسة موجودة بكامل معداتها ومدرسيها فإنها باعتبارها مدرسة جديدة تحتاج إلى عام كامل — مع جميع وسائل الإعلام الميسورة — حتى يعلم الناس الناس بوجودها .. ثم هي لا تبدأ إلا بالسنة الأولى أي بالصف الأول فقط ، لأن الناس لن يثقوا بها إلا إذا أثبتت نتائجها جدارتها لا سيما وفي المدينة مدرسة قديمة أثبتت جدارتها من قبل والجميع يثقون بها .

تلقى وفد إخوان مغاغة وتلقينا نحن الحاضرين من إخوان المركز العام قولة الأستاذ هذه بابتسامة فيها كل المعاني التي تضمنتها الخمسة الأسباب السابقة ، ولكن الأستاذ المرشد كان مصمماً على قولته حيث كررها أكثر من مرة تكرار الواثق المتمكن ... ومع ارتيابنا بل ما نراه من استحالة في تحقيق هذا المشروع فإن ثقتنا التي تفوق كل تصور في الأستاذ المرشد جعلتنا نتهم عقولنا ونتهم المنطق والواقع ونصدق ما يقول .....

إن هذا الرجل الذي آتاه الله تعالى من العلم والحكمة ما بهر عقول كبار العلماء فطلبوا إليه أن يؤلف كتباً يودعها هذه المعارف النادرة فكان رده عليهم : إنني لا أؤلف كتباً يكون مصيرها تزيين الرفوف وأحشاء المكتبات ، وإنما مهمتي أن أؤلف رجالا أقذف بالرجل منهم في بلد فيحييه ، فالرجل منهم كتاب حي ينتقل إلى الناس ، ويقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم ، ويبثهم كل ما في قلبه ونفسه وعقله ، ويؤلف منهم رجالا كما ألف هو من قبل .

إن هذا الرجل الذي ربى هذا الشباب الغض على أسمى المعاني الإنسانية وأجلها من إيمان وإيثار وتضحية لم تكن تربيته هذه تربية عقيمة يقف بها عند حدود تطهير النفس وتزكية الروح ثم يعتزل أصحابها المجتمع متفانين في العبادة ، بل كان يربيهم هذه التربية ثم يلقي بهم في خضم المجتمع باعتبار أنهم كنوز يستثمرها المجتمع في إصلاح ما فسد منه وبناء ما انهار من بنيانه .. وكان الأستاذ نفسه هو أقدر الناس على استثمار هذه الكنوز وأبرعهم في الإفادة منها ، وأبصرهم بمكامن اللآلىء والدرر فيها ، وأكثرهم تمكنا من سد كل ثغرة من ثغرات المجتمع بما يناسبها من هذه هذه اللآلىء والدرر كما يقول المثل العربي « يضع الهناء مواضع النقب »

على أساس من معرفته بما تحت يده من هذه الكنوز قال واثقاً قولته التي قالها ... قالها وهو يعلم أنها بحكم العقل وحده والمنطق والحساب إنما هي نوع من المحال ، ولكن الذي بيده مفاتيح هذه الكنوز هو فوق العقل والمنطق والحساب « والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

إن العنصر البشرى طاقة كامنة لا حدود لقوتها ولكنها مفتقرة دائماً إلى من يستطيع تفجيرها .

إنشاء المدرسة أو تحقيق المحال

قال الأستاذ المرشد لوفد إخوان مغاغة ، أنتم مكلفون بأمرين اثنين عليكم أن تنجزوهما :

الأول : أن تقولوا للأخ الأستاذ الشيخ حسن سيد إن الإخوان قرروا أن ينشئوا لك فى مغاغة مدرسة إبتدائية تبدأ الدراسة فيها من أول هذا العام الدراسى وتكون أنت ناظرها .

الثانى : أن تجتمعوا بإخوانكم جميعاً وتدبروا مكانا يصلح أن يكون مدرسة مهما كان إيجاره والمركز العام متكفل بدفع إيجاره .

فإذا تم تدبير المكان فأخبرونا لنكمل الخطوات الأخرى إن شاء الله .

وبعد أيام وصل وفد من مغاغة يحمل إلينا نبأ إيجاد المكان المطلوب وقالو إن الأخ المهندس الزراعى الأستاذ شلبى محمد جاد وكيل الشعبة – وهو نفسه الأخ الذى كان الأستاذ المرشد قد اتفق معه لأكون شريكاً له فى معمل الألبان – قدم لنا منزلا يملكه ملحق به فناء واسع وهو مكون من ثلاثة طوابق ليكون مقراً للمدرسة ، وتبرع بقيمة إيجاره فى السنة الأولى .

كان مدرسو المدارس الابتدائية الأهلية فى ذلك الوقت ذوى مستوى معين ، فهم عادة من ذوى الخبرة الذين لم يحصلوا على مؤهل ما ، أو من حملة الشهادة الابتدائية ، وأعلاهم مستوى كان من حملة شهادة الكفاءة وهى شهادة تقل عن الثانوية العامة بسنتين ...

وأراد الأستاذ المرشد أن يقتحم على منافسينا بصاعقة تذهلهم وتفقدهم رشدهم ، فقال لوفد مغاغة : ارجعوا إلى إخوانكم واطبعوا أكبر عدد ممكن من الإعلانات واكتبوا فيها أن المدرسة الإسلامية بمغاغة قد استقدمت جميع هيئة التدريس بها من القاهرة وكلهم من خريجى كليات الجامعة ويحملون شهادات البكالوريوس والليسانس – واكتبوا أسماءهم ومؤهل كل منهم أمام اسمه – واكتبوا فى الإعلان أنهم سيحضرون إلى مغاغة يوم كذا فى قطار الساعة كذا – وحدد لهم اليوم والساعة ...

وقال لهم : عليكم أن توزعوا هذه الإعلانات فى جميع أنحاء مغاغة وفى جميع قرى المركز .. وعليكم أن تكونوا جميعاً فى انتظارهم على محطة السكة الحديد .

ثم التفت إلى وقال : عليك أن تتأهب أنت وزميلك عباس حلمى ومحمد بسيونى (تخرج محمد بسيونى فى ذلك العام فى كلية الحقوق) للسفر معاً إلى مغاغة فى يوم كذا وفى قطار الساعة كذا وهو اليوم والساعة اللتان حددهما لإخوان مغاغة .

ودعوت زميلى وقابلنا الأستاذ فقال لنا : إنكم ستقومون بأهم دور فى هذا المشروع الذى أنا

أعده مشروع الساعة للدعوة والاختبار الدقيق لها ، وستحملون أنتم أكبر عبء فيه ... إن عليكم أن تعرفوا الناس بأنفسكم وبمؤهلاتكم ، وعليكم أن تزوروا أعيان مغاغة وجميع البيوت المعروفة فى قرى المركز ... وستكون زياراتكم هذه لهذه البيوت مبعث ثقتهم فى نجاح المشروع ، ودافعاً لهم على التبرع له بسخاء ... ثم عليكم مع ذلك أن تتعاونوا مع إخوان مغاغة فى تدبير كل مايلزم المدرسة من مقاعد وقماطر وغيرها ... وحين تبدأ الدراسة فعليكم أن تقوموا بأنفسكم بتدريس جميع العلوم وسنضم إليكم فى التدريس الأستاذ الشيخ حسن سيد الناظر ، ولا تتركوا مواقعكم فى التدريس إلا بعد أن نعثر على عدد كاف نتعاقد معه من المدرسين المحترفين ...

تلقينا هذه التعليمات من الأستاذ المرشد ولم يخطر ببالنا أننا مقدمون على أشق مهمة على الإطلاق ..

لايعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيهـا

مظاهرات من نوع جديد :

حزمنا أمتعتنا — ولم تكن أمتعة ذات بال ، فهى لا تعدو أن تكون ملء حقيبة ضمت أمتعتنا نحن الثلاثة ... وركبنا القطار الذى حدده لنا الأستاذ وتوكلنا على الله ، حتى إذا صارت محطة مغاغة قاب قوسين أو أدنى أعددنا أنفسنا أمام باب عربة القطار التى كنا فيها لنكون أول النازلين حين يقف القطار ، ولما كنا لم ننزل بمغاغة من قبل فقد طمأننا الأستاذ أن سنجد فى انتظارنا عدداً من الإخوان الذين عرفناهم فى القاهرة .

ووقف القطار ، ولم نكد نقدم رجلا للهبوط حتى رأينا المحطة تموج بمئات من الناس الذين يبدو عليهم أنهم من علية القوم ، ورأينا الجميع يشيرون بأيديهم إلينا ، وتقدم نحونا الإخوان الذين عرفناهم فى القاهرة وتناولوا حقيبتنا وخذوا بأيدينا وأحاطوا بنا ، وخرجنا من المحطة فى موكب ضخم مهيب نتقدمه نحن الثلاثة وحولنا إخوان مغاغة وخلفنا هذه الجموع كأننا « عرسان » يزفون ليلة الزواج والهتاف « الله أكبر ولله الحمد » يشق عنان السماء .. وسلكوا بنا فى هذا الموكب الشارع الرئيسى الذى يخترق المدينة من أولها لآخرها . وعلى طول الطريق يرشقنا الناس على الجانبين بنظرات ، ويوجهون نحونا إشارات كأنهم كانوا على علم بمقدمنا وفى شوق لرؤيتنا ، حتى وصلنا إلى الدار التى تعد لتكون مقراً للمدرسة فدخلنا ودخل معنا كثير من الناس وأخذ الجميع يرحبون ويبدون سرورهم بمقدمنا .

كان باقيا على موعد بدء الدراسة فى المدارس الابتدائية أقل من شهر ، ولم يكن بد من من تقسيم المسئوليات على الإخوان لينهض كل بما يوكل إليه فى أسرع وقت ممكن ، وكان من مسئولية الأخ الأستاذ شلبى محمد جاد المتبرع بالدار أن يغير من شكل المبنى ومحتوياته فيهدم أجزاء ويضيف أجزاء حتى يتواءم المبنى مع الرسم الذى طلبته وزارة المعارف وجعلته شرطا لاعترافها بالمدرسة ، وكان على الأخ الأستاذ محمد فؤاد سليمان ومعه مجموعة من الإخوان

أن يحصلوا من مخازن الوزارة ومن المكتبات الأخرى على الكتب اللازمة والكراريس وغيرها من الأدوات المكتبيه للصفوف الأربعة . وهكذا قسم العمل وكان الموكول إلينا من المسئوليات هو أن نشترك في النهار مع اللجان المختلفة في مسئولياتها حتى إذا انتصف النهار وتناولنا طعام الغداء ، أعددنا أنفسنا لرحلة يومية يشترك معنا فيها الأستاذ الشيخ حسن سيد وبعض الإخوان لنزور كل يوم بلداً من بلاد المركز أو بلدين لنشرح للناس مزايا هذه المدرسة والسبب في إنشائها وماكان من أمر الغدر بالشيخ حسن سيد كما يرون بأعينهم الأشخاص ذوى المؤهلات العالية الذين سيقومون بمهمة التدريس ، فتكون نتيجة كل زيارة من هذه الزيارات ضمان نقل أولادهم من مدرسة الأقباط إلى المدرسة الإسلامية وإلحاق أولادهم الجدد بها ، ثم تبرعاً سخيا يقدمه أثرياء البلد لحساب إنشاء هذه المدرسة .

كان هذا المجهود المتواصل شاقاً حقاً فقد كنا نغادر مغاغة كل يوم عصراً ولا نعود إليها إلا منتصف الليل لنستأنف في الصباح الباكر العمل مع اللجان المتعددة المسئوليات .

انهالت التبرعات من أثرياء القرى التى زرناها وتمكنا بذلك من شراء جميع احتياجات المدرسة من كتب وأدوات وسبورات ومكاتب وكراسى للمدرسين والزوار وأدوات النظافة وغيرها ثم واجهتنا معضلة هى أننا نريد قماطر للتلاميذ ونريد عدداً كبيراً يتسع للعدد الذى قدرناه من التلاميذ نتيجة دعايتنا وزياراتنا ، وإذا كان معنا ثمن هذه القماطر فإن صناعتها قد تستغرق عدة أشهر ولم يبق على موعد بدء الدراسة إلاعشرة أيام .

تذكرت أن أحد أصدقائنا فى رشيد كان قد أنشأ مدرسة ابتدائية فى مطوبس ولكنه أخفق فى المشروع فباع محتوياتها فاشتراها أخ كريم من إخواننا التجار برشيد فأرسلت إليه أن يشحن لنا جميع هذه القماطر (التخت) التى اشتراها فى سفينة فوصلت مع بدء الدراسة وكانت جديدة وقد طلب فى الواحدة المزدوجة المقاعد ثلاثة عشر قرشاً وهو نفس الثمن الذى اشتراها به مع أنه كان يستطيع أن يبيعها فى ذلك الوقت بأكثر من ثلاثين قرشا . ولو أننا اضطررنا إلى صنعها لتكلفت أكثر من ضعف ذلك .

بدء الدراسة :

بدأت الدراسة فى موعدها والمدرسة مستوفية جميع مالا تستوفيه مدرسة إلا بعد مضى أربع سنوات على إنشائها أو أكثر إذا كانت الظروف مواتية ، وكادت مدرسة الأقباط تتوقف لولا ما تبقى بها من أولاد الأقباط وقليل ماهم ، وأحس المستكبرون الغادرون بفشلهم وخطأ تقديراتهم فبعثوا إلى الأستاذ الشيخ حسن سيد يطلبون الصلح معه ولكن الرجل رفض أن يضع يده فى يد غادرين .

وقمنا نحن الثلاثة بالتدريس طول اليوم ومعنا الناظر وابنه وأخ كريم حصل على دبلوم

الفنون التطبيقية فى ذلك العام هو الأخ الأستاذ حسن عبد الله القبانى قام بتدريس مادة الرسم . فكان كل منا يدرس جميع حصص اليوم متصلة ، وقد يدرس لفصلين فى آن واحد .. وقد أنهكتنا هذه الفترة التى دخلناها ونحن فى أشد حالات الإرهاق من أثر الزيارات المتلاحقة للبلاد .... وكان الإخوان فى خلال ذلك سواء فى القاهرة وفى مغاغة يجدون فى البحث عن مدرسين للتعاقد معهم حتى وفقوا إلى ثلاثة منهم حلوا محلنا بعد شهر من بدء الدراسة ، وقد أدركونا ونحن فى الرمق الأخير .

تقييم هذه التجربة

كان هذا العمل الذى انتدب الإخوان أنفسهم للقيام به فى مغاغة ، والذى حتمت الظروف النهوض بأعبائه ، ، كان امتحاناً قاسياً ورائعاً لهذه الدعوة التى تعد فى عمر الدعوات دعوة ناشئة ، وقد كشف هذا الامتحان عن طبائع هذه الدعوة بأسلوب جلى وقد تتضح منه القسمات التالية :

أولا : أثبتت الدعوة للإخوان أنفسهم أنها دعوة إيجابية فعالة ، كما أثبتت ذلك لغير الإخوان ممن شهدوا مسرح الأحداث ، وبينت للجميع أنها دعوة لا تقف عند حد الأقوال والدعاية الكلامية والإقناع العقلى بالأسلوب المنطقى بل إنها تفعل ماتقول وقد تفعل أكثر مما تقول :

ثانيا : أثبتت أن العنصر البشرى إذا ماتربى التربية الإسلامية السليمة الكاملة النابعة من الكتاب الكريم يستطيع أن يأتى بما يشبه المعجزات ، وأنه لا تعوقه العوائق المادية مهما عظمت

ثالثا : أن القيادة القادرة التى تولت الشباب الغض وأنشأته على أقوم الأسس وأعطته من ذات نفسها هى التى تعرف مقدار مايكمن فى هذا الشباب من طاقة خارقة للعادة ، وهى التى تعرف كيف توجه هذه الطاقة ومتى توجهها لإنجاز أعمال يحكم العقل والقدرة المادية والمنطق باستحالة إنجازها .. ومن دستور هذه القيادة المأثور قولها : إذا صح العزم وضح السبيل .

رابعا : فسرت معنى الأخوة الإسلامية « المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يخذله ولا يسلمه» وأنها إنما تقوم على أسس من التضحية والإيثار لا على الأثرة والاستغلال ، فهذا المجهود الذى بذل فى إنشاء هذه المدرسة فى الظرف المعين الذى كان يجب أن تنشأ فيه ، لايمكن تقديره بمال مهما كثر ، ومع ذلك وبغير من ولا أذى حين اكتمل المشروع تمام الاكتمال سلم إلى الأخ الذى هبنا لنجدته يتصرف فيه كما يشاء حيث قال الأستاذ المرشد حين بلغه نبأ الغدر به « إذن ننشىء له مدرسة يكون هو ناظرها و صاحبها » .

خامسا : أثبتت الدعوة أنها مع قدرتها دعوة سلام وعفة ، فقد كان فى تصور من دبروا جريمة الغدر من قادة جمعية الأقباط ، كما كان فى تصور الناس جميعاً فى مغاغة أن رد الإخوان

على هذه الجريمة النكراء سيكون الاعتداء على هذه الجميعة باليد واللسان ، ولكن المفاجأة كانت في أن شيئا من هذا لم يحدث ، وإنما كان الرد هو ماتحدثنا عنه دون مس أى من هؤلاء المعتدين بكلمة نابية أو لفظ جارح ، ذلك أن الدعوة الإسلامية أبعدالدعوات عن فحش القول وعن الاعتداء ، لكنها تهب هبةالمدعور لحماية من اعتدى عليه من أبنائها ولا تدخر وسعاً في حمايته وحياطته ..

إلى مشروع الألبان :

بعد أن تم إنشاء المدرسة وبعد أن تسلم ، المدرسون المتعاقد معهم أماكنهم في المدرسة اتجهنا إلى مشروعنا الأصلي الذي اعترض طريقه هذا المشروع المدرسي الطارىء ، وكان من توفيق الله أننا فرغنا من مشروع المدرسة في الوقت المناسب لمشروع الألبان ، وتذاكرت وشريكي الأستاذ شلبي المشروع وكان معمله مجهزاً أحسن تجهيز وكتبنا عقد الشركة وعرضناه على الاستاذ المرشد - لأنه كان حريصاً على الاطلاع عليه - ووقعناه - وفهمت من شريكي أن سبب فشله في المشروع هو عدم تصريف منتجاته فتكفلت أنا بذلك بعد أن استوثقت من إخوان القاهرة التجار استعدادهم لشراء كل ما ينتجه المعمل ، واستمرت الشركة موسم لبن كاملا كنت خلاله كثير التردد على القاهرة ثم رأيت إنهاءها .

وقد يكون مفيداً للقارىء أن أسرد على مسامعه تفاصيل هذ المشروع ولكن إيجازاً للقول أكتفي بوضع خلاصة له بين يديه ولا أكون بذلك قد خرجت على الموضوع فتاريخ الدعوة هو تاريخ القائمين بها والعاملين لها والذين كرسوا حياتهم للنهوض بها ، فلم يكن تحركي لهذا المشروع إلا بوحي من هذه الدعوة ، وما كان اهتمام الأستاذ المرشد به إلا لكونه يرى أن مثل هذه المشاريع دعائم للدعوة ، وهاك الخلاصة .

١ - لم يكن يعوزنا المال فالمال كان متوفراً ولم يكن يعوزنا تصريف الإنتاج فقد كان المطلوب منا أكثر من ضعف إنتاجنا .

٢ - لم يكن يعوزنا الإخلاص فشريكي كان من المثل العليا التي يندر وجودها ومن يخشون الله ويتقونه ، وسأذكر واقعة واحدة تنبئك عن مدى عمق إيمانه بالله ، فقد كان يملك قطعة أرض واسعة في وسط مغاغة فجاءه رجل أجنبي من خارج مغاغة وعرض عليه ثمناً مشرفاً لهذه القطعة يبلغ ضعف ماتستحق لينشىء عليها دارا للسينما وإذا لم يرغب في بيعها فليدخل معه شريكاً في هذه السينما - وكانت السينما في ذلك الوقت أربح مشروع - فطلب منه مهلة وسألني رأيي في هذا العرض فأجبته بأن السينما ما هي إلا أداة لعرض ما يراد عرضه فيها ولكن الأفلام التي تعرض هي عادة أفلام تدعو إلى الرذيلة .. فرفض عرض الأجنبي مع ما فيه من إغراء خشية أن يكون فيه ما يغضب الله .

٣ - لم نبع صفقة إلا بربح ومع ذلك خسرنا خسارة كبيرة نتيجة قلة اللبن الوارد

إلى المعمل ، والمصاريف اليومية والشهرية التى كان لا بد من صرفها على المعمل كانت تكفى لتصنيع عشرة أضعاف كمة اللبن التى كانت ترد لنا . ومن هنا نشأت الخسارة .

٤ – بسبب قلة الوارد إلى المعمل ترجع إلى إيثار شريكى عدم المجازفة بدفع أثمان اللبن لأصحاب المواشى قبل توريده إلينا فى حين أن تجار « السمن » فى القاهرة كانوا يدفعون لأصحاب المواشى فى مفاغة مبالغ كبيرة قبل بدء موسم اللبن .. وقد اختلفت وجهة نظرنا فى هذا الموضوع فكنت أرى أننا أولى بالاطمئنان على مالنا إذا دفعناه إلى هؤلاء الفلاحين من أولئك الذين يعيشون فى القاهرة ويدفعون لهم الأموال . ولكن شريكى – لظروف شرحها لى قابلته فى تربيته وهو طفل – جعلت عنده فى كل تصرفاته فرط حرص .

وكما أن قيامى بهذا المشروع كان بمشورة من الأستاذ المرشد ، فقد كان إنهائى له وفض الشركة بمشورة منه أيضاً ... على أن الذى أحب أن ألفت النظر إليه أن فض الشركة بينى وبين الأخ الأستاذ شبلى لم يكن له أى أثر على مابيننا من علاقة أخوية وسوف يأتى إن شاء الله فى سياق هذه المذكرات مايوضح ذلك .

رأى عظيم لرجل عظيم

قدمت فى خلال الحديث من مشروع الألبان أننى كنت فى خلال فترة قيامى بهذا المشروع أتردد على القاهرة ففى إحدى مرات ترددى وكان مساء يوم خميس وجدتهم فى المركز العام يوزعون الدعاة يوم الجمعة على عدة مساجد ، فلما رأونى بينهم أدخلونى فى التوزيع فكان من نصيبى ومعى الأخ صالح عشماوى مسجد أحمد زكى باشا بالجيزة .

وذهبت وزميلى إلى المسجد قبيل صلاة الجمعة ، ولما أذن للصلاة صعدت المنبر وخطبت الناس وأنا أتفحص وجوههم ، فلاحظت من بينهم وجهاً مشرقاً لشيخ معمم ذى لحية بيضاء وقور يرمقنى وكأنه هو الذى يتفحصنى ، فشغلنى أمر الرجل حتى انهيت الخطبة وصليت بالناس ، ثم قدم الناس يصافحوننى وأنا أبحث عن الرجل فلم أجده بين من صافحونى .. فلما انفض الجميع وقلبى منشغل بالرجل تبين لى أنه باق فى مجلسه .

فلما رأى الناس قدا نكشفوا عنى رأيته قادماً نحوى فتقدمت نحوه ، ومد يده إلى فشددت على يده ثم صافح زميلى ثم خرجنا ثلاثتنا من المسجد وسرنا معاً وقد طلب حين خرجنا من المسجد أن نشرب عنده القهوة فقبلت على التو شوقاً إلى معرفة الرجل ، حتى إذا كنا أمام « فلة » جميلة قال تفضلوا ، ولمحت على باب « الفلة » الخارجى لافتة عليها اسم صاحبها فظننت رجلنا ساكناً بها .

فلما دخلنا وأخذنا مجالسنا قال الرجل : نريد أن نتعارف ، وقدم لى بطاقته ، فإذا عليها نفس الاسم المكتوب على لافتة « الفلة » وهو « منصور مهران » الأستاذ بدار العلوم سابقاً ،

فبدأت أعرف قدر الرجل ، وإن كنت إ أزدد له احتراماً فقد كنت أوليه لوقاره احتراما يتواءم وهذا الوقار .. ثم التفت إلى فقلت : أنا فلا ن بكالوريوس زراعة و صاحب معمل ألبان فى مغاغة ، وزميلى صالح مصطفى عشماوى باكلوريوس تجارة ومحاسب .

قال الشيخ : كم تعطيكم جمعية الإخوان المسلمين التى تنتسبون إليها فى كل مرة تقومون بنشر دعايتها وإذا كانت تحاسبكم بالشهر فكم تعطيكم شهرياً .
قلت له : إن الجمعية لا تعطينا شيئاً لنشر دعوتها لا بالمرة ولابالشهر .

قال : إذن من الذى يتكفل للدعاة بمقابل أتعابهم ومصاريف انتقالهم ؟

قلت : ليس عندنا مقابل أتعاب ، وكل منا يتكفل بمصاريف انتقاله .

قال : أنتما فقط أم هذا حال جميع الدعاة ؟

قلت : هذا حال جميع الدعاة ؟ .

قال : أليس للجمعية دعاة بمرتبات تدفعها لهم ؟

قلت : كل الدعاة مثلنا متطوعون . بل إن هؤلاء الدعاة يقدمون للجمعية من جيوبهم .

قال : كم يدفع العضو فى الشهر ؟

قلت : الاشتراك فى جمعيتنا ليس محدداً ، فمن الأعضاء من لامقدرة عنده فلا يدفع شيئاً ، ومنهم من يدفع خمسة قروش ومنهم من يدفع عشرة قروش وهكذا ومنهم من يدفع جنيها أو أكثر كل حسب مقدرته ولا فرق بين الجميع .

قال : ومن هو رئيس الجمعية ؟

قلت : ليس للجمعية رئيس وإنما لها مرشد عام هو الأستاذ حسن البنا وهو متخرج فى دار العلوم وكان أول دفعته وهو مدرس بمدرسة عباس الابتدائية بالسبتية .

قال : وهل حددت الجمعية له مرتباً من ماليتها ؟

قلت : لا .. وإنما هو يقسم مرتبه الذى يأخذه من وزارة المعارف بينه وبين أولاده وبين الجمعية ، وهو يقوم بنشر الدعوة فى الأقاليم ويسافر كل أسبوع مرة أو أكثر على حسابه الخاص .

قال الرجل .. اسمعوا ياأولادى .. إن هذا اليوم أسعد يوم فى حياتى .. إننى أؤمن بأن هذا الدين لا ينهض به إلا دعاة يبذلون له ولا يرتزقون منه .. ثم قال : نحن الأزهريين عيال فى دراستنا على كتب الرجال الأمجاد الشيخ الصباغ والشيخ النجار والشيخ الحداد وهؤلاء العلماء لم يسموا بهذه الأسماء إلا لأنها أسماء صناعاتهم ، فالشيخ الصباغ كانت مهنته التى يرتزق

منها هى صباغة الأقمشة ، والشيخ النجار كانت مهنته النجارة وهكذا كان لكل مهنته التى يكتسب عيشه منها ثم فى وقت فراغه يضع هذه المؤلفات الإسلامية التى نحن مدينون بمعا رفنا لها تقرباً إلى الله .

ياأولادى ... اليوم أموت وأنا مرتاح الضمير لأن الفئة التى كانت تنقص المجتمع الإسلامى قد وجدت ، ونهضة الإسلام كانت مرهونة بوجودهم .

وهنا وقفت وزميلى مستأذنين وشاكرين للشيخ حسن ضيافته ودعوته لزيارة المركز العام فاعتذر بأنه قد لا يستطيع لضعفه لكنه حملنا التحية للأستاذ المرشد . ولما رجعنا وقابلت الأستاذ المرشد أبلغته تحية الشيخ وأطلعته على بطاقته فقال لى إنه كان أستاذه ، ولما حدثته بحديثه استمع إليه باهتمام وقال : إن أمثال هذا الرجل بمثل هذا الفهم قليل فى عالمنا اليوم .

الشاى فى الصعيد

كنت منذ صغرى من محبى الشاى ومن المقبلين على احتسائه كل صباح فى المنزل ، فلما شببت وكنت فى السنة الرابعة الثانوية ونظرت إلى هذا الشراب فوجدت له جنايتين علينا نحن نحن المصريين ، إحداهما إنه صادر عادة لنا أو بالتعبير المألوف « كيفاً » سيطر على أعصابنا بحيث لم نعد نستطيع الاستغناء عنه ، فكأنما استعبدنا فصار لنا سيداً وصرنا له عبيداً . والأخرى أنه مع ذلك بضاعة أجنبية . واقتنعت بوجوب مقاطعته .

ولما كنت فى منفاغة لاحظت أن أهل الصعيد أشد انغماسا فى هذا « الكيف » منا نحن أهل الوجه البحرى ، فالعمال مثلا ينفقون أكثر ما يكتسبون على الشاى .. وقد لمست خطورة هذا الشراب عن قرب حين كان ساكنا معى الأخ الأستاذ حسن عبد الله القبانى وهو من أهل قوص إحدى حواضر قنا وهو مدرس الرسم بالمدرسة كما ذكرت قبلا .. فرأيته يهيء لنفسه الشاى كل صباح بطريقة يكثر فيها من الشاى الجاف ويظل يغليه فى الماء حتى يصل إلى قوام يشبه قوام الزيت ، وحتى إن طعم السكر لا يظهر فيه مهما أكثرت منه عليه ، ويحتسى منه قبل أن يذهب إلى المدرسة ثلاثة أكواب صغيرة ثم يذهب إلى المدرسة ويبدأ عمله فى الساعة الثامنة حتى إذا وصلت الساعة العاشرة حيث استراحة التلاميذ نحو عشر دقائق كان فراش المدرسة فى انتظاره بكوب كبير من الشاى ، ثم يجىء إلى البيت ظهراً فيتغدى ويهيىء الشاى لنفسه بطريقة الصباح ، ثم يذهب إلى المدرسة لفترة ما بعد الظهر حيث تنتهى الدراسة الساعة الثالثة فيجد الفراش بالكوب فى انتظاره ثم يشرب الشاى بعد العشاء بمثل طريقة الصباح ، وقد يشرب مرة بين الساعة الثالثة والعشاء .

إنه هو الذى ذكر لى هذا النظام الذى يلتزمه والذى إذا افتقد مرة من مراته عجز عن أداء عمله حتى يسعف بالشاى . ولقد أخبرنى أن الشاى فى حياتهم هو كل شىء حتى إن أطفالهم يفطمون على الشاى وأنه هو شخصيا فطم على الشاى .

ولما كانت القدوة هي أقوى وسائل التأثير فقد سهل على إقناع الأخ الكريم بضرر الشاى وخطورته وعاونته فى اتباع خطة انتهت إلى مقاطعة الشاى والاستعاضة عنه بمشروبات وطنية أخرى كالكركديه واليانسون والنعناع ، فأدى ذلك إلى تحرره من هذه العادة المسيطرة كما أدى إلى تحسن كبير فى صحته .

وبهذه المناسبة أذكر أنه لما جاء موعد إجازة نصف السنة وسافر الأخ حسن إلى بلدته قوص ليقضى الإجازة فيها فلما عاد من الإجازة قال لى سأروى لك شيئاً طريفا وقع لى فى هذه الإجازة .. قال : لما وصل بى القطار إلى محطة قوص ، وكان أهلى على علم بموعد وصولى نظرت من القطار فوجدتهم فى انتظارى على رصيف المحطة ، فنزلت من القطار ومعى حقيبتى فلم يتقدم نحوى أحد منهم ليحمل عنى حقيبتى كالمعتاد ، كما لم يتحرك أحد منهم كأنهم لم يرونى ، فتقدمت نحوهم حتى التصقت بهم ولم يمد أحد منهم يده لمصافحتى فعجبت وقلت لهم مالى أراكم هذه المرة تتجاهلوننى ماذا حدث ؟ قالو من أنت ؟ قلت أنا حسن عبد الله فبدا عليهم الدهشة وقالو أنت حسن ؟ . إذن أنت تغيرت كل التغير ، لقد كنت نحيفاً أسمر الوجه ونراك الآن ممتلىء الجسم أبيض الوجه ماذا حدث ؟ فتذكرت أن شيئاً لم يحدث لى إلا مقاطعتى للشاى التى أدت إلى فتح شهيتى للطعام فقلت لهم ذلك فتعجبوا .

وقد يكون الإسراف فى الشاى فعلا من أسباب ضعف الجسم فلا زلت أذكر كلمة للأخ الدكتور محمد أحمد سليمان قالها فى أثناء محاضرة كان قد ألقاها علينا فى المركز العام حيث قال : إن الشاى يحتوى على حمض العفصيك« التنيك » الذى يستخدم فى دبغ الجلود . وقال إن الهضم فى المعدة يتم عن طريق أهداب قطيفية تبطن المعدة من داخلها فإذا نزل الشاى على هذه الأهداب القطيفية دبغها أى قضى عليها فتعجز المعدة عن الهضم .

وقد جرت عادتنا منذ ألمت بمغاغة أن نزور فى كل يوم جمعة قرية من قرى المركز ، أخطب الجمعة فى مسجدها ثم ننتقل إلى بيت من يدعونا من أهلها حيث نشرح لهم الدعوة ونتناقش فى أمور البلد على ضوئها .. وفى إحدى أيام/الجمعة كنا فى زيارة قرية اسمها عزبة على باشا فهمى ، وكان الأخ الأستاذ شلبى يعرف عمدتها واستقبلنا العمدة فى بيته حتى حان موعد الصلاة فخرجنا متجهين إلى المسجد .. وبينما نحن نمشى اصطدمت قدمى بحجر فى الطريق ، فقلت للعمدة ماهذا الحجر الملقى وسط الطريق ومغطى بقطعة من الخيش ؟ فضحك العمد وقال : إن هذا ليس حجراً إنه رجل وكشف قطعة الخيش فرأيته رجلا محتبيا ورأسه بين فخذيه . فعجبت وسألت العمدة عن شأنه فقال : كان هذا الشاب من أجلد شباب القرية وأقواهم بنية ، وأكثرهم إنتاجاً فى عمله بالحقول ، فابتلى بالشاى حتى صار ينفق كل أجره على الشاى وأهلك الشاى بدنه دون أن يجد غذاء يقاومه به ، فضعف الشاب حتى صار إذا اشتغل ساعة عجز عن العمل حتى يأتوه بكوب من الشاى ، فأضرب أصحاب الحقول عن قبوله للعمل عندهم فصار معدماً .. فهو يلقى بنفسه هكذا فى عرض الطريق حتى يتصدق عليه بعض المارة فيشترى بصدقتهم شايا

من هذا المحل — وأشار إلى محل صغير قريب .. فيشرب به فينتعش فترة ثم تخور قواه فيرجع إلى وضعه الذى رأيته فيه .

ولما دخلنا المسجد — وكان أهل القرية على علم بمقدمنا وبأننى سأخطبهم خطبة الجمعة — تقدم إلى رجل منهم وسلمنى ورقة قرأتها فوجدت بها هذه العبارة : « إننى شيخ البلد وإن الشاى قد قضى على شبابنا فأرجو أن يكون موضوع خطبتك فى بيان أضرار الشاى حتى تنقذ هذا الشباب من الدمار » فلما قرأت الورقة عجبت لهذه المصادفات المتلاحقة ، وسرنى أن عند بعض الناس غيرة على مصلحة المجتمع إلى هذا الحد الرائع .

وأجبت الرجل إلى طلبه .. وبعد الصلاة انتقل الركب إلى بيت العمدة وجلس الجميع فقال العمدة : لا أدرى ماذا أقدم لكم والتحية عندنا هى الشاى ولا أستطيع أن أقدم لكم الشاى بعدما اسمعتنا من أضراره فماذا أقدم لكم ؟ قلت : أليس فى حديقتك هذه المجاورة نعناع ؟ قال : فيها نعناع . قلت : دع رجالك يحضروا شيئاً منه ويغسلوه ثم يجهزوه كما يجهز الشاى ولكن إذا غلى أول غلية فلينزل من فوق الموقد ودعوه مغطى لبضع دقائق ثم يقدم لنا جميعاً محلى بالسكر .. وقد فعلوا وشرب الجميع وأثنوا على طعمه ومذاقه ، وقد شرحت لهم فوائده الصحية مع رخصه وتيسر وجوده فى كل مكان .

مواجهة بين المرشد العام وطه حسين

لما انتقلت الدعوة بمركزها العام إلى ميدان الحلمية الجديدة ، رأى الأستاذ أحمد السكرى أن ينتقل إلى القاهرة ورأى الأستاذ المرشد أن يهىء له ذلك فألحقه بوظيفة فى ديوان وزارة المعارف سكرتيراً لمدير التعليم الزراعى .

وفى ذلك الوقت عين الدكتور طه حسين المستشار الفنى لوزارة المعارف ، وهو منصب لم يكن موجوداً من قبل ولكنه أنشىء للدكتور طه شخصياً ، وكان لتعيين الدكتور طه فى هذا المنصب دوى هائل فى جميع الدوائر التعليمية والثقافية فى مصر وفى خارج مصر ، باعتبار أن صاحب هذا المنصب هو الذى سيوجه الثقافة فى مصر حيث يشاء ، وسيتحكم فى تلوين ثقافة البلاد باللون الذى يروقه . وقد يكون هذا المنصب أخطر المناصب تأثيراً فى بلد ناشىء كمصر تتجاذبه تيارات متضاربة لا يدرى أيها أنفع له ولا إلى أيها يتجه . ولطه حسين نزعات عرفت عنه واشتهر بها . وتوجس الكثيرون خيفة مما عسى أن يسفر عنه تعيينه فى هذا المنصب الخطير .

وطه حسين أديب ضليع تلقى الأدب على الشيخ المرصفى الذى كان إمام عصره . ودرس فى الأزهر حتى أوشك أن يحصل على شهادة العالمية منه — وهى أعلى شهاداته — ولكنهم — لسبب ما — أسقطوه مع أنه لم يكن يعوزه العلم ولا اللغة ولا الذكاء ... فاتجه منذ ذلك الوقت — مكرها — إلى الجامعة المصرية الناشئة وحصل منها بتفوق على الليسانس ، وأوفدته الجامعة فى بعثة إلى باريس حيث حصل على الدكتوراه وتزوج فرنسية حضرت معه إلى مصر وعين مدرسا بكلية الآداب وصار يكتب ويحاضر فى الجامعة وخارجها ... واقتحم إلى ميدان

السياسة وناصر حزب الوفد فاعتبر بذلك من المناوئين للسراى ... وألف مؤلفات فى الأدب الجاهلى والشعر الجاهلى كان لها ضجة فى أنحاء البلاد ، واستطاع بذلك أن يبرز فى المجتمع ، فحقق بذلك من آماله مالم يكن ليحققه لو أنه حصل على العالمية وسلك طريقها ..

وكاد الأزهر فى حملاته عليه أن يعصف به ويقضى عليه قضاء تاماً لولا أنه كان يأوى بانتسابه لحزب الوفد إلى ركن شديد .. ومع ذلك فإن الأزهر بعدائه له واستعدائه السراى استطاع فى إحدى الفترات أن يفصله من الجامعة فاحتضنه الوفد وأوسع له من صحفه يحرر فيها بأسلوبه الأدبى الناقد مستغنياً بذلك عن مرتب الجامعة .. ولكنه بعد كل هذا استطاع أن يرجع إلى الجامعة ويصير عميداً لكلية الآداب وتبوأ أعلى المناصب حتى وصل إلى هذا المنصب الذى استحدث من أجله تقديراً لمكانته وإقراراً بفضله .

على أن احتفاء حكومة فى بلد كمصر - لا سيما فى الزمن الذى نحن بصدده - بانسان وإحلاله فى أعلى المناصب وإضفاء الألقاب الرنانة عليه ، ليس دليلا على فضله ولا على جدارته ، فمثل هذه الحكومات إنما تستوحى قراراتها وتستلهم اختياراتها من أهواء شخصية أو عصبية حزبية أو توجيهات أجنبية ... ولست أقصد من هذا إلى الطعن فى طه حسين أو الغض من مقدرته الأدبية أو الاستخفاف بمواهبه الفطرية ، فقد ألمحت إلى ذكائه ومكانته الأدبية ، ولكننى أحببت أن لا يولى القارىء اتجاهات الحكومات فى ذلك العهد من الاهتمام والتقدير أكثر مما تستحق .

أما عن طه حسين نفسه فإنه .. مع ذكائه ونافذ بصيرته - شاب طاردته أكبر جامعة دينية فى بلده فتلقفته جامعات فرنسا ، وأوسعت له من وارف ظلها ، فأحس فى ظلالها بترحاب لم يحظ بشىء منه فى بلده وتقلب فى أحضان نعمة لم يذق مثلها فى منشئه ، ولم تكتف فرنسا بذلك كله بل حبته أيضاً قطعة من نفسها حتى يكون حيث كان ومعه روح فرنسا تسيطر على بيته ونفسه وقلبه وعقله ، تلك هى زوجته ... ولولا أن طه حسين كان منطوياً على قلب حصين - لأنه كان يحفظ القرآن منذ نشأته - لما كان مثله بعد ذلك إلا فرنسياً خالصاً .

وضع طه حسين فى هذه الأثناء كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » ضمنه آراء فيما يجب أن تتجه إليه الثقافة فى مصر ، وكان لهذا الكتاب دوى كبير فى جميع الأوساط لاسيما الأوساط التعليمية والتربوية التى كان يعنيها موضوع الكتاب قبل غيرهم ، ولأن الكتاب كان دعوة صريحة إلى الاتجاه إلى الغرب بطريقة مزعجة فقد جاء فى الكتاب مايكاد يكون نصه « وأرى أن نأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها حلوها ومرها » .

وقد تناولت الكتاب أقلام النقاد بين قادح ومادح ، وسالت أنهار الصحف بهذا النقد ، فالمادحون هم الذين تربوا فى أحضان الحضارة الغربية فهم بها مفتونون ، والقادحون كان أكثرهم من أعداء طه حسين التقليديين ... ولا أعتقد أن كتاباً فى العصر الحديث فى مصر استأثر باهتمام المشتغلين بالتربية والتعليم مثلما استأثر به هذا الكتاب ، للظروف التى صدر فيها والتى أشرت إلى طرف منها .

كنت فى ذلك الوقت فى عمل فى مغاغة ، ولم تكن وسائل المواصلات ولا وسائل الإعلام قد تقدمت فى بلادنا فى ذلك العهد بعد ؛ فلم يكن الراديو قد انتشر فى مصر أو قد وجد ، فكانت الأحداث التى تضطرب بها العاصمة قلما يصل من أنبائها إلى غيرها من البلاد لا سيما بلاد الصعيد ولولا أن هذا الكتاب قد ظهر وقرأت عنه وأنا أتردد على القاهرة فى أوائل أيام انتقالى إلى مغاغة لكنت كأهل الصعيد خالى الذهن عنه ..

و صلنى خطاب من الأستاذ المرشد يخبرنى فيه أنه سيحضر لزيارة إخوان « سدس الأمراء» وأنه يريد أن أكون فى انتظاره على محطة « ببا » وحدد لى اليوم وموعد وصول القطار ....» وفى الموعد المحدد كنت والاستاذ شلبى ومجموعة من الإخوان فى انتظاره ، وقد صحبناه إلى سدس الأمراء – وهى قرية من أعمال مركز ببا محافظة بنى سويف .. وكان يوماً كريماً من أيام الله ..

وفى أثناء ذلك انتهز الأستاذ فرصة كنت وإياه منفردين فقال لى : أتعرف يا محمود لماذا حرصت هذه المرة على أن تقابلنى ؟ قلت : لعله خير إن شاء الله . قال : إن عندى حديثاً يجب أن تعرفه وظروفك حالت دون أن تكون معنا لتشهده . قلت متشوقاً : وما عساه أن يكون ؟ قال : لعلك طبعاً علمت بما كان من أمر كتاب الدكتور طه حسين الذى أصدره أخيراً عن « مستقبل الثقافة فى مصر » وما تناولته الصحف من نقده . قلت نعم ... قال : لقد بلغنى أن الرجل لم يكترث بكل ماكتب وأنه مصمم على وضع آرائه فى الكتاب موضع التنفيذ باعتباره « مستشار الوزارة » ولم أكن لضيق وقتى قد اطلعت على هذا الكتاب بعد .. وقد اتصل بى بعض أصدقائنا من الغيورين وطلبوا إلى أن أنقد الكتاب ..فلما قلت لهم إننى لم أطلع عليه قالوا : إنه لم يعد هناك وقت وكان يجب أن تكون قد قرأت الكتاب فقد ظهر منذ عدة أشهر والدكتور طه لم يكترث بكل ماكتب ونشر وبكل ماقيل وقد قرر وضع الكتاب موضع التنفيذ ، ولا ينبغى أن يكون هناك تغيير جذرى فى سياسة البلد الثقافية دون أن يقول الإخوان كلمتهم قال : ولم يكتفوا بذلك بل أخبرونى أنهم حددوا موعداً فى دار الشبان وطبعوا الدعوات وكان الموعد بعد خمسة أيام . قال الأستاذ : ولما لم أكن أستطيع التحلل من مواعيد كنت مرتبطاً بها فى خلال هذه الأيام الخمسة فلم أجد وقتاً أخصصه لقراءة هذا الكتاب إلا فترة ركوبى الترام فى الصباح إلى مدرستى وفترة رجوعى منها فى الترام . قال : فقرأت الكتاب – لأنه لم يكن كبيراً – وكنت أضع علامات بالقلم الرصاص على فقرات معينة .. ولم تمض الأيام الخمسة حتى كنت قد استوعبت الكتاب كله .

قال الأستاذ : وفى الموعد المحدد ذهبت إلى دار الشبان فوجدتها – على غير عادتها – غاصة .. والحاضرون هم رجالات العلم والأدب والتربية فى مصر ، ليس من هو دون هذا المستوى .. ووقفت على المنصة واستفتحت بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبجانبى الدكتور

يحيى الدرديرى السكرتير العام للشبان المسلمين : ورأيت الكتاب كله منطبعاً فى خاطرى بعلاماتى التى كنت علمتها بالقلم الرصاص ...

قال وبدأت أول ما بدأت فقلت : إننى لن أنقد هذا الكتاب بكلام من عندى وإنما سأنقد بعضه ببعضه ... وأخذت – ملتزماً بهذا الشرط – أذكر العبارة من الكتاب وأعارضها بعبارة أخرى من نفس الكتاب .. ولاحظ الدكتور الدرديرى أننى فى كل مرة أقول « يقول الدكتور طه فى الكتاب فى صفحة كذا وأقرأ العبارة بنصها من خاطرى ثم أقول ويناقض الدكتور طه نفسه فيقول فى صفحة كذا وأقرأ العبارة بنصها أيضا من خاطرى » فاستوقفنى الدكتور الدرديرى ، وطلب إلى أن أمهله حتى يحضر نسخة من الكتاب ليراجع معى النصوص والصفحات لأنه قرأ الكتاب ولم يلاحظ فيه هذا التناقض وكأنه لم يقرأ العبارات التى يسمعها الآن .

وأحضر له الكتاب ، وظل يتابعنى فيجد العبارات لا تنقص حرفاً ولا تزيد حرفاً ، ويجد الصفحات كما أحددها تماماً ، فكاد الدكتور الدرديرى يجن كما ساد الحاضرين جو من الدهشة والذهول ، والكل يتجه – كلما قرأت من خاطرى عبارتين متناقضتين – إلى الدكتور الدرديرى كأنهم يسألونه : أحقاً هذه العبارات فى الكتاب ؟ فيقول الدكتور الدرديرى فى كل مرة « تماماً بالنصوص والصفحات » .

قال الأستاذ : وظللت على هذه الوتيرة حتى أنهيت الكتاب كله وأنهيت المحاضرة .... فقام الجميع وفى مقدمتهم الدكتور الدرديرى بين معانق ومقبل .

قال الأستاذ : ولما هممت بالانصراف رجانى الدكتور الدرديرى أن أنتظر برهة لأنه يريد أن يسر إلى حديثاً ، واقترب منى وأسر فى أذنى سراً تعجبت له قال : لما نشرنا عن موضوع محاضرتك وموعدها اتصل بى الدكتور طه حسين وطلب إلى أن أعد له مكاناً فى هذه الدار يستطيع فيه أن يسمع كل كلمة تقولها دون أن يراه أو يعلم بوجوده أحد فأعددنا له المكان وحضر المحاضرة من أولها إلى آخرها ثم خرج دون أن يره أو يعلم به أحد .

قال لى الأستاذ المرشد : وفى اليوم التالى ، طلب الدكتور طه حسين بمكتبه بوزارة المعارف الأستاذ أحمد السكرى وقال له : أحب أن ترتب لى اجتماعاً بالأستاذ حسن البنا فى أى مكان بحيث لا يكون معنا أحد وبحيث لا يعلم به أحد ، وليكن هذا المكان فى بيته أو بيتى أو فى مكتبى هنا ، فليختر واحداً من هذه الأمكنة . قال الأستاذ : وأبلغنى الأستاذ أحمد السكرى بذلك فرأيت أن يكون الاجتماع فى مكتبه بالوزارة .

قال : وبدأ الدكتور طه الاجتماع بقوله : لعلك يا أستاذ حسن لا تعلم بأننى حضرت محاضرتك وبأننى كنت حريصاً على حضورها وعلى الاستماع إلى كل كلمة تقولها لأننى أعرف من هو حسن البنا ، وأقسم لك لو أن أعظم عظيم فى مصر كان فى مكانك ما أعرته اهتماما ....

قال لى الأستاذ المرشد : لشكرته ثم سألته عن رأيه فى المواضع التى وجهت النقد إليها فى الكتاب ، وهل لديه من رد عليها ؟

قال الدكتور طه : ليس لى رد على شىء منها ، وهذا نوع من النقد لا يستطيعه غيرك ، وهذا هو ماعنانى مشقة الاستماع إليك ، ولقد كنت استمع إلى نقدك لى وأطرب ... واعلم يا أستاذ حسن لو كان أعدائى شرفاء مثلك لطأطأت رأسى لهم ، لكن أعدائى أخساء لا يتقيدون بمبدأ ولا بشرف ، إن أعدائى هم الأزهريون ، وقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يمحوا اسمى من التاريخ ، ولقد كرست حياتى لإحباط مكايدهم ، وهأنذا بحمد الله فى الموضع الذى وتتقطع أعناقهم دونه ... ليت أعدائى مثل حسن البنا إذن لمددت لهم يدى من أول يوم .

ثم قال الدكتور طه : هل هناك سوى ذلك مما قد نختلف عليه مما تعرفه عنى ؟

قلت : هناك قضية العلم والدين ، إنكم تنادون بأن يكون الدين فى خدمة العلم ، وهو الرأى الذى تقوم عليه الحضارة الحديثة فى الغرب ... وهذا الرأى خاطىء لأن معناه أنه إذا اصطدم الدين مع العلم فى أمر من الأمور نبذ الدين واتخذ العلم ديناً .

يجب الفصل بين العلم والدين ، لأن الدين حقائق ثابتة والعلم نظريات متطورة ، فإذا ألبسنا العلم ثوب الدين جمدنا العلم ، وإذا نحن أخضعنا الدين للعلم ، فلسفنا الدين فأخرجناه بذلك عن طبيعته ولم يعد ديناً .

قال الأستاذ : ثم تناقشنا فى مواضيع مختلفة تدور حول طبيعة الفكرة الإسلامية ومدى إحاطتها بكل نواحى المجتمع فكان آخر حديث لى بعد أن تحدثنا أكثر من ساعتين أن قلت له : لو أن أصحاب الآراء حين يختلفون حول أمر من الأمور لم يعتقد كل منهم أن رأيه هو الصواب كله وأن آراء غيره هى الخطأ كله بل أضاف إلى اعتقاده فى صحة رأيه اعتقاداً بأنه قد يكون فى آراء الآخرين نوع من الصواب وإن لم يبن له ، .. لما اشتد الخلاف ووصل إلى خصومة تطمس فى ظلماتها معالم الحقيقة . وينقلب النقاش من كونه وسيلة للبحث عن الحقيقة إلى محاولة للانتصار للرأى والمجادلة بالباطل . قال الأستاذ وقلت له : إن خير مثل يوضح ذلك ما ذكره الإمام الغزالى من أن أربعة من العميان وقفوا حول فيل فلمس أحدهم أقرب مايقابله منه فكان الخرطوم فقال إن الفيل ماهو إلا خرطوم طويل رفيع ، ولمس الثانى أذن الفيل فقال : لا إن الفيل هو صفحة جلدية واسعة ، ولمس الثالث رجل الفيل فقال : لا ... بل هو عمود مستدير ، ولمس الأخير جسم الفيل فقال لا : بل هو حائط عريض أملس ... قال الأستاذ : فلو أن هؤلاء الأربعة لم يتعصب كل منهم لرأيه وتركوا فرصة للتفاهم فيما بينهم .. ولا يمكن تفاهم إلا إذا افترض كل منهم أن يكون فى رأى غيره بعض من الحقيقة — لامتدت يد كل منهم إلى مواضع أيدى زملائه فيلمس مالمسوا فتتكون عند كل منهم صورة كاملة عن الفيل .

هذا ... وبعد أن رويت عن الأستاذ المرشد مارويت فى هذه الواقعة ، يجدر بى أن أقرر —

تحرياً للصدق ، وصوناً لأمانة النقل – أنني أسجل مادار في هذه اللقاءات بعد ستة وثلاثين عاماً من سماعي إياها فقد أكون أنسيت بعضاً منها – وقد أنسيت بغير شك الكثير – وقد لا يكون تعبيري عن البعض الباقي في الذاكرة منها دقيقاً تمام الدقة... لكنني كنت حريصاً على تسجيل الخطوط العريضة منها ، وتسجيل أن من آثار هذا اللقاء أن عدل الدكتور طه حسين عن آرائه التي سجلها في كتابه هذا وفي كتبه ومقالاته التي سبقته وكان له في بقية في حياته خط آخر استحق به أن يكون عميد الأدب العربي .

عودة الى البناء الداخلي للدعوة

بعد هذا الاستطراد الذي تناولنا فيه تجربة مفاغة والمواجهة بين الأستاذ المرشد وطه حسين ، نرجع إلى ما خصصنا له هذا الفصل مما يتصل بالبناء الداخلي للدعوة فنقول : سافرت إلى القاهرة ناوياً الإقامة فيها فرأى الأستاذ المرشد أن يسند إلى بعض مهام الدعوة حيث كنت في تلك الأثناء متفرغاً فكلفني بالإشراف مع الصحافة والطلبة .

١ – صحافة الدعوة

مجلة التعارف

بعد أن فقد الإخوان مجلة النذير في أعقاب الفتنة الأولى لم يعد للإخوان مجلة يملكون امتيازها فلجأوا إلى استئجار مجلات كان أصحابها قد حصلوا على الترخيص بها لا لإصدارها لحسابهم – لأنهم يعجزون عن ذلك – وإنما فعلوا ذلك حتى تستأجرها منهم هيئة من الهيئات..وقد ظل المركز العام منذ انتقاله إلى الحلمية الجديدة يستأجر مجلات من هذا النوع عدة سنوات وكلما صودرت واحدة استأجر أخرى ومن هذه المجلات النضال والمباحث والتعارف ...

والمجلة التي أسند إلى الإشراف عليها كانت مجلة التعارف ،وكان إشرافي عليها في الفترة التي سقطت فيها فرنسا في يد الألمان ، وكان لسقوطها دوى هائل في أنحاء العالم لأنها لم تستطع الثبات أمام هجمات الألمان حتى ركعت على ركبتيها واستسلمت وتألفت فيها حكومة جديدة على رأسها الماريشال بتيان وكان من أشهر القواد الفرنسيين ، وقد صرح تصريحاً مشهوراً سجله التاريخ أقر فيه بأن هذه الهزيمة المنكرة إنما تعزى إلى الإنهيار الخلقي الذي انحدر إليه الشعب الفرنسي .

وكان هذا التصريح مثار تعليقات في الصحافة العالمية لأمد طويل لأن سقوط فرنسا بهذه

السرعة كان مفاجأة أذهلت العالم كله .. وكان أشد الناس اهتماماً بتصريح الماريشال بيتان أولئك الذين ظلوا سنين طويلةمن قبل يحذرون شعوبهم وحكوماتهم من سوء العاقبة لإذالم يتمسكوا بأهداب الدين والخلق .. وكان الإخوان المسلمون فى مصر على رأس هذا الصنف من الناس وكانت مجلتهم هى المرآة التى تعكس مدى اهتمامهم بهذا التصريح فظلت تكتب أمداً طويلا المقالا ت الضافية تعليقاً على سقوط فرنسا وأسباب هذا السقوط التى اعترف بها ماريشال فرنسا

وكانت هناك سلسلة متصلة من المقالا ت فى هذا الموضوع دبجها يراع طالب بكلية أصول الدين كانت قطعاً أدبية بالغة الروعة ، فلما وصلتنى المقالة الأولى منه أخذت بروعتها ولكننى حين رتبت وضع المقالات فى المجلة جعلتها فى الصفحات الداخلية باعتبار أنها على كل حال من كتابة طالب ولكننى حين عرضت على الأستاذ المرشد الترتيب الذى هيأته للنشر توقف عند هذه المقالة وقال لى : ألم تأخذ بلبك هذه المقالة ؟ قلت : بلى . قال : ولم لم تجعلها المقال الافتتاحى إذن : ألأنه طالب ؟ قلت : هذا فعلا هو السبب . قال : أرى أن تجعلها المقال الافتتاحى وأن تجعل كل مقالا ته دائماً المقالات الافتتاحية لأننى أشم فى كتابته أدب الرافعى رحمه الله . وقال لى : إنه الرافعى الصغير ، وكان هذا الطالب الذى أطلق عليه الأستاذ المرشد لقب «الرافعى الصغير » هو إسماعيل حمدى الطالب إذذاك بكلية أصول الدين ، وكنا إذذاك فى الأجازة الصيفية فكان يرسل إلى مقالا ته تباعاً من بلدته « إمرى ».

وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ المرشد كان يضع أدب الرافعى فى أعلى مراتب الأدب فى عصره وينظر إلى الرافعى باعتباره رائد الأدب الإسلامى ، وناهيك بمن يحله الأستاذ المرشد هذا المحل ، فالأستاذ المرشد كان هو الرجل الذى لو شاء أن يتخصص للكتابة الأدبية لملك ناصيتها ولكان قمةالأدبولما لحق به كل من تسنموا هذه القمة ... فكان رحمه الله – وهو صاحب الدعوة الإسلامية فى هذا العصر ... يرى الرافعى رحمه الله فى مقام حسان بن ثابتفى عصر النبوة ... وكان – كما ألمحت من قبل – يحفظ الكثير من شعر الرافعى مع أن أكثر الناس – وكنت منهم – لايعرفون أن الرافعى كان شاعراً كما كان ناثراً ولايعرفون أن له ديواناً مطبوعاً ، وأنا شخصياً لم أر هذا الديوان إلا عند الأستاذ المرشد ، ولاشك فى أن القوى الخفية المعادية للفكرة الإسلا مية كانت من وراء حجب ما أمكنها حجبة من أدب الرافعى عن الجمهور لأنه كان أدباً نفاذاً إلى القلوب صادراً من قلب يضطرم بأسمى العواطف الإسلامية . وحسبك أن تستمع إلى نشيده الوطنى الذى اخترق بأعجوبة هذه الحجب المصطنعة فردده الشعب فى أثناء صحوة من صحواته الوطنية والذى فاصلته :

لك يامصر السلامه وسلاماً يابلادى
إن رمى الدهر سهاماً اتقيها بفؤادى
واسلمى فى كل حين

ومن أبياته التى كان الأستاذ المرشد يتمثل بها قوله :

لو كل مزمار لهو عندنا خنث لنسابه مدفع فنانه بشع
إذن لكانت لنا بين الورى لغة متى تقل لوطها فى العالم استمعوا

وكان الأستاذ المرشد حريصاً على تربية خليفة يخلف الرافعى فى أدبه لأن الدعوة الإسلامية لاتستغنى عن قلم يدافع عنها فى عالم الأدب ويرفع رايتها بين الرايات فيه ، وكان يرشح اثنين لهذه الخلافة : إسماعيل حمدى ، وعبد المنعم خلاف ؛ وكان يعمل دائماً على إفساح الطريق لهما بكل ما يستطيع من وسائل ولكن يبدو أن النكبات التى توالت على الدعوة لم تدع لهما فرصة .

وكان من الكتاب الذين يوصينى الأستاذ بالعناية بهم وإفساح المجال لمقالاتهم« محمد الغزالى » الذى كان إذذاك طالبا بكلية أصول الدين أيضا فقد كان الأستاذ المرشد يبدى إعجابه بقلمه وبأسلوبه .

مجلة المنار :

مجلة المنار هى المجلة التى كان يصدرها ويحررها الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ، وكان قوامها ماينشره فى صدرها من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمدعبده ، حيث كان الشيخ محمد عبده يلقى درساً فى جامع الأزهر فى تفسير القرآن تحضره مجموعة من صفوة العلماء ورواد الفكر والأدب والوطنية وكان له فى مقدمتهم زميله وأقرب تلامذته إلى نفسه الشيخ محمد رشيد رضا .. وكان الشيخ محمد رشيد رضا حريصاً على كتابة مايلقيه أستاذه فى الدرس وينشره فى هذه المجلة تباعاً . ولما كان الشيخ محمد عبده على رأس رواد الفكرة الإسلامية فى هذا العهد وصاحب نظرية إصلاحية أبرزت الفكرة بصورة شاملة مما لم يكن للناس ولا لعلماء الأزهر بها عهد ، فقد كان تفسيره للقرآن طرازاً جديداً من التفسير تهافت الناس على قراءته فى أنحاء مصر وفى أنحاء العالم العربى والإسلامى وكانت الوسيلة الوحيدة إلى ذلك هى اقتناء مجلة المنار ... وبذلك حظيت هذه المجلة من الذيوع والانتشار مع التوقير والاحترام بما لم تحظ به مجلة أخرى فى العالم العربى والإسلامى لا سيما فى أوساط العلماء والأدباء والمثقفين .

ولما اختار الله الشيخ محمد عبده إلى جواره واصل الشيخ محمد رشيد رضا إصدار المنار

مقتفيا أثر أستاذه في التفسير بنفس الأسلوب وبنفس المستوى حيث كان الشيخ رشيد في درجة من العلم والإدراك والإحاطة لاتقل عن درجة أستاذه فيها ... ولذا فقد ظلت المنار بعد وفاة الشيخ محمد عبده في مكانها الرفيع من نفوس العالم العربي والعالم الإسلامي .

على أن المنار لم تكن قاصرة على مقال التفسير – وإن كان مقال التفسير يشغل أكثر صفحاتها – بل كانت تحفل بمقالات وبحوث وفتاوى كان أكثرها بقلم الشيخ رشيد ، وإن كانت لا تخلو من مقالات قليلة لبعض كبار الكتاب الإسلاميين حيث لا يجرؤ أكثر الكتاب على التقدم إليها بمقالاتهم ....

وظلت « المنار » في مكانها الرفيع حتى اختار الله الشيخ رشيد إلى جواره وكان قد وصل في التفسير إلى سورة هود ، فأخذت أسرة الشيخ رشيد في البحث عن أكبر عالم في العالم العربي ليخلف الشيخ رشيد في المنار حتى وفقوا إلى طلبتهم فأسندوا تحريرها إلى عالم جليل من سورية لا أذكر اسمه الآن فحاول متابعة التفسير على مستوى الشيخ رشيد فأتم تفسير سورة يوسف وهنا فوجىء الأستاذ بأسرة الشيخ رشيد تطلب إليه أن يقوم بأعباء « المنار » .

ولم يكن الأستاذ المرشد غريباً على أسرة الشيخ رشيد فلقد كان على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالبا بدار العلوم وكانت دار مجلة « المنار » ملتقاه بأكثر من التقى بهم من رجالات الحركة الإسلامية في ذلك العهد واتخذت أكثر القرارات في مواجهة المؤامرات ضد الإسلام في هذه الدار ، وظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان وكان يستشيره في كثير من الأمور .

تردد الأستاذ المرشد أمام طلب أسرة الشيخ مع علمه بأن إسناد تحرير « المنار » إليه شرف لايعادله شرف واعتراف له بالزعامة العلمية والأصالة الإسلامية ، ولكن تردده بل رفضه الذي صرح به لأسرة الشيخ كان لسببين يكتمهما عن الأسرة هما :

أولا : أن إسناد تحرير « المنار » إليه سيقتطع من وقته جزءاً كبيراً لأنه سيضطر – أخذا بطريقة الشيخ ومتابعة لخطته ومحافظة على مستوى المجلة – إلى تحريرها كلها بنفسه ، ولما كانت الدعوة لاتتيح له هذا الوقت فإنه يخشى أن تطغى واحدة منهما على حق الأخرى .. وفي حين أن الدعوة لا تستغني عنه فقد يجدون هم في العالم الإسلامي من يقوم بأعباء « المنار » .

ثانيا : أنه حرصاً منه على استمرار صدور « المنار » باعتباره أحد المعالم الإسلامية يرى أن لايصدرها هو ، حتى تكون في مأمن من المكايد التي يدبرها أعداء الإسلام الدعوة ومنها

مصادرة صحفها وسحب تراخيصها ، وقال لهم : إننى مع حرصى فى هذا الطور من أطوار الدعوة على تجنب الاصطدام بالسلطات فإنهم ألفوا لنا عدة مجلات كنا نستأجرها ونصدرها ... وقال لهم : إن أعداء الدعوة من الخسة والنذالة بحيث لا يتورعون عن إلغاء « المنار » نكاية فينا لأنهم لاوازع لهم من دين أو خلق أو حياء .

وأصر الأستاذ المرشد على الرفض وأصرت الأسرة على إلزامه حتى اضطر أخيراً إلى النزول على إرادتهم بعد أن بين لهم المخاطر .

وأصدر الأستاذ « المنار » وصار يحرر أكثر ما فيها بقلمه وبدأ فى التفسير حيث انتهى سلفه فبدأ بتفسير سورة « الرعد » فخرجت « المنار » تفسيراً وتحريراً فى المستوى الرفيع الذى اعتاده قراؤها فى العالم الإسلامى أيام الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا .

وكان لإصدار الأستاذ المرشد مجلة « المنار » أصداء فى الأوساط العلمية الإسلامية عبر عنها الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر فى ذلك العهد بمقال قدم به الأستاذ المرشد إلى قراء المنار أنصف به الرجل الأستاذ المرشد إنصافاً أقر له بالإمامة فى العلم وفى الدعوة .

وصدر من المنار بضعة أعداد ثم أصابته جائحة من الجوائح الحكومية وانقطع عن الصدور مع انقطاع المجلة الأسبوعية .

الشهاب : ثم أصدر الأستاذ « الشهاب » وهو بديل للمنار وفى نفس اتجاهه ومستواه وبعد أن صدرت منه بضعة أعداد كان مصيره مصير سابقيه .

٢ — الطلبة :

كانت المهمة الأساسية التى أسندت إلى وشغلت وقتى كله وجهدى كله فهى مرور دائب لا ينقطع على المدارس والمعاهد والكليات وزيارات للعواصم ومحاضرات ومساجلات ومناقشات ومؤتمرات خاصة بالطلبة كنا نعقدها بدار جمعية الشبان المسلمين وكان الأستاذ يوليها أعظم اهتمام تصدر عنها مقررات تطبع وتوزع فى القاهرة والأقاليم .

ندوة الخميس : وهى أسلوب استحدثته لمخاطبة الطلبة فقد رأيت أن « حديث الثلاثاء » غير كاف للإجابة على كل ما تختلج به نفوس الطلبة وعقولهم من أحاسيس ومشاكل وأفكار مع أن الأستاذ المرشد كان حريصاً على أن يطرق فى حديث الثلاثاء مواضيع شتى تمس جميع الفئات .

وقد اقترحت على الأستاذ المرشد أن يخصص يوماً فى الأسبوع للطلبة وحدهم يتقدمون فيه

بأسئلتهم ويجيب هو عليها . وبدأنا هذا الأسلوب عن طريق أسئلة شفهية يقوم الطالب فى الندوة فيلقى سؤاله ويقوم الأستاذ بالإجابة عليه . ثم تبين لى أن لدى بعض الطلبة أسئلة يحجمون عن التصريح بها شفاها فطورنا الندوة إلى أسئلة تكتب وتقدم للأستاذ وهو على المنصة فيجيب عليها ثم تبين لى بعد ذلك أن هناك أسئلة تتلجلج فى نفوس الكثيرين منهم ويستحيون أن يتقدموا بها ولو مكتوبة – حيث كنت أتسلمها طيلة أيام الأسبوع ثم أقدمها للأستاذ عند عقد الندوة .

فأعددنا صندوقاً ثبت على حائط يلقى فيه كل صاحب سؤال بسؤاله مكتوبا ولصاحب السؤال أن لا يذكر اسمه .. وفى نهاية الأسبوع أفتح الصندوق وأتناول مافيها من أوراق وأقدمها إلى الأستاذ فيقرأها ويرتبها ويجيب عليها فى الندوة .

وكان لهذا الأسلوب آثار طيبة جداً فى توضيح ماكان غامضا على كثير من الطلبة من الحقائق والمواقف فى الفكرة الإسلامية وغيرها ، كما أنه كان وسيلة ناجحة لحل مشاكل عائلية وعقد نفسية كانت مستعصية ماكان هناك من سبيل للكشف عنها ومعالجتها بغير هذا الأسلوب .

وعن طريق هذا الأسلوب الذى وفقنا الله إليه تخرج من هذا الرعيل من الطلبة أفواج انتشرت فى أنحاء البلاد فكانوا منار هدى ودعاة خير لأنهم صاروا بهذا الأسلوب دعاة مستبصرين .

من آثار النظام الإدارى التربوى الإخوانى :

تحدثت عن النظام الإدارى الذى أخذت به الدعوة حين انتشرت فى أنحاء البلاد واقتضى الأمران يرتبط الإخوان بنظام تتسلسل فيه القيادات ويسهل عن طريقه الاتصال بين أعلى قيادة وأبعد فرد فى أقرب وقت ، وتتوزع فيه المسئوليات توزعاً يفتت نظام المركزية الذى من من طبيعته أن تنعدم فيه الفرص لتكوين الشخصية فى التابعين ، فى حين أن طبيعة الإسلام وأساسه توفير جميع العناصر التى تكون الشخصية لكل فرد من أتباعه « أن لا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى »

ولاشك فى أن هذا النظام الإدارى قد آتى أكله ، وأثمر أينع الثمر ، فلقد كنت تحضر جلسة من جلسات أصغر وحدة من وحدات هذا النظام الإدارى وهى مجلس الإدارة لشعبة فرعية ، فتحس كأنك جالس وسط برلمان يتجلى فيه النظام والديمقراطية بأجلى معانيهما ، فالمناقشات تدور فى حدود جدول أعمال يقدمه نائب الشعبة فيدلى كل برأيه متوخياً المصلحة العامة مهتدياً بأضواء الفكرة الإسلامية دون أنانية ولا تعصب ، وتتلاقح الآراء ويخرجون منها بالرأى

الذى ينتهون إليه سواء بإجماعهم أدو بأغلبيتهم ... وتلمح فى عيون الجميع ابطهو الأهتام حين يدرسون مواطن الضعف فى قريتهم وكيف يعالجون هذه المواطن كأن الواحد منهم يدرس أخص مصالحه الخاصة ، وبعد أن يشخصوا أنواع الضعف ويضعوا علاجاً لكل نوع يوزعون مسئوليات هذا العلاج على أنفسهم وعلى زملائهم بالشعبة فيعرف كل منهم ماهو منوط به من بذل أو عمل ... وبعد ذلك كله يتكلمون عن مسئولياتهم العامة أمام أمتهم باعتبارهم أعضاء فى دعوة مهمتها إصلاح مرافق الأمة الإسلامية بالأسلوب الإسلامى الحكيم ... وحين تسمع حديثهم فى هذه الناحية تنسى أنك فى قرية صغيرة فى أطراف البلاد وأنك بين أفراد من هذه القرية أقرب وصف لهم أنهم أميون أو أشباه أميين ... ولكن المثير حقاً هو ما لهذه الدعوة الإسلامية من صبغة يصطبغ بها المنتمون إليها فتطلق فيهم هذه الصبغة من طاقات الفهم والإدراك وحسن التقدير وواسع الإحاطة ما يسمو بهم إلى أعلى المستويات مهما كانوا من قبل فى أدناها .

وتحضرنى فى هذا العدد واقعة حدثت فى خلال هذه الحقبة من الزمن التى نعالج وصف حال الدعوة فيها وقد حدثنى صاحبها عنها فى وقتها :

وصاحب هذه الواقعة كان أخاً صغيراً من إخوان شعبة فوة وكان إذ ذاك فى سن دون العشرين اسمه الأخ مصطفى عنانى وكان يعمل نجاراً فى ورشة والده ولم تتح له الظروف أن يحصل على أدنى قسط من التعليم لكنه كان ملماً بشىء من مبادىء القراءة والكتابة ، فلما شب وصار فى السن الذى ذكرت كلفه والده بأن ينوب عنه فى شراء الخشب الذى يلزمهم من الإسكندرية ، فكان إذا أعد نفسه لهذه المهمة لبس « بدله » بدلا من ملابس الشغل ، وكان سفره دائماً فى الدرجة الثالثة من القطار ... وكان طلاب جامعة الإسكندرية من أهل دمنهور وما حولها يذهبون صباح كل يوم إلى الإسكندرية بالقطار ويرجعون إلى دمنهور بعد انتهاء الدروس بقطار المساء .

قال لى الأخ مصطفى : أنهيت عملى فى الإسكندرية فى ذلك اليوم وذهبت إلى محطة الإسكندرية لآخذ القطار الذى يوصلنى إلى دمنهور كالمعتاد حيث دمنهور هى المحطة الأولى فى ذلك الوقت بين الإسكندرية وفوة - قال فوجدت القطار مزدحماً أشد ازدحام فى الدرجة الثالثة فانتقلت إلى عربة من عربات الدرجة الثانية فوجدت أحد دواوينها مكاناً شاغراً فاقتحمت إليه وجلست فيه .. وتحرك القطار فلاحظت أن السبعة الموجودين معى فى الديوان من طلبة جامعة الإسكندرية وأخذوا يتناقشون فى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى كانت تشغل بال الناس فى ذلك الوقت ، وظلوا يتناقشون وأنا أستمع فكنت أنا الوحيد الذى ألتزم الصمت فى حين تكلم الجميع .. ويبدو أنهم لم يعتادوا أن يروا فى مجتمعهم هذا من يلتزم الصمت فاتجه نحوى أحدهم وسألنى

لم لم تشترك معنا فى الحديث وما رأيك فيما أثير من موضوعات ؟ فاعتذرت إليهم من هذا الصمت ودخلت معهم فى المناقشة وأخذت أتناول كل موضوع أثاروه وأحلله وأناقشه فى ضوء الدعوة فرأيت الجلسة قد تغير وضعها واتخذت وضعا آخر ، فبعد أن كان النقاش يدور بحيث يتبادلون الحديث فيأخذ كل منهم بطرف رأيتهم جميعا قد التزموا الصمت واتجهوا إلى بأسماعهم وأبصارهم . قال وظللت فى تناولى للمواضيع المثارة بالأسلوب الذى ذكرت حتى أتيت عليها جميعاً ، وحينئذ كان القطار قد قارب محطة دمنهور ، فتقدم إلى كل واحد من السبعة يريد أن يتعرف على وسألونى فى أى كلية أنت ؟ فابتسمت فقالوا لا تؤاخذنا فى هذا السؤال فنحن نعرف أنك لا بد أن تكون طالبا فى الدراسات العليا ولكننا نحب أن نتعرف على كليتك لأننا معجبون بمعلوماتك وثقافتك العالية وهذه فرصة نحب أن لا تفلت منا لنحرص كل يوم على أن تكون معنا فى قطار واحد وفى ديوان واحد لنستفيد منك ... قال الأخ مصطفى فابتسمت أيضا وكان القطار قد أوشك على دخول المحطة فقلت لهم : إننى لست فى جامعة الإسكندرية ولكننى فى جامعة أعظم منها قالوا : فى جامعة القاهرة قلت : لا بل جامعة أعظم قالوا : أين هذه الجامعة ؟ قلت لهم : أنا فى جامعة الإخوان المسلمين وأنا لست طالبا وإنما أن نجار لا أكاد أحسن القراءة والكتابة ولكننى تربيت فى هذه الجامعة فخرجت منى ما ترون ، ومع ذلك فما أنا إلا من أصغر طلابها ... قال الأخ مصطفى فكانت هذه الجلسة أعظم دعاية عملية للدعوة . وأن صياغتها للنفوس والعقول تأتى بما يشبه المعجزات .

وقد أوردت هذه الواقعة لأبين للقارىء بياناً عمليا ما نوهت عنه من المستوى الرفيع الذى صاغت الدعوة فى قالبة المؤمنين بها والعاملين لها والداعين إليها وأن هذا المستوى الذى تلمسه فى أعلى الهيئات الإدارية فى القاهرة ستجده هو نفسه فى الهيئة القائمة على الدعوة فى القرية النائية ، فليس هذا المستوى الذى بهر به طلبة جامعة الإسكندرية كان خاصا بالأخ مصطفى بل هو مستوى إخوانه فى الشعبة وفى مختلف الشعب « صبغة الله ومن أحسن صبغة ونحن له عابدون »

وهذه الصياغة التى صاغتها الدعوة للإخوان المسلمين ليست بدعاً ، وإنما هى طبيعة هذه الدعوة ودأبها وديدنها فهى التى صاغت من الرعيل الأول عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح وسعد ابن أبى وقاص وخالد بن الوليد وأسامة بن زيد وأبا ذر الغفارى والمثنى بن حارثة ، وإخوانهم فلم يكن هؤلاء من العلماء الذين درسوا علوم الاجتماع والتاريخ ولا فنون الحرب والسياسة حتى صاروا أعلاماً فى هذه العلوم والفنون بل كانوا رجالا كسائر رجال الجزيرة العربية الذين سماهم القرآن « الأميين » (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »»

ثم إن هذا البرلمان الصغير فى الشعبة الفرعية للقرية إذا استشكل عليه أمر ولم يستطع أن يصل فيه إلى قرار فإن بجانبه قريباً منه برلماناً أكبر منه للشعبة الرئيسية للمركز حيث يعقد اجتماع دورى فيها يحضره مندوبو الشعب الفرعية وهى فرصة سانحة لدراسة ما استشكل على هذه الشعب من أمور. فإذا تبقى فى هذا البرلمان أمور دون حل فاجتماع المكتب الإدارى كفيل بإيجاد الحلول. وفى نفس الوقت تتبادل الآراء وتناقش المسائل عن طريق آخر هو طريق الدعاة بين الفينة والفينة من المركز العام. الذين يتحسسون أحوال الشعب فى جميع الأنحاء وينقلون نبضها إلى المركز العام ليعالج الأمور على بصيرة .

كما أن هذه التشكيلات المتتابعة فى أنحاء البلاد الساهرة على ما يخص كلا منها من مسئوليات للدعوة فى الشئون المحلية تنطلق فى هذا السبيل وهى مطمئنة إلى أن لها ديدباناً فى القاهرة ساهراً لا يغمض له جفن يرقب تطورات الأحوال فى مصر وفى البلاد العربية وفى العالم الإسلامى وفى العالم كله ليسلك بالدعوة السبيل الأقوم إزاء هذه التطورات ، فهو يرقب التطورات كل يوم وكل ساعة فإذا وجد مكتب الإرشاد من هذه التطورات ما عظم عليه معالجته دعا الهيئة التاسيسية التى لكل هذه التشكيلات فى داخل البلاد أضلاع فيها لتصدر الرأى البات والقرار الأخير .

هل تقليد هذا النظام كاف لاثمارة نفس الثمر ؟

هذا النظام الإدارى المحكم الحلقات، ما كان لينجح ويؤتى ثماره ، لولا أنه كان مطعماً بنظام آخر تربوى روحى هو نظام الكتائب .. كان نظام الكتائب يسرى فى النظام الإدارى على اختلاف درجاته سريان الروح فى الجسد فيبعث فيه الحياة والقدرة والحركة ....

ولعل هذا هو السر فى أن هيئات كثيرة بعضها شعبى وبعضها رسمى أخذت بالنظام الإدارى للإخوان المسلمين أخذاً كاملا ولكنها فشلت ، ولم تصل به إلى شىء مما يعود عليها بفائدة أو بتماسك أو بترابط أو بنفع بل كان وبالا عليها وثقلا جديداً أضيف إلى أثقالها وحملا على كاهلها ومعوقا فى طريقها ، فلقد أخذت الهيئات بالجسد دون الروح ....

وقد تستطيع بشىء من الإنفاق أن يصنع لك الفنانون هيكلا رائعا لجسد عظيم ، ولكنك مهما أنفقت لن تستطيع أن تجد من ينفخ فى هذا الهيكل الروح « لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً

ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

قسم الأخوات المسلمات :

كان واضحاً فى ذهن حسن البنا أن دور المرأة فى الإسلام دور خطير ، له أثره البعيد فى تكوين الرجال وأمهات المستقبل ... والدعائم التى أرتكزت عليها دعوة الإخوان المسلمين هى تكوين الفرد المسلم ثم الأسرة المسلمة ثم المجتمع المسلم الذى يلد الحكومة المسلمة .

وحين أسس الأستاذ المرشد أول دار للدعوة فى الإسماعيلية وأنشأ مسجداً ، اتبع ذلك ببناء مدرستين إحداهما للابناء سماها « معهد حراء الإسلامى » والأخرى للبنات أطلق عليها « مدرسة أمهات المؤمنين » وقد عنى بهذه المدرسة عناية كبيرة -حيث لم تكن فكرة تعليم البنات قد وضحت بعد فى أذهان المسلمين - فوضع لها منهاجاً إسلاميا عصرياً يجمع بين أدب الإسلام وتوجيهه السامى للبنات والأمهات والزوجات ، وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية والعلمية والعملية .

وقد أدت المدرسة رسالتها فاستتبع ذلك إنشاء قسم للأخوات المسلمات سمى فى أول الأمر « فرقة الأخوات المسلمات » يتألف من نساء الإخوان وقريباتهن ، وتقوم بالتدريس فيه مدرسات على كفاءة خاصة من أهل الإسماعيلية نفسها .

ووضع الأستاذ لهن لائحة خاصة تنظم طرائق السير ووسائل نشر الدعوة بين السيدات والفتيات من بيوت الإخوان وغيرهن ... وقد جاء « بمذكرات الدعوة والداعية » للاستاذ المرشد فى هذا الصدد وفى صفحة ١٥٠ ما يلى :

لائحة فرق الأخوات المسلمات :

« وللذكرى نثبت هنا أول لائحة للأخوات المسلمات ، وكان عليها العمل بالإسماعيلية وبالقاهرة بعد ذلك :

فى غرة المحرم سنة ١٣٥٢ ، ٢٦ إبريل ١٩٣٣ تألفت فى الإسماعيلية فرقة أدبية إسلامية تسمى الأخوات المسلمات ، الغرض من تكوين هذه الفرقة :

التمسك بالآداب الإسلامية ، والدعوة إلى الفضيلة ، وبيان أضرار الخرافات الشائعة بين المسلمات .

وسائل الفرقة : الدروس والمحاضرات فى المجتمعات الخاصة بالسيدات ، والنصح الشخصى والكتابة والنشر .

نظام الفرقة :

١ — تعتبر عضوا فى الفرقة كل مسلمة تود العمل على مبادئها وتقسم قسمها وهو « على عهد الله وميثاقه أن أتمسك بآداب الإسلام وأدعو إلى الفضيلة ما استطعت » .

٢ — رئيس الفرقة هو المرشد العام لجمعيات الإخوان المسلمين ، ويتصل بأعضائها وكيلة عنه تكون صلة بينهن وبينه .

٣ — كل أعضاء الفرقة ومنهن الوكيلة إخوان فى الدرجة والمبدأ ، وتوزع الأعمال التى يستدعيها تحقيق الفكرة عليهن ، كل فيما يخصه .

٤ — يعقد أعضاء الفرقة اجتماعاً خاصاً بهن أسبوعياً يدون فيه ما قمن به من الأعمال خلال الأسبوع الماضى ، وما يرونه فى الأسبوع الآتى .

وفى حالة ما إذا كثر عدد الأعضاء يصح أن يقتصر هذا الاجتماع على المكلفات بالأعمال منهن .

٥ — تصدر اشتراكات مالية اختبارية حسب المقدرة ، وتحفظ فى عهدة إحدى الأخوات للإنفاق منها على مشروعات الفرقة .

٦ — يصح تعميم هذا النظام فى غير الإسماعيلية فى حدود هذه اللائحة .

٧ — يعمل بهذه اللائحة بمجرد التصديق عليها من أعضاء الفرقة التأسيسية ، والتوقيع منهن بما يفيد ذلك .

.... وبانتقال الدعوة إلى القاهرة تكونت بالقاهرة « فرقة الأخوات المسلمات » التى التى صارت فى عام ١٩٤٤ « قسم الأخوات المسلمات » .. وقد اتخذ مقراً له بالمنزل رقم ١٧ شارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة واختار الأستاذ المرشد الأخ الأستاذ محمود الجوهرى سكرتيراً لهذا القسم منذ إنشائه ، وظل هذا الأخ الكريم يباشر هذه المهمة ويؤديها أحسن أداء حتى الآن بمعاونة الأخت الكريمة عقيلته من الله عليها بالشفاء واسبغ عليها ثوب العافية .

وقد ساهم القسم فى المشروعات الاجتماعية النافعة من المستوصفات ودور الطفولة ورعاية

الأيتام والمدارس وتنظيم مساعدة الأسر الفقيرة .. وأنشأ « دار التربية الإسلامية للفتاة » بشارع بستان الفاضل بالمنيرة .

ولما انتشرت الدعوة فى أوساط الفتيات والأمهات فى القاهرة والأقاليم رؤى إدخال تعديل على لائحة القسم تضمن « أن يكون مقر شعب الأخوات المسلمات ودروسهن دور شعب الإخوان المسلمين أو بيوتهم أو المساجد التى يشرفون عليها بشرط أن يلاحظ إخلاء الدور من الإخوان تماماً كلما كان هناك اجتماع أو درس للأخوات » ... وقد انتشرت شعب الإخوات فى القاهرة والأقاليم حتى زاد عددها على المائة شعبة .

وكما كانت جهود الأستاذ - كما ذكرنا من قبل - موجهة فى معظمها للعناية بالطليعة من الجامعيين طلبة وخريجين ، فإنها كذلك وبنفس القدر من العناية والاهتمام كانت موجهة إلى الطليعة من الطالبات والخريجات والمدرسات ، فكان يتعهد هذه المجموعة بالدروس الأسبوعية يلقيها بنفسه ولم يكن يتخلف عن هذه الدروس حتى فى حالة المرض .

ومن هذه الطليعة تكونت لجان الزائرات اللاتى يقمن بزيارات لشعب الأخوات فى أنحاء القطر ويشرفن على سير الدعوة فيها وينظمن إقامة المعارض الإنتاجية للأخوات ويوجهن المؤسسات الثقافية والعلاجية والعملية .

وكان لقسم الأخوات نشاط فى مختلف الميادين حتى إنه فى مارس سنة ١٩٤٦ تقدم إلى المندوب السامى البريطانى بالقاهرة بمذكرة احتجاج على اعتداءات جنود الجيش البريطانى المحتل على الآمنين من المصريين .

علاقة قسم الأخوات بالنظام الادارى للاخوان :

أخرت الحديث عن هذا القسم - مع بالغ أهميته - لأننى وإن كنت أوردته ضمن الأقسام الإدارية للأخوان المسلمين فإننى كنت حريصاً على النأى به عن الارتباط الإدارى وأساليبه .. وقد نشأ حرصى هذا مما كنت ألاحظه من حرص الأستاذ الإمام رحمه الله على هذا المعنى فيما يتصل بهذا القسم الرئيسى الكبير .

ذلك أن مهمة هذا القسم فى رأى الأستاذ رحمه الله هى إعداد جيل من الفتيات والنساء يزود بأعظم قدر من التربية الإسلامية المستنيرة مع قسط من المعلومات الفقهية والتاريخية استعداداً لإنشاء البيوت الإسلامية التى قد تعتمد فى إنشائها على المرأة أكثر مما تعتمد على الرجل ...

فالزوجة هي التي تعين زوجها على النهوض بأعباء الدعوة الإسلامية ، وهي التي تقعد بهمته عنها ، والأم هي التي ترضع أبناءها وبناتها حب الخير وهي التي تدفعهم إلى الشر .

وإذا لم توجد في البناء الإخواني الأم المسلمة الصالحة ، والزوجة المسلمة الصالحة فهيهات أن يقوم هذا البناء مهما كان الرجال مثلا عليا ... ولهذا قام بناء الدعوة حين قام على أساسين معاً ، ففي الوقت الذي ينشأ فيه الرجال شيباً وشباناً كان ينشأ فيه النساء أمهات وأخوات ... جداران متوازيان ومتسامتان ...

ولكن لما كانت فرص الاجتماعات أمام الأخوات غير متاحة بالقدر الذي هي متاحة للإخوان فإن الأستاذ رحمه الله كان حريصاً على أن يجعل هذه الاجتماعات خالصة للتثقيف والتربية دون أن يقتطع من وقتها قليل أو كثير في الانشغال بالشئون الإدارية، كما كان حريصاً على أن لا يضيع جزء من جهود الأخوات في الالتفات إلى المناصب الإدارية والإعداد لها والتطلع إليها مما قد لا يتناسب مع طبيعة المجتمعات النسائية إذا أريد لها الإنتاج دون معوقات .

وربما كان هذا الاسلوب من أهم الأسباب في نجاح التنظيمات النسائية في الإخوان المسلمين بينما فشلت مثيلاتها في جهات أخرى .

ولما كانت دعوة الإخوان المسلمين دعوة عملية لا تعترف بالترف العلمي ولا تقف عند حدود التضلع من العلم الإسلامي لمجرد التضلع ، بل هي حقول تجارب يرى العضو فيها أنه مطالب بتطبيق ما تعلم أولا بأول في هذه الحقول ... في البيت وفي العمل وفي الشارع وفي النادي وفي نفسه أولا ، فإن الأخوات كن كلما تعلمن شيئا من التعاليم الإسلامية يجدن أمامهن حقل التجارب في بيوتهن يطبقن فيها هذه التعاليم على أنفسهن وعلى أزواجهن وأبنائهن وأهليهن .

ومن هنا كانت الدعوة تسير قدماً إلى الأمام لا يعوقها عائق فإن العربة متى كان يجرها حصانان وكلاهما يجر في إتجاه واحد فإنها تنطلق في طريقها آمنة مطمئنة ، إذ كل العوائق الخارجية يمكن تفاديها. أما الذي لا يتفادى ولا يقاوم ولا أمل معه في مواصلة السير فهو العوائق الداخلية .. الناشئة من داخل البيت ومن داخل الأسرة .. وناهيك بعربة يجرها حصانان ، كل يجرها في إتجاه مضاد .

بفضل قسم الأخوات المسلمات – وعلى الأسس القويمة التي أسسه عليها الأستاذ الإمام – أسست بيوت على تقوى من الله ورضوان . وأنشئت أسر متماسكة طاهرة رصينة لا يتطرق إليها

الوهن ولا يعرف طريقها التمزق الذى عصف بكثير من الأسر ... الأم والأب ذوا هدف واحد ، ويرميان عن قوس واحدة .. والابناء والبنات يقتفون آثار الأبوين على هدى وبصيرة .

لقد أثبت هذا القسم جدارته فى كل الأحوال، فى حال الرخاء وحال الشدة ... وإذا كان تفصيل الحديث عما خاضه الإخوان من غمرات الظلم والإعنات والوحشية لم يحن بعد ، فحسب القارىء فى هذا المقام أن يعلم أن قسم الأخوات المسلمات قد خاض نفس الغمرات وتحملت عضواته من المشقات والأهوال ماقد يفوق ما تحمله الإخوان « وكلا وعد الله الحسنى : »

ولقد بهت الأعداء لما قد فوجئوا به من عمق إيمان الأخوات وشدة ثباتهن على الحق وقوة صبرهن على المكاره واستهانتهن بوسائل التخويف والإرهاب مما ذكر الناس بالسابقات الأوليات من الرعيل الأول من الصحابيات الجليلات – فقد كان منهن من قمن بدور أسماء ذات النطاقين بنت أبى بكر حين كانت تقوم بنقل الطعام والأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر خارج مكة بينما كانت قريش قد رصدت مائة ناقة لمن يدلها عليهما ..وكان منهن من ألقى بهن فى غياهب السجون والمعتقلات وكن يسمن فيها العذاب مما ذكر الناس بسمية أم عمار بن ياسر رضى الله عنهم جميعاً .

نظام الأسر :

باعتبار الإخوان المسلمين هيئة من الهيئات ،لها كيان حدده القانون ، ولها نشاط يجرى داخل أبنية فى مختلف البلاد ، تعقد فيها الاجتماعات وتلقى فيها المحاضرات .. كان هذا النظام الإدارى المطعم بأسلوب الكتائب كافيا لربط أواصر الكيانات الإخوانية بعضها ببعض، .. ولكن باعتبارهم فكرة تحمل أعباء نشرها دعوة فإنهم فى حاجة إلى أسلوب آخر من أساليب الربط أداة من أداوات الاتصال .

والأفكار والدعوات بطبيعتها لا تكاد تنشأ فى مكان حتى ينشأ معها فيه أعداؤها ،ولاتكاد تذيع وتعتنق حتى تجرد لها حملات الهجوم والمطاردة ، ولا تكاد تثبت أقدامها حتى تقتلع اقتلاعا عنيفاً ليلقى بها بعيداً فى غياهب النسيان .

.. أعداؤها حريصون على محو آثارها .. وإذ هم عاجزون عن محو آثارها من النفوس فليسوا بعاجزين عن محو آثارها من الدور والبنيان ... والأنظمة الإدارية مرتبطة بالدور والبنيان فإذا زالت الدور والبنيان فإن الأنظمة الإدارية لا تغنى فتيلا .

وإذن فلابد من رباط يربط معتنقى الأفكار والمستجيبين للدعوات بعيداً عن الدور والبنيان، ولا يترك

هذه الجموع المؤقتة متبددة ضائعة هائمة على وجوهها إذا فقدت الدور ذات اللافتات وذات المقاعد والمكاتب ... وكان هذا الرباط هو نظام الأسر .

ولم يكن الإخوان المسلمون هم أول من عرف أهمية هذا النظام ، فقد عرفه قبلهم دعوات أخرى ، كما انتظم فى مثله من بعدهم تجمعات أخرى ، لكن هؤلاء وهؤلاء سموه نظام الخلايا ... والفرق بين النظامين فرق كبير ، فنظام الخلايا نظام حيوانى مأخوذ عن الحيوان فالعلاقات فيه علاقات مادة ومصلحة وهذا الرباط يستبيح معه أعضاء الخلية أن يقتلوا عضوا منها إذا استنفدوا جهده ولم يعد صالحاً لحمل أعباء كما يفعل بعض أعضاء خلية النحل فى بعضها الآخر ،ولكن نظام الأسرة الإخوانية يقوم الارتباط فيه على أساس الأخوة والحب والإيثار والتعاون ، يحمل القوى فيها الضعف ، ويفتدى كل عضو فيها بنفسه وبماله الأعضاء الآخرين،ولهذا لم يسمها خلية بل سموها « أسرة » .

وتتكون الأسرة من خمسة أفراد ، وهذا العدد هو أدنى عدد لجماعة تريد أن تؤدى جميع أنشطة الدعوة من دراسة للفكرة ونشر لها والأخذ بنظم التربية البدنية والعقلية والروحية ، مع متابعة تطورات الأحداث ودراسة كل تطور وإصدار القرار المناسب له ، وتلقى التعليمات من القيادة ووضعها موضع التنفيذ والإلمام التام بغيرها من الأسر ، ويمكن التعبير عن الأسرة بأنها هيئة الإخوان المسلمين فى صورة مصغرة ...

وتكوين الأسرة من هذا العدد القليل يسهل لها الوجود فى أى مكان وفى أى وقت دون التقيد بمكان معين أو زمن معين . وللأسرة نقيب هو الذى يتصل بالقيادة المحلية وللقيادات المحلية نقيب يتلقى من القيادة الأعلى وهكذا حتى يكون التلقى فى أوله من المرشد العام ... وللأسرة صندوق للطوارىء ، وهذه الصناديق كلها فى النهاية هى صندوق الدعوة ، وكما أن على الأسرة أن تتلقى التعليمات فلها أن تقترح بنفس الطريق .

ونظام الأسر ليس حلقة مقفلة وليس بالنظام العقيم ، بل هو نظام ولاد مثمر فقد تلد الأسرة نتيجة اتصال أفرادها بمجتمعهم أسراً جديدة بعدد أفرادها ، وتلتزم الأسر الجديدة بنظم الأسرة المقررة من الدراسة والتربية والبذل ونشر الدعوة .–

وهكذا أعد الإخوان المسلمون أنفسهم لمواجهة الظروف التى قد تتعرض لها كل دعوة بهذا الرباط المحكم الوثيق .

النظام الخاص أو الجهاز السرى

قدمت أن الدعوة بانتقالها إلى مقرها الجديد بالحلمية الجديدة قد اشتد عودها وقوى ساعدها وبدأت تبرز قليلا قليلا على مسرح الحياة المصرية ... وأدرك الأستاذ المرشد بحاسة القيادة التى وهبه الله إياها أن أعداء الدعوةالتقليديين وهمالمستعمرون وعلى رأسهم الإنجليز ثم أذنابهم من الحكام المصريين الذين هم اليد التى يبطش بها هذا المستعمر ... أدرك أن هؤلاء الأعداء هم للدعوة بالمرصاد ، وأن الدعوة يجب أن لا تكون فريسة باردة لهم ، بل أن تكون ذات شوكة لا يسهل التهامها ... ومن هنا نبتت فكرة « النظام الخاص » للدفاع عن الدعوة .

وقد أدرك الأستاذ المرشد أن قضية فلسطين هى قضية الإخوان المسلمين ، وأن الإنجليز بتواطئهم مع اليهود لن يعدلوا عن خطتهم ويسلموا البلاد لأهلها إلا مكرهين ، وعلم الأستاذ المرشد أن الإنجليز يسلحون عصابات اليهود ، وأنه لا بد من معركة فاصلة بين الإخوان المسلمين وبين هذه العصابات مادام الإخوان مصرين على تحرير هذه البلاد وإنقاذ المسجد الأقصى الذى هو هدف اليهود الأصيل ...

وأدرك الأستاذ المرشد أن الحكومة المصرية والحكومات العربية حكومات ضعيفة هازلة متخاذلة بل متواطئة ، وأن ليس فى البلاد العربية جيوش سوى الجيش المصرى ، ولكن هذا الجيش من الهزال والجهل وعدم الخبرة بحيث لا يقوى على مواجهة عصابات اليهود المدربة المسلحةبأحدث أسلحة الإنجليز والأمريكان والتى تحارب عن عقيدة مستمدة من دينهم ... أدرك الأستاذ المرشد هذا أيضاً فكان ذلك حافزاً على سرعة الاستعداد بتكوين « النظام الخاص »

كان ذلك فى عام ١٩٤٠ حين دعا خمسة منا هم صالح عشماوى وحسين كمال الدين وحامد شريت وعبد العزيز أحمد ومحمود عبد الحليم ، وعرض علينا الدواعى التى رآها تقتضى الاستعداد وإنشاء نظام خاص تواجه الدعوة به مسئولياتها فى المستقبل ... واقتنعنا برأيه فكون منا نحن الخمسة قيادة هذا النظام وعهد إلينا بإنشائه وتنظيمه وتدريبه ، على أن يكون على أساس من العسكرية الإسلامية القوية النظيفة ، وعلى أن يحاط بالسرية المطلقة بحيث لا يعرف عنه أحد شيئاً إلا أعضاؤه ، وعلى أن يكون تمويله من جيوب أعضائه لأن علامة الجد فيمن يتقدم للتضحية بروحه أن يضحى بماله ...

ورتب القيادة بحيث يكون صالح عشماوى الأول باعتباره المتفرغ الكامل التفرغ ويليه كمال الدين حسين فمحمود عبد الحليم فحامد شريت فعبد العزيز أحمد .

وعند مباشرة عملية الإنشاء وجدت نفسى أشبه بالعضو المنتدب لهذه القيادة حيث رأيتنى أعمل وحدى ولعل ذلك لأن إخوانى فى القيادة رأوا أننى أوثقهم صلة بالطلبة - باعتبارى مندوبا للطلبة - والطلبة هم العنصر الأساسى فى جميع التكوينات ... وقد تخيرت مجموعة منهم توسمت فيهم الجد وعمق الفهم والاتزان ، وعرضت عليهم الفكرة فاستجابوا لها وكانوا هم نواة هذا « النظام » كما تخيرت أفراداً من شباب الموظفين ومجموعة من العمال الفنيين ذوى الثقافة الإسلامية واستجاب الجميع فكان هؤلاء جميعاً هم الرعيل الأول فى هذا النظام » الذى أطلق عليه بعد ذلك « الجهاز السرى » نظراً لأنه يقوم على السرية المطلقة .

ومما ينبغى التذكير به أن هذا الرعيل الأول قد اشتركوا فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وقد أبلوا فيها أعظم بلاء شهد به الأصدقاء والأعداء ، وقد استشهد كثير منهم على أرضها الطاهرة .

وكان برنامج المنضوين تحت لواء هذا النظام يقوم على الأسس الآتية :

١ - تقسيمهم إلى أسر - خاصة بهم - مع تسلسل القيادة - مع اشتراكهم فى جميع أوجه النشاط العامة للدعوة .

٢ - دراسة عميقة مستفيضة للجهاد فى الإسلام وما جاء بشأنه فى القرآن الكريم من سور وآيات وما جاء بشأنه فى السنة النبوية والتاريخ الإسلامى القديم والحديث مع أخذ العضو نفسه بأنواع من العبادات والصيام .

٣ - التدريب على الأعمال الشاقة

٤ » على توزيع المنشورات

٥ » على التخاطب والتراسل بالشفرة

٦ - » على استعمال الأسلحة

٧ - المبالغة على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وكتمان السر

وقد أخذنا من أول يوم فى وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، ومن طرائف ما أذكره بهذا الصدد فى الأيام الأولى لهذا التنفيذ : أن أحد الإخوان كان طالبا إذ ذاك فى إحدى كليات الأزهر وكان سمينا وكان التدريب فى ذلك اليوم على القفز من شرفة إرتفاعها ثلاثة أمتار وقد رأيت إعفاء هذا الأخ من القفز فأبى إلا أن يقفز وكادت قفزته تلحق به أذى لولا أن تداركه إخوانه .

كما أننا كنا نطبع منشورات بكلام غير ذى هدف معين غير أنه كلام يلفت النظر ويثير الاستغراب وكان إخوان النظام يوزعونها على المنازل والمكاتب والمتاجر والمدارس والملاهى

بطريقة لا يحس بها أحد مع تخصيص شارع لكل واحد منهم .. ثم يصبح في اليوم التالي كل عمله فإذا سمعنا من زملائنا في المصالح الحكومية وفي غيرها من أماكن التجمع استغرابهم لما جاء في منشور وصل إليهم يقول كذا وكذا علمنا أن التدريب قد نجح .

وكانت المشقة الكبرى أمامنا هي الحصول على الأسلحة ، وقد ذلل لنا هذه الصعوبة أننا كنا إذ ذاك في السنة الثانية من سني الحرب العالمية ، وكانت جيوش المحور - ألمانيا وإيطاليا - قد بدأت تطرق أبواب بلادنا من ناحية الصحراء الغربية ، وجلب الإنجليز إمدادات من جنودهم وجنود الإمبراطورية من هنود واستراليين وإفريقيين ... وعن طريق هؤلاء نشأت في صحراء مصر تجارة السلاح ، فكنا نشترى من هؤلاء التجار بنقودنا القليلة وبما كان يصلنا من مال من الهيئة العربية العليا بفلسطين .

وأقبل خلص الإخوان على الانخراط في سلك هذا النظام الجديد ، الذى كان ترجمة لما طالما درسوه وسمعوه عن الفكرة الإسلامية الشاملة التي ما قامت إلا لتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده والتى شرع الله فيها الجهاد دفاعا عن الدين وجعله قمة الأمر وسنامه ليكون وسيلة إلى ذلك .

الابتعاد عن القاهرة :

بعد تجربتى في موضوع الألبان مكثت في القاهرة متأهباً لاستئناف تجربة أخرى من العمل الحر بعد أن أقضى فترة تستقر خلالها نفسى ولم يخطر ببالى أن أتقدم إلى عمل حكومى لندرة الأعمال من ناحية ولحقارتها وحقارة السبيل إليها من ناحية أخرى فقد كانت الوظيفة الحكومية على حقارتها لابد للوصول إليها من وساطة من وزير أو كبير وهو ما أربا بنفسى عنه .

ولكن إعلانا نشر في الصحف تطلب فيه وزارة المالية ثلاثين من الحاصلين على بكالوريوس الزراعة لتعينهم في وظيفة فرازين للأقطان تمهيداً لتمصير هذه الوظيفة التى لم يكن يشغلها حتى ذلك الوقت إلا الأجانب وجاء في الإعلان أن التعيين في هذه الوظائف الثلاثين سيكون عن طريق مسابقة تجرى بين المتقدمين

وجاءنى زملائى ليخبرونى بهذا الإعلان الذى جاء فيه ما يغرى بهذه الوظائف من الناحيتين المادية والأدبية ولكننى - لسوء ظنى بالأساليب الحكومية كما قدمت - رفضت مشاركتهم في التقدم لهذه الوظائف فما كان منهم إلا أن تحدثوا مع الأستاذ المرشد في ذلك فاستدعانى وأقنعنى بوجوب التقدم لهذه الوظيفة قائلا : هب أنك وجدتها كسائر الوظائف تعتمد على الوساطات

لماذا خسرت ؟ لن تخسر شيئاً إذا أنت توقفت عن المضى فى طريقها ، وقد تكون هذه الوظيفة على غير ما اعتاد الناس وتكون الحكومة هذه المرة جادة فيما نشرت من امتحانات فلا نكون قد أضعنا على أنفسنا الفرصة .

وكان رأى الأستاذ المرشد فى محله وتقدمت فرأيت بنفسى فى الامتحان الأول — الذى تقدم إليه نحو من خمسمائة منهم كثير من الموظفين — زملاء كان معهم خطابات توصية من وزير الزراعة ووكيل وزارة المالية لشئون القطن قدموها إلى لجنة الامتحان ، ولم يكونوا ضمن الستين الذين نجحوا فى هذا الامتحان وكنت أحدهم وقد شجعنى ذلك على دخول الامتحان الشفوى بعد ذلك الذى تمخض عن فوز ثلاثين كنت واحد منهم أيضاً .

ولما كانت زراعة القطن وتجارته تعم أنحاء القطر ماعداالقاهرة فقد كان ابتعادى عن القاهرة أمراً لا بد منه ، وقد رأى المرشد أن أطلب تعيينى فى دمنهور .

عبد الرحمن السندى :

لما استقر الرأى على أن ألتحق بهذه الوظيفة وأن أكون بذلك بعيداً عن القاهرة وكان — الأستاذ المرشد على علم بأنى أكاد أن أكون المباشر الوحيد .. دون زملائى فى القيادة — لمهمة الإشراف على «النظام الخاص» طلب إلى الأستاذ أن أستخلف من يباشر الإشراف على هذا النظام .

وقد نظرت فإذا جميع أعضاء هذا النظام مرتبطون بأعمال تشغل أكثر وقتهم وتستفرغ معظم جهدهم والإشراف على هذا النظام يحتاج إلى تفرغ أو مايقرب من التفرغ على الأقل كما يحتاج إلى صفات معينة تتناسب مع خطورة هذه المهمة .

منذ التحقت بكلية الزراعة كنت أسكن بالجيزة ، وفى السنة الأخيرة لى بالكلية اتخذت لى سكنا مع بعض الإخوان فى منطقة خلف مبانى الجامعة تسمى «بين السرايات»وكانت الشقةالتى نسكنها فى الدور الأول من منزل رجل صالح كان يحبنا ونحبه ... فلما جاءه ساكن للدور الأرضى من المنزل رأى أن يستشيرنا ، وكان الساكن طالبا فى كلية الآداب ومعه شقيقه الطالب بالمدارس الثانوية ، فلما التقيت بالشابين وتحدثت معهما شممت فيهما الصلاح والخلق الفاضل فصارا من جيراننا ، وكان هذان الجاران هما عبد الرحمن السندى وشقيقه .

ثم كان أن جاء الأخ عبد العزيز كامل ليلتحق بكلية الآداب وكانمن إخوان الإسكندرية الذين أعرفهم ، وكان يريد أن يسكن قريباً منا فسكن مع هذين الجارين مستقلا بحجرة من هذه الشقة .

ولما كانت صلتي بالأخ عبد العزيز تقتضيني أن أكثر من زيارته لأونسه من ناحية ولأنه كان قد التحق بقسم الجغرافيا بكلية الآداب وكنت أحب أن أطلع على بحوث شائقة لهذا القسم في الأجناس والطبائع وما شابهها من ناحية أخرى .. لذا كثر ترددي على هذه الشقة فكان هذا التردد فرصة لي للتحدث مع الساكنين الآخرين بها

وقد لاحظت على عبد الرحمن هذا الهدوء والرزانة والجد ، كما لاحظت إقباله على إقبالا يوحي بأن الدعوة التي عرضتها عليه تملك شغاف قلبه وتشعر بتشوقه إلى يوم يفتديها فيه بنفسه ، وظللت طيلة ذلك العام على اتصال وثيق به ، حتى إنه كان لشدة ثقته بي ، وفرط حبه لي يعرض على مشاكله الخاصة – فلما وثقت به تماماً عرفته بالأستاذ المرشد باعتباره عضواً «بالنظام الخاص »

وقد فهمت منه في أثناء ماعرضه على من شئونه الخاصه أن له إيراداً يمكن أن يقوم بشئونه، فلما كنت بصدد اختيار من يخلفني في الإشراف على « النظام الخاص »تذكرت عبد الرحمن فرجعت إليه لألم بظروفه التي طرأت منذ انتهت دراستي بالكلية وغادرت « بين المرايات » ففهمت منه أن كل الذي طرأ عليه هو أنه لم يوفق في امتحان تلك السنة وأنه الآن يعيد السنة الأولى ...

فشرحت له ظروفي وأنني مضطر أن أكون خارج القاهرة ، وأنني أبحث عن شخصية تخلفني للأشراف على « النظام الخاص » وأشترط أن تكون مستوفية شروطاً معينة ، وقلت له : إن هذه الشروط تكاد أن تكون مستوفاة فيك عدا « التفرغ » فهو ليس بالأمر الميسور ... فقال لي : إنني أشكر لك حسن ظنك بي ... وأنت تعلم أولا أنني مريض بالقلب ، ومعرض للموت في كل لحظة ، وأحب أن تكون موتتي في سبيل الله ... كما تعلم أن لي إيراداً – وإن كان محدوداً – إلا أنه يعينني على مطالب الحياة الضرورية ... وتعلم كذلك أنني رسبت في السنة الأولى بالكلية وأنني أعيدها ... وقد إستقر رأيي على الانقطاع عن الدراسة وسألتحق بوظيفةفيوزارة الزراعة بالثانوية العامة ... وبذلك يتوفر لي عنصر التفرغ الذي تطلبه .

وعرضتالأمرعلىالأستاذ المرشدفوافق عليه ،وأحضرت عبد الرحمن للأستاذ المرشد حيث بايعه أمامي على أن يقود هذا النظام وعلى أن لا يقدم على أية خطوة عملية إلا بعد الرجوع إلى لجنة القيادة ثم إليه شخصياً .

وسار عبد الرحمن بالنظام سيراً موفقاً فحاز حب من يليه من القيادات والأفراد كما حاز ثقتنا حيث كان يرجع إلينا في كل خطوة عملية بل فيما دون ذلك . ومع وجودي في دمنهور

كنت أسافر إلى القاهرة فى كل شهر مرة أو مرتين يعرض على عبد الرحمن ماتم فى خلال مدة غيابى ، ومايقترحه للمستقبل .

واتسعت رقعة النظام فى القاهرة ،وأخذت تتشعب فى الأقاليم فضمت صفوة الإخوان فى مختلف البلاد .

أول عمل للنظام الخاص :

كنا فى ذلك الوقت فى أوائل أعوام الحرب العالمية الثانية ، وكانت القاهرة تعج بجحافل الجنود الإنجليز ، وكنت لاتكاد تمشى فى شارع من شوارع القاهرة لا سيما الشوارع الرئيسية خصوصاً بالليل إلا ويحتك بك جماعات من هؤلاء الجنود فى حالة سكر وعربدة ، يهاجمون الرجال والنساء ، ويعبثون بكل ماتصل إليه أيديهم ، فى الوقت الذى تلازمهم فيه أسلحتهم كأنهم فى ميدان القتال .

وجأر الأهالى بالشكوى من عبث هؤلاء الجنود ، ومن كثرة ماجنوه من قتل أبرياء ، وهتك أعراض وتحطيم محلات ، ولكن الحكومات التى تحكم البلاد لم تكن تجرؤ حتى على توصيل هذه الشكاوى إلى مسامع السادة الإنجليز .

ورأى إخوان « النظام الخاص » أن يعملوا عملا يبث الخوف فى قلوب هؤلاء الجنود العابثين ، لعل هذا الخوف يردعهم عن عبثهم حين يشعرون أن الطريق أمامهم ليس سهلا كما اعتادوا ، وأن هناك من يقف لهم بالمرصاد ، وأن حياتهم ستكون ثمناً لهذا العبث .

وقرر « النظام » لكى يكون للعمل أبلغ الأثر أن يختاروا توقيتاً معيناً ومكاناً معيناً ومناسبة معينة ، فاختاروا ليلة عيد الميلاد ، واختاروا النادى البريطانى حيث يكون مكتظاً بالجنود الإنجليز وضباطهم وألقوا عليهم قنبلة لم تقتل أحداً ولكنها بعثت الرعب فى نفوسهم وحققت الغرض منها تماماً فبدأوا يفهمون أنهم يعيشون وسط قوم يستطيعون أن يحفظوا كرامة أنفسهم بأنفسهم وأن يلقنوا من يعتدى عليهم دروساً قاسية ، وقد قبض فى هذا الحادث على بعض الإخوان أذكر منهم الأخ نفيس حمدى الذى كان إذ ذاك طالباً والأخ حسين عبد السميع .

الصاغ محمود لبيب :

ضابط من ضباط الجيش ، كان من القلائل الذين كانت تجيش صدورهم بالحسرة على ماآلت إليه حال بلادهم ، وكانوا يتناجون سراً فيما بينهم ، وكانوا يبحثون عن وسيلة لإنقاذ هذه البلاد من ذل الاستعمار ، ومن غائلة الفساد الذى نشره فى ربوعها .

وكان من رعيل عزيز المصرى وصالح حرب ، وكان ممن رحلوا إلى تركيا فى أثناء أزمتها واضعاً نفسه رهن إشارتها للمحافظة على الكيان الإسلامى الذى كانت تمثله فى ذلك الوقت الخلافة الإسلامية ، وشارك فى كل الحركات العسكرية التى قامت فى مصر وفى غيرها والتى كانت بواعثها وطنية إسلامية .

وقد أحيل الاستيداع مبكراً ولذا كان فى رتبة الصاغ (الرائد) ، ويبدو أن هذا الرجل كان خيراً بطبعه وكان ميسور الحال ... جاء ذكر اسمه على لسانى مرة أمام والدى رحمه الله فقال لى إنه يعرفه إذ كان والدى منتدباً ناظراً لمدرسة بوغاز رشيد - وكان ذلك فى أوائل الثلاثينيات - فذكر موظفو فنار رشيد أن نقطة السواحل التى بجانبهم جاءها ضابط يرأسها اسمه محمود لبيب من أتقى الناس ومن أحسنهم معاملة لمرءوسيه وللناس جميعاً، ولم يحضر إلى هذه النقطة ضابط نال إعجاب جميع الناس والكل يحبونه إلا هذا الضابط ، قال لى والدى : وقد تعرفت عليه وجلست معه فشعرت بعاطفته الإسلامية الجارفة ووجدتنى أحببته ، إلا أن إقامته فى هذه النقطة لم تطل .

تعرف هذا الرجل على الأستاذ المرشد مبكراً فى أواخر الثلاثينيات ، وكان الأستاذ يحبه ويحترمه ، وكان الرجل - وقد تعرفنا عليه - قليل الكلام .. وكان نواة التكوينات الإخوانية فى الجيش كما أنه كان المشرف على تنظيم التدريبات العسكرية للمدنيين من الإخوان سواء من كان منهم فى « النظام الخاص » و غيره ، وكان هو ممثل الإخوان فى لجان الاتصال بين الإخوان وبين الجامعة العربية فى إعداد متطوعى الإخوان لحرب فلسطين وكان من القلائل الذين كانوا يفهمون الإسلام ديناً ودولة ، وما كاد يعلم بظهور الإخوان المسلمين حتى ألقى بنفسه وماله ووقته وكل مواهبه بين أيديهم ، فقد كانوا أمنيته وحلمه الذى تحقق ... وكان هذا الرجل الصامت من أكثر الإخوان إنتاجاً ، ولم يقبل أن يكون له منصب رسمى من مناصب الهيئة لأنه كان يكره الظهور ويكره أن يعرف الناس إنتاجه ... ومع أنه لم يكن له منصب رسمى فى الدعوة فقد كان الأستاذ المرشد يكل إليه كل ماهو عسكرى فيها فكان بمثابة وكيل الدعوة فى الشئون العسكرية ... وقد لعب فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ دوراً عظيماً .

أول محاكمة فى تاريخ الدعوة

اتهام بمحاولة قلب نظام الحكم

كانت النية معقودة عند الإنجليز وأتباعهم من حكام مصر على الوقوف فى وجه المد الإخوانى الذى بدأ وكأنه السيل المنحدر من فوق الجبل . وقد اقتنع هؤلاء - بالتجربة - بأن مواجهة الدعوة

بوسائل العنف والتصدى البوليسى لها لن ينال منها بل قد يزيدها قوة ، ويزيد الرأى العام إلتفافاً حولها ، وإذن فلا بد من إلصاق تهمة ضخمة بهم أولا ، وتدبير مقدمات لهذه التهمة من الإحكام بحيث يكون حكم القضاء فيها ضد الدعوة مضموناً ودامغاً فينتزع هذا من نفوس الشعب الثقة وحسن الظن بهذه الهيئة ، وهنا تتخذ الحكومة إجراءاتها ضدها بحكم القانون وبتأييد من الشعب ... وهكذا درج الإنجليز على أن تكون خططهم فى محاولة القضاء على أعدائهم مبنية على مظهر قانونى مؤثر فى نفوس الرأى العام مثير لمشاعره .

كان ذلك فى أوائل سنى الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ ، وكان للإنجليز فى تلك الأيام مؤسسات منتشرة فى معظم عواصم البلاد لتكون عيوناً لهم على تحركات الوطنيين لاسيما الإخوان المسلمين ، وكانت هذه المؤسسات فى مظهرها ثقافية لتعليم اللغة الإنجليزية ونشر الثقافة البريطانية وتسمى هذه المؤسسات « المجالس البريطانية » وكانت تباشر عملها فى اصطياد الوطنيين ذوى النشاط فى المجتمع بواسطة عملاء من المصريين — وما كان أكثر هؤلاء العملاء ، وماكان أحقر نفوسهم ، باعوا أنفسهم للمستعمر لقاء دراهم معدودة ليكونوا سوطاً على ظهور أبناء جلدتهم — وقد عانيت شخصياً من هؤلاء العملاء تجربة قد أشير إليها .

قام « المجلس البريطانى » بطنطا — بالاستعانة بعملائه المصريين — بتلفيق قضية خطيرة ضد الإخوة المسلمين فى شخص فردين من خيرة أفرادهم هما الأخوان محمد عبدالسلام فهمى وجمال الدين فكيه وحشروا معهما خمسة أفراد آخرين .. والتهمة التى وجهوها إليهم « أنهم يعدون جيشاً للترحيب بمقدم «رومل» القائد الألمانى الشهير ، وأنهم يحدثون بلبلة فى الأفكار ، ويعدون عناصر معادية للحلفاء » — ولما كانت البلاد فى حالة حرب مع الأعداء فقد طالبت النيابة بإعدامهم . وسميت هذه القضية بالجناية العسكرية العليا رقم ٨٨٢ لسنة ١٩٤٢ قسم الجمرك وستأتى الإشارة إليها فى موضوع قادم إن شاء الله ...

وكان بطل التحقيق فى هذه القضية هو الأستاذ محمد توفيق رفقى رئيس النيابة الذى سبق التحدث عنه فى المحاولة الأولى لتقديم الأستاذ المرشد إلى القضاء لما نشره فى الصحف عن مطالبته بتسليح الجيش المصرى وتسليح الشعب المصرى .

وقد قدمت القضية أمام محكمة الجنايات العسكرية العليا بباب الخلق وكانت مكونة من خمسة أعضاء برياسة المستشار فؤاد بك أنور وعضوية المستشارين محمد توفيق إبراهيم بك وزكى أبو الخير الأبوتجى بك (وكانو يسمونه جارومصر) ومعهم اثنان من العسكريين :

ولا زالت هذه القضية ماثلة فى خاطرى مع مرور أكثر من ثلاثين عاماً عليها ، وهذه

الثلاثون عاماً مليئة بالأحداث الجسام التي كانت جديرة أن تعفي عليها وتمحو من الذهن آثارها .. لكن الذي أبقاها في خاطري هو ما كنت ألاحظه من شدة اهتمام الأستاذ المرشد بها ، حتى إنه كان مواظباً على حضور جميع جلساتها ، ولم يكتف بذلك بل كلفني بالمواظبة كذلك على حضور جلساتها وبأن أكون مجموعة من الإخوان تحضر أيضا وتكون مهمة كل واحد منهم أن يكتب كل ما يحدث في الجلسة وكل لفظ يقال فيها على أن أجمع كتاباتهم في كل يوم وأستخرج منها صورة كاملة عن الجلسة أقدمها إليه ، وعلى ضوئها يكتب ملاحظات يقدمها لهيئة الدفاع لتستعين بها في إعداد دفاعها ، وكان الأستاذ يقول لي : « إن هذه القضية تؤرقني لأنها قد أعدت إعداداً محكماً ، واختير لها وقت يبرر كل إجراء استثنائي ، فالمحكمة عسكرية والمحقق خادم الإنجليز ، وشهود الزور تحت يد الإنجليز ، والحكام المصريون لا يكنون لنا خيراً ، وإذ حكم على فكيه وعبد السلام فسيكون ذلك قضاء على الدعوة ، فالشعب لا زال في غفلة ، ويستطيع الحكام اعتماداً على هذا الحكم أن يلوثوا سمعتنا أمام الشعب واتخاذ ما يحلو لهم من إجراءات ضدنا »

اتصل الأستاذ المرشد بأشهر المحامين في مصر وطلب إليهم الحضور في هذه القضية ، وترك لهم أن يحددوا أتعابهم كما يشاءون ، على أن يولوا القضية كل اهتمامهم ... ولكن هؤلاء المحامين رفضوا أن يتقاضوا أتعاباً وتطوعوا مشكورين ، وأذكر من هؤلاء المحامين الأساتذة محمد علي علوبة باشا وعبد الرحمن البيلي بك ومحمد فريد أبو شادي بك وعمر التلمساني وعلى منصور ... ومع أن هذه المجموعة من أعلام المحاماة لم تجتمع في قضية من قبل فإن الأستاذ المرشد .. رغبة في إتمام دعم هيئة الدفاع – تاقت نفسه إلى محام كان يعد في ذلك الوقت الحجة التي يرجع إليها في معضلات القانون سواء إليه شخصياً أو إلى مؤلفاته وكان عميداً لكلية الحقوق واستقال لا ليترافع وإنما ليستشار في المعضلات ذلك هو الأستاذ على بدوي بك .

كان الأخ محمد فهمي أبو غدير تلميذه ، وهو الذي لفت نظر الأستاذ المرشد إليه ، ولكن أنى لنا أن يصل إلى قلبه لا سيما ونحن لا نطلب منه مجرد استشارة بل نريده أن يتبنى القضية ويترافع فيها ، وكان فهمي يلمس فيه نزعة إسلامية لكنه لا يجرؤ أن يتفاهم معه فيما نطلب ... وفيما نحن نقلب الأمر تذكر عبد الحكيم عابدين أن الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون هو خال على بك بدوي .. وعبد الحكيم أيام كان غارقاً في بحار التصوف كانت له صلات قوية بكبير أسرة آل أبي العيون الشيخ محمد أبو العيون لأنهم أهل بيت علم وتصوف فانبرى عبد الحكيم لحمل مسئولية موضوع على بك بدوي ... وباتصال عبد الحكيم بخاله الأكبر الشيخ محمد أبو العيون

وبشرح دعوة الإخوان لعلى بك وبسط ظروف القضية والكشف عن أبعادها وهدف الإنجليز من ورائها قبل على بك أن يتبنى القضية ويدافع فيها دون مقابل .

وقد قضى الأخوان الكريمان فكيه وعبد السلام فترة الحبس على ذمة القضية ثمانية أشهر فى سجن الحضرة بالإسكندرية ، ولما حان موعد تقديمها إلى القضاء نقلا إلى سجن الاستئناف بالقاهرة .

وقد استغرقت المحاكمة جلسات كثيرة لا أذكر الآن عددها ، وكانت كل جلسة تستغرق اليوم كله .. وكان الذى يحيرنى هو وجه رئيس هذه المحكمة فؤاد بك أنور ، فقد كنت حريصاً على أن ألاحظ ملامح وجهه وما تتركه المفاجآت التى تحدث فى أثناء الجلسات من آثار على هذه الملامح ، لعلها توحى إلينا باتجاه هذا الرجل . ولكننى لم أكن أرى فى هذه الملامح تغيراً حتى أننى كنت أقول للأستاذ المرشد كأن وجه هذا الرجل وجه تمثال .

وكان فى القضية كثير مما يثير سواء فى شهادة الشهود المملاة عليهم أو فى مهاجمة الدفاع لهؤلاء الشهود لإظهار بطلان شهادتهم أو فى مرافعة النيابة وماكالته للإخوان من تهم الخيانة العظمى وماطالبت به من تطبيق مواد الإعدام .. والذى يسمع مرافعة النيابة وما دعمت به من أدلة ومضبوطات وشهادة شهود يفهم أن هذه المرافعة ليست مرافعة رئيس النيابة الذى يقرأها بل هى خلاصة جهود متعددة تضافرت على تضييق الخناق حول أعناق هؤلاء المتهمين بقصد الإيقاع بما وراءهم من هيئة هى بنت القصيد .

وقد شهدت جلسات لقضايا مختلفة ، واستمعت إلى الدفاع فيها ، فلم أر ولم أسمع مثل هيئة الدفاع فى هذه القضية ، كان المحامون مستميتين فى الدفاع كأن المتهمين أبناؤهم ، وكانوا يفهمون أنهم لا يدافعون عن هؤلاء المتهمين وإنما يدافعون عن هيئة الإخوان المسلمين التى اقتنعوا – قبل أن يقبلوا الوكالة فى الدفاع عنها – أنها النبت الطاهر النقى الوحيد فى هذا البلد الذى يؤمل فى إنقاذ البلاد على يديه ، والذى تضافرت جهود كل ذوى السلطة من داخل البلاد وخارجها على تدميره والقضاء عليه قبل أن يكبر ويغلظ ويستوى على سوقه .

وهنا كلمة حق يجب أن تقال هى أن السلطات المصرية والبريطانية مع كل ما كانت تدمغ به من ملوك الكثير من وسائل العبث والإفساد ، فإنها لم تمد يد عبثها إلى القضاء ، فإن قدسية القضاء كان لها فى نفوس الجميع رهبة وتوقير واحترام حتى نفوس هؤلاء العابثين... نعم إنهم وجدوا من رجال النيابة من باع نفسه لهم ولكن صمام الأمان وهو القضاء نفسه كان سليما مصوناً ، وكان القاضى يرى نفسه السلطة العليا فوق كل السلطات كما كان الناس جميعاً حكاماً ومحكومين يرونه كذلك .

ولما « جاء دور الأستاذ على بدوى فى المرافعة – وكان آخر المترافعين على ماأذكر – جاء فى سياق مرافعته بصدد ماورد فى بعض الأوراق المضبوطة من عبارات عن قنابل ومتفجرات ونحوها تعليلات طريفة فحواها أن الشعوب والأفراد تتأثر لغة تخاطبها سواء بالكلام المنطوق أو المكتوب بما تعيش فيه من ظروف ، فظروف الحرب المستعرة التى نعيشها تركت طابعها على تعبيراتنا فتشبيهاتنا واستعاراتنا وكناياتنا تلمح فيها أسماء الآلات الحربية فتسمع أو تقرأ أن فلانا ألقى بالأمس قنبلة أو فجر ديناميتاً والقصد من ذلك أن هذا الفلان جاء فى حديثه بمفاجأة وأن فلانا فرق جمعاً من خصومه ، وقال : لا يجوز فى وقت حرب كالذى نعيش فيه أن نحمل هذه الألفاظ وهذه العبارات على ظاهرها وأن لا يستنتج منها معان كانت تؤديها فى وقت السلم ، وقدم إلى المحكمة عدداً من « المصور » بعد أن قرأ منها عبارات من هذا القبيل وردت فى مقال كاتب من كتابة ، وقال لو أننا أخذنا بهذه الألفاظ وهذه التعبيرات على على ظاهرها لقدمنا هذا الكاتب إلى محكمة الجنايات .

أما بحوث الأستاذ على بدوى الفقهية فى تفنيد شهادة الشهود وما أجرى من التفتيش وتحقيق فكانت مستفيضة وكان يستشهد بفقرات من كتبه وكتب غيره ، وكانت المحكمة تنصت إليه باهتمام شديد وكثيراً ماكان رئيس المحكمة وعضواها يستعيدونه مقاطع من المرافعة يدونونها فى أوراق أمامهم ، لأنه ذو صوت خفيض ، ولولا السكون التام الذى كان يخيم على قاعة الجلسة ماسمعه أحد ، ولعل مكبرات الصوت لم يكن مسموحاً بها فى داخل الجلسات فى ذلك الوقت – وكان استماع المحكمة إلى الأستاذ على بدوى كاستماع المغرمين إلى مطرب قد أخذ بألبابهم ، مما يدل على شغف رجال القضاء فى ذلك الوقت بالبحوث الفقهية العميقة دون الوقوف عند السطحيات والقشور وشقشقة الكلام .

وبعد انتهاء المرافعات أعلنت المحكمة رفع الجلسة للمداولة لإصدار الأحكام واستمرت المداولة نحو ساعة كانت علينا وعلى الأستاذ المرشد بالذات أطول من أعوام لخطورة ماستتمخض عنه هذه الساعة من كلمات معدودة ينطق بها رئيس المحكمة تقرر مصير هذه الدعوة المرهون بهذه الألفاظ ... وانتهت المداولة وخرجت هيئة المحكمة بكامل أعضائها ووقفنا جميعاً ونطق رئيس المحكمة بالأحكام وفى صدرها براءة فكيه وعبد السلام فهتف جميع الحاضرين « يحيا العدل » وكأنما كان هذا الحكم بعثاً للأستاذ من مرقده ، فاتجه مستبشرا إلى المحامين فهنأهم وهنأوه وعانقهم وعانقوه .

وفكيه وعبد السلام كانا قطبين من أقطاب الدعوة فى طنطا ، وكان فكيه موظفا ببلدية

طنطا ، وكان عبد السلام مهندساً فى مصلحة الطرق والكبارى بها ، وقد سافر إلى انجلترا بعد ذلك وحصل على الدكتوراه وعمل أستاذاً بكلية الهندسة بأسيوط ثم عميداً لها ثم وكيلا لجامعة الأزهر .

وزيادة فى بيان خطورة المجالس البريطانية التى لفقت هذه القضية أذكر أنى حين عينت فى دمنهور سنة ١٩٤١ كنت أغشى المجتمعات فيها وأتحدث عن دعوة الإخوان المسلمين وكانت المقاهى ضمن هذه المجتمعات ... وكان زملائى فى العمل والأقدم منى وجوداً فى دمنهور يحيطون بى ، حيث كان لهم معارف وأصدقاء من مختلف الطبقات .

وجاءنى زملائى فى يوم من الأيام وطلبوا إلى أن أتوقف عن غشيان هذه المجتمعات فترة ، فسألتهم عن السبب فقصوا على قصة مؤداها أن مؤامرة قد حيكت للإيقاع بى عن طريق شخص مثقف من أسرة كريمة من أسر دمنهور ويعمل صحفياً – وذكروا لى اسمه – وفى نفس الوقت يعمل عميلا للمجلس البريطانى بالبحيرة ، سمعنى هذا الشخص أتحدث فى إحدى المقاهى وتناول حديثى الإنجليز ، فكتب تقريرا يتهمنى فيه بمهاجمة الإنجليز ومعاداة الحلفاء وسمعه زملائى يسأل بعض الحاضرين عن اسمى وعن وظيفتى فتنبهوا إلى غرضه وحاولوا أن يثنوه عن عزمه من تقديم التقرير إلى المجلس البريطانى – وكان التقرب إلى الإنجليز فى ذلك الوقت مما يتفاخر به – لكنهم عجزوا عن ذلك ، وتذكروا أن هذا الشخص شقيق خياط كلهم كانوا زبائنه فذهبوا إليه وقصوا عليه قصة أخيه وفهم الخياط أن هذا التصرف من أخيه إذا تم فإنه سيفقده أكثر عملائه فذهب إلى أخيه وأرغمه على العدول عن تقديم التقرير ومزقه بنفسه .

محنة أولى القربى أو الفتنة الثانية

إن تقدير الإخوان للأستاذ المرشد ، وحبهم إياه ، وتفانيهم فى حبه ، وإيثاره على أنفسهم كان هو الشعور الغامر النابع من كل قلب ، وقد كنا نقرأ عن مدى حب الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا نظن ذلك مغالاة من الرواة حتى قام هذا الرجل – حسن البنا – بدعوته ، وتعرفنا عليه ، وسرنا معه ، وعاملناه وعاشرناه فرأينا فى خلقه وحديثه وتوجيهاته ومعالجته للأمور صورة مصغرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحببناه وازددنا مع الأيام حباً له وتفانياً فى حبه ، فاستطعنا حينئذ أن نفهم ونتصور ما رواه الرواة عن مدى حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ما رواه الرواة لم يكن مغالاة ولا تهويلا بل كان مجرد إشارة إلى معان يعجز التعبير عن تصويرها .

لم يكن الرجل يعيش لنفسه ، ولم يكن يدخر مالا ولا جهداً ولا وقتا ولا صحة دون دعوته وأذكر بهذه المناسبة أنه أبلغ وهو بالمركز العام بأن السيدة قرينته قد اشتد عليها المرض فطلب بالتليفون الدكتور الغمراوى – وهو الطبيب الذى كان يعالج الأسرة – ولما حضر الطبيب صحبته إلى المنزل ، وبعد إجراء الكشف أخذ الطبيب فى كتابة روشتة الدواء ، فمال على الأستاذ وطلب منى جنيها سلفة وأعطاه للطبيب . ذلك أنه كان يجعل مرتبه كله للدعوة لا ينتقص منه إلا ما يكفى الضرورات الأساسية للبيت الذى كان يعيش أدنى عيشة يعيشها بيت فى مستواه ... ولا يفوتنى أن أذكر أن الأستاذ فى أول الشهر التالى أصر على رد السلفة إلى مع أننى كنت أقول له إننا نعتبر بيتك جزءاً من الدعوة .

كان يعيش لدعوته ، وما فهمت معنى قول عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » إلا بعد أن عايشت هذا الرجل وعاشرته فرأيت كلامه وصمته وحركته وسكونه ويقظته ونومه وحبه وبغضه وكتابته وقراءاته وفكره كلها للإسلام فكنا نراه الإسلام فى صورة بشر .. عرفنا رجالا قبله وبعده دعاة للإسلام لكن الإسلام لم يكن يشغل إلا جانبا من حياتهم وكانت أمور أخرى تشغل الجوانب الأخرى ... أليس القرآن الذى كان خلق النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى أشار إلى معنى التخلق بالقرآن حيث قال « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له » ؟ .

ألمحت هذه الإلماحة السريعة لأوضح كيف يحب الإخوان أستاذهم وإلى أى مدى يحبونه ويتنافسون فى الحظوة برضاه ، باعتبار رضاه من رضا الله عز وجل فهو لا يحب إلا لله ولا يرضى إلا لله ... وكان للأستاذ فى ذلك الوقت ولد وبنتان وكانوا صغاراً ، وكان له شقيقتان . فاتجهت أنظار الإخوان المؤهلين للزواج فى ذلك الوقت إلى شقيقته الكبرى ، وتنافس الكثيرون فى السعى للحظوة بهذا الشرف ، وكل منهم يعتقد أن له من المكانة فى نفس الأستاذ ما يجعله أهلا للحظوة ، ولم يكن أحد يجرؤ على طلب ذلك صراحة بل كان تلميحاً – وكنا نحن – من أمثالى الذين لم يكونوا بعد مؤهلين للزواج – نرقب هذا التنافس ولا نعرف أى المتنافسين سوف يحظى بما يأمل .

وأنا بحكم ما بينى وبين عبد الحكيم عابدين من اتصال دائم كنت أعلم أنه قد دخل هذه الحلبة ، وقد أسر إلى بذلك طالباً منى الرأى ... ولم يكن طلبه الرأى منى فيما إذا كان اختياره هذه

الزوجة مناسباً أم يعدل إلى غيرها ، وإنما كان طلبه الرأى منى فيما إذا كنت أراه هو مناسباً أم غير مناسب ، وقد أحسست فى عرضه الأمر على ، وطلبه الرأى منى أنه يريد أن يسمع منى ما يشجعه على المضى فى هذا السبيل . وقد سمع منى فعلا ما يريد ... غير أنى كنت أرى فى قرارة نفسى أن دون تحقيق ذلك لعبد الحكيم خرط القتاد ، فالطلاب كثيرون والضغوط على الأستاذ المرشد من كل جانب وعبد الحكيم هو أقل الطالبين مالا وأدناهم مركزاً ومكانة فى المجتمع ؛ إنه فى ذلك الوقت لم يكن يملك ما يصلح أن يكون مهراً فلا مورد له إلا مرتبه من وظيفته المتواضعة فى إدارة الجامعة ومع ذلك فهو مطالب بمسئوليات مالية لأهله - كما أشرت من قبل - والأستاذ المرشد يعلم ذلك -... لا مؤهل لعبد الحكيم إلا مواهبه الشخصية وما قدمت فى فصل سابق من هذه المذكرات من أنه أول أخ تخرج فى الجامعة وبايع على أن يجعل مستقبله رهنا بمطالب الدعوة مع أنه كان أحوج الحاضرين وأقدرهم على تنمية موارده لاحتياج أهله إلى هذا الموارد .

وكانت المفاجأة أن اختار الأستاذ المرشد عبد الحكيم زوجاً لشقيقته .. فقوبل هذا النبأ فى الظاهر بما يشبه الرضا من الجميع ، ولكننى كنت أحس بأن هناك نفوساً قد أصابها هذا النبأ بشعور من خيبة الأمل .. ومع ذلك فلم أكن اعتقد أن هذا الشعور سيؤدى إلى كوارث .

وقد ذكرنى اختيار الأستاذ لعبد الحكيم دون الآخرين بسعيد بن المسيب رضى الله عنه حين طلب إليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أن يزوج ابنته لأبنه فأعرض عن ذلك وزوجها تلميذه الفقير عبد الله بن أبى وداعة الذى سأله سعيد . لم لم تتزوج ؟ فقال له : ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة .

وقد انقسم الإخوان إزاء هذه المفاجأة ثلاثة أقسام :

قسم تلقى هذه المفاجأة بالإجلال والإعجاب لأنها هى نظرة المؤمنين الصالحين حين يختارون لبناتهم . وهذا القسم هو الكثرة العالية من الإخوان .

وقسم أصابته المفاجأة بخيبة أمل حيث أخطأه الاختيار وكان يتمنى أن يكون هو المختار .. وهذا القسم هو مجموعة من شبان الإخوان المؤهلين للزواج والذين عرضوا أنفسهم وهم عدد قليل .

والقسم الثالث أصابته المفاجأة بخيبة أمل مع أنهم لم يرشحوا أنفسهم ولم يكونوا صالحين لذلك لأنهم فى سن الكهولة ولهم بيوت يعولونها ولكنهم كانوا يتمنون أن لا يتم هذا الزواج لعبد الحكيم بالذات ، لأنهم يعرفون أن عبد الحكيم ذو مواهب تؤهله للبروز فى المجتمع ، ولما كانوا هم يشغلون المناصب البارزة فى الدعوة ، فقد يزاحمهم عبد الحكيم فى هذه المناصب

لاسيما واختيار الأستاذ المرشد لعبد الحكيم دليل على ثقته فى هذه المواهب .

وهناك قسم رابع نشأ بعد ذلك كانت مهمته استغلال القسمين الثانى والثالث لتحقيق أغراض فى قرارة نفسه أكثرها سياسى وبعضها شخصى .

ولما كانت شخصية المرشد لها من الإجلال فى النفوس ما لايجرؤ معه أحد على النيل منه ، كما أن مسلكه فى مقدرته الفائقة على توزيع عواطفه على جميع الإخوان توزيعا يملأ نفوس الجميع لم يتح لأحد أن يجد فيه ثغرة ينفذ منها إليه ، ولامغمزاً يغمزه به ، فكان لابد إذن من البحث عن سبيل آخر لإيذائه عن طريق ملتو غير مباشر ، وكان الطريق هو محاولة تجريح شخصية عبد الحكيم والنفوذ من ذلك إلى تجريح الدعوة نفسها .

وسأعرض الآن لواحدة من هذه المحاولات كان مبعثها مبعثاً شخصيا ، وقد بدأت أحداث هذه المحاولة منذ كانت الدعوة فى ميدان العتبة وبدأ الطلبة يقبلون علينا وكنا نحسن استقبالهم ونوليهم كل ما نستطيع من اهتمام وعناية وكان من هؤلاء الطلبة طالب فى كلية الآداب اسمه (ع . س . أ) ... استقبلناه كغيره من الطلبة ولكنى رأيته مقبلا بشكل ملحوظ على عبد الحكيم عابدين مما جعلنى أرتاب فيه ، ولكن هذا الشعور لم يجعلنى أقصر فى حقه فكنت أعامله كما أعامل زملاءه ... غير أنى رأيت عبد الحكيم يوليه من العناية أضعاف ما يولى زملاءه ــ وعبدالحكيم كما قدمت إنسان كله عاطفة، فما كاد يشعر باقبال هذا الطالب عليه حتى غمره بسيل من عواطفه فكان كلما قابله قابله بالعناق ، وكنت أفتقد عبد الحكيم فإذا لقيته سألته أين كنت بالأمس فيقول لى كنت عند الأخ (ع) فى بيتهم ... وقد أوسع عبد الحكيم له فى مجلة النذير فكان يكتب المقالات تمجيداً فى الإخوان المسلمين وإشادة بهم .

لم يكتف عبد الحكيم بأسلوبه العاطفى المتطرف الذى يتعامل به مع هذا الأخ بل جاء يعاتبنى فى عدم إقبالى عليه بنفس أسلوبه وأخذ يذكر لى مزايا هذا الأخ الأدبية وحماسه المتأجج للدعوة وأسلوبه فى الكتابة ، وأخذت أذكره بما سبق أن قلته له من قبل منذ كنا فى دار شارع الناصرية وبما حذرته منه من شعور البداوة الذى نشأ عليه والمبنى عن حسن الظن المطلق بكل الناس وفى كل الظروف ومن مظهر هذا الشعور البدوى من التغالى فى الحب والعناق فى كل لقاء وإباحة بيتك لكل من أحببته يدخله فى غيابك وحضورك ، ودخولك بيوتهم كأنها بيتك ، ومعاملتك أهليهم كأنهم أهلك ، وقلت له : كل ذلك لاارضاه ..وقد أرضاه إذا ضمنت لى أنك تعيش فى بيئة أو مجتمع من الملائكة المنزهين عن الأهواء، المطهرين من سوء الظن وسوء النية .. أما المجتمع الدنيوى الذى نعيش فيه فهو يضم الطيب والخبيث ، وقد ينقلب الطيب خبيثا ، وقد ينقلب الخبيث طيباً ،

فلا ينبغي أن ننطلق في عواطفنا انطلاقا لا حدود له مهما سمت هذه العواطف وذكرته بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما .

واشتد الحوار بيني وبين عبد الحكيم ورماني في نهايته بأن معاملتي « الرسمية » للإخوان لاسيما الجدد منهم من أمثال هذا الأخ تنفرهم من الدعوة فقلت له : إنني لا أعامل أحداً معاملة رسمية كما تدعى بل إنني أعطى كل إنسان حقه من حسن اللقاء ، وكل ما أحاوله هو أن أتصد في عواطفي ، فالمصافحة عند اللقاء تكفي ، والعناق عند الرجوع من السفر أو بعد الغياب الطويل لابأس به ، والزيارة في البيوت بدعوة ملحة من صاحب البيت كما يقولون « زر غباً تزدد حباً » وكررت تحذيرى متمسكاً بطريقتي في المعاملة .

وغادر عبد الحكيم الغرفة التي كنا نتلاوم فيها من المركز العام وهو مصر على أنه يسلك الطريق الإسلامى الأقوم ... وشاب ذو نفس شاعرة نشأ في بيئة بدوية ثم تلقفته الصوفية بأشد طرقها تصفية للنفس ثم اتصل بدعوة الإخوان المسلمين التي تضع مرتبة الأخوة في الدعوة فوق مرتبة الأخوة في الدم ، شاب كهذا قلما يعدل عن خطته في الاندفاع بعواطف الأخوة والحب التي تتأجج بين جوانحه إلا بكارثة .

وانتقلت الدعوة إلى الحلمية الجديدة ، واستمر عبد الحكيم في اندفاعه الذى كان يجد له تجاوباً من الطرف الآخر ، ولا أدرى لم كان هذا التجاوب الذى لا أجد مبرراته متوفرة في هذا الطرف بل كنت أرى فيه معنى التصنع وأشم منه رائحة الاستدراج ، وظللت كعادتي أسأل عن عبد الحكيم في بيته فلا أجده المرة تلو المرة ثم أقابله فيخبرني بأنه كان في بيت هذا الأخ .

ومرت الأيام وأعلنت خطوبة عبد الحكيم لشقيقة الأستاذ المرشد ، فكان هذا الإعلان بمثابة إعلان حرب لا هوادة فيها على عبد الحكيم أو قل في الحقيقة على الدعوة نفسها ولكن اتخذ عبد الحكيم قميص عثمان .

انقلب هذا الأخ الذى أشرت إليه انقلاباً فجائياً على عبد الحكيم وخاصمه بغير مقدمات واتهمه بأنه اتخذ صداقته له وأخوته معه وسيلة إلى مداعبة شقيقته .. وبغير مقدمات رأينا هذا الأخ يعلن مقاطعته للمركز العام وتبرأه من الدعوة مالم يبتر منها عبد الحكيم ...

مفاجآت وجدت آذاناً صاغية من أولئك الذين أشرت إليهم في القسمين الثاني والثالث ،

وجدت هذه الاتهامات الفجائية هوى فى نفوسهم فقاموا يروجونها وينشرونها بطريقة مثيرة ، وعادت إلى الذاكرة حادثة الإفك « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » .

ولما كان الأستاذ المرشد يعلم عن عبد الحكيم ما أعلم ، كما أنه كان يتوقع أن يكون لإعلان خطوبة عبد الحكيم لشقيقته آثار لابد أن تمس بعض القلوب ، فإنه لم يرعه من هذه الحملة الفجائية إلا كونها جاءت بغير مقدمات وبطريقة مفاجئة تحس معها أن أصحابها قد فقدوا رشدهم فتخلوا عن أدنى مبادىء الأدب والحياء .

جاءنى عبد الحكيم وهو يكاد يموت غماً وقال لى : لقد فهمت الآن أنك كنت على حق ، وأنك كنت أبعد منى نظراً ، وأننى لم أكن إلا أبله لا أدرى مايراد بى ، ولا مايدبرلى ؛ لقد خالفتك وأخلصت لهذا الأخ وجعلت له من نفسى وقلبى مالم أجعله لأشقائى ؛ فكان يدعونى إلى منزلهم وعرفنى بوالده ووالدته وإخوته وأخواته كما دعوته إلى بيتى كما تعلم ، وتوالت دعواتهم لى حتى إن والديه يدعوانى دونه ؛ وكنت أعتبر والديه والدى وإخوته وأخواته إخوتى وأخواتى .. ومرضت شقيقته الكبرى مرضاً خطيراً ، ولما كانوا يعرفون عن صلتى بالأطباء (كان لعبد الحكيم صداقة وطيدة مع أشهر أطباء القاهرة وكان محببا إلى نفوسهم إلى الحد الذى كانوا يستجيبون له إذا طلبهم بليل أو نهار حيث كان، دون أن يتقاضوا أجراً ، ولم يكن يطلب أحدامنهم لنفسه ولا لذويه إلا نادراً ، وإنما كان يطلبهم لعلاج من يلجأ إليه من الإخوان) استغاثوا بى وطلبوا إلى أن استدعى لهم طبيباً كبيراً معيناً ففعلت واستمر العلاج ولكن المرض قد استفحل حتى صارت الفتاة هيكلا عظمياً بلا لحم ولا دم ، وعلا وجهها شحوب الموت حتى إن أمها وأخواتها عافوها وابتعدوا عنها ، وشعرت الفتاة بذلك فصارت تبكى وتنعى نفسها ، وهنا اضطررت أن أجلس بجانبها ، مع أنى فى قرارة نفسى باعتبارى بشرا كأى بشر متقزز من منظرها ومن رائحتها ، ولكننى كنت أحاول أن أرفع من روحها ، وأعيد إليها ثقتها فى الحياة – ولقد كان والداها وإخوتها وأخواتها – ومنهم هذا الأخ – يشكروننى على أداء هذه الخدمات الإنسانية التى عجزوا هم عن أدائها .

قال عبد الحكيم : وبتفانى أصدقائى الأطباء فى علاجها ، وبما اتبعته من أساليب لرفع معنوياتها تحسنت حالتها ، ودبت فيها الحياة من جديد ... وحتى آخر يوم كنت موضع إجلالهم جميعا ، ولا حديث لهم إلا حول اعترافهم بجميلى عليهم ، وبإنسانيتى التى فاقت ماعرفوه من إنسانية .

قال : وفى اليوم التالى ذهبت كالمعتاد لزيارتهم فرأيت وجوماً على وجوههم حتى خيل إلى

أن الفتاة ماتت ، ولكنني رأيتها بخير ، وحاولت أن أعرف سبب الوجوم فلم استطع فخرجت وأنا في حيرة من هذا التبدل المفاجيء ، واستعرضت كل تصرفاتي معهم لعلي أذكر شيئاً بدر مني فأغضبهم فلم أجد إلا تقديراً منهم لكل كلمة قلتها أو تصرف أتيته ، فعزمت على أن أسأل نجلهم الأخ (ع) حين ألقاه ليلا بالمركز العام كالمعتاد فلم أجده حضر ولكنني سمعت قالة سوء توجه إلي منسوبة إليه . ولا يردد هذه القالة شخص واحد بل ترددها مجموعة معينة بطريقة تشعر بأنها مبيتة ومدبرة ... ولم أصدق أنه هو قائلها في أول الأمر لكنني تبينت أنه هو مصدرها وأنه هو الذي باء بإثمها ، وأنني لم أكن حتى تلك اللحظة إلا سادراً في حسن ظني متجللا برداء غفلتي ولم أتنبه من غفلتي إلا الآن ، فإن اليوم الذي في مسائه قلبوا لي ظهر المجن هو نفس اليوم الذي أعلن في صباحه نبأ خطوبتي لشقيقة الأستاذ المرشد ، وما كنت منتظراً منهم إلا أن يقابلوني بالبشر والتهاني والتبريك ..

وعبد الحكيم المشبوب العاطفة ، المتصوف ، الشاعر ، البدوي ؛ لم تكن هذه الصدمة لتقف به عند حد إفاقته من غفلته . وردرشده إليه فحسب ، بل إنها قذفت به على الطرف الآخر البعيد ؛ فإذا به يقرر أن يعتزل الناس لأنه فقد الثقة فيهم ؛ فانقطع عن المركز العام وعن غشيان أي مكان آخر ماسوى بيته وعمله ، وهجر أصدقاءه وأحباءه ومعارفه وحتى أهله ، وعكف على الصيام المتصل والقيام بالليل تكفيراً عن زلته بإفراطه في حسن ظنه بالناس .. ولما طال انقطاعه ومضى أكثر من شهر زرته في بيته أو بمعنى أدق في معتكفه وعاتبته على هذا الأسلوب فقال لي : ما كنت أعتقد إلا أنك آخر من يعاتبني في ذلك ؛ فالذي أفعله الآن ماهو إلا تكفير لمخالفتي نصيحتك . قلت : ولكن التكفير لا يكون بالانتقال من النقيض إلى النقيض ، وانقطاعك عن المجتمع لايقل ضرراً عن انهماكك فيه مندفعاً بغير حدود ، ولكن المطلوب هو التزام الوسط في كل الأمور.. ومازلت به حتى أنهى اعتكافه وصومه ورجع إلى المجتمع ولكن بعد بضعة أشهر قطع في خلالها شوطاً بعيداً في حفظ القرآن أو لعله أتم حفظه

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما امتدت آثاره وتشعبت إذ صار عداء للدعوة يظهر في صور مختلفة من ابتعاد عن الدعوة إلى استقالات إلى اعتكاف مجموعات تجتمع في البيوت والكل يشيعون قالة السوء بغير علم ، وكلما وجدوا عدواً للدعوة لاذوا به وظاهروه عليها متناسين قول الله تعالى «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً»

ويبدو أن بسط القرآن لقصة الإفك ؛ وجعلها صدر سورة من سوره ، والإسهاب في سرد تفاصيلها ، وتحليل مواقف الفئات المختلفة فيها ، والتهديد بأقسى العقوبة لمثيريها وللراتعين فيها وحتى للذين يلذ لهم مجرد الاستماع إليها ثم يخرج من ذلك كله بتحذير مزلزل فيقول «يعظكم الله أن

تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » ... هذا السرد المفصل فى أبرز موضع من السورة يوحى بمدى خطورة هذا الأمر كما يوحى بأن الدعوة الإسلامية فى مختلف العهود وعلى مر الزمن عرضة لتكرار مثل هذه الحادثة فيها ولذا حذر جل شأنه من تكرارها بقوله «أن تعودوا لمثله أبداً» و قرن العودة إلى مثلها بالتخلى عن الإيمان بقوله «إن كنتم مؤمنين » ثم أشار إلى اهتمامه بالتفصيل والتوضيح لخطورة العواقب بقوله «ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » .

ذلك أن الدعوات الإصلاحية عامة والدعوة الإسلامية خاصة إن هى إلا مجتمعات يتفاعل بعضها مع بعض ، وهذا التفاعل مع اختلاف المشارب ، وتباين البيئات . وتنوع الآمال ، يؤدى بطبيعته إلى شىء من خلاف فى الرأى أو تنافس على أمل أو تسابق إلى منصب ؛ وقد يورث مثل ذلك فى بعض النفوس الضعيفة العداء ويوقظ فيها الحفيظة والحقد ... وحين تفكر هذه النفوس الضعيفة فى الانتقام من المخالف أو المنافس أو المسابق لاتجد أمامها وسيلة أيسر ولا أسهل ولا أقل تكليفاً من النيل منه بكلمة يرسلونها فى عرضه لاتكلفهم شيئاً ولا تقتضيهم جهداً ولكنها كافية إذا وجدت آذاناً ممن فى قلوبهم مرض أن تهدر كرامته وتهوى به فى المجتمع إلى الحضيض بل تخرجه من المجتمع منبوذاً . . فإذا كان هذا المنافس ركناً من أركان دعوة انهارت الدعوة بانهياره وقضى عليه وعليها معاً .

ولقد وقفنا مع الأستاذ المرشد إزاء هذا الهجوم الغادر الوقفة التى يرضاها الله تعالى ولايرضى سواها ؛ ظننا بأنفسنا خيراً كما أمر الله عز وجل فى هذا الموقف حيث يقول «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين » وكنا كما تمنى القرآن الكريم أن يكونه المجتمع الإسلامى إذ يقول : «ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم» فتولى الله تعالى عنا رد كيد الكائدين فى نحورهم وكفى الله المؤمنين القتال وخرجت الدعوة من هذه الفتنة مرفوعة الرأس بأدنى قدر من الخسائر التى هى فى حقيقة أمرها تخليص للدعوة من خبال علق بها « لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين »

المؤتمر السادس

كان المؤتمر السادس هو آخر المؤتمرات العامة للدعوة كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ذلك أن الإخوان بعد ذلك قد كثروا وتشعبوا إلى الحد الذى لم يعد مكان يتسع لاجتماعهم على هذه

الصورة ، وقد استغنى عن أسلوب المؤتمرات بنظام الهيئة التأسيسية والمكاتب الإدارية وتسلسل القيادة واللامركزية .

وقد أقيم هذا المؤتمر بدار المركز العام بالحلمية الجديدة فى ١١ ذى الحجة ١٣٢٩ الموافق ٩ يناير سنة ١٩٤١ ، وقد حضر عدد كبير جداً من إخوان القاهرة والأقاليم وكان له صدى مدو فى جميع الأنحـــاء .

ومع أنى كنت السكرتير العام المساعد لهذا المؤتمر حيث كان الأستاذ أحمد السكرى السكرتير العام له فليس لدى الآن مرجع أرجع إليه فى تفاصيل هذا المؤتمر غير ما بقى فى ذاكرتى مع أننا طبعنا رسالة خاصة بكل ما تم فيه ووزعت على أوسع نطاق .

وقد طرق الأستاذ المرشد فى بيانه فى هذا المؤتمر كل الموضوعات التى تتصل بالدعوة التى طرقها من قبل فى المؤتمرات السابقة لكنه طرق فى هذا المؤتمر موضوعين جديدين لم يطرقهما من قبل وهما :–

الاول : الشركات الأجنبية فى مصر :

كان الأستاذ المرشد إذا أراد أن يعد بياناً نيلقيه فى مؤتمر من المؤتمرات الإخوانية العامة تفرغ لنفسه ساعتين أو ثلاثاً فيخرج بالبيان الكامل الشامل ... أما إعداد بيانه لهذا المؤتمر فقد أجهد نفسه فيه إجهاداً كبيراً واستغرق منه أياماً كثيرة وقد طلب إليناأن نمده بمطبوعات إحصائية ضخمة صار يعكف على قراءتها الأيام تلو الأيام ويقتبس منها البيانات الدقيقة التى جعلها صلب خطابه .

وكان بيانه فى هذا المؤتمر أطول بيان ألقاه فى المؤتمرات.وقد تضمن لأول مرة إحصاء دقيقاً للشركات العاملة فى مصر ،وبين أنها جميعاً تقريباً شركات أجنبية،وبين جنسية كل منها . وتحدث عن مستوى المعيشة للمصريين وقارنه بمستوى المعيشة لغيرهم .

وتناول هذا الموضوع كان نضحاً لحقيقة كانت جميع الجهات فى مصر تتستر عليها فقد حدد عددها بأنها ثلاثمائة وعشرون شركة تسيطر سيطرة كاملة على اقتصاد البلاد ، وتمتص خيراتها دون أهلها .

ويخيل إلى أن تناول الأستاذ المرشد لهذا الموضوع الخطير الذىهولب الاستعمار كان من أهم العوامل التى لفتت نظر المستعمرين لخطورة دعوة الإخوان المسلمين عليهم ، والتى بدأوا من أجلها يخططون القضاء عليهم. وكان أول أسلوب لجأوا إليه هو تلفيق تهمة تدمغهم بالخيانة ، وقد

تناولت الحديث عنها آنفاً تحت عنوان «أول محاكمة فى تاريخ الدعوة» ولولا عدالة القضاء المصرى وأصالته لتحقق للمستعمرين ما أرادوا .

على أن تناول الأستاذ لهذا الموضوع كان أمراً لابدمنه، فماكانت دعوة الإخوان المسلمين مجرد مبادىء وأفكار وفلسفة ،وإنما هى برنامج إصلاحى شامل.فكيف تتفادى الحديث عن عصابات تسرق قوت الشعب تحت اسم شركات وتنقله إلى بلادها وتترك هذا الشعب يتلوى جوعاً وعرياً وحفاء ... وما كانت المبادىء والأفكار لتغنى مثل هذا الشعب فتيلا إذا لم تعمل على توفير أسباب المعيشة الكريمة له ،وأول هذه الأسباب ؛ أن يعرف الشعب كيف يتسرب قوته وثمرة جهده إلى خارج البلاد .

وإذا كانت هذه الشركات قد استطاعت بمهارتها أن تقطع ألسنة الأحزاب السياسية فى مصر على اختلافها بأن انتقت من كل حزب أفراداً من أبرز من فيه وعينتهم أعضاء وهميين فى مجالس إدارتها بمرتبات ومكافآت خيالية فكانت رشوة مقنعة لم يتنبه إليها الشعب المضلل .. فإن الإخوان المسلمين بحكم إيمانهم بربهم واستمساكهم بعقيدتهم كانوا أمنع من أن تستحوذ هذه الشركات بأحابيلها وإغراءاتها عليهم فكانوا هم فى إعلان كلمة الحق أحق بها وأهلها .

وبقدر ما كان تناول الأستاذ لهذا الموضوع مفاجأة للشركات وللمستعمرين ولجميع الجهات المسئولة فى مصر وخارج مصر ، فلقد كانت مفاجأة أيضاً للإخوان المسلمين أنفسهم الذين حضروا المؤتمر والذين قرأوا بيانه فيما بعد ؛ لأن الإخوان لم يكونوا قد اعتادوا أن يسمعوا فى مؤتمراتهم إلا شرحاً لدعوتهم وتوضيحاً لمواقفهم ... ولكن القيادة الموهوبة هى التى تستطيع أن تنتقل بجنودها وأتباعها من ميدان إلى ميدان فى الوقت المناسب وبالأسلوب الذى تستكمل به الدعوة خطواتها وتثبت وجودها وتحقق معانيها فى واقع حياتها .

والموضوع الآخر هو الملك :

وينبغى بهذا الصدد أن نذكر أن الملك فاروقاً كان حتى ذلك التاريخ لا يزال مناط آمال الشعب وموضع احترامه ،لأن سيرته كانت سيرة مرضية ومسلكه كان مسلكاً شريفاً ،ولعل ذلك نتيجة تأثير الشيخ محمد مصطفى المراغى عليه. وقد سبق لى أن أشرت إلى هذا الرجل وقلت إنه لم يكن مجرد شيخ للأزهر كسابقيه أو لاحقيه الذين كانوا مجرد موظفين يدينون بالولاء للحكومة والملك ، بل كان شخصية ذات تأثير فى الحياة الاجتماعية والسياسية للبلاد وكان موضع احترام الملك فاروق وتوقيره وكان فى صحبته إلى المساجد ، وهو صاحب فكرة إعلان القاهرة عاصمة

مفتوحة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وقد أعلن ذلك وهو فى صحبة الملك فى أحد المساجد ، ولم يكن الإنجليز يرتاحون إليه ، ولما توفى الشيخ فى سنة ١٩٤٥ فى مستشفى المواساه بالإسكندرية ، أدى الملك فاروق صلاة الجمعة التالية فى مسجد سيدى بشر وطلب من المصلين بعد الصلاة أن يقرأوا الفاتحة على روح صديقه الشيخ المراغى .. ولم يبدأ فاروق فى الانحراف إلا بعد وفاة الشيخ

وحسبك أن تعلم أن فاروقاً هو الذى أمر فى ذلك الوقت بجعل الهجرة النبوية من الأعياد الرسمية وأمر بالاحتفال بها وقد سجل ذلك الشاعر الكبير محمود غنيم فى قصيدة له ألقاها فى المهرجان الأدبى الذى أقيم بدار الأوبرا فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٢ حيث يقول :

ملك إذا الإسلام عد حماته ... كان الطليعة فى صفوف حماته
نور الصلاح يلوح فوق جبينه ... والشعب يصلحه صلاح ولاته
الله أكبر هل بصرت بركبه ... يمشى الهوينا غادياً لصلاته
والشعب يدعو الله خلف ركابه ... حتى يهز العرش من دعواته
فكأنه فاروق يثرب نفسه ... يسعى بموكبه إلى جمعاته
قل للمشيد بعيد هجرة أحمد ... جددت عهد الفتح بعد فواته
هذا جهاد فى سبيل الله ما ... نضح الدم القانى على راياته

معذرة للقارىء فى هذا الاستطراد قبل أن أدخل فى الموضوع الذى أنا بصدده فقد أحببت أن أسجل تاريخاً لعل أكثره قد حجب عن شباب هذا الجيل بسوء قصد فقد درج حكامنا على سنة أهل النار «كلما دخلت أمة لعنت أختها» فلكى ينسب حاكم نفسه إلى الفضل لا يرضيه إلا أن يجرد سابقيه من كل فضل .. أما نحن – الإخوان المسلمين – فلا نستبيح تزوير التاريخ من أجل إبراز فضل لنا ، ولا نبالى أن نشيد بمحاسن أعدائنا إن كان لهم محاسن لأننا ملتزمون بقول الله تعالى «ولايجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى».

وليس معنى هذا أننا ننكر أن فاروقاً هذا تولاه بعد ذلك شياطين الإنس من رؤساء أحزاب وبطانة فاجرة فصنعوا منه شيطاناً فباءوا بإثمه وإثم ماحاق بالبلاد من انحطاط وتدهور ودمار ...

ولكن الحقبة التى انعقد فيها المؤتمر السادس للإخوان كان فاروق على ما وصفنا. فتعمد الأستاذ المرشد أن يفسد على الانجليز وأذنابهم محاولاتهم فى إيغار صدر فاروق على الإخوان بما ألقوه فى روعه من أن الإخوان هم أعداء الملك. فقال فى بيانه فى وضوح لا لبس فيه : «إن ما يشاع عنا من أننا أعداء الملك ليس صحيحاً بل إننا نلتزم بقول الإمام مالك رضى الله عنه

«لو كانت لى دعوة واحدة مستجابة لجعلتها للسلطان فإن صلاحه يصلح به خلق كثير» .

وعلى العموم فإن هذا المؤتمر لم يستوف حظه الجدير به من التسجيل التاريخى لفقداننا المرجع الأساسى فى شأنه وهو الرسالة الخاصة به ونجتزىء بهذا القدر عنه الآن وعسى أن نظفر فيما بعد بنسخة من هذه الرسالة فنسجل ملحقاً له إن شاء الله .

إلى دمنهور

فى ١٦ يونية سنة ١٩٤١ انتقلت إلى دمنهور حيث تسلمت عملى بمصلحة القطن بها حسب توجيه الأستاذ المرشد لى كما قدمت . ولم تكن دمنهور غريبة على فقد كنت أقضى فى ربوع محافظتها جزءاً كبيراً من أجازة الصيف كل عام لنشر الدعوة ، إذ كنت أحس إحساساً داخلياً بأن على مسئولية خاصة نحو هذه المحافظة التى ولدت بها ، .. ولم أكن أتصور أن هذه المحافظة من السعة وترامى الأطراف بهذا القدر الذى ووجهت به حين عزمت على ارتياد أنحائها ..

وتستطيع أن تقول إنه فى خلال تلك السنة وما بعدها بدأ الأستاذ المرشد يقذف كل إقليم من أقاليم القطر بثمرة من ثمرات تربيته التى عكف عليها خلال سنى الدراسة فى الجامعة .

وإذا تحدثت عن الدعوة فى أقليم البحيرة وقد ساهمت فى إرساء قواعد الدعوة فيها فإنما أعرض بذلك صورة لإرساء هذه القواعد فى كل إقليم والذى كان من نتيجته أن نشرت الدعوة رواقها على البلاد من أقصاها إلى أقصاها لم تدع عاصمة ولا مدينة ولا قرية ولا نجعاً إلا دخلته وكان لها فيه مستقر ومستودع .

فى دمنهور :

كان يتقاسم النفوذ فى هذه المدينة أسرتان ؛ أسرة تنتسب إلى حزب الوفد وأسرة تنتسب إلى الأحزاب الأخرى ، وكنا حريصين على أن نحسن صلاتنا بالأسرتين ، دون أن يمنعنا هذا من جذب بعض من شباب الطائفتين إلينا . وكان اهتمامنا ينصب أكثره على طلبة المدارس الثانوية والصناعية والزراعية ، وكنا نأخذ هؤلاء الطلبة ومعهم أتراب من ذوى الحرف بنظام الكتائب الذى خرج منهم رجالا صالحين » .

ولم يكن عدد الإخوان بهذه الشعبة كبيراً ، كما لم يكن من بين هؤلاء الإخوان شخصيات بارزة من شخصيات المدينة ، كما لم تكن دار الشعبة فى مظهرها وأثاثها فخمة بل كانت متواضعة بدائية ، لكن كان من يرتاد هذه الشعبة يشعر بفيض غامر من الروحانية الجارفة ، لأن أفراد

هذه الشعبة على صغر أسنانهم وضآلة مراكزهم الاجتماعية كانوا أما يفهمون دعوتهم حق الفهم ويعرفون حقوقها عليهم ويعطون هذه الدعوة حقها من نفوسهم وقلوبهم وألسنتهم وعقولهم وأبدانهم . فترى الجد فى حركاتهم وسكناتهم وترى الأخوة والمحبة والإيثار فى تعاملهم فيما بينهم ، فلا تلبث حين تجلس إليهم أن تمتزج بهم .

كان الأخ المهندس الدكتور محمد عبد السلام فهمى مدير أعمال بمصلحة الطرق والكبارى بطنطا فى ذلك الوقت ، وكانت طنطا مسقط رأسه ؛ وكان من أحبابى الأقربين منذ كنا طلبة بالجيزة ... جاء لزيارتى مرة بدمنهور واختلط بإخوان الشعبة ، فطلب من إدارة الطرق والكبارى بطنطا أن تسند إليه المرور على فروعها بالبحيرة . ومع ما فى ذلك من مشقةعليه فإنه كانيقول لى : إن روحانية هذه الشعبة وما بها من امتزاج نفسى وعمل جاد متناسق كأنه الموسيقى جذبنى وهون على المشقة .

اضطهاد حكومى :

ولست أدرى لم خصت الحكومة هذه الشعبة باضطهاد دون غيرها من الشعب ودون الاضطهاد الحكومى العام ؟.. فبينما كانت الشعب جميعاً فى أنحاء القطر تنعم بالحرية كانت شعبة دمنهور تهاجم ليلا ونهاراً فى فترات متقاربة .

كان هناك بكباشى اسمه «الرفاعى» له مكتب خاص وإدارة مستقلة ووظيفته مدير الشئون العامة بالمدينة كان يهاجمنا فى أثناء المحاضرات الأسبوعية ويحاول منع المحاضرة ويطلبنا للتحقيق معنا فى مكتبه ثم لا يجد شيئاً يعتمد عليه من القانون ...

كان فى دمنهور — وأعتقد أنه كان فى كل عاصمة — قسمان للبوليس لكل قسم منهما مأمور ومعاون وضباط خاصون به ، أحدهما يسمى البندر ومهمته مايتصل بمدينةدمنهورنفسها والآخر يسمى المركز ومهمته ما يتصل بما سوى المدينة من قرى مركز دمنهور وكان القسمان فى مبنى واحد .. وكان لبندر دمنهور معاون بوليس اسمه اليوزباشى محمد أبو السعود.. وكان هذا الرجل وكأن لا عمل له إلا الاصطدام بنا ، كان يهاجمنا ليلا ونهاراً ويرسل لنا مخبراً من المباحث لحضور كل محاضرة تلقى بالشعبة ؛ وبناء على ما يكتبه هذا المخبر يأتى هذا المعاون فى اليوم التالى ليحقق معنا ، وكنت استثقل هذا الرجل السمين ذا الكرش فكنت أصادمه وأتحداه سواء فى الشعبة أو فى مكتبه فى البندر ... وقد ذكرت اسم هذا الرجل ومواقفى معه هنا لأن موقفاً قد حدث لى مع هذا الرجل بعد خمسة عشر عاماً سيأتى الحديث عنه فى حينه إن شاء الله .

ولا زلت حتى هذه الساعة أجهل الجهة التي كانت تحرض هؤلاء الناس علينا هل هي أوامر حكومية عليا ؟ وهذا مستبعد لأن الأوامر لا تخص شعبة دون أخرى . أم هو تحريض موضعى من رجال الوفد في عهد حكومة الوفد ومن رجال الأحزاب الأخرى في أيام حكمهم .. ولكن هؤلاء الناس من الأسرتين كانوا دائماً يحسنون استقبالنا ولا نحس منهم بروح عدوانية .. أم أنها كراهية شخصية دفعت هذين الشخصين من رجال البوليس إلى تحدينا ؟..

رب ضارة نافعة :

كانت هذه المضايقات المستمرة والمصادمات المتتالية تترك في نفوسنا بعض المرارة ، مع أنها لم تكن تنتهي في كل مرة بأكثر من مشاجرة بيني وبين محمد أبو السعود سواء في دار الشعبة أو في مكتبه .. إلا أن هذه المضايقات كان لها فائدة لم نعرفها إلا بعد نحو عام .

ذكرت أن بوليس البندر وبوليس المركز كانا في مبنى واحد . وتبين لنا فيما بعد أن ضابطاً من ضباط بوليس المركز برتبة ملازم كان يراقب ما يحدث بيننا وبين هذا المعاون السمين ، وكان يسائل نفسه لم هذا التهجم المستمر على هؤلاء الشباب بغير جريرة ؟ ولم لم يسأم هؤلاء الناس هذا التهجم المتوالى دون هوادة فيتركوا الفكرة التي من أجلها يسامون هذا الظلم فيستريحوا من هذا العناء ؟...

وقد نقل هذا الضابط بعد ذلك رئيساً لنقطة بوليس «صفط الملوك» مركز إيتاي البارود .. وكانت الدعوة في ذلك الوقت قد سبقت إلى ما حول هذه المنطقة ووصلت إلى آل أبي رقيق في «المسين» عن طريق نجلهم صالح أبو رقيق الطالب إذ ذاك بكلية الحقوق بالقاهرة . وتعرف صالح على هذا الضابط في نقطة صفط الملوك؛ .

وكأنما كان هذا الضابط أرضاً خصبة شديدة الخصوبة لا ينقصها إلا الماء لتنبت وتزدهر وتؤتى أشهى الثمار ، وكان الماء هو هذه الدعوة التي احتضنها احتضان الأم لولدها الذي آب بعد غياب طويل ... ومنذ ذلك اليوم عاش هذا الضابط لهذه الفكرة ، ونعم بها زمناً ، وشقى بها أزماناً ولكنه شقاء لم يستطع مع بالغ قسوته أن يمس القلب الذي لم تفارقه السعادة لحظة واحدة .

كان هذا الضابط هو الأخ الحبيب الأستاذ صلاح شادي ؛ الذي زرته في بيته في نقطة صفط الملوك في ذلك الوقت وقص على قصة مراقبته إياناً في مضايقات المعاون محمد أبو السعود ، وأن هذه المضايقات كانت أول شيء شد انتباهه إلى هذه الدعوة ، وأحس معه أنها دعوة حق ... وقد تصادف أن كان عنده في ذلك اليوم زائر آخر عرفنا به فكان هو شقيق زوجته مدرساً للغة

الإنجليزية بالمدارس الثانوية بالقاهرة وكان هذا الزائر هو الأخ الأستاذ محمد فريد عبد الخالق الذى اقتنع بالدعوة وعاهد عليها وصدق ما عاهد الله عليه .

وقد أوليت الأخ صلاح شادى هذا الاهتمام لأن هذا الأخ قد نهض بأدوار خطيرة فى الدعوة ما كان لينهض بها غيره . ولقى فى سبيلها أشد مايلقاه مؤمن على يد أعتى الظالمين وسنعرض إن شاء الله لهذه الأدوار فى مواضعها .

نشر الدعوة بالبحيرة :

لم يكن بالبحيرة فى ذلك الوقت شعب للإخوان إلا فى دمنهور ورشيد والمحمودية وشبراخيت ، فرأينا أولا أن نركز على تكوين شعبة قوية منظمة فى دمنهور ثم نهضنا بنشر الدعوة فى بلاد المحافظة فكنا نخصص مساء يوم الخميس ويوم الجمعة كل أسبوع لزيارة مركز من المراكز حتى صار فى كل مركز شعبة ثم انتشرت الدعوة إلى ماسوى ذلك من المدن والقرى .. وكان للأستاذ المرشد حنين شديد لزيارة شعب هذه المحافظة التى نشأ فيها وكان له ذكريات فى كثير من مدنها وقراها ... وأذكر بهذا الصدد أننا كنا ننتقل معه بين بلاد مركز كوم حمادة حتى وصلنا إلى قرية «خربتا» فقال لنا إنه بعد أن حصل على دبلوم مدرسة المعلمين الأولية من دمنهور عين مدرساً فى مدرسة خربتا الإلزامية .

مناقشة حول الربا :

تعتبر دمنهور من أشهر بلاد القطر فى تجارة القطن وحلجه وكان بها فى ذلك الوقت ثلاثة عشر محلجاً ... ورغب زملائى فى العمل تأسيس رابطة لهم تودع أموالها فى بنك بفائدة فلما عرضوا على المشروع رفضته لهذا السبب باعتبار هذه الفائدة ربا ...

وكنت مع بعض زملائى فى زيارة صاحب أكبر محلج بالمدينة فسألنى : هل صحيح أنك تعتبر فوائد البنوك رباً فاجبت بالإيجاب فتعجب وقال وما حجتك فى ذلك ؟ .. فقلت قول الله تعالى «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولاتظلمون » ومعنى هذا أنك إذا أقرضت إنساناً أو بنكاً مبلغاً من المال أو اقترضت منه فحين تسترد هذا المبلغ أو حين ترده يجب أن لا يزيد مليما وأن لاينقص مليما .. وهل الربا إلا عقد ترتبط فيه الزيادة فى المال بزيادة المدة ؟...

قال : إذا كان ماتقول صحيحاً فمعنى ذلك أننى فى عملى أتعامل بالربا . فقلت له وهل هناك شك فى أن تجارة القطن فى بلادنا إنما تقوم على الربا ؟ قال : إنك تعلم مدى تمسكى بالدين ... ولو علمت بأن تعاملى مع البنوك فى تجارة القطن ربا لتركت تجارة القطن ، ولكنك فاجأتنى بشىء لم أسمعه من قبل وفى البلد علماء وأزهر .

قلت سأوضح لك الأمر بمثل واقعى : إذا حددت البورصة سعر صنف من أصناف القطن بأربعين ريالا للقنطار ونزل فى مركز دمنهور مائة تاجر كل تاجر يعول بيتاً ويملك كل منهم ألف جنيه لشراء القطن من المنتجين ، وتوزعوا فى قرى المركز فنزل فى قرية منها خمسة تجار ، وعاين أحدهم الأقطان وأعطى سعراً لها ثلاثة وأربعين ريالا . ثم مر الأربعة الآخرون واحداً بعد الآخر فزادوا السعر الزيادة المعقولة فى حدود خمسة قروش لكل منهم فصار السعر الأقصى أربعة وأربعين ريالا ، ومعنى ذلك أن هؤلاء التجار المائة سيشترى عشرون منهم عشرين صفقة وسيجتمع للواحد منهم برأس ماله حوالى مائة قنطار ، يستطيع أن يحلجها لحسابه ويبيعها محلوجة ويجنى منها ربحاً مناسباً يعيش به هو وأسرته عيشة كريمة وربما عاشت بجانبه أسر .

أما الذى يحدث الآن فعلا ؛ فصاحب محلج مثلك رأس ماله مثلا عشرة آلاف جنيه لو اشترى بها جميعاً قطناً زهراً فإنها لاتكفى لشراء أكثر من ألف قنطار . فإذا اشترى هذه الكمية ترك فرصة واسعة لمئات من صغار التجار أن يشتروا بجانبه ، ولكن الواقع المؤلم هو أنك لا تعتمد فى الشراء على العشرة الآلاف التى تملكها بل تذهب إلى البنك وتقترض منه بضمان البضاعة وبفائدة محددة فيضع البنك تحت يدك مائة ألف جنيه ، فإذا نزل هؤلاء المئات من التجار الصغار مشترين فلن يستطيعوا منا فستك فى أية قرية من القرى لأن مندوبيك فى القرى سيرفعون السعر رفعاً تقوى عليه المائة ألف جنيه ولا تقوى عليه الألف جنيه وبذلك يتعطل هؤلاء التجار ولا يجدون مناصاً من طرق بابك واللجوء إليك لتتخذ منهم عمالا بأجر زهيد عندك .

وحسب الربا ظلماً أنه يقضى على المئات الذين يريدون أن يعيشوا مجرد عيشة كريمة ليرفع على أنقاضهم فرداً واحداً ليعيش فى أعلى درجات الرفاهية .

فى فوة . تجربة ناجحة للدعوة

كان عملى الحكومى كما قدمت فى دمنهور ، وشاءت الأقدار أن يكون رئيسى فيها رجلا سكيراً لا يتعفف ، ومع أننى كنت حريصاً على أن لا أحتك به فإنه كان يعتقد أننى أطارده كالمثل الذى يقول : يكاد المريب يقول خذونى ... وقد عمل هذا الرجل بما له من صلات مع الرؤساء الكبار على التخلص منى ففوجئت بعد سنة واحدة فى دمنهور بنقلى إلى فوة .

سافرت إلى فوة وذهبت إلى المحلج الذى سأكون مسئولا عما يدور فيه من عمل ولما رأيت طريقة العمل فيه ومعاملة أصحابه لموظفى الحكومة المشرفين عليه فهمت لماذا اختار لى هذا الرئيس هذا المحلج بالذات ... عرفت أن ثلاثة عشر موظفاً من مصلحة القطن نقلوا إلى هذا المحلج قبلى ولم يستطع أحد منهم أن يستمر فيه إلا عدة أشهر نقل بعدها على أثر ضربه ضرباً كاد يفضى به إلى الموت ... كان أصحاب هذا المحلج قوماً يريدون أن يربحوا من أى طريق لا يبالون بشرف ولادين ولا قانون معتمدين فى ذلك على انقطاع بلدتهم عن غيرها لسوء المواصلات كما أن المحلج يقع خارج العمران كما يعتمدون على فساد ذمم الرؤساء واستعدادهم لقبول المنح والهدايا .

كنت فى ذلك الوقت فى سن مبكرة لم أعد الاثنين والعشرين عاماً ولم أكن جربت حقارة النفوس التى ووجهت بها لأول مرة وعلى حين غرة ولم أكن أتصور أن يكيد رجل لم احتك به ولم أناله بأذى لشاب مثلى فى سن أحد أبنائه فيلقى به بين أنياب السباع ... أسفت وتألمت ولكن ذلك لم يكن ليؤثر فى مباشرتى عملى ؛ فقد باشرته ..ومباشرتى عملى فى مثل هذا المحلج لا تعنى إلا شيئاً واحداً هو مصادرة أصحاب المحلج فى مورد رزقهم الحرام ... ويبدو أن هؤلاء الناس لم يتعودوا على رؤية من يقف فى طريقهم لأنهم تعجبوا أولا ثم تقدم نحوى ابن صاحب المحلج وكان مديراً للمحلج ورفع يده مهدداً بصفعى ... وهنا ذهبت إلى مكتبى وكتبت استقالة والدموع تقطر من عينى وأرسلت الاستقالة إلى رئيسى .

وحضر رئيسى من دسوق وحاول إصلاح ما بينى وبين إدارة المحلج متوسلا إليهم ومحذراً إياى من أن يصيبنى ما أصاب الثلاثة عشر زميلا من قبلى ومزق الاستقالة .

وهدأت نفسى إلى أننى قبل كل شىء صاحب دعوة ، وأن البيئة التى وجدت فيها فى هذا المحلج مهما تلوثت به من مساوىء فإنها لاتخلو من خير دفين ، وعلى صاحب الدعوة أن يكشف عن هذا الخير وإلا كان فاشلا أو كانت دعوته غير جديرة أن تكون دعوة إصلاحية ، ولما كانت دعوته مما لا يتطرق الريب إلى صلاحيتها فإنه هو الذى -إذا لم يستطع النفوذ بها إلى قلوب الناس على اختلافهم - يكون فاشلا .

إن تجربتى فى هذا المحلج قد أثبتت لى أن هذا الجنس البشرى مهما تدنس وانحط إلى أسفل السافلين ، وفشلت فى علاجه وسائل الإصلاح فإنه لايستعصى على الدين .. وثبت لى أن بلادنا هذه لاتقاد إلى أعلى مراتب السمو والنبل إلا عن طريق الدين .. وكل ما سوى ذلك من وسائل الإصلاح ليس إلا مضيعة للوقت وتبديداً للجهد ... محال أن يقاد الإنسان إلا من قلبه ! ! ! ...

والناس يريدون أن يروا الإنسان الذى يخالطهم ولا يتكبر عليهم ولكنه يترفع عن متاع دنياهم ... إنهم يقبلون عليه ويحبونه ويفتدونه ... أما الذين يخالطون الناس ويخاطبونهم باسم الدين بعين ، فى حين يمدون عينهم الأخرى إلى مامتع الله به هؤلاء الناس من زهرة الحياة الدنيا ، فهؤلاء لا تفتح لهم أبواب القلوب ولايحظون منهم برضاً ولا تقدير... يروى أن الرشيد الخليفة العباسى أحس من نفسه يوماً أنه فى حاجةإلىمن يعظه : فأرسل فى طلب كبار العلماء فحضروا ، وصار كل واحد منهم يعظه فيمنحه صرة من المال ، حتى كان آخرهم عمروبن عبيد فوعظه ما شاء الله له أن يعظه ثم قام وانصرف وجد فى السير ، فأرسل خلفه من يحاولون اللحاق به لتسليمه الصرة حتى لحقوا به لكنه رفض .. فرجعوا بها إلى الرشيد فنظر إليه الرشيد وشيعه ببصره وهو يقول :

كلكم يطلب صيـــــد كلكم يمشى رويـــــد

غير عمر بن عبيد

إن الناس يتمنون فى أعماق قلوبهم أن يروا من يرى نفسه أكبر من دنياهم ليتخذوه لهم قدوة وإماماً .... ولكن أين هؤلاء وسط البحر الزاخر من عبيد المادة .

لم يمض على هذه الحادثة التى تهجم على فيها ابن صاحب المحلج أكثر من شهر حتى فعل مقلب القلوب فعله ، فإذا بصاحب المحلج نفسه الذى كان ظهيراً لولده من قبل ينادى ولده . وكان رجلا متزوجاً وذا أبناء –وقال له أمام الناس : كل ما يفعله «فلان» – يقصدنى – فى المحلج لابد أن نخضع له ، وإذا تعرضت له ولو بكلمة سأطردك من المحلج ومن البيت ... ولم يكن الرجل يقصد بكلامه هذا إحراجى كما قد يتبادر إلى الذهن بل كان يقول وهو يعنى ما يقول ، لأنه بعد أن قال ذلك طلب منى أن أجلس إليه وسألنى عن الأشياء المخالفة للقانون التى أريد أن أمنعها فسردتهاله وهى تتلخص فى منع دخول أشخاص معينين تعودوا أن يحضروا للمحلج أقطاناً مغشوشة يبيعونها له بسعر منخفض ... فطلب بواب المحلج أمامى ونبه عليه بمنع دخول هؤلاء الأشخاص مطلقاً ... ثم قال لى : يافلان لعلك تعلم أن أكثر ربحى كان من هذا النوع من الأقطان ولكننى والله قد أصبح رضاك عنى أحب إلى من هذه الأرباح .

الاقلاع عن الكيوف لايحتاج إلا إلى عزيمة :

لم يكن هذا الرجل يصلى وكان يشرب الخمر ويتعاطى الحشيش والأفيون ومن قبل كان يتعاطى الهوراين ويجدربى بهذه المناسبة أن أضع بين يدى القارىء تجربة مرت بهذا الرجل

وحدثنى عنها وفى ذكرها نفع كبير لمن يقرأها ، قال لى : كنت فى شبابى من أقوى الناس بلية ، وابتليت بتعاطى الهوارين حتى أنحل جسمى إلى حد أننى صرت إذا هبت على الرياح أخشى أن توقعنى على الأرض ، وكنت فى الصيف أنزح إلى الاسكندرية حيث لى بيت فيها ، وكنت خلال إقامتى فى الاسكندرية أتردد على مقهى السنانية ، وكان صاحب المقهى يشترى لى الهوراين وكانت العلبة بعشرين جنيهاً .. وفى احدى المرات اشترى علبة فلما رجعت إلى المنزل فتحتها وتعاطيت منها فلم أتأثر بها فعلمت أنها مغشوشة فرجعت بها إلى المقهى وأعطيت العلبة لصاحب المقهى وذكرت له ما كان من شأنها ، فاستدعى الذى اشتراها منه وذكر له ما قلته بصددها فرد الرجل رداً فاحشاً ثم التفت إلى وقال : إذا ذكرت ذلك مرة أخرى عن بضاعتى فسأصفعك صفعة ألقيك بها على الأرض . فكان لتهديد الرجل إياى أثر عميق جداً فى نفسى وقلت لنفسى إن هذا الرجل صادق فى كلامه فإنه إذا صفعنى فإنه سيلقى بى على الأرض لأن جسمى لامقاومة فيه ... ياللهوان إلى هذا الحد أصبحت تافها حتى إن مثل هذا الصعلوك يشتمنى ويهددنى ... وقررت فى نفسى أمراً ... وهنا انبرى صاحب المقهى بما له من سطوة يدافع عنى ويشيد بمكانتى ويهدد الرجل ويأمره بتغيير العلبة المغشوشة فى الحال فانصاع الرجل وأحضر العلبة الحقيقية فأخذتها ووضعتها فى جيبى وغادرت المقهى إلى المنزل .

قال لى : ودخلت شقتى واتجهت إلى المرحاض وأخرجت العلبة وفتحتها وأفرغتها فى المرحاض عن آخرها وشددت السيفون ثم دخلت حجرة النوم وبدأت الآلام تنتابنى ، وكلما مر الوقت تضاعفت الآلام حتى صرت أصرخ كالمجنون من شدة ماتمزقنى الآلام ... وجاءوا بالطبيب فقرر أن أتعاطى الهوراين وإلا فالموت ... فرفضت وآثرت الموت ثم جاءوا بأطباء آخرين فقرروا نفس القرار وأصررت على الرفض .وكانت الآلام تستبد بى حتى أفقد وعى فأنزل من المنزل وأنا لا أحس بنفسى وأهيم على وجهى كالمجنون حتى كان أهلى يجدوننى فى بعض الأحيان على بعد أميال نائماً على «دكة» أحد البوابين .

ظلت هذه الآلام المبرحة نحو شهراً ثم أخذت تخف شيئاً فشيئاً فقرر الأطباء أن أقضى شهراً فى جهة خارج المدينة فاستأجرت مكاناً فى المكس ومكثت فيه حتى اكتملت لى صحتى وعادت إلى عافيتى التى كنت أنعم بها قبل أن أبتلى بهذا «الكيف» الملعون .

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن «الهوراين» هو مسحوق أبيض مخدر يتعاطى عن طريق الشم بالأنف وهو أشد المخدرات تأثيراً وأخطرها سمية وأقواها استيلاء على مراكز الإحساس .. وهذه

التجربة الواقعية تثبت أن العزيمة القوية قادرة على قهر أعتى العادات والكيوف مهما تمكنت من النفس واستولت على مراكز الإحساس فيها .

وجاءنى الشيخ صاحب المحلج فى يوم من الأيام وقال لى : سأخبرك بشيء يسرك ، لقد امتنعت عن الخمر ... وبعد ذلك بفترة وجيزة أخبرنى أنه امتنع عن الأفيون ثم الحشيش ثم طلب منى حين أقوم لصلاة الظهر أن يصحبنى فكنا نصلى جماعة أنا وهو فى مكتبه ، ورأيت فى أحد أطراف فناء المحلج حجرة مهجورة مهدمة فسألت عنها فقيل إنها المسجد الذى كان من شروط الترخيص الحكومى بالمحلج أن يكون ضمن بنائه فبنى ولم يستعمل حتى تهدم .فأشرت على الشيخ أن يصلحه فأصلحه وفرشه وكنا نصلى فيه أذا وهو ومعنا كثيرون من الموظفين والعمال بالمحلج . وجاء ميعاد الحج فاستعد الرجل لأداء الفريضة وأداها ثم قام أهل فوة بجمع تبرعات لإصلاح دورة مياه مسجد أبى المكارم أكبر مساجد فوة فلما علم بذلك تعهد بأن يقوم بهذا العمل وحده وقد هدم هذه الدورة وأنشأ دورة أخرى على أحدث طراز كلفها خمسمائة جنيه .

خلاصة القول أن الرجل أجاب داعى الله بعد أن كان غارقاً فى بحار الشر فكان برهاناً على أن الدعوة الإسلامية الخالصة هى وحدها العلاج الناجع لمجتمعنا ولاعلاج غيرها.

الدعوة فى فوة :

إذا أحببت أن تعرف معدن أهل فوة فحسبك أن تعلم أن الأستاذ حسن البنا هو من أهل فوة . ولد فى شمشيره إحدى قرى مركز فوة ... نزلت هذا البلد الكريم ولم تكن الدعوة قد وصلت إليه بعد ، ولعل السبب فى ذلك صعوبة المواصلات إليه فى ذلك العهد .. وما كدت أتصل بأهل هذا البلد الكريم حتى أقبلوا على مستجيبين لدعوة الله وأنشأوا شعبة ضمت صفوة الناس شباباً وشيباً وزاولت جميع أوجه النشاط الروحى والثقافى والرياضى والعسكرى ، وصار إخوان فوة مثلا عليا فى كل وجه من هذه الأوجه .

تجديد فى أساليب الدعوة :

لم يكن بفوة فى تلك الأيام أية مؤسسة من مؤسسات الترفيه ، فلا سينما ولا مسرح ... وقد رأيتهافرصة سانحة لنقل الأفكار الاسلامية إلى عقول الفلاحين وعقول الناشئة وأهليهم ، فصغت من أحداث نفى مشركى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولبنى هاشم فى شعب من شعابمكة مسرحية . وكنت من قبل قد وضعت أحداث معركة القادسية فى مسرحية طويلة ، وكانت هاتان المسرحيتان باللغة الفصحى ، فرأيت أن أصنع بجانب ذلك مسرحية باللغة العامية لتخاطب عامة

الناس وجعلت هدفها معالجة مادرج عليه الفلاحون ، فى ذلك الوقت من الاستدانة بالربا من اليهود الذين أنشأوا مكاتب فى المدن ويبعثون بمندوبهم إلى القرى والعزب للإيقاع بهؤلاء الفلاحين العوام. ولما كانت مسرحية القادسية طويلة فقد اجتزأت بفصلها الأخير .

ولقد استغرقت وقتاً طويلا فى تدريب مجموعة من شباب الشعبة على التمثيل حتى أتقن كل منهم الدور الذى أسند إليه تمام الإتقان ... وعرض لنا بعد ذلك عائق ضخم وهو المكان الذى تمثل فيه هذه المسرحيات ... ولم يطل بنا البحث فقد خطر لى أن أعرض على الحاج محمد المصرى صاحب المحلج . وكان الوقت فى مقتبل الصيف وفناء المحلج خال من القطن — أن تستعمل فناء المحلج لهذا الغرض ، ورحب الرجل كل الترحيب .

وأقام الإخوان المسرح مستفيدين بأخشاب المحلج ، وأعلن عن الحفل وأقبل الناس عليه من فوة وما حولها من القرى بالألوف مما لم يكن يتسع له مكان آخر غير هذا الفناء المترامى الأطراف . ونجح الحفل بحمد الله وتوفيقه نجاحاً لم يخطر على بال أحد ، وتأثر الناس بالأفكار التى رأوها وسمعوها وصارت حديثهم الذى يتحدثون به فى مجالسهم .. وكان هذا الحفل سبباً فى تعديل مسار كثير من الناس وسبباً فى افتتاح شعب كثيرة .. وعلى أثر هذا الحفل أدى الشيخ محمد المصرى فريضة الحج ورجع تائباً نقياً ..

بين حب الناس وحقد الرؤساء :

قدمت أن نقلى إلى فوة لم يكن إلا حقداً وضغينة من رئيس مارق ، ولما كان لهذا النقل أثر سىء على الدعوة فى البحيرة ، فقد ألح إخوان دمنهور على الأستاذ المرشد أن يعمل على رجوعى إلى دمنهور ولقد فعل وجاء أمر النقل — ويبدو أنه كان صادراً من رئيس الوزراء — حيث كان هو وزير المالية — لأن أحداً من السادة الرؤساء الحاقدين لم يستطيع أن يضع فى سبيله العراقيل ... والواقع أننى سررت به لا لشىء إلا لأقهر رئيسى المارق فى عقر داره فى دمنهور .

ولكن الذى حدث أننى رأيت نفسى أمام مظاهرة من إخوان فوة — وما أكثرهم وما أحبهم إلى نفسى — ومن الحاج محمد المصرى صاحب المحلج الذى ظن أن النقل طبيعى من الحكومة فقرر أن يذهب إلى الوزير لإلغاء هذا النقل، فلما علم بأن النقل إنما جاء عن طريق الأستاذ المرشد ، قرر السفر إليه وحمل معه مجموعة من الإخوان وطلبوا إليه إلغاء النقل ، وشرح له الحاج محمد المصرى حالته قبل وجودى بفوة وحالته بعد وجودى ... واتصل بى الأستاذ المرشد تليفونياً يسألنى عن

رأيي بعد هذه المظاهرة ولم يكن أمامي باعتباري إنساناً يقدر الناس إلا أن أوافق على إلغاء النقل والبقاء بفوة وقد كان .

ولما جاء صيف عام ١٩٤٦ أتممت زواجي ولم أكن أعلم أن الرؤساء المارقين قد تواطأوا على مؤامرة محبوكة الأطراف لنقلي إلى جهة بعيدة ، وتم لهم ماأرادوا حيث نقلت إلى ديروط بمحافظة أسيوط .

عرض من الأستاذ :

وهنا عرض على الأستاذ المرشد أن استقيل من عملي بالحكومة وأتفرغ للدعوة بمرتب أكبر من مرتبي ، فطلبت منه أن يمهلني حتى أستنير برأي والدي الذي سألته فقال لي : يامحمود لأن تعطي الدعوة خير من أن تأخذ منها» فلما أخبرت الأستاذ بما قاله والدي وقع من نفسه أحسن موقع وقال «ذرية بعضها من بعض »

في ديروط

كانت ديروط في ذلك الوقت بلداً لايزال أهلها يعيشون عيشة الجاهلية، فكل فرد منهم يبيع كل ما يملك في سبيل أن يستأجر لنفسه رجلا أو أكثر مهمتهم أن يسيروا خلفه حيثما سار ، وأن يجلسوا حوله أينما جلس ، وكل منهم يحمل بندقيته على كتفه ؛ فالفقير يسير خلفه رجل واحد والمتوسط الحال يسير خلفه رجلان أوثلاثة والثرى يسير في موكب من هؤلاء السدنة والحراس الذين لا لزوم لهم ولا داعي إلا الظهور بمظهر العظمة والقوة المتكلفة المستعارة ... وكانت ديروط في تلك الأيام أكثر بلاد القطر جرائم ....

سافرت إلى ديروط وتسلمت عملي بها وأنا أكاد أتميز من الغيظ من نجاح هؤلاء الرؤساء المارقين الذين أرادوا أن يتخلصوا مني ليستمتعوا بالكسب الحرام دون رقيب فقذفوا بي أولا إلى فوة ،ظناً منهم أنهم ألقوا بي بين براثن الأسد ،وكادوا يحققون أملهم بتركيهذا العملنهائياً وقد استقلت فعلا ولكن رئيسي المباشر ثناني عن الاستقالة ، ثم رأوا وجودي بفوةمنع عنهم مورداً حراماً كانوا يستمتعون به من وراء سلوك محلجها سلوكاً يخالف القانون ، وباهتداء صاحب المحلج إلى صراط الله المستقيم لم ير داعياً يدعوه إلى تقديم ما كان يقدمه إليهم .. فدبروا حين علموا بزواجي أن يقذفوا بي إلى أشد بلاد القطر إجراماً في الصعيد لأمل وأستقيل فيتحقق لهم مايريدون .

ذهبت إلى ديروط وحدى دون زوجتى واقمت فى فندقها الكبير امام المحطة ، وكانت دوره الارضى مطعماً ومقهى وكان بالمقهى «سلاحليك» أكبر من سلاحليك مراكز البوليس ، لأن زبائنه كانوا من هذا النوع المسلح احتيالا وتفاخراً وجاهلية .فكان الزبون إذا دخل المقهى بتابعيه تناول عمال المقهى منهم السلاح وعلقوه بالسلاحليك ثم يسلمونه لهم عند خروجهم ... وكان عملى يقتضى أن أذهب إلى المحالج التى أشرف عليها صباحاً ومساء حتى الساعة التاسعة مساء كل يوم ، ولما كانت المحالج خارج البلد نصحنى قوم من عقلاء البلد أن لا أذهب إلى عملى فترة المساء اتقاء الخطر ؛ وحدث فعلا أكثر من مرة حوادث قتل فى هذه المنطقة وبلغ من جرأة المجرمين أنهم كانوا يهاجمون جنود البوليس فى هذه المنطقة ويجردونهم من سلاحهم وعجز المركز عن مقاومتهم .

وبعد فترة قصيرة من وجودى بديروط فوجئت بزائر لم أكن أعرفه ولكنه عرفنى بنفسه فإذا هو رئيسى مفتش مصلحة القطن فى محافظتى المنيا وأسيوط ، وعجبت حين رأيته يواسينى ، وقد لاحظ دهشتى فقال لى : لاتدهش فأنا مظلوم مثلك ، أنا أقدم موظف فنى فى المصلحة وأعلاهم مؤهلا ولكنى مثلك لا آكل الحرام — كان هذا الرئيس مسيحياً — فكان جزائى أن ألقوا بى هنا فى هذه الوظيفة مع أنى قاربت سن المعاش ... وأنا سمعت عنك وأتابع أخبارك بحب وإشفاق ، فلما علمت أنهم قذفوا بك إلى أسوأ بلد فى نطاق سلطة وظيفتى قدمت إليك لأعرض عليك أقصى ما أستطيعه من تخفيف عنك فى نطاق سلطتى وهو أن أنقلك إلى مغاغة التى تعد أرقى بلد فى التفتيش التابع لى وأقرب بلد فيه إلى القاهرة ... ولما كانت مغاغة ليست غريبة على فلى فيها إخوة أعزاء وذكريات كريمة رحبت بعرضه وشكرته عليه ...

كيف كانت تدار شئون الدولة :

وسافر الرجل وبعد يومين وصلنى كتاب منه فيه القرار بنقلى إلى مغاغة محل السيد (ع.ح) على أن يتسلم الأخير العمل فى ديروط وعلى أن يكون التنفيذ فوراً ..

لم أكن أعرف السيد (ع . ح) هذا الذى سيحل محلى وأحل محله ، وإن كنت أعرف مغاغة تمام المعرفة فلم يمض على فراقى لها إلا سبع سنوات . وذهبت فى اليوم المحدد إلى مغاغة فرأيت عجباً وسمعت عجباً ... العجب الأول أنى حين نزلت مغاغة اتجهت مباشرة إلى شريكى السابق وصديقى وأخى الأستاذ شلبى محمد جاد وكان فى ذلك الوقت قد صار عمدة مغاغة ، فتلقانى أحسن لقاء ثم تحدثت معه عن سكن لى باعتباره أكبر مالك للعقارات فى المدينة ففوجئت بأن مغاغة ليس فيها حجرة واحدة. وقام معى فعلا ومررنا فأثبت مرورنا هذه الحقيقة المرة .

ثم رجعنا إلى مكتبه وجلسنا نتحدث وإذا بشخص يستأذن فى الدخول فرأيت رجلا يكبر با جيماً ،فى سن تجاوز الخمسين وتشرف على الستين وعلى عينيه نظارة سوداء فسلم وجلس ، وكأنه كان يريدنى دون الحاضرين فانتقل إلى جانبى وعرفنى بنفسه فإذا هو السيد (ع.ح) الذى قدمت لأحل محله .

قال لى الرجل : لعلك فوجئت بلقائى إياك فى هذا المكان ، فالمكان المعهود للقائى معك هو جهة العمل لتتم عملية التسليم والتسلم ؛ ولكننى لما علمت بأنك ستحضر إلى مغاغة اليوم أيقنت أنك ستنزل عند أخيك الأستاذ شلبى فحرصت على لقائك عنده .

قال الرجل : وسأكون معك صريحاً غاية الصراحة لأنى أعلم أنك لست كأى زميل حاول أن ينقل مكانى ... وهنا عجبت لقوله إنه سيكون معى صريحاً كأن فى الأمر شيئاً أنا أجهله . قال : إننى هنا منذ عشر سنين وقد حاولوا نقلى أكثر من مرة ففشلوا . قلت : إن هذا الكلام غامض فمن الذين حاولوا ولماذا حاولوا وما الذى يعنيهم من أمر نقلك بالذات وكيف فشلوا ؟..

قال : ياأستاذ محمود يجب أن تعلم أن كل زملائنا هنا فى الصعيد يستفيدون من وظائفهم أكثر من أضعاف مرتباتهم ، وأنت الوحيد الذى أقر الجميع بترفعك عن ذلك - وشرح لى وسائل الاستفادة - ثم قال لى : إننى هنا فى مغاغة قد توطدت العلاقة بينى وبين أصحاب المحلجين فيها وأصبحت أعيش من أثر ذلك فى رغد والحمد لله .. وإننى أعتبر نقلى من هنا قتلا لى ، ولذا فقد ضحيت بالكثير وبذلت الكثير فى سبيل إلغاء نقلى فى كل مرة ، حتى إننى فى المرة الأخيرة وكانوا قد أحكموا الخناق حول رقبتى اضطررت أن أبذل مبلغاً كبيراً فى السراى (السراى الملكية) حتى صدر أمر منها إلى وزير المالية بإلغاء نقلى وكانت صدمة للذين وضعوا الخطة .

ثم قال : لقد حدثتك بالحقيقة التى لم يكن أحد يعرفها ولم أحدث بها أحداً غيرك ، ومع ذلك فإذا قررت تنفيذالنقل فلن تلقى منى أية مقاومة لأنى لا أجرؤ على الوقوف فى وجه رجل طاهر. وإن كنت أجرؤ على الوقوف فى وجه الوزير نفسه ، وهؤلاء هم أبنائى (وأخرج من جيبه صورة لثلاثة أبناء فى مختلف المدارس وفى الجامعة) ثم قام مستأذناً بعد أن عزم على أن أكون ضيفه تلك الليلة وانصرف وهو يكاد يبكى.

وبت تلك الليلة عند أخى الأستاذ شلبى أكرمه الله فقد كان على العهد لم يتغير . ولاأنسى ما عرضه على فى تلك الليلة وألح على فى قبوله حيث قال : إن شقتى التى أسكنها واسعة مكونة من ست غرف ، وسأقسمها بينى وبينك تأخذ ثلاث غرف وأنا آخذ الثلاث الأخرى . فشكرت له جميل عرضه الذى ذكرنى بما عرضه الأنصار على إخوانهم المهاجرين ... وقلت له : يا أخى

لقد عرفت الليلة من عمل الذى أنتسب إليه مالم أكن أعرف ، وسأسافر صبيحة غد إن شاء الله إلى المنيا لمقابلة المفتش الذى نقلنى إلى مغاغة وأعتذر إليه بأنى لم أعثر على سكن ، وأسأل الله تعالى أن يحفظ على إيمانى وسط هذه الفتن .

عرف الإنجليز عن ديننا مالم نعرف :

فى خلال الفترة التى أقمتها بديروط وحدى فى الفندق أشار على بعض الأصدقاء أن أودع نقودى فى صندوق توفير البريد حفظاً لها ... فذهبت إلى مكتب البريد — وكان معاون البريد صديقاً لى وكان شاباً ظريفا وكان مسيحياً — وقلت له إننى أرغب فى إيداع مامعى من نقودفى صندوق التوفير فسألنى : هل تريد استمارة المسلمين أم استمارة بفوائد ؟ فلما سمعت هذا السؤال منه ظننته يمزح معى لأنه يعرف أننى من الإخوان المسلمين فأراد أن يتندر بهذا الأسلوب ، فقد كنت أعرف أن البريد يخير المتعامل معه بين طريقتين : التعامل بالفوائد والتعامل بغير الفوائد ، وكان اعتقادى أن استمارة التعامل بدون فوائد مطبوع عليها «استمارة للتعامل بدون فوائد» حيث إن الأخرى مطبوع عليها استمارة للتعامل بفوائد: فقلت للمعاون : دعنا من المزاح وأعطنى الاستمارة المطبوع عليها «التعامل بدون فوائد» فرد على قائلا : إنك حملت كلامى على محمل المزاح ... إنه ليس مزاحاً وناولنى الاستمارة فرأيت مطبوعا عليها «استمارة للمسلمين» .

كان لهذا الحادث العارض فى نفسى تأثير عميق ودلالات مؤلمة ... وقلت لنفسى إن الذى أسس مصلحة البريد فى مصرهم الإنجليز وهم الذين وضعوا نظمها وأسسها وأساليبها ، ولايزال العمل يدور بهذه المصلحة على نفس النظم والأساليب التى وضعوها .

فالإنجليز إذن قد فهموا من ديننا أن المسلم بحكم أنه مسلم لا يجوز له أن يتعامل تعاملا مالياً مع أحد — ولوكان هذا الأحد مصلحة حكومية — بفوائد لأن الفوائد رباً والربا حرمه الإسلام وعلى هذا الأساس طبعوا نوعين من الاستمارات نوع بدون فوائد وسموه «استمارة للمسلمين» ونوع آخر بفوائد وفى نظرهم أنه لغير المسلمين .

ثم يأتى أكثر المسلمين متنكرين لدينهم متناسين أنفسهم معرضين عن الاستمارات التى أعدت للمسلمين متعاملين بالاستمارات الربوية ... لقد عرف الإنجليز عن ديننا مالم نعرف ، وقدرونا ولكننا احتقرنا أنفسنا .

النقل إلى دمنهور ثانية :

كانت الفترة التى قضيتها فى ديروط فترة غير مستقرة ، فقد كنت موزع الخاطر ، ثم

تخلل هذه الفترة شهور طويلة أصاب البلاد فيها وباء الكوليرا -أعاذنا اللهمنه ولا أعاد أيامه، وفى خلاله كان الناس يعيشون فى خوف، وتقطعت الصلات بين البلاد حيث أوقف سير قطارات السكة الحديد وغيرها من طرق المواصلات، ومنع الانتقال من مكان إلى مكان حتى إننى حين أقبل العيد حاولت السفر إلى رشيد بالطائرة من أسيوط فقيل لى إن جميع الأماكن محجوزة لما بعد العيد بأسبوع ... وقد استضافنى فى أيام العيد الأخ الكريم السيد محمد حامد أبو النصر فى منفلوط المتاخمة لديروط وبالغ فى إكرامى أحسن الله إليه وعوضه خيراً عما ناله من ظلم كبير.

ولم ألبث بعد ذلك إلا قليلا حتى نقلت إلى دمنهور، ويبدو أن مما سهل نقلى هذا أن لهذه الأماكن النائية والبعيدة عن أعين الرقابة طلاباً كثيرين يتهافتون عليها.

ترشيح المرشد العام لمجلس النواب سنة ١٩٤٢

قد يبدو هذا العنوان كما يبدو العنوان الذى يليه فى هذا الفصل وكأنهما دخيلان عليه؛ إذ أن فيهما احتكاكاً بالحكومات القائمة وقتذاك وقد يراهما القارىء أليق بأن يلحقا بالفصل القادم المخصص للعمل الوطنى منهما بالإلحاق بهذا الفصل الذى يعالج العمل الداخلى ... ولكن القارىء سوف يقتنع بأنهما من صميم هذا الفصل حين يعلم أن هدف الأستاذ المرشد من وراء هذا الاحتكاك إنما كان تمهيد السبيل لتثبيت دعائم الدعوة فى أنحاء البلاد، وتأمين خطواتها فى هذا السبيل حتى تستكمل كل وسائل القوة المعنوية والمادية.

ومن المسلم به أن أية دعوة ذات أهداف نبيلة وبرامج إصلاحية تريد تحقيق هذه الأهداف والبرامج ينبغى أن يكون من وسائلها إلى ذلك العمل على الوصول بأعضائها إلى مقاعد المجالس التشريعية، ولا يتأتى ذلك إلا بخوض المعارك الانتخابية ... ومن بدائه الأمور أنه كلما كان عدد النواب لهيئة من الهيئات أكثر كان تحقيق آمالها أيسر؛ ولكن الإخوان كانوا يعتقدون أن حصولهم على مقعد واحد فى مجلس النواب كفيل بأن يؤثر فى هذا المجلس أبلغ التأثير إذا كان صاحب هذا المقعد هو حسن البنا؛ ذلك أن لديه من قوة الشخصية والقدرة على الإقناع مع مايتمتع به من روحانية فياضة وبلاغة آسرة ما يشد إليه الأسماع والعيون والعقول والقلوب، وما يفعل فى السامعين فعل السحر ... وقد استطاع بهذه المواهب النادرة أن يجمع حوله من الأنصار الذين يفتدون دعوته بأموالهم ودمائهم مئات الألوف فى أنحاء مصر وغير مصر من الدول العربية والإسلامية.

لهذا اتخذ الإخوان قراراً بترشيح المرشد العام عن دائرة الاسماعيلية فى الانتخابات التى

أعلنت حكومة الوفد إجراءها سنة ١٩٤٢ ... وإذا كان أعظم المرشحين لم يكن لتقدمه للترشيح من صدى إلا فى دائرته التى ينتمى إليها ، فإن تقدم حسن البنا للترشيح كان له صدى يتردد فى جميع محافظات القطر ومراكزه وحواضره وقراه بل وقد تعدى ذلك الصدى إلى خارج مصر ؛ ذلك أن فى كل مكان من هذه الأماكن رجالا ونساء يعقدون الآمال العريضة على هذا الترشيح .

وينبغى أن يكون مفهوماً أن ترشيح حسن البنا فى دائرة الاسماعيلية ليس له إلا معنى واحد هو أنه من قبل أن تجرى انتخابات قد صار عضواً بمجلس النواب مهما نافسه فى الترشيح مائة مرشح منهم رئيس الحكومة نفسه ،ذلك أن أهالى هذه الدائرة عن بكرة أبيهم رجالا ونساء وأطفالا يعتبرون ترشيح حسن البنا عندهم شرفاً لا يعادله شرف ، وأن انتخابهم إياه فريضة من فرائض الدين وقربة من أعظم القربات إلى الله عز وجل .

وهذه الحقيقة التى يعرفها أهل الإسماعيلية ويعرفها الإخوان فى كل مكان ؛ ويعرفها الإنجليز أيضاً ، وإن كان يجهلها – حتى ذلك الوقت – فئات أخرى منهم حكام مصر ورجال الأحزاب المصرية الذين لم يستطيعوا أن يفهموا عن الإخوان المسلمين أكثر من أنهم جماعة تدعو إلى الدين الذى لا يخرج فى تصورهم عن كونه طقوساً وعبادات ومحاربة للمنكرات بالوعظ والإرشاد ... بالرغم مما يبذله الإخوان من جهود لتوضيح فكرتهم عن الإسلام باعتباره ديناً ودولة ، وعقيدة وشريعة ، وبرنامجاً إصلاحياً شاملا لجميع شئون الحياة

تقدم الأستاذ المرشد بطلب الترشيح إلى وزارة الداخلية كالمعتاد ... فما الذى حدث ؟...
بعد أيام قلائل جاءرسول من قبل مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة يدعوه لمقابلته ....
وسأنقل هنا نص ماجاء فى تقرير الأمن العام عن هذه المقابلة وعن هذا الموضوع عامة وقد نشره فى جريدة الأهرام فى ١٤–٢–٧٥ الدكتور عبد العظيم رمضان مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة طنطا ضمن وثائق نشرها ، قال التقرير :

«لم يكد يذاع خبر ترشيح الأستاذ حسن البنا ويدفع التأمين إلا واتصل به حضرة عبد الواحد الوكيل بك صهر حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ، وتكلم معه فى موقف الإخوان المسلمين ، وطلب منه الرجوع إلى رفعة النحاس باشا لكيكون رفعته على بينة من أمرهم لأن رفعته لديه فكرة غامضة عنهم .

وبعد بضعة أيام تلقى دعوة بمقابلة رفعة النحاس باشا ، وتمت المقابلة بفندق ميناهاوس ، وقد طلب منه رفعة النحاس باشا أن يتنازل عن الترشيح. وصارحه رفعتهأنه يطلب ذلك إيثاراً للمصلحة العامة ولمصلحته (أى مصلحة الأستاذ البنا) إن كان يريد الإبقاء على جماعات الإخوان

المسلمين فى مختلف البلدان . فرفض ذلك وقال إنه يستعمل حقاً من حقوقه الدستورية ولا يرى ما يمنعه من الترشيح ، وإن كان هناك موانع فإنه يطلب بيانها لكى يتبين مبلغها من الصحة ، وفضلا عن ذلك فإن قرار الترشيح صدر من هيئة المكتب العام لجماعة الإخوان ،وأنه شخصياً لا يملك الرجوع فى ذلك .

فرجاه رفعة النحاس باشا أن يعمل على إقناع الأعضاء بالعدول عن ذلك، وأن رفعته رأى أن يدعوه لينصح له بالتنازل وإلا اضطر إلى اتخاذ اجراءات أخرى يراها رفعته قاسية ، ولا يرتاح إليها ضميره ، ولكنه حرصا منه على مصلحة البلد مضطر إلى تنفيذها . ولما استوضحه تلك الإجراءات قال رفعته إنها حل جماعات الإخوان المسلمين ونفى زعمائها خارج القطر ؛ وتلك هى رغبة هؤلاء الناس (يقصد الإنجليز) الذين بيدهم الأمر يصرفونه كما يرون ، ونحن مضطرون إلى مجاملتهم خصوصاً فى هذه المسائل الفرعية ، وفى هذه الظروف العصيبة، لأنهم يقدرون على كل شىء ، وفى استطاعتهم إن شاءوا أن يدمروا البلد فى ساعتين .

وقد ترك رفعته فرصة للتفكير فى الأمر ، وأن تتم مقابلة أخرى فى هذا الشأن ، وقد عرض الأمر على هيئة مكتب الإرشاد فلم توافق الأغلبية على التنازل ، ولكنه هو شخصياً وافق عليه لا خوفاً من النفى ولكن حرصاً على قيام الجماعة واستمرارها فى تنفيذ أغراضها .

وأخيراً أستقر الرأى على التنازل ، وتوجه مرة أخرى لمقابلة رفعة الرئيس بوساطة سليم بك زكى الذى بسط لرفعته دعوة الإخوان ومدى انتشارها فى المدن والأقاليم ، فانتهز هذه الفرصة وطلب من رفعته ضمانات بقيام الجمعية وفروعها . وعدم الوقوف فى سبيلها وعدم مراقبتها والتضييق على أعضائها للحد من نشاطهم فوعده رفعته بما طلب » .

وقد أوردت ماجاء بتقرير الأمن العام عن هذه المقابلات لأنه هو فعلا نص ماحدثنا به الأستاذ المرشد عقب رجوعه من كل من المقابلتين ، فقد كنا فى ذلك الوقت فى المركز العام ننتظر رجوعه على أحر من الجمر لأن موضوع الترشيح كان أمراً جوهرياً بالنسبة لنا ولجميع الإخوان فى أنحاء البلاد ، ولهذا فإنه رأى بعد أن قص علينا ماحدث أن ننتقل إلى الاسكندرية وطنطا وغيرها من العواصم ليقصه عليهم حتى يكون الجميع على صورة واضحة من الموضوع .

وموقف الأستاذ المرشد فى هذا الموضوع كان أحد المواقف القليلة التى جاء رأيه النهائى فيها صدمة لمشاعر الإخوان وعواطفهم ، فما من أحد فى أنحاء البلاد إلا وشعر بهذه الصدمة التى تمثلت لنا فى صورة فرصة أفلتت منا بإرادتنا ولو أننا تمسكنا بها لأفادت الدعوة منها أعظم فائدة .

ولم يسلم الإخوان للاستاذ المرشد بما طلبه إليهم ، ولم ينزلوا على رأيه إلا للثقة التى لا حدود لها فيه ، وللاطمئنان الكامل إلى اخلاصه ومقدرته وبعد نظره وحسن تدبيره للأمور .

وتقريراً للواقع أقول إن هذا الموقف الذى وقفه الأستاذ فى هذا الموضوع – وإن كان قد جرعنا فى أوله بعض المرارة – إلا أنه عاد على الدعوة بما لا حصر له من الفوائد ، وحسب القارىء أن يعلم أن قوة الإخوان المسلمين فى ظل هذا الموقف وفى خلال أربع سنوات بعده قد تضاعفت أضعافاً كثيرة كما وكيفاً حتى صارت أقوى هيئة شعبية فى مصر وفى البلاد العربية على الإطلاق .

ومع أن حزب الوفد الحاكم فى ذلك الوقت كان حريصاً على أن يخرج من تجربته هذه مع الإخوان بكسب معنوى لحسابه ، فإن الإخوان قد خرجوا منها بمكاسب لدعوتهم لا يقاس بأدناها كسب الوفد – إن كان قد كسب شيئاً – فضلا عما أشرنا إليه آنفاً من انفتاح كل الطرق أمام الإخوان لبث دعوتهم فى كل مكان دون عوائق ؛ فإن هناك مزايا أخرى ما كانت لتنجز وتتخذ سبيلها إلى واقع الحياة فى مصر لولا هذين اللقاءين اللذين تما بين الأستاذ المرشد والنحاس باشا وعلى رأس هذه المزايا .

١ – إحياء الأعياد الإسلامية لا سيما مولد النبى صلى الله عليه وسلم وجعله عيداً رسمياً للدولة وقد أصدر رئيس الحكومة حديثاً رسمياً مستفيضاً تحية لهذه الذكرى الكريمة .

٢ – إلغاء البغاء فى أنحاء البلاد وكان وصمة عار فى جبينها .

٣ – قانون بوجوب استعمال اللغة العربية فى تعامل جميع الشركات والمؤسسات ومراسلاتها

٤ – تحريم الخمر – وإن كان التحريم قد اقتصر على المناسبات الدينية .

٥ – بذل جهد مشكور فى وضع أساس إنشاء الجامعة العربية .

وقد كان الأستاذ المرشد قد أخبرنا فيما أخبرنا به عما دار بينه وبين النحاس باشا فى هذين اللقاءين أنه كان حريصاً أن يلقى فى روع النحاس باشا أن تنازله عن الترشيح لابد أن يقابله ما يسد هذه الفجوة بعمل إسلامى تقوم به الحكومة يثلج صدر الشعب الذى كان يؤمل الكثير من العمل الاسلامى من وراء دخولى مجلس النواب.وقال له إن العمل الإسلامى الذى تقوم به الحكومة يقربها إلى نفوس الشعب ويرفع اسم زعامة الوفد .. وقد تعهد النحاس باشا بالنهوض بهذه المطالب . وقد وفى الرجل بتعهده . وقد ألقى عقب هذين اللقاءين حديثاً ضمنه هذه المعانى التى اتفق عليها .

وعقب صدور هذا الحديث عن النحاس باشا تقابل عبد الواحد الوكيل باشا مرة أخرى مع الأستاذ المرشد واقترح عليه أن يصدر بياناً يسجل فيهأنالتنازلقدتماحتراماًلقرارالوفدبترشيح

شخص آخر ويعلن فيه تأييده لسياسة الوفد فى التعاون مع بريطانيا لتنفيذ معاهدة التحالف — فرفض الأستاذ المرشد ذلك واكتفى بذكر فقرات من خطاب النحاس باشا معلناً أن الإخوان عون له فى سياسة الإصلاح الدينى والاجتماعى .. ونثبت هنا نص هذا الخطاب الذى وجهه الأستاذ المرشد إلى النحاس باشا كما نشر بجريدة المصرى يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٤٢ تحت عنوان :

الإخوان المسلمون يستجيبون لنداء الزعيم — ويعلنون أنهم عون للحكومة فى تحقيق برنامجها الإصلاحى

كتاب قيم من المرشد العام للرئيس الجليل

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية .

أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وأحييكم فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ....

فقد تحدثتم رفعتكم إلى الأمة المصرية حديثاً رائعاً جميلا ، ضمنتموه كثيراً من المبادىء القويمة والأمانى الطيبة التى يسر كل مصرى أن يحققها الله على يديكم ...

فقد أشدتم بالصراحة والتعاون والإخلاص ، ودعوتم الأمة إلى مصارحتكم والتقدم اليكم بالنصح ووددتم أن تمتلىء صدورنا جميعاً بهذه المعانى السامية (فنحن أبناء أسرة واحدة هى الأسرة المصرية الكريمة) .

وقررتم رفعتكم أنه من دواعى سروركم أن تتعاون الأمة والحكومة فى هذه الظروف الدقيقة فى تنفيذ سياسة خارجية حكيمة ، وتصميم سياسة داخلية بصيرة ... فالواجب يقتضينا والمصلحة تدعونا إلى أن ننفذ بإخلاص وحسن نية أحكام المعاهدة التى وقعناها بمحض اختيارنا وملء حريتنا وقصدنا من ورائها سلامة استقلالنا القومى والاحتياط لمثل هذه الظروف العصيبة .. كما أن الحكومة ساهرة على اتباع سياسة عمرانية عاجلة لخير الطبقات الفقيرة قبل غيرها .. ومن واجب الحكومة والبرلمان أن يضعا فى رأس برنامجهما درس المسائل الاجتماعية والسعى إلى حلها حلا سريعاً حاسماً

وقد أشرتم إلى التطور الجديد فى حياة العالم كله تطوراً «هو مقدمة لتطور أعمق غوراً وأبعد أثراً يجعل مظهر العالم فى غير مظهره اليوم» .

ثم ختمتم هذا الحديث «بأن علينا أن نعبر الطريق المحفوف بالمخاطر ، المحوط بالمكاره ، متعاونين متحدين مع الشعوب الشرقية وإخواننا أبناء العروبة الكريمة كالبنيان المرصوص يشد

بعضه بعضاً ، مترقبين بزوغ فجر الحرية والإخاء بين الشعوب ؛ فيقوم عدل الحكام على أنقاض الظلم والاستبداد ، وتتفيأ الأمم ظلال الطمأنينة والسكينة والسلام» .

أصغينا إلى هذا الحديث القيم ثم طالعتنا الصحف بنصائحكم الجليلة إلى حضرات المديرين والمحافظين ، ودعوتكم إياهم إلى «أن يكونوا أداة سلام ودعاة صلح وتفاهم بين العائلات ، وأن يديموا التجوال فى البلاد ليتبينوا مطالب الأهلين ،وينظروا فيها بالعين المجردة عن كل ميل وهوى ، وأن يستمعوا إلى شكاوى المظلومين ويعملوا على رفع المظالم عنهم »

وقرأنا فى الصحف أن معالى وزيرالصحة أخذ يدرس باهتمام مشكلة البغاء تمهيداً لتخليص مصر من وصمته الشائنة ، وأنه قرر فعلا البدء بإلغاء دور البغاء فى القرى والبنادر من أول مايو المقبل .

والإخوان المسلمون أمام هذه الآمال الصالحة ، والأعمال الطيبة النافعة ، يرون من واجبهم أن يستجيبوا لندائكم وأن يعلنوا أنهم حريصون كل الحرص على أن يكونوا عوناً لكم وللحكومة المصرية فى تحقيق برنامجكم الإصلاحى الذى أعلنتموه ، مستمسكين دائماً بآداب الإسلام العالية وتعاليمه القويمة وأخلاقه الفاضلة .

والله نسأل أن يهيئنا جميعاً لخير هذا الوطن العزيز والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد عام من هذا التاريخ ، ومع التكوين الجديد للوزارة بعد خروج مكرم عبيد باشا منها لخلافه مع النحاس باشا رغب أعضاء الوزارة فى زيارة المركز العام للإخوان ، فوجه الإخوان إليهم الدعوة ، وننقل وصف هذه الزيارة وما تم فيها كما نشرته جريدة المصرى يوم ١٧ مايو سنة ١٩٤٣ بعنوان ... الإخوان يضيفون وزراء الشعب .

«أقام المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين حفلة كبرى بداره بالحلمية الجديدة فى الساعة السابعة من مساء أمس دعا إليها أصحاب المعالى الوزراء فلبى الدعوة فؤاد سراج الدين وزير الزراعه . و . . . . . و . . . . . . و . . . .

وكان فى استقبالهم فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن البنا والأستاذ أحمد السكرى وكيل الجماعة وبقية الإخوان وفرقة الجوالة الخاصة بهم ، وكان الإخوان يستقبلون كل وزير عند حضوره بالهتاف والتكبير «الله أكبر ولله الحمد »

وعلى أثر وصول الوزراء حان وقت صلاة المغرب فأذن المؤذن وأم المصلين فضيلة المرشد العام ولما كانت المصلى لا تتسع لجميع الذين حضروا فقد أدى العديدون الصلاة فى الحجرات وفى حديقة الدار وخارجها وقد فرشت بالبسط والحصير - وتصادف أن حضر فى هذه الأثناء وزير

التموين الأستاذ أحمد حمزة فأدى الصلاة مع المصلين خارج الدار ، فكان منظراً إسلامياً ديمقراطياً رائعاً رؤية أصحاب المعالى الوزراء وهم بين الإخوان يؤدون صلاة المغرب فى خشوع المؤمنين الصالحين ...

وبعد الصلاة جلس أصحاب المعالى الوزراء مع الإخوان فوق سطح الدار حول موائد الشاى والحلوى والمرطبات .. وافتتحت الحفلة بتلاوة آى الذكر الحكيم ثم ألقى الأستاذ أحمد السكرى كلمة ترحيب وتلاه الأستاذ حسن البنا بكلمة أوضح فيها فكرة دعوتهم وأهدافهم .

وألقى بعد ذلك كل من أصحاب المعالى وزراء الزراعة والتموين والشئون والتجارة كلمات مناسبة أشاروا فيها إلى مشروعات حكومة الوفد وعلى رأسها النحاس باشا وهى المشروعات التى تحقق الأغراض الإسلامية مثل إلغاء البغاء . وإحياء الأعياد الإسلامية وتحريم الخمر والموبقات وقانون استعمال اللغة العربية وغير ذلك من مفاخر حكومة الوفد .

ثم وقف الأستاذ أحمد السكرى فشكر الوزراء على ما أبدوه فى كلماتهم من استعداد طيب نحو تشجيع جماعة الإخوان المسلمين ورجاهم أن يبلغوا رفعة الرئيس تحيات الإخوان وأطيب تمنياتهم وأن يقدموا له باقة من كتاب الله وهى الآية الكريمة «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور .

وانتهى الاحتفال فى الساعة العاشرة مساء»

وقبل أن نصل فى معالجة هذا الموضوع إلى نهايته ، لايفوتنا أن نومىء إلى غمزات وردت فى تعليق الكاتب الذى أشرنا إليه آنفاً فيما نشره بجريدة الأهرام فى ١٤ - ٢ - ١٩٧٥ حيث شكك سيادته فى صدور العبارات التى وضعنا تحتها خطوطاً مما نقلناه من تقرير الأمن العام عن النحاس باشا ، وملخصها أن الإنجليز هم الذيز طلبوا من النحاس باشا إرغام حسن البنا على التنازل

وحسبنا فى الرد على هذا المؤرخ الذى يستقى معلوماته من وثائق إدارة الأمن العام أن يطلب من هذه الإدارة وثيقة عما تم فى ترشيح الأستاذ حسن البنا نفسه فى نفس الدائرة فى سنة سنة ١٩٤٤ فى أيام وزارة أحمد ماهر ، فإذا لم يعثروا على هذة الوثيقة ، فليذهب إلى الإسماعيلية ويسأل عشرات الآلاف من أهلها الذين حضروا هذه الانتخابات ولا يزالون على قيد الحياة ليسمع منهم كيف تدخل الإنجليز بأنفسهم وبجيش احتلالهم المرابط فى الإسماعيلية لإسقاط حسن البنا مما سنفصله فى الصفحات القادمة إن شاء الله .

وسيادة المؤرخ كان مدرساً بجامعة طنطا حين أرخ لهذا الموضوع سنة ١٩٧٥ ، وهذا المنصب يكون صاحبه عادة فى سن تناهز الأربعين ، ومعنى ذلك أنه فى أثناء هذه الفترة التى يؤرخ لها كان فى عهد الطفولة .

ولكنه حين يؤرخ لهذه الفترة يؤرخ لفترة شهدها جيل لازال يعيش معه فكان عليه وهو مدرس للتاريخ المعاصر ويؤرخ لتاريخ معاصر أن يرجع إلى من عاصروا هذه الأحداث فى مواقعها ، وهم لا يزالون على قيد الحياة بدلا من أن يقتصر فى تاريخه على الوثائق التى لايكتفى بها عادة إلا فى التأريخ لأحداث طال عليها الأمد ولم يعد على قيد الحياة من يرجع إليه فيها .

على أننا سوف نتناول تعليق هذا المؤرخ بمناقشة موضوعية فى الفصل القادم إن شاء الله .

نقل المرشد العام الى قنا

أشرت فى أوائل هذه المذكرات إلى أول بعثة أعدها الإخوان لحج بيت الله الحرام وكان الأستاذ المرشد على رأسها كما أشرت إلى المؤتمر الذى عقده الملك عبد العزيز آل سعود ودعا إليه عظماء المسلمين فى حج ذلك العام وإلى حضور الأستاذ المرشد وإخوانه هذا المؤتمر بغير دعوة باعتبارهم مستمعين ، وإلى تقدم الأستاذ المرشد إلى المنصة بعد انتهاء الخطباء الأصليين من مختلف البلاد الإسلامية ، وإلى اكتساحه كل من تقدموه ، وحظوته وحده دون جميع الخطباء بإعجاب الحاضرين حتى إن الحكومة السعودية نشرت خطبته فى جريدتها الرسمية الوحيدة فى ذلك الوقت «أم القرى» ولم تنشر سواها .

بقى أن نذكر أن من بين الذين حضروا هذا المؤتمر — مدعوين من الحكومة السعودية — ومن بين الذين خطبوا فيه وكانوا موضع رعاية خاصة من جانب الحكومة لا باعتبارهم من كبراء البلاد الإسلامية فحسب بل باعتبارهم أيضاً من كبار الكتاب والأدباء والخطباء «الدكتور محمد حسين هيكل باشا»

والدكتور محمد حسين هيكل باشا أديب من أدباء مصر ، وكاتب من أعظم كتابها ، وله مؤلفات بعضها روائى مثل قصة «زينب» وبعضها تاريخى وتحليلى مثل «حياة محمد» و «منزل الوحى» ، وهو من كبار رجال حزب الأحرار الدستوريين ، وتولى رياسة الحزب فيما بعد ، وكان «رئيس تحرير جريدة «السياسة» اليومية الناطقة بلسان هذا الحزب كما كان يصدر مجلة أسبوعية تجمع إلى السياسة الأدب واللغة والتاريخ وكانت تسمى مجلة «السياسة الأسبوعية» .

تولى هذا الرجل أول منصب حكومى له فى تلك السنة (١٩٤٤) حيث أسندت إليه وزارة

المعارف العمومية ؛ وكأنما كان هذا الرجل يسر فى نفسه أموراً لم يبد بها لأحد وأنه كان يطوى على أضغان كانت تعتمل فى نفسه منذ سنين ولم يجد الفرصة لإصعاد زفراتها التى كانت تحرق قلبه ؛ فلما أتيحت له الفرصة لم يستطع أن يحبس منها شيئاً فأطلقها سوداء قاتمة ، شوهاء بشعة .. وكأنما تذكر الرجل مواقف معينة – وإن كان قد طال عليها الأمد – إلا أنها لا زالت ماثلة فى خاطره حائكة فى صدره وإليك إيماءة إلى هذه المواقف :

أولا : موقف الأستاذ المرشد فى مؤتمر مكة الذى نوهنا عنه آنفاً .

ثانيا : فى خلال فترة العشرينيات والثلاثينيات كان اتجاه المثقفين اتجاها غربياً ؛ ذلك أن الطبقة الرائدة منهم كان أكثرها ممن تلقوا تعليمهم فى جامعات أوربا ، وهؤلاء هم الذين كان بيدهم توجيه الثقافة فى مصر فنشأوا وكأنهم أجانب عن بلادهم وأهليهم ، وكان أول مظهر من مظاهر تأثرهم بالغرب تنكرهم لدينهم حتى صار التمسك بالدين وأداء فرائضه دليلا فى نظرهم على الجهل والتأخر والبعد عن الحضارة والثقافة ... ولذا كنت ترى المؤلفات تتناول ما يهم الغرب والغربيين أكثر مما يهم أهل البلاد ، وبمعنى أوضح كان الناس لا سيما القادة مفتونين بالغرب يكادون يحسون بالخزى والعار من انتسابهم إلى تاريخهم وقوميتهم ودينهم .

وكان من أوائل من تلقى العلم فى أوربا وعاد إلى مصر دون أن يفتن عن أصله ودينه محمد أحمد جاد المولى بك ، وكان المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف العمومية ، وقد وضع كتابين ، أولهما «محمد المثل الكامل» والآخر «محمد الخلق الكامل» تناول فيهما مواقف من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ سعد العالم بولادته حتى لحق بالرفيق الأعلى أثبت بها أنه هو وحده الذى حقق المثل العليا التى طالما حلم بها الفلاسفة وتخيلها الحكماء .

وعلى عكس ما كان يتوقعه أترابه ومعاصروه من قادة الثقافة فى مصر صادف الكتابان قبولا فى مختلف الأوساط المصرية والعربية ، وحظيا بانتشار واسع أسال لعاب هؤلاء القادة ، ناظرين إلى ما يجنى من وراء هذا الانتشار من ربح مادى وكسب معنوى .. وجرياً وراء هذا الربح بدأوا يفكرون فى الرجوع إلى أصلهم ، والانتماء إلى أرومتهم ... ولكن كيف يقتحمون هذا الميدان؟ لم يقتحموه عن طريقه السوى ، ولم يلقوا بأنفسهم بين أحضانه كما يرجع الوليد العاق التائب فى أحضان أمه وأبيه ، بل اقتحموه عن طريق ملتو كأنما لا يعرفون طريقاً يوصلهم إلى بيوتهم إلا عن طريق الغرباء الذين اتخذوهم أئمة .

أراد الدكتور محمد حسين هيكل أن يكتب فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكتب ؟ .... كان أحد المستشرقين الفرنسيين واسمه «ديرمنجهام» قد وضع كتاباً سماه «حياة

محمد» فطفق الدكتور هيكل يترجم هذا الكتاب وينشر كل أسبوع فصلا منه فى مجلته «السياسة الأسبوعية» ويعلق عليه حتى إذا أتم ترجمة الكتاب ونشره فى المجلة معلقاً عليه، جمع مانشر من أصل وتعليق فى كتاب أخرجه بنفس الاسم.

لقى الكتاب رواجا. والكتاب قيم فى أسلوبه وطريقة عرضه للأحداث ومعالجته للمواقف وتحليلها!... وقد نفدت طبعته الأولى لأول ظهورها، لكن فى الكتاب مغمزاً لا يدركه إلا الراسخون فى العلم وقد أدركه الأستاذ المرشد وعلق عليه فى أحاديثه الخاصة والعامة وفى مجلة الإخوان المسلمين؛ ذلك أن الدكتور هيكل اقتدى بالمؤلف الفرنسى فيما جرت عليه الحضارة المادية الغربية من إخضاع كل شىء للمقاييس العلمية التى هى نفسها المقاييس المادية مما يطلقون عليه اصطلاح «العلم التجريبى».. وهذه المقاييس إن صحت فى كل ما يتصل بالمادة بسبب فإنها لا تصلح أن تكون مقياساً لما هو وراء المادة؛ وهو الجزء الأعظم والأهم الذى يقوم على أساسه الدين.. وقد سبق أن أشرنا إلى هذه النقطة فيما كان من حديث بين الأستاذ المرشد والدكتور طه حسين.

إن الأساس الأول فى الدين هو الإيمان بالغيب، وهو أول صفة للمتقين جاءت فى مستهل سورة البقرة «ألم. ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب» والغيب هو ما وراء المادة أو مالا يحيط به العقل البشرى، ومالا تدركه الحواس الخمس... ومعجزات الأنبياء من هذا الباب. ومن الخطأ إخضاعها للعلم التجريبى، وهو أشد خطأ من قياس الضوء بالمقياس الذى نقيس به القماش مثلا، مع أن كليهما مادة؛ فما بالك بما هو ليس بمادة؟..

ومن هنا أعرض الدكتور هيكل عن معجزات النبى صلى الله عليه وسلم جميعاً ولم يستثن منها إلا القرآن الكريم... نعم إن القرآن هو أعظم المعجزات لكن هذا لا ينفى أن هناك معجزات أخرى ثابتة بصحيح السنة لا يجوز إنكارها وقد يكون فى إنكارها مساس بصميم الإيمان.

أراد الأستاذ المرشد أن يلفت النظر إلى هذا الخطأ الكبير الذى وقع فيه الدكتور هيكل، ووقع فيه عن عمد وإصرار حيث سجل فى مقدمة كتابه تقيده بالأدلة العلمية التجريبية.. فأعلن الأستاذ المرشد عن حفل تكريمى للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك لكتابه «محمد المثل الكامل» فى دار المركز العام ودعا إليه كبار المشتغلين بالأدب والعلم من العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية.. وفى هذا الحفل، وفى حضور هذا الجمع المنتقى وفى مقدمتهم المكرم؛ أعطى جاد المولى بك حقه من الاحتفاء والتكريم باعتباره الرائد الأول وصاحب اللواء الذى اقتحم حلوكة الظلام وأضاء مصباحه المتبلج جنبات الميدان فهرع من خلفه مهتدين بمصباحه الجميع حتى المترددون والمعرضون وتحدث الأستاذ المرشد عن المعجزات وأفاض فيها وعن المادية الغربية وافتتان كتابنا بها....

أنا لم أحضر هذا الحفل لأنه أقيم قبل أن أتعرف على الإخوان ، ولكن الأستاذ المرشد حدثني عنه حديثاً مستفيضاً ... ولم يكن يخطر ببال أحد أن هذا النقد الموضوعي البريء سيحمله الدكتور هيكل في نفسه ويدخره ليوم هو في عرفه يوم الانتقام .

ثالثاً : الدكتور هيكل صحفي بنى مجده على الصحافة والتحرير ، ومجلة «المنار» كانت تعتبر في العرف الصحفي في ذلك الوقت قمة من قمم الصحافة لا المصرية وحدها بل العربية أيضاً التي يشرف صحفي مثل الدكتور هيكل أن تنشر له مقالا ... ثم يرى الدكتور هيكل – وقد اعتلى متن وزارة المعارف العمومية – مدرساً في مدرسة ابتدائية عنده يرأس تحرير هذه المجلة الشامخة ... ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يقرظه الشيخ المراغي شيخ الأزهر تقريظاً لا يطمع هو أن يحظى بكلمة واحدة مما جاء به ، ثم يصدر هذا المدرس المجلة الشامخة ويحررها كلها تقريباً بقلمه فيرفعها إلى القمة التي كانت عندها أيام صاحبها ... أجج هذا نار الحقد التي طوى الدكتور هيكل ضلوعه عليها .

رابعاً : هذه المواقف الثلاثة لا تمس إلا الدكتور هيكل وحده ؛ لكن هيكل لم يكن يستطيع أن ينتقم لنفسه إذا لم يصادف الانتقام هوى في نفس الحكومة القائمة بأسرها .. وقد كان هذا الهوى معتملا في نفس الحكومة ؛ فإنها كانت حكومة الأحزاب الشكلية التي لا قاعدة لها في الشعب ، ولا تستند إلا إلى القصر ، الذي يتخذها مطية إلى مطامعه . وهذه الأحزاب أشد حنقاً على الإخوان منها على الوفد ، لأن الوفد حين يغار من الإخوان يحاربهم بنفسه لأنه حزب شعبي له قوة ذاتية ، أما هؤلاء الشراذم من الباشوات خدام القصر ومن هم من وراء القصر ، فإنهم لا شعبية لهم ، فليس لهم قوة ذاتية يحاربون الإخوان بها نداً لند ، وإنما يستعدون عليهم القصر والإنجليز . وشتان ما العدوان .

وسط معمعان العمل الدائب في المركز العام الجديد بالحلمية الجديدة ، ووسط البحر الخضم بدعوة الله ، مبايعة على الإيمان والجهاد . وسط هذا الجد كله فوجئنا بقرار هازل يجيئنا من الحكومة التافهة بتوقيع وزير المعارف هيكل بنقل الأستاذ المرشد إلى قنا على أن يكون التنفيذ فوراً ... والقرار تفوح منه رائحة الحقد الدفين النتن .

ورد الأستاذ المرشد فوراً على حامل القرار بالرفض ، ووقف الإخوان جميعاً من وراء هذا الرفض متحدين ما تصنعه هذه الحكومة الحقيرة التي يرأسها أحمد ماهر الذي نلقي أضواء على شخصيته بعد قليل إن شاء الله ... وكان حامل القرار قد أبلغ الأستاذ المرشد بأن مجلس الوزراء قرر حل الإخوان إذا لم ينفذ الأستاذ قرار النقل ... وكنا إذ ذاك في أواخر سني الحرب العالمية

الثانية والأحكام العرفية سيف مصلت فى يد الحكومة ... ومع ذلك قرر الإخوان تحدى الحكومة والوقوف فى وجهها ... وتواردت أفواج الإخوان من جميع نواحى القطر تعلن ولاءها ووقوفها وراء الأستاذ المرشد مهما كلفها ذلك .

ورأت الحكومة التافهة هذه السيول الجارفة من الإخوان ، ولمحت فى أعينهم أمارات الجد والاستعداد ، وأحست بأن الأمر أخطر مما كانت تعتقد ، ورأت أن مصلحتها فى التقهقر..ولكن تقهقرها بعد إقدامها على القرار المتهوس ليس أمراً ميسوراً بعد أن شاع وذاع وأصبح على كل كل لسان ... فلم تجد وسيلة أمامها لحفظ ماء وجهها إلا توسيط رجال يعرفون أنهم أثيرون لدى الأستاذ المرشد ، ، وكان هؤلاء أكثر من رجل أذكر منهم الآن الأستاذ الشيخ رضوان السيد وكان من العلماء وكان عضواً فى مجلس النواب وعضواً فى حزب الأحرار الدستوريين وكان صديقاً للأستاذ المرشد ، وأسرة الشيخ وبلده من الإخوان ... وقد تردد هذا الرجل فى تلك الفترة العصيبة على المركز العام مرات كثيرة مما ذكرنى - وأنا أكتب هذه السطور- بما نقرأه فى أيامنا عن سياسة «المكوك» التى يقوم بها وزير خارجية أمريكا «كيسنجر» فى المفاوضات بين مصر واسرائيل .

وكان الذى يحمله هؤلاء الوسطاء هو ما يشبه الاعتذار ينقلونه عن رئيس الوزراء بأن هذا القرار صدر خطأ وأنه يخشى إن أعلن فى الحال رجوعه عنه وسحبه أن يذهب هذا بهيبة الحكومة أمام الرأى العام ، لهذا فهو يلتمس أن يعينه الأستاذ البنا على تلافى الخطأ بطريقة تحفظ كرامة الحكومة وذلك بأن يقبل تنفيذ القرار لمدة شهر واحد يعود بعده إلى مكانه .

ومضى على قرار النقل الفورى أكثر من أسبوع والإخوان مع كل هذه الوساطات مصرون على الرفض ، مستعدون للتحدى .. وصار مركز الحكومة فى حرج شديد ، وهنا دعا الأستاذ المرشد إلى إجتماع للإخوان فى المركز العام كان أشبه باجتماع للهيئة التأسيسية موسع بعض التوسيع وتناول الموضوع وتطوراته وقال إنه فى خلال هذه الفترة بعد صدور القرار ومقابلة الوسطاء وتقليبه الأمر على مختلف وجوهه خرج برأى قد يكون مفاجئاً لمشاعر الإخوان هو أن ينفذ قرار النقل وأخذ فى شرح رأيه فقال :

أولا : إن صدور قرار النقل مقترناً بالتهديد بالحل ، وقرعاينا الكثير لأنه كشف لنا عما تكنه صدور هذه الأحزاب الشكلية من كراهية وحقد . والدعوة فى حاجة إلى أن تعرف أصدقاءها وأعداءها ومدى مايكنه كل منهم لها من حب وبغض .

ثانياً : أن هذا القرار قد كشف لهم عن مدى تضامننا ومقدار قوتنا مع أننا لا نزال فى أول الطريق ، كما كشف لنا عن مدى ضعفهم وتخاذلهم مع أنهم فى قمة السلطة .

ثالثاً : أن أحزاب الأقلية هذه إنما تعتمد فى وجودها على الملك ، وأن اتصال هذه الأحزاب بالملك لا يزيده إلا فساداً ، وهم يعملون على عزله عن الشعب حتى لا يرى غيرهم أمامه ، ومن مصلحة الملك وبالتالى من مصلحة الشعب أن تتاح له فرصة رؤية الإخوان المسلمين باعتبارهم الهيئة الوحيدة التى لا تسعى إلى تحقيق مطامع شخصية ، فهى وحدها القادرة على تقديم النصيحة له وبصلاح الملك تصلح البلاد .. وقد كان فى خلد هذه الحكومة أن تصدر قرار النقل ويتم التنفيذ فى يوم وليلة دون أن تثار ضجة فيشفون بذلك غليلهم دون أن يصل شىء إلى مسامع الملك ولكن الأمور جرت على غير مايحبون وكانت ضجة وصلت إلى كل مسمع ... ومن المصلحة والأمر كذلك أن لا نظهر بمظهر المتعنت . بعد أن أحس الجميع بقوتنا حتى لايجد هؤلاء فرصة لتشويه موقفنا .

رابعاً : ليس هدفنا هو منازلة أحزاب الأقلية ، ولا ينبغى لمناوشات جانبية أن نلتفت لها فيشغلنا ذلك عن المعركة الكبرى التى نعد لها ، ويجب أن ندخر لها كل قوتنا ، ولا نبدد شيئاً منها أمام الإثارات والاستفزازات .

خامساً : إننا فى حاجة – لتأمين خطواتنا القادمة فى الدعوة وهى خطوات هامة وخطيرة – إلى فترة نكون فيها بمنأى عن الرقابة البوليسية بمختلف أسمائها ، التى تلاحقنا فى كل وقت وفى كل مكان ، ولن يتأتى لنا ذلك إلا بظهورنا بالمظهر السلمى الذى قد يبدو أن فيه مساساً بكرامتنا لكن وراءه الخير الكثير للدعوة ، ولن ننسى فى موقفنا هذا معاهدة الحديبيه التى أخفت وراء بنودها – التى أغضبت كبار الصحابة – كل ما سجله الإسلام بعد ذلك من انتصارات وفتوح ... وذكر الأستاذ المرشد أن من ضمن التعهدات التى قطعتها الحكومة على نفسها – ونقلها إلينا الوسطاء إذا أنا قبلت التنفيذ أن يرفعوا عنا الرقابة البوليسية .. وقال الأستاذ المرشد : وأنا لا أتصور أن يرفعوا عنا الرقابة نهائيا ولكن قد يخففونها وهذا يكفينا .

سادساً : أن الصعيد الأعلى – لبعد المسافة وسوء المواصلات – لم ينل حظه من عناية الدعوة ، ولعل هذه فرصة أتاحها الله لتدارك ما فات من حق هذه البقعة العزيزة من البلاد .

وكانت المجموعة التى أسر إليها الأستاذ المرشد بهذه الكلمات البالغة الأهمية هم صفوة الدعوة . ومع أن حججه كانت مقنعة عقلا ، فإن عواطفهم المتأججة لم تتحمل أن ترى الأستاذ ينزل على

أمر الحكومة لبدأ أكثرهم وقد انفجر فى البكاء ... فكان هذا من الجنود هو الموقف الفدائى الأسمى ، كما كان من القيادة الموقف الذى وضح فيه أن هذه القيادة ليست من الطراز الذى تسوقه الجماهير وتجتاحه العواطف ، وإنما هى القيادة الموهوبة الواسعة الأفق النافذة البصيرة، التى قد تبتلع الهزيمة المؤقتة مسيغة مرارتها وباختيارها لا رغما عنها لأنها ترى فى انسحابها هذا أمام عدوها فرصة لها ستمكنها من القضاء عليه .

ولا أستطيع أن أنكر أننا جميعاً كنا فيما يشبه المأتم بعد أن حدثنا الأستاذ حديثه هذا ، ولكن ثقتنا فيه واقتناعنا بقدرته على الرؤية البعيدة المدى . وتناوله الموضوع تناولا كأنما اخترق فيه حجب الغيب ، كل ذلك لم نملك معه إلا الموافقة والتأييد .

وأعد الأستاذ نفسه للسفر ، وقد استخلف فى هذه الغيبة الشيخ الباقورى ، ولم يبين لماذا استخلفه فى هذه المرة دون غيره ، ولكن الحكمة فى ذلك لم تكن خافية علينا ولا على الشيخ الباقورى فقد كان الأستاذ المرشد يريد أن يشعر هذه الأحزاب الحاكمة بمنتهى الأمان من جانبه، وبالتعبير الدارج كان يريد أن «ينومهم» فالشيخ الباقورى موضع ثقة منه ، وهو فى الوقت نفسه صهر الشيخ محمد عبد اللطيف دراز الذى كان فى ذلك الوقت من كبار رجال أحد حزبى هذه الوزارة وإن لم يكن عضواً رسمياً فى الحزب .

وسافر الأستاذ المرشد إلى قنا ، أو قل انتقلت الدعوة إلى قنا .. ومع أنه كان يتردد على القاهرة إلا أننا لاحظنا أن هذه المنطقة من مصر العليا صارت تحتل من تفكيره واهتمامه الجزء الأكبر فقد أخبرنا فى أول مرة حضر فيها إلى القاهرة أن هذه البلاد فى أمس الحاجة إلى دعوة الإخوان .. فأكثر المسلمين فى هذه المنطقة يسيطر عليهم الخمول والكسل مما جلب عليهم الفقر ونشر بينهم الجهل والمرض فصاروا وكأنهم عالة على غيرهم ... وقال لنا : إنى سافرت إلى هذه البقعة وأنا على عزم أن أمكث فيها الشهر الذى تم الاتفاق عليه مع الحكومة ولكنى بعد أن رأيت حالة المسلمين فيها فلن أغادرها إن شاء الله حتى أصل هؤلاء المسلمين بدينهم ليصبحوا مثلا كريمة فى النشاط والعمل والإنتاج والعلم والابتكار .

ومضى الشهر ، وانتظر المسئولون فى الحكومة ان يستنجزهم الإخوان وعدهم فلم يجدوا.. وجاء الوسطاء والتقوا بالأستاذ وأخبرهم بأنه لا يريد الرجوع الآن . فأسعد ذلك الحكومة أيما إسعاد .. وظل الأستاذ فى قنا شهراً بعد شهر وإذا بهذه المنطقة من البلاد التى تضم محافظتى قنا وأسوان قد دبت الحياة فى أوصالها وهبت من رقادها ، والتهب شعور هؤلاء الخاملين ، وفهموا الإسلام على حقيقته فأنشأوا المنشآت وأقاموا العمارات ، وافتتحوا المدارس ، وأقبلوا على العلم ، وواصلوا

الليل بالنهار فى العمل ، كأنما كانوا ماردا نائماً تحت أطباق الثرى فقام ينفض عن نفسه أثقال ما هيل فوقه من تراب وانطلق يعوض ما فاته ...

ولما كانت الفئات الأخرى من غير المسلمين فى هذه المنطقة قد أثرت وتأثلت من وراء خمول المسلمين وجهلهم وتخاذلهم ، وصاروا سادة المنطقة على حساب خنوع المسلمين وفقرهم وتقاعسهم لقد فوجئت هذه الفئات بالمسلمين وقد تبدل كسلهم نشاطا ، وخمولهم حركة ، وتقاعسهم عن العمل دؤوباً ، وتحجر عقولهم إنتاجاً وابتكاراً ، وتفرقهم اجتماعاً ، وتشاحنهم فيما بينهم حبا وتضامناً ، ونفورهم من العلم إقبالا عليه وتسابقاً إليه ، ورضاهم بالفقر انبعاثاً فى طلب الغنى من أكرم سبله. فوجئوا بذلك ، وهالهم ما رأوا من تبدل حال بحال مما يشبه فعل السحر ... فخوفا على ما حققوا من مراكز مالية وأدبية فى غفلة مواطنيهم المسلمين ، وأملا فى الاحتفاظ بهذه المراكز — وقد علموا أن شيئاً لم يطرأ على المسلمين فى بقعتهم فغيرهم هذا التغيير ، ونقلهم هذه النقلة التى هى أقرب إلى الخيال ، إلا وجود هذا المدرس الذى نقل إلى بلدهم منذ بضعة أشهر ...

إذن ، فلابد — تداركاً للأمر — من السعى لدى المسئولين بالقاهرة لنقل هذا المدرس من إقليمهم إلى جهة أخرى ، لأنهم تصوروا أن هذا الرجل إذا طالت إقامته فى بلدهم فسيقضى على مجدهم ويصفى مراكزهم ... وانهالت الشكاوى من وجود الأستاذ البنا تطالب من الحكومة نقله ، وقامت الوفود من الفئات ذات النفوذ وسافرت إلى القاهرة طالبين من المسئولين الغوث بنقل الأستاذ البنا ... وعلم المسلمون هناك بذلك فقامت المظاهرات تطالب ببقائه بينهم ، فصارت الحكومة مرة أخرى فى موقف لا تحسد عليه ... ما كادت الحكومة تسر لغياب الأستاذ البنا عن القاهرة ورضاه بالبقاء فى هذا المنفى الذى اختاروه له حتى فوجئت بعد بضعة أشهر بقوى ذات نفوذ تطالب بإلغاء نقله إلى قنا ، وبقوى شعبية عارمة يخشى بأسها تطالب بإبقائه بقنا ... ولم تستطع الحكومة اتخاذ أى إجراء لأنها لا تقوى على الوقوف فى وجه ذوى النفوذ من أهل قنا ولا على مواجهة جموع شعب قنا فلم تجد أمامها من سبيل للمرة الثانية إلا اللجوء إلى الأستاذ البنا لأنه هو وحده الذى يستطيع أن ينقذ الحكومة من حرجها .

واستجاب الأستاذ لرجاء الحكومة ، وقبل الرجوع إلى القاهرة وتكفل بإرضاء هذه الجموع الشعبية الثائرة .. وقد كان .. ورجع إلى القاهرة بعد أن رد الروح إلى الجسد الإسلامى الذى كان هامداً فى هذه البقعة العزيزة من البلاد .

الفصل الثانى

فى العمل الوطنى
فى ظل الحرب العالمية الثانية

كان العمل الوطنى دائماً فى الدعوة يسير جنبا إلى جنب مع العمل فى البناء الداخلى ، وما قدم أحدهما على الآخر إلا لظروف تدعو إلى ذلك ، فخلال الحقبة من الزمان التى ظلت نيران الحروب العالمية الثانية مشتعلة الأوار لم تكن فرصة العمل الوطنى متاحة ،فأذهان الناس فى جميع شعوب الأرض منشغلة بأنباء الحرب منفعلة بأحداثها ومواقعها ، مرتعدة خوفاً من شبح وصول لهبها إلى بلادها ، وكل قضايا الشعوب ومطالبها وخلافاتها كلها وضعت على الرف حتى تنقشع سحائب الهول التى أظلت العالم كله .

ورأى الإخوان أن خير ما تستغل فيه هذه الحقبة أن تستغل فى إرساء بناء داخلى راسخ للدعوة فى قلوب الشعب فى مختلف الأنحاء ،وإن اقتضى ذلك التغاضي عن مواقف عارضةفىالطريق ربما وسمت الدعوة من أجلها بسمة الضعف والانهزام ، وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى موقفين من هذه المواقف وكشفنا النقاب عما كان وراء هما من كسب للدعوة فى الميدان الذى تريد أن تفرغ جهدها له وتبذل كل ما فى وسعها لتأمينه وتثبيت أركانه .

ومع ذلك فلم يتوان الإخوان لحظة فى أى وقت من الأوقات عن إجابة داعى الوطنية بكل ما يطلبه ذلك الداعى من جهود ، وسنرى فى هذا الفصل إن شاء الله كيف كان الإخوان دائماً عند حسن ظن ذلك الداعى .

وقد بدأت الحرب العالمية الثانية فى أواخر عام ١٩٣٩ ووضعت أوزارها فى سنة ١٩٤٥ ، وفى خلال هذه السنوات الخمس حدثت تغيرات كبيرة فى مصر وفى العالم أجمع .. وكان الأستاذ المرشد فى أوائل أيام هذه الحرب كثير الإشارة إلى أهمية سنى الحروب وإلى عمق تأثيرها فى كل شئ ، ويحذرنا من التباطؤ فى ملاحقة أيامها ويقول : إن سنوات الحرب وإن كانت عادة لا تتعدى عدد أصابع اليد فإنها تطوى الزمن طيا ، فيتم من التغيرات فى خلالها مالا يتم فى مائة عام . ويحثنا على مضاعفة الجهد حتى لا نؤخذ على غرة عندما تنتهى الحرب فنجد أنفسنا متخلفين .

ولقد كان حديث الأستاذ المرشد فى هذه الناحية على كثرة ما ردده على أسماعنا غريباً لا نكاد نفهمه، ولكننا مع ذلك كنا نستجيب له ومن ورائه فى العمل المتواصل الذى لا يهدأ ليلاولانهاراً. ولم نفهم معنى ما كان يحثنا عليه وما كان يحذرنا منه إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ووقفت كل هيئة عند الخط الذى وصلت إليه فوجدنا أنفسنا فى المقدمة سابقين سبقاً عظيما. فحمدنا الله على هذه القيادة البصيرة التى قطعت بنا مسافة ما كنا نقطعها فى أربعين عاماً قطعتها بنا فى أربع سنوات ومن قبل قالوا «فى الصباح يحمد القوم السرى» .

جبهة لإنقاذ البلاد

ظل الإنجليز فى مصر نحواًمن سبعين عاماً ، وديدنهم التسويف والمماطلة ، لا ينتهون مع مفاوضيهم المصريين إلى نتيجة قاطعة ، ولا إلى حل فاصل .. لكنهم فى سنة ١٩٣٦ خرجوا عن طبيعتهم ، وطلبوا من مصر وفداً ممثلا للبلاد ليعقدوا معه معاهدة ، وكأن بنود هذه المعاهدة كانت معدة لديهم فما كاد الوفد المصرى يصل إلى لندن حتى وقعت المعاهدة .

والمعروف عن الساسة الإنجليز أنهم بعيدو النظر . يعدون العدة لأمور قد لا يراها غيرهم ، ثم تقع هذه الأمور فلا يؤخذ الإنجليز على غرة . ولم يتنبه المصريون ولاساستهم إلى أن الإنجليز كانوا متلهفين على عقد هذه المعاهده لأنهم كانوا يلمحون فى الأفق أن حرباً كانت على الأبواب ستقع فى خلال سنة أو سنتين ، وأنهم سيصطلون بنارها ، وأنهم يريدون أن يتخذوا من مصر دريئة لهم ، وأن يجعلوا من حلفائهم المصريين وقوداً لهذه الحرب .

ووقعت الحرب العالمية الثانية ،واجتاحت جحافل الألمان أوروبا فى أسابيع ثم انتقلوا إلى شمال أفريقية .. ومن ليبيا زحفوا إلى السلوم حيث كانت الجيوش البريطانية فى انتظارهم فاكتسحوها وفرت بأقصى سرعتها أمام قوات الماريشال روميل الذى وقف بقواته عند مشارف الإسكندرية فى العلمين على بعد ٧٠ ميلا من الاسكندرية .

كان أحرار المصريين يمقتون الإنجليز ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويتمنون أن لو أصابتهم كارثة تأتى عليهم فلا تبقى منهم ولا تذر .. فلما قامت ألمانيا بهجومها المكتسح على أوروبا هب هؤلاء الأحرار ينتهزون هذه الفرصة لتخليص البلاد من يد الإنجليز ...

كون الأحرار على اختلاف نزعاتهم جبهة لإنقاذ البلاد ، وكان تكوين هذه الجبهة يجرى تحت ستار السرية التامة ، وأنا شخصيا مع أنى كنت أقوم ببعض ما كان يوكل إلى من أعمال لهذه

الجبهة – لا أعرف من الجهات المشتركة فيها ولا الأشخاص المشتركين فيها إلا الأستاذ المرشد وعلى ماهر والسيد أمين الحسينى مفتى فلسطين .

كانت خطة الجبهة تتلخص فى محاولة الاتصال بالحكومة الألمانية والاتفاق معها على أن تحمل مصر عبء الدفاع عن نفسها ضد الإنجليز فى مقابل أن تستقل وتظل صديقة لألمانيا .. وقد حدث الاتصال فعلا ، وكانت تصلنا خطب «هتلر» بنصها وكنا ننسخ منها نسخاً لتوزيعها على المشتركين فى الجبهة .

وأعدت الجبهة العدة لتهريب «عزيز المصرى» إلى ألمانيا فى طائرة من طائرات الجيش ، لكن الظروف حالت دون ذلك حيث اصطدمت الطائرة بأسلاك اضطرتها إلى الهبوط ، وقبض على عزيز المصرى وعلى قائدى الطائرة حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف .. وعلى غير ما كان منتظراً أصدرت المحكمة العسكرية التى حاكمتهم حكماً برأهم مما أثلج صدور الأحرار الأطهار فى كل مكان .

كما استطاع السيد أمين الحسينى أن يهرب إلى ألمانيا ، والتقى بهتلر وتفاوض معه فيما هدفت إليه الجبهة من استقلال مصر واستقلال فلسطين والبلاد العربية ، وكان السيد أمين موضع احترام الحكومة الألمانية طيلة الفترة التى مكثها فى ألمانيا .

وظلت الجبهة تعمل وتعد نفسها لليوم الذى تطرد فيه الإنجليز من مصر حتى شاءت إرادة الله أن ينقلب الموقف رأساً على عقب ، ويتقهقر الجيش الألمانى حين دخلت أمريكا بثقلها ونزلت قوات الحلفاء فى المغرب بقيادة الجنرال الأمريكى إيزنهاور وأصبح الجيش الألمانى محاصراً بين هذا الجيش الجديد والجيش البريطانى .

ولم يكن فى حسبان ألمانيا أن أمريكا ستدخل الحرب وكانت ألمانيا تحاول دائماً استرضاءها لأنها تعلم مدى خطورتها ، ولكن تشرشل بأسلوبه المؤثر وزياراته المتكررة وإثارته نزعة الشعوب الناطقة بالانجليزية وأن هذه الشعوب فى حقيقتها شعب واحد ، استطاع – على غير توقع من هتلر – أن يجر أمريكا إلى الحرب .

وكان من نتيجة ذلك أن تمكن الإنجليز ، ويبدو أن مخابراتهم كانت على علم ببعض معلومات عن هذه الجبهة لكانت الاعتقالات التى اتخذتها حكومة الوفد فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

وزارة على ماهر سنة ١٩٣٩

تُعد هذه الوزارة نسيج وحدها بين الوزارات التى توالت على الحكم فى مصر ، فقد تولت

أمور البلاد فى أحرج الأوقات عند بدء قيام الحرب العالمية الثانية ، وكان أعضاؤها نوعين من الوزراء فبعضهم كانوا وزراء متخصصين ، وبعضهم الآخر كانوا من ذوى التاريخ الوطنى الإسلامى الحافل ومن هذا البعض الأخير كان صالح حرب وزيراً للحربية وكان عبد الرحمن عزام وزيرا للشئون الاجتماعية وهى وزارة استحدثت لأول مرة فى مصر وللأوقاف .

وكان هناك تجاوب فكرى ونفسى بين هذه الوزارة وبين الإخوان حيث كانت هذه الوزارة وزارة كفاءات لا وزارة الحشد المألوف من ذوى الألقاب ... ولذا فإنها كانت أول وزارة منطلقة غير محدودة الأبعاد إلا بما توحيه إليها المصلحة العامة .. وقد ساعد هذه الوزارة أيضا على الانطلاق أنها كانت مؤيدة من الملك الذى كان إذ ذاك فى مقتبل أيامه ولم يكن بعد قد تلوث ، فكانت رغباته متوائمة مع رغبات الشعب ، وكان لا يزال يرى فى على ماهر شخصية المعلم الناصح القدير .. وكان البرلمان متوائما مع الملك فكان مؤيداً للوزارة ..

كان الإنجليز — وقد أعلنوا الحرب على المحور (ألمانيا وإيطاليا) — يعتقدون أن مصر — كما تعودوا منها ومن حكامها — ستكون سباقة إلى إعلان الحرب على المحور تضامناً معهم ... وقد خاب ظنهم لأول مرة فقد اقتنعت الوزارة بأن لا تعلن الحرب وبأن تعلن الحياد فكانت هذه ضربة قاصمة لظهر هؤلاء المستعمرين ... وقد لقى هذا التصرف الجرئ من الحكومة تجاوباً من جميع الأوساط فى البلاد ، وعده الشعب بطولة من على ماهر من أعظم البطولات .

وبعد أن أذاع على ماهر قرار إعلان مصر دولة محايدة ، ذهب إلى البرلمان لإلقاء بيان فى هذا الشأن وأخذ الرأى على هذا القرار ، وقد أيد مجلس النواب على ماهر بالإجماع ، ومع ذلك لم يستطع الإنجليز أن يضبطوا عواطفهم ولا أن يحتفظوا بوقارهم الذى كان شعار سياستهم الاستعمارية فلم يتورعوا فى هذا الموقف عن إسقاط هذه الوزارة وهى مؤيدة من مجلس النواب ومن الشعب ومن الملك .

محاولة الإخوان لإنقاذ هذه الوزارة :

كان على ماهر يحس بمراجل الغضب تغلى فى صدور الإنجليز ، وكان الإخوان يحسون بذلك ، إلا أن الفرق بين الإحساسين كان كبيراً فقد كان على ماهر يتصور أن الانجليز لن يخاطروا بسمعتهم فيسقطوا حكومة مؤيدة من الشعب والبرلمان والملك ؛ أما الإخوان فكانوا يعتقدون أن هذا الموقف ليس من المواقف التى يتقيد الإنجليز حيالها بأية قيود أدبية .. وقد اقترح الإخوان على الحكومة خطة تلزم الإنجليز بالتفكير عشرات المرات قبل إقدامهم على مس هذه

الوزارة بأذى ، وقد أقنع الأستاذ المرشد بهذا الرأى الأستاذ عبد الرحمن عزام ، وطلب إليه أن يبلغـه إلى رئيس الوزراء ، وقـد فعـل ولكن على ماهر كان لا يزال متوهماً تصوره الذى أشرنا اليه ...

أما اقتراح الإخوان فيتلخص فى أن تعلن الوزارة على العالم نفسها حكومة إسلامية ، ويرتكز هذا الاقتراح على الدعائم الآتية :

أولا : أن الإنجليز حين يواجهون بالدين – أى دين – يشعرون بشىء من الرهبة يصرفهم عن المواجهة ، ويبحثون عن صيغة أخرى غيرها .

ثانياً : أن إعلان مصر حكومة إسلامية معناه أن المساس بهذه الحكومة سيكون مساساً بجميع المسلمين فى أنحاء العالم . ولا تقوى إنجلترا – لا سيما وهى فى حرب – على مواجهة ثورة يقوم بها المسلمون فى كل مكان تأييداً لهذه الحكومة ... ولا ننسى أن الإنجليز وهم فى حالة السلم لم يستطيعوا مقاومة مظاهرات قام بها المسلمون فى الهند احتجاجاً على تصريح صرحت به الحكومة البريطانية اشتم منه المسلمون رائحة المساس بحكومة الخلافة الإسلامية فى تركيا ، ولم يخرج الإنجليز من هذا المأزق إلا بإصدار الشيخ محمد رشيد رضا بياناً أعلن فيه أن هذا التصريح لايمس الإسلام .

ثالثاً : أن الجيش البريطانى المحارب والذى كان إذ ذاك فى مصر وفى شمال أفريقية كان أكثره من الهنود المسلمين والإفريقيين المسلمين ومساس الإنجليز لحكومة أعلنت أنها حكومة إسلامية بأذى قد يثير هؤلاء الجنود ؛ وفى إثارتهم أشد الخطر .

رابعاً : أن الإخوان فى هذه الحالة سيجدون فى يدهم حجة لإثارة المسلمين فى مصروغيرها.

ولم يعرف على ماهر أنه قد أسرف فى حسن الظن ، وأنه أخطأ فى عدم الأخذ باقتراح الإخوان إلا بعد أن أسقطت وزارته .

ولا يشك أحد فى أن هذه الوزارة كانت وزارة عظيمة وواقعية وعاملة من أول يوم على تحدى الإنجليز ؛ ففى أول اجتماع لها اعترفت بروسيا وخفضت مرتبات الموظفين ١٠٪ وأحالت بعض كبار الموظفين المعروفين بميلهم إلى الإنجليز إلى المعاش وكان منهم أمين عثمان .. وقد عملت على اختيار الرجال ذوى التاريخ الوطنى المشرف فقد عينت لقيادة الجيش الفريق عزيز المصرى وكان عدواً للانجليز ، وقد بدأ هذا الرجل يحد من تسلط الإنجليز على الجيش المصرى .. وكان الإنجليز يعرفون بواسطة أجهزتهم التجسسية صلة هذا الرجل بالإخوان فعملوا على إزاحته

وزارة الوفد فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢

هذا التاريخ من التواريخ المشهورة فى السياسة المصرية ، لأنه اليوم الذى طلب فيه الإنجليز من الملك فاروق دعوة «حزب الوفد» لتولى الوزارة وهددوه باقتحام قصره بالدبابات الإنجليزية إذا لم يلب طلبهم وقد فعل . وتعتبره الأحزاب المصرية بل ويعتبره غيرهم من الأيام السوداء حيث لجأ الإنجليز إلى التدخل السافر فى شئون مصر الداخلية ، ويصمون النحاس بالخزى والعار لأنه جاء إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز .

وتصدينا للحديث عن هذه الوزارة أمر لابد منه حيث كان لنا تجربة -تحدثنا عنها فى الفصل السابق - وكثير من المعلقين من الجيل الجديد الذى لم يعش هذه التجربة لم يفهموها على وجهها الصحيح ، ولذا فسوف نحاول إن شاء الله الكشف عن هذا الوجه الصحيح والإبانة عن حقيقة بعض المواقف فى هذه التجربة فنقول :

حشر المؤرخ مدرس التاريخ المعاصر بجامعة طنطا الذى أشرنا إليه قبلا «الإخوان المسلمين» ضمن قائمة أعداء الوفد وخصومه إذ جعل عنوان بحثه المنشور بجريدة الأهرام فى سنة ١٩٧٥ «٤ فبراير . وثائق جديدة .صورة من تقارير الأمن العام التى تسجل تحركات خصوم الوفد بعد الحادث» وأورد تحركات الحزب الوطنى وحزب الأحرار الدستوريين وحزب السعديين ثم أورد موضوع ترشيح الأستاذ حسن البنا .. وقد رتب سيادة المؤرخ على ذلك أن تصرف النحاس مع الأستاذ البنا فى موضوع الترشيح كان من تلقاء نفسه باعتباره الإخوان خصوماً له لا من وحى الإنجليز ، وقد أورد سيادته فى تأييد رأيه هذا الأسباب التالية :

أولا : أنه ليس من المعقول أن يعرى النحاس باشا ضعفه على هذا النحو أمام الشيخ حسن البنا لإقناعه بسحب ترشيحه . خصوصاً أن النحاس كان فى مركز قوة وليس فى مركز ضعف . فضلا عن أن علاقته بالشيخ حسن البنا كخصم سياسى لم تكن تجيز له أن يسلم خصمه سلاحاً كهذا السلاح يطعنه به .

ثانياً : الوقائع التاريخية تكذب ذلك تمام التكذيب ، فقد بدأ النحاس عهده بالإفراج عن عزيز المصرى وحسين ذوالفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف ، رغم ماهو معروف من أنه تم القبض عليهم أثناء هروبهم بطائرة إلى المحور . ولم يكتف النحاس بذلك بل أمر بشطب القضية.

فهل فعل النحاس ذلك بأوامر من الإنجليز ؟ اللهم إلا إذا كان الثلاثة قد غيروا مواقفهم وأصبحوا أنصاراً للإنجليز .

ثالثاً : أطلق النحاس سراح محمد على الطاهر المجاهد الفلسطينى وصاحب جريدة الشورى الذى لجأ إليه فى ٧ مارس سنة ١٩٤٢ وكان قد قبض عليه فى عهد حسن صبرى بطلب من الإنجليز ثم هرب من المعتقل وظل مختفياً حتى سلم نفسه للنحاس باشا ، وكان هذا الإفراج دون الرجوع إلى الإنجليز .

رابعاً : سبق أن أنكر النحاس باشا أن القبض على «على ماهر» قد تم بطلب من الإنجليز ، وأعلن فى مجلس الشيوخ أن مصطفى النحاس ليس من طراز رجال الدولة الذين يضعفون أو يستسلمون أو سيستسلمون ، فكيف يظهر استسلامه أمام البنا ويعترف بانصياعه لرغبة الإنجليز بصدده ؟

وانتهى بذلك تعليق السيد «المؤرخ» وبصرف النظر عما ينطوى عليه هذا التعليق من روح التهجم والانحياز فإننا نتناوله من الناحية الموضوعية فنقول :

أولا : لم يكن بين الإخوان وبين الوفد حتى ذلك الوقت أية خصومة أو عداء فلم يكونوا يعدون الوفد خصماً لهم ولم يكن الوفد يعدهم من خصومه . وقد سبق أن ذكرت فى مواضع أخرى من هذه المذكرات أن تعليمات الأستاذ المرشد كانت تحث الإخوان المسئولين فى هذه الفترة على إبراز الدعوة بالصورة التى تكون فيها مقبولة من الجميع على اختلاف أحزابهم ونزعاتهم ، ولم يكن المقصود بالصورة المقبولة من الجميع الأحزاب السياسية وحدها بل يقصد بذلك أن لا يكون بيننا وبين أى صاحب فكرة معينة سواء كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية خصومة لأن الدعوة فى تلك الحقبة من الزمن كانت فى حاجة إلى أن تأخذ طريقها إلى قلوب المواطنين جميعاً على اختلاف أحزابهم وطوائفهم ومعتقداتهم دون أن تنشغل عن ذلك بمعارك جانبية تعطل مسيرتها. فحشر «الإخوان المسلمين» ضمن خصوم الوفد فى هذا الصدد مخالف للواقع كما أن تعبير «خصمه السياسى» تعبير فيه افتراء على التاريخ .

وإذا كانت المسألة مسألة الخصومة السياسية فلم لم يفعل النحاس مع السعديين والأحرار الدستوريين والحزب الوطنى وهم خصومه السياسيون دون شك ما فعله مع الإخوان المسلمين ؟.

ثانياً : أما إطلاق النحاس باشا سراح محمد على الطاهر وعزيز المصرى وزميليه ، واتخاذ الكاتب ذلك دليلا على أن النحاس كان يتصرف من تلقاء نفسه دون استيحاء من الإنجليز أو دون

مبالاة بالانجليز ، فإن هذا استنتاج نظرى وقد بترت الوقائع فيه عن ظروفها .

إن مجىء النحاس إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز – مهما قيل فى تعليله – كان غصة فى حلق كل مصرى ، وكان النحاس يعرف ذلك ، وكان الإنجليز أيضاً يعرفون ذلك .. فكان على الإنجليز أن يخففوا من أثر هذه الغصة بإطلاق يد النحاس فى إجراءات عليها مسحة الوطنية ، وفى الوقت نفسه لاتضر الإنجليز كإطلاق سراح محمد على الطاهر وعزيز المصرى وزميليه لاسيما وقد أخذت المحكمة التى كانت تحاكم عزيز المصرى وزميليه بنظرية الدفاع فى بطلان قانون الأحكام العسكرية ؛ فضلا عن أن الإفراج عنهم وعن الطاهر لم يكن إلا إفراجاً شكلياً ؛ لأنهم ظلوا تحت مراقبة القسم المخصوص والمباحث العامة .

ثالثاً : أما اعتقال النحاس لعلى ماهر ، وادعاء النحاس أمام مجلس الشيوخ أن هذا الاعتقال لم يتم بناء على طلب الإنجليز ، فسألة فيها نظر ... فلاشك فى أن النحاس يعتبر على ماهر أشد أعدائه بأساً ، لأنه يعرف عنه المقدرة السياسية ، وسعة الأفق ، والذكاء اللماح ، واستقلال الرأى . وقوة الشخصية .. يعرف عنه كل ذلك ، ويتمنى لو أتيحت له فرصة القضاء عليه ؛ فإذا وجد عند الإنجليز نفس هذا الشعور نحو على ماهر ، فإنه لاشك سيسارع إلى تنفيذ هذا الإجراء دون طلب من الإنجليز ؛ كما أن الإنجليز لا يطلبونه صراحة ماداموا يثقون أنه سيتم دون أن يضطروا إلى طلبه .

أما أن ينسب النحاس هذا الإجراء إلى نفسه دون اشتراك الإنجليز فيه فهذا أمر لا يضر الإنجليز فى شىء بل إنهم يسعدهم أن يجدوا من يرضى لنفسه أن يتحمل عنهم هذا الوزر أمام الشعب وأمام التاريخ ... وهل كان على ماهر حبيباً للإنجليز فاعتقله النحاس تحدياً لهم ونكاية فيهم حتى يكون إعلانه فى البرلمان أنه اعتقله من تلقاء نفسه مشرفاً له ، ومفخرة يباهى بها ؟ إنه اعتقله فى أعقاب مأساة دستورية لم يحدث لها مثيل من قبل فى تاريخ مصر – وقد نوهنا عنها من قبل – وقد ضاق الإنجليز به ذرعاً بعد إقالته حين رأوه – بواسطة جواسيسهم – يتعاون مع الأحرار من أبناء مصر على تكوين جبهة لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزى ووقايتها من احتلال آخر ، حيث كانت جيوش الحلفاء فى ذلك الوقت فى هزائم متلاحقة .

فليس إذن نفى إنسان عيباً ما عن نفسه دليلا على براءته من هذا العيب إذا ما كانت كل الظروف والقرائن المحيطة به تصمه بهذا العيب .

رابعاً : ثم نرجع إلى حديث الأستاذ المرشد عن مقابلته للنحاس باشا فأقول إن الأستاذ المرشد قد قص علينا – فى اجتماع خاص بالمركز العام – ماتم بينه وبين النحاس من حديث

فكان هو بنفسه وبالحرف الواحد ماقصه على الإخوان فى الإسكندرية وطنطا وغيرها من العواصم.

وبالرغم مما ورد فى حديثه فى كل من هذه العواصم مخاطباً الإخوان من قوله «وهذا حديث خاص بكم لا يصح إطلاع غيركم عليه » فإنه كان يعلم أن أشخاصاً من قبل الأمن العام مدسوسون فى كل اجتماع من هذه الاجتماعات ... ومعنى ذلك أنه كان دقيقاً فى نقل عبارات النقاش الذى دار فى أثناء المقابلة مع النحاس لأنه يعلم أن مندوبى الأمن العام سيعرضون هذه الأقوال التى سمعوها منه على رئيس الحكومة ... فلو أن رئيس الحكومة رأى فى هذه الأقوال تزيداً كما ادعى حضرة المؤرخ لما سكت على ذلك .

ولو أن الأستاذ المرشد كان حريصاً فعلا على أن يخص الإخوان وحدهم بحديثه ، لانعقدت لذلك اجتماعات أخرى ذات صبغة أخرى لا يسهل اختراقها ولا التسمع عليها سواء من رجال الأمن أو غيرهم . وسيأتى إن شاء الله فى صفحات قادمة مايوضح مدى فهم الإخوان للاجتماعات ومدى ملاءمتها للأغراض التى تعقد من أجلها .

نظرة مجردة إلى حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ :

ينبغى أن يتساءل المؤرخون والمحللون للأحداث عن الدوافع التى حملت الإنجليز على المطالبة بمجىء الوفد إلى الحكم فى هذه الظروف ... هل كان دافعاً واحداً كما قيل وأن هذا الدافع كان أنهم فى ظروف حرب ، ويجب أن يكون فى الحكم حزب الأغلبية حتى يضمنوا فى البلاد هدوءاً يساعدهم على التفرغ لشئون الحرب ؟ هل كان هذا هو الدافع الوحيد أم أنه كان مع هذا الدافع دوافع أخرى ؟

ألا يجوز أن يكون من الدوافع الأخرى محاولة تحطيم الوفد نفسه والقضاء على سمعته ؟...

إن دهاء الإنجليز وبراعتهم السياسية ، ومقدرتهم على الإفادة الكاملة من كل ظرف ، أمر مسلم به ولاشك فيه ؛ فهم فعلا كانوا فى ظروف دقيقة ، يسهل مهمتهم فيها أن يكون على رأس الحكومة زعيم الأغلبية ... وهم يعلمون مدى تكالب الوفد على الحكم وتشوقه إليه ..ويعلمون فى نفس الوقت أن الذى يتولى الحكم فى ظروف الحرب التى تلازمها دائماً قسوة الحياة ، وصعوبة وسائل التموين ، مع تعرض البلاد للغارات ... كل ذلك سيخلق الكراهية فى نفوس الشعب للجالس على قمة الحكم ... وقد استطاع الإنجليز تحقيق هذه الأغراض جميعاً حين أتوا بالنحاس إلى دست الحكم ... وقد فهم الشعب بعض ماهدف إليه الإنجليز ، ولكنهم لم يفطنوا إلى كل الأهداف إلا بعد أن تحققت فعلا وخرج الوفد من هذه الجولة فى الحكم خاسراً .

ولقد كانت دهشة الناس فى مصر على أشدها حين رأوا الإنجليز يطلبون الوفد للحكم ، ووجدوا الوفد يسارع بالإجابة كأنما كانا على ميعاد ... وكان الذين يحسنون الظن بالوفديتمنون أن يرفض الوفد أن يتولى الحكم بأمر الإنجليز الذين هم بغير شك أعدى أعداء البلاد ، ولكن هؤلاء حين رأوا الوفد مسارعاً إلى إجابة الإنجليز ، علموا أنهم كانوا مسرفين فى حسن الظن . ولقد عبر الكثيرون عن هذا الشعور بطرق مختلفة كان أروعها خمسة أبيات من الشعر نشرها «الأهرام» يوم ٦-٤-١٩٤٢ للشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم تحت عنوان : الذئب والكبش وهاك هذه الأبيات :

الكبش قـــام خطيباً فوق رابيـــة ... ينعى على الذئب فتك الذئب بالغنم

فتمتم الذئب فى أذنيه : أنت على ... رأس القطيـــع أمـــير نافـــذ الكلم

فقبل الكبش ناب الذئب معتـــذراً ... عما رماه به من سالف التهـــم

وقال للشاء : خوضوا وارتعوا معه ... من لاذ بالذئب منـــكم لاذ بالحرم

فإن تصب أحـــداً منكم مخالبـــه ... فإنهـــا بلسم يشفى من السقم

وكم كان لهذه الأبيات من صدى فى نفوس المثقفين فى أنحاء مصر . فلقد عمد الأستاذ محمود غنيم إلى الاستتار وراء التورية حين جعل الموضوع النقدى حديثاً على لسان الحيوان ، فتلقاها المثقفون بفهم لماح لأن المعنى مستعر من قبل فى نفوسهم .

على أن موضوع ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى أقحمنا فيه السيد المؤرخ المعاصر إقحاماً ؛ لم يكن له فى نفوس الإخوان ولا فى أوساطهم وقع يذكر ، إذا قيس بوقعه فى نفوس السراى والأحزاب ... ذلك لأنه بالنسبة للإخوان لم يضف جديداً إلى معلوماتهم عن الإنجليز ولا عن الوفد ولا عن السراى ولا عن الأحزاب الأخرى .. فالإخوان كانوا يعرفون من تجاربهم فى قضية فلسطين أن الإنجليز إذا سنحت لهم الفرص فجروا .. والوفد منذ عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ أصبح يعتبر الإنجليز أصدقاء وحلفاء ، كما يعرف الإخوان أن الوفد أصبح يسعى إلى الحكم لإشباع شهوات أعضائه وأنصاره من مغانم الحكم ولا يبالى من الذى يدعوه إلى الحكم .. أما الأحزاب الأخرى التى لا نصيب لها من الشعب فليس أمامهم إلا التقرب إلى السراى وإلى المستعمر مضحين بمصالح البلاد فى سبيل إرضائهما ، فإذا أغضى هذان عنهم وسلما أزمة الحكم لغيرهم لبسوا ثياب الوطنيين ، وأخذتهم الغيرة على الوطن ، وتباكوا على ضياع مصالح البلاد .

انشاء الجامعة العربية

نبتت فكرة إنشاء جامعة للدول العربية أول ما نبتت فى أذهان الساسة الإنجليز فى أعقاب

الحرب العالمية الثانية فى غضون سنة ١٩٤٤ . ولقدحاول الإنجليز أن يوهمواالعالم أنها إنما نبتت فى أذهان العرب فأوعزت إلى نورى السعيد باشا رئيس وزراء العراق أن يرفع أول صوت منادياً بها ... وكان الإخوان قد عرفوا من قبل مصدرها الحقيقى وأنها من بنات أفكار ساسة الإنجليز .. وقبل أن ينادى بها نورى السعيد كان الإخوان قد وضعوها موضع الدراسة والفحص ، وقلبوها على جميع جوانبها ، وخرجوا من الدراسة بأن يتبنوا هذا المشروع ولو أنه من وضع الإنجليز .

كان الإنجليز يهدفون من وراء هذا المشروع إلى استحداث جهاز يسهل لهم بسط نفوذهم على جميع الدول العربية ، وليس أقدر على إصابة هذا الهدف من انشاء هذه الجامعة — ولكن الإخوان رأوا فى إنشاء هذا الجهاز — مع سوء القصد فى إنشائه — رمزاً يومىء إلى معنى عزيز هو من صميم دعوتهم ألا وهو إشعار قمم ذى بال من المسلمين فى هذا العالم بأن هناك آصرة قرابة تربطهم ، وأن هذه البقعة مهما تعددت أسماء الدول فيها فإنها أمة واحدة .

ورأى الإخوان أيضاً فى إنشاء هذه الجامعة وسيلة تيسر لهم الاتصال بشعوب هذه الدول ، وتضفى على هذا الاتصال معنى الشرعية بعد أن كان هذا الاتصال شبه محرم إلا خلسة ؛ كما أنهم رأوا أنهم — مع تنبههم لأغراض الإنجليز — يستطيعون بوسائلهم الخاصة أن يدسوا أنفسهم فى هذا الجهاز أو بالمعنى الأدق فى تعديل توجيهه بحيث يحقق — بجانب ما أنشأه الإنجليز من أجله — أغراضاً نافعة تعود بالخير على البلاد العربية والبلاد الإسلامية .

وضع ميثاقها :

دعى إلى القاهرة رؤساء وزارات الدول العربية المستقلة فى ذلك الوقت ، وكانت سبع دول تقريباً هى مصر والسعودية واليمن والعراق وسوريةولبنان لوضع ميثاق لجامعة الدول العربية . ويبدو — كما هو فى خاطرى الآن — أن اجتماع هؤلاء الرؤساء كان فى الإسكندرية .

وكانت الخطة التى وضعها الأستاذ المرشد أن يكون فى استقبال هؤلاء الرؤساء وفد من الإخوان للترحيب بهم ولاشعارهم بأن المهمة التى قدموا من أجلها تلقى من اهتمام الشعب ماهى جديرة به — وهوماكان الإنجليز يحاولون إيهام الشعوب العربية به — ولذا فإن هذه الحركة من الإخوان قد نالت رضا نورى السعيد الذى كان المتبنى لفكرة الجامعة وكان هو الداعى لها ...وقد أتاح الإخوان لأنفسهم بهذا الرضا فرصة الوجود بجانب لجنة الرؤساء ، وعن طريق هذا الوجود استطاعوا أن يعرفوا كثيراً مما كان يدور خلال اجتماعات هذه اللجنة ، واستطاعوا بطريق غير رسمى الاشتراك فى بعض المناقشات .

اختار الأستاذ المرشد الأخ الأستاذ محمد لبيت البوهي رئيس الإخوان بالاسكندرية ليكون ضابط اتصال بين الإخوان وبين لجنة الرؤساء ، وكان اختياراً موفقاً فقد كان الأستاذ لبيب شخصية مقبولة وأمينة وحكيمة من أولئك الذين قيل فيهم :

إذا كنت فى حاجـــة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصـــــــه

فكان الأستاذ لبيب يعرض علينا كل يوم مادار فى الاجتماع الذى حضره ، وكان الأستاذ المرشد يدرس النقاط التى ستكون مدار النقاش فى الاجتماع القادم ويوضح الصورة التى يحاول الإخوان أن يضعوا القرار فى إطارها ، ويحملها الأستاذ لبيب حيث يجتمع الرؤساء .. وبأسلوبه اللبق ووسائله الخاصة يصدر القرار على الصورة المطلوبة أو قريباً منها .

السيد رياض الصلح :

استطاع الأستاذ لبيب أن يكتشف أن بين هذه المجموعة من الرؤساء رجلا عظيما ، وشخصية قادرة ، تفهم الأمور على وجهها الصحيح . وذات قلب كبير مفعم بالإيمان بالفكرة الإسلامية باعتبارها السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد العربية والإسلامية .. وتبين أن الرجل يتابع من طرف خفى نشاط الإخوان وأنه يكن لهم الحب والتقدير .. وتحدث مع الأستاذ لبيب حديثاً صريحاً حول فكرة إنشاء الجامعة ، وأنه حضر بنفسه للاشتراك فى وضع ميثاقها لعله يستطيع أن يجعل منها جهازاً نافعاً للعرب كما يجب أن يكون ؛ وطلب منه أن يعتبره الإخوان ممثلا لهم فى هذه الهيئة الرسمية التى تضع الميثاق ، وعلى الإخوان أن يمدوه بآرائهم أولا بأول ليدافع عنها ويحاول إدماجها فى مواد الميثاق .

ذلك هو السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان وأعظم شخصية فى تاريخ لبنان الحديث ، والرجل الذى لم يملأ الفراغ الذى خلفه بموته أحد حتى اليوم ... كان رجلا مؤمناً قوياً ، واثقاً من نفسه مرهوب الجانب ، من أعظم الرؤساء ، محبوباً من شعبه ... يرى نفسه فوق مستوى الأطماع كما كانت همته غير محدودة بالحدود المصطنعة للعالم الإسلامى المقسم ظلماً وتعسفاً .

توطدت الصلة بين الإخوان وبين هذا الرجل العظيم ، وكان اكتشاف الإخوان حقيقة هذا الرجل عنصراً من عناصر إحياء الأمل لدى الإخوان أن هناك كنوزاً مخبوءة يدخرها الله تعالى لدعوته ، فحرص الإخوان على أن تظل صلتهم به فى طى الكتمان حتى يؤدى الرجل ما يستطيع من خير للأمة العربية والإسلامية دون أن يتنبه المستعمرون فيصوبوا إليه سهامهم من كل جانب .

ومما تجدر الإشارة إليه ، ومما يجب أن يعيه المتصدون للإصلاح من أصحاب الأفكار والدعوات أن لا يحصروا آمالهم فى حدود الظروف المادية المحيطة بهم فيقعد بهم ذلك عن النهوض بالأعباء الجسام ؛ بل عليهم أن لا يتقاعسوا عن انتداب أنفسهم لأشق المهام وأصعبها مراساً ، فإن ذلك سيفتح أمامهم أبواباً وسينير لهم سبلا ماكانوا ليروها وهم قاعدون ... فيوم ووجه الإخوان بفكرة الإنجليز فى إنشاء الجامعة العربية ودرس الإخوان الفكرة ؛ فوجدوا أن ولاءهم يقتضيهم أن يتلقوا هذه الفكرة من الإنجليز ويعملوا على الإفادة منها ؛ يومئذ كان الإخوان فى حيرة من أمرهم كيف يقتحمون إلى هذا المؤتمر وهم يعلمون أن رؤساء الدول العربية صنائع للمستعمر ؛ ولكنهم رأوا أن واجبهم يقتضيهم أن يقتحموا ففعلوا وآمالهم معلقة بوجه الله وحده ، فكان أن فتح الله بين أيديهم أوسع الأبواب بتعرفهم على هذا الرجل العظيم وصدق الله العظيم «ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . »... ولقد يسرت للإخوان الأمور حتى إنهم كانوا يطبعون مذكرات يشرحون فيها وجهة نظرهم فيما سيعرض أمام لجنة الرؤساء من مواضيع ويوزعونها على الوفود لتنير لهم الطريق وتهيء الجو للسيد رياض الصلح حين يتبنى رأى الإخوان ويدافع عنه .

مكاسب عن طريق رياض الصلح :

وسأحاول الآن أن اسرد بعض ما تمكن الإخوان من تحقيقه من مكاسب عن طريق هذه الجامعة عادت بالخير على الأمة العربية والإسلامية .

أولا : إخراج ميثاق جامعة الدول العربية فى صورة أكثر فعالية من الصورة التى كان يريدها له الإنجليز ...ومعنى ذلك أنه حتى الصورة التى أخرج عليها الميثاق لم تخل من قصور ، ولكن بعض التحسين الذى أمكن إدخاله عليها قلل من هذا القصور ، وجعل هناك مندوحة لتقارب هذه الدول بعضها من بعض تقارباً حقيقياً إلى حد ما ، كما أتاح لها أن تعمل عملا إيجابياً وإن كان محدوداً .

ثانياً : اختيار عبد الرحمن عزام أميناً عاماً للجامعة .. واختيار رجل كعبد الرحمن عزام لهذا المنصب ليس بالأمر الهين ، إذا عرف من هو عبد الرحمن عزام وعرف تاريخه وجهاده وأفكاره ... لقد كان اختيار هذا الرجل أمنية عزيزة للإخوان ... وقد أشرت فيما سبق إلى صلة عبد الرحمن عزام بالإخوان سواء وهو فى الحكم عضواً فى وزارة على ماهر وفى غير الحكم .

ثالثاً : تعرف الإخوان بالقاضي الكبسي ممثل اليمن في لجنة الميثاق ... وقد ينبغي الإشارة في هذا الصدد إلى أن الدعوة حين وجهت إلى اليمن باعتبارها دولة عربية مستقلة لتشترك برئيس وزرائها في وضع ميثاق جامعة الدول العربية بعث الإمام يحيى حميد الدين إمام اليمن بالقاضي الكبسي ممثلا له على أن يكون مستمعاً دون أن يشترك في المحادثات .. وقد أثار هذا النوع من الاشتراك في اللجان تندر كثير من الأوساط الصحفية والشعبية في مصر حتى سرت مسرى المثل ، فإذا دعا أحد أصدقاءه لغداء مثلا وأجابوا وتقدموا للطعام إلا واحداً فإن هذا الواحد يقول متندراً : اعتبروني كبسي في هذه الوليمة .

لكن هذا الرجل «القاضي الكبسي» كان رجلا ذكياً ؛ فإن مجرد تعرفه على الإخوان فتح عينيه على ما كان يحذره إمامه ؛ فلقد كان إمامه حريصاً على أن لا يعرف مندوبه شيئاً مما يدور في العالم الخارجي لاسيما الدعوات التحررية التي تدعو إلى الثورة على الظلم والاستبداد . فلم يكد القاضي الكبسي يسمع من الإخوان حتى اختمرت في ذهنه فكرة ، كانت هي نواة الثورات المتلاحقة التي خلصت اليمن من مظالم الحكم الإمامي المستبد ،وإن كان الرجل«القاضي الكبسي»نفسه قد راح ضحية في طريق التحرير ، رحمه الله وأجزل مثوبته على ما قدم لبلاده .

رابعاً : الاعتراف باستقلال أندونسيا وباكستان .

تبنى الإخوان الدعوة إلى مؤازرة أندونسيا في جهادها للتخلص من استعمار هولندا ، ومؤازرة باكستان في تخليص المسلمين من اعتداءات البوذيين وعباد البقر من الهنود ، وإقامة دولة للمسلمين باسم باكستان تحمى كيانهم وتمكن الأمر لهم ....

ومع أن جهاد المسلمين في هاتين الجبهتين جبهة أندونسيا وجبهة الهند كان له صدى مدو في أنحاء العالم كله ، إلا أن الحكومات المصرية لم تحس بشيء من ذلك ، ولم تكن تعير هذا الجهاد العظيم اهتماماً مع أنها كانت أجدر الحكومات أن تهتم به لأنها الحكومة التي ينظر إليها المسلمون على أنها زعيمة العالم الإسلامي ومناط آماله .. ولم يفت هذا الشعور المتخاذل في عضد الإخوان فدأبوا على المناداة بتأييد هذا الجهاد المقدس بكل وسائل التأييد ؛ فكان هناك اتصال دائم بين قادة هذا الجهاد في أندونسيا والهند وبين الإخوان المسلمين .. وقدمت منها وفود استقبلهم الإخوان أحسن استقبال ، حتى قدم السيد محمد على جناح زعيم المسلمين في الهند والمطالب بتكوين دولة باكستان ؛ وقد استقبله الأستاذ المرشد وأحسن وفادته وعرفه بعبد الرحمن عزام .

ولما أثمر جهاد الأندونيسين والمسلمين في الهند وأعلنوا إقامة دولتين مستقلتين . تخاذل

الغرب عن الاعتراف بهما أملا فى القضاء عليهما وهما بعد نبتتان غضتان.. وهنا تقدم الأستاذ المرشد بمذكرة إلى جامعة الدول العربية يستثير فى رجالها النخوة العربية والغيرة الإسلامية طالباً منهم الاعتراف بالدولتين الناشئتين، ثم كان لعبد الرحمن عزام الفضل فى استصدار قرار باعتراف جامعة الدول العربية، فكان هذا القرار دعامة الدولتين فى الوجود القانونى، ولم تجد الدول الأخرى بداً من الاعتراف بهما بعد ذلك القرار.

خامساً: بلاد الشمال الأفريقى :- كانت بلاد الشمال الأفريقى - المغرب والجزائر وتونس - ترزخ تحت كابوس ثقيل من استعمار فرنسى غاشم. وكانت ليبيا تئن تحت وطأة الحكم الإيطالى المستبد .... وعن طريق الجامعة العربية وعبد الرحمن عزام استطاع الإخوان أن يلعبوا أدواراً فى التوفيق بين زعامات الأحزاب فى هذه البلاد ومساندة الثورات التى شبت بها ضد المستعمر .. ولم يكن الإخوان حريصين على إبراز أنفسهم فى هذا الميدان بل كانوا حريصين على إبراز الجامعة العربية لأن إبرازها فى هذا الموقف كان أنفع لهذه البلاد وأشد تأثيراً فى السياسة العالمية، ولو أن الرجال القائمين بهذه الأدوار كان الموجهون منهم من الإخوان العاملين فى الجامعة العربية وخطة العمل فى هذا المجال كانت باتفاق بين الإخوان وبين أمين الجامعة، وقد انتهت هذه الجهود - والحمد لله - باستقلال هذه البلاد وتخلصها من وطأة الاستعمار.

سادساً: تطوع الإخوان فى حرب فلسطين :- كان لجامعة الدول العربية دور عظيم فى تنظيم التطوع فى حرب فلسطين وسنرجىء الحديث عن هذا الدور حتى نبسط الكلام فى شأن هذه الحرب إن شاء الله.

عرض من الملك عبد الله

فى خلال تلك الفترة كان الأستاذ عبد الحكيم عابدين فى رحلة خارج مصر زار فيها بلاد الشام بأقسامها ... فلما عاد من رحلته أخذ يشرح لنا ما تم فى رحلته حتى وصل إلى الأردن فقال إنه قابل الملك عبد الله الذى أبدى إعجابه بدعوة الإخوان وبقيادتهم وأنه ينتظر الخير للأمة الإسلامية على أيديهم ثم قال الملك: إن الأردن فى حاجة إلى جهود الإخوان، ولتكن أولى خطوات هذه الجهود أن يعين الأستاذ عبد الحكيم عابدين وزيراً فى حكومة الأردن على أن ينعم عليه وعلى الأستاذ حسن البنا برتبة الباشوية.

فابتسم الأستاذ المرشد وسأل: وماذا كانت إجابتك يا عبد الحكيم ؟..

قال : وهل تكون إجابتي إلا بالرفض ولكن بأسلوب مهذب ... ولكن الملك مع ذلك أصر على أن يرجأ البت في هذا العرض حتى أرجع إلى مصر وأقابلك .

وقد رد الأستاذ المرشد على الملك عبد الله برسالة رقيقة استنهضه فيها للعمل للإسلام مشيداً بانتسابه إلى العترة الشريفة ، وأثنى فيها على حسن ظنه بالإخوان ، واعتذر إليه بأن العمل غير الرسمي للدعوة الإسلامية أحوج إلى جهود الإخوان وأنه يأمل أن تلتقى الجهود الرسمية وغير الرسمية في سبيل هذه الدعوة .

محاولة أخرى لدخول مجلس النواب

كان ذلك في أواخر عام ١٩٤٤ بعد أن استطاع الملك إقالة وزارة الوفد معتمداً على ما قدمته له هذه الوزارة من أسلحة بما تورطت فيه من أخطاء مست صميم الشعب في قوته من المأكل والملبس. وأقيلت الوزارة وحل مجلس نوابها كالمعتاد ، وأعلن عن انتخابات جديدة لمجلس نواب جديد ، وقرن هذا الإعلان كالمعتاد أيضاً بالطعن في نزاهة الانتخابات السابقة ، وبأن الانتخابات القادمة ستكون حرة مائة في المائة .

وقرر الإخوان دخول هذه الانتخابات بترشيح الأستاذ المرشد في دائرة الإسماعيلية وترشيح عدد آخر من الإخوان في دوائر مختلفة .

كان هناك حرص شديد من الدولة الجديدة على إبراز هذه الانتخابات في صورة مغايرة لتلك التي كانت عليها انتخابات حكومة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ التي كان من أبرز ما عرف عنها وشوه صورتها منع الأستاذ المرشد العام للإخوان المسلمين من ترشيح نفسه وإرغامه على سحب هذا الترشيح ، وكان لهذا المنع ضجة في جميع أنحاء البلاد ..

ولكن أسلوباً آخر في الخفاء ومن وراء الكواليس كان يجرى حسب مشيئة السادة المستعمرين :- في رسالة بعث بها الصاغ محمود لبيب رحمه الله إلى جريدة المصرى في سبتمبر سنة ١٩٥٠ جاء فيها ما يلى :-

«في وزارة أحمد ماهر باشا أراد المرشد العام أن يرشح نفسه ، فعلمت أنا من أحد أصدقائي أن خطاباً أرسل من السفارة البريطانية إلى أحمد ماهر باشا يطلب فيه منه أن يعمل على منع المرشد العام والأستاذ على البرير (كان من كبار السودانيين الأحرار المقيمين بمصر والمؤمنين بوحدة وادى النيل) المرشح في دائرة عابدين من التقدم للانتخابات ...

فأسرعت إلى فضيلة المرشد فأبلغته ذلك فضحك واستبعد هذه الفكرة . وفى اليوم التالى طلبه أحمد ماهر باشا لمقابلته فلما قابله طلب منه أن يسحب ترشيحه . وحاول أن يقنعه فرفض . فقال له : لماذا تتشدد معى وقد قبلت مثل هذا من حكومة النحاس باشا وتنازلت عن ترشيحك ؟.

فرد عليه بقوله : إن حكومة النحاس باشا كانت تواجه حالة سياسية مضطربة فى الداخل والخارج ولم يكن هناك بد – إجابة لداعى الوطنية الكريمة –من أن نقبل منها هذا ؛ إذ كانت الحالة تدعو إلى توحيد الجهود لا إلى توزيعها لوجود الأعداء داخل الأراضى المصرية .

يقول الصاغ محمود لبيب : وقد قابلت بعد ذلك على البريربكفقال لى إن أحمد ماهر باشا طلبه هو الآخر وأطلعه بالفعل على خطاب السفارة الإنجليزية .

فلما ووجه القصر ممثلا فى هذه الأحزاب بإصرار الإخوان على ترشيح مرشدهم فى الانتخابات وجدوا أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر : ففتح الطريق أمام حسن البنا إلى مجلس النواب كارثة حيث نجاحه فى هذه الدائرة أمر لاشك فيه .. كما أن منعه من الترشيح يهدم صرح الدعاية الذى شيدوه على أساس من الحرية المطلقة التى ادعوا أنهم إنما جاءوا ليردوا إلى الشعب ماحرمه الوفد منها

وظلوا فى حيرة منأمرهم حتى اهتدوا إلى الحل الأمثل الذى علمنا أخيراً أنه إنما جاءهم من عند واضعى أدوار التمثيلية والذين اختاروا ممثليها والذين تكفلوا بإخراجها إلى الجمهور ، وتبين لنا أن واضع الرواية ومخرجها قد تضطره الظروف إلى القيام بنفسه بدور البطولة فيها وإلا فشلت التمثيلية ولم تحققهدفها .. واتضح أن واضعى التمثيلية وموزعى أدوارها هم المستعمرون الإنجليز .

وبدا للجمهور على المسرح أن ترشيح المرشد العام لا يلقى أىاعتراضمن الحكومة ونظراً لما جبل عليه الإخوان من حسن الظن وسلامة الطوية اعتقدوا أن هؤلاء الناسقدراجعوا ضمائرهم ورغبوا فى تحسين علاقاتهم بالإخوان والسير فى ركب المواطنين الصالحين .

مفاجأة :

لم يبذل الإخوان أى جهد فى الدعاية للمرشد العام فى دائرته – كدأب ما يبذل للمرشحين فى دوائرهم – لأن أهل الإسماعيلية بعثوا إلى القاهرة بوفود تمثلهم لتقديم شكرهم إلى الأستاذ المرشد العام أن آثرهم على جميع دوائر القطر بترشيح نفسه فى دائرتهم مع أن جميع الدوائر كانت تتمنى أن تحظى بترشيحه فيها .. وتكفل أهل الإسماعيلية بدفع التأمين من جيوبهم .

ولما جاء يوم الانتخاب فوجيء أهل الإسماعيلية بتدخل الجيش البريطانى فى الانتخابات بأن أحضروا أعداداً كبيرة من العمال الذين يعملون فيه فى سيارات وأدى هؤلاء العمال الانتخاب بتذاكر مزورة بأسماء ناخبين من أهل الإسماعيلية. وهؤلاء جميعاً ينتخبون المرشحين الآخرين. واحتج أهل الإسماعيلية وأهملت السلطات احتجاجاتهم وانتهى يوم الانتخابات ، وظهرت نتائج الانتخابات وكانت نتيجة دائرة الاسماعيلية إعادة الانتخاب بين الأستاذ المرشد وبين مرشح آخر .

هنا بدأ الإخوان يفهمون الوضع على حقيقته حيث بان الخفى ووضح الأمر ، وتبين أن الإنجليز تعزيزاً لمركز حكومة السعديين التى يريدونها ، وافقوا على أن تظهر هذه الحكومة أمام الشعب بمظهر الموافق على ترشيح المرشد العام على أن يتكفلوا هم – أى الإنجليز – بإسقاطه ، ويكون ذلك بالطريقة الآتية :-

أن يرشحوا ضده أكثر من واحد من المقاولين الذين يعملون معهم فى الجيش ... ونظراً لتوزع قوة الحكومة فى جميع دوائر القطر لحفظ الأمن فسيكون جهد الجيش الإنجليزى مع قوة الأمن العادية فى الإسماعيلية قاصراً على عدم إعطاء المرشد العام أغلبية مطلقة من الأصوات ... فيعاد الانتخاب بينه وبين أحد المرشحين الآخرين . وهنا فى الإعادة تتاح الفرصه لحشد أكبر قوة ممكنة من قوات بوليس الحكومة المصريه للتعاون مع الجيش البريطانى تعاونا يكفى لاسقاطه .

ولما لم يكن شيء من هذه الأفكار يخطر ببال الإخوان ، فإن الإخوان لم يكلفوا أنفسهم مئونة الذهاب إلى الإسماعيلية لشد أزر الأستاذ المرشد لتيقنهم من نجاحه بل ومن اكتساحه .. فلما فوجئوا بالواقع الأليم الذى حدث فى الإسماعيلية ، وجدوا أنفسهم مطالبين بالسفر إليها لحضور معركة الإعادة .

وينبغى أن يكون معروفاً أن حكمدار – مدير الأمن – فى محافظة القنال كان فى ذلك الوقت إنجليزياً ، وأن شركة قنال السويس كان مقرها الإسماعيلية ، وأن قيادة جيش الإحتلال البريطانى كان مقرها الإسماعيلية ، وأن عشرات الآلاف من العمال المصرين الذين يعملون فى الجيش البريطانى قد أتوا من مختلف بلاد القطر وأكثرهم من الصعيد ، وكان العامل يتقاضى من الجيش البريطانى أجراً يعادل ضعفى مايتقاضاه على نفس العمل فى أى مكان فى البلاد .

معركة الإعادة :

من التجاوز فى التعبير أن نسمى ماحدث فى الإسماعيلية فى ذلك اليوم معركة الإعادة أو

معركة الانتخابات ؛ فإن الذى حدث كان حرباً اعلنتها الحكومة المصرية متضامنة مع الجيش البريطانى ضد أهل مدينة الإسماعيلية .

لقد سافرت إلى الإسماعيلية ضمن عدة مئات من الإخوان من مختلف أنحاء البلاد لنشهد هذه المعركة التى توقعنا أنها ستكون معركة حامية ، لكن الذى رأيناه قد فاق كل ما خطر ببالنا ، ولولا أننا شهدنا بأعيننا لما صدقنا أن يحدث هذا الذى حدث .. وشاء الله أن تكون أكثر بلاد القطر ممثلة لترى بعينها الجريمة التى لم يحدث لها مثيل من قبل ولا أعتقد أن يحدث مثلها من بعد . حتى تكون كل البلاد فى مصر على علم بما حدث .

ولكى يكون القارىء فى مخيلته صورة مصغرة لما حدث فسأضع تحت ناظريه بعض مناظر من أحداث ذلك اليوم .

المنظر الأول: خرج أهل الإسماعيلية منذ الصباح الباكر متجهين إلى أماكن اللجان الموزعة فى أنحاء الدائرة ليدلوا بأصواتهم ، ومع كل منهم تذكرته الانتخابية ، فوجدوا أمام مدخل كل لجنة سيارة ضخمة من سيارات نقل الجيش البريطانى تغلق هذا المدخل وتحول بين الناخبين وبين الدخول إلى اللجنة .

المنظر الثانى : كثر عدد الناخبين بمرور الوقت أمام مقار اللجان ، ولما طال انتظارهم ولم تتحرك السيارات المعترضة ، حاولوا اقتحام السيارات للدخول فإذا بقوات ضخمة من بوليس القنال والبوليس المستقدم من القاهرة ومن جهات أخرى تعترض طريقهم وفى أيديهم الأسلحة والهراوات .

المنظر الثالث : يلجأ الناخبون إلى الأستاذ المرشد يشكون إليه فيتصل بالمحافظ فيطمئنه المحافظ ولكنه لا يعمل شيئاً فيلجأ إلى الحكمدار الإنجليزى فيتز باتريك فيرد عليه بأن عنده تعليمات من الجهات العليا ينفذها.

المنظر الرابع : القوات الضخمة من البوليس فجأة تهاجم الناخبين المحتشدين أمام مقار اللجان وتعمل فيهم هراواتهم وتهددهم بأسلحتهم حتى تبعد بهم بعض الشىء عن مقار اللجان ، ثم تطوقهم تطويقاً محكماً . وهنا نرى ناقلات ضخمة من ناقلات الجيش البريطانى قادمة وهى محملة بعمال الجيش البريطانى ، وفى سرعة جنونية تتجه إلى مقار اللجان ، وتكون السيارات المعترضة للمداخل قد أفسحت الطريق فتدخل هذه السيارة حتى باب المبنى الذى به لجنة الانتخابات ، وتلصق مؤخرتها بالباب وتفرغ حمولتها من العمال فيدخل كل منهم ويقدم للجنة تذكرة باسم ناخب من ناخبى

اللجنة ، ورئيس اللجنة وأعضاؤها يعلمون أن أحداً من هؤلاء العمال لا يحمل بطاقة انتخابية باسمه بل ليس منهم من يعرف الاسم المكتوب فى البطاقة التى يقدمها ، وكل ما لقنه هؤلاء العمال هو أن ينتخبوا الاسم الذى حفظوه وهو اسم المرشح المنافس للأستاذ المرشد .

المنظر الخامس : بعد أن تفرغ السيارة حمولتها تظل فى وضعها حتى تؤدى الحمولة المهمة المكلفة بها ثم ترجع الحمولة إلى مكانها فى السيارات حتى إذا امتلأ رتل السيارات التى جاءت معاً ينطلق الرتل دفعة واحدة خارج مقر الدائرة وفى سرعة جنونية بين صفوف جنود البوليس حتى تختفى عن الأنظار داخل المعسكرات البريطانية ؛ وبعد قليل يأتى رتل آخر ويمثل الدور نفسه .

المنظر السادس : يدخل الأستاذ المرشد مقر إحدى اللجان ويضبط بنفسه أمام أعضاء اللجنة مائة تذكرة انتخابية مزورة يحملها غير أصحابها من هؤلاء العمال ، ويقدمها لوكيل النيابة فلايتخذ وكيل النيابة أى إجراء سوى أنه يتسلم التذاكر قائلا إنه سيجرى تحقيقاً دون أن يفعل شيئاً

المنظر السابع : أمام هذه المهازل وهذا الإجرام لم نتمالك نحن – الإخوان الزائرين – أعصابنا فوجدنا أنفسنا نهاجم سيارات الجيش البريطانى المحملة بالعمال ونحاول منعها من دخول اللجان ، فإذا بقوات البوليس تهاجمنا بقيادة فيتز باتريك الحكدار ، وقد رأيت هذا الحكدار الإنجليزى يأمر الجنود بحملنا فى سيارات نقل جاءوا بها وحملت أنا شخصياً مع مجموعة من الإخوان إلى إحدى هذه السيارات وسط مناقشات حادة بيننا وبين هذا الحكدار . وبعد أن دخل رتل السيارات القادم من المعسكرات البريطانية والذى كنا نهاجمه إلى مقار اللجان أمر هذا الحكدار بإطلاق سراحنا

المنظر الثامن : عند انتصاف النهار ، قرر الإخوان أن يقوموا بعمل عنيف قد يؤدى إلى وقوع ضحايا من الجانبين ، ويبلغ ذلك مسامع الأستاذ المرشد فيحضر حيث يجتمع الإخوان وينهى إليهم رأيه بعدم موافقته على هذا الإجراء ويقول : إن دماء الإخوان أعز عليه من أن تسفك فى سبيل معركة مهما بالغنا فى أهميتها فإنها لا تعدو أن تكون معركة جانبية .

ولكن أهمية هذه المعركة الجانبية أنها كشفت لنا بوضوح حقيقة الاستعمار الذى يجثم على صدر بلادنا وحقيقة ساستنا الذين يتظاهرون أمام الشعب بالوطنية وهم فى السر قد تعاقدوا مع الإنجليز على أن يكونوا مطاياهم ونعالا فى أقدامهم يدهسون بها رقاب الشعب المسكين

وينقضى هذا اليوم الأغبر ... وتعلن نتيجة الانتخابات بسقوط المرشد العام فى الدائرة التى

يعلم كل مصرى وكل عربى بل ويعلم العالم كله أن هذه الدائرة هى عقر داره ، وأن رجالها ونساءها وأطفالها لايهتفون إلا باسمه ويؤثرونه على آبائهم وأمهاتهم .

موقف مسرحي للانجليز :

بدت إقالة الملك لوزارة الوفد يوم إقالتها وكأنها انتصار للملك ... لا لأنه أقال وزارة وفدية — فقد أقال من قبل وزارات وفدية — وإنما لأن وزارة الوفد التى أقالها هذه المرة كانت مؤيدة تأييداً سافراً من الإنجليز ، ولا زال اقتحام الدبابات البريطانية سور قصر عابدين لإرغام الملك على استدعاء النحاس للحكم ماثلا فى الأذهان ... فكأن الملك وقد تمكن من إقالة هذه الوزارة قد انتصر على الإنجليز وتغلبت إرادته على إرادتهم ...

ويبدو أن الإنجليز كانوا راغبين فى إيهام الشعب بهذا المعنى فتظاهروا بأنهم غلبوا على أمرهم ... وتركوا وسائل إعلامنا تبرز هذا المعنى أيضاً حتى استقر ذلك فى نفوس الشعب .

وقد استطاع الإنجليز — بهذا الموقف المسرحى — تحقيق الأهداف التالية :

الهدف الأول : أنهم حطموا الوفد باعتباره الهيئة الشعبية المسيطرة ، فقد دخل الوفد الحكم وله فى نفوس الشعب الحب والإعزاز . وغادره فاقداً هذا الحب والإعزاز وحل محلها البغض والمرارة حيث عانوا فى ظل حكمه شظف العيش وقسوة الحياة نتيجة ندرة مواد المعيشة ، واستيلاء الجيش البريطانى على أطيابها ثم تسلط أتباع الوفد من كبار الموظفين والتجار على البقية الباقية من هذه المواد بالسلب والنهب والاستغلال .. وهو الهدف الذى أشرنا إليه من قبل عند مناقشتنا لحادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ... ولا يخفى أن الطريقة السافرة التى اختارها الإنجليز فى ٤ فبراير لتمكين الوفد من الحكم هى فى حد ذاتها قد زلزلت ثقة الكثيرين فى الوفد — لكن ما ارتكبه الوفد من أخطاء فى أثناء حكمه قد أتت على البقية الباقية له فى النفوس ... وربما كان احساس الوفد بنجاح سياسة الإنجليز فى افقاده ثقة الشعب هو الذى دفعه بعد ذلك إلى تغيير سياسته التقليدية فى معاداة الملك وابدالها بسياسة التزلف إليه والتملق له .

والهدف الثانى : أنهم رغبوا فى إنساء الشعب مرارة ما استقر فى نفوسهم من آثار الاعتداء والصلف وامتهان الكرامة فيما اتخذوه من إجراء يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .. وقد رأوا أن ظهورهم بمظهر المستكين المغلوب على أمره أمام السلطة الشرعية المتمثلة فى الملك مسحاً لهذه المرارة أو تخفيفاً منها على الأقل .

ويبدو أن هدف الإنجليز فى هذا الصدد قد تحقق إلى حد كبير ، فقد كنت تسمع من الكثيرين فى مختلف الأوساط يوم إقالة وزارة الوفد كلاماً فيه معنى الشماتة فى الإنجليز .

والهدف الثالث : أنهم أرادوا أن يهيئوا جواً يجعل الشعب على شوق لاستقبال الوزارة القادمة استقبال الأبطال المنقذين . الذين جاءوا رغم أنف الإنجليز ليمسحوا عار يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وليردوا للشعب كرامته وشخصيته .

وهذا ما تحقق فعلا كذلك ؛ فقد بدا للناس كأنما استرد الملك كرامة الشعب فى شخصه ، كما بدالهم كأنما جاء الملك متحدياً سلطة الإنجليز بالرجال الذين هم أعداء الإنجليز ، بدليل أن الإنجليز يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ قرروا إبعادهم عن الحكم ... إذن فرحباً بهم رغم أنف الإنجليز ... وتظاهر هؤلاء الرجال بأنهم جاءوا إلى الحكم لإنقاذ الحرية رغم أنف الإنجليز .

انكشاف المؤامرة بين الإنجليز والسعديين :

خدع الشعب تماماً أمام مكر الإنجليز ونفاق السعديين ... والشعب معذور فى أن يخدع فقد أحكم الإنجليز خططهم ، واستطاع الملك وأنصاره السعديون أن يتقنوا تمثيل الدور الذى رشحهم الإنجليز لأدائه ، ولم يكن الشعب يعلم شيئاً عما كان يدور خلف الكواليس قبل أن تفتح أمامه الستارة ليرى على المسرح هؤلاء الرجال وعلى رأسهم الملك وقد ظهروا وبأيديهم سيوف تقطر دماً مدعين أنه دم الإنجليز المعتدين .

ولم يفطن الشعب إلى أن ما رآه على المسرح لم يكن إلا خدعة كان هو ضحيتها ، ولم يبدأ يسترد وعيه شيئاً فشيئاً ، ويفهم ما كان يدور خلف الكواليس إلا بعد أن صدمته فاجعتان .

أولاهما : انتخابات الأسماعيلية وما أثبتته من أن تسلط الإنجليز وتبجحهم يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ لم يكن أوقع ما عندهم إذ أنهم كانوا فى انتخابات الإسماعيلية أكثر تسلطاً وأشد وقاحة وتبجحاً .

ففى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ لم يجدوا معاضدة فى عدوانهم من السلطة الحكومية ممثلة فى بوليسها ورجال إدارتها ، أما فى الإسماعيلية فقد وجد العدوان الإنجليزى من بوليس الحكومة المصرية ورجال إدارتها ورئيس حكومتها عوناً بل خدماً يحمون عدوانه ، ويتهافتون على نيل الحظوة لديه ...

فى ٤ فبراير كان عدوان الحكومة البريطانية موجها إلى الملك وإلى حفنة وراءه من صنائعه

البشوات سدته شهواته وخدام نزواته ، ومطلب الإنجليز كان استدعاء الحزب الشعبي للحكم أي أنه كان مطلباً في ظاهره على الأقل في جانب الشعب ... أما في الإسماعيلية فقد كان عدوان الإنجليز مؤيداً بالملك وصنائعه السعديين ، موجها توجيها مباشراً وسافراً ضد الشعب نفسه ... مما لم يدع للشعب مندوحة للتعليل أو للتأويل أو لحسن الظن في أن هذه المظاهرة التي قام الملك بتدبيرها مع أذنابه السعديين لم تكن إلا خدعة للشعب ، واستخفافاً بعقليته ، واستهتاراً بفهمه ووعيه ... ولم يعد عند الشعب أدنى شك في أن هذه الوزارة السعدية وعلى رأسها الملك ليست إلا صنيعة حقيرة للإنجليز .

ومن سوء حظ الإنجليز وأذنابهم أنهم ظنوا أن معركة انتخابات الإسماعيلية لن تكون أكثر من معركة في دائرة من ثلاثمائة دائرة أو نحوها لن يشعر بما يدور فيها إلا أهل المنطقة .. ولم يدر بخلدهم أن جميع دوائر القطر ستكون ممثلة يوم الانتخابات في هذه الدائرة ، وأن هؤلاء الممثلين سيرجعون في اليوم التالي إلى بلادهم ويروون لأهل هذه البلاد ما شاهدوه بأعينهم من مآس واعتداء وإجرام .

وهكذا استيقظ الشعب المصري في اليوم التالي على فهم جديد ، ووعي جديد ، ونظرة جديدة إلى الناس وإلى الأمور وإلى الحكومة التي جاءت إلى الحكم باسم حكومة التحرير والإنقاذ ، تحرير الشعب من ديكتاتورية الوفد ، وإنقاذ شرف البلاد من وصمة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

أما ثانية الفاجعتين التي استيقظ الشعب على دويها فهي حيرته لم سحب الإنجليز تأييدهم لحكومة الوفد التي ضحوا في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ بجانب كبير من سمعتهم في سبيل إسناد الحكم إليها ، ثم نقلوا تأييدهم إلى الجانب الآخر الذي داسوه بأقدامهم في ذلك اليوم ؟ ...

ظلت الحيرة مستبدة بأفكار الشعب ، لا يجدون لها تعليلا ، حتى استقرت الأمور لهذه الحكومة ، وحظيت بمجلس نواب صنعته بيديها بالمواصفات التي حددها الإنجليز ، حينئذ انطلقت القنبلة التي أفاق على دويها الشعب من حيرته ، حيث استبان له ما كان ملتبساً عليه ، وظهر له ما كان مستوراً عنه وتكشف السر الذي كان في طي الكتمان بين السعديين وبين الإنجليز وكان ذلك حين أعلنت الوزارة السعدية برياسة أحمد ماهر الحرب على المحور (ألمانيا وايطاليا) .

وقد سبقت الإشارة من قبل إلى أن الإنجليز منذ أعلنوا الحرب على ألمانيا سنة ١٩٣٩ وهم يلحون على الحكومات المصرية المتعاقبة أن تعلن الحرب على ألمانيا تنفيذاً لبنود معاهدة سنة ١٩٣٦ فقد ألحوا في ذلك على وزارات على ماهر وحسن صبري وحسين سري ولكن لما كانت هذه

الحكومات ترى أن لا مصلحة لمصر مطلقا فى إعلان الحرب على دول لم تمسنا بأى نوع من أنواع الاعتداء ، فإنهم جميعاً أصروا على رفض هذا المطلب حتى صار رفضه سياسة عامة للدولة يقف وراءها الشعب كله بجميع أحزابه وطوائفه .

حتى وزارة الوفد التى جاء بها الإنجليز فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ عجز الإنجليز عن إحراجها فى اتخاذ هذا القرار .. ويبدو أن هذا كان هو السر الحقيقى وراء تخلى الإنجليز عن تأييدها آخر الأمر لا سيما بعد أن عقدوا فى الخفاء الصفقة مع السعديين .

وجاء أحمد ماهر مطمئناً إلى تأييد الإنجليز ، متحدياً إرادة الشعب التى أجمع عليها بكل طوائفه متجاهلا شعوره وعواطفه ، وأعلن الحرب على المحور ، ظناً منه أن تأييد الإنجليز يحميه من غضب الشعب ، ولكن غضب الشعب كان أقوى مما يظن ؛ إذ قام شاب فدائى من غمار هذا الشعب الغاضب اسمه محمود العيسوى يعمل محامياً فأفرغ فيه طلقات أردته قتيلا ، ولما سئل محمود العيسوى فى التحقيق عن الدافع الذى دفعه إلى قتل أحمد ماهر قال بصريح العبارة : إعلانه الحرب على المحور وما قد يجره ذلك على البلاد من دمار فى حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل .

أحمد ماهر

إذا وصل الرجل فى قومه أو فى دولته بأية وسيلة من الوسائل إلى مركز الصدارة سواء أكان هذا المركز شعبياً أو رسمياً فقد أصبح من حق الناس فى قومه أوفى بلده أن يتعرفوا على تاريخه ، وأن ينقبوا عن دفائن أسراره ، وأن يتعقبوا ما يستخفى به من مسلك بالليل وما يعلن به فى النهار ، حتى يكشفوا عن حقيقة أمره ، ويميطوا اللثام عن كنه شخصيته .

وإذا كان لكل قوم خصائص ومثل ، وهذه الخصائص والمثل قد تختلف من قوم لقوم ومن شعب لشعب ، فلقد رأينا شعوب أوربا وأمريكا لا يقوم فيهم زعيم ولا يتصدر رياستهم رئيس إلا كشفوا من أمره – على ضوء هذه الخصائص والمثل – ما يجعلهم على بينة من حقيقته ، فإذا رجحت كفته رفعوه إلى مكان الصدارة بأكتافهم ، وحاطوه بقلوبهم ، وإذا خفت موازينه وكشفوا زيفه قذفوا به مع أمثاله المضللين إلى غياهب النسيان .

وما أخال الإسلام – باعتباره دعوة عالمية – كان بدعاً من الدعوات فى هذه القاعدة السليمة والطبيعة المستقيمة فلقد تتبع القرآن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم التى رشحها لقيادة الدنيا إلى يوم القيامة تتبعاً وصل به إلى أدق أسراره الشخصية فى بيته مع نسائه .وجعل البحث فى مثل هذه الأسرار من حق الأمة التى رشح لقيادتها .. ولا أعتقد أن شخصية من شخصيات العالم مهما بلغت

خطورة المنصب الذى أسند إليها أو الزعامة التى سيطرت بها قد أبيح اشمها أن يعرف من أسرارها الخاصة عشر معشار ما عرف الشعب الإسلامى فى أنحاء العالم من أسرار محمد صلى الله عليه وسلم

ومعذرة فى هذه المقدمة التى ذهبت بنا بعيداً عن واقع الحال الذى نعالجه فى مذكراتنا هذه عن بلادنا المغبونة الحظ ، المسلوبة الإرادة ، المجنى عليها دائماً .. لقد انفردت الأحزاب بهذا الشعب الطيب ، وشكلت تفكيره بالشكل الذى يرضيها ، فهو لا يتلقى معلوماته إلا منها ، ودرج -كما علمته- على أن يتلقى ما يتلقاه منها على أنه حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

ولا أنكر أنه قد أتى على وعلى أترابى حين من الدهر كنا ضمن هذا الشعب المغرور به ، فكنا نتلقن من حزب الوفد المعلومات التى تبرز لنا أحمد ماهر هذا فى صورة البطل ، وفى صورة الإنسان المثالى .. حتى إذا انفصل عن الوفد وكون ما يسمى بحزب السعديين ، رماه الوفد بجميع النقائص ونسب إليه كل العيوب وجرده من كل المزايا .. واقتنع الشعب بذلك مع أنه كان مقتنعاً بالأمس بعكسه .

هذا منطق لايقره عقل ولايسيغه ذوق ... ولكن على هذا درج شعبنا المضلل ، وبهذا الأسلوب السقيم ارتضى لنفسه أن يسير فى الحياة معصوب العينين مشلول الإرادة وفى أذنيه وقر ومن بينه وبين الحقائق حجاب .

أما والإخوان المسلمون أصحاب فكرة مضيئة ، ومنهج واضح المعالم، وغاية بينة القسمات، فإن الفرد منهم لايضل ولا ينحرف لأن ميزانه بين يديه لايفارقه لحظة ، يزن به كل شخص من تصرفه ،ويقيم ما يقابله من أفكار ومناهج وأهداف ،وصدق الله العظيم « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »

فى فترة الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات كان المتخرجون -كما أسلفنا- فى مختلف الكليات لا يكادون يجدون -مع الوساطات- وظائف حتى باليومية ، وكان الواحد منهم يظل السنوات ذات العدد لا يجد عملا .. وكان الأخ طاهر عبد المحسن قد تخرج فى كلية التجارة قبلى بسنة أو سنتين وظل هو وزملاؤه يبحثون عن عمل ... وتصادف أن أعلنت وزارة المالية عن وظائف عندها لحامل بكالوريوس التجارة ستجرى مسابقة للمتقدمين منهم لهذه الوظائف ؛ فتقدم الجميع آملين أن يكون لهم من هذه الوظائف نصيب .

ثم أعلنت الوزارة عن المسابقة وحددت لها تاريخاً وساعة معينة فى ذلك التاريخ . كما حددت

مكاناً معيناً هو ديوان وزارة المالية ؛ فاستعد طاهر لهذه المسابقة . فلما جاء اليوم المحدد فوجىء طاهر بأن هذا اليوم المحدد بالتاريخ يوافق يوم الجمعة وأن الساعة المحددة هى الساعة الثانية عشرة ظهراً ... ومعنى هذا أن الذين سيحضرون هذه المسابقة سيتركون صلاة الجمعة، فاغتم طاهر لذلك وعزم على أن يذهب قبل الميعاد بساعة إلى ديوان الوزارة ليتقدم بشكوى إلى الوزير ضد هذا الموظف المستهتر الذى حدد هذا الميعاد ، ويطلب منه تأجيل هذا الميعاد حرصاً على أداء صلاة الجمعة ...

وذهب طاهر إلى ديوان الوزارة ، واستفسر عن اسم الموظف الذى حدد الميعاد ففوجىء بأن الذى حدد الميعاد هو الوزير نفسه ، وأنه هو الذى سيمتحن المتقدمين للمسابقة بنفسه .. فطلب مقابلته فلما دخل عليه شكا له طاهر من أن هذا الموعد سيضيع على من يحضرون المسابقة صلاة الجمعة وطلب منه تأجيله إلى ما بعد صلاة الجمعة . فرد عليه الوزير رداً وقحاً فيه كل الاستهتار والاستهزاء بالدين وبصلاة الجمعة وبالصلاة على اختلافها . فثار طاهر عليه ولعنه وألقى بخطاب الوزارة فى وجهه وخرج تاركا هذه المسابقة لهذا الوزير الوقح البذىء المستهتر ... وجاء فى المساء إلى المركز العام وقص علينا القصة .

أتعرف أيها القارىء من هو هذا الوزير ؟ إنه الدكتور أحمد ماهر ....

وبأى مقياس قاسه طاهر عبد المحسن ... وبأى ميزان وزنه ؟ إنه بمقياس الفكرة الإسلامية وميزانها الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقد شاء الله أن يكشف لنا حقيقة هذا الرجل مبكراً ... فكثير من الناس لا يصلون .. ولكن أحدهم حين يواجه بهذا يقر بخطئه وتشعر بأنه فى خجل من هذا الخطأ ... أما هذا الرجل الذى هو فى منصب وزير وليس فوقه سلطة تلزمه بتحديد ميعاد فى وقت معين فيقوم متطوعا مختاراً بتحديد اليوم بيوم الجمعة وتحديد الساعة بالثانية عشرة ظهراً ... ثم يواجه بهذا الخطأ فيكشف عن أنه اختاره متحدياً شعور المسلمين الذين ينتسب إليهم زوراً وبهتاناً . مثل هذا الرجل هو من أشارت إليهم الآية الكريمة «وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» وقوله تعالى «أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله »

الماسونية :

يلزمنا سياق الحديث ونحن نكشف اللثام عن شخصية أحمد ماهر أن نلقى بعض الضوء على

الماسونية حتى يكون هذا الإسم أوهذا الاصطلاح ذامدلول عند القارىء ..

ولفظ الماسون كما يفهم من لفظه الفرنسي فيه معنى البناء وقد نشأت الماسونية فى أوربا وأطلقت على نفسها هذا الإسم مدعية أن الماسونيين هم البناة الأحرار وكان ذلك منذ أكثر من قرن من الزمان وهى فكرة يهودية من الأفكار التى وضع اليهود أسسها بعد أن حددوا أهدافها الحقيقية التى احتفظوا بها لأنفسهم ولكنهم أعلنوا لها أهدافاً أخرى لاتمت إلى هدفها الحقيقى بسبب . فأهدافها المعلنة هى :

«أنهم يريدون إيجاد أخوة عالمية تذوب فى غمارها فوارق العقيدة والقومية والوطنية» وهذا الهدف يبدو للرجل الخالى الذهن القليل التجارب هدفاً إنسانياً رائعاً تهفو إليه النفوس وتتهافت عليه القلوب ... إنها إخوة إنسانية رفيعة .

ولكن هاك حقيقة هذا الهدف .:

إن خطورة هذا الهدف إنما تكن فى نصفه الأخير الذى يقول :تذوب فى غمارها فوارق العقيدة والقومية والوطنية » .

فالإسلام إنما جاء وهدفه هو إيجاد أخوة عالمية «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا »ولكن إذابة فوارق العقيدة والقومية والوطنية هى بمثابة الديناميت لهذا الهدف كمن يبنى صرحاً شامخاً ويضع فى أساسه ديناميتاً يكفى لنسفه ونسف ماحوله من صروح ... وتوضيحاً لذلك أضرب المثل التالى :

إذا كنت ماسونياً مسلماً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك فى الماسونية ولوكان غير مسلم أو كان ملحداً على إخوتك فى الإسلام ..

إذا كنت ماسونياً مصرياً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك فى الماسونية ولو كان غير مصرى على إخوانك فى الوطنية .

إذا كنت ماسونياً عربياً فأخوتك العالمية هذه تقتضيك أن تفضل أخاك فى الماسونية ولو كان غير عربى على إخوتك فى القومية العربية .

ومعنى هذا بأسلوب أوضح إذا كنت عربياً مصرياً مسلماً وكنت ماسونياً وطلب إلى المصريين مقاتلة الإنجليز المستعمرين لإخراجهم من مصر فإذا رأيت هؤلاء الإنجليز المستعمرين لبلادك إخواناً لك فى الماسونية فعليك فى هذه الحالة أن تفضل هؤلاء الإنجليز على بنى وطنك وأن

لاتقاتلهم بل عليك أن تعمل على ما فيه مصلحتهم وإن كان فى ذلك قضاء على مصالح بلادك وعلى تحريرها . وإذا قيل لك إن اليهود فى فلسطين قد قتلوا المسلمين والنصارى وانتزعوا أرضهم وعليك أن تقاتلهم ثم وجدت أن هؤلاء اليهود إخوان لك فى الماسونية فهم عندك أفضل من المسلمين والنصارى أصحاب البلاد وأصحاب الأرض وأصحاب الحق وكنت فى جانب اليهود وضد أهل دينك وقوميتك وأهل الحق .

ومعنى هذا على المستوى الواقعى أن شعباً تنتشر فيه الماسونية سيكون شعباً متخاذلا متفككاً لا يدافع عن نفسه ولا يطالب بحقوق وطنه ولا يستجيب لنداء دينه .

فإذا كان أفراد من الماسونيين فى هذا الشعب المهيض الجناح ذوى مناصب مرموقة وذوى نفوذ وسلطة فإنهم سيكونون أشد بلاء على بلادهم وعلى قومهم وعلى دينهم لأن ماسونيتهم تهيىء لهم فرص التواطؤ مع الأعداء على بلادهم وقومهم ودينهم ، إذا ما كان هؤلاء الأعداء من الماسونيين

وواضعو أسس الماسونية تواطئوا فى وضعها مع الطبقات الحاكمة فى دول أوربا على أن تكون الماسونية فى خدمة أغراضهم وعلى أن يكون الشرق الإسلامى بما فيه من كنوز وخيرات هدية تقدم اليهم بين يدى أطماعهم واستغلالهم ، ففى عصر الاستعمار الذى كانت انجلترا فيه رائدة ركبه كان رؤساء وزاراتها ووزراء خارجيتها من الماسونيين ، فهم يخدمون أغراض اليهودية العالمية من ناحية باعتبارها صاحبة الفضل عليهم وعلى بلادهم ولأنها من ناحية أخرى هيأت لهم عن طريق الماسونية بلاد الشرق ليلتهموها لقمة سائغة على أساس نشرهم الماسونية فى ربوع هذا الشرق الغافل .

<u>الطريقة العملية للماسونية</u> : وليست الماسونية نظريات تدرس ويتجادل حولها ولا أفكار صاغها مفكرون لمجرد أن تكون غذاء فكرياً كدأب النظريات والأفكار التى تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، بل إنها نظام عملى وضع للتنفيذ من أول يوم وضع فيه والذين وضعوه حاكوا بوضعه مؤامرة خطيرة ضد نظام هذا العالم المتماسك لتقويضه من أساسه وتحويله إلى ألعوبة فاقدة الإرادة فى يد اليهودية العالمية التى هانت على نفسها وعلى العالم ، فلا هى بعددها المحدود تستطيع أن تخضع العالم لإرادتها ، ولا هى مستطيعة أن تقنع بنصيبها فى الحياة باعتبارها أقلية من الأقليات . وإذن فلا سبيل أمامها لتحقيق أطماعها إلا بحبك مؤامرات لتفكيك أواصر هذا العالم حتى تتمكن من تحقيق أطماعها وترضى دفين أحقادها .

ويقوم النظام الماسونى على السرية المطلقة وعلى أساليب الإيحاء والإحاطة بهالات من الأوهام وعلى الرموز والألقاب التى اشتق أكثرها من المعابد اليهودية .

وقد لايكون هذا مقام تفصيل هذا النظام ، وحسبنا مجرد الإشارة إلى أسسه التي يقوم عليها حتى تتاح فرصة أخرى للافاضة في شرحها ، ولنعد إلى الحديث عن الشخصية التي تطرق الحديث عنها وإلى إلقاء بعض الضوء على الماسونية وآثارها في بلادنا فنقول :

إن الماسونية قد غزت مصر والبلاد العربية منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وساعد على غزوها هذه البلاد وجود الاستعمار ووجود جاليات من اليهود بعضهم من أهل البلاد وبعضهم الآخر قدم من أوربا ... وكان هؤلاء اليهود لا سيما الأجانب منهم هم نواة المحافل الماسونية في مصر والبلاد العربية (المحفل الماسوني هو النادي أو المقر الذي يجتمع فيه الماسونيون في بلد من البلاد أو في حي من أحياء عاصمة كبيرة ، وغير مسموح لغير أعضائه بدخوله . وإذا دخلته وجدته صورة طبق الأصل من المعبد اليهودي حيث ترى المذبح والقناديل والتراتيل والملابس الرسمية السوداء) .

وقد رأى الغازون أن يكون اليهود الأجانب نواة هذه المحافل لأن هذا الصنف من اليهود كانوا يمثلون أرفع المراكز الأدبية والمادية في البلاد ففي الوقت الذي كانوا يسيطرون فيه على اقتصاد البلاد ومرافقها كانوا يتمتعون بقسط لابأس به من العلم والثقافة ، وكانو باعتبارهم أجانب في بلد مستعمر طبقة متميزة يتمنى الكثيرون من أهل البلاد أن يجدوا لهم مكاناً بالقرب منها.

وتهافت الكثيرون من سكان الريف والمدن على التمسح بهذه الطبقة . فوجدت هذه الطبقة الفرصة المواتية لتختار من بين هؤلاء المتهافتين المجموعة التي جاءت الماسونية لاصطيادها ، وهما طائفتان :

١ – طائفة خلاة الأذهان ، طيبو القلوب ، سريعو الاستجابة ، طيعو الانقياد من أعيان الريف وتجار المدن .

٢ – طائفة المثقفين ذوي الأطماع الذين لايتقيدون بدين ولا يتمسكون بمبدأ و لايعترفون بمثل ....

وتكونت المحافل في أنحاء البلاد لا سيما في العواصم التي تؤثر في الحياة الاجتماعية والحياة السياسية في سائر البلاد .. والأسلوب المتبع هو أن يشعر كل هؤلاء المنتسبين إلى الماسونية من الطائفتين بمزايا ملموسة لهذا الانتساب ، فهناك في جميع المحافل إشارات سرية يتعلمونها ، فإذا دخل عضو ماسوني متجراً أو مصنعاً أو محكمة أو إدارة حكومية وكان له حاجة يرجو

قضاءها ، فما عليه إلا أن يؤدى هذه الإشارة فاذا رأى من يبادله مثلها علم أنه أخوه فى الماسونية ولقضى حاجته فوراً ويقدم على غيره مهما كان غيره أحق منه .

وكثيرون من التجار والزراع والصناع والموظفين ، حسنت أحوالهم وأخذ بأيديهم إلى أعظم الأوضاع وأرقى المناصب عن هذا الطريق .. وضمن قادة الماسونية بذلك وجود قاعدة عريضة لهم فى أحشاء الشعب تدين لهم بالولاء وتسبح لهم بالحمد .

ولما كانت الناحية السياسية فى ذلك الوقت وفى تلك البقعة من العالم هى بيت القصيد ، فقد عكف القادة الموجهون على العناية بعدد من أفراد الطائفة الثانية لهم صلة بالأحداث السياسية ، فهدوا لهم أسباب البروز – وكانت إذ ذاك فى أيديهم – وفتحوا أمامهم طريق المناصب العليا فى الدولة حتى وصلوا بهم إلى حيث ينتهى إليهم توجيه السياسة فى البلاد ، فوجد الشعب هؤلاء يتصدرون إدارة الحكم فى البلاد دون أن يعرف كيف كان وصولهم لا سيما و الأصابع الخفية للماسونية تحرق البخور أمامهم وتنفخ فى أبواق المجد من خلفهم والشعب الذى لا يدرى من أمر نفسه شيئاً مأخوذ بهذه الهالات التى أحيط بها هؤلاء الصنائع المدسوسون عليه والمزورون فى الانتساب إليه .

القطب الأعظم : ومن هذه الشخصيات «أحمد ماهر» فقد تولوه يافعاً وعكفوا على العناية به شاباً وكهلا حتى وصلوا به فى مراتب الماسونية إلى أعلاها فقد صار «القطب الأعظم» ، كما وصلوا به فى مناصب السياسة حتى صار «رئيس الوزراء» .

وإنه لما يثير الأسف والإشفاق معاً على شعبنا المصرى وشعوبنا العربية أنها لم تكن حتى ذلك الوقت تنظر إلى الماسونية نظرة تشوبها أيه شكوك أوريب بل إن بعض المنتسين إلى الماسونية – كانوا يخرجون على ماتعهدوا به من الكتمان – ويذكرون لذويهم والمحيطين بهم على سبيل الفخر أنهم ماسونيون ويجدون فيمن حولهم من يغبطونهم على هذا المقام العظيم .

والله وحده يعلم كم من المزايا حققتها الماسونية العالمية لحلفائها المستعمرين على حساب مصالح بلادنا عن طريق هؤلاء الذين توفرت على تغذيتهم والعناية بهم وفتح الطريق أمامهم حتى بوأتهم أعلى مناصب الدولة دون أن يحس الشعب التائه المسكين .

ولم يكن أحمد ماهر وحده هو الذى تبنته الماسونية العالمية بل إن هناك كثيرين غيره قد وصلوا إلى مناصب الوزراء عن هذا الطريق ومما يؤسى له أن بعض هؤلاء كانوا من أسر ذات سمعة دينية وكانوا من علماء الأزهر الشريف ...

ونتقل للقارىء هنا ما نشرته جريدة الأهرام فى ٢٠-٣-١٩٤٥ بعد اغتيال أحمد ماهر تحت عنوان : «وفد الماسونية السورية واللبنانية» :

«قدم إلى القاهرة وفد يمثل الماسونية فى سوريا ولبنان لحضور حفل التأبين التى ستقام للمغفور له الدكتور أحمد ماهر باشا بوصفه « القطب الأعظم » للمجلس الماسونى السامى فى مصر وملحقاتها وهى سوريا ولبنان والبلاد العربية — وهذا الوفد مؤلف من الأساتذة حسين اللاذ وإلياس فازان وخليل النصولى وميشيل حداد ومترى الصدى — وقد نزل حضراتهم ضيوفاً على المحفل الأكبر الوطنى المصرى» .

ولا أنكر أن الأيام تطورت بعد ذلك وعمل التاريخ عمله وجاء قوم ممن تعلموا فى مدرسة الإخوان المسلمين ففهموا الحقائق التى يجهلها الشعب عن الماسونية وغيرها ، وتصدروا منصة الحكم فى مصر فألغوا الماسونية باعتبارها أداة للاستعمار ... غير أن كل ما فعلوه لهذا الإلغاء هو صدور أمر أو قرار بذلك دون أن يستأصلوا جذورها أو يلغوا ماخلفت من آثار جعلت الشعب يشعر حتى اليوم أنه يعيش فى حياة متناقضة فالماسونية تلغى ولكن تمجيد قادتها مازال أمراً واقعاً فالمؤسسات لازالت تحمل أسماءهم والشوارع والميادين تسمى بأسمائهم .

على هامش قضية اغتيال أحمد ماهر :

تولى رياسة الوزارة بعد مقتل أحمد ماهر زميله وصديقه وظله محمود فهمى النقراشى فأمر بإحالة القضية إلى المحكمة العسكرية العليا برياسة محمود منصور بك وعضوية حسن حمدى بك واثنين من العسكريين ... وقد ترافع عن المتهم على بك بدوى فدافع دفاعاً رائعاً ، ودفع بعدم اختصاص القضاء العسكرى . وتبين أن المتهم كان منتسباً إلى شباب الحزب الوطنى .

وفاجأ المتهم المحكمة بأنه يطلب النقراشى شاهد نفى فسألته المحكمة عن أسباب ذلك فقال :

أولا : إن دولته يعلم أن الحرب كانت ستعلن هجومية وترسل قوات إلى الشرق الأقصى وأوربا ، وأن هذ الوضع تغير بعد ارتكاب الحادث .

ثانياً : أن إعلان الحرب كان بناء على تدخل الإنجليز وكان أحمد ماهر والنقراشى عند السفير البريطانى فى يوم الحادث مما يدل على أن هناك تدخلا من الإنجليز فى شئون مصر الداخلية .

ثالثاً : أن النقراشي قال لي شخصياً إن الحكم في هذه القضية سيكون رادعاً .

وقام علي بك بدوي وأيد هذا الطلب .

من دفع علي بك ضد القضاء العسكري : جاء في دفع علي بك بدوي بعدم اختصاص القضاء العسكري نظر هذه القضية ما يلي :

«إنه لا يجوز نزع المتهم من قضاته العاديين الطبيعيين وهم قضاة محكمة الجنايات ، وليس معنى هذا أنني أشك في القضاء العسكري أو أفاضل بينه وبين القضاء العادي ، وإنما في القضاء العادي وسائل تجعل المتهم أكثر اطمئناناً ، وفيه ضمانات لحرية دفاعه والتأني في محاكمته .

وفي القضاء العادي أربع درجات هي الإحالة ومحكمة الجنايات ومحكمة النقض ومرتين في بعض الحالات . والإحالة مرحلة مهمة ؛ فقاضي الإحالة ليس قنطرة كما يراه البعض ، بل هو يملك بنص القانون تعديل وصف التهمة ، وقد يكون هذا التعديل في صالح المتهم .

ثم إن المحكمة العسكرية تستطيع أن تحكم بالإعدام مثلا غيابياً ، وينفذ الحكم عند اعتقال المتهم دون سماع دفاعه . أما القضاء العادي فيظل الحكم معلقاً حتى يقبض على المتهم فيسقط الحكم وتعاد محاكمته من جديد . . فالمتهم قد حرم من كل هذه الدرجات .

ثم إن نظر القضية أمام المحكمة العسكرية يؤدي في النهاية بعد الفصل فيها إلى شيء من الحرج ، فقد يكون هناك وجه بنقض الحكم الصادر بالإعدام مثلا وبه أخطاء تستدعي نقضاً ، فترى النيابة حرجاً من الإشارة إلى هذا الخطأ ، كما يرى دولة الحاكم العسكري حرجاً في إلغاء الحكم إذا تبين له خطؤه نظراً لصلة الصداقة الوثيقة بدولة القتيل ، فالمتهم لا يطمئن إليه كسلطة نقض نظراً لما يربط بينه وبين الفقيد من الصلة القوية ، ولحرصه على أن تكون العقوبة رادعة شديدة ، فهو لا يرضى لنفسه هذا الموقف ففي قبول الدفع رفع الحرج الشديد عنه » .

وكان تكوين هذه الدائرة وإسناد رياستها إلى محمود منصور بك ذا دلالة خاصة ربما وضحت هذه المذكرات ذلك في مواضع قادمة إن شاء الله حتى إن المتهم ألح في طلب إحالة القضية إلى دائرة أخرى وقال إن هذه الهيئة أصدرت حكماً في قضية مشابهة استبعدت فيه الصفة السياسية للجريمة بل اعتبرت هذه الصفة ظرفاً مشدداً ...وقد رفضت المحكمة هذا الالتماس مما اضطره إلى التقدم بطلب رد المحكمة وقد رفضته المحكمة أيضاً .. وطلب المتهم شهادة النقراشي والنحاس وعلي ماهر ومكرم عبيد وحافظ رمضان والدكتور محمد هاشم وعبد العزيز الشوربجي وفتحي رضوان والأستاذ حسن البنا . ورفضت المحكمة هذا الطلب في أول الأمر فلما هدد علي بك بدوي بالانسحاب

وافقت على دعوتهم فلما حضروا قررت سماعهم فى جلسة سرية وقد احتج على بك على ذلك ولكن المحكمة أصرت .

وعلى العموم فإن هذه القضية والأساليب التى اتبعت فى إجراءاتها كانت وصمة عار فى جبين القضاء المصرى فحسبك أن تعلم أن قضية حول المتهم فيها اتجاه الحكومة الذى كان مبيتاً مع السفير البريطانى من إعلان حرب هجومية على المحور إلى حرب دفاعية وأدلى بالشهادة فيها جميع زعماء البلاد ، هذه القضية لم يستغرق نظرها أمام هذه الدائرة إلا نحو أسبوعين ، فكأنما كانت هذه الدائرة مجرد بوق لتنطق بالحكم الذى هدد به رئيس الحكومة النقراشى المتهم عندما قابله فى أثناء تحقيق النيابة معه ... وخير ما نلخص به هذه القضية وهذه الدائرة أن نثبت هنا ما ختم به الأستاذ الكبير على بك بدوى مرافعته التى استغرقت ثلاثة أيام حيث قال :

«وهناك كلمة أخرى أريد أن أقولها وهى أنه متى تجتمع روح الفقيد وروح هذا الشاب أمام الله فإنه سيحكم بينهما بعدله المطلق دون فارق بين هذا وذاك ... وقد تقدمت لحضراتكم بدفع شكلى وبدفاع موضوعى . ودفاعى فى الموضوع كله ظروف تبرر إنقاذ المتهم من الإعدام ؛ فإن قضيتم على دفعى الشكلى وحكمتم برفضه فإنى سأبكى المبادىء القانونية أحر البكاء ، وإن نبذتم دفاعى وقضيتم بإعدام هذا المتهم فإنى سأبكى من بعده أخلاقه النبيلة وحال هذه الأمة التعسة » .

الباب الرابع

في ميدان الحاكمية الجديدة

في الدولة الجديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الفصل الأول

وصول الدعوة إلى قمة النفوذ الشعبى

مقـــدمة

بحلول عام ١٩٤٤ كانت الدعوة قد وصلت إلى أوج الذيوع والانتشار ؛ فلم يعد مكان فى مصر يخلو من شعبة ، كما أصبحت الجامعة والأزهر قلعتين من قلاع الدعوة ، وصار للدعوة وجود فى كل بلد عربى ، كما صارت البلاد الإسلامية الأخرى تعتبر الإخوان فى مصر قيادة لها .. صار الإخوان فى مصر أعلى صوت شعبى ، وصار لهم أقوى نفوذ على مستوى الأمة بأسرها : ؛ وذلك كما أشرت من قبل بفضل التكتيك البعيد المدى الذى حصن الأستاذ المرشد به خطوات الدعوة حيال الجبهات المختلفة الحاكمة .

اتجه الجميع يخطبون ود الدعوة ، وينثرون الزهور فى طريقها ، وحاول الكثيرون من الشخصيات البارزة أن يجدوا لهم أماكن فيها ، ولم تعد ترى المركز العام فى ليلة من الليالى خالياً من وفد يمثل بلداً عربية أو إسلامية ... حتى أبناء الأسر الأرستقراطية بدأوا يتطلعون إلى أماكن لهم فيها ، وما كان للدعوة أن ترفض أى إنسان يتقدم إليها «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» .

ومن النماذج الفردية التى خطبت ود الدعوة فى ذلك الوقت ، وكانت ملفتة للنظر ومثيرة للاستغراب الأستاذ عباس محمود العقاد ؛ فقد كان معروفاً عنه أنه رجل يختط لنفسه فى الحياة خطاً لا يلتقى مع الدعوة فى يوم من الأيام ..وجدنا هذا الرجل يتقرب إلى الدعوة ويمد لها يده ، ويدعو سعيد رمضان إلى بيته ويطلب إليه أن يبلغ الأستاذ المرشد إجلاله واحترامه ، وأنه يرى فيه أعظم شخصية لمصلح ، وأن هذه الدعوة هى الأمل الوحيد الذى يجب أن تكرس له كل الجهود حتى تنقذ البلاد من الاستعمار الداخلى والخارجى .

ويأتى سعيد فيبلغنا ذلك فنتعجب ، ونزداد تعجباً حين يذكر لنا أن العقاد منفعل بالدعوة كل الانفعال وأنه اتصل به عن طريق « مكوجى» كان يكوى الملابس للعقاد فسأله العقاد : ألا تعرف سعيد رمضان ؟.. فقال إنه يكوى ملابسه عندى وأعرفه ، فطلب إليه العقاد أن يعرفه

بسعيد ... ويقول سعيد إن العقاد استحلفه أن يكثر من زيارته وأن لا ينقطع عنه لأنه يريد أن يسمع منه الكثير عن الإخوان المسلمين

حديث الثلاثاء :

ظل الأستاذ المرشد مواظباً على إلقاء حديث الثلاثاء من أول يوم عرفت فيه دار الإخوان سنة ١٩٣٦ ، ولعله كان مواظباً عليه قبل ذلك ... ولقد كنت أحضر هذا الحديث فى المركز العام فى شارع الناصرية ولا يكاد يتعدى عدد الحاضرين فيه أصابع اليدين ، وقد أشرت إلى الوسائل التى كان الأستاذ يلجأ إليها محاولا جذب انتباه سكان هذه المنطقة من حى السيدة زينب إلى دار المركز العام لعل عدد من يحضرون هذا الحديث يتضاعف ، ومع ذلك كله لم يتضاعف .

وبانتقال المركز العام إلى ميدان العتبة ازداد عدد من يحضرون هذا الحديث أو المحاضرة فكان فى بعض الأحيان يزيد على المائة ، ولما انتقل المركز العام إلى ميدان الحلمية الجديدة فى الدار الأولى تضاعف العدد فكان يصل إلى المائتين والثلاثمائة فلما اشترى الإخوان قصر آل «أبو حسين» وهو المبنى المقابل لهذه الدار – ضاقت الداران بفناء يهما وحجراتهما بمن يحضرون هذا الحديث فاحتشد أكثر الحاضرين فى الميدان والشوارع المحيطة بالدارين وصار حديث الثلاثاء شيئاً آخر ؛ تحول إلى مؤتمر كالمؤتمرات التى كان يعقدها الإخوان كل عام أو كل عامين ولكنه يعقد كل أسبوع ، ويحضره أكثر ممن كانوا يحضرون المؤتمر السنوى . وتمثل فيه شعب القاهرة – على كثرتها – كما يفد إليه الكثيرون من الأقاليم ، وأصبحت تناقش فيه قضايا الساعة .. ولذا فإن صدى هذا المؤتمر الأسبوعى كان يتردد فى جنبات جامعة القاهرة ، فيصل صداه إلى جامعة الإسكندرية ، وتجد الجامعتان تجاوباً من الأزهر العتيد ؛ كلها تنشد نغمة واحدة ، وتضرب على وتر واحد ، هو نفسه الذى تطرب له جنبات الوادى من أقصاه إلى أقصاه ، ثم ترتد النغمة المرسلة – بعد سياحتها الطويلة – إلى مصدرها فى المركز العام للإخوان الذى صار بالنسبة لمصر مركز الثقل الذى تنتهى إليه الآمال أو مركز الدائرة ينبعث منه الإشعاع .

لقد كان مآل إليه حديث الثلاثاء فى أواسط الأربعينيات مفاجأة خامت قلوب الإنجليز والقصر والأحزاب ... ماكانوا يعتقدون أن هذا الرجل ذا اللحية السوداء ، المدرس الابتدائى ، الذى رضى لنفسه أن يخرج مهزوماً من معركته مع الأحزاب الملكية حين قررت نقله إلى قنا ، ومن معركته مع الوفد حين قرر ترشيح نفسه فى دائرة الإسماعيلية لمجلس النواب ... ما كانوا يعتقدون أنه قادر على انتهاز فرصة انشغالهم ، بالكيد بعضهم لبعض ، فيفعل بهذا الشعب ما يشبه

السحر حتى استطاع أن يصهره بمختلف أحزابه وطوائفه فى بوتقة أفكاره ومبادئه وأخرج منه صفاً كالبنيان المرصوص .

لم يعد فى مصر من يستطيع أن يجمع حوله كتل هذا الشعب شبابه وشيبه ، رجاله ونساءه وأطفاله غير حسن البنا ... لم يعد أى حزب من الأحزاب أو هيئة من الهيئات حتى الوفد يستطيع أن يحظى فى مؤتمر مهما حضر له شهوراً بعدد من الناس يعادل عدد من يحضرون حديث الثلاثاء كل أسبوع بغير تحضير وبغير دعوة ... حتى الحفلات التى يقيمها الملك فى ليالى شهر رمضان ويدعو إليها الشعب ليسمعوا مشاهير القراء وليجلسوا على الأرائك الوثيرة وتقدم لهم أطيب المرطبات ... حتى هذه الحفلات لا تحظى بمثل العدد الذى يحضر حديث الثلاثاء بغير دعوة وبدون مقاعد .

إن حديث الثلاثاء كان وحده كافياً أن يكون مقياساً صادقاً أقر بصدقه الجميع حكومة وقصراً وهيئات وأحزاباً يدل على قوة الإخوان وعلى أنهم أصبحوا من القوة بحيث لا يستطاع مواجهتهم ولا حتى منافستهم .

من أراد أن يرى الشعب كله بجميع طوائفه وطبقاته ومثقفيه وتجاره وصناعه وفلاحيه وعماله ورجاله ونسائه فليس أمامه إلا منصة واحدة إذا وقف عليها وتطلع من فوقها رأى هذا الشعب هى منصة حديث الثلاثاء .

الجوالـــة :

وكما تطورت محاضرة الثلاثاء أو حديث الثلاثاء حتى صارت مؤتمراً حاشداً ضاقت به الأمكنة على اتساعها ، فازدحمت بمن يحضرونه الشوارع وقوفاً على أقدامهم الساعة والساعتين بلا ضجر ولا تأفف ، فكذلك تطورت جوالة الإخوان المسلمين حتى صارت جنداً كثيفاً يفرح لرؤيته قلب كل مؤمن ، ويحترق غيظاً وكمداً قلب كل متكبر حقود .

منذ دخل نظام الكشافة مصر ، كانت الفرق التى تنشأ لا تضم الفرقة الواحدة منها إلا صنفاً واحداً وطبقة واحدة ففى المدارس فرق كلها طلبة وفى المصانع فرق كلها عمال . وفى النوادى فرق للطلبة وفرق أخرى للعمال ؛ ذلك أن الطلبة يرون أنفسهم صنفاً أرقى من العمال فهم يستنكفون أن تجمعهم والعمال فرقة واحدة .

أما فرق جوالة الإخوان المسلمين فترى فى الفرقة الواحدة الطالب بجانبه العامل ،والفلاح بجانبه المدرس ، والتاجر بجانبه إمام المسجد ، والصانع بجانب المهندس ، والمرءوس بجانبه الرئيس والشاب بجانبه الشيخ ؛ ذلك أن هؤلاء جميعاً على اختلاف أسنانهم ومؤهلاتهم ومهنهم

وطبقاتهم الاجتماعية والاقتصادية . والثقافية ، لم ينخرطوا فى سلك الجوالة إلا بعد أن صهروا فى بوتقة الدعوة الإسلامية ثم صيغوا من جديد صياغة نزعت من نفوسهم الأنانية والأثرة والكبر والتعالى . وأحلت محلها روح الأخوة والإيثار والتواضع والحب .

وإذا كانت فرق الكشافة والجوالة فى مختلف الأنحاء لا تتعدى أهدافها إسعاف غريق ومساعدة شيخ ضعيف وتجبير كسر ، فإن جوالة الإخوان المسلمين كانت أهدافها أبعد من ذلك مرمى ، وأشق طريقاً ؛ فكل جوال منهم نذر نفسه أن يكون فداء للمجتمع ، ويعتبر انخراطه فى سلك الجوالة طريق الإعداد ليوم الجهاد ..ولعل هذا هو الذى جعل الناس ينظرون إلى جوالة الإخوان المسلمين نظرة أخرى غير تلك التى ينظرون بها إلى الجوالة الآخرين .

ولو أنك شاهدت عرضاً لجحافل جوالة الإخوان المسلمين وهى تخترق شوارع القاهرة فى شجاعة ونظام وعلى رأسها الأخ الكريم سعد الدين الوليلى ، لأحسست بالفخر والاعتزاز أن أصبح للحق والفضيلة حماة أشداء وجنود أوفياء .

ولم تكن هذه الجحافل قاصرة على القاهرة وإنما كانت كل حاضرة فى القطر تعتز بجحافلها وتنساب منها روح الفخر والاعتزاز بالحق إلى أهلها ، ولم تخل شعبة مهما صغر حجمها وبعد مكانها من فرقة خاصة بها تجمع شبابها وشيوخها .

ولم يكن هؤلاء الجنود يحطمون الخمارات أو يقتحمون أماكن الفجور أو يتعقبون الأشرار والمفسدين ومع ذلك فإن الفساد والفجور والشر كان يتوارى خوفاً وفزعاً من هذه القوة التى علموا أنها من وراء الحق والفضيلة ، ولم يعد أحد ممن كانوا يجاهرون بالرذيلة يستطيع أن يرفع رأسه ، بل إن كثيرين من هؤلاء أقلعوا عن الشر وتابوا ، واتخذوا أماكنهم فى صفوف هذه الجحافل ... وصدق الله العظيم إذ يقول «لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون » و إذ يقول «عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم» وكان الأستاذ كثيراً ما يقول « لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق » .

أثر الجوالة فى نفوس الشعب : انقسم الشعب من ناحية تأثير الجوالة إلى الفئات الآتية

فئة كانت تحلم بأن ترى للايمان والحق والفضيلة قوة تحميها ، فلما تحقق الحلم ورأت بعينها هذه القوة سارعت إليها وانضوت تحت لوائها مقدمة نفسها ودمها ومالها فى سبيل تحقيق هذه الأهداف السامية ، وهذه الفئة كان منها الشاب والكهل والشيخ والفقير والغنى والأمى والمثقف وبعض هؤلاء كانوا من أنشط المنتسبين إلى الهيئات الأخرى والأحزاب .

وفئة أخرى كانت تائهة فى بيداء الحياة ، تتقاذفها الرياح وتلقى بها فى كل اتجاه ، وهى لاتعرف لنفسها اتجاهاً ولا مستقراً ، لم تجد فى توهانها من يمد لها يداً ولا من يضىء بين يديها مصباحاً ؛ حتى استفاقت على صوت هؤلاء الجنود يرج الأرض رجاً وإلى هتافاتهم تهز القلوب هزاً فأحسوا أن باباً كان مغلقاً قد فتح أمامهم إلى طريق أمن وأمان .. ولكثرة ما تقطعت بهم السبل من قبل خامرهم شىء من الشك فراودوا أنفسهم حتى اطمأنت فتقدموا إلى الصف واتخذوا أماكنهم فيه وأكثر هؤلاء من الكهول .

وفئة ثالثة من الشعب رضيت لنفسها من أول يوم أن تكون دائماً فى موقف المتفرج الذى يبدى رأيه فى كل ما يراه ولكنه — مهما أعجبه مايراه واقتنع به — لا يساهم فيه ؛ ومهما ساءه ما يراه لا يقاومه ، فهى فئة سلبية فى كل حال ... وهؤلاء حين رأوا جنود الجوالة من الإخوان ولمسوا فيهم القوة القادرة ومع ذلك لم يفعلوا ما فعلته فرق القمصان الزرقاء من التسلط على الناس وفرض الإتاوات عليهم ؛ أعجبوا بهم ، وكان مظهر إعجابهم التصفيق لهم فى أثناء عرضهم ، والإشادة بهم كلما جاء ذكرهم .. وتضم هذه الفئة ناساً من جميع الطبقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وهى الفئة الغالبة فى الشعوب المستضعفة التى قتل الاستعمار حيويتها .

وفئة رابعة من الشعب نشأت فى الرذيلة واستمرأتها حيث صارت الرذيلة مرتزقها وتضم هذه الفئة قطاع الطرق «والفتوات» والعاملين فى دور اللهو وروادها وأبناء الأثرياء والطلاب الفاشلين الذين ألقى بهم فشلهم آخر الأمر وسط عصابات اللصوص والقتلة ... وهذه الفئة هى التى دوخت رجال الأمن وغصت بهم السجون ومع ذلك فشرهم فى ازدياد ، والشعب منهم فى رعب وخوف .

هذه الفئة كانت نظرتها إلى جنود الإخوان نظرة واعية ؛ رأوا بأعينهم لأول مرة «فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » انتظموا فى هذه الصفوف تاركين أعمالهم هاجرين بيوتهم وراحتهم واضعين حياتهم على أكفهم فى سبيل دعوة الإصلاح والانقاذ . فقالت هذه الفئة لنفسها : إذا كان لا يفل الحديد إلا الحديد إذن فقد آن لنا أن نخلى الطريق لهذه القوة الجديدة وأن ندخل جحورنا حتى لا تجتاحنا جحافلها العاتية .

وهذا هو الذى حدث فعلا ؛ فكان فى قلب كل شرير ومجرم رهبة لا تفارقه من أنه إذا لم يكف عن شره فإن بطش هذه القوة سيصل إليه فى يوم من الأيام ... ومع ذلك فإن بعض هذه الفئة من كبار عتاتها كان منطوياً على قلب سليم غشى عليه ظلام الجهل والإهمال ، فكان فى ظهور هذه القوة الجديدة جلاء قلبه وشفاء بصره فاستجاب وانخرط فى سلك المؤمنين .

والفئة الخامسة والأخيرة هي فئة الحكام ومحترفي السياسة . وهؤلاء – في بلد لا يصعد فيها المستعمر إلى سدة الحكم إلا من تواطأ معه على صفقة خاسرة ضحيتها مصالح البلاد – هم أعداء كل إصلاح لا سيما إذا كان في هذا الإصلاح مظهر من مظاهر بعث روح الجد والفتوة والشجاعة في نفوس الشباب ... ولذا فقد كانت جوالة الإخوان غصة في حلوق هذه الفئة سواء منهم من كان في سدة الحكم ومن كان خارجه .

ولقد حاول من كان في الحكم منهم أن يوقف تيار هذه الروح الدافقة بتسليط رجال القسم المخصوص بوزارة الداخلية فاستعملوا معهم كل ما في جعبتهم من أساليب حتى إنه من طريف ماحدث في هذا الصدد أن قيادة الجوالة أعلنت في إحدى المناسبات عن استعراض يقومون به فاتخذ البوليس – وكان ذلك في القاهرة والاسكندرية – جميع وسائل المنع حيث حاصروا المركز العام وجميع الشعب ولكنهم فوجئوا بالاستعراض يدك شوارع القاهرة والإسكندرية في نفس الموعد المحدد ، وكان ذلك بأن القيادة أعطت أمراً سرياً بأن يتجه كل فرد من أفراد الجوالة إلى ميدان محدد في لحظة محدودة وهو بملابسه الملكية وفي حقيبته ملابس الجوالة . وفي اللحظة المحددة كان جميع الأفراد موجودين في هذا الميدان وأطلق القائد صفارته فخلع كل فرد ملابسه وارتدى ملابس الجوالة وانتظمت الصفوف وبدأ الاستعراض .

وهكذا وجد عتاولة وزارة الداخلية أنفسهم أعجز من أن يقفوا في وجه هذا التيار الإسلامي الجارف ، فأبلغوا سادتهم الحكام ؛ فبيت هؤلاء مع أولياء أمورهم الإنجليز خططاً بعيدة المدى سنعرض لها إن شاء الله في صفحات تالية .

مقياس في الزعامة الدينية :

بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، أخذت كل دولة في إعادة النظر في شأن مرافقها وسياستها الداخلية والخارجية . ورأت الحكومة المصرية أن تعيد النظر في سياستها التعليمية – وقررت وزارة المعارف أن تستعين بكبار العلماء المتخصصين فتسند إلى كل متخصص الفرع الذي تخصص فيه ليدرسه ويمحصه ثم يدلي بما عنده في مؤتمر يضم كبار رجال الفكر يعقد في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة على أن يخصص يوم لكل متخصص في فرعه .

علمنا نحن الإخوان بنبأ هذا المؤتمر حين أخبرنا الأستاذ المرشد بأن وزارة المعارف أرسلت إليه خطاباً تنبئه فيه بأنه قد وقع عليه الاختيار ليدلي بآرائه ومقترحاته في التعليم الديني وحدد له اليوم لإلقاء بيانه .. كانت نفوسنا تتوق إلى حضور جميع أيام هذا المؤتمر لنستمع إلى ما يلقى فيه

مما لا يخلو من فائدة ولكن تكاليف الدعوة وأعباءها لم تدع لنا فرصة لذلك ، ولكن كان لزاماً علينا أن نرافق الأستاذ المرشد فى يومه المخصص له فى هذه الجمعية .

ودخلنا القاعة التى لم نكن قد دخلناها من قبل، فوجدناها غاصة بكبار رجال الفكر عمداء الكليات وكبار رجال وزارة المعارف وزراء المعارف السابقون وكبار الأدباء والكتاب .. ولقد لفت نظرنا عند دخولنا الردهة المؤدية إلى القاعة أن وجدنا موظفى الجمعية والمسئولين عن تنظيم المؤتمر يستقبلوننا باهتمام ظاهر وشوق عظيم ويسألون عن شخصية الأستاذ البنا.. ولقد سألتهم لم هذا الاحتفاء المثير ؟ فقالوا :

إن هذه المؤتمرات تعقد كل يوم خلال الأسبوع ولم يكن يحضر فى كل يوم إلا عدد قليل من أصدقاء المحاضر أما اليوم فقد أدهشنا أن وجدنا كل رجال الفكر الذين لم يجتمعوا معاً من قبل قد بكروا بالحضور ، وكانوا حريصين على أن لا تفوتهم محاضرة الأستاذ حسن البنا فزادنا هذا شوقاً إلى رؤية هذا الرجل الذى أجمع كل رجال الفكر على تقديره .

ودخلنا القاعة وأخذنا مجالسنا وقام المسئول فقدم الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ليلقى بيانه عن التعليم الدينى .. ووقف الأستاذ المرشد على المنصة وبدأ بحمد الله وبتحية السادة الحاضرين ثم استهل محاضرته بكلمة هزت مشاعر الجميع حيث قال : «انتدبتنى الوزارة للحديث عن التعليم الدينى وليس من رأيى أن تهتم بالتعليم الدينى وإنما عليها أن تهتم بالتربية الدينية ثم أخذ فى شرح الفرق بين التعليم الدينى وبين التربية الدينية وقال إننا فى مصر لا يعوزنا التعليم الدينى فالأزهر يقوم بأداء هذه الرسالة منذ مئات السنين أما الذى يعوزنا حقاً فهو التربية الدينيـــــة .

وقال : إن ملء الرأس بالمعلومات الدينية ليس هو الذى يهذب الخلق ويوجد الوازع الذى يحث على الخير ويبعد عن الشر وإنما الذى يؤدى إلى ذلك هو التربية الدينية التى تعتمد أول ما تعتمد على القدوة الصالحة . وتحدث بعد ذلك عن التربية الدينية وأفاض فى الحديث عنها وضرب أمثلة لها من التاريخ الإسلامى .

ثم تحدث عما نسميه نحن «التعليم الدينى فى انجلترا» وبين أنه ليس تعليماً دينياً بل هو تربية دينية ، وشرح برامج هذه التربية الدينية فى مدارس انجلترا إلى ما قبل الحرب وما أدخلوه على هذه البرامج بعد الحرب من تعديل وبين دور الكنيسة فى مدارس الأطفال ، وما أضافته وزارة التربية والتعليم فى تلك البلاد من أعباء جديدة على كاهل رجال الكنيسة إزاء هذه المدارس ..

واستشهد بتقرير وضعته اللجنة الموكول إليها إصلاح التعليم فى مدارس إنجلترا ، وكان أبرز مافيه هو إلحاح اللجنة على مضاعفة الوقت المخصص للتربية الدينية فى المدارس على اختلاف درجاتها لأنه السبيل لوقاية الأجيال القادمة من الانحراف ولتأهيلها لتحمل أشق الأعباء .

ثم وازن بين إمكانيات التراث الإسلامى فى التربية وإمكانيات غيره من التراث والأفكار وأثبت تفوق التراث الإسلامى فى ذلك وثراءه الذى لا يجارى .

وكأن الأستاذ المرشد مقدراً أن الذين سيحضرون هذه المحاضرة هم الذين حضروا فعلا ، فقد أعدها إعداداً يناسب هذه المستويات ، فلقد كان فى محاضرته هذه أستاذ الأساتيذ حقاً ، لقد كنت أنظر فى وجوه هؤلاء الجهابذة فى أثناء إلقاء المحاضرة فأراها مأخوذة ذاهلة ، وكأن الجميع وهم علية القوم قد نسوا مكانتهم العلمية فى المجتمع وتحولوا إلى تلاميذ بين يدى أستاذهم .... وبعد انتهاء المحاضرة أقبل الجميع على الاستاذ المرشد يصافحونه بحرارة وعبارات الإعجاب تترى على ألسنتهم .. وكان أشد الحاضرين إعجابا الدكتور منصور فهمى عميد كلية الآداب ورائد الفلسفة فى مصر .

ومع كل هذا التوفيق وهذه الروعة وهذا الإعجاب الذى أبداه الجميع سواء بالقلب مرتسماً على قسمات وجوههم ، أو باللسان فى عبارات ترجمت عن القلوب ، فإن القاعة لم تخل من حركات معترضة على هذا الإجماع ، وهى وليدة حقد قديم لم تزده روعة المحاضرة إلا تفاقما ؛ ولعل الذى دفع صاحبه إلى الحضور اعتقاده أنه سيسمع كلاماً معاداً وأفكاراً فجة وحديثا عتيقاً بالياً كالذى دأب الناس على سماعه من علماء الدين ، فيشفى ذلك صدره ، ولكنه فوجئ بما لم يكن يحتسب ، فكانت منه هذه الحركة التى لم تزد فى هذا الجو الروحى الرائع عن أن تكون حركة سلبية ، حيث انسحب صاحبها عقب المحاضرة مباشرة وخرج من القاعة ، ولم يكن السيد هيكل وزير المعارف الأسبق يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك .. وإن كان ما بيته فى نفسه أكبر «وما تخفى صدورهم أكبر»

الأستاذ أحمد حسين :

بعد قيام الحرب الكبرى سنة ١٩٣٩ وبعد إعلان الأحكام العرفية فى مصر ، تعثرت خطوات حزب مصر الفتاة ... فلقد كان الحزب يعتمد على الجو المفتوح ، كما قام من أول يوم على أسلوب المجابهة المكشوفة .. وبهذا الأسلوب استطاع أن يحظى بإعجاب الشباب فجمع حوله منهم أعداداً كبيرة .. وكان الحزب يعيب على الإخوان الأسلوب الهادئ الذى يعتمد على الإقناع بالغاية

واتباع أسلوب التكوين والتربية ويرميهم بالضعف والجبن حين يتركون مواجهة العواصف ويعكفون على التربية والتكوين .

فلما فقد الحزب الجو المفتوح وجد نفسه مكتوف اليدين،وتوقف إنتاجه،وبدأالذين تجمعوا حوله ينفضون عنه ، فلما أراد الأستاذ أحمد حسين أن يتدارك الموقف بدأ يتحرك كما كان يتحرك فى الجو المفتوح فاعتقل ، وباعتقاله بدأ الحزب يتفكك ، فلما أطلق سراحه حاول الذين أطلقوا سراحه (الوزير فؤاد سراج الدين) أن يثيروا حول نزاهته الشكوك فأشاعوا أن سراج الدين منحه منزلا ومبلغاً من المال .. ولما كانت نفوس الناس فى الجو المغلق تتلقف أى كلام فقد أثرت هذه الإشاعة تأثيراً سيئاً فى الحزب فانفض أكثر الباقين حتى أقرب الأعضاء إلى أحمد حسين مثل فتحى رضوان وحماده الناحل ، وذهب فتحى رضوان إلى الحزب الوطنى وأسس مع الدكتور نور الدين طراف وبعض من شباب الحزب الوطنى «اللجنة العليا للحزب الوطنى» وأخرج مجلة اللواء الجديد .

ورأى أحمد حسين أن يتجه بحزبه اتجاها جديداً لعله يصادف من النجاح ما صادف الإخوان فأنشأ الحزب الاشتراكى الإسلامى وحاول بذلك استعادة ما فقدة من أنصار لكن حزبه الجديد لم يكن أحسن حظاً من حزبه السابق فحوله بعد ذلك إلى الحزب الوطنى الاشتراكى .

وحينئذ لم ير أمامه من سبيل إلا أن يلجأ إلى الاستاذ المرشد الذى كان يبادله الحب والإجلال فحضر إلى المركز العام أكثر من مرة ، وأخبرنا الأستاذ المرشد بأن الأستاذ أحمد حسين جاء ليعرض على الإخوان أن يتحد حزبه مع الإخوان ويعملا معاً وفى اتجاه واحد كما عرض عروضاً أخرى مشابهة لذلك ، ولكن الإخوان مع ثقتهم الكاملة فى شخصية الأستاذ أحمد حسين وفى نزاهته واستعداده الفطرى للالتزام بالفكرة الإسلامية فإنهم يرون فى شخصيات أتباعه نوعيات مهما قيل فى حماسها وفى وطنيتها فإنها لا تلتقى مع الفكرة الإسلامية فى كثير من نواحيها ، ولهذا رأى الإخوان أن يظل الأستاذ أحمد حسين فى حزبه ويعمل بوحى من مبادئه على أن يكون الإخوان من ورائه يدعمونه ويؤيدونه فى كل خطوة يرونها فى اتجاه دعوتهم ، وقد بر الإخوان بوعدهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

إحساس الوفد بخطورة الإخوان عليه :

لم يكن الوفد حتى إقالة وزارته التى وليت الحكم فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ يقيم للإخوان وزنا أكثر من أنهم جماعة دينية كسائر الجماعات الدينيه غير أنها جماعة نشطة على رأسها شاب

طموح يريد أن يظهر ، وحسبه تحقيقاً لطموحه أن يصل إلى مجلس النواب ..

وكان الوفد يثق فى نفسه أنه ممثل الشعب وارثاً هذه الثقة عن مؤسسه سعد زغلول ثقة لا يهزها أخطر الأحداث ولا أفدح الكوارث ... ألم ينسحب من مجلس إدارته ثمانية أعضاء من مؤسسيه ولم يؤثر ذلك فيه ، بل ظل كما هو .. وكل ما حدث بعد انسحابهم أن انقلب الشعب عليهم ، وحين أسسوا حزباً سموه حزب السعديين أطلق الشعب على حزبهم هذا «حزب السبعة ونص» احتقاراً لهم وتهويناً من شأنهم ؟ ... وحين خرج مكرم عبيد السكرتير العام للوفد على رئيسه مصطفى النحاس وألف «الكتاب الأسود» فى إظهار مثالب النحاس مؤيداً بالوثائق والأسانيدثم ألف حزباً سماه «حزب الكتلة الوفدية» لم يؤثر ذلك فيه أيضاً بل ظل صرحه كما كان شامخاً عالياً لا يطاول ولاينال ، وكل ما حدث هو تضاؤل صورة مكرم عبيد وحزبه وكتابه تضاؤلا مستمراً حتى صار نسياً منسياً ؟

وقد سقت هذه الأحداث لأبين للقارئ مدى ثقة الوفد فى نفسه وأنه البنيان الشعبى الأوحد الذى لا ينال ... وأنه لا يعنيه ولا يشغل باله إذا ما رأى أو سمع عن أحزاب تنشأ أو جماعات تتكون أو مؤتمرات تعقد أو حفلات تقام .. فهؤلاء جميعا فى نظره إن هم إلا أطفال يلعبون بجانب صرحه العظيم ، فإما أن يظلوا يلعبون حتى يشبوا عن الطوق فيشرفوا بدخول الصرح الشامخ وإما أنيتلاشوا ..وهكذا كان ينظر الوفد إلى الإخوان المسلمين وينتظر لهم إحدى النهايتين

وقد ظن الوفد أنه تغلب على هذا الشاب الطموح حسن البنا حين نصحه بالعدول عن ترشيح نفسه لمجلس النواب فانتصح ، واعتقد الوفد أنه قد استطاع أن يطوى هذا الشاب وجماعته تحت جناحه ، وأنه مهما تحرك فإن مجاله منحصر تحت هذا الجناح ... ثم أقيل الوفد الإقالة المهينة التى ظل بعدها نحو عامين يجمع ما تشتت من أمره ، ويلم ما تشعث من شئونه .. فلما استفاق من غشيته واسترد رشده ويقظته استيقظ على أحلام مزعجة .

استيقظ فوجد هذه الجماعة قد استفحل أمرها ، وتفاقم خطرها حتى غزته فى عقر داره ... إن رأس ماله الذى يعتز به ويفخر ويتيه هو هذا الشعب الذى لا يعترف إلا به – ومع كل ما تضافر عليه الملك والانجليز وأعوانهم من حيل وعنت ومؤامرات وإغراءات لم يستطيعوا أن يمسوا نفوذه الشعبى فى قليل ولا كثير – لكن هذه الجماعة قد استطاعت أن تشاركه فى رأس ماله وأن تقاسمه هذا النفوذ الشعبى العتيد .

والحكم على أن زعيما أو حاكما أو حزباً أو هيئة لها نفوذ شعبى لا يكون بادعاء ذلك ، ولا بالخطب الرنانة ولا بمقالات ضافية فى الصحف ولا بالمقدرة على شراء الأصوات فى الانتخابات

بأموال القصر ثم الوصول إلى الحكم عن هذا الطريق ، وإنما يعترف بالنفوذ الشعبى للحزب أو للهيئة التى تستطيع وهى فى صفوف الشعب أن تؤيد حكومة فتقوم فإذا سحبت تأييدها لها سقطت .

وقد دخل الوفد تجربتين أيقن بعدهما أنه لم يعد هو وحده الذى يحتكر النفوذ الشعبى وأنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى التوجية الشعبى :

أما التجربة الأولى فهى حين تقدم إسماعيل صدقى طالباً تأييد الإخوان لوزارة يؤلفها لمفاوضة الإنجليز لاسترداد حقوق البلاد ، وقطع على نفسه عهوداً بالتزام خطة رسمها له الإخوان ، وألف الوزارة فى ظل تأييد الإخوان ، وحمل الوفد علية حملة شعواء ، واستعدى عليه الشعب بجميع أساليب الاستعداء ، لكن ذلك كله لم يهز الوزارة ولم يؤثر فيها ... فلما رأى الإخوان أن إسماعيل صدقى بدأ يحيد عن الخطة التى رسموها له أعلنوا سحب تأييدهم له فقامت المظاهرات فى كل مكان ، واختل الأمن فى البلاد واضطرت الوزارة إلى الاستقالة .

وأما التجربة الثانية فهى حين أعلن النقراشى عزمه على عرض قضية البلاد على مجلس الأمن وتصدى له الوفد لمنعه من القيام بهذه الخطوة وألقى بثقله فى سبيل ذلك .. وشعر النقراشى بحرج موقفه فلجأ إلى الإخوان طالبا التأييد فأيدوه .. وبفضل هذا التأييد استطاع أن يواجه تحديات الوفد وأن يمضى فى خطوته إلى نهايتها .

تجربتان قاسيتان أقضتا مضجع الوفد ، وأحس بعدهما لأول مرة فى تاريخه أنه مهدد فى كيانه نفسه ، وأن سكوته على ذلك ضياع وهلاك .. إذن فليدع الوفد كل ما كان يشغله من أمر أعدائه التقليديين من أحزاب وقصر وإنجليز وليتفرغ للاخوان المسلمين .

ولما كانت هاتان التجربتان هما صلب الجهود الوطنية التى استؤنفت عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية لاستخلاص حقوق البلاد فى الحرية والاستقلال وإجلاء قوات الاحتلال ، فسوف نبين للقارئ فى الصفحات التالية إن شاء الله دور الإخوان فى هاتين التجربتين .

خطوات عملية لاستخلاص حقوق البلاد

أشرنا من قبل إلى أن إيذان الحرب العالمية الثانية بانتهاء كان حافزا لكل ذى حق دولى أن يستأنف المطالبة بحقة ، وكان على المصريين أن يهبوا مطالبين بحقوق بلادهم فى الحرية والاستقلال وإجلاء الجيوش المحتلة التى جثمت على صدرها زهاء السبعين عاماً فوقفت حائلا بينها وبين العلم والنور والحضارة والحرية والرخاء ومزقت وحدتها فجعلتها فرقاً وأحزاباً ووأدت مواهبها التى كانت كفيلة أن تبرزها فى مكان مرموق بين دول العالم وشعوبه .

ولما خرجت مصر من هذه الحرب ولا زال فى عنقها غل معاهدة سنة ١٩٣٦ فكان عليها أولا أن تحرر عنقها من هذا الغل فتنطلق بذلك فى عالم الحرية مع المنطلقين .. والفترة التى ساهم الإخوان خلالها فى المطالبة بحقوق البلاد بعد أن وضعت الحرب أوزارها قد استغرقت نحو أربع سنوات تولى الحكم فيها ثلاث وزارات أولاها وزارة النقراشى الأولى من مارس سنة ١٩٤٥ حتى فبراير سنة ١٩٤٦ وثانيتها وزارة إسماعيل صدقى من فبراير سنة ١٩٤٦ حتى ديسمبر سنة ١٩٤٦ ثم الثالثة وزارة النقراشى الثانية من ديسمبر سنة ١٩٤٦ حتى آخر سنة ١٩٤٨ .

وزارة النقراشي الأولى

تولى النقراشى رياسة الوزارة خلفاً لأحمد ماهر عقب اغتياله .. والنقراشى رجل قد يصلح لكثير من المناصب لكنه لا يصلح للعمل السياسى المتشعب لا سيما فى بلد مثل مصر كثير المشاكل والمتاعب يحتاج مع الإرادة والحزم إلى المرونة وسعة الأفق وبعد النظر .

ولكن هكذا كان . ورأى الإخوان أنفسهم أمام أمر واقع لا مفر منه ولا معدى عنه هو أن الأداة الرسمية التى لابد أن تطالب البلاد بحقوقها عن طريقها هى هذه الحكومة السعدية النقراشية

ومما يؤسى له وينبغى أن يعلمه القارئ أن هذه الحكومة قد جاءت إلى الحكم وارثة حقداً أسود على الإخوان المسلمين عن رئيسها السابق كان ذلك الرئيس يطوى عليه دون مبرر .. وسأكتفى بإيراد مثال واحد ينبئ القارئ عن مدى هذا الحقد وأسبابه ودواعيه :

حقد موروث دفين

كانت الكفة الأخرى فى ميزان السياسة المصرية فى ذلك العهد التى تحاول أن تعادل الكفة الشعبية التى يمثلها الوفد ، هى القصر متحالفاً مع حزب السعديين الذى يتزعمه أحمد ماهر والنقراشى وإبراهيم عبد الهادى والدكتور السنهورى ، وكان حزب الأحرار الدستوريين بزعامة الدكتور محمد حسين هيكل قد ارتضى لنفسه فى ذلك الوقت أن يكون ذيلا للسعديين .

ولما كانت وزارة الوفد التى تولت الحكم عقب حادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ قد استطاعت بأساليبها الدعائية وصحافتها الواسعة الانتشار أن تنسى الشعب مرارة هذه الحادثة ، رأى القصر بعد نحو سنتين من هذه الحادثة أن يذكر الناس بها ، تأليباً للشعب على الوفد ، فأوحى إلى عملائه السعديين أن يدبروا خطة لذلك .....

ورأى السعديون أنهم لكى يحققوا ذلك لابد لهم من أن يتعاونوا مع الأحزاب الأخرى والهيئات المختلفة ، فاتصلوا فى سرية تامة بالأحرار الدستوريين والحزب الوطنى والحزب الاشتراكى

ومجموعة أخرى من الأحزاب والهيئات كانت موجودة فى ذلك الوقت ، واستجاب الجميع إلى عقد اجتماع سرى لهذا الغرض ما عدا الإخوان المسلمين الذين رفضوا فى أول الأمر بدعوى أن فى مجموعة الأحزاب والهيئات التى استجابت الكفاية ولا يضرهم تخلف هيئة واحدة، لكن السعديين ألحوا إلحاحاً شديداً فاستجاب الإخوان أخيراً مكتفين بإيفاد أخ صغير كان إذ ذاك لا يزال طالبا بكلية الحقوق هو الأخ سعيد رمضان .

وانعقد الاجتماع فعلا فى ظل الكتمان برياسة الدكتور السنهورى ، وأخذ السنهورى يشرح المقصود من الاجتماع وهو أن تقوم الهيئات الحاضرة متضامنة بحركة عنيفة كظاهرة تذكر الناس بحادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وبأن الوفد جاء إلى الحكم على أسنة رماح الإنجليز ، ولا مانع من القيام ببعض التفجيرات لإيقاف حركة المواصلات لإثارة انتباه الجماهير ، ثم طلب السنهورى من ممثلى الأحزاب والهيئات الحاضرين أن يدلى كل برأيه ففعلوا وكان إجماعاً بالموافقة على اقتراح السنهورى ، فتهلل وجهه فرحاً ... وكان سعيد قد طلب أن يكون آخر المتكلمين وكان فعلا أصغر الموجودين سناً ومركزاً اجتماعياً ، فلما جاء دوره قال : إننى لا أوافق على هذه الخطة ولن يشترك الإخوان فى شئ منها . فكانت كلماته بمثابة ديناميت نسف الاجتماع كله لأنه كان هو مركز الثقل فى الاجتماع كله .

والتفت إليه السنهورى باشا مغضباً وسأله عن سبب رفضه . فقال سعيد :

«ياسعادة الباشا أرجو بعد أن تحدثت فى الاجتماع بكل ما فى نفسك أن تعرفنى بالموجودين فيه فرداً فرداً ، كلا باسمه» .

فالتفت السنهورى إلى الموجودين فوجد نفسه عاجزاً عن معرفة أكثرهم ... فقال سعيد : إن إجتماعاً على هذه الغاية من السرية وللاتفاق على أعمال خطيرة لا يعرف رئيس الاجتماع أسماء الحاضرين ولا شخصياتهم ، لهو اجتماع فاشل لم يكن يستحق أن نحضره ، وما حضرنا إلا بعد إلحاحكم ، ولنثبت لكم ياسعادة الباشا – مع احترامى لشخصك – أنكم تتصرفون تصرف الأطفال

وما كاد يخرج المجتمعون ، وما كادوا يصلون إلى مقر هيئاتهم وإلى بيوتهم إلا وأطبق البوليس السياسى عليهم واقتادوهم فرادى إلى وزارة الداخلية وواجهوا كلا منهم بما قاله فى الاجتماع بالحرف الواحد ، دليلا – كما أشار سعيد – على أنه كان من بين الحاضرين أشخاص مدسوسون من عملاء البوليس السياسى .

من آثار هذا الاجتماع : كان المفروض أن يكون فشل هذا الاجتماع دافعاً لحزب السعديين

على الإعجاب بهذا الشاب وباهيئة التى ربته هذه التربية ، وأن يتعلموا منه كيف يتعاملون مع الناس وكيف تعقد الاجتماعات التى يرجى لها النجاح ... ولكن هل كان هذا أثره فى نفوس السعديين ؟ هل قالوا كما قال عمر بن الخطاب لمن أرشده إلى خطأ صدر منه «رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا» وحين راجعته المرأة وهو على المنبر فقال على الملأ قولته المشهورة «أصابت المرأة وأخطأ عمر» ؟ هل تحلوا بصفات المؤمنين التى بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ولا يبالى من أى وعاء خرجت» ؟

لم يكن الأثر فى نفوس السعديين هو هذا الأثر النبيل بل كان الأثر عكس ذلك تماماً .... كان الأثر أن امتلأت نفوسهم حقداً على الإخوان المسلمين ، وأخذ يسيطر على زعمائهم شعور بأن هذه الهيئة – بما رأوا من حصافة أصغر أعضائها – هى القادرة على قيادة الشعب والوصول عن طريقه إلى قمة السلطة ، فلابد إذن من الكيد لها والعمل بكل الوسائل الشريفة وغير الشريفة على القضاء عليها وإبادتها من الوجود .... وكان هذا الشعور من الغليان فى نفوسهم حتى إنه كان يفيض فى بعض الأحيان على ألسنتهم ، وقد فاه به رئيسهم أحمد ماهر أكثر من مرة متخطياً حدود اللياقة والأدب أمام مجموعات من الشباب بعضهم من شباب الإخوان وهو لا يدرى .

وكانت أولى خطواتهم فى سبيل تسميم الآبار أن ذهبوا إلى الملك يعتذرون له عن فشل ما طلب إليهم إنجازه بأن الإخوان المسلمين هم الذين كانوا سبب الفشل ، وأنهم أعداء الملك ، وأنهم يتآمرون مع الوفد ضد الملك ... ثم عملوا على قطع السبيل على الأستاذ المرشد أن يقابل الملك لأن الأستاذ كان حريصاً على مقابلته لإقناعه بدعوة الإخوان المسلمين وبأنه إذا تعاون معهم على تحقيق أهداف هذه الدعوة فإنهم يستطيعون أن يجمعوا الشعب حوله ، وفى ذلك تثبيت لعرشه ، وتثبيت العرش على أسس من حب الشعب خير من محاولة تثبيته بالقوة والإرهاب . أو بالخداع والإغراء

وقد قطع السعديون فى هذا الاتجاه الحاقد الآثم أشواطاً بعيدة ، حتى إنهم تركوا الوفد – عدوهم التقليدى – جانباً ، وجعلوا القضاء على الإخوان المسلمين هدفهم الأوحد الذى يؤرقهم بالليل ، ويشعل النار فى صدورهم بالنهار .. وكان أحمد ماهر يصرح بذلك فى اجتماعاتهالسرية فى نظره والمفضوحة أمام الإخوان فى الحقيقة فيقول : لن أهدأ حتى أقضى على هذا الرجل ... «أبو دقن» يقصد الأستاذ المرشد ، ويكيل له الشتائم القذرة . ويقول : أبو دقن ده المدرس الابتدائى .. نعجز نحن ومعنا جميع الأحزاب والهيئات عن إخراج مظاهرة مادام هو لا يريد إخراجها ؟ ما هذا الشباب المغفل الذى وصلت به البلاهة أن يتركنا ولا يعيرنا اهتماماً ويسير وراء هذا المدرس الابتدائى الحقير أبو دقن .. لابد من القضاء عليه .

كان هذا السفه يبلغ الأستاذ المرشد ويبلغ الإخوان ، وكان الأستاذ مع ذلك يهون الأمر على الإخوان ويقول : لازال عندنا أمل أن يهديهم الله وينزع من صدورهم الحقد والضغينة ويحل محلها الحب والإخاء .

لكن تقرب الإخوان إليهم لم يكن يزيدهم إلا حقداً ، وقد كنا وإياهم كما قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام «وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً» .

فى سبيل تحرير البلاد :

مع كل ما كان يعلمه الإخوان من سوء نية السعديين وما يضمرونه من حقد عليهم فإن الإخوان كانوا يتجاوزون عن ذلك ويتغاضون عنه ويتناسونه حين يذكرون حق بلادهم عليهم وأن الفرصة السانحة للمطالبة بحقوقها إذا أفلتت فقد لا تعود ؛ فنى أعقاب الحروب العالمية تتغير عادة خريطة العالم فتنشأ دول وتطمس دول وترتفع دول وتنخفض دول حتى إذا استقرت الأمور لم يعد ميسوراً إدخال أى تعديل فى أوضاع الدول والشعوب ... ولما كان الإخوان أصحاب دعوة تلزمهم بأن يبذلوا كل شئ فى سبيل تحرير بلادهم ، ولا يمكنهم أن يحققوا ذلك إلا عن طريق الحكومة القائمة إذن فليتجاوزوا عن كل شئ وليتعاونوا مع هذه الحكومة فى سبيل تحقيق هذا الهدف الأسمى ، فكان الإخوان فى ذلك كما قال أبو الطيب :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدواً له ما من صداقته بـــد

ولقد أخذ الإخوان يحثون الحكومة على الجلد فى المطالبة بحقوق البلاد فى الاستقلال والوحدة لوادى النيل .. ولسنا ندعى أننا كنا وحدنا الذين يحثون الحكومة على ذلك بل كانت جميع الهيئات والأحزاب تحث على ذلك ولكن الهدف كان مختلفاً فقد كان هدفنا من ذلك تبصير الحكومة وتقوية موقفها أمام المستعمر فى حين كان حزب كالوفد يهدف من ذلك إلى إحراج مركزها .

ولكن الذى حدث فعلا هو أن الحكومة لم تأخذ هذا الأمر الخطير مأخذ الجد . وأخذت تسوف وتتهاون وتؤجل وأخيراً تقدمت إلى الحكومة البريطانية على استحياء وخجل بمذكرة هزيلة تشعر بأنها تطالب بما هى ليست مؤمنة به مما أطمع الإنجليز وجعلهم لا يردون حتى برفض هذه المطالب الهزيلة . وقد أثار ذلك جميع الهيئات فى مصر فأصدرت كل هيئة بياناً أوضحت فيه احتجاجها على هذا التهاون المخزى . ولما كان الإخوان يرون انتزاع حقوق البلاد المسلوبة فى هذه الفرصة السانحة قضية المصير فقد عقدت الهيئة التأسيسية جلسة غير عادية استمرت يومين

ناقشت فيها هذا الموضوع وأصدرت البيان التالى الذى نشر بالصحف يوم ٥-٢-١٩٤٦ وكان وكان البيان بياناً مطولا استعرض المذكرة المصرية والرد البريطانى ثم قال :

«الذى يلفت الأنظار فى المذكرة المصرية أنها سلكت مسلك الضعف والاستجداء فى أسلوبها مما يسر للإنجليز التهرب من الاعتراف بحقوقنا التى أنعقد إجماع الأمة عليها :

أولا : بنت الحكومة مطلبها على تعديل المعاهدة التى أثبتت الظروف أنها لم تعد صالحة لأن تكون أساساً للعلاقات بين الدولتين ، بل إن هذه الظروف نفسها قد فرضت بطلان هذه المعاهدة وإلغاءها إلغاء تاماً لأسباب أهمها : زوال عصبة الأمم من الوجود ، وقيام ميثاق الأمم المتحدة الذى اشتركت مصر فى توقيعه ، وتغير الظروف الاستثنائية التى أبرمت فيها المعاهدة ، فضلا عما بذلته مصر من مجهود أثناء الحرب فاق ما قررته المعاهدة بمراحل كثيرة ، وفاق ما كان منتظراً منها مما أدى إلى تغيير فى مجرى الحرب فى جانب الحلفاء كما اعترف بذلك قادة الحرب وزعماء الدول الكبرى أنفسهم .

ثانياً : لم تحدد الحكومة فى مذكرتها مطالب البلاد فى قوة وصراحة ، وكان أولى بها وهى صاحبة الحق أن توضح هذا الحق توضيحاً قوياً تؤكد فيه أنها لن ترضى عن الجلاء ووحدة وادى النيل بديلا .

ثالثاً : السودان ... شطر الوادى لقد فجع أبناء الوادى لهذا الأسلوب المتخاذل الذى صاغت فيه الحكومة قضية السودان ، بل قضية وادى النيل ؛ فلقد طلبت فى ذيل مذكرتها أن تشمل المحادثات مسألة السودان «مستوحية» مطالب السودانيين وأمانيهم ... وكان أحرى بها أن لاتردد هذه النغمة الملتوية التى يذكرها الإنجليز على الدوام ليفرقوا بين شطرى الوادى. ولقد أعلنا غير مرة أن مطالب السودانى وأمانيه هى بعينها مطالب المصرى وأمانيه .

إن الإخوان المسلمين فى أنحاء الوادى ليعلنون فى قوة ووضوح أنهم لن يرضوا بعد اليوم ذلا ولاهواناً ، ولن يقبلوا تردداً فى نيل حقوقهم ومطالبهم ، ويدعون الشعب كله أفراداً وجماعات وهيئات أن يقفوا معهم صفاً واحداً فى المطالبة بهذه الحقوق والعمل على تحقيقها أو الفناء فى سبيلها .

أيها المواطنون ....

إن الإخوان المسلمين ليسجلون على الحكومة هذا الموقف الضعيف ، ويسجلون على الإنجليز هذا الجحود

ولقد علمتنا التجارب أن الاستقلال والحرية ماكانت يوماً من الأيام صكاً يكتب أو اتفاقاً يعقد لايشفي غلة ولا يروى أواراً ، ويهيبون بالأمة أن تستعد لجهاد متصل عنيف ، فليس للهوان بعد اليوم من سبيل .

ولتعلموا أن المفاوضة وسيلة وليست غاية مقصورة لذاتها ، ولا يمكن أن نقدم على الوسيلة إلا إذا أطمأننا على أسس بينة لتحقيق هذه الغاية ، فلنتعظ بالماضى ، وليحذر الساسة ألاعيب المستعمرين ، ولتتوحد الصفوف وتتحد الجهود بتوجيه وطنى خالص لوجه الله والوطن .

أيها المواطنون ....

إن حقوقكم قد اجتمعت عليها كلماتكم ، وارتبطت على المطالبة بها قلوبكم ، وهى الجلاء التام عن وادى النيل بلا مراوغة ولا تسويف ووحدة الوادى بلا تردد ولا إمهال ، وحل المشاكل الاقتصادية المعلقة بيننا وبين الإنجليز على وجه السرعة حتى تتنسم البلاد ريح الحرية ويطمئن الناس على حياتهم ومستقبلهم .

والإخوان المسلمون حين يضعون هذه الحقوق والأهداف من رسالتهم موضع العقيدة والإيمان يرون أنها ليست مما يصح أن يكون محلا للمساومة على الإطلاق ، وكل من حاول ذلك فهو خارج على وطنه ، متحمل وحده تبعة عمله منبوذ من سائر مواطنيه .

مظاهرة كوبرى عباس الثانية فى ٩ فبراير ١٩٤٦ :

ولم يكن بيان الإخوان هذا هو البيان الوحيد الذى ووجهت به الحكومة إزاء موقفها الضعيف المتخاذل بل إن كل الهيئات والأحزاب التى كانت خارج الحكم قد أصدرت بيانات بهذا المعنى ولكن الحكومة كانت تتلقى بيان الإخوان بجدية واهتمام لأن الهيئة الوحيدة التى كانت قادرة على إتباع بيانها بحركة شعبية عملية معبرة عن السخط هى هيئة الإخوان ، فكل بيان يصدر عن الإخوان يتردد صداه فى جنبات الجامعة وفى أحياء القاهرة وفى مختلف بلاد القطر . ولما كان هذا البيان قد أشعر الجميع باليأس من هذه الحكومة التى ظلت فى الحكم قوابة العام دون أن تخطو خطوة جادة لاستخلاص حقوق البلاد ، فقد وقعت مصادمات عنيفة عقب صدور هذا البيان بين البوليس والشباب فى القاهرة والاسكندرية فى ٩ نوفبر سنة ١٩٤٦ وكان هذا يوماً مشهوداً تكررت فيه مأساة كوبرى عباس التى حدثت فى ١٩٣٦ والتى أشرنا إليها فى مستهل هذه المذكرات ولكن الفرق بينهما كان فى شىء واحد هو أن الذى أمر بضرب الطلبة بالرصاص فوق كوبرى عباس سنة ١٩٣٦ كان إنجليزياً فى حين أن الذى أمر بضربهم بالرصاص فوق

نفس الكوبرى فى هذه المرة كان ويالالأسف مصرياً تبرأ منه مصريته وهو عبد الرحمن عمار بك وكان المنفذ مصرياً أيضاً هو اللواء سليم زكى باشا ... وقد أصيب ١٩٠ طالباً إصابات شديدة وفقد ٢٨ طالباً حيث كانوا يلقون بأنفسهم من فوق الكوبرى فى النيل من شدة الضرب بالرصاص

وفى نفس اليوم قامت مظاهرات فى المنصورة وأسوان – وقامت قوات كبيرة من رجال البوليس بمحاصرة المركز العام للإخوان ودور الإخوان بالقاهرة ومنعوا دخول الإخوان وقد أرسل وكيل الإخوان برقية احتجاج إلى جريدة المصرى على هذا الحصار محملا الحكومة نتيجة هذا التصرف الجائر فكان أن صادرت الحكومة جريدة المصرى يوم ١١–٢–١٩٤٦.

وأمام هذه المقاومة الشعبية العارمة اضطرت هذه الحكومة لتقديم استقالتها يوم ١٤–٢–١٩٤٦ فقبلت .

<u>موقف شائن لهذه الحكومة إزاء أندونسيا :</u> كانت أندو نسيا وهى بلاد إسلامية تضم نحو سبعين مليوناً ترزح تحت حكم هولندا ، فلما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها هبت كما هب غيرها من البلاد مطالبة بالاستقلال وبجلاء الجيوش الهولندية عن أراضيها ، وتألفت فيها حركة مقاومة تزعمت هذه المطالبة وقد استطاعت هذه الحركة أن تصل بقضيتها إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن مطالبة بإصدار قرار من هذا المجلس بإجلاء الجيوش الهولندية والجيوش البريطانية التى جاءت إلى أندونسيا لتعزيز سيطرة الهولنديين الذين عجزوا عن صد مقاومة الوطنيين .. وقد تقدمت روسيا إلى المجلس باقتراح لتأليف لجنة للتحقيق فى شئون أندونسيا .

وكان يمثل مصر فى هيئة الأمم المتحدة فى ذلك الوقت الوزير السعدى ممدوح رياض ، فانظر أيها القارىء إلى ما قاله ممثل مصر فى خطابه الذى افتتحت به جلسة مجلس الأمن بصدد هذا الموضوع قال « إن مثل هذه اللجنة لن تأتى بالثمرة المطلوبة .. وقال .. إن وجود القوات البريطانية هناك لا ينطوى على أى تهديد بل إن وجودها ما هو إلا لتنفيذ أوامر الحلفاء وقيادة الحلفاء العليا فى الباسفيك ، وإنه لمن واجب السلطات العسكرية فى الدول ذات الشأن معالجة الموقف الحالى .

أما فيما يتعلق بالناحية السياسية ، فإنه ينبغى لنا أن نثق بروح التسامح والسخاء التى يبديها مندوبو هولندا ... وتكلم بعد ذلك عن الحركة الوطنية الأندونيسية فقال :

أحب أن أشير إلى أن الحركات الشعبية يمازجها دائماً الغلو وتجاوز حد الاعتدال . ويخيل إلى أنه يصعب إيجاد فارق واضح بين الحركة الشعبية وبين هذه العناصر التى تجنح للغلو . وقد تحدث المستر بيفين (وزير خارجية بريطانيا) عن الفاشية فى أندونسيا وأظن أنه لاتزال فى تلك

البلاد بقية من هذه العناصر . وختم حديثه بقوله «ترى هل الحالة فى أندونسيا قائمة حقاً كما تصور لنا ؟.... »

ولن أتعرض هنا لتعليق الإخوان على هذا الخطاب المزرى فقد ذكرت فى فصل سابق جهود الإخوان العملية التى بذلوها فى مؤازرة الشعب الأندونسى التى كانت ثمرتها إعلان الجامعة العربية اعترافها الرسمى بدولة أندونسيا مما دعا دول العالم إلى الاعتراف بها ؛ ولكننى سأعرض موقف القلة القليلة من الأعضاء الأحرار بمجلس النواب والشيوخ فى ذلك الوقت الذين تصدوا لهذا التصريح الرسمى وطلبوا مناقشته . وأجتزى بشىء مما جاء فى كلمة لفكرى أباظة حيث قال: «ومن عجب أن نسمع ممثل الحكومة المصرية يصرح بهذا التصريح الذى صرح به فى اجتماع الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ويقول إنه يعارض فى قيام لجنة التحقيق التى اقترحتها روسيا وأن إجراءات الهولنديين إجراءات سليمة ... لقد جاء هذا التصريح ضربة قاسية علينا وعلى البلاد التى تنشدوتقدر الحرية حتى إن الصين عارضت فى هذا وأيدت الطلب الروسى وهو قيام لجنة لتحقيق ما يجرى وماجرى فى هذه البلاد .

ونحن كزعماء للحركة العربية يجب أن نهتم جداً بهذه المسائل وأشار إلى تصريح بدوى باشا وعلاقته بالدول العربية (كان بدوى باشا مندوباً لمصر فى الأمم المتحدة فى هذه الحكومة نفسهاقبل ممدوح رياض وصرح تصريحا أساء إلى العرب) ثم قال : نحن نطلب الجلاء ووحدة وادى النيل ولنا مطالب خاصة بشأن فلسطين وبشأن تدعيم استقلال البلاد العربية . فإذا كنا كذلك فيجب أن يكون ممثلو حكومتنا فى تصريحاتهم مؤيدين لهذه السياسة » .

وقد سقت هذه الواقعة ليعرف القارىء العقليات التى كانت تسوس هذه البلاد المنكودة ، والتى استباحت لنفسها أن تدافع عن الاحتلال البريطانى لبلد إسلامى شقيق فى الوقت الذى أوهمت الشعب المصرى أنها تقوده إلى مقاومة هذا الاحتلال وطرده من بلادنا .

وزارة إسماعيل صدقى

كان إسماعيل صدقى أحد كبار الساسة المصريين القديرين وكان يرى نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لحزب ، فعاش ماعاش شخصية مستقلة إلا أنه كان يعد عدواً لحزب الوفد ، وكان الوفد يخشى بأسه ، لأنه كان قديراً فى عمله ، جريئاً فى إجراءاته .. وكان الوفد حريصاً على تشويه كل إصلاح يأتى عن طريقه معتمداً على شعبيته وعلى جهل أكثر المواطنين ، ولازلت أذكر وأنا صغير كيف شوهت مجلات الوفد مشروع خزان جبل الأولياء الذى أنشأه هذا الرجل على النيل فى السودان لتصور

المجلة شخصاً مصرياً يطلب كوب ماء من عامل مقهى فيقدم له العامل الكوب ويقول له : بعد إتمام خزان جبل الأولياء سيكون ثمن هذا الكوب قرشاً صاغاً - وكان القرش الصاغ فى ذلك الوقت ثمناً باهظاً . وتم هذا المشروع فعاد بأعظم الفوائد .

وهكذا كانت الحياة الحزبية فى مصر نوعاً من أنواع الدجل والاستغلال ؛ فهى أحزاب لابرامج لها ، وهدفها جميعاً الوصول إلى الحكم لا لشىء إلا لترشو أنصارها بالإغداق عليهم من خزانة الدولة حتى تضمن أن يكونوا بجانبها إذا أبعدوا عن الحكم أملا فى الرجوع إليه مرة أخرى يعوضون خلالها ما فاتهم من مغانم .

فالإصلاح مثلا فى نظر حزب من هذه الأحزاب لا يكون إصلاحاً إلا إذا أتى عن طريقه ، وتم على يديه وفى أيام حكمه فإذا تم إصلاح على يد حزب آخر فلابد من تشويهه والتمويه عليه ، وقد أنشأت وزارة للأحرار الدستوريين كان يرأسها محمد محمود باشا طريق سكة حديد ربط مدن مديرية المنوفية وكان هذا فى الحقيقة عملا جليلا ، ولكن الوفد تناول الحديث عن هذا المشروع بتهكم كاريكاتورى فى إحدى مجلاته الفكاهية يظهر فيه رئيس الوزراء فى شكل مثير للضحك وتحت هذا الرسم كتبت الآتى :

قربت منوفـــــاً من بنهـــــا وكـــــذا الباجـــور وإسطنها

سرس سبك قربت منهـــــا بطريق حـــــديد يامحمـــد

ولذا فإن الإخوان كانوا حريصين دائماً على المطالبة بإلغاء هذا النوع من الحزبية المدمرة ، وما من مؤتمر من مؤتمرات الإخوان إلا وتعرض لهذا المعنى ... ولهذا كان الإخوان أبعد الناس عن أن يقيدوا أنفسهم بالولاء لحزب من هذه الأحزاب أو بالارتباط معه أو بالانحياز إليه، وكانت العلاقة بينهم وبين هذه الأحزاب تتلخص فى شىء واحد هو أن يؤيدوا الخطوة التى يتخذها حزب منها ويراها الإخوان فى مصلحة البلاد .

وبعد سقوط وزارة السعديين ورؤى إسناد الوزارة إلى إسماعيل صدقى ، وكان هذا الرجل واقعياً ولمس فى واقع الحياة المصرية أن الإخوان المسلمين صاروا العنصر الفعال والقوة الشعبية المسيطرة ورأى أنه مقبل على مواجهة موقف خطير يتوقف عليه مستقبل البلاد فقرر أن لا يقبل هذا المنصب إلا إذا اطمأن إلى تأييد من هذه الهيئة الشعبية .. ويبدو أن القصر الذى رشحه لهذه المهمة كان مسلماً بهذا الواقع الجديد فترك له الفرصة الكافية للتباحث مع الإخوان فى هذا الشأن .

اتصال صدقى بالأستاذ المرشد :

اتصل صدقى بالأستاذ المرشد وكاشفه باتجاه النية إلى اختياره لرياسة وزارة غير حزبية

لمفاوضة الإنجليز ، وبأنه أرجأ رده بالقبول أو الرفض حتى يعرض الأمر على الإخوان المسلمين وينتهى معهم على وضع معين . فصارحه الأستاذ المرشد بقوله : إن ماشاع بين الناس عن تاريخك السياسى قد يبعث على النفور منك . ولكننا نحن الإخوان المسلمين مقيدون بقول الله تعالى «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» فسنستمع إليك ونزن ما تقول بميزان دعوتنا .. فقال الرجل : إنى أعلم ما أشاعه أعدائى عنى ، وإن كان كل إجراء اتخذته ضدهم كان له مايبرره من وجهة النظر الحزبية المصرية التى لا تتقيد بآداب ولا بمثل ولا بخلق وإنما هى كيد شخصى يكيده فرد لفرد وحزب لحزب .. وهكذا كانت الحياة السياسية فى مصر ... أما وقد تطورت هذه الحياة السياسية ونشأت فيها هذه الهيئة التى تقوم على الدين والخلق فلا يسعنى حين أتقدم إليها إلا أن أخلع الثوب الذى لبسته طول حياتى وأعلن لها توبتى وافتتاح صفحة جديدة .. وللهيئة أن تأخذ على ماتشاء من مواثيق وأن تجربنى هذه المرة .

اجتماع الهيئة التأسيسية

طلب الأستاذ المرشد من صدقى باشا أن يمهله حتى يجمع الهيئة التأسيسية للإخوان ويعرض عليهم الأمر ... والأمر فى هذه الحالة يقتصر على أخذ رأى الهيئة فيما إذا كانت تقبل التفاهم مع رجل مثل صدقى باشا له ماض مريب ، وقد جاء مقراً بأخطائه ، معلناً التوبة ، عازماً على افتتاح صفحة جديدة .. ودار نقاش طويل فى هذا الاجتماع استمر طول الليل وانتهى بقرار من الهيئة بقبولها مبدأ التفاهم مع الرجل مادام قد جاء يريد فتح صفحة جديدة على أسس يرتضيها الإخوان .

الاتفاق مع صدقى على أسس المفاوضات

تم الاجتماع الثانى بين الأستاذ المرشد وصدقى باشا أبلغه الأستاذ المرشد قرار الهيئة بقبول مبدأ التفاهم معه. وطلب من صدقى باشا شرح وجهة نظره فيما سيطالب به الإنجليز فى المفاوضات : ثم أخذ الأستاذ يشرح له وجهة نظر الإخوان والحد الأدنى الذى لا يقبل الإخوان بأقل منه من مطالب البلاد فى الجلاء والاستقلال ووحدة وادى النيل ... ووافق صدقى باشا على الحد الأدنى من المطالب الذى حدده الأستاذ المرشد وأعطى العهد والميثاق بذلك على نفسه .

اجتماع ثان للهيئة التأسيسية

ونظراً لخطورة الموضوع فقد دعا الأستاذ المرشد الهيئة للمرة الثانية فى ظرف نحو أسبوع ليعرض عليها ما تم الاتفاق عليه من مطالب هى الحد الأدنى لما يرتضيه الإخوان ، وقد ناقشت

الهيئة البنود وأقرتها ، وقررت أن يكون الإخوان وراء هذه الوزارة ما سارت فى الطريق الذى حدده لها الإخوان ، فاذا ما حادت عنه فإن الإخوان يسحبون تأييدهم لها ويتخذون من المواقف ما تلزمهم به دعوتهم .

وأبلغ صدقى بالقرار ، وأعلن تشكيل الوزارة التى لم يشترك فيها السعديون ، وشاع فى مختلف الأوساط أن هذه الوزارة مؤيدة من الإخوان ... وبالرغم مما أعده الوفد من حملات على هذه الوزارة فإن الظروف قد استقرت لها فى ظل تأييد الإخوان ، واستمرت كذلك حتى بدأت جلسات المفاوضات ، وهى المفاوضات المشهورة باسم «مفاوضات صدقى – بيفن» وكان بيفن هذا وزير خارجية حكومة العمال فى بريطانيا ، وكان من كبار الدهاة الماكرين .. وقداستغرق تشكيل الوزارة وإجراء المفاوضات نحو عام ، انتهى بإخفاق صدقى فى تحقيق ما اتفق عليه من مطالب تعد الحد الأدنى لحفظ كرامة البلاد ... وحاول صدقى إقناع الشعب بأن التافه القليل الذى حققه هو نجاح للمفاوضات محاولا البقاء فى الحكم .. وهنا أعلن الإخوان سحب تأييدهم له ، ولكنه أخذ فى التشبث بأهداب الحكم إلا أنه اضطر أخيراً إلى الاستقالة تحت وطأة موجات عارمة من المقاومة الشعبية التى لم يسبق لها مثيل .

بيان واضح عن موقف الإخوان من هذه الوزارة

بعد أن لخصنا موقف الإخوان من وزارة صدقى باشا ، نعود فنتناول هذا الموقف بشئ من التفصيل نظراً إلى أن هذا الموقف كان حدثاً تاريخياً غير مسبوق ، ومفاجأة فى عالم السياسة المصرية لم يسبق لها مثيل ، ولهذا فقد وقف الشعب إزاءه مشدوهاً وانقسم فى نظرته إليه ثلاثة أقسام :

١ – قسم فهم الإسلام حق الفهم فعرف أنه دعوة تدور مع الحق حيث يدور فلا تبالى أن تؤيد من رفع راية الحق وإن كان عدواً ، ولا تبالى أن تضرب على يد من يجادل بالباطل وإن كان صديقاً «ولا يجر منكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : بأن تضربوا على يديه» .. وهذا القسم تابع خطوات الإخوان مع هذه الوزارة بكل الاقتناع منذ ظاهر الإخوان هذه الوزارة حتى عملوا على إسقاطها .

٢ – وقسم كانت له السيطرة الشعبية على السياسة المصرية رأى فى مساندة الإخوان لهذة الوزارة انتقاصاً من سيطرته فسخر وسائل إعلامه لتشويه هذه المساندة ، والخروج بها عن معانيها الإسلامية السامية إلى معان مادية حقيرة آملا من وراء ذلك فى استعادة ما فقد من سيطرة شعبية .

٣ — وقسم ثالث خدع بما أذاعته وسائل إعلام القسم الثانى إما لأنه كان ساذجاً لم يستطع متابعة الأحداث وتفهمها تفهما سليما ، وإما لأنه رأى فى التجاوب مع ما أذاعته هذه الوسائل تفادياً لخطر محدق به أو تقرباً من هدف يرمى إليه .

وكان القسم الثانى هو حزب الوفد الذى كان يملك من وسائل الدعاية ما لا يملك الإخوان عشر معشاره ودوافع الوفد إلى ذلك سنرجئ الحديث عنها حتى يجئ دورها ..وهذا القسم لا يعنينا أمره ، وليس هو المقصود بهذا التوضيح الذى نحن الآن بصدده ، وإنما المقصودون بهذا التوضيح هم القسم الثالث الذى خدعته وسائل القسم الثانى .. وإذا كان أصحاب النظرة السطحية للأمور من هذا القسم يلتمس لهم وجه العذر فهم محتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ، فقد لا يلتمس وجه عذر لمن سايروا وسائل الدعاية لمجرد تفادى عقبة أمامهم أو الخروج من مأزق ، ولكننا مع ذلك سنلتمس العذر للجميع ونتصدى لإبانة واضحة لهذا الموقف تبدد ضباب اللبس وتمزق حجب الافتراء والتضليل .

ومما يدعونا أيضا إلى التوضيح والإبانة أن رجالا لهم فى نفوسنا كل التقدير لم يسلموا من الوقوع فى هذا الخطأ ومن حقهم علينا أن نوضح لهم ما عساه كان خافياً عليهم حتى يصححوا نظرتهم ومن هؤلاء الرجال الرئيس أنور السادات فقد تعرض فى كتابه « الثورة المصرية وأسبابها السيكولوجية» إلى هذا الموقف تعرضا يستحق التعليق .. فالرئيس السادات كان فى خلال تلك الفترة من حكم إسماعيل صدقى رهين السجن على ذمة قضية اغتيال أمين عثمان ، وما كان لرجل فى مثل تلك الظروف لتتاح له فرص متابعة مواقف سياسية لم يكن أكثر ما يتصل بها يعلن على صفحات الجرائد ... فاذا تعرض مثل هذا الرجل بعد ذلك للكتابة عن فترة كان بحق بعد غائباً عنها ، فإنه سيستقى أنباءها من غيره ، وقد يكون هذا الغير مغرضاً .

كما لا ننسى أن نقول إن الفترة التى وضع فيها كتابه كانت فترة حالكة حرجة فى سنوات ١٩٥٤ وما قبلها وما تلاها كان على الذى يريد أن يحتفظ لنفسه بالأمن من البطش والغدر أن يقدم برهاناً على أنه ليس من الإخوان المسلمين ، فإذا كان إنسان مدموغاً بأنه كان على صلة بهم والوشايات تلفه من كل جانب من هذه الناحية ، فإن عليه أن يسارع بتقديم برهان يدحض به حجج الواشين ، فإذا ما كرر قالة شاعت فى وقت ما فقد يلتمس له العذر .

نظرة الإخوان إلى الأحزاب :

سبق أن أومأنا إلى هذه النظرة من قبل ونعود إلى الحديث عنها بتفصيل فنقول إن هذه الأحزاب

لم تكن إلا أسماء على غير مسميات ، أنشأتها الأهواء والمطامع الشخصية ، وآلت كلها بعد قليل إلى أن أصبحت نعالا ينتعل منها المستعمر ما يشاء ليطأبها كرامة المصريين ويرغم أنوفهم .

أما نظرة الإخوان إلى الوفد ، فإنهم يرونه حزباً قائماً على قاعدة شعبية بلا شك ، لكنهم لا يرون فى تاريخه ما يؤهله لقيادة شعب يريد تحقيق آماله فى الحرية ويصل حاضره بماضيه ..... فثورة سنة ١٩١٩ كانت ثورة عارمة حقاً ، نابعة من صميم الشعب ، وقد عمت جميع مدنه وقراه وكان هدف الشعب فيها محدداً لا لبس فيه ولا غموض وهو الحصول على الاستقلال التام الناجز وطرد المستعمر من الأراضى المصرية .. وسواء أكان سعد زغلول قد اعتلى موجة الثورة أم كان هو باعثها فقد كان المطلوب منه أن يستغل هذه الثورة لمصلحة البلاد أحسن استغلال بإذكاء شعلتها إذكاء متواصلا لتظل على اشتعالها حتى تتحقق الآمال التى قامت الثورة من أجلها ، على أن الشعب فى ذلك الوقت لم يكن بحاجة إلى من يذكى أوار ثورته ، بل كان من اليقظة بحيث لا يضن بالتضحيات بالنفوس والأموال .

ولكن الذى حدث كان غير الذى كان متوقعاً ، فقد رأينا سعداً بدلا من أن يذكى أوار الثورة يعمل على إخماد جذوتها ، ويستغل براعته الخطابيه وثقة الشعب فيه استغلالا عكسياً ، فيوهم الشعب أن الذى اتفق مع الإنجليز عليه من استقلال زائف مقيد بأثقل القيود هو كل المستطاع وليس فى الامكان أبدع مما كان ... ولا زال الناس من الجيل الماضى السابق لجيلنا يتحدثون عن لجنه ملنر وهى تتلخص فى استفتاء شعب أمى سياسيا ، مفتون بشخصية زعيم بارع أولاه ثقته ، واعتقد أنه هو وحده القادر على تحقيق أمانيه .. فإذا كان هذا الزعيم هو الذى يخالف زملاءه فى الوفد الممثل لمصر .. والقابع فى لندن للتعبير عن آمال الشعب ، فأكثر أعضاء الوفد مصممون على مطالب الشعب كاملة ، وسعد هو الذى يريد أن غير ذات الشوكة تكون له فلا عجب أن ينخدع الشعب — كدأب الشعوب البدائية فى الثقة بزعمائها — ويختار رأى سعد لمجرد ثقته المطلقة فى شخصه

وهكذا استطاع سعد أن يميع الثورة المصرية التى قلما يتاح مثلها ، وأن يستقطبها لنفسه وأن يخمد جذوتها وأن يقف بتيارها الجارف الهدار عند حد ، وأن يحقن السياسة المصرية بميكروب خطير هو ما سمى بعد ذلك بأسلوب المهادنة والمفاوضات ، ولا يخفى على القارئ أن هذا الأسلوب إذا كان بين ضعيف وقوى ومسلح وأعزل فليس له معنى إلا التخاذل والذل والاستجداء .

ولو أن البلاد فى ذلك الوقت قد أتيح لها زعيم له مثل مواهب سعد ولكنه لم يؤثر السلامة وواصل الجهاد الذى أعلنه الشعب والتضحيات التى استعذبها الشعب ، لتغير تاريخ شعبنا المغبون الذى جنى عليه وهو لا يدرى .

هكذا تكون حزب الوفد ، وعلى هذا الأسلوب سار بالقضية المصرية أيام مؤسسه ، وعلى نفس الأسلوب سار خلفه النحاس حتى نسى الشعب معنى كلمة الجهاد وظنها عرافة من الخرافات وكان الشعب فى ذلك معذوراً لأنه رأى زعماءه يسمون المستعمر حليفاً ويتخذون الغاصب صديقاً ويطلقون على المعاهدة التى عقدوها معه سنة ١٩٣٦ معاهدة الشرف والاستقلال وهى فى حقيقتها معاهدة القيود والأغلال ، والتى كان من أصدق ما وصفت به ما وصفها به أحد المنصفين فى مقال كتبه فى ذلك الوقت فى جريدة الأهرام إذ شبه ما اتفقت انجلترا معنا عليه فى هذه المعاهدة بما اتفق عليه أعرابى فتاك نزل عند أعرابى مسالم ضعيف وطلب منه أن يشتركا معاً فى إعداد وجبة من العصيدة ، وقال له إننى لن أطلب منك شططاً فسأقسم مكوناتها بينى وبينك بالعدل على هذا النحو :

منك الدقيق ومنى النار أوقدها والماء منى ومنك السمن والعسل

فإذا كانت هذه هى نظرتنا إلى الأحزاب المصرية فى ذلك الوقت ونظرتنا إلى حزب الوفد ، فهل نحن مقيدون بعد ذلك بأن نقيس الأمور بمقياسهم أو أن نزن الأشخاص بميزانهم أو أن نعالج الأحداث بطريقتهم ؟ هل إذا كرهوا شخصاً كان علينا أن نكرهه ، وإذا ناصبوه عداء فعلينا أن نناصبه أو قاطعوه فعلينا أن نقاطعه ؟

ولما كان «كل حزب بما لديهم فرحون» ظن حزب الوفد أن اختلاف معالجتنا للأحداث عن معالجته لها هو نوع من العقوق الذى يستحق العقاب ويستوجب التأديب ، لا سيما وهو لم يجرب من قبل خروجاً على أسلوبه إلا ممن يناصبونه العداء الشخصى ، ولما كان هو ومنافسوه التقليديون لا يعرفون للقيم مكاناً لا فى أخلاقهم ولا فى تعاملهم فقد استباح لنفسه فى هجومه علينا الكذب والافتراء والزور والبهتان مستغلا فى ذلك كل ما يسر له من وسائل الدعاية والإعلام .

وإذ تحددت للقارئ نظرة الإخوان إلى هذه الأحزاب فلنعرض ظروف موقف الإخوان إزاء الأحداث فى خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ مصر فنقول :

أولا : بعد ما تعهد به صدقى باشا للإخوان من المطالبة الجادة القوية بحقوق البلاد أو التخلى عن الحكم إذا تعسرت الأمور ، كون وزارته من حزب الأحرار الدستوريين ومن المستقلين وكان صدقى باشا مضطراً إلى إيجاد وزارة من هذا الحزب أو من حزب السعديين لأن الحزبين معاً — الأمر الواقع — يكونان أغلبية أعضاء مجلس النواب .. وعند عرض صدقى وزارته على مجلس النواب طالباً الثقة بها حصل على الثقة بالأغلبية وامتنع السعديون عن التصويت .. وقد احتفظ صدقى باشا لنفسه بالرياسة والداخلية والمالية وكان وزير الخارجية أحمد لطفى السيد وكان تأليف هذه الوزارة فى ١٨-٢-١٩٤٦ .

ثانياً : تأييداً لهذه الوزارة وتثبيتاً لمركزها أمام الإنجليز قامت فى ٢١-٢-١٩٤٦ مظاهرات ضخمة بالقاهرة من جميع طبقات الشعب لإظهار شعورها نحو مطالب البلاد وكانت مظاهرات تتسم بالقوة والنظام ، وفى الوقت الذى لم تتعرض فيه قوات البوليس لهذه المظاهرات برزت فجأة قوات من الجيش البريطانى تصدت لهذه المظاهرات وهاجمت المتظاهرين المسالمين العزل بأسلحتها وفتكت بعدد كبير منهم ؛ مما أثار النفوس وزادها حقداً على الإنجليز ... ومن صفاقة الحكومة الإنجليزية وعدم حيائها أنها على أثر هذه المظاهرات وما أزهقه هجومهم الغادر عليها من أرواح بريئة أرسلت إلى الحكومة المصرية مذكرة تطلب منها الطلبات الثلاثة الآتية :

١ - معاقبة المسئولين ٢ - دفع تعويضات عن الخسائر ٣ - المحافظة على الأمن

ثالثا : فى ٢٤-٢-١٩٤٦ قابل وكيل الإخوان رئيس الوزراء صدقى باشا بمكتبه بالرياسة وأطلعه على رأى الإخوان فى الموقف الحاضر وسلمه بياناً عن الحوادث الأخيرة ورأى الإخوان فيما يجب أن يتبع حيالها ، ونورد فيما يلى نص هذا البيان :

حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد توليتم دولتكم الحكم والشعب يجتاز أدق مرحلة فى تاريخه ، فى الوقت الذى هبت فيه شعوب الأرض جميعاً تطالب بحريتها واستقلالها . ولقد دبت اليقظة فى نفوس الأمة المصرية عن بكرة أبيها ، وقامت هى الأخرى تطالب بحقوقها المغصوبة ، وأجمعت بمختلف طبقاتها وهيئاتها على ضرورة نيل هذه الحقوق مهما تكلفها ذلك من مرتخص وغال .

ولقد كان للوعى القومى فى مصر واليقظة المشبوبة فى قلوب المصريين أثر هائل تجاوبت به الأصداء فى مختلف بلاد العالم ، وكان حرياً بالوزارة السابقة أن تستغل هذا الشعور القومى الرائع فتنتفع به فى مواجهة المستعمرين وتستند إليه فى مطالبتها بحقوق البلاد كاملة غير منقوصة ، ولكنها فشلت كل الفشل فى ذلك ، وظهرت على الأمة بمذكرتها الهزيلة الملتوية ورد البريطانيين المثير على هذه المذكرة مما أزعج النفوس وأثار العواطف ، وكان ما كان نتيجة سوء تصرفها فى سياستها الداخلية فضلا عن فشلها فى السياسة الخارجية ، وإساءة ممثليها فى هيئة الأمم المتحدة إلى القضية المصرية خاصة وقضية الأمم العربية والإسلامية بوجه عام .

ولقد ظلت الأمة على يقظتها - وستظل كذلك حتى تتحقق لها أهدافها - وفى يوم الخميس الماضى قام الشعب بمختلف طبقاته من شباب وشيب وعمال وطلبة يظهرون شعورهم فى إجماع رائع

لم تشبه شائبه ولم يدفعه غرض مستتر اللهم إلا إعلان مطالبهم المشروعة والاستمساك بحقوقهم المغتصبة فلم يعكر صفوه معكر حتى كان هذا الحادث المؤلم الذى إن دل فإنما يدل على استهتار عجيب بعواطف المصريين وتحد ظاهر لمشاعرهم وإحساساتهم إذ اعتدى على المتظاهرين من جانب الإنجليز اعتداء ظاهراً العيان شهده كل إنسان ، ولا شك أن التحقيق العادل المنصف سيثبت أن الإنجليز هم البادئون وأنهم هم المعتدون ، فهذه اللوريات الضخمة الأربعة التى هجمت على صفوف المتظاهرين من الأبرياء فى شارع القصر العينى فقتلت من قتلت وجرحت من جرحت بلا رحمة ولا شفقة ولا هوادة كانت الشرارة الأولى التى أثارت النفوس وطيرت الألباب .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل انطلقت المدافع الرشاشة من مكانها تفتك بالمصريين العزل الذين لم يجدوا ما يرد عنهم غوائل المعتدين ، ولولا حكمة القادة منهم وحسن توجيه أولى الأمر من رجالهم لتفاقم الخطب وعم الخطر وسادت الفوضى .

لهذا ياصاحب الدولة ولما يحسه الشعب لهذه التصرفات الجائرة لا يسع الإخوان المسلمين أمام هذه الظروف إلا أن يتقدموا للحكومة المصرية بالمطالب الآتية :

أولا : التقدم إلى الحكومة البريطانية على وجه السرعة بمذكرة صريحة تطلب فيها الجلاء التام عن أرض وادى النيل ووحدة الوادى وحل المشاكل الاقتصادية التى تسبب عنها ما نراه من اضطراب فى الأسواق وكساد فى التجارة وعسر مالى لا يعلم إلا الله مدى ما يجر إليه البلاد من تدهور وخطر

ثانياً : سحب ممثلى مصر فى هيئة الأمم المتحدة وهم الذين أساءوا إلى قضية البلاد وقضايا الأمم العربية والإسلامية . وإيفاد من يمثل مصر تمثيلا صحيحاً مشرفاً .

ثالثا : عرض القضية على مجلس الأمن فى أول انعقاد له إذا لم تستجب انجلترا لطلب الحكومة المصرية فى موعد عاجل محدد .

رابعا : أن تطلب الحكومة المصرية من الإنجليز اعتذاراً رسمياً عن سوء تصرف الجنود البريطانيين فى الحوادث الأخيرة مع دفع تعويضات مناسبة لأهالى القتلى والمصابين .

خامسا : اعتبار المدن المصرية (القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والسويس والإسماعيلية) مناطق حرام على الجنود البريطانيين إلى أن يتم ترحيلهم إلى بلادهم .

سادساً : أن تطلب الحكومة المصرية عقد مجلس الجامعة العربية بصفة استثنائية لعرض تطورات القضية المصرية عليه واتخاذ قرار حاسم إجماعى أسوة بما اتخذ فى قضايا الدول الشقيقات سوريا ولبنان وفلسطين .

هذا فيما يختص بالسياسة الخارجية والحوادث التى سببها الإنجليز ، أما فيما يختص بالموقف الداخلى فيرى الإخوان :

أ — الإسراع فى تحديد المسئولية فى الحوادث الأخيرة التى أساءت فيها الحكومة السابقة إلى الشعب أيما إساءة حيث صادرت الحريات ونكلت بالطلبة الأطهار وأسالت الدماءالزكية ، ومحاكمة المسئولين والمتسببين فى هذه الحوادث الخطيرة .

ب — الاستغناء عن خدمات موظفى البوليس والجيش المصرى من الإنجليز .

حـ — الإفراج عن جميع المعتقلين الذين زج بهم فى السجون ولا ذنب لهم إلا النداء بمطالبهم والهتاف لوادى النيل .

د — تعويض أهالى الشهداء الذين ذهبوا فداء حرية الوطن واستقلاله .

ياصاحب الدولة :

هذا ما أردنا أن نتقدم به إلى دولتكم .. وأنتم اليوم على رأس الحكومة المصرية ، والبلاد تجتاز أدق مرحلة فى تاريخها ، وسيسجل التاريخ فى صفحاته الخالدات لكل امرىء ما قدمت يداه — وإن مصر العزيزة التى لها من ماضيها أروع آيات المجد والفخار لترقب من أبنائها جميعاً يقظة شاملة وجهداً متصلا حتى يتحقق لها أملها ، وتصل إلى ما ترجو من مستوى رفيع بين سائر الأمم والشعوب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ....

رابعاً : كان «الوفد» — محاولة منه لزعزعة مركز الوزارة الصدقية — قد أوعز إلى زعماء الطلبة التابعين له أن يقرروا إضراب الطلبة ثلاثة أيام احتجاجاً على ضحايا الوزارة السابقة ، واجتمع الطلبة فعلا فى حرم الجامعة وخطب فيهم هؤلاء الزعماء ... وحضر الأستاذ محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف وألقى كلمة ذكر فيها أن الوزارة الحاضرة جاءت لتنفيذ ما يريده الشعب من المطالبة بحقوقه فإذا لم تستطع فلن تظل فى الحكم ساعة...وقام الطالب مصطفى مؤمن ممثل الإخوان وطلب من الطلبة العدول عن الإضراب ثلاثة أيام والاكتفاء بيوم واحد فى الأسبوع القادم وكتابة مذكرة بمطالبهم للملك فأطاع الطلبة ... وكانت هذه أول لطمة تلقاها الوفد ...

وقد أصدر الوفد بياناً حث فيه الشعب على مقاومة الحكومة الجديدة ، وأصدر الإخوان بياناً يطلبون فيه إلى الأمة اعتبار يوم ٤ مارس ١٩٤٦ يوم حداد عام تكريماً لأرواح الضحايا

والشهداء الذين راحوا ضحية اعتداء الجيش البريطانى الغاشم وأعلنوا فى البيان عن تكوين لجنة تمثل فيها جميع الطوائف والأحزاب لتنظيم الإضراب العام في ذلك اليوم وقد مثلت فى هذه اللجنة مختلف الطوائف ، ماعدا الوفد الذى رفض الاشتراك ، ومع ذلك لقد استجاب الشعب لهذه اللجنة وتم الإضراب الشامل فى ذلك اليوم كما قررت نقابة الصحفيين احتجاب الصحف وأضرب المحامون والمؤلفون وعمال شركات الغزل وأصحاب المحال المختلفة . وقد شاركت السودان وسوريا ولبنان والبلاد العربية فى الحداد على الشهداء وأعلنوا الإضراب العام .

خامساً : فى ٢ مارس تقابلت اللجنة القومية مع رئيس الوزراء وعرضت عليه مطالبها ودارت بينها وبينه مناقشة حول هذه المطالب انتهت بموافقة رئيس الوزراء عليها ، وعلى أثر ذلك صدر بيان أذيع بالراديو وأبلغ للصحف ... وجاء فى هذا البيان :

«أعلن رئيس الحكومة أنه يشارك الأمة رغبتها فى تكريم الشهداء وهو يقدر كل التقدير عواطف الشعب ، ولم تتردد الحكومة من جانبها فى الاحتجاج بشدة على الاعتداء على هؤلاء الشهداء وستعمل فوراً على تعويض عائلات الشهداء والجرحى تعويضاً سخياً عما أصابهم من أضرار وهى على استعداد لتلقى اقتراحات اللجنة القومية لتكريم الشهداء تكريماً يبقى على مر الزمن ... ورئيس الحكومة يعد البلاد أنه لن يتوانى عن إطلاع الأمة إذا جد الجد واعترض سبيل تحقيق المطالب الوطنية عقبات لم تستطع تذليلها » .

وفى جلسة مجلس النواب فى ٢٧-٢-١٩٤٦ كان صدقى باشا قد ألقى بياناً صرح فيه بأنه رفض المطالب الثلاثة التى كان قد طلبتها الحكومة البريطانية عقب مظاهرات يوم ٢١-٢-٤٦ فأيده المجلس ، وممن أيدوه الأستاذ فكرى أباظة (كان فكرى أباظة فى ذلك الوقت عضواً بالحزب الوطنى) مع أنه قد أعلن عدم الثقة بالحكومة منذ أسبوع . وتكلم فكرى أباظة فقال : أرجو أن أستميح دولة رئيس الوزراء أن أنحى مسألة المفاوضات جانباً فليس موضوعها الليلة ثم قال : فى هذه اللحظة الرائعة الممتازة أود أن أقول بل من واجبى أن أقول :إنى أؤيد رئيس الحكومة على طول الخط فى الموقف الحازم الذى وقفه .

وفى اليوم التالى لمقابلة رئيس الوزراء للجنة القومية طلبت الحكومة المصرية من الحكومة البريطانية رسمياً إجلاء جنودها فوراً عن القاهرة والإسكندرية .

سادساً : يلاحظ القارىء أن الوفد قد تخلف عن مواكبة الحركة الجماعية التى دعا إليها الإخوان وكان هو وحده الهيئة التى تخلفت عن الاشتراك فى اللجنة القومية ، إذا ما أسقطنا من حسابنا

حسابنا حزب السعديين الذى جاءت حكومته بالخزى وأسقطها الشعب منذ قليل . ، وما كان ممثلوها ليشتركوا فى لجنة تؤلف للاحتجاج على جرائم ارتكبتها حكومتهم .

وظن الوفد أن عدم اشتراكه فى اللجنة القومية سوف يحبط عملها ويشل حركتها ولكن الذى حدث كان غير ذلك فقد نجحت النجاح التام الذىأشرنا إليه ، فبدأ الوفد فى مشاغباته بأن نشر فى «المصرى» أن شباب الأزهر يستنكرون أن يمثله فى اللجنة القومية الشيخ محمد شريت لأنه موظف فى وزارة الأوقاف وليس طالباً ولا مدرساً فى الأزهر (عاماً بأن أسرة شريت هذه من أعرق الأسر المصرية صلة بالأزهر فكبيرها كان من كبار علماء الأزهر ومدرسيه وجميع أفرادها تقريباً من علماء الأزهر) .

ولا شك فى أن إحراز هذه اللجنة التى دعا إلى تكوينها الإخوان هذا النجاح كان عجماً لعود الإخوان المسلمين ، وامتحاناً خطيراً لمدى شعبيتهم وتأثر الشعب بدعوتهم .

وفى ٢ مارس سنة ١٩٤٦ كتبت مجلة «دى تابليت » البريطانية مقالا قالت فيه : إن مصر تتولىالزعامة بين الدول الإسلامية التى فقدتها تركيا بعدالحرب الماضية وصحف القاهرة تهدد الآن جامعة الأمم البريطانية بجهاد دينى وقد أكد صدقى باشا من جديد صداقته مع بريطانيا ولكنه مصر على أن تسحب القوات البريطانية فوراً .

سابعاً : قررت الحكومة فى ١٩ مارس تأليف هيئة للمفاوضات ، وعرضت على «الوفد» الاشتراك فيها على أن يمثل كل حرب بفرد واحد ويمثل الوفد بفردين ، فرفض الوفد وطالب بأنتكون له الأغلبية والرياسة فتكونت الهيئة من صدقىرئيساً وحسين سرى وعلى ماهر وعبد الفتاح يحيىوشريف صبرى وعلى الشمسى ولطفىالسيد ومكرم عبيد وحافظ عفيفى والنقراشى وهيكل وإبراهيم عبد الهادى أعضاء .

كما تشكل الوفد البريطانى فى ٣ ابريل برياسة أرنست بيفن وزير الخارجية وعضوية لورد ستانسجيت وزير الطيران والسفير البريطانى رونالد كامبيل وقواد البحر والجوالبريطانيين فى الشرق الأوسط - ومن جهة أخرى حضر إلى مصر الوفد السودانى برياسة إسماعيل الأزهرى ...

ويلاحظ فى تكوين الهيئة المصرية للمفاوضات أنها مكونة من اثنى عشر عضواً منهم أربعة فقط من الحزبيين والثمانية الباقون من المستقلين ومنهم الرئيس، وفى فريق المستقلين أشخاص يثق الإخوان فى وطنيتهم وقوة شخصيتهم .

ثامناً : تخللت هذه الفترة عملية التجديد النصفى لأعضاء مجلس الشيوخ ، وقد حرص

قيادتهم الموقف الرائع الذى نشرته الصحف فى ٦-٤-١٩٤٦ وهو «تلقينا من جمعية الإخوان المسلمين أنها اتفقت مع رؤساء المناطق لمناسبة التجديد النصفى لمجلس الشيوخ على أن لاتتدخل شعب الهيئة بصفتها الرسمية فى هذه المعركة ، ولكل أخ مطلق الحرية فى أن ينتخب من شاء من حضرات المرشحين متى اعتقد أنه أقدرهم على خدمة المصلحة العامة بغير نظر إلى أى اعتبار آخر ، وأن لاتتخذ دور الإخوان مقراً لدعاية انتخابية من أى لون كان . وأن لاتقبل الهيئات الإدارية للإخوان تبرعات ما من أحد المرشحين لأى غرض من الأغراض طول هذه الفترة

تاسعاً : فى ٨ مايو صدر البيان البريطانى الذى أذاعته السفارة البريطانية بالقاهرة ونصه: « إن السياسة البريطانية المقررة لحكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة هى توطيد محالفتها مع مصر على أساس المساواه بين أمتين تجمع بينهما مصالح مشتركة . وتطبيقا لهذه السياسة بدأت المفاوضات فى جو من الود وحسن النية. وقد عرضت حكومة المملكة المتحدة إجلاء جميع قواتها البرية والبحرية والجوية عن الأراضى المصرية والمفاوضة لتحديد مراحل هذا الجلاء وموعد إتمامه والتدابير التى تتخذها الحكومة المصرية لتحقيق تبادل المعونة فى زمن الحرب أو فى حالة توقع التهديد الوشيك بها طبقاً للتحالف » .

وتبادل الطرفان المصرى والبريطانى المذكرات والمشاريع وتعددت الاجتماعات بينهما حتى توقفت المفاوضات عند تقدم الطرف البريطانى بمشروع لا يكاد يختلف عن معاهدة ١٩٣٦ فيطلب خمس سنوات لإتمام الجلاء ، ويطلب فى حالة الحرب أو التهديد بها أن تسمح مصر للقوات البريطانية باستخدام أرضها بصفة كاملة كقاعدة حربية .

وفى ٢٥ سبتمبر تقدم الجانب المصرى برد على المشروع البريطانى . ويتضمن هذا الرد أن يكون الجلاء فى سنتين واستبعاد مادة خطر الحرب أو التهديد بها ونص على وجوب وحدة وادى النيل .

عاشراً : رأت الحكومة إدخال بعض تعديلات على هذا الرد فرفضت هيئة المفاوضات ذلك بأغلبية أعضائها – وهم المستقلون – ولما وصل الرد إلى الجانب البريطانى قرر قطع المفاوضات وغادرت هيئة المفاوضين الإنجليز إلى لندن .. وعرض صدقى أن يسافر بنفسه إلى لندن لمتابعة المفاوضات فيها فرفضت الهيئة بنفس الأغلبية ذلك ، وصرح على ماهر وعلى الشمسى : بأن على مصر أن لا تعقد أية معاهدة مع بريطانيا ... فاضطر صدقى إلى تقديم استقالة وزارته إلى الملك الذى حاول إسنادها إلى شريف صبرى فرفض فاضطر الملك إلى رفض استقالة صدقى .

الحادى عشر : لما شعر الإخوان بأن الوزارة راغبة فى التساهل مع الإنجليز فى حقوق البلاد اعتبروا هذا إخلالا من صدقى فى تعهده لهم ونكثاً منه فى وعده الذى قطعه على نفسه وأيدوه على

أساسه ؛ فأعلنوا تخليهم عن تأييده ، ووضح هذا فى عريضة رفعوها إلى الملك فى ٨ ا نوفمبر ١٩٤٦ وفى خطاب أرسلوه إلى صدقى باشا فى نفس التاريخ وقد نشر كلاهما فى الصحف فى نفس اليوم ، ونثبت فيما يلى نصهما :

إلى مقام جلالة الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه والله أكبر ولله الحمد

حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد تتابعت الأيام والشهور ومضت الحوادث يتلو بعضها بعضاً وكلها تثبت أن المفاوضات بين مصر وبريطانيا لم تعد الوسيلة الصالحة لتحقيق مطالب البلاد ، وأنها ليست أكثر من إجراء يقصد من ورائه الإنجليز التعاقد لحماية مصالح يدعونها لا تتفق قطعاً مع استقلال البلاد وحريتها مع تفويت الفرص السانحة وكسب الوقت والعمل على تفريق كلمة الأمة .

وقد أدرك شعب وادى النيل بفطرته السليمة هذه الحقيقة فحدد مطالبه تحديداً واضحاً ثم انتظر وصبر طويلا ، حتى إذا لم يبق فى قوس الصبر منزع طلب إلى الحكومة ممثلا فى كل هيئاته الوطنية وصحفه وجرائده ، بل على لسان بعض أعضاء وفد المفاوضة نفسه أن تعلن فشل هذه المفاوضات وتتجه اتجاها سليما ، فترفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة ، وتعلن سقوط معاهدة ١٩٣٦ التى أصبحت بحكم الحوادث والظروف غير ذات موضوع كما صرح بذلك معالى وزير الخارجية المصرية فى مجلس النواب ، وتطلب إلى الإنجليز وغيرهم سحب جميع القوات الأجنبية عن أرض الوادى وجوه ومائه ، وتدعو الأمة وتنظم معها سبيل الجهاد للوصول إلى الاستقلال الكامل والحرية الصحيحة كما تفعل كل أمة مجاهدة نكبتها الحوادث بظلم واحتلال غير مشروع ...

ولكن حكومة صدقى باشا الأولى والثانية لم تصغ إلى هذا الصوت القوى والوطنى المخلص وأصرت على المضى فى طريقها ، حتى بعد أن سافر المفاوضون الإنجليز إلى بلادهم واعتزم صدقى باشا أن يلاحقهم إلى هذه البلاد وأن يسافر إلى لندن لاستئناف المفاوضات التى لا خير فيها ولا فائدة ترجى من ورائها .

وأمام هذا الموقف الضار بمصلحة الوطن فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الدقائق فضلا عن الأيام والشهور ننفقها فى العمل المنتج — يفزع الإخوان المسلمون إلى جلالتكم راجين أن

حقوق البلاد لتنهض بذلك حكومة قوية على هذه القواعد السليمة والأسس الصالحة .

ويعتقد الإخوان المسلمون من كل قلوبهم أنهم إنما يعبرون بذلك عن شعور أمة وادى النيل جميعاً من الشمال إلى الجنوب ، وإن جلا لتكم وأنتم الوطنى الأول خير من تتحقق على يديه الآمال وتنصلح بسامى حكمته وجميل إرشاده وتوجيهه الأحوال .

ولقكم الله للخير وحقق للوادى فى عهدكم الزاهرمايرجوه من صلاح وحرية واستقلال والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

إلى رئيس الوزراء :

حضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ...

فقد أسندت إلى دولتكم مقاليد الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٦ وكان معروفاً أن المهمة الأولى للحكومة هى مفاوضة الإنجليز لاستخلاص حقوق الشعب الحقة التى أعلنتها الأمة وسلمت بها الحكومة (الجلاء التام ووحدة وادى النيل) .

وكان المفروض أن لا تستغرق هذه المفاوضات أكثر من شهر أو شهرين أوثلاثة فى نظر أطول الصابرين صبراً ، وخصوصاً وحقوق الوطن واضحة لا تحتاج إلى كثير من لف أودوران ..وقد درست القضية درساً وافياً من الجانبين ، وضاع على الأمة عام كامل أو يزيد بتفريط الحكومة الماضية وعدم مبادرتها إلى المطالبة بحقوق البلاد منذ وضعت الحرب أوزارها فى وقت تتقرر فيه مصائر الأمم وتقف فيه الشعوب على مفترق الطرق أحوج ما تكون إلى الدقائق الساعات بله الشهور والسنوات .

ولكن المفاوضة طالت حتى أسأمت وأملت فتوقفت واستؤنفت ثم انقطعت ووصلت ثم يتجنى علينا المفاوضون الإنجليز فهزوا أكتافهم وجمعوا أوراقهم وانصرفوا عنا إلى بلادهم هازئين ساخرين .

وكان المنتظر بعد هذه اللطمة القاسية وبعد أن عبث الغاصبون بحقوقنا ووقتنا ورجالنا هذا العبث وأضاعوا علينا كل هذا الوقت الطويل ، وارتفعت الأصوات من كل جانب تهيب بالحكومة أن تعدل عن هذه الخطة التى لاخير فيها ولا فائدة ترجى من ورائها .وبلغت إليها قرارات

بأجمعها من الشمال إلى الجنوب ، ووضح أن المشروع الإنجليزى والمشروع المصرى لا يحققان مطالب البلاد ، ولا يزيد كل منهما عن أنه تنظيم مهذب الحواشى للحماية والاحتلال ، وأن الإنجليز غير مستعدين إلى أى تغيير جوهرى فيما عدا الصيغ والألفاظ .

كان المنتظر من الحكومة أمام هذا كله أن تصغى إلى هذه الأصوات الوطنية القوية المخلصة وتحترم إرادة الشعب الذى تدعى أنها تحكم باسمه وتبادر فتتخذ هذه الخطوات :

إعلان فشل المفاوضات الحالية وأنها لن تقبل بعد الآن أن تدخل مع الإنجليز فى مفاوضات أخرى بعد أن أثبتت الحوادث كلها أن بريطانيا لا تريد من وراء أى مفاوضة إلا التعاقد والاعتراف بمصالح تدعيها تتعارض كل التعارض مع حريتنا واستقلالنا وحقوقنا الثابتة المقررة .

وإعلان سقوط معاهدة ١٩٣٦ التى ألغتها الحوادث العالمية وأقر وزير الخارجية المصرية فى مجلس النواب أنها أصبحت غير ذات موضوع .

وأن تطلب إلى الإنجليز وغيرهم فى عزم وإصرار سحب جميع قواتهم البرية والبحرية والجوية من الوادى كله ، وإلا اعتبر وجود هذه القوات اعتداء مسلحاً على سيادة البلاد تترتب عليه آثاره العملية من عدم التعاون مع بريطانيا ، والقانونية من قطع العلاقات الدبلوماسية بيننا وبينها .

وتدعو الأمة إلى الجهاد فى سبيل حقوقها ، وتنظم معها وسائله وأساليبه كما تفعل كل أمة ترجو الحياة العزيزة ، وتؤثر الموت الكريم فى ظل الاستشهاد على الإستكانة والذل والاستعباد .

ولكن حكومة دولتكم لم تفعل شيئاً من هذا بل أصرت إصراراً عجيباً على موقفها الضعيف المتخاذل ، وأمعنت فى الإصرار والتمسك بأهداف أمل خائب باعتزامكم السفر إلى لندن لاستئناف المفاوضات هناك ، وأخذت تكبت شعور الهيئات والجماعات والأفراد وتصادر الحريات ، وتمنع الاجتماعات ، وتتهيأ لقمع الحركات الشعبية المخلصة بالحديد والنار .

وأمام هذا الموقف الضار بقضية الوطن ومصالحه فى الداخل ، وأمام قرار الجمعية العمومية للإخوان المسلمين الذى يقضى بأن الحكومة المصرية إذا أصرت على المفاوضة ، ولم تنزل على رأى الأمة ، ولم تعلن الخطوات السابقة خلال شهر سبتمبر الماضى فإن الأمة تعتبرها متضامنة مع الغاصبين فى الاعتداء على استقلال الوطن وحريته وتجاهدها معهم سواء بسواء .

يسجل المركز العام للإخوان المسلمين على حكومة دولتكم أنكم بإصراركم هذا تفوتون على هذه البلاد أثمن الفرص وتكونون بذلك قد تضامنتم بقصد أو بغير قصد مع الغاصبين فى الاعتداء

على استقلال الوطن وحريته وأن هذه الحكومة لا تمثل رأي البلاد في شيء ، وكل إجراء تتخذه باطل أساساً ، وعليكم أن تدعوا أعباء الحكم لمن هو أقدر منكم على سلوك النهج القويم ،وإعلان حقوق الوطن كاملة من غير حاجة إلى تصديق الغاصبين ، وتنظيم قوى الأمة لتكافح الظالمين المعتدين – وستجاهد الأمة كل معتد على حقوقها من أبنائها أو من الأجانب عنها بكل وسيلةمشروعة حتى تصل إلى ماتريد – وهي واصلة بإذن الله والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

الحادى عشر : فهم صدقي باشا عقب هذين الخطابين أنه لم يعد له من سند شعبي يستند إليه وأن الشعب الذى ظل هادئاً طيلة مدة وزارته السابقة سيتحرك ، ومعروف للجميع أنه هو الحاكم الجبار الذكى القوى البارع فى استغلال سلطاته الحكومية فى محاربة أعدائه السياسيين والذى طالما لجأت إليه السراى الملكية لتأديب المتمردين على طاعتها من الزعماء الوطنيين ..وإذن فلابد من رجوعه إلى طبيعته وحشد قواته وتعبئة جنوده لمواجهة هؤلاء الوطنيين الجدد ... وقد سبق له أن أذل من هم أعظم منهم شأناً فأدخلهم جحورهم ...وكان أن فعل صدقي ماكان متوقعاً منه فاتخذ الإجراءات الآتية :

١ – قررت الحكومة تأجيل الدراسة فى الجامعة وجميع المعاهد والمدارس إلى مابعد عيد الأضحى ٩ نوفمبر أى نحواً من شهر .

٢ – فى ١٥ أكتوبر أصدر النقراشي وهيكل بياناً يتحديان فيه رأى الإخوان ويقولان : لقد رأينا فى سفر رئيس الوزراء ووزير الخارجية الضمان الكافى لبيان وجهة النظر المصرية – وكان وزير الخارجية فى ذلك الوقت إبراهيم عبد الهادى .

٣ – صودرت جريدة الإخوان المسلمين . وصدر قرار حظر من النيابة يحظر نشر أية أخبار عن حوادث المظاهرات.وأجرى تحقيق مع وكيل الإخوان ورئيس الإخوان فى الإسكندرية

٤ – أصدرت وزارة الأوقاف أمراً إلى أئمة المساجد بعدم السماح لغير وعاظ الحكومة بالخطابة فى المساجد .

٥ – فى ٢٤-١١-١٩٤٦ سافر صدقي ووزير خارجيته الجديد إبراهيم عبد الهادى إلى لندن وأتى بمشروع معاهدة ادعى فيه فى بيان أذاعه أن مشروعه حقق مطالب البلاد فى الجلاء ووحدة وادى النيل .

٦ – أذاع مستر إتلى رئيس وزراء بريطانيا ومستر بيفن بياناً كذبا فيه صدقي من ناحية السودان وأعلنا أن بريطانيا لن تجلو عن السودان حتى ولوتخلت مصر عنه .

٧ — حاول صدقى عرض مشروعه على هيئة المفاوضات فرفضه سبعة أعضاء منها وهم المستقلون . فطلب من الهيئة إرجاء البت فى المشروع حتى اجتماع آخر ثم رفض دعوة هذه الهيئة بعد ذلك .

٨ — أصدر المعارضون السبعة بيانا بأن المشروع لايحقق أهداف مصر فى الجلاء ووحدة وادى النيل . فصدر مرسوم ملكى بحل هيئة المفاوضات وذلك فى ٢٩-١١-١٩٤٦ .

٩ — بعد أن تخلصت الحكومة من هيئة المفاوضات عرضت مشروعها على مجلس النواب الذى يمثل السعديون والأحرار الدستوريون أغلبية ساحقة فيه ، فانسحب ٥٥ عضواً هم أعضاء الحزب الوطنى وحزب الكتلة والمستقلون وطلبت الحكومة عقد جلسة سرية . ومنحها هذا المجلس الثقة بأغلبية ١٥٩ صوتاً . وشكر صدقى الأعضاء الذين أيدوه ، وقد امتنع ثلاثة عن التصويت هم الرجال وشوكت التونى ومحمد بربرى — وكان ذلك فى ٢٧ -١١-١٩٤٦ .

الثانى عشر : وقعت حوادث شديدة فى أنحاء القاهرة ، لقد قام الأهالى بالتجمهر فى ميدان سليمان باشا وكذلك فى ميدان الملكة فريدة وفى شبرا ، وقامت مظاهرات أشعلوا النيران فى كومة من الكتب الإنجليزية وفى بعض عربات الترام كما حطموا واجهات بعض المحلات فى شارع فؤاد وفى القصر العينى قلبوا بعض عربات الترام . وفى باب الشعرية هاجم الأهالى مكتبة تبيع الكتب الإنجليزية واستولوا عليها وأحرقوها ... وفى مساء ذلك اليوم أصدرت وزارة الداخلية ورياسة مجلس الوزراء بلاغين نسبا فيهما هذه الحوادث إلى الإخوان وتوعداهم بأشد العقوبات إذا تكررت هذه الحوادث ... مع أن هذه الأحداث وما تلاها لم تكن إلا يقظة شعبية عامة ولم يكن دور الإخوان فيها أكثر من بعث الوعى الوطنى .

الثالث عشر : بعد حصول صدقى على الثقة التى أشرنا إليها من مجلس النواب اعتقد أنه قد أصبح فى مأمن ، وقد استخدم بكل ما عرف عنه من فجور كل وسائل القمع والإرهاب حتى يوقف التيار الزاحف نحوه فاعتقل الوكيل العام للاخوان وعاث فى البلاد فساداً محتمياً فى قرار حظر أنباء المظاهرات الذى أصدرته النيابة ولكن استجواباً قدمه النائب موريس فخرى عبد النور هتك الستار الذى حاكه حول إجرامه ، ونورد نص هذا الاستجواب الذى يقول :

«تواترت الأخبار بأن حوادث مؤلمة وقعت يوم ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٦ على طلبة أبرياء ، ومنها أن طلبة كلية العلوم بالعباسية وفؤاد الأول وفاروق الأول ومصر الثانوية والأهرام الثانوية والهندسة التطبيقية هاجمهم البوليس وقد قتل منهم الكثيرون ، كما اقتحمت دبابة مبنى

إحدى المدارس وأطلقت نيرانها الحامية على الطلبة العزل فأصابت الكثيرين ، كما قبض على مئات في مختلف أنحاء القطر»

وفى ٢-١٢-٤٦ نشرت جريدة الديلى ويركر الإنجليزية مقالا وصفت فيه الاضطرابات التى وقعت فى مصر أخيراً وقالت إن صدقى باشا كان محروساً بأورطة كاملةمن رجال البوليس المسلحين عندما وصل إلى البرلمان لإحراز قرار الثقة الأخير .

الرابع عشر : بعد كل هذا أصر صدقى باشا على إيفاد وزير خارجيته إبراهيم عبد الهادى إلى لندن لتوقيع المعاهدة .

الخامس عشر : على أثر ذلك وقعت فى القاهرة أحداث خطيرة وصفتها الصحف فقالت : ليس هذه الأحداث الغريبة أو الخطيرة بعبارة أصح وأوضح من سابقة بل لعلها الأحداث الأولى من نوعها :

١ - فى أيام ٣-١٢ وما تلاها بعد الساعة العاشرة من مساء اليوم الأول سمع سكان القاهرة دوياً هائلا ملأ الأرجاء وأحدث هزات عنيفة فى بعض المساكن فأخذوا فى تبين مصدر هذا الدوى المفاجئ . ولجأ بعضهم إلى أحد الأقسام لينبئها بالخبر ولكنه تبين أن هذا القسم كان مبعث الدوى والانفجار ، ذلك أن قنبلة ألقيت عليه فانفجرت فأحدثت هذا الدوى الهائل .

وقد حدث هذا فى وقت واحد فى أقسام بوليس الموسكى والجمالية والأزبكية وباب الشعرية ومصر القديمة وفى نقطة بوليس السلخانة .

وقد سببت تحطيماً لنوافذ هذه الأقسام ولم يصب أحد ولم يعرف الفاعل .

٢ - أضرب المحامون

٣ - اعتكف صدقى فى اليوم نفسه وعقد اجتماعاً فى بيته برجال الأمن

٤ - ألقيت قنبلتان على سيارة هيكل باشا انفجرت إحداهما فحطمت السيارة وأصابت جندى الحراسة إصابة بسيطة .

٥ - بالرغم من تشديد الحراسة على مراكز البوليس بوقوف حراس مسلحين على سطوحها توالى إلقاء القنابل على أقسام عابدين والخليفة والجيزة ومركز إمبابة وعلى معسكر بريطانى بمصر الجديدة .

٦ - قامت قوات كبيرة من البوليس بقيادة اللواء سليم زكى باشا حكمدار العاصمة بمحاصرة

المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية الجديدة وبتفتيشه وتفتيش دار الجريدة والمطبعة لم يعثر على شئ .

السادس عشر : أقنعت هذه الأحداث الأخيرة صدقي باشا بوجوب نزوله على إرادة الأمة فقدم استقالته في ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ولم يكن هذه المرة أمام القصر بد من قبولها .

تعقيب :

بعد فراغنا من سرد الأحداث التي توالت على البلاد في خلال سنتين ابتداء من تولى وزارة النقراشي باشا عقب انتهاء الحرب في فبراير سنة ١٩٤٥ حتى استقالة وزارة صدقي باشا الثانية في ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، نرى أن لاندع هذا السرد التاريخي يمر دون نظرة فاحصة فيه ، وتحليل دقيق لأحداثه ، وتعليق واع على نتائجه وثمراته ، لما كان لهذه الأحداث من آثار بعيدة المدى في مستقبل هذه الأمة .

أولا : لم يكن الإخوان دخلاء حين زجوا بأنفسهم في خضم المطالبين بحقوق الشعب في الحرية والاستقلال ،فطبيعة الاسلام تأبى أن يعيش المسلمون تحت سلطان غيرهم ، يحتلونأرضهم بجيوشهم ، يستغلون خيراتهم لأنفسهم والله تعالى يقول : «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ومن الأحكام المقررة في الفقه الإسلامي أنه إذا ديست أرض الإسلام صار الجهاد فرضاً على كل مسلم ومسلمة . والحديث الشريف يقول «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»

فإذا كان الذين يتحركون في هذا الأمر إنما تحركهم الأهواء والمطامع ويهدفون إلى الجاه والمناصب ، فتحرك الإخوان في هذا الأمر إنما هو بدافع من صميم الدين والهدف منه إرضاء رب العالمين ، فهم يبذلون ولا يقبضون ويضحون ولا يغنمون .

ثانيا : أن مساندتهم لحاكم أو معارضتهم لحاكم لم يكن الدافع إليها تحقيق مأرب شخصي أو نفع مادي ، وإنما كان الدافع إليها الحرص على تحقيق مطالب البلاد ، وانتزاع حقوقها في الحرية والاستقلال .. ولو كان هدفهم شخصياً لما أيدوا صدقي باشا أول الأمر حين قطع على نفسه عهداً بالعمل على تحقيق هذه المطالب كاملة ، ولما عارضوه حين بدا منه التفريط في بعض هذه الحقوق وحين أصر على فرض اتفاقيته القاصرة على الشعب .

فمساندة الحاكم لمغنم تظل على حالها لا تتغير ما ظل الحاكم قابضا على أزمة السلطة قوياً في مركزه ، وحكومة صدقي باشا ظلت قابضة على أزمة السلطة متمتعة بتأييد الملك والبرلمان حتى آخر يوم من أيامها ، ولولا معارضة الإخوان لها لما تزعزع مركزها .. فإذا كان هدف الإخوان

من مسانفدتها تحقيق المآرب وجنى المغانم لما عارضوها وزعزعوا مركزها لتظل لهم بقرة حلوباً .

ونحب بهذه المناسبة أن نوجه سؤالا إلى الذين يلقون بظلال من الشك على علاقة الإخوان بوزارة صدقى باشا فنطالبهم بأن يذكروا لنا المغانم التى جناها الإخوان المسلمون من تأييدهم لهذه الوزارة سواء أكانت هذه المغانم للدعوة عامة أو لأفراد من أعضائها .. فإن عجزوا عن ذلك - وهم عاجزون لاننا أعلم بأنفسنا منهم وسجل التاريخ بين أيدينا - كان كلامهم أو كتابتهم فى هذا الصدد نوعاً مما أشار الله تعالى إليه فى قوله «والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً» ونقول نحن لهؤلاء ما قال الله تعالى من قبل «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين»

أما تلقف أراجيف من أفواه الذين يملكون أبواق الإذاعة والإعلان ، والتقرب بها إلى حاكم طاغية فهو فى ذاته إثم كبير وتزوير للتاريخ ، وعلى الذين ارتكبوا هذا الخطأ أن يصححوه ويرجعوا إلى الحق فيه قبل أن يسجله التاريخ عليهم فيبوئوا بإثمة ولا يجدوا من دون الله من ولى ولا نصير .

وليست هذه أول فرية ولا آخر فرية تفترى على الإخوان المسلمين ولكن الله تعالى كان للمفترين بالمرصاد ففضح افتراءهم وكشف سوءاتهم وخرج الإخوان وصفحتهم ناصعة البياض وذهب هؤلاء بما تكشف من زورهم وافترائهم وإجرامهم إلى الجحيم «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الأمثال»

ثالثا : أن إسقاط صدقى باشا لم يكن هزيمة شخصية له بل كان هزيمة له وللحزبين المؤيدين له السعديين والأحرار الدستوريين وللملك من ورائهم وللسياسة الإنجليزية التى كانت متلهفة على عقد المعاهدة فى أقرب وقت ممكن تثبيتا لمركزهم فى مصر فى الوقت الذى يوهمون فيه المصريين بأنهم نزلوا عند إرادتهم وتنازلوا عن معاهدة ١٩٣٦ التى أحسوا أنها فقدت فاعليتها وآذنت بانتهاء

رابعا : كشفت هذه الأحداث عن القوة الحقيقية للإخوان ، وليس معنى ذلك أن الأطراف المختلفة لم تكن تعرف أن الإخوان قوة كبيرة لها وزنها - فلقد كان الكل يعرفون - ولكن هذه الأحداث أماطت اللثام عن قدر هائل من القوة فاق ما كانوا يعتقدون وتخطى ما كانوا يتصورون ونورد فيما يلى مقالا نشرت ترجمته جريدة المصرى فى يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦ تحت عنوان : رأى لندن فى الأحزاب المصرية :

لندن — لمراسل المصرى الخاص :

كتبت جريدة «التيمس» مقالا هاماً فى نسختها الأسبوعية عن «الروح الوطنية فى مصر» جاء فيه «إن المعارضة الرئيسية فى مصر للبريطانيين صادرة من أربع هيئات رئيسية فى الوقت الحاضر هى : حزب الوفد القوى والحزب الوطنى الصغير وحزب مصر الفتاة والإخوان المسلمون» أما الوفديون والوطنيون فهم حزبان سياسيان منظمان ، وموقفهما تجاه تعديل المعاهدة ومسألة العلاقات بين بريطانيا ومصر يخضعان لاعتبارات سياسية ولا نستطيع إن نقول أن أحدهما يعادى الأجانب.

أما حزب مصر الفتاة فهو جماعة تغالى فى الوطنية تسير على برنامج يدل على أن زعماءها قد درسوا نظم جمعيات الشباب الهتلرى والفاشيستى .

على ' الإخوان المسلمين يزعمون أنهم من طراز آخر يختلف عن ذلك ، وقد وصفهم الشيخ حـ مؤسس هذه الهيئة وزعيمها بقوله : إنهم ليسوا سياسيين أو حزباً سياسياً ، ولكنهم وطنيون يـعملون لخير مصر واسترداد حقوقها المغتصبة .. ومع ذلك فإن هذا وصف شامل لجمعية تستحق نشأتها وتأثيرها فى الحياة المصرية العامة دراسة وبحثاً ، فقد أنشأ الشيخ حسن البنا الإخوان المسلمين منذ ١٩ عاماً حينما كان مدرساً فى الاسماعيلية ، ولم تتقدم هذه الحركة تقدماً حقيقياً إلا بعد انتقاله إلى القاهرة فى عام ١٩٣٤ .

ولما كان حسن البنا شديد الإيمان بالتعاليم الإسلامية ، وخطيباً مفوها ، فإنه ما لبث أن كسب أتباعاً وأنصاراً كثيرين ونفوذاً كبيراً ، وأظهر أنه سياسى بارع، فقد أصبح للجمعية بفضل إدارته الحكيمه فروع فى جميع أنحاء مصر ، وبدأت مبادئه تنتشر فى البلدان العربية المجاورة ، ثم أصدر جريدته فى أوائل عام ١٩٤٦ .

وتتألف هذه الجمعية التى يقدر عدد أعضائها ما بين ٣٠٠ ألف ، ٦٠٠ ألف عضو من طبقة العمال ، ولكنها تضم عدداً من الطلبة وبعض المثقفين من الطبقة الوسطى ولا سيما المعلمين . ولم تبد طبقة أصحاب الأراضى حماسة كبيرة نحو الإخوان المسلمين خوفاً من احتمال ازدياد قوتهم مما يقضى إلى إضعاف سلطة الطبقة العليا على الفلاحين .

ويلوح أن لهذه الهيئة طابعاً عسكرياً فأعضاؤها يسيرون فى طوابير ويتدربون ويظهرون فى زى عسكرى أمام الجمهور .

والهدف الرئيسى للهيئة هو العمل على إحياء الإسلام مما قد يفيد حياة الأمة المصرية بأسرها ، ولتحقيق هذا الهدف تقضى الضرورة لتنشئة جيل جديد يفهم معنى الإسلام ويتبع التعاليم الإسلامية.

ويعتقد الإخوان المسلمون أن المدنية الغربية الحديثة تقوم على الماديات وحدها ، وهي المسئولة إلى حد كبير عن تدهور السلوك والأخلاق ، ونشر الفقر والبؤس في مصر . ويرون كذلك وجوب إثارة الشعور المعادي للأجانب في مصر . وقد قال الشيخ حسن البنا في العام الماضي إنه يتكلم باسم ٥٠٠ ألف من الإخوان المسلمين الذين يمثلون مبادئ وآمال ٧٠ مليون عربي و ٣٠٠ مليون مسلم . وأضاف إلى ذلك أن مهمة الإخوان المسلمين ليست سياسية بما في هذه الكلمة من معنى ولكنهم يتمسكون بالإصلاح الإجتماعي مما قد يجعلهم قريبين من الشئون السياسية . ومع أن بعض المصريين قد بلغوا شأواً كبيراً من المدينة والتقدم إلا أن معظم السبعة عشر مليوناً المواطنين في هذه البلاد يعيشون كالحيوانات (كذا) ولابد للمصريين أن يشغلوا جميع فروع الحياة المصرية ثم يرحبوا بالأجانب في الفروع الباقية الأخرى بعد ذلك . ولا ريب أن القوة والحرية وتعاون الدولة أمور ضرورية لتحقيق هذه الأهداف ، ولهذا يتعاون الإخوان المسلمون مع الوطنيين والسياسيين . ولقد اتهم الإخوان بالتعصب الديني ولكن الإسلام أوصى بالتسامح ولذلك فهم لا يشعرون بالتعصب الديني ضد الأجانب .

وقد تدخل الإخوان المسلمون للمرة الأولى في الشئون السياسية المحضة في عام ١٩٣٦ وكانوا من مشجعي الأعمال المعادية للبريطانيين في مصر حينما نشبت الثورة العربية في فلسطين ، وهم ما فتئوا من أنصار مفتي فلسطين ، وضاعفوا من نشاطهم بعد ما وضعت الحرب أوزارها . وكان هناك ما يحمل على الاعتقاد في عام ١٩٤١ على أنهم يقومون بأعمال التخريب ، ويجمعون المعلومات عن قوات الحلفاء ويقومون بالدعاية المعادية لهم ومحاولة إحباط مجهودهم الحربي بصفة عامة في مصر

وفي أكتوبر عام ١٩٤١ اعتقل الشيخ حسن البنا غير أنهم أطلقوا سراحه بعد ذلك بشهر واحد . وفي عام ١٩٤٢ بعد ما تولت حكومة النحاس باشا الحكم أعلن تأييده الصريح للحكومة والمعاهدة المصرية الإنجليزية . ولما أصدر الشيخ حسن البنا تعليماته إلى أتباعه بعدم معارضة الحكومة بدا أنه يؤيدها بعض الوقت تعرض لانتقاد شديد من أنصاره غير أنه تغلب على هذه المعارضة ومضى في تعزيز مركزه .

وشرع في تنظيم حملة واسعة النطاق لاكتساب أعضاء جدد لمبادئه . ولم يمض وقت طويل حتى وصف الوفد الإخوان المسلمين بأنهم أصبحوا خطراً على البلاد واتهمهم بالتدخل في السياسة تحت ستار الدين ، وسارت العلاقات بين الإخوان المسلمين والوفد – وهي علاقات لم تكن طيبة في وقت من الأوقات – من سيئ إلى أسوأ .

ويتدخل الإخوان المسلمون في الوقت الحاضر في الشئون السياسية علانية ، ويعتقدون أن

البريطانيين ما زالوا معتدين واستعماريين وأن على مصر أن تقطع المفاوضات وتعلن إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتطالب البريطانيين بسحب قواتهم بدون قيد أو شرط فى وقت محدد يعينه الخبراء العسكريون المصريون . فإذا رفضوا ذلك اعتبروا معتدين مسلحين ولابد من طلب معونة من هيئة الأمم المتحدة .

ويرى الإخوان المسلمون أن لا تقبل أى معاهدة أو تحالف مع البريطانيين ما دام الاحتلال قائماً ، ويجب أن يستعد سكان وادى النيل للكفاح من أجل حقوقهم وأن لا يكون هناك تعاون من الآن مع البريطانيين .

ولم يظهر بعد تأثير هذه الدعاية المعادية للأجانب ، وطبيعى أن تسمع آراء الإخوان المسلمين عن الأمانى المصرية إذ لا ريب أن دعواتهم الوطنية قد لاقت آذاناً مصغية من قبل كثير من المصريين الأوفياء المخلصين . غير أنه لا يمكن التسامح أو التهاون تجاه محاولة خلق عداوة وشكوك بين شعبين نشأت بينهما صداقة كبيرة وعشرة طويلة عادت عليهما بالمنفعة المتبادلة ، ولحسن الحظ لا يزال المصرى العادى والبريطانى العادى بعيدين كل البعد عن كراهية كل منهما للآخر .»

خامسا : كما أن هذه القوة التى كشفت عنها هذه الأحداث قد وضعت هذه الهيئة فى وضعها الصحيح فى مكان الصدارة ، فإنها جرت عليها ويلات ومصائب من كل جانب ، فالوفد أحس أن مركزه الشعبى صار فى خطر — وسنفرد لذلك فصلا إن شاء الله — وأحس الملك أنه أصبح لأول مرة — وجها لوجه — أمام هيئة شعبية قادرة مسيطرة لا مطامع لها فى حكم ولا مناصب ، وهذه المطامع هى التى كان يقود بها الزعماء الشعبيين وغير الشعبيين من مناخرهم ليركعوا تحت أقدامه . وأحس محترفو السياسة من الزعماء الوهميين من خدام القصر أنهم أصبحوا بذلك مهددين . وأحس الإنجليز والمستعمرون أنهم أصبحوا أمام وضع جديد يهدد سياستهم فى مصر والبلاد العربية والبلاد الإسلامية .

وزارة النقراشى الثانية

بعد سقوط وزارة صدقى باشا كان الناس ينتظرون أن تسند الوزارة إلى شخصية قوية ذات تاريخ وطنى مشرف ، وكان آخر ما يخطر بالبال أن يستدعى لتأليفها رجل تخاذل أمام الإنجليز بمذكرته الضعيفة المتهالكة التى سجلت عليه الخزى والتفريط فى حقوق الوطن ... ولكن الذى حدث كان عجيباً فقد استدعى فعلا محمود فهمى النقراشى باشا فألف وزارته الثانية كأن البلاد قد أقفرت من الرجال .

ومع ما فى هذا التصرف الملكى من تحد لمشاعر الشعب عامة ومشاعر الإخوان خاصة ، فإن الإخوان -إنقاذاً لقضية البلاد وتلافيا لضياع الوقت الثمين- تناسوا تاريخ الرجل وسابق فشله وسوء تصرفه وتقدموا إليه بخطة كاملة ونصيحة مخلصة ، فقد بعثوا إليه فى ٥-١-١٩٤٧ بالخطاب التالى :

دولة النقراشى باشا رئيس الوزراء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فقد وصل الموقف فى الداخل والخارج إلى الحال التى تعلمونها دولتكم من الضيق والحرج ، وأصبح من الحتم اللازم على كل غيور على مصلحة هذا البلد أن ينسى نفسه وحزبه ويذكر شيئاً واحداً هو خير هذا الوطن والعمل السريع الحازم لعلاج هذه الحال .

كل تصرفات الإنجليز ياباشا فى لندن وفى السودان وفى أى مكان تدل على أنهم لا يريدون أن يسيروا مع المطالب المصرية خطوة واحدة إلى الحق ، فهذه التصريحات المتوالية من رئيس الحكومة البريطانية ومن حاكم السودان . وهذه التصرفات العملية من إقصاء الموظفين المصريين والاستئثار بكل شىء دون حكومة مصر فى جنوب الوادى . وهذا التحدى كل يوم بقول جديد وعمل جديد ، كل هذه أدلة متوالية صريحة سافرة لا تقبل جدلا ولا تأويلا على أن القوم قد نفضوا أيديهم من الصداقة المزعومة والمجاملة الموهومة وآثروا أن يفرضوا ما يريدون فرضاً بالقهر أو بالغدر ولن يستطيعوا بإذن الله .

وكل شىء فى الداخل مظهر سافر واضح من مظاهر القلق والألم والأسى والأسف والحزن والضيق . هذه المعاهدة المعطلة وهذه الحريات المكبلة وهذا الرعب تمتلىء به الصدور وهذا الحذر من الحاكم والمحكوم . وهذه القوات من البوليس السرى والعلنى ترابط فى كل مكان . وتبعث الرهبة والريبة فى كل يوم ، ولا يمكن أن تعيش فى هذا الجو أمة مهما كان صبرها طويلا ومهما كان صدرها واسعاً وحلمها عظيما -والضغط يولد الانفجار ، لابد إذن من عمل شىء ، والسبيل أمامنا والحمد لله مهيأة والوسائل ممهدة ولا ينقصنا إلا الحزم والإقدام وإلى الأمام .

أعلن ياباشا فشل المفاوضات واقطعها فى عزة وكرامة ، وصارح البريطانيين بأنهم أحوج إلى صداقتنا منا إلى صداقتهم ، وأننا نعرف الوسائل التى تنال بها حقوقنا كاملة غير منقوصة ، وأننا لم نؤثر سبيل المفاوضات إلا إقامة للحجة وإثباتاً للمسالمة وإعذاراً إلى الله والناس ، ثم اطلب إلى الإنجليز جلاء قواتهم عن أرض الوادى فلا يليق بدولة عضو فى هيئة الأمم المتحدة أن تحتل

قواتها أرض دولة أخرى هي عضو في الهيئة كذلك كما هو نص القرار ؛ والإكان وجودهم عدواناً مسلحاً على سيادة الوطن وخروجاً على ميثاق هيئة الأمم وتهديداً للأمن والسلام في الشرق الأوسط .

فإن لم يفعلوا فتقدم بقضية الوطن إلى مجلس الأمن وإلى محكمة العدل وإلى كل مجمع دولي نأنس فيه ميلا إلى الإنصاف . ونفوراً من الظلم والعدوان بعد الدراسة الكاملة والتمحيص الواسع والتنظيم الدقيق ورعاية كل الظروف والملابسات .

ثم أطلق الحريات كاملة ولاتخش شيئاً ياباشا ، ولاتخف على الأمن والنظام فإنك لن تجد شعباً يقدر الأمن ويحب النظام ويدين بالطاعة كهذا الشعب المصري الذي لا يعرف أن يحيا إلا في ظل النظام والطاعة .

ثم وجه الدعوة إلى مواطنيك في جنوب الوادي وشماله في برنامج شامل مفصل يوضح غايتك ووسيلتك لتحقيق المطالب التي أجمعت عليها البلاد (الجلاء التام عن الوادي كله والحرص التام على وحدته) وادع الأمة جميعاً إلى أن تكون معك على ذلك ، وإلى أن تتألف من هيئاتها وأحزابها وجماعاتها ومفكريها جبهة قومية سودانية مصرية واحدة تتعهد الشعور الوطني وتسدده إلى الخير وتقف به عن العدوان ، وتنظم الدعاية الشعبية في الداخل والخارج ، فتعمل الحكومة بوسيلتها الرسمية وتعمل تلك الجبهة القومية إلى جانبها بوسائلها الشعبية .. والجميع يرمون عن قوس واحدة ، ويهدفون إلى غرض واحد معروف مقدس عزيز ... ولاتستبعد هذا ياباشا ولا تظنه من الخيال فقد رأيت وسمعت ولمست وأحسست استعداد الجميع العظيم لمثل هذا معارضين ومؤيدين ، على أثر بياناك بمجلس النواب .. فإذا خطوت بعده هذه الخطوة العملية فسيكون الجميع معك لا بمجرد التصفيق والاستحسان ولكن بالقول والعمل واللسان والسنان ، ولن يتخلف عنك في ذلك إلا من في قلبه مرض فيخسر نفسه وجهاده وماضيه ويظل مع الخوالف .

وثق ياباشا أنه لن يكون معك شعب وادي النيل وحده ولكن سيكون معك سبعون مليوناً من العرب يؤازرهم ثلاثمائة مليون من المسلمين تخفق قلوبهم لمصر وتتحرك مشاعرهم وعواطفهم لمشاعرها وتسكن بسكونها وليس ذلك بقليل .

دعني أصارحك ياباشا وأنت لا شك عليم بأن الأمة ليست كما كانت بالأمس ، فقد امتلأت أفئدتها بشعور جياش قوي ، وأصبح الوعي الوطني اليوم تام الاكتمال قوي الأثر ، والشعور الوعي قوة أية قوة وهما عدة الشعوب المجاهدة وسلاح الأمم المناضلة . كما أتاح الله لهذه الأمة من

رجالها وهيئاتها من جمع كلمتها الشعبية فى تشكيل منظم مرتب ، وفى وحدات مؤمنة بالدلة — والتجميع والتنسيق والنظام الدقيق قوة أخرى ولا شك — قوة تسرع إلى الخير وقوة تحول دون الشر فالزمام أبداً معقود ولن يفلت بإذن الله ..

يادولة الباشا — لقد تقدمت لدولتك بمثل هذه النصيحة منذ عام مضى وهأنذا أتقدم بها اليوم وأعتقد أنى بذلك قد أبرأت ذمتى وأديت أمانتى والوقت من ذهب فسر على بركة الله والله معك وأقدم ولا تتردد فتفلت الفرصة السانحة وتعود من جديد إلى التجارب القاسية ، وتستبين النصح ضحى الغد حيث لا يفيد ولا ينفع ألا قد بلغت اللهم فاشهد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هذا هو نص الخطاب الذى تقدم به الإخوان للنقراشى باشا بعد تسلمه مقاليد الحكم بأقل من شهر ويلاحظ فيه القارىء عدا الخطة المفصلة المقترحة ؛ بث روح الاطمئنان فى نفسه إلى أن الإخوان سيكونون بجانبه ومن ورائه وأن تنظيماتهم الشعبية قادرة على النهوض بأعباء الجهاد ضد المستعمر إذا ما ارتضت الحكومة سلوك سبيل الجهاد ، وهذا لعمرى هو نكران الذات حقاً أمام رجل لم يمض على اعتدائه على الشعب وعلى الإخوان بالذات إلا عام واحد .. بل يبدو أن بعض الطلبة أرادوا أن يبثوا الرعب فى نفوس الإنجليز حتى يرغموهم على التفاهم مع هذه الحكومة بأن انتهزوا أعياد الميلاد يوم ٢٥ ديسمبر فانفجرت خمس قنابل فى الاتحاد المصرى الإنجليزى وخلف باركاليفورنيا فى شارع توفيق وفى شارع جلال وشارع الملكة فريدة وعلى سيارة تاكسى كان يركبها الجنود الإنجليز أمام مدرسة بغمرة وهذه هى الأماكن التى يأوى إليها الجنود والضباط الإنجليز — على أن أحداً لم يصب .

مواقف متناقضة لهذه الحكومة :

١— بعد توجيه الإخوان خطابهم إلى النقراشى وإصدارهم بياناً إلى الشعب بنفس المعنى أعلن النقراشى أنه قرر قطع المفاوضات مع الإنجليز وعرض القضية على مجلس الأمن ، ومعنى هذا أنه نابذ الإنجليز بالعداء .

٢— بعد سقوط وزارة صدقى عشية حصوله على ثقة شبه إجماعية من مجلس النواب ثبت للنقراشى باشا ولغيره أن اعتماد الحاكم فى مصر لتثبيت مركزه وتأمين خطواته على تأييد هذا المجلس لم يعد كافياً وأنه لابد من الاستناد إلى قوة شعبية حقيقية ، ولما كان من المستحيل أن يحظى من الوفد بتأييد فلا مناص من اللجوء إلى الإخوان .

٣ — أعلن الإخوان تأييدهم لهذه الحكومة بعد أن أعلنت استجابتها لمطالب البلاد — ومعنى تأييد هيئة شعبية لحكومة كان يأمل المستعمر من وراء ضعفها الحصول على مكاسب له أن يحاول الدس

بين هذه الحكومة وبين هذه الهيئة حتى ينفرد بالحكومة وحدها فيملى عليها ما يشاء .

وكان الإخوان حريصين على أن لا يتيحوا الفرصة للمستعمر ، ولكن المستعمر لجأ إلى أساليب حقيرة – مستغلا الصبغة الدينية للإخوان – فسلط بعض صنائعه من المصريين فهاجموا بعض الكنائس والمعابد .

وقد ظهر أثر ذلك فى مقال نشرته جريدة فيلادلفيا تربيبون فى ٢٥-٥-٤٧ تعرضت فيه فيه للإخوان المسلمين بقولها « إن عدم الاستقرار فى مصر لا يرجع كله إلى الحمية الوطنية بين المصريين أنفسهم ، فهناك على سبيل المثال ما يسمونه جمعية الإخوان المسلمين وهى التى غدت مسئولة عن عدد من الحوادث التى وقعت فى مصر أخيراً . إن نشاط هذه الجمعية فى صالح الإسلام أكثر منه فى صالح المصريين ، وضد المسيحية أكثر منه ضد البريطانيين ؛ وهذا يفسر الهجوم الذى وقع أخيراً على كنيسة قبطية والهجوم الذى وقع منذ عام مضى على الكاتدرائية البريطانية فى القاهرة وعلى معابد اليهود والكنائس اليونانية فى الإسكندرية .. لقد بدأت هذه الحوادث تظاهرات سياسية واتهمت كمظاهرات للعنف يقوم بها المتعصبون المسلمون والدولة التى راقبت هذه التطورات باهتمام . وتعتبر الدولة التى تستفيد من ذلك هى روسيا فإذا استطاعت أن تثير الدول العربية ضد الدول الأوربية فإن الشرقين الأدنى والأوسط قد ينفجران ؟ » .

هذا بعض ما جاء بهذه الجريدة ولا داعى للتعليق عليه فالباعث عليه واضح والهدف منه ظاهر وهذا هو أسلوبهم فى الوقيعة بين الطوائف لا سيما حين ييأسون من مواجهة الحق البين والهيئات المؤمنة ذات المبادىء التى لا تشترى ضمائرها فى سوق النفاق والشهوات . وقد ثبت أن الهجوم على الكنائس من تدبير الإنجليز .

٤ – علم الإخوان كما علم غيرهم أن هذه الحكومة بالذات هى أضعف من أن تقوم بأعباء مواجهة الإنجليز لأن رئيسها النقراشى يحمل إصر تأييده المفاوضات القديمة واشتراكه واشتراك حزبه فيها وخطابه المشهور الذى تحدى فيه طوائف الشعب كله بتأييده بكل قوة مشروع صدقى – بيفن فى الجلسة السرية لمجلس النواب فعمل الإخوان على تكوين جبهة من جميع الهيئات المصرية المحايدة ضمت الشبان المسلمين ومصر الفتاة والحزب الوطنى والكتلة وحزب الفلاح وحزب العمال وانضم إليها السعديون الأحرار كما ضمت الشخصيات المستقلة . وكانت مهمة هذه الجبهة هى العمل على وحدة الصفوف فى مواجهة الإنجليز . وقد بذلت هذه الجبهة أقصى ما استطاعت من جهد ولكن نتيجتها قد أجملها صالح حرب باشا فى بيان أذاعه يوم ٢٤-٣-١٩٤٧ جاء فيه . :

«إن شباب الأمة فوضى في محاولة توحيد الصفوف لقمت بمقابلة الجهات المختلفة وتبين أنها ثلاث جهات :

١ — معسكر الحكومة ويتكون من حزبي الأحرار والسعديين .

٢ — معسكر الوفد .

٣ — معسكر الأحزاب والهيئات الأخرى (وهى التى تتكون منها الجبهة التى فوضته)

فالمعسكر الثالث رحب بالتوحيد ، ولكن المعسكر الأول رفض حل مجلس النواب الحالى فى الوقت الذى اشترط فيه المعسكر الثانى حل مجلس النواب الحالى .

فشلت هذه الجبهة فى مساعيها وظل النقراشى على تمسكه بأن يواجه الإنجليز وحده ، فدارت مناقشات واجهه بعض أعضاء مجلس الشيوخ فى أثنائها بمواطن الضعف فى موافقه السابقة مما يضعف حجته أمام خصوم البلاد ، فأصر على رأيه ...

حتى الموظفون الأخصائيون واجهوه بمثل ذلك فعندما أبلغ النقراشى باشا محمود حسن باشا سفير مصر فى الولايات المتحدة باعتزامه تقديم القضية إلى التحكيم الدولى نصح السفير بأن تكون الهيئة التى تتولى ذلك ممثلة للرأى العام المصرى بأجمعه .

ولكن النقراشى أصر على رأيه .. وحينئذ رأى الإخوان أنهم أمام أمرين أحلاهما مر إما أن يعملوا على إسقاط النقراشى وفى هذا إضاعة للوقت الثمين وللجهد الوطنى المخلص وفى هذا مواجهة مباشرة للملك الذى أبدى إصراراً على التمسك بهذا البرلمان وما يتفرع عنه من حكومات هزيلة ... وستتحول المعركة من مواجهة المستعمر إلى مواجهات داخلية وهو ما يتمناه المستعمر .. وإما أن يؤيدوا النقراشى بعد أن قيد نفسه بتصريحات رسمية أنه سيفتح صفحة جديدة فى مواجهة المستعمر .. واختار الإخوان أمراً اعتبروه أخف الأضرار .

٥— كان أمل الإخوان كما كان أمل كل مصرى أن ينجز النقراشى وعده فينبذ إلى الإنجليز على سواء وفى أقرب فرصة ولكن الذى حدث أنه ظل يؤجل المواجهة يوماً بعد يوم بحجج مختلفة حتى فوت على البلاد بهذا التأجيل المصطنع ثمانية أشهر ، استطاع الإنجليز فى خلالها تكوين جبهة من السودانيين مناهضة لمصر برياسة المهدى وتطالب بالاستقلال عن مصر. وطرد حاكم السودان فى خلالها قاضى قضاة السودان المصرى وأبدله بسودانى عينه هو كما طرد مدير التعليم المصرى أيضاً ، فجعل ذلك مهمتنا فى المطالبة بوحدة وادى النيل أمراً صعباً ؛ ولو أن النقراشى أخذ

بنصيحة الإخوان فأعلن إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقية سنة ١٨٩٩ الخاصة بالسودان لما استطاع الإنجليز ولما وجدوا الفرصة لفعل ما فعلوا فى السودان ولكان موقفهم موقف المدافع عن نفسه لا موقف المهاجم .

٦- فى الوقت الذى تدعى فيه الحكومة أنهاتتأهب لمهاجمة الإنجليز ودمنهم بالاعتداء ويقوم الإخوان بتعبئة الشعور الشعبى لهذه الخطوة :

(أ) فيطبعون كتاباً عنوانه«إلى الشهداء الأبرياء» تقوم هذه الحكومة بمهاجمة دار الإخوان ومصادرة النسخ التى طبعت من هذا الكتاب .

(ب) القنابل التى ألقاها بعض الطلبة فى ليلة عيد الميلاد على الأماكن التى يتردد عليها الإنجليز والتىأشرناإليها من قبل والتى ألقيت بحكمة بحيث تخيف الإنجليز دونأن تقتل أحداً ،تلقى الحكومة القبض على الطالبين حسين عبد السميع ومحمود نفيس وتقدمهما إلى محكمة الجنايات كأنهما مجرمان .

(ح) يقوم جوالة الإخوان باستعراض فى القاهرة لبعث الروح فى الشعب فى ٣٠-٦-٤٧ فيقوم بوليس الحكومة بمهاجمتهم ويحاول منعهم من مواصلة الاستعراض حتى تقوم بينهم وبين البوليس معركة .

٧ - عند عرض القضية على مجلس الأمن وإصرار النقراشى على أن يكون هو وحده وحزبه يمثل مصر فيها يقع ماكان محذوراً ؛ فقد كان الأساس الذى بنى عليه عرض القضية على هذا المجلس هو قطع المفاوضات لفشلها ، وكان لا بد أن يذكر النقراشى ذلك فى بيانه أمام المجلس : فكان السير الكسندر كادوجان مندوب بريطانيا فى المجلس يقذف فى وجه النقراشى بالحجة وهى أن النقراشى نفسه هو الذى أيد مواصلة المفاوضات ووافق على مشروع صدقى - بيفن ... وبذلك انهار دفاع النقراشى كله حيث انهار أساسه وفشلت القضية أمام المجلس .

٨ - لم تقصر الأمة من جانبها فى مساندة هذه الحكومة فالأستاذ أحمد حسين رئيس مصر الفتاة سافر إلى الولايات المتحدة قبل عرض القضية بفترة طويلة وأخذ يشرح جوانبها للشعب الأمريكى - وفى أثناء عرض القضية على مجلس الأمن قام الأخ الأستاذ مصطفى مؤمن مندوباً عن شباب الإخوان بعمل جرىء لإثارة اهتمام العالم بقضية مصر - ونثبت نص ماجاء بالصحف ووكالات الأنباء عن هذا العمل فيما يلى :

«نيويورك فى ٢٢-٨-١٩٤٤٧ :

فى جلسة مجلس الأمن بعد الظهر افتتحت الجلسة فى موعدها ، ولكن حادثاً لم يسبق له مثيل فى تاريخ المجلس وقع فى مستهلها ؛ فإن الأستاذ مصطفى مؤمن ماكاد يرى النقراشى باشا يحتل مكانه المعتاد ليلقى بيانه حتى خرج من مكان المتفرجين إلى مكان الأعضاء والسكرتيرين فحدثت ضجة بين الأعضاء ، فطلب الرئيس منه أن يلزم النظام ثم دعا الحراس لإخراجه من قاعة المجلس .. وكان الأستاذ مؤمن يلبس الطربوش كعادته .

وقد علمت أن الأستاذ مؤمن كان يريد أن يخطب فى أعضاء المجلس باسم الشعب المصرى ، وجاء فى الكلمة التى استطاع إلقاءها ما يلى :

سيدى الرئيس

أتقدم اليكم باسم جميع شعوب الشرق الأوسط وبالنيابة عن الإخوان المسلمين .. نحن نطلب أن تعامل قضيتنا بالعدالة التى أصبحت جديرة بها ، فإذا لم يحدث ذلك فإن ألوفاً من الناس سيبذلون حياتهم رخيصة فى الكفاح من أجل حرية بلادهم .. ثم قال وهو يلوح بأوراق معه : «ونحن نطلب الحرية » — ولكن حارسين مع نائب رئيس ضباط الأمن أخرجوه . ولكنه ظل يخطب بصوت عال حتى خرج ... فساد الذهول أعضاء المجلس ليذكر أعضاءه بالحقوق المهضومة التى يسكتون على هضمها .

وبعد أن خرج الأستاذ مؤمن من الجلسة تبعه بعض مندوبى الصحف إلى قاعة الصحافة الواقعة خلف قاعة مجلس الأمن مباشرة — وقد تأثر الأعضاء لقول مؤمن : إن ثورة ستجتاح وادى النيل بدون ريب إذا حدثت مفاوضات ، وإن النذير قد بدأ اليوم فى حوادث القاهرة وأنه يريد أن يعلن ذلك على العالم كله .. وقال ..

«أيها السادة أريد أن أكرر عليكم ما أبلغته لمجلس الأمن قبل مناقشة المسألة المصرية اليوم ، فإنى أعلن أولا أن استئناف المفاوضات سيلقى مقاومة شعب وادى النيل بأسره ، وأعلن ثانياً أن فصم عرى وحدة وادى النيل ستضر السلام العالمى . وأعلن ثالثاً أن سياسة الدول الكبرى التى تسعى إلى مصالحها الاستعمارية دون النظر إلى الأمم المهضومة الحقوق ستدفع هذه الهيئة إلى المصير نفسه الذى اندفعت إليه هيئة الأمم ؛ أى الموت والاندثار من عالم الوجود..وقد تلقيت من القاهرة اليوم وثيقة كتبها شباب مصر بدمهم ، وهم يعربون فيها عن الرأى الذى أبديته لكم الآن تماماً . وما يجمع شعب وادى النيل عليه هو تطهير جبين البلاد من وصمة الاحتلال البريطانى فوراً ،

وإنهاء الحكم التعسفى الذى أقاموه لأغراضهم الخاصة فى السودان» .

٩ – فى نفس يوم اجتماع مجلس الأمن لنظر قضية مصر – وكان يوم جمعة – دعا الإخوان الهيئات الوطنية والشعب لإعلان تضامنه مع الحكومة فى مطالبتها بحقوق البلاد . فخرجت مظاهرة ضخمة من الجامع الأزهر وأمامها علم الإخوان المسلمين تهتف بمطالب البلاد .. فإذا ببوليس الحكومة يهاجمها مهاجمة وحشية فأصيب الأستاذ المرشد بعدة ضربات فى وجهه وفى أحد أصابعه ... وقد أخبرنى الأخ الأستاذ محمود الجوهرى وكان حاضراً فى هذه المظاهرة أنه لما جرح إصبع الأستاذ المرشد وسال منه الدم نظر إليه وتمثل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذا الموقف وقال :

هـــــل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وكان يتمثل بهذه الكلمات الكريمة حين اجتمعوا بعد المظاهرة فى بهو الاستقبال وقد أخذوا يضمدون له جراحه .

كما أخبرنى الأخ الأستاذ محمود – وكان بجانب الأستاذ المرشد طيلة فترة هذه المظاهرة – أنه لاحظ – كما لاحظ الأستاذ المرشد نفسه – أن تصرف رجال البوليس فى ذلك اليوم كان يشعر بأن هناك خطة مرسومة لاصطياد الأستاذ المرشد منفرداً للتخلص منه ... ذلك أن قوات البوليس حاصرت الأزهر وكانت تعمل على تفريق من يخرجون منه وتشتيتهم أولا بأول حتى إذا خرج الأستاذ المرشد اصطادوه وحده ... وكان الأستاذ آخر من خرج من المسجد وكأنهم ظفروا بما أرادوا فحاصروه بالقوة كلها راكبة الخيل وهو منفرد .. وهنا تصرف الأستاذ المرشد تصرفاً مذهلا إذ اختطف عصا من أحد أفراد القوة وأخذ يضرب بها كل حصان على أنفه فيرفع الحصان رجليه الخلفيتين فيهوى الجندى الذى يمتطيه على الأرض وبذلك تمكن من إسقاط أفراد القوة كلها ، وكان الإخوان قد لحقوا به فى خلال هذه المنازلة البارعة والتفوا حوله وعادوا به إلى المركز العام وقد نجاه الله من موت محقق كان مدبراً له فى ذلك اليوم والله غالب على أمره .

وقد توفى فى تلك المظاهرة ثلاثة رجال وكان أحدهم الأخ الشهيد محمد عبد الرحيم الأنصارى من عمال السكة الحديد .. وقد أخبرنى الأخ الأستاذ محمود الجوهرى أيضا قال : كنا نستعد للتجمع لهذه المظاهرة وكانت وقفتى بجانب الأخ محمد عبد الرحيم وهو مسند ظهره إلى سور مدرسة المحمدية بشارع أحمد عمر قريباً من المركز العام وكان فى زيه المعروف به وهو الجلباب الأبيض والعمامة

البيضاء الكبيرة وسمعته يقول قولة لا أنساها «إنى أشم اليوم رائحة الجنة» وأذكر أن الأخ الأستاذ لبيب البوهى قد أخرج قصة باسمه فى ذلك الوقت .

وقد رأيت بإيراد هذه اللمحات أن يتبين القارئ فى ضوئها صورة المواقف ومدى البون الشاسع بين الأم الشكلى والنائحة المستأجرة .

ولم يفت الأستاذ المرشد فى خلال هذا الإجراء الغاشم من البوليس أن يعتب على اللواء سليم زكى حكمدار القاهرة ...

وفى نفس اليوم قامت مظاهرات فى طنطا وبور سعيد والإسكندرية ... وكانت هذه المظاهرات من الضخامة بحيث هزت أبناؤها أرجاء العالم حتى إن مراسل جريدة المصرى فى نيويورك أرسل إلى جريدته يقول : تلقت نيويورك قبل ظهر اليوم أنباء المظاهرات التى وقعت فى القاهرة ، وانتشرت هذه الأنباء بسرعة عظيمة هنا فى نيويورك ، وكان لها أثر قوى على الجميع - ولم يشأ أعضاء الوفود المختلفة أن يعلقوا بشئ .. وقد أعرب كثيرون فى ليك سكسس عن أسفهم لإصابة كثيرين فى خلال المظاهرات ... وقد عاق السير والترسمارت على هذه الأنباء بقوله : إنه يخشى أن تكون الحالة قد تطورت فأصبحت خطيرة للغاية .

ومع هذا التناقض المزرى فى مواقف الحكومة إذ هاجم مظاهرات قامت لتأييدها وتقوية مركزها فى مجلس الأمن فإن الإخوان لم ينثنوا عن مواصلة تأييد الحكومة إذ تم اجتماع بين الإخوان والهيئات الوطنية وبين خشبة باشا نائب رئيس الوزراء وسويت المسألة وقرروا الإضراب يوم ٢٦-٨ استنكاراً لمعاهدة سنة ١٩٣٦ .

١٠ - يحار المرء أمام تصرفات النقراشى باشا التى لا تدل على أنه كان جاداً يوم أعلن فى مجلس النواب أنه سيهاجم الإنجليز ويصمهم بالاعتداء ، فلا شك على سبيل المثال فى أن العمل الجرئ الذى قام به مصطفى مؤمن فى مجلس الأمن كان أعظم أثراً وأجدى نفعاً للقضية المصرية من ألف خطبة كالتى ألقاها النقراشى فى هذا المجلس فلقد لفت أنظار العالم كله إلى مظالم الإنجليز واعتدائهم على حرية الشعب المصرى بطريقة عملية مثيرة لا سيما وقد شفعت بمظاهرات ضخمة فى القاهرة هزت مشاعر العالم ... وكان أدنى ما ينتظر من رئيس وزراء مصر أن يحتضن هذا الشباب فى شخص مصطفى مؤمن ومن معه ويشيد بهم .. فانظر ماذا فعل هذا الرجل :

الذى جاء بالصحف فى ذلك الوقت وقرأناه ولا زال مسجلا فيها إلى اليوم هو أن الأستاذ أحمد كامل قطب كان شاباً وطنياً وكان محامياً ورئيساً لحزب الفلاح .. وسافر هو الآخر إلى نيويورك ليشارك فى الجهود الشعبية من أجل القضية ، فلما قام مصطفى مؤمن بحركته وألقى الكلمات التى أشرنا إليها قبلا وأخرجوه من قاعة المجلس ، قام الأستاذ أحمد كامل قطب بمثل الدور الذى قام به مصطفى مؤمن فأخرجوه أيضاً .. ويبدو أن مفاجأة مصطفى مؤمن لم تدع فرصة للنقراشى ليفكر ويكون رأيا فيما حدث فلما قام أحمد كامل قطب بنفس الدور كان النقراشى قد كون رأياً فاتجه إلى احمد قطب وقال له أمام الجميع : اخرج يا مجرم .

وقد عز على الأستاذ أحمد كامل قطب أن يرميه رئيس وزراء مصر بالإجرام واعتقد أنها مجرد زلة لسان فقابله فى اليوم التالى أمام وفد مصر وعتب عليه فيما صدر منه إليه وقال له يا دولة الباشا إن العمل الذى قمت به هو جهاد شريف لتأييدك وتأييد قضية البلاد وما كان ينبغى أن ترميني من أجله بالإجرام فرد النقراشى باشا عليه قائلا : إنك بالعمل الذى قمت به أمس فأنت مجرم فما كان من الشاب المجاهد إلا أن قال للنقراشى : إذا كان أحد مجرماً إذن فالمجرم أنت . وتركه وانصرف .

أما تصرف النقراشى باشا إزاء مصطفى مؤمن فقد كنت على علم به فى تلك الأيام ولكنى قد حملته يوم بلغنى على محمل المبالغة وكنت عازماً على إغفال ذكره فى هذه المذكرات لهذا السبب ، ولكن شاءت الأقدار أن تجمعنى الظروف بزميل لى فى العمل لا علاقة له بالإخوان المسلمين ولا بالسياسة ولكنه يرتبط برباط القرابة مع المرحوم الأستاذ عثمان عبيد الذى كان فى ذلك الوقت قنصلا لمصر فى نيويورك ، وفى معرض حديثه عن خلق قريبه وشجاعته قال لى إنه رحمه الله حدثه أنه بعد الانتهاء من عرض القضية على مجلس الأمن جاءه الطالب مصطفى مؤمن الذى استطاع أن يجتذب انتباه العالم إلى مصر وإلى قضية مصر وشكا إليه أنه أنفق كل ما كان معه من نقود وأنه يريد أن يرجع إلى مصر وطلب إليه أن تتكفل القنصلية بمصاريف سفره . قال الأستاذ عثمان فوافقت لأن التعليمات تقضى بذلك .. قال الأستاذ عثمان فلما علم النقراشى باشا بذلك استدعانى وعنفنى على موافقتى على ترحيل مصطفى مؤمن على نفقة القنصلية ، فبهت لهذه المفاجأة لأنى كنت أعتقد أن مصطفى مؤمن بما أداه من خدمة للقضية سيكون موضع تكريم من الحكومة ورئيسها ... فسألته عما يريدنى أن أفعله . فقال : ارفض ترحيله على نفقة القنصلية . فقلت له : وكيف أرفض

والتعليمات عندى تلزمنى بالموافقة ؟ قال : أنا رئيس الحكومة وأنا آمرك . قلت له : إذا كان الأمر كذلك فلا بد من أمر كتابى .. فلما أحس بأنى أفحمته تقهقر .

١١ — أصدر مجلس الأمن قراراً بتأجيل قضية مصر إلى أجل غير مسمى ، ورجع النقراشى إلى مصر وكان الجميع ينتظرون منه حين يرجع أحد موقفين إما أن يقود الشعب المهيأ تمام التهيئة للنضال ضد الإنجليز وإما أن يقدم استقالته .. ولكنه رجع واتخذ موقفاً آخر غير هذين هو موقف السكوت المطبق .وقد طال سكوته حتى أسأم أهل مصر جميعاًوأهل وادى النيل وكاد يبعث فى نفوسهم اليأس وإليك نموذجاً من البيانات التى صدرت من الهيئات المختلفة معبرة عن هذا المعنى وهذا البيان صادر من حزب مصر الفتاة يقول :

«إن دولة النقراشى باشا خيب آمال البلاد منذ عودته من أمريكا فقد لاذ بالصمت المطلق ، ولم يحاول أن يوجه البلاد أو يقودها نحو تحقيق أهدافها . ثم توالت الحوادث فى الخارج والداخل فراح حاكم السودان يفاجئ الحكومة بتصرف جديد كل يوم جاهداً فى العمل على فصل السودان نهائياً ولم تفعل الحكومة المصرية شيئاً بل ولم تقل شيئاً :وليس هناك ما يكشف عن عجز الحكومة كأزمة ضباط البوليس (قاموا بإضراب) واختتم البيان بأنه يجب على الحكومة أن تفسح الطريق لحكومة أخرى تكون أكثر قدرة منها على التعاون مع الشعب وحل مشكلاته وأزماته بروح جديدة وعزم جديد» .

وإذا كان هذا نموذجاً يمثل رأى الهيئات الشعبية فى موقف هذه الحكومة وقد صدر فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٧ فقد تمادت الحكومة فى موقفها هذا المهين حتى إن الحزب المشارك للسعديين فى الحكومة وهو حزب الأحرار الدستوريين قد استبد به الضجر فعقد اجتماعاً فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ووقف رئيسه الدكتور هيكل يصف موقف الحكومة من القضية بأنه «سبات عميق» وقد نشر ذلك فى الصحف فى ذلك اليوم .

ونورد نموذجاً آخر يمثل رأى المستقلين من ذوى الفكر فيما جاء فى كلمة ألقاها فى مجلس الشيوخ فى ١٣—١—١٩٤٨ وهيب دوس بك عضو المجلس حيث قال «إن الذى تشعر به البلاد ويشعر به الناس جميعاً هو أن رئيس الوزراء يلوذ بالصمت دائماً فى كل أمر يطلب إليه بيانه ، وهذا ما يجب أن يوضع له حد» ثم قال : أما وقد ذهب وفد مصر إلى مجلس الأمن وعاد فقد كان مفروضاً أن الحكومة قد أعدت عدتها لمواجهة حالتى النجاح والفشل ، وبقاء القضية معلقة فى المجلس ليس

هو النجاح الذى ذهب وفد مصر إلى ذلك المجلس من اجله ، فكل ما فيه أن المجلس لم يحكم برفض الدعوى ، فإذا أعدت الحكومة لذلك ؟ وقد ثبت أن الخطوات التى خطتها لم تفد البلد شيئاً على الأقل ويجب أن لا يبقى الأمر على طريقة عدم كشف الأوراق ، بل يجب أن تعرف البلاد حقيقة الموقف فإذا كانت الحكومة أعدت خطة معينة أزمعت تنفيذها فعليها أن تصارح البلاد بها .

واستطرد فقال : إن المندوب البريطانى فى مجلس الأمن واجه وفد مصر بأن هذا المجلس غير مختص إلا بنظر الحالات التى تهدد الأمن العالمى . وتساءل كيف فات الحكومة ذلك فظلت الحالة على ما يرام وظل الإنجليز على قناة السويس لا يعكر صفوهم معكر ، على أن الأمن لا يهدد إلا إذا كانت مصر تنوى أن تعمل عملا .

ورأى أن السكوت على تصرفات حاكم السودان إنما هو تكملة للعبارة التى قالها المرحوم سعد زغلول باشا حين قال : «هل عندكم تجريدة ؟» وتساءل عن الأساس السحرى الذى ننتظره لإزاحة الإنجليز من بلادنا إذا كنا بلا تجريدة وبقى الإنجليز حيث هم فى بلادنا لا يجلون عنها . وقال : إنى لو كنت صاحب الأمر يوم أمر حاكم السودان بإخراج الموظف المصرى من السودان فى ٢٤ ساعة وإلا اعتقل لما ترددت فى أن أستدعى الموظفين الإنجليز فى مصر جميعاً وأعلنهم بأن عقود استخدامهم قد ألغيت . وهذا كان أبلغ رد على إخراج موظف مصرى من أرض هى جزء من بلده .

١٢ — فى الوقت الذى طالبت فيه كل الهيئات والأحزاب الممثلة للشعب بتخلى هذه الحكومة عن مركزها بعد فشلها التام نرى جريدة التيمس تعبر عن وجهة النظر الرسمية فى لندن فتثنى على النقراشى وتقول إن الواجب يحتم عليه البقاء فى الحكم وتقول : إن جماعة الإخوان المسلمين يضعون أمام النقراشى مشكلة أخرى ، وإن هذه الجماعة قد برهنت على منفعتها كجبهة معارضة لخصمها وهو الوفد ، ولكن زعامة الإخوان المسلمين لا تتحمل مسئولية ، وتشددها يجعل تأييدها ميزة ليست لها قيمة مؤكدة » .

وكان من المنتظر أن يقوم الإخوان بعمل قوى يصحح الوضع يلزم هذه الوزارة بالتخلى تبلدها وبأن تقود البلاد إلى مقاومة المستعمر حتى يخرج من البلاد وإما أن تترك مكانها لحكومة ترضى لنفسها أن تحمل هذا العبء ... ولكن كارثة كبرى حلت بالعالم الإسلامى أذهلت كل مسلم فى الارض وجعلت كل دولة عربية وإسلامية تنسى مشاكلها الخاصة أمام هذه الكارثة تلك

هى صدور قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين .. مما جعل الإخوان يضعون كل ثقلهم وراء العمل على دفع هذه الكارثة وتجاوبت جميع الشعوب العربية بهذا الشعور حتى اضطرت حكوماتها المتهالكة إلى الظهور بمظهر المتجاوب هى الأخرى .

ورأى الإخوان أن تكريس جهودهم لدفع هذه الكارثة المروعة أجدر أن يقدم على كل ماسواه وقد أرجأوا مواجهة هذه الحكومة آملين فى أن تحظى قضية فلسطين بتأييد من هذه الحكومة ، فتأييد هذه الحكومة ضرورى لتأمين ظهر الإخوان فى محاولتهم دفع الكارثة الحائقة بفلسطين. وكان الإخوان قد رفعوا إلى الملك فاروق عريضة فى شأن القضية المصرية وما آلت إليه وما ينبغى أن يتخذ فى شأنها ، فلما وقعت كارثة قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين بعثوا فى ١٨-١-١٩٤٨ برسالة إلى النقراشى باشا أشاروا فى مستهلها إلى أن الوزارة عدت عريضة الجماعة المرفوعة أخيراً إلى جلالة الملك معارضة لها ضاق صدرها بها ثم قالوا : «إن الإخوان المسلمين يجاهدون وحدهم تارة ومع المجاهدين تارة أخرى فى سبيل فلسطين العربية ، وقد أعلنت الحكومة اهتمامها بهذه القضية وتشجيعها للعاملين فى سبيلها . وإنهم حين يعملون لفلسطين يعملون لها مخلصين ولا يسمحون لأنفسهم بأن تعلق بهذا الجهاد شبهات السياسة المحلية . وهم على استعداد لشكر الحكومة المصرية فى هذا المنى إذا قامت بواجبها ، ولتنبيهها إذا قصرت ولنقدها أشد النقد إذاأصرت على التقصير ».

ويلاحظ القارىء أن فى هذه الرسالة نوعاً من اللين والملاطفة لحكومة يعلم الإخوان من بلادتها مايعلمون ولكن الظروف المحيطة بالبلاد الإسلامية وبالتبعات الملقاة على عاتق الإخوان حيالها اقتضت هذه الملاينة مع حكومة كانت هى الأمر الواقع وقد ضمنت تأييد الملك بجعلها إبراهيم عبد الهادى رئيساً للديوان الملكى ولا ينبغى للعاقل أن يحارب فى جبهتين ، لاسيما وقد نبتت بجانب قضية فلسطين وفى نفس الوقت قضية أخرى ألقت على كاهل الإخوان عبئاً آخر تلك هى قيام «ثورة اليمن»

ثورة اليمن

فى خلال الأربعينيات أثر عن بعض كتاب الغرب الذين جابوا البلاد العربية قولهم : «إن مصر متخلفة عن أوربا مائة عام ، والسعودية متخلفة ثلاثمائة عام ، أما اليمن فإنها لا زالت تعيش فى عصر ماقبل التوراة»

وقد لا يكون فى قولهم هذا مبالغة ؛ فإن اليمن كانت رازحة تحت لون من الحكم يدعى لنفسه أنه الحكم الإسلامى الوحيد فى العالم حتى إن الحاكم كان يطلق على نفسه لقب «الإمام» ويقصد بذلك أنه الحاكم الإسلامى الذى يجب أن يدين له بالطاعة كل مسلم على وجه الأرض ... لكن هذا الحاكم كان أبعد الناس عن الإسلام بل إنه كان سبة وعاراً فى جبين الأمة الإسلامية .

نعم استطاع حكم هؤلاء الأئمة أن «يحفظ» هذه البلاد – كما يدعون – من أن تمتد إليها يد المستعمر ولكن هذا «الحفظ» كان أشبه بالاستجارة من الرمضاء بالنار ، فلقد استطاع هؤلاء الأئمة أن «يحفظوا» اليمن من أن ينفذ إليها بصيص من النور ، ومن أن تسرى فيها نسمة من نسمات الحياة ... عزلوا اليمن عن العالم كله ، وكبلوا أهلها بأغلال الفقر والجهل والإذلال ؛ فجميع ماتقل الأرض هو للامام ، فتراخى الناس عن فلاحة الأرض حتى جدبت .. والتعليم محرم إلا على أسرة الإمام وفى حدود لا تنير العقل ولاتفتق الذهن .. والمواصلات منعدمة ولا أقول قليلة أو نادرة ، فلم تكن هناك وسيلة للمواصلات إلا الدواب فليس فى البلاد خط حديدى واحد وليس فيها طريق معبد يصلح للسيارات وليس فى اليمن كلها إلا سيارة واحدة هى سيارة الإمام .. أما انعدام الطب والدواء والمستشفيات فأمر طبيعى مع فقد العمل والتعليم والمواصلات .. وهدف الأئمة من هذا «الحفظ» الذى يدعونه هو أن يأمنوا على عرشهم من أن يقوم فى اليمن من ينازعهم فيه أو حتى من يسألهم عما يفعلون .. وأنى يقوم رجل من هذا القبيل فى بلد كل أهله جهلاء وأكثرهم مرضى وفقراء ولاتستطيع قرية أن تتصل بجيرانها إلا بشق النفس ؟!..

ولم يكتف الأئمة بكل هذه الوسائل من وسائل «الحفظ» بل إمعانا فى «الحفظ» تذرعوا بوسيلتين جهنميتين أخريين :

أولاهما : أنهم نشروا زراعة نبات مخدر يسمى «القات» وأكثروا من زراعته وعملوا على ترويج تعاطيه – وما أسهل نشر الفساد – فصار مضغ القات شغل أهل اليمن الشاغل .. وبذلك ضمن الأئمة أن قضى هذا «القات» على البقية الباقية فى هذا الشعب الذى لا يكاد يفيق من التخدير

والوسيلة الأخرى : هى أن يأخذ الإمام من كل شيخ قبيلة أحد أبنائه ويبقيه عنده موثقاً وهينة لديه حتى لا يفكر أحد الشيوخ فى الخروج عن طاعة الإمام فيقتل ولده .

وليس هذا الوصف الذى أوردته لليمن مستقى من مقال كتب أو من مؤلف وضع قد يشك فى اتجاه كاتبه أو هدفه ، وإنما هو وصف وصفه لى أحد الإخوان الفضلاء كان هو أول بعثة

تعليمية أوفدت إلى اليمن هو الأخ الأستاذ جمال عمار وذلك بعد أن أنشئت الجامعة العربية وكان ذلك أول اتصال اليمن بالحياة .. أخبرني حين رجع من اليمن بمشاهداته هناك وهي التي استخلصت منها ماقدمت من وصف موجز لحال اليمن .. ومما ذكره لي أيضاً عن رجال الشرطة في صنعاء أن الإمام لا يكاد يعطيهم مرتبات لهم عادة حفاة ومن المناظر المألوفة أن ترى الواحد منهم يجرى في الأزقة وقد خطف بعض الدواجن والمرأة صاحبة الدواجن تجرى خلفه مستغيثة تتوسل إليه أن يرد لها ماخطفه من دواجنها ؛ فالشرطة الذين يفترض فيهم أنهم يحمون الشعب من المعتدين هم الذين يعتدون ويستبيحون أموال الناس تحت سمع الإمام وبصره .

هذا قليل من كثير مما أنبأني به الأخ الأستاذ جمال عمار مما رآه بنفسه في اليمن .. وحين كنت بمكة سنة ١٩٥٠ كنت أنظر إلى الرجل فأعرف أنه يمني فأسأله ليتبين صدق فراستي وكانت العلامة التي أميز بها اليمني هي نحول جسمه وشحوب لونه وضعف بنيته ، كلهم مرضى بفقر الدم فلا غذاء ولا دواء ولا عمل ولا أمل ، وأكثرهم جاءوا من اليمن إلى السعودية مشياً على الأقدام .

وتاريخ اليمن ينبئنا بأنها كانت من أخصب البلاد تربة ومن أغناها تجارة ومن أذكاها عقولا وهي الأرض التي قال الله تعالى في وصفها «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » والتي قال رسول الله صلى الله عليه فيها «الإيمان يمان والحكمة يمانية» ولكنها أجدبت على أيدي «الأئمة» الذين احتكروا الإسلام وأرادوا أن يحتكروا الحكم والسلطة .

اتصال الإخوان باليمن :

كان أول اتصال للإخوان باليمن عند انعقاد المؤتمر البرلماني العالمي لقضية فلسطين سنة١٩٣٨ وقرر المؤتمر إيفاد وفد عربي لحضور مؤتمر المائدة المستديرة في لندن فأوفدت المملكة العربية السعودية الأمير فيصل بن عبد العزيز وأوفدت اليمن اثنين من أبناء الإمام يحيى حميد الدين هما على ما أذكر سيف الإسلام أحمد وسيف الإسلام عبد الله .. وحضر الأمراء الثلاثة إلى القاهرة وأوفد المركز العام للإخوان مع السيوف الأخ محمود أبوالسعود ليكون سكرتيراً لهما أو مترجماً لإجادته اللغة الإنجليزية ، ولما رجع من هذه الرحلة روى لنا العجب العجاب من أمر هذين السيفين وجهلهما بالحياة حتى إنه خجل من وجودهما في مثل هذا المؤتمر .

وكان الاتصال الثانى فى أثناء الجلسات التمهيدية لإنشاء جامعة الدول العربية ، وقد أشرت من قبل إلى إيفاد اليمن القاضى حسين الكبسى لحضور هذه الجلسات على أن يكون مستمعاً دون أن يشترك فى المناقشات .. وفى خلال هذه الاجتماعات تفتحت عينا هذا القاضى — وكان رجلا ذكياً — ومن معه من اليمنيين على الحياة وتمنوا لو أن بلادهم أخذت بنصيب منها .

كما أن أفراداً من شباب اليمن الذين وفدوا إلى القاهرة لتلقى دراسة بالأزهر اتصلوا بالإخوان فنبه هذا الاتصال مشاعر فيهم كانت خامدة وفهموا من الإسلام مالم يكونوا يفهمون فاستقر فى وعيهم أن بلادهم فى أمس الحاجة إلى إصلاح يتناول جميع شئونها وكل مرافقها ... ولكن كيف يتم مثل هذا الإصلاح والأئمة مسيطرون ؟..

دوافع القيام بالثورة :

لم يكن القيام بالثورة فى اليمن ضد الحكم الإمامى الغاشم أمراً غريباً ، فإن المظالم التى كانت ترزح تحتها اليمن كانت أضعاف المظالم التى قامت من أجلها الثورة الفرنسية .. أما أن الثورة بتدبير الإخوان المسلمين أو قامت بتدبير الفئة المثقفة من أهل اليمن أو قامت بتضامن الجهتين معاً ؛ فأمر لا يعنى الذين يبحثون عن الأسباب الداعية للثورة وهل هى جديرة بالتقدير أم هى أسباب مفتعلة لا أساس لها من الواقع .

وعلى كل حال فإن مبلغ علمى أن الإخوان منذ عرفتهم كانوا يتمنون أن يتخلص اليمن من حكم «الأئمة» حتى تدب فى أوصاله الحياة .. ولست أدعى أننى كنت مشاركاً فى تدبير هذه الثورة فلقد كنت فى تلك الأثناء بعيداً عن القاهرة ، ولكننى أستطيع أن أقرر أن فكرة إعداد الشعب اليمنى للثورة قد نبتت فى المركز العام ؛ أما تفاصيلها وخطوطها فلا أعتقد أن المركز العام قد تدخل فى رسمها .

الفضيل الورتلانى وعبد الحكيم عابدين :

عند تناول ثورة اليمن بالتسجيل نجد أنفسنا أمام شخصيتين من غير اليمنيين كانا قطبى رحى هذه الثورة هما «الفضيل الورتلانى وعبد الحكيم عابدين» .

وأولهما كان إذ ذاك شاباً جزائرياً من زعماء المجاهدين الذين طاردهم الاستعمار الفرنسى فهرب إلى مصر واتصل بالإخوان وكان كثير التردد على المركز العام حتى ليكاد يتردد عليه كل

يوم باعتبار هذه الدار مركز الحركات التحررية ضد الاستعمار فى كل بلد إسلامى .. وكان الفضيل لماع الذكاء ، سريع الحركة كثير المعارف ، لا يقتصر تحركه على ما يخص موطنه الأصلى -الجزائر - بل كان يرى العالم الإسلامى وحدة لا تتجزأ وأنه مطالب بتحرير كل جزء منه ... وأعتقد أن الفضيل كان أول من سافر إلى اليمن وأسس هناك شركة للتجارة .

أما عبد الحكيم عابدين فإنه سافر إلى اليمن بعد ذلك وكان سفره تلبية لطلب حكومة الثورة التى ألفت برئاسة القاضى عبد الله بن أحمد الوزير .

تطور الأمور فى هذه الثورة :

١ - تلقت جريدة الأهرام فى ١٥ يناير سنة ١٩٤٨ برقية من عدن من سيف الإسلام الأمير ابراهيم نجل الإمام يحيى ينعى فيها والده ويعلن نبأ إنشاء حكومة دستورية فى بلاد اليمن وعلى رأسها السيد عبد الله بن أحمد الوزير . وقد وقع البرقية بصفته «رئيس مجلس الشورى فى الحكومة الجديدة » .

وسيف الإسلام ابراهيم هو النجل الثامن لإمام اليمن يحيى وهو شاب فى الثلاثين إذ ذاك عرف بتمرده على والده مما أدى إلى سجنه مرتين . وقد لجأ إلى عدن حيث التف حوله لفيف من اليمنيين وألفوا «جمعية الأحرار اليمنية الكبرى » واتخذ لنفسه لقب «سيف الحق» بدلا من «سيف الإسلام» .

كما تلقى عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية من السيد حسين الكبسى برقية بعد ذلك بثلاثة أيام هذا نصها :

«مات الإمام يحيى ونودى بالوزير إماماً»

وأرسل السيد الفضيل الورتلانى برقية من صنعاء إلى بعض الدوائر العربية فى القاهرة مؤداها أن الإمام يحيى اغتيل هو وثلاثة من الأمراء ورئيس الحكومة اليمنية .

٢ - أرسل السيد حسين الكبسى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى حكومة الثورة معرباً عن استعداده للاسترشاد بآراء دول الجامعة العربية فى حدود ميثاقها ، ثم أرسل إلى عبد الرحمن عزام برقية يدعوه فيها إلى زيارة اليمن حيث يشاهد «بناء جديداً على قواعد جديدة تصنعها حكومة ديمقراطية فى ظل ملك ديمقراطى» وسأل مندوب جريدة الأهرام السيد عبد الرحمن عزام

هل يسافر إجابة لهذه الدعوة ؟ فقال إنه لا يتأخر عن السفر إذا تطلبت المصلحة ذلك .. كما استطلع مندوب الأهرام رأى عربى كبير مسئول فى موقف المملكة العربية السعودية إزاء اليمن بعد الحوادث الأخيرة فقال : «إن موقف جلالة الملك آل سعود هو موقف الجامعة العربية بل تأييد لها » .

٣ — أذاعت وكالة الأنباء العربية من عدن : «لم يكد يذاع فى صنعاء رسمياً أن السيد عبد الله بن أحمد الوزير نودى به ملكاً دستورياً على اليمن حتى احتشد نحو عشرة آلاف من الخلق لتحيته خارج قصر غمدان فى صنعاء . وصرح السيد محمد نعمان الذى كان يتزعم فى المنفى «جمعية اليمن الكبرى» قبل هرب الأمير إبراهيم . والذى صار وزيراً للزراعة فى وزارة الثورة بأن ثلاثة من أبناء الإمام يحيى وهم الأمراء سيف الإسلام اسماعيل ويحيى ولا أذكر الثالث قد اعترفوا بالملك الجديد فعينوا فى وظائف كبيرة من وظائف الدولة .

٤ — سيف الإسلام أحمد أكبر أبناء الإمام يحيى والمطالب بعرش أبيه غادر مقره فى «تعز» والتجأ إلى قبائل الشمال يؤلبهم على الحكومة الجديدة .. وترسل الحكومة الجديدة إلى الملك عبد العزيز آل سعود تطلب إليه تزويدها بطائرات لمقاومة سيف الإسلام أحمد فيبلغ الملك عبدالعزيز الجامعة العربية بأنه لن يجيب هذا الطلب حتى يتبين له رأى الجامعة .

٥ — توالت برقيات من وزير خارجية الحكومة الجديدة تستعجل وتستنجز حضور وفد الجامعة برياسة الأمين العام ولكن الأمين العام أخذ يتلكأ فلم يعلن عن تكوين الوفد إلا فى ٢٤ فبراير مكوناً من الأمير السعودى حاكم جدة وعبدالرحمن عزام وعبد الوهاب عزام سفير مصر فى السعودية وحيدر مردم وزير سوريا فى جدة وعبد الجليل الراوى وزير العراق فى القاهرة وتقى الدين الصلح سفير لبنان فى القاهرة وسعيد المفتى وزير داخلية شرق الأردن وتقرر سفرهم يوم ٢٦ فبراير .

٦ — فى خلال هذه الفترة استطاع سيف الاسلام أحمد أن يضلل سكان حجة والحديدة وكون منهم جيشاً وبعث إلى الجامعة يطلب التحكيم وقد استجابت الجامعة لطلب أحمد وأرسلت برقية إلى الحكومة اليمنية وإلى أحمد تطلب منهما إيقاف القتال حتى تصل بعثة الجامعة. ثم اجتمعت اللجنة بالنقراشى ثم قصد عزام إلى منزله حيث وافاه فى الساعة الرابعة إبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى ودام اجتماعهما وقتاً طويلا ؛ وتقرر أن يرافق الوفد الدكتور حسين حسنى السكرتير الخاص للملك ممثلا الحكومة المصرية .

وقرر الوفد السفر إلى اليمن (بحراً) من بور سعيد يوم ٢٨ فبراير إلى جدة حيث ينضم إليه المندوب السعودى ثم يواصل السفر (بحراً) إلى الحديدة حيث يستقل الوفد السيارات إلى صنعاء ويستغرق قطع المسافة بين الحديدة وصنعاء بالسيارة يومين وبعض اليوم .

٧ — فى الوقت الذى كانت تتوالى برقيات الحكومة الجديدة تستحث وفد الجامعة كان الإخوان على اتصال مستمر بعبد الرحمن عزام يستحثونه من جانبهم ولكن دون جدوى وكان الإخوان يريدون قيام وفد منهم بالسفر إلى اليمن لتعزيز مركز الحكومة الجديدة ولكنهم رأوا أن يعملوا جاهدين على قيام وفد الجامعة لأن وجوده فى اليمن فيه كل التعزيز .. فلما وصلوا أخيرا إلى تحديد ميعاد لسفر هذا الوفد ، قام الإخوان باستئجار طائرة خاصة أقلتهم ومعهم مندوبو نقابة الصحفيين المصريين ومعهم أيضاً مكبرات للصوت لمخاطبة القبائل والجماهير . ويلاحظ أن الضجر من هذا التلكؤ وصل بالحكومة إلى الحد الذى هددت فيه بالالتجاء إلى الأجانب لتقاعس الدول العربية .

٨ — وصلت الطوافة فاروق مقلة وفد الجامعة إلى جدة وقد غادرتها إلى بورسودان للتزود بالمؤن اللازمة استعداداً لرحلتها إلى صنعاء حيث قرر الوفد السفر إلى صنعاء عن طريق البحر أيضاً لرداءة الجو ولما وصل الوفد إلى جدة سافر إلى الرياض لمقابلة الملك عبد العزيز الذى أعرب لهم عن استيائه الشديد لمصرع الإمام يحيى .. وتمت هذه المقابلة يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٨ .

٩ — وصلت إلى جدة بعثة الإمام الوزير إلى الملك عبد العزيز لمقابلته ومقابلة وفد الجامعة ، ويتألف الوفد السيد أحمد بن عبد الله الوزير نجل الإمام والفضيل الورتلانى مدير الشركة المصرية اليمنية والقاضى محمد محمود الزبيرى وزير المعارف وقد أقلت هذا الوفد إلى جدة الطائرة المصرية التى حملت وفد الإخوان المسلمين إلى اليمن وقد استأنف أعضاء هذا الوفد سفرهم بسرعة إلى الرياض وقد طلب ابن الوزير من الملك عبد العزيز طائرات ودبابات وجاء فى البرقية :

«ويسعدنا أن تشرفوا جلالتكم بنفسكم لتحكوا على الحقيقة عن مشاهدة أو ترسلوا من تثقون به » .

وقد سأل أحد الصحفيين الوفد اليمنى : كيف تقولون إن حبل الأمن مضطرب فى البلاد مع أن راديو صنعاء وحكومتها يقولون غير هذا ؟ فكان الجواب أن صنعاء ذاتها فى أمن وطمأنينة ولكن الاضطراب والفوضى يتسع مداها على الأيام ؛ لا اختلافاً على الحكم ومن يتولاه ولكن لمجرد السلب والنهب وإطلاق العواطف والنوازع التى ظلت مكبوتة عشرات السنين .

ويبدو أن سيف الإسلام أحمد قد استغل هذا الشعور فى الشعب وجاراه فى عواطفه ونوازعه وحثه على التمادى فى السلب والنهب ووعدهم إذا نصروه على ابن الوزير أن يفتح لهم خزانة الدولة على مصراعيها فانطلقوا كالذئاب الجائعة ، وقد دخل أحمدصنعاء على رأس جيش من المحرومين هذه هي دوافعه وحوافزه وآماله .

١٠ - طال انتظار هذا الوفد لمقابلة الملك عبد العزيز حتى دخل سيف الإسلام أحمد صنعاء يوم ١٤ مارس فأرسل الملك عبد العزيز إلى هذا الوفد من يقول له : إن الملك يرفض مقابلتكم لأنه غير مستعد لاستقبال لصوص وقتلة .. وعاد عبد الرحمن عزام لى القاهرة دون أن يدخل اليمن .

تعليق على هذه الأحداث :

بدأت الثورة باغتيال الإمام يحيى ثم أعلن عن قيام حكومة جديدة برياسة القاضى عبد الله بن أحمد الوزير وكان من أكبر شخصيات اليمن ومن القلائل المتفتحين .. وقد بايعه بالإمامة أهل الحل والعقدفى اليمن كما ينص على ذلك دستورالبلادفإن هذا الدستورالذى هو من وضع الإمام يحيى وأسلافه لا يقرأن أن تكون الإمامة وراثية بل تكون لمن يبايعه أهل الحل والعقد .. وبذلك لم يكن عبد الله بدأحمد الوزير دخيلا على الإمامة ولا مغتصباً إياها من أحد .. ومن وزراء هذه الحكومة القاضى حسين الكبسى الذى كان أول مندوب لليمن فى الجامعة العربية . والقاضى محمد محمود الزبيرى من أعظم أدباء اليمن وشعرائها .

وقد سيطرت هذه الحكومة على البلاد تمام السيطرة وألقت القبض على «السيوف»وهم أبناء الإمام يحيى . وبحسن ظن أرسلت إلى الجامعة العربية تطلب إليها إرسال وفد برياسة أمينها العام ليرى بنفسه استقرار الأمور وليسهم بالمشورة فى وسائل الإصلاح فى مختلف المرافق وقام المركز العام للإخوان من ناحيته يحث الجامعة العربية على إجابة طلب الحكومة اليمنية .

وتلكأت الجامعة العربية فى إيفاد وفدها تلكؤاً لفت أنظار العالم كله ، ولم يكن لهذا التلكؤ المقصود من معنى سوى أنه محاولة لإحباط هذه الثورة ، وبعد كل هذا التلكؤ قام الوفد ولم يتوجه إلى اليمن مباشرة كما كان ينتظر بل اتجه إلى السعودية ومكث فى السعودية أياماً تلقى نصائح العاهل السعودى الذى قد لا يسعده أن يقوم حكم فى جارته المتاخمة له يضرب بنظام الوراثة والأسر المالكة عرض الحائط ويختار الأصلح غير عابىء بالأسرة التى ينتمى إليها .. ثم أقل وفد الجامعة راجعاً إلى مصر دون أن يدخل اليمن .. فكأنما كان موكولا إليه تمثيل دور معين رسم له وقد أتقن تمثيله فلما تم الدور دلف إلى مكانه وراء الكواليس .

وقد فهم الإخوان المغزى من الحركات المريبة التي كانت تجرى على المسرح ، فهذا التلكؤ الذي لفت الأنظار وافتضح أمره حين أرادوا أن يتظاهروا بالخروج من دائرته المفرغة واضطروا إلى تحديد موعد للسفر . سبق هذا السفر حركات تشبه المؤامرة نذكر منها :

أولا : مقابلة الأمين العام للنقراشي صباحاً يعقبها في المساء وفي منزل الأمين العام مقابلة لإبراهيم عبد الهادي رئيس الديوان الملكي وتدوم المقابلة وقتاً طويلا .

ثانياً : يضاف إلى الوفد السكرتير الخاص للملك فاروق على أن يكون ممثلا للحكومة المصرية

ثالثاً : في ٢٦ فبراير أي بعد نحو شهر ونصف من قيام الثورة يبرق السيد المؤيد مندوب اليمن في الجامعة العربية إلى سيف الإسلام أحمد بأن الملك فاروق يعزيه في والده .

رابعاً : يقرر الوفد أن يكون السفر عن طريق البحر وهذا وحده كاف أن يكون دليلا على أن المقصود هو إضاعة الوقت وإلا فهل تعجز الجامعة العربية عن استئجار طائرة كالتي استأجرها الإخوان ؟.

خامساً : أن تخصص للوفد الفوافة فاروق حتى يشعر الوفد أنه في كنف الملك .

سادساً : يعدل الوفد عن خطته التي أعلن عنها فلا يقوم من جدة مباشرة إلى اليمن بل يتجه إلى الرياض في ضيافة الملك عبد العزيز .

هذا ولقد عالجت موضوع ثورة اليمن بطريقة لم تمس بواطن الأمور في تفاصيلها وأسرارها تاركاً ذلك لمن عانوها واصطلوا بنارها وقد سمعت من الأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين بعد رجوعه من اليمن شيئاً من هذه التفاصيل والأسرار ، ولكنني أوثر أن يناقش هو بنفسه هذه التفاصيل وهذه الأسرار لأن البيئة والظروف التي وقعت فيها هذه الأحداث لا أحسها أنا كما يحسها إنسان عاش فيها وتلبث بها .

آثار هذه الثورة :

كان لهذه الثورة آثار على المستوى المصرى وأخرى على المستوى العربي وثالثة على المستوى العالمي ... أما على المستوى المصرى فإنها ألقت في روع القائمين على الحكم في مصر أن هذه الثورة نذير لهم بين يدى عذاب شديد ؛ فليلقوا بثقلهم أولا لإحباطها ثم ليعدوا العدة للقضاء على مدبريها وهم الإخوان المسلمون الذين بلغوا أشدهم حتى إنهم يقيمون الدول ويسقطونها .

فوجد فاروق في مصر تجاوباً لأحاسيسه عند عبد العزيز آل سعود في السعودية وقد قربت مابينهما

وأنستهما الخلافات التى كانت بينهما ظناً منهما أن الثورة كانت ضد الملكية مع أن ابن الوزير قد بايعه العلماء ملكاً .

وأما على المستوى العالمى فقد طمأن فشل الثورة قلوب الطاغوت الاستعمارى المتمثل فى أمريكا وانجلترا وفرنسا إلى أن العالم العربى لازال لقمة سائغة لهم . كما أن الطاغوت وقد عرف العرق الوحيد الذى ينبض بالحياة فى جسم العالم العربى وهو الإخوان المسلمون .. إذن فلابد من خطة لاستئصال هذا العرق حتى يظل الجسم فاقداً رشده مستكيناً لهم .

وأما أثرها على الإخوان فقد كانوا يتمنون أن تنجح الثورة ليكون للإسلام فى هذا العالم دولة ولكن شاءت إرادة الله أن يتأخر تحقيق هذه الأمنية ، فأحس الإخوان بقوى الشر تتألب عليهم وتجمع شتاتها لتفترسهم .

الفصل الثانى

فى قضية فلسطين

وصلنا بهذه القضية فى الباب السابق إلى تطور انتهى بعقد مؤتمر مائدة مستديرة بلندن حضره ممثلون عن البلاد العربية ، وقد أصدرت الحكومة البريطانية فى أعقاب هذا المؤتمر مايسمى «الكتاب الأبيض» وأهم ما فى هذا الكتاب أنه وضع حداً لهجرة اليهود إلى فلسطين .

ويبدو أن اليهود وجدوا فى هذا الكتاب الأبيض ما يعرقل خطتهم المرسومة لاحتلال فلسطين فلجأوا إلى الحكومة الأمريكية التى سرعان ماستجابت لهم وطلبت تكوين ما يسمى «لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية» وكانت هذه اللجنة وسيلة قانونية تسترت أمريكا وراءها لنسف الكتاب الأبيض وتحقيق مآرب اليهود .

وطافت هذه اللجنة بالبلاد العربية متظاهرة بأنها لجنة تبحث عن العدالة بالاستماع إلى أطراف النزاع وقد حضرت إلى مصر وعقدت فى القاهرة جلستين ، وكانت جلستها الأخيرة فى ٥-٣-١٩٤٦ وقد استمعت فى هذه الجلسة إلى السيد مراد البكرى وعبد المجيد صالح باشا وصالح حرب باشا والدكتور منصور فهمى باشا والأستاذ المرشد العام .. تقول جريدة المصرى : وقد تكلم الجميع فى حماس مخل ثم ساد الجلسة السكون عند ماجاء دور الشيخ حسن البنا وقد ارتجل كلمة هادئة رزينة باللغة العربية جمعت بين قوة الحجة وسرعة البديهة وحضور النكتة . وتولى الترجمة الأستاذ أحمد السكرى وكيل الإخوان المسلمين .

وقد استهل الشيخ البنا كلمته بالاعتذار عن إلقائها باللغة الإنجليزية ثم قال إنه لا يريد أن أن يتحدث عن مشكلة فلسطين من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية فقد طال فيها البحث ولاحاجة إلى تكرار ما قيل . واستطرد قائلا : باسم الإخوان المسلمين أؤيدماأعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية .

والناحية التى سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية ، لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة فى العالم الغربى ، ولهذا فإنى أحب أن أوضحها باختصار ؛ فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم ، والإسلام شريعة إنسانية قبل

أن يكون شريعة قومية ، وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقا « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن»

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » .

ونحن حين نعارض بكل قوة الهجرة اليهودية ، نعارضها ، لأنها تنطوى على خطر سياسى اقتصادى ، وحقنا أن تكون فلسطين عربية .

ولى كلمة أخيرة من الوجهة الدينية ؛ فإن اليهود يقولون عن فلسطين إنها أرض الميعاد .. ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا فى يوم القيامة معنا .

(وقد أثارت هذه العبارة عاصفة من الضحك لم تلبث أن اتصلت بأخرى عندما استطرد الشيخ البنا قائلا (: لاحظت أن هذه الهيئة الموقرة منعت التدخين فى قاعة الاجتماع خشية أن يؤذى بعض الحضور . وإذا كنتم تحرصون على أمزجة الناس من فعل الدخان ، فخليق بكم أن تحرصوا على أهل فلسطين من النيران ...

الرئيس : ولكن بين الحضور من يدخن الآن (وكان يدخن فى القاعة عبد المجيد ابراهيم صالح باشا وصحفى أمريكى ومندوب جريدة المصرى)

الشيخ البنا : خالفوا القوانين (ضحك)

واختتم الأستاذ البنا كلمته بقوله : لقد استمعت اللجنة إلى رجاء اليهود ، وتركت الرجل الأول الجدير باستشهاده فى قضية فلسطين وهو الحاج أمين الحسينى وكذلك المجاهدين المبعدين فأكون سعيداً إذا عملت اللجنة على الإفراج عنهم جميعاً . »

وبعد طواف اللجنة بالبلاد العربية واستماعها إلى من استمعت إليهم أصدرت تقريرها فى آخر ابريل سنة ١٩٤٦ وكان هذا التقرير مفاجأة أليمة للعرب الذين كانوا يحسنون الظن بها فقد تضمن تقريرها السماح بالهجرة إلى فلسطين لمائة ألف مهاجر يهودى واستمرار الانتداب البريطانى وتعديل قانون بيع الأراضى وإشراف الحكومة على الأماكن المقدسة ..وضج العرب فى كل مكان وأعلنوا احتجاجاتهم ، وقد عقب السيد جمال الدين الحسينى بقوله : إن هذا التقرير الذى وضع تحت ضغط الولايات المتحدة يحكم على فلسطين بأن تصبح أرض الدماء والبؤس .. وانهالت

برقيات الاحتجاج على جامعة الدول العربية ومنها برقيةمن المرشد العام .

ومما زاد العرب حنقاً على هذه اللجنة وعلى الحكومة الأمريكية أن أصدر الرئيس ترومان عشية إصدار اللجنة قرارها تصريحاً قال فيه :

«إنى سعيد جداً بأن أيدت لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية طلبى بالسماح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين فى الحال . وهكذا يجب أن ينفذ نقل هؤلاء القوم التعساء بأسرع وقت مستطاع ولعل أهم ما جاء فى تقرير اللجنة أنها تهدف إلى حماية العرب فى فلسطين بضمان حقوقهم المدنية والدينية وبالعمل على إنهاض مركزهم الثقافى والاقتصادى .

وقد سررت بإلغاء اللجنة كتاب سنة ١٩٣٩ الأبيض الذى يحد من هجرة اليهود ويمنعهم من شراء الأراضى ، ولا شك أن لهذه التوصية أثراً كبيراً فى العمل على النهوض بالوطن القومى اليهودى» .

وكان تنبؤ السيد جمال الحسينى صادقاً فلقد تحولت فلسطين بعد تقرير هذه اللجنة إلى شعلة من النيران ولكن بين كفتين غير متوازيتين فالعرب الفلسطينيون يجاهدون وحدهم فى الميدان لا سند لهم إلا جهودهم الذاتية حيث الأمة العربية ممزقة الأوصال مغلوبة على أمرها يحكمها حكام يدينون بالولاء للمستعمر أكثر مما يدينون به لعروبتهم ، أما اليهود فوراءهم ثروات اليهود فى كل بقاع الأرض ووراءهم أمريكا تمدهم بالمال وتسندهم بالنفوذ ثم حكومة فلسطين البريطانية مهمتها سن التشريعات التى تسهل لليهود تحقيق أغراضهم وتضع العقبات أمام العرب وجنود الجيش يهاجمون العرب فى الليل والنهار ويقتلون المجاهدين ويحمون اعتداء اليهود وإجرامهم .

وأتى العرب مرة أخرى من إفراطهم فى حسن الظن فلقد أنشئت فى سنة ١٩٤٥ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هيئة عالمية جديدة سميت «هيئة الأمم المتحدة» ووضع لها ميثاق يسمى «ميثاق حقوق الإنسان » من قرأ بنوده وجد فيها العدالة المطلقة ، فظن العرب أن هذه الهيئة هى خير ملجأ إليه لاستخلاص حقوق أهل فلسطين فاجتمع رؤساء الدول العربية فى جامعة الدول العربية وقرروا عرض هذه القضية على هذه الهيئة .

وتبارى الخطباء العرب من رؤساء الدول العربية ووزراء خارجيتها فى إلقاء بيانات ضافية فى ساحة هذه الهيئة مدعومة بأقوى الحجج التاريخية والقانونية عن حقوق العرب فى فلسطين ولكن تبين أخيراً أن هذه الهيئة لم تكن أخف جوراً ولا أهون ظلماً مما سبقها من لجان لقد أصدرت قرارها بأغلبية ٢٥ صوتاً ضد ١٣ مع امتناع ١٧ عضواً عن الاقتراع فى ٢٩ نوفبر

سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية .

مظاهرة مصر الكبرى لتأييد فلسطين فى ١٥–١٢–٤٧

وقع قرار تقسيم فلسطين على العرب جميعاً موقع الصاعقة وأعلنت الدول العربية رفضها له وعدم اعترافها به ، وأعد الإخوان لمظاهرة اهتزت لها جنبات القاهرة اشترك فيها الأزهر والجامعة وتجمعت فى ميدان الأوبرا حيث خطب فيهم السيد رياض الصلح والأمير فيصل بن عبد العزيز والشيخ محمود أبوالعيون وجميل مردم بك وصالح حرب باشا والقمص متياس الأنطونى والسيد اسماعيل الأزهرى والأستاذ المرشد العام .. وكانت المظاهرة أشبه بمؤتمر على أعلى المستويات الشعبية والرسمية عقد فى فندق الكونتننتال ،وقد تهدم بعض مبانى الفندق من شدة ضغط الجماهير وكان الهتاف كله منأجل فلسطين ، ومما يؤسى له أن بعض المندسين فى المظاهرة ممن لم يفهموا سغزاها ولا معناها ولا أهدافها حاولوا الهتافللنحاس باشا ولكن الناس أسكتوهم حتى لا يذهبوا بجلال الموقف .

وخطب الأستاذ المرشد فقال : «ابيك فلسطين .. دماؤ نا فداء فلسطين وأرواحنا للعروبة.. يازعماء العرب ... ياقادة الأمة العربية .. إننى أنادى الأمم المجاهدة ، الحجاز وسوريا والعراق وشرق الأردن ولبنان وأبناء وادى النيل وكل عربى يجرى فى عروقه دم العروبة الحر .

أيها الزعماء ... أنتم القادة ... وهؤلاء الجنود ... قد وقفوا دماءهم لدفاعكم المقدس .. إن هذا الشباب ليس هازلا .. ولكنهم جادون .. عاهدوا الله وعاهدوا الوطن على أن يموتوا من أجله .

إنه وإن كان ينقصنا اليوم السلاح فسنستخلصه من أعدائنا ونقذف بهم فى عرض البحر لقد تألبت الدنيا تريد أن تسلبنا حقنا ، وقد عاهدنا الله أن نموت كراماً أونعيش كراماً ...

إننى أعلن من فوق هذا المنبر أن الإخوان المسلمين قد تبرعوا بدماء عشرة آلاف متطوع للاستشهاد فى سبيل فلسطين .. وهم على أتم استعداد لتلبية ندائكم .

أثبتنا هنا كلمة الأستاذ المرشد لما كان لها من دلالة تتصل بلب المشكلة وواقعها فإن القضية قد أشبعت كلاماً ولم يعد يجدى فيها غير العمل .. والعمل الشاق المضنى الذى تهون فيه النفوس وترخص الأرواح ... وهو ما أشار إليه الأستاذ المرشد فى كلمته إشارة ظاهرة محددة .

وفى مايو سنة ١٩٤٨ كان زعماء الدول العربية مجتمعين فى «عالية» بلبنان فأرسل إليهم الأستاذ المرشد العام برقية يعدهم فيها بما وعد من قبل فى كلمته بادخال عشرة آلاف مجاهد كدفعة

أولى إلى فلسطين وكان من أثر إعلان الإخوان لهذه الخطوة العملية ما يلى :

١ – الأثر المباشر وهو أن أعد كل أخ نفسه ، وسارعوا إلى تقديم أنفسهم وأموالهم إلى المركز العام حتى ضاق هو وشعب القاهرة على سعتها بأفواجهم المتلاحقة .

٢ – أشعل هذا الإعلان الحماس فى نفوس مجموعة كريمة من ضباط الجيش المصرى فاستقالت من الجيش وأعلنت تطوعها .

٣ – جعل اليهود يشعرون أن الطريق ليس ممهداً أمامهم لتحقيق أمانيهم بعد أن ظنوا أنهم بمكرهم وأموالهم وبخداع الإنجليز قد قضوا على كل مقاومة كانت تعترض سبيلهم لا سيما أن الذين يتحدونهم ليسوا جنوداً محترفين . بل هم شباب متطوع دفعته إلى التطوع عقيدته وإيمانه . وهذا النوع من الجنود قوى الشكيمة شديد المراس .

٤ – جعل دول الغرب وهى التى تحتضن اليهود تشرئب بأعناقها إلى هذا الإعلان الجرىء لتعرف كنهه وتتبين مدى جديته فقد عهدوا العرب قوالين غير فعالين ، فتقاطر المراسلون الصحفيون لهذه الدول على المركز العام وأمطروه بالأسئلة ، ورأوا بأعينهم أفواج الإخوان المتطوعين .

٥ – تشجيع الرؤساء العرب . وبث روح الطمأنينة فى نفوسهم حتى لا يتخاذلوا ويتهربوا من المسئولية .

دور الإخوان فى حرب فلسطين

ليس المقصود من الكتابة عن دور الإخوان فى حرب فلسطين سرد تاريخهم فى هذه الحرب ، ولا الحديث عن خططهم ومعاركهم ، فهذه أمور جديرة أن توضع فيها مجلدات ، وأن تكون هذه المجلدات بين يدى كل عربى ومسلم ليستمدوا منها روحاً وقوة ، وليستلهموا منها معانى الاعتزاز والفخر بالانتماء إلى أمتهم العظيمة .. ومما يؤسى له أن لا يكون بين أيدينا ... نحن العرب – هذه المجلدات . وأن تكون هذه المجلدات عند أعدائنا الذين لا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا درسوها وتعلموا منها.. ولذا فإننا حين نكتب عن دور الإخوان فى هذه الحرب فانما نومىء إلى ذلك مجرد إيماء بلمع مما بقى فى الخاطر بعد هذا العهد الطويل .

سارع الإخوان من أنحاء البلاد إلى التطوع من أول يوم فتح الأستاذ فيه باب التطوع ، وكان الأستاذ يشترط فى المتطوعين من الشباب شروطاً أهمها أن يكون المتطوع قد تطوع برضا الوالدين. وأذكر بهذه المناسبة أننى كنت فى ذلك الوقت بالمركز العام ، فأقبل على شاب عرفنى بنفسه وقال

لى : إننى حمدت الله أن قابلتك هنا لأ نك تعرفنى حيث كنت عندنا فى دمهور ، وأنا أعرف أن الأستاذ المرشد يثق فيك ،قلت له: وماذا تريدنى أن أفعل ؟ قال : لما أعلن الأستاذ المرشد فتح باب التطوع عزمت على التطوع وبعت كل ما فى دكانى من بضاعة واشتريت بثمنها سلاحاً وذخيرة ومئونة للجهاد وأغلقت دكانى وحضرت اليوم إلى المركز العام ليلحقنى الأستاذ بالفوج المسافر إلى فلسطين .. ولكن الأستاذ سألنى : هل أبواك راضيان ؟ فلم أستطع أن أكذب .. فقال لا تسافر حتى يكونا راضيين . فخرجت من عنده وأنا فى أشد الحزن .. وأرجوك أن تشفع لى عند الأستاذ المرشد ليقبلنى فى هذا الفوج قبل أن يسافر فإن الحصول على موافقة والدى ليس متوقعاً .

فقلت له : إن الأستاذ المرشد لا يقبل الشفاعة فى مثل هذا ، وعليك أن تحصل على رضا والديك ، وإلا فرضاهما أولى . فتركنى وهو يبكى .

وقد أوردت هذه الواقعة ليتصور القارىء اليقظة الروحية التى بعثتها دعوةالإخوان المسلمين فى نفوس هذه الأمة حتى ألحقتها بالرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كان رسول صلى الله عليه وسلم يستعرض جيش المسلمين استعداداً لغزوة بدر فرد من استصغر سنه فكان ممن رده أسامه بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت ورد عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه ، وكان منهم من وقف على أطراف أصابعه ليبدو أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا فيجيزه .

تدخل الجيوش العربية :

بدأ الإخوان يعدون العدة لتنظيم حركة عسكرية لإنقاذ فلسطين عندما أصدرت هيئة الأمم المتحدة قرارها المشار إليه وكانت منظمات اليهود العسكرية هى منظمة الهاجاناه أى حراس المستعمرات ومنظمة أرجون زفاى ليومى ومنظمة اشتيرن وفرقة البالماخ الفدائية التى أنشئت على النمط الروسى

وكانت المنظمات العربية الفلسطينية اثنتين هما النجادة والفتوة فوجه الإخوان اهتمامهم إلى هاتين المنظمتين على أمل أن تصبحا قادرتين على الوقوف فى وجه المنظمات اليهودية ، ولكن سرعان ماقام خلاف بين قواد هاتين المنظمتين .. وقد حاول الإخوان إصلاح ما بينهما ، ولم يكن بد لإتمام هذا الصلح من إنفاد الصاغ محمود لبيب ، فتم على يديه هذا الصلح ، وارتضته

المنظمتان مدرباً لهما ولكن بعد فترة غير طويلة تنبهت حكومة الانتداب الإنجليزية إلى خطورة وجود الصاغ محمود لبيب فى فلسطين على خططها ومؤامراتها ضد العرب ، فاصدرت هذه الحكومة أمراً إليه بمغادرة البلاد كما طاردت جميع الإخوان الذين دخلوا فلسطين ، ولكن كثيراً من الإخوان كانوا قد تمرسوا على حرب مستمرة مع منظمات اليهود ولم تستطع أن تصل إليهم يد الحكومة لتخرجهم من البلاد .

فلما انسحب الإنجليز من فلسطين فى مايو ١٩٤٨ دخلت الجيوش العربية من الشرق والغرب والجنوب لتعيد الأمن إلى نصابه .. وبذلك أصبح فى فلسطين نوعان من القوات العربية : النوع الأول : المتطوعون وهم متطوعو الإخوان المسلمين والمتطوعون من ضباط الجيش المصرى الذين استقالوا من الجيش ، وقد انضم هؤلاء الضباط إلى متطوعى الإخوان ، واتخذهم الإخوان قادة لهم . وكان من أبرز هؤلاء الضباط القائمقام (العقيد) أحمد عبد العزيز الذى ارتضاه الإخوان قائداً لهم لما كان يمتاز به من الإيمان والشجاعة والتضحية والجرأة الخارقة .. والنوع الآخر هو الجيوش العربية .

هل كان دخول الجيوش العربية صواباً أم خطأ :

وأترك الإجابة على هذا السؤال إلى الأخ الذى عاصر هذه الحرب وخاض غمارها من أول يوم حتى نهايتها وهو الأخ كامل إسماعيل الشريف حيث يقول فى كتابه صفحة ٨١ : الرد على هذا السؤال هو أن العصابات لا يمكن أن تقاتل عصابات مثلها وتنتصر عليها . وأن العصابات لا يمكن أن تحسم الحرب بمفردها ، ولكنها كانت ولا تزال سلاحاً خطراً لو سارت فى ركاب جيش منظم وأحسن تدريب أفرادها وقيادتهم ؛ فيحتل الجيش المنظم المدن والمراكز ويتولى الدفاع عنها بينما تقوم العصابات المدربة بتحطيم قوى العدو ومهاجمة وحداته وطرق مواصلاته .

وإذن فلم يكن هناك بد من دخول الجيوش العربية لتحقيق الهدف الذى حاربنا من أجله ؛ ولكن الخطأ أولا وآخراً فى عدم استعداد هذه الجيوش استعداداً يكفل لها أداء مهمتها ، وجهلها المطبق بقوى العدو الذى تحاربه . والخطأ بعد ذلك خطأ الزعماء السياسيين الذين لم يدخلوا فى حسابهم هذه الهيئات الدولية ومدى خضوعهم لها أما دخول الجيوش نفسها فلا غبار عليه ولا مفر منه ، ولا يمكن أن تحسم الحرب بدونه لا فى الماضى ولا فى المستقبل إذا أردنا حقاً أن نعاود الكرة لتحرير الأرض المقدسة .

هذا هو رأى الأخ الأستاذ الشريف على أن هناك فى هذا الموضوع آراء أخرى .

الإخوان يتطوعون من جميع الأنحاء :

يقول الأستاذ الشريف كانت القوة الأولى من إخوان مصر قد دخلت فلسطين ورابطت فى النقب وافتتحت أولى معارك الجنوب فى «كفار ديروم» فى ١٤ ابريل ١٩٤٨ . وفى نفس هذا الوقت كانت القوة الثانية بقيادة اليوزباشى محمود عبده (كان ناظراً لمدرسة ثانوية) تنتقل إلى معسكر «قطنة» بسوريا ، لتستكمل تدريبها ثم ترابط فترة فى النقب وتشترك مع زميلتها الأولى وأخيراً تصحب الشهيد أحمد عبد العزيز فى جولته الموفقة قبل أن يستقر فى جنوب القدس ويكون من نصيب هذه القوة أن يوكل إليها الدفاع عن مرتفعات «صور باهر» الحصينة، وهناك تلحق بها قوة كبيرة من الإخوان المسلمين فى شرق الأردن بقيادة المجاهد عبد اللطيف أبوقورة رئيس الإخوان فى عمان ، وتندمج القوتان فى فرقة واحدة متحدة القيادة ، ليكون لها الفضل بعد ذلك فى المحافظة على تلك المرتفعات ، وعرقلة الخطط اليهودية التى كانت ترمى إلى احتلالها لتتحكم فى القوات المصرية المتطوعة المرابطة فى مناطق «الخليل وبيت لحم»

ولم يكن الإخوان فى سوريا بأقل نصيباً من غيرهم إذ أدخلوا قوة من رجالهم يقودها الأستاذ مصطفى السباعى رئيس الإخوان فى دمشق عملت بهمة ونشاط فى مناطق «المثلث» و«القدس» وساهمت مساهمة فعالة فى الدفاع عن هذه المناطق الحيوية .

وكانت العصابات غير النظامية التى شكلتها شعب الإخوان فى فلسطين تعمل منذ بداية الحركة فى المناطق الشمالية والوسطى تحت القيادات العربية المحلية وتقوم بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم رغم الضعف الشديد الذى كانت تعانية سواء فى التسليح أو التدريب .

ولقد اضطر الإخوان إزاء القيود التى فرضتها الحكومة إلى تقديم شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية ، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها فى معسكر الها كستيب ثم تسللت إلى فلسطين قبيل زوال الانتداب البريطانى . وكان يقود الكتيبة الأولى الشهيد «أحمد عبد العزيز» الذى قام بنشاط ملحوظ فى مهاجمة اليهود فى النقب قبل أن تتخذ موقعاً دفاعياً عن مناطق جنوبى القدس .. وكانت الكتيبة الثانية بقيادة البكباشى «عبد الجواد طبالة» ترافق الجيش المصرى وتشترك معه فى الدفاع عن منطقة غزة ، وتتولى حصار بعض المستعمرات ، وتقوم بحراسة بعض النقط الهامة فى خطوط المواصلات ثم تستقر بعد ذلك مع زميلتها فى «بيت لحم» عقب استشهاد المرحوم أحمد عبد العزيز .

وتتجمع هذه القوات فى تلك المنطقة وتنجح فى المحافظة عليها وتسليمها للجيش الأردنى بعد حصار شاق طويل ، وهجمات عنيفة من العدو أظهرت فى صدها الكثير من البطولات .

وهكذا وبالرغم من تلك القيود القاسية التى فرضها الاستعمار وحافظ عليها أذنابه من بعده فقد اشترك الإخوان فى الحرب بأعداد كبيرة كانوا يتحملون الإنفاق على معظمها ويتكبد مركزهم العام ألوف الجنيهات فى شراء الأسلحة والمعدات ... ولكى نضع بين يدى القارئ صورة توضح مدى فعالية القوة القتالية للإخوان فى فلسطين فسنقتبس بعض صفحات من كتاب الأستاذ كامل إسماعيل الشريف يشرح فيها بعض مواقع لهم مع اليهود .

أول معركة للاخوان بفلسطين :

فى صفحة ٦٩ من كتاب الأستاذ الشريف يقول :

لم يكن الإخوان يعلمون عن المستعمرات اليهودية وتحصيناتها أكثر مما عرفته إدارة المخابرات فى الجيوش العربية النظامية ، فلقد هونت هذه المخابرات من شأن التحصينات اليهودية وقللت من أهميتها ، حتى لقد قدرت إحداها ٧٢ ساعة ليفرغ جيشها من احتلال فلسطين كلها ، وحتى سمعنا أحد المسئولين العسكريين فى جيش عربى كبير يقول للوحدات العسكرية الزاحفة إنها ذاهبة فى «نزهه عسكرية إلى تل أبيب لا أكثر ولا أقل» وحتى لا يقطع على الضباط والجنود دهشتهم قال لهم إن الناس فى قريتى حين يقيمون الأفراح والليالى الملاح يطلقون الرصاص فى الهواء دليلا لفرحهم وعلامة على ابتهاجهم ، وإن الأسلحة التى معكم تكفى جداً لهذه المهمة الهينة اللينة .

كان الإخوان فى الفترة الأولى من الحرب يجهلون المستعمرات اليهودية وطرق تحصينها ، فظنوا أن فى مقدورهم مهاجمتها واحتلالها رغم ما كانوا يعانونه من نقص فى الأسلحة والمعدات . ولقد تمت المحاولة الأولى فى الساعة الثانية من صباح ١٤ إبريل ١٩٤٨ وكان الغرض منها احتلال مستعمرة «كفار ديروم» المحصنة . وهذه المستعمرة وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت مقامة فى وضع بالغ الأهمية لقربها من الحدود المصرية ، ولوقوعها على طريق المواصلات الرئيسى الذى يربط مصر بفلسطين ، وكان فى استطاعة حراسها أن يراقبوا الداخل والخارج وأن يقطعوا هذا الطريق فى أى وقت يشاءون وهم يختفون خلف أبراجهم المسلحة دون أن يتعرضوا لشئ من الأذى ... لذلك كله اهتمت القيادة اليهودية بهذه المستعمرة وبالغت فى تحصينها وإقامة الأبراج الشاهقة حولها ، وإحاطتها بحقول كثيفة من الألغام والموانع السلكية الشائكة ثم زودتها بعدد كبير من نخبة رجال «الهاجاناه» وفرقة «البالماخ» الفدائية .

هذا وصف موجز لهذا «الجيب» اليهودى الخطر الذى حاول الإخوان تطهيره واحتلاله ، ثم تلقوا على يديه درساً قاسياً ، وكانت هذه المعركة هى نقطة التحول التى غيرت خطتهم وصرفتهم عن معاودة الهجوم على المستعمرات دون أن يملكوا المعدات اللازمة لهذا النوع من القتال .

هاجم الإخوان المستعمرة فى وقت مبكر من صبيحة اليوم ، ونجحوا فى المرور خلال حقول الألغام عبر ممرات أعدوها طوال الأسبوع الذى سبق المعركة ، واجتازوا عوائق الأسلاك الشائكة .. كل هذا تم بدقة وسرعة دون أن يتنبه حراس المستعمرة لما يجرى حولهم ولم يفيقوا إلا على صوت انفجار هائل أطاح بأحد مراكز الحراسة ، ثم بدأت المعركة داخل الخنادق وعلى أبواب الأبراج و«الدشم» وأبدى الإخوان فى هذه المرحلة من ضروب البطولة والفدائية مالا يمكن حصره ولا تصويره . واستطاع اليهود أن يسدوا الثغرات التى أحدثها المجاهدون فى دفاعات المستعمرة ثم حاصروا القوة الصغيرة التى نجحت فى التسلل إلى أوكارهم ومضوا يحصدونها ببنادقهم ورشاشاتهم .

وهكذا فشلت المحاولة الأولى ومضى الإخوان يحملون شهداءهم وجرحاهم وكان عددهم يربو على العشرين وانتهت المعركة على هذه الصورة المؤسفة ولكنها ظلت مثلا فريداً للبطولة والتضحية .

من بطولات هذه المعركة :

مما زاد فى روعة هذه المعركة أنها كانت المعركة الليلية الوحيدة التى شهدتها معارك الجنوب ، وتمت فى خفة وهدوء يدلان على مستوى عال فى التدريب والمقدرة ، وظل الإخوان طوال فترة الحرب يتذاكرون المثل العليا التى سجلها المجاهدون فيها ، والتى أعادت إلى الأذهان صوراً حية من جهاد الصدر الأول ، فهذا أحدهم وهو المجاهد «محمد سلطان» من مجاهدى الشرقية يزحف على بطنه حاملا لغماً هائلا وهدفه أحد مراكز الحراسة فى المستعمرة .. يتنبه إليه الحراس وهو قيد خطوات من هدفه فيطلقون عليه رصاصات تصيبه فى ذراعه وتعجزه عن المضى فى زحفه ، ولكنه يتحامل على نفسه ويزحف بصعوبة والدماء تنزف من جراحه والرصاص يتناثر من حوله ويظل يجاهد بعناد حتى يقترب من هدفه فيشعل اللغم ويدمر مركز الحراسة ويقضى على البطل الفذ ويمضى ليلاقى ربه شهيداً .

وهذا المجاهد «عبد الرحمن عبد الخالق» يقود إحدى جماعات الاقتحام فى المعركة ويستمر فى قتاله الرائع رغم أوامر الانسحاب التى صدرت إليه فيقول : كيف ننسحب وإخواننا فى داخل

المستعمرة ؟ ثم يذكر من معه بقول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار» ويظل يقاتل بشدة حتى تصيبه رصاصة قاتلة فى رأسه لتضع اسمه فى عداد الشهداء

وهذا مجاهد آخر هو «عمر عبد الرءوف» تصيبه رصاصة فى صدره لتبدو على وجهه ابتسامة مشرقة ويهتف بمن حوله «أترون ما أرى ؟» ثم يأخذ نفساً طويلا ، ويقول : هذه هى الجنة .. إنى أراها .. وأشم رائحتها » ثم يلفظ أنفاسه الطاهرة .

ما استفاده الإخوان من هذه المعركة :

خرج الإخوان من هذه المعركة بنتيجة واحدة ، فهموها وظلوا يعملون على أساسها طوال الفترة التى قضوها فى فلسطين ، فهموا أن مهاجمة المستعمرات اليهودية بهذا النقص الواضح من الأسلحة والمعدات هو انتحار محقق ، وفهموا كذلك أنهم لن ينجحوا إلا فى حرب عصابات ينزلون فيها الضربات على خصومهم خارج هذه المستعمرات دون التعرض لحصونهم واستحكاماتهم. ولقد قلت للإخوان عقب هذه المعركة مباشرة : «إن اليهود أقوياء فى هذه الحصون والأبراج ، فلن نهاجمهم فيها بعد اليوم ولكننا سنغير على قوافلهم ونضطرهم إلى قتالنا فى الأرض المكشوفة» وعلى هذه الطريقة بدأ الإخوان ينظمون أنفسهم فى عصابات صغيرة ترابط على طرق المواصلات وتهاجم شبكات المياه ومراكز التموين ، حتى اضطر اليهود إلى إخراج كثير من قواتهم لحراسة المواصلات والقوافل ، فاستطاع الإخوان بذلك أن يوقعوا بهم ضربات حاسمة سريعة وأن يغنموا منهم كميات كبيرة من العتاد والسلاح . وإليك مثالا للأخذ بهذه السياسة :

أسلوب جديد فى مهاجمة اليهود :

حدث مرة أن قامت قوة من الإخوان بقيادة المجاهد حسن عبد الغنى بتدمير شبكات المياه بين مستعمرتى (بيرى) و (أنكوما) وأباحت أنابيب المياه لأعراب المنطقة ينتزعونها منا لأرض تحت حراستهم ، حتى نزعت من الأنابيب مساحات شاسعة ؛ ثم رابطت فى المنطقة تمنع العدو من إصلاحها . وصبر اليهود يومين عساها تنصرف لشأنها ولكن القوة العنيدة ظلت تواصل تدمير الأنابيب ونزعها والتعرض للمصفحات والقوافل التى تحاول إصلاحها ؛ فلم تجد القيادة الإسرائيلية بداً من الدخول فى معركة مباشرة . فجمعت عدداً من المصفحات من جميع المستعمرات وأحاطت القوة الصغيرة من جميع الجهات ، وأخذت تقترب منها على أمل أن تظفر بها .. وصمد الإخوان صموداً عجيباً ، وأوقعوا من اليهود عدداً من القتلى قبل أن يبعثوا فى طلب النجدات من معسكراتهم

وجاءت مصفحات الإخوان وألامت نطاقاً حول مصفحات العدو الذى أسقط فى يده حين رأى نفسه محصوراً بين نارين ، فاضطر إلى طلب نجدات أخرى من المستعمرات القريبة ، وامتلأ ميدان المعركة بقوات كبيرة من الجانبين واشتد القتال بين الفريقين شدة لم يسبق لها مثيل حتى يئس العدو من زحزحة الإخوان عن موقفهم فأخذ يطلق سحباً من الدخان ليستر انسحابه .. وما كادت أطباق الدخان تنجاب عن ميدان المعركة حتى سارع الإخوان يجمعون غنائمهم من السلاح ويعودون لتدمير الأنابيب من جديد .

حقارة اليهود : وأيقن اليهود أنه لا قبل لهم بمواجهة هذه القوات المتفانية فى حرب شريفة ، فلجأوا إلى أسلحة الغدر والخيانة ؛ وحاولوا تسميم آبار يستعملها الإخوان فى منطقة «خزاعة» حيث كان المجاهد نجيب جويفل يرابط فيها بسريته .. ولكن عين الله المبصرة ويقظة الإخوان مكنتهم من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها : وذلك أنهم لمحوا رجلين يرتديان الملابس العربية ويتظاهران باستجلاب الماء ، وكان منظرهما يدعو إلى الريبة ، فاقترب منهم الجندى الحارس وأمرهما بالوقوف فلاذا بالفرار فتعقبهما الحارس وعدد من إخوانه حتى أدركوهما ولم يبق بينهما إلا خطوات وأمرهما بالتسليم مهددين إياهما بإطلاق النار فرفعا أيديهما بالتسليم ، وحين اقترب الإخوان منهما انبطحا على الأرض فى سرعة وقذفا على المهاجمين عدداً من القنابل اليدوية ، فأسرع الإخوان بملاصقة الأرض ثم أطلقوا عليهما النار فأردوهما قتيلين .

وبلغت النقمة بالإخوان من هذا الغدر أن حملوا الجثتين إلى مستعمرة «نيريم» وهناك على مقربة من العدو نضحوا الجثتين بالبترول وأشعلوا فيهما النار على مرأى من المستعمرة .. وجن جنون اليهود وأخذوا يلوحون بأيديهم فى غضب وانفعال .. وحين جن الليل هاجموا مواقع الإخوان فى «خزاعة» انتقاماً لهذا الحادث ولم يتمكنوا من زحزحة الإخوان وإن كانوا قد نجحوا فى قتل أحد المجاهدين الأبرار الشهيد عيسى إسماعيل عيسى من إخوان الشرقية الكرام .

وهكذا نجحت الخطة الجديدة ، ولم يعد الإخوان فى حاجة إلى معاودة الهجوم على المستعمرات المحصنة والتعرض لنيرانها ؛ ذلك لأن اليهود قد اضطروا إزاء هجمات الإخوان الموفقة على قوافلهم وطرق مواصلاتهم إلى تعيين دوريات ميكانيكية وقوات كبيرة من المشاة لحراسة تلك الطرق والمنشآت وحمايتها أمام تلك الهجمات .. ولم يكن الإخوان ليضيعوا الفرصة الثمينة فأخذوا يغيرون على هذه القوات المبعثرة فى الصحراء ويرغمونها على القتال إرغاماً حتى تحولت تلك المنطقة إلى ساحة حرب قوية.. ولم يكن يمر يوم فى تلك الفترة دون أن تنشب معركة عنيفة تنتهى حتما بقتل عدد من جنود العدو وتدمير عدد آخر من مركباتهم ومدرعاتهم .

ولقد حاولت القيادة اليهودية أكثر من مرة القضاء على هذه العصابات وتطهير المنطقة منها ، فكانت ترسل عدداً كبيراً من قواتها ، وكان هذا أقصى مايريده الإخوان فيستدرجونهم إلى المناطق الوعرة ويحاصرونهم فى الشعاب والوديان .

وإذا نظرنا إلى هذه الفترة نجد أن الإخوان قد وصلوا إلى نتيجتين لم يكونوا يستطيعون الوصول إليهما بدون هذه الأعمال العصابية ؛ فالنتيجة الأولى هى خروج اليهود من مستعمراتهم وحصونهم لمقاومة عصابات خفيفة محصنة فى بطون الشعاب والوديان . والنتيجة الثانية أن الإخوان استطاعوا الحصول على كثير من الغنائم والمعدات التى لم يكونوا يملكونها كالمصفحات الضخمة والأسلحة الرشاشة البعيدة المرمى ، هذا عدا أنواع مختلفة وكميات كبيرة من الذخائر والقنابل .

من البطولات الخارقة :

يقول كامل الشريف فى صفحة ١١٤ : «وكان هذا النجاح حافزاً على القيام بحركة جديدة ذلك أن مستعمرة «تل بيوت» دأبت على إطلاق النيران من برجها الضخم وتسبب عن ذلك كثير من الخسائر والأضرار مما اضطر أحمد عبد العزيز إلى إصدار أوامره إلى الأخ المجاهد « حسين حجازى» ليتولى تدمير هذا البرج الخطر.. وفى ليلة ٤ يونيوانطلقت جماعةمن الإخوان منبيت لحم وأحيط انطلاقهم بتكتم كبير حتى إن زملاءهم فى القوة لم يعلموا حقيقة المهمة التى سيقومون بها ، حتى لمعت برقة خاطفة أضاءت صفحة السماء وأعقبها انفجار هائل ارتجت له أركان المدينة وشاهد الناس أحجار البرج الضخم تتناثر فى الهواء ثم تتهاوى لتصنع منتراكمها قبراً كبيراً يضم تحته رجال الهاجاناه .

الهدنة الأولى أو الكارثة العظمى

وقد علقت جريدة «أخبار اليوم» فى عددها الصادر فى ٥ يونية سنة ١٩٤٨ تصف هذه العملية الجريئة فقالت بعد كلام طويل : «وفى الليل تسلل (حسين) ومعه أربعة جنود .. وزحفوا على الأشواك فى «صور باهر» أربعة كيلو مترات تحت تهديد الرصاص الطائر فى الهواء والحيات الزاحفة بين الأحجار ... وقرب الفجر سمعت «بيت لحم» انفجاراً مدوياً ، وتهدمت ثلاثة حصون من (تل بيوت) . وفى الصباح عاد (حسين حجازى)ليتلقى تهنئة قائده ومنها لقب «بطل تل بيوت» .

«وبينما المجاهدون يوجهون ضربات مركزة فى كثير من المناطق ، ويعدون أنفسهم للوثوب

على القدس الجديدة إذا بالدول العربية تقبل الهدنة الأولى وتصدر أوامرها لجيوشها بوقف إطلاق النار لمدة أربعة أسابيع تبدأ من يوم ١١ يونية ١٩٤٨ » .

موقف الإخوان من الهدنة الأولى :

الذى اقترح الهدنة الأولى هى الأمم المتحدة يمثلها الكونت برنادوت ، والذى اعترض على هذا الإقتراح هم الإخوان المسلمون لأن الإخوان كانوا هم أدرى الناس بحقيقة الموقف فى فلسطين ... كانت القوات العربية جيوشاً ومتطوعين فى انتصار ساحق ، وكان اليهود فى هزائم متلاحقة وارتباك شديد .. وفهم الإخوان أن اليهود لم يجدوا لهم مخرجاً من الورطة التى وقعوا فيها إلا بحيلة ماكرة يستردون فيها أنفاسهم . ويعيدون خلالها تنظيم صفوفهم ، ويستغلون فيها غفلة خصومهم . فأوحوا إلى مؤيديهم فى الأمم المتحدة – وما أكثرهم – أن يطالبوا تقرير هدنة يسحب الطرفان خلالها قتلاهم لمدة أسبوعين .

فهم الإخوان ذلك ، وكل المتابعين لأنباء القتال فى فلسطين فى ذلك الوقت كانوا يفهمون ذلك ، والصحفيون الذين كانوا فى الميدان وخارج الميدان كانوا يفهمون ذلك .. وكان على حكومة مصر أن تكون أول من يفهم ذلك .. لكن هذه الحكومة وقفت موقف الأبله لا بل موقف المتباله

كان على الحكومة المصرية أن ترفض هذه الهدنة أو أن تتلكأ على الأقل فى قبولها عدة أسابيع وإذن لتغيرت نتيجة هذه الحرب ، ولما كانت هناك مشكلة تسمى مشكلة فلسطين ولا دولة تسمى دولة إسرائيل .

لم يدخر الإخوان وسعاً فى تقديم النصيحة للحكومة أن لا تنخدع وتقبل الهدنة . وقد افترض الإخوان –بحسن الظن أن الحكومة لم يتضح لها خطورة الموافقة على هذه الهدنة فشرحوا لها مدى الأضرار التى ستحيق بالمجاهدين وبالجيوش العربية وبالأمة العربية وبالأمة الإسلامية إذا ما وافقت على الهدنة وصارت هى وجيشها والمجاهدون ملتزمين بها فى حين أن اليهود لن يلتزموا بها بل إنها ستكون فرصة لهم لإعادة تنظيم صفوفهم بعد أن مزقت كل ممزق .

وقد كتب الأستاذ المرشد مقالا افتتاحياً فى جريدة الإخوان اليومية الصادرة فى ٣ يونية سنة ١٩٤٨ تحت عنوان «حول اقتراح الهدنة... ماذا وراء هذا الرد ؟ » ننقل للقارىء نص هذا المقال لبالغ أهميته التاريخية .. يقول المرشد العام ...

«هنا حقائق ثلاث لا يجادل فيها أحد من الناس :

الحقيقة الأولى أن هذه العصابات الصهيونية الآثمة الغادرة فى فلسطين قد اعتدت اعتداء منكراً على المدن الفلسطينية الكبرى وعلى القرى الصغرى ، وارتكبت من الفظائع ما تشيب له الرءوس ، وكان عن عدوانها هذا أن شردت عشرات الألوف من عرب فلسطين وهاجروا إلى الأوطان المجاورة ، وتركوا ديارهم وأموالهم وبيوتهم ومصالحهم نهباً مقسما فى أيدى هذه العصابات التى تحتل الآن حيفا ويافا وعكا وطبرية وهى أعظم مدن فلسطين . ولهذا لم تجد الدول العربية بدأ من امتشاق الحسام لتأديب هؤلاء الطغاة ولاستنقاذ هذه المقدسات ، ولتأمين حياة المقيمين . ورد المهاجرين العرب إلى أوطانهم ، وطرد السفاكين من الصهيونيين إلى البلاد التى قذفت بهم .

والحقيقة الثانية أن الجيوش العربية منتصرة مظفرة بيدها زمام الموقف والحمد لله ، وأن كل يوم يمضى يزيدها ظهوراً وتمكيناً ، وأن الشعوب العربية قد انتفضت فتكشفت عن أروع وأجلَ وأفضل خصال آبائها وأجدادها نجدة وعزة وبذلا وتضحية وقوة وبسالة.وأنها تبذل الدم والمال والنفيس والرخيص ولا تبقى على شىء فى فرح وسرور وطمأنينة وارتياح ،وأن عنوان هذا كله قد قرأه الخاص والعام على جبهات الأبطال من رجالنا وشبابنا فى الميدان .

والحقيقة الثالثة أن جامعة الدول العربية قد طاولت حتى تعبت المطاولة نفسها ، وقد صبرت على عبث الساسة الدوليين حتى مل الصبر ذاته ، وقد أضاعت فرصاً كثيرة وأوقاتاً غالية ثمينة فى سبيل الظفر بتقدير الرأى العام العالمى وإثبات حسن النية والأخذ بالحكمة والعقل والتبصر ، وأصبح الأمر كما قال الأستاذ العقاد فى إحدى مقالاته ، لن نجنى بعد ذلك من الحكمة والتعقل إلا أن نعرف بعد فوات الأوان أننا كنا أشد تعقيلا من المجانين .

هذه هى الحقائق الثلاث التى كانت ولا زالت تفرض على الدول العربية أن ترفض كل اقتراح يشير إلى هدنة أو شبه هدنة إلا بعد أن تدخل جيوشها تل أبيب وتطرد هذه العصابات الآثمة من حيفا ومن يافا ومن عكا ومن طبرية وتطوق كل مستعمراتهم أو تستولى عليها وترد المهاجرين من عرب فلسطين إلى ديارهم .. ثم إذا قيل بعد ذلك « الهدنة» فبها وإلا فالقتال حتى يقذف بآخر يهودى صهيونى إلى البحر وتطهر فلسطين المباركة من هذا الرجس .

ومن هنا كان الرد المطاط المرن غريباً علينا نحن الإخوان المسلمين ؛ فنحن فى ساعات الجد الحازم الذى لا يحتمل العبث مع العابثين من رجال ليك سكسيس وأمثالها .

ونحن فى الحقيقة حائرون فى السبب الذى جعل اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية تؤثر هذا الوضع وترد بمثل هذا الرد ؟ ..

وهل حقيقة ما يقال من أن بريطانيا هى التى دفعت بالدول العربية إلى القتال لتسوى خلافاتها معها فى ظل انشغالها بهذا الميدان حتى إذا «لخمتها هذه اللخمة؛» أرادت الهدنة بعد ذلك لتصل فى هذه االفترة إلى ماتريد ؟ وأنها بذلك تلعب على الحبلين وتظن أنها قد أرضت العرب بتظاهرها بالوقوف إلى جانبهم حيناً من الزمن ثم تحاول إرضاء اليهود بتشجيع الهدنة التى يستطيعون فى ظلها أن يتنفسوا مما هم فيه من ضيق ؟.

أم أن ذلك غير صحيح والصحيح أن قادة العرب أنفسهم هم الذين يريدون هذه الهدنة لأمور جدت وحوادث حدثت بعد الاستيلاء على القدس القديمة .. ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا ولاذاك ولا أن نرى له نصيباً من الصحة فقادة العرب فى تماسكهم وتضامنهم واتفاقهم على كل شىء ووطنيتهم أعظم غيرة وحرصاً على مصلحة فلسطين ومصلحة أوطانهم من أن يكون هناك ظل لهذا التفكير .

وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل الصحيح أن حكام الشعوب العربية لا زالوا مغرمين بالأساليب السياسية كارهين لكلمايتصل بالحرب والجهاد بسبب، يؤثرون دائماً أنيصلوا من غير هذه الطريق ولو لم يكن هناك طريق غيرها ، وأنهم وجدوا فى الهدنة المقترحة ما يتفق مع هذا الهوى ويماشى هذا المنطق فقبلوها مرحبين ..؟.

ونحن لا نريد أن نصدق هذا أيضاً فالحكام بعد أن رأوا هذا الإجماع الرائع و هذه الحماسة البالغة من شعوبهم لايمكن أبداً إلا أن تتحول فى أنفسهم طبيعة المسالمة بل عادة المسالمة والملاينة التى ألفوها ويؤمنوا أقوى إيمان بأن الجهاد هو أقرب طريق لتحقيق الآمال وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا .

لم يبق إذن إلا فرض واحد هو أن اللجنة السياسية تريد أن تبرهن من جديد على حسن نية الدول العربية وحبها الدائم للسلام لتكسب بذلك عطف الرأى العام العالمى ولتكسب الوقت أيضاً ولتحرج الصهيونية أمام مجلس الأمن .

ومع جواز هذا فى عرف السياسة فنحن نعتقد أن العدول عن الحزم وعدم أخذ الأمور بمنتهى الشدة والجد فى الموقف الذى نحن فيه لا يكون وراءه إلا تعقد الأمور وزيادة المتاعب ،

نا نؤثر أن يكون شعارنا اليوم وبعد أن يئسنا من أساليب الدبلوماسية هذااليأس ماقاله من قبل د المؤمن بن على :

وحكم السيف لا تعبأ بعافيـــة   وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنـــالبغـــير السيف منقبـــة   ولانرد صدور الخيل بالكتب

كان يطاع لقصير رأى !!...

إننا متشائمون من هذه الهدنة لا نرضى بها ولا نوافق عليها . ونحمل الذين اختاروا هذه طريق تبعة عملهم بين يدى الله والناس . ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولاقوة إلا بالله على العظيم ...»

ولم تكن الهدنة الأولى فى حقيقتها إلا أسلوباً جديداً ابتكرته هيئة الأمم لمساعدة اليهود وتمكينهم ن جلب الأسلحة الثقيلة والذخائر . ولقد كان قبولها من جانب العرب اعترافاً فعلياً بقيام إسرائيل لم تقف فائدة الهدنة لليهود عند حد جلب السلاح والعتاد فحسب ، ولكنها أيضاً كانت وسيلة لاحتلال المواقع الهامة ، إذ أن أغلب المراكز الخطيرة لم يستطع اليهود احتلالها إلا بهجمات غادرة ناموا بها خلال الهدنة .. وكانت الحجة دائماً عند هيئة الأمم وعند حكومة إسرائيل أن أصحاب هذه الحركات الغادرة ليسوا إلا عصابات فوضوية متطرفة ، وكانت الدول العربية تصدق هذا الزعم ونشفق على هيبتها وكرامتها أن تجارى عصابات فوضوية وهى الدول ذات المركز والسلطان . وعن هذا الطريق احتل اليهود أغلب المناطق التى وقعت فى أيديهم .

الموقف بعد الهدنة الأولى :

يقول كامل الشريف فى صفحة ١٤٨ : أود قبل أن أستطرد فى بيان ما خفى من نشاط الإخوان المسلمين وأثرهم فى الميدان أن أشير إلى بعض التغييرات الجوهرية التى طرأت على جبهات القتال بعد فرض الهدنة الأولى ليكون القارىء على حقيقة بينه من الموقف .

لزم الجيش المصرى مواقعه التى احتلها . وأخذت وحداته تنظم الدفاع عن نفسها وتستعد لاستئناف القتال ، وعند نهاية الهدنة أخذ الجيش يهاجم مراكز اليهود بعنف وشدة ، ويضيق الخناق على المستعمرات الجنوبية حتى كادت تموت جوعاً وعطشاً ، وأدركت القيادة اليهودية حقيقة الخطر الذى يحيط بهذه المستعمرات فحاولت تموينها بالطائرات ولم تنجح فى هذه الخطة أيضاً إذ كان السلاح الجوى المصرى فى ذلك الحين لا يزال يسيطر . وأذكر أنهم قاموا بمثل هذه المحاولات فى

المستعمرات التى يتولى جنود الإخوان حصارها غير أن الإخوان أرغموها أكثر من مرة على إلقاء حمولتها بعيداً عن المستعمرات تحت تأثير نيران المدافع الرشاشة التى كانت تسلط عليها من أبعاد قريبة والفرار راجعة إلى قواعدها . وكانت هذه الحركة مصدر غنائم جديدة للإخوان ومصدر مضايقات مثيرة لليهود .

الهدنة الثانية أو ثالثة الأثافى

وهنا فرضت الهدنة الثانية التى استطاع اليهود فى خلالها أن يجلبوا أنواعاً جديدة من الأسلحة الثقيلة والطائرات الضخمة ... وحين آنسوا فى أنفسهم شيئاً من القوة والإعداد ، ضربوا بالهدنة عرض الحائط وبدأوا عمليات جريئة واسعة النطاق ؛ فهاجموا (تقاطع الطرق) فى ١٤ أكتوبر واحتلوها.

وبذلك تحطم الحاجز الذى يفصل الشمال عن الجنوب ، وانطلقت القوات اليهودية المدرعة تحمل الأسلحة والجنود وانتفضت المستعمرات الهادئة الوادعة ، ودبت معالم الحياة والنشاط فى أوصالها وقامت لتؤدى دورها المرسوم فقطعت طرق المواصلات حين كان الضغط يشتد على خطوط الجيش الأمامية مما اضطر قيادة الجيش إلى تقصير خطوطه والتخلى عن مناطق المجدل واسدود تاركة خلفها قوة قوامها خمسة آلاف جندى فى منطقة (الفالوجا) لم تستطع الإفلات والحاق بالجيش المنسحب إلى غزة .

بطولات خارقة لحماية انسحاب الجيش المصرى

فرضت السياسة الخرقاء لحكومة المصرية على الجيش المصرى فى فلسطين بقبولها الهدنتين الأولى والثانية الوضع الذىيكون فيهالانسحاب هوأقلالضررين،ولم يتوان الجيش فى إعداد خطة الانسحاب ، ولكن كان لابد لتأمين انسحابه من الاحتفاظ بمواقع معينة إذا فقدها فشلت خطة الانسحاب وصار الجيش معرضاً للفناء ، وننقل فيما يلى عن الأستاذ كامل الشريف لمامن بطولات رائعة للإخوان فى سبيل تأمين الجيش المصرى .

١ — استرداد العسلوج

كان احتلال العسلوج يعنى قطع مواصلات الجيش المصرى فى الجبهة الشرقية ؛ مما دعا القيادة العامة إلى تنظيم خطة لاستردادها . وفى اليوم التالى تحركت قوة كبيرة من الجيش النظامى تعاونها المدفعية والسيارات المدرعة ، ولكنها فشلت فى الاقتراب من القرية لاستماتة العدو فى الدفاع عنها

فاستنجدت القيادة العامة بالبكباشي أحمد عبد العزيز الذى وكل الأمر لليوزباشي محمود عبده قائد الإخوان فى «صور باهر» ليتولى إرسال قوة من رجاله تسترد هذه المواقع ، وأترك وصف النتيجة لسعادة اللواء أحمد محمد المواوى بك القائد العام وهى مقتبسة من شهادة أدلى بها بين يدى القضاء فى إحدى قضايا الإخوان المسلمين التى عرفت باسم «قضية سيارة الجيب» وكانت إجابته رداً على سؤال وجهه إليه الدفاع فى القضية المذكورة .

— هل كلفتم المتطوعين بعمل عسكرى خاص عند مهاجمتكم العسلوج » ؟..

— نعم ... العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقى واستولى عليها اليهود فى أول أيام الهدنة . ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات ، وكانت رياسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذا البلد ، حتى إن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل لى إشارة هامة يقول فيها (لابد من استرجاع العسلوج بأى ثمن) فكانت الخطة التى رسمتها لاسترجاع هذا البلد هى الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين ، فكلفت المرحوم أحمد عبد العزيز بك بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين وكانت صغيرة بقيادة ملازم ، وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة ولكن القوة الصغيرة هى التى تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها .

ولما سأله المحامون عن السبب فى تغلب القوة الصغيرة أجاب :

— القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط .. المسألة مسألة روح ، إذا كانت الروح طيبة يمكن للضابط أن يعمل ما يشاء ، ولكن إذا كانت الروح ميتة فلايمكن للضابط أن يعمل شيئاً ... لابد من وجود الروح المعنوية .

يقول كامل الشريف : وهكذا تحررت «العسلوج » وكان تحريرها على يد قوة من الإخوان بقيادة ضابط ملازم هوالأخ المجاهد «يحى عبد الحليم » من إخوان القاهرة ... ومع هذا النجاح الباهر الذى أحرزه الإخوان وعظم الخسائر التى منى بها العدو ، كانت خسائرنا صغيرة جداً لاتتجاوزعدداً من الجرحى من بينهم قائد القوة المهاجمة المجاهد «يحى عبد الحليم»

١ — استرداد تبة اليمن :

نجح العدو فى ١٩ اكتوبرفى اقتحام مرتفع شاهق يعرف بتبة اليمن ... وهأنذا أنقل نص إشارة رسمية بعثتها قيادة (بيت لحم) إلى الجهات العسكرية المسئولة بتاريخ ٢٠ اكتوبر :

«قام العدو بهجوم عنيف على جميع مواقعنا الدفاعية تحت ستار غلاله شديدة من نيران الأسلحة الأوتوماتيكية والهاونات وقاذفات الألغام والمدفعية الثقيلة — صدت قواتنا الهجوم — تمكن العدو

من الاستيلاء على مواقعنا بجبل «اليمن» –قامت قوة من الإخوان المسلمين بقيادة الملازم أول خالد فوزى بهجوم مضاد فطردت العدو بعد أن كبدته خسائرنا فادحة – خسائرنا ضعيفة. وقد أبلغنا مراقبى الهدنة ».

وقد علقت أغلب الجرائد العربية واليهودية على هذه المعركة وذكرت جهود الإخوان فيها بالإكبار والإعجاب .. وكتبت جريدة «الناس» العراقية فى عددها الصادر يوم ٧–١١ مقالا تحت عنوان «بسالة متطوعة الإخوان المسلمين » جاء فيه :

«وإن اليومين الماضيين امتازا ببسالة منقطعة النظير من متطوعة الإخوان المسلمين فقد استولى اليهود شمال غرب بيت لحم بعد محاولات عديدة على جبل مرتفع يسمى «تبة اليمن» ويشرف على قرى الولجة وعين كارم والمالحة وما جاورها وأصبحوا يهددون كل المناطق المحيطة بها ، ورأت قيادة الجيش المصرى ضرورة تطهيرها فندبت لذلك عدداً من متطوعة الإخوان المسلمين فى «صور باهر» فتقدمت سرية منهم .. ولم تمر ساعة حتى كانت هذه الفرقة قد أجهزت على القوة اليهودية وغنمت ذخيرتها ومتاعها وحررت قرية «الولجة» وأصبحت تسيطر على منطقة واسعة .. وقد أصدرت قيادة الجيش المصرى أمراً بتسمية الجبل «تبة الإخوان المسلمين » . وقد استشهد من الإخوان كل من مكاوى سليم على من الزقازيق والسيد محمد قارون من المنصورة وإبراهيم عبد الجواد من الفيوم رحمهم الله رحمة واسعة » .

أقول : وقد نشرت الصحف المصرية نبأ هذه الموقعة وقد قرأتها فى ذلك الوقت فى جريدة الأهرام بنفس هذه المعانى .

٣ – حماية الجيش المصرى فى مرحلة الانسحاب :

فى مرحلة انسحاب الجيش المصرى بعد الهدنة الثانية حاول الجيش تثبيت أقدامه فى منطقة «غزة» وجمع قواته المبعثرة بعد الإنسحاب ... يقول كامل الشريف : والحق ... أكر يأبى إعطاء قوات جيشنا فرصة للتفكير فى أمرها بما يقوم به من هجمات «وهمية» على غزة ومن غارات جبارة على مراكز الجيش بها ، ويزيد فى إشغالها بالمناورات البحرية التى تقوم بها قطع أسطوله وتحاول قطع الطريق الساحلى الذى تسلكه القوات فى انسحابها من المجدل .

ولم تكن هناك خطة منظمة للدفاع عن هذه المناطق إذ كان الجيش – كما ذكرت – مشغولا فى عمليات الانسحاب ، ولم يكن فى هذه المنطقة كلها حتى ذلك الحين غير عدة سرايا من الإخوان

المسلمين ، ووجد هؤلاء الإخوان أنفسهم أمام حقيقة واقعة هي عبء المحافظة على جيش مصر وحمايته من أي عدوان يحركه اليهود من هذه المنطقة ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بفداحة الكارثة التي كانت وشيكة الوقوع لولا وجود هذه الفئة المؤمنة المجاهدة في ذلك الحين .

شعرنا بخطورة الموقف ، فقدمت مشروعاً إلى القيادة العامة بينت فيه الأخطار الكبيرة التي يمكن أن تقع لو فكر اليهود في مهاجمة هذه المناطق وقطع خط الرجعة على الجيش ، وطالبت في ختام التقرير بإطلاق يد الإخوان وإعطائهم العتاد اللازم والترخيص لهم باحضار قوات أخرى من مصر حتى يمكنهم تنفيذ ذلك المشروع .

وكان المشروع الجديد يقضي باحتلال مواقع (حاكمة) حول كل مستعمرة من المستعمرات الكبيرة ومحاصرتها وعدم إعطائها أية فرصة للتكتل حتى يفرغ الجيش من تنظيم خطوطه الدفاعية . ولقد استدعتني القيادة العامة في «غزة» وناقشتني في تفاصيل الخطة ، ثم أبدت موافقتها المطلقة على تنفيذها . وأذكر أن اللواء المواوي قد وعدني بكتابة خطاب إلى الأمانة العامة للجامعة العربية وإلى رياسة أركان الحرب يطلب فيه تجنيد كتيبة من الإخوان عن طريق المركز العام والشعب وإرسالهم فوراً إلى الميدان ليتمكن من السيطرة على الموقف .

ولقد ذهبت من فوري إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد فرغلي رئيس الإخوان في فلسطين وعضو مكتب الإرشاد العام وأطلعته على تفاصيل الخطة، فسافر من فوره إلى مصر ليعمل على تجهيز هذا العدد الكبير وعمل الترتيبات اللازمة نحو ترحيلهم إلى الميدان . وأذكر أن اللواء موسى باشا لطفي — وكان يشرف على إدارة العمليات الحربية في الميدان — قابلني بعد ذلك وأبدى إعجابه الشديد بالمشروع ، وأفهمني أن هذه الخطة لو نفذت بدقة وإحكام فسوف يكون لها الفضل الأول في حماية الجيش في هذه المرحلة الخطيرة والاحتفاظ بهذه المنطقة الباقية من فلسطين ، فوعدته خيراً ومضيت إلى المعسكر لأعد العدة وأبدأ العمل .

جمعت الإخوان في ساحة التدريب بالمعسكر وقلت لهم إن الله قد فتح لهم باباً جديداً للجهاد وإن الظروف قد ألقت على كواهلهم عبء المحافظة على الجيش وكرامته ، وإنه لولا ثقتي في قوة إيمانهم ورغبتهم في الكفاح ما قبلت أداء هذه المهمة الشاقة التي أعلم فداحتها وخطرها . ولن أستطيع أن أصور شعور الإخوان وهم يستمعون لهذه الأنباء ، كانوا يقبلون علي في ابتهاج واضح وكأنهم يدعون إلى حفلة عرس أو نزهة خلوية لا لميدان قتال فيه من المشقة والخطر ما فيه .

ولقد خرج الإخوان المسئولون في استكشاف حول المستعمرات ، وعاينوا المواقع التي رأوا

احتلالها ثم عاد كل واحد منهم يعد «فصيلته» ليحتل بها مواقعه .. وكانت مشكلة المشاكل إقناع أفراد من الإخوان بالتخلف عن فصائلهم والبقاء فى المعسكر ، ولست أنسى ما كان من أمر المجاهد الشاب «عبد الحميد بسيونى خطاب» نجل العالم الجليل الشيخ بسيونى خطاب ، لقد كان هذا الشاب يبكى بكاء مراً حين أمره قائد فصيلته بالبقاء فى المعسكر ، ومازال يبكى ويبحث بالوساطات حتى أشفقت عليه فسمحت له بالخروج .. وخرج من المعسكر وهو أشد ما يكون فرحاً وابتهاجاً . ولقد أخلص النيه للجهاد فاجتباه ربه وأكرمه واتخذه شهيداً فى إحدى المعارك المشهورة التى جاءت بعد ذلك .

وأقيمت المواقع الجديدة حول المستعمرات ، ولم تكن سيارة يهودية تجرؤ على التنقل بين مستعمرة وأخرى إذ أقام الإخوان «الكمائن» على الطرق وملأوا الأرض بالألغام ، وأخذت دورياتهم المصفحة تجوب الصحراء الواسعة وتصل فى طوافها حتى مدينة «بئر السبع» نفسها .

ولكى أصور أهمية هذه الحركة وأثرها يمكن أن أقول إن خمس عشرة سيارة مصفحة ودبابة قد دمرت خلال أسبوع واحد من بدء العمل ، عدا أنابيب المياة التى كانت تدمر كل يوم مما اضطر اليهود إلى ملاقاة الإخوان وجهاً لوجه ، فنشبت معارك رهيبة سقط فيها بعض الإخوان ولكنها جاءت بأحسن النتائج وأبرك الثمرات ولقد ضج اليهود بالشكوى وأبلغوا مراقبى الهدنة احتجاجاتهم أكثر من مرة ، وعلقت محطة إسرائيل على هذه الحركات وهددت باستئناف القتال ضد الجيش إن لم تكف عصابات الإخوان عن نشاطها فى هذة المنطقة .

ولقد فكر بعض كبار الضباط فى زيارة تلك المواقع البعيدة الواقعة حول (وادى الشلالة) و (تل حجه) و(الرابية) و(الشعوث) وكان برفقتهم أحد الإخوان يدلهم على الطريق ، فلما رأوا أنفسهم يتوغلون فى الصحراء مبتعدين عن خطوط الجيش لأكثر من خمسة عشر كيلو متراً إلى الشرق وهالهم أن رأوا المستعمرات اليهودية خلفهم داخلهم شئ من الشك والريبة ومال أحدهم على الجندى المرافق لهم يسأله (أتراك ضللت الطريق ؟) فلما أخبره أنهم يسيرون فى الطريق الصحيح قال له (إنى أعتقد أنكم متفقون مع اليهود وإلا لما جرؤتم على التوغل فى مناطقهم بهذه الصورة الجنونية) وضحك الأخ المرافق وضحك الضباط جميعاً .. وحين رجعوا إلى معسكراتهم أخذوا يشيدون بما رأوا من بسالة الإخوان وشدة بأسهم . ...وهكذا تمت عمليات الانسحاب وبدأ الجيش يستقر فى المواقع الجديدة التى اختارها .

٤ — معركة التبة ٨٦ :

نتيجة ظروف سياسية سنعرض لها فى الفصل التالى إن شاء الله أمر الإخوان بالانسحاب من

مواقعهم الحاكمة لتمكن اليهود من الاستيلاء على مرتفع هام جداً جنوبى دير البلح يعرف باسم «التبه ٨٦» وكان نجاحهم فى احتلال هذا الموقع يعنى عزل حامية غزة وتمثيل مأساة «الفالوجا» مرة أخرى .

ويقول كمال الشريف : ولقد رأينا كيف اضطر الجيش إلى إخلاء مناطق برمتها عندما احتل اليهود موقعاً مشابهاً عند (بيت حانون) وكان هذا ما يرمى إليه اليهود من معارك (الطرق) التى اتسمت بها حربهم فى فلسطين من قطع مواصلات الجيش وإرغامه على التقهقر ، ثم طلب الهدنة لتمكنهم من المحافظة على ما وقع فى أيديهم ، وكان هذا ما أرادوه من احتلال مرتفع (دير البلح) الذى نتحدث عنه .

ولقد تحدث إلى الأمير الاى (محمود بك رأفت) قائد قطاع (دير البلح) بالتليفون فى ساعة متأخرة من ليلة ٢٣ ديسمبر وأخبرنى أن العدو قد نجح فى اختراق خطوطنا الأمامية فى دير البلح وانتزع المرتفع من أيدى جنودنا الذين أذهلتهم (المفاجأة) ، وقواته تتجمع الآن وتحاول الوصول إلى طريق المواصلات الرئيسى ، ولكن قوات الجيش تحاول حصره فوق المرتفع حتى الصباح حيث يمكننا أن نقوم بهجمات مضادة لاسترداده وتطهيره . ثم صارحنى بأن الموقف جد خطير ، وأن هذه المعركة سوف يكون لها أثر بالغ فى النتيجة العامة للحرب . وختم حديثه طالباً أن يستعد الإخوان ليكونوا آخر (ورقة) نقذف بها فى وجه اليهود ...

فألقيت سماعة التليفون وخرجت من المكتب وكانت أصوات الانفجارات العنيفة تسمع عن بعد فى جبهة القتال فأمرت بصفارة الإنذار لتجمعت قوات الإخوان ، وطلبت تجهيز سرية للاشتراك فى هذه المعركة ، فتهافت الجميع ، فلما وقع الاختيار على الفصائل الثلاث اللازمة ، هلل أفرادها وكبروا وأخذوا يهتفون من أعماق قلوبهم «هبى ريح الجنة هبى» ومضوا يعدون أسلحتهم ويستعدون لمنازلة العدو .. وبعد ساعة تحركت السيارات بمن فيها لترابط قريباً من أرض المعركة

كان الوقت الفجر ، وكان اليهود حتى ذلك الحين لا يزالون فوق المرتفع الذى احتلوه ولا تزال مدافعهم تسيطر على مساحات واسعة من الأرض المنبسطة حوله .

ولم تكد الشمس ترسل أول أشعتها حتى صدرت الأوامر لجنود الجيش بالتقدم فانسابوا فى أفواج متلاحقة تريد أن تصل إلى القمة وتطرد العدو الرابض فيها ، ولكن ارتفاع الموقع وسيطرة أسلحة اليهود على الأرض المحيطة به كانا يمنعان الجنود من الاقتراب ، وظلت الحالة هكذا موجات إثر موجات وجرحى كثيرون وشهداء يسقطون دون الهدف ... وكيف للحوم آدمية أن تقاوم

القنابل والرصاص .. والعدو الماكر يربض خلف خنادقه التى أعدها بعناية ويصوب نيرانه منها على الجموع بشرية متراصة .. وبدا جليا للعيان أن لا أمل مطلقا فى كسب المعركة إلا فى حضور عدد من الدبابات فأرسلوا فى طلبها على عجل .. وجاءت الدبابات ودفعت إلى المعركة واحدة تلو الأخرى فتعطلت منها اثنتان على سفح التل ولم يستطع أحد الاقتراب من مواقع العدو .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر ، والريح لا تزال تقوى بشدة ، وتسوق أمامها قطعانا من السحب الكثيفة وعواصف المطر الباردة .. ووقف الضباط يتطلعون إلى السماء يلتمسون العون من الله العلى الكبير بعد أن جربت كل الأسلحة ووضح جليا أن هذه المعركة قد (ماعت) وضعف الأمل فى حسمها قبل الليل .

وكان لابد من إلقاء الورقة الأخيرة فطلب الأمير الاى محمود بك رأفت إحضار الإخوان على عجل ، وما إن سمع الجنود والضباط اسم الإخوان حتى سرت فى نفوسهم روح جديدة من الأمل والثقة . وطلبت من القائمقام على مقلد قائد الفرسان أن يوفر دباباته ليدفع بها أمام جنود الإخوان

وبعد لحظات وصل جنودنا إلى ميدان المعركة ، وترجلوا عند مكان أمين لتنظيمهم وإعدادهم ... وكانت الخطة تقضى بتقسيم الإخوان إلى ثلاث مجموعات : تهاجم اثنتان منها الموقع من الأمام ومن جهة الشمال بينما القوة الثالثة تدور حول الموقع وتهاجم مؤخرته وتمنع تدفق الإمدادات عليه وتجذب اهتمام المدافعين إليها وتشغلهم عن القوتين الأخريين .. وكان المفروض أن تتقدم الدبابات متجمعة أمام قوة الإخوان تحت ستار من نيران المدفعية والأسلحة الرشاشة وتحت غلالة من قنابل الدخان التى كانت تطلقها مدافع الهاون التابعة للإخوان ، وبدأت المعركة على هذا الأساس وانطلق الإخوان إلى أهدافهم وقد علت وجوههم إشراقة الإيمان القوى وكانوا ينشدون بحماس نشيدهم المعروف :

هو الحق يحشد أجنـــــــــاده ويعتد للموقف الفاصـــل
قصفوا الكتائب آســــــــاده ودكوا به دولة الباطـــل

وأمسك الضباط والجنود أنفاسهم وهم ينظرون إلى هذا الشباب المؤمن يتواثب فى ثبات وقوة ولا يثنيه الرصاص والقنابل عن التقدم .. لقد آمن الضباط والجنود أن هناك نتيجتين لا ثالث لها : إما أن ينتصر هؤلاء الشباب أو يموتوا جميعاً لأن الانسحاب والتراجع لا يدخل فى برنامجهم

إطلاقاً ، وخاصة فى مثل هذا الموقف الحرج الخطير .. وظلت مدافع الإخوان تقذف الموقع بقنابل الدخان فترة طويلة حتى أحالت القمة إلى سحابة قاتمة لا ترى خلالها إلا ألسنه من اللهب الناتج عن انفجارات القنابل ... وسكتت المدافع وانساب المجاهدون إلى أهدافهم وبدأت معركة الخنادق . وروع اليهود حين رأوا الإخوان يلقون بأنفسهم لوقهم فى الخنادق والدشم ويعاركونهم بالقنابل والحراب والأيدى ... ورغم كثرة الضحايا من الإخوان فإن القوة قد تمكنت من احتلال أطراف خنادق العدو وأخذت تطهرها جزءاً جزءاً ... ولم يجد اليهود بداً من إخلاء الموقع فصمتت مدفعيتهم وأسلحتهم وشوهدت مصفحاتهم تتحرك للخلف حاملة الجرحى والهلكى . وكان هذا المنظر حافزاً للجنود الآخرين ملهباً لحماسهم فأخذوا يتكاثرون على الموقع ويتمون تطهيره حتى جاءت أخيراً الحالات (قاذفات اللهب) تطارد فلول العدو المنهزمة وانتهت المعركة بنصر حاسم . وكانت إحدى المعارك الكبرى التى تكبد فيها العدو خسائر فادحة دون أن يحصل على نتيجة تذكر ... ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيلين وبينهم قائد المعركة وهو «كولونيل» روسى يحتل مركزاً هاماً فى الجيش الإسرائيلى ووجدت فى جيبه تفاصيل الخطه التى اتبعت فى دير البلح والخطط المقبلة التى كان يراد منها إلقاء الجيش المصرى فى أعماق البحر .

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين انتهت المعركة . وأخذ الجنود يحتلون الموقع بعد فرار اليهود منه . أما جنود الإخوان فقد انسحبوا فى هدوء وسكون بعد أن أخذوا معهم كميات وفيرة من الأسلحة الألمانية والروسية وأكداساً من القنابل والذخائر وكان كبار الضباط يعانقونهم عند خروجهم ويهنئونهم بهذا النصر الحاسم ويشيدون بجهودهم وفضلهم .

ولقد زارنى فى الصباح مندوب من قبل القائد العام فؤاد صادق وأخبرنى أن اللواء فؤاد صادق يرغب فى مطالبة الحكومة بالإنعام بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان إشادة بفضلهم واعترافاً بجهادهم فى هذه المعركة وغيرها وهو يريد منى كشفاً بأسماء «الإخوان» الذين اشتركوا فى معركة الأمس . فمانعت أولا فى تقديم كشف لهذا السبب وقلت إن الإخوان لا يعملون بغية أوسمة وشارات وإنما هم طلاب ثواب ومغفرة وليس لهم مطمع من جهادهم غير الاحتفاظ بكرامة أمتهم وجيشهم والإبقاء على عروبة فلسطين كجزء من وطنهم الإسلامى الكبير ... ولكنه ألح إلحاحاً شديداً وحاول إقناعى بأن الإنعام على الإخوان لا يعد انتقاصاً لبلائهم وثوابهم بل هو اعتراف من الدولة بشجاعتهم وصدق جهادهم ثم هو فوق ذلك اعتراف بفضل الدعوة التى صنعتهم .. وأمام هذا الإلحاح أعطيته الكشف .

مظاهر متناقضة :

كان من التناقض العجيب أن مصر كانت تحارب اليهود فى فلسطين وهى تعلم أن جزءاً كبيراً من تمويل المعركة ضد قواتنا إنما يصل إلى اليهود من مصر عن طريق اليهود الذين يعيشون فيها فأعظم متاجر القاهرة والإسكندرية كانت فى يد اليهود كما أن دور اللهو الكبيرة المغرية كانت ملكاً لهم ...

الفصل الثالث

خطط التآمر العالمي للقضاء على الدعوة

منذ انتقلت دعوة الإخوان المسلمين إلى القاهرة ، وأحس الإنجليز بولوجها بجانب أهل فلسطين ضد اليهود وتبنيها هذه القضية ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٧ ، منذ ذلك التاريخ ومحاولات الإنجليز عن طريق صنائعهم من حكام مصر متوالية ومتصلة لا تنقطع ولا تهدأ لتعويق الدعوة وبث العقبات فى طريقهاوقد ألممنا بأمثلة لهذهالمحاولاتفىالفصولالسابقةمنهذهالمذكرات

ولكن الدعوة برعاية الله سبحانه ، وبما وفق الله مرشدها إليه من سعة فى الأفق وبعدفى النظر وإخلاص فى العمل ، استطاعت أن تتخطى هذه العقبات ، وأن تثب فوقها وثباً سبقت به أقرانها المتحررين من عقبات الطريق وكائن الأعداء .. وبهت الأعداء حين رأوها وقد شبت عن طوقها ، وبلغت رشدها ، وامتد رواقها حتى كسا أرض مصر وظلل الكثير من الأرض العربية والعالم الإسلامى .. ولم يعد فى مصر – وهى المنار الذى يهتدى به كل عربى ومسلم – صوت أعلى من صوتها ولا يد أقوى من يدها ولا كلمة أنفذ إلى القلوب من كلمتها .

وكانوا يعتقدون – بعد أن رأوا نفوذها قد تعاظم .. أن هذا النفوذ مهما تعاظم فمجاله مصر لا يتعداها ، فإذا بهم يفاجأون بهذا النفوذ يصل إلى أبعد البقاع العربية ، فيديل دولة فى اليمن ويقيم دولة أخرى بها ، وتبسط الدولة الجديدة سلطانها ويستتب لها الحكم ... ومعنى هذا أن هذه هى الحلقة الأولى من سلسلة لا تلبث الدول العربية أن تقع واحدة تلو الأخرى ، وتتحقق بذلك نواة الدولة الإسلامية ... وهنا لا يكون للاستعمار إلا أن يحمل عصاه على عاتقه ويرحل إلى غير رجعة ، فإن هذا الكتاب «القرآن الكريم» لا يقبل حيث حكم إلا أن يكون سيداً ، ولا يرضى أن يكون له فى السيادة شريك .. وهذا أمر يفهمه كل المستعمرين فمنهم من يسره فى نفسه ومنهم من يجهر به .

فأيام كانت إيطاليا تجند الألوف من شبابها للإغارة على ليبيا للاستيلاء عليها فى العشرينيات من هذا القرن كانت الفقرة التى تتكرر بعد كل مقطع من النشيد الذى يردده هذا الشباب هى :
«دعينى يا أمى أحطم هذا «الكتاب» الذى لا أمل لنا فى أن نسود العالم ما دام موجوداً»

فالمستعمرون لم يقدموا على استعمار البلادالإسلامية إلابعد أن درسوا مقومات استقلال هذه البلاد فعرفوا أن لب هذه المقومات هو الحكم بالقرآن ، فصوبوا سهامهم إليه ... فإذا قامت هذه الدول الإسلامية من جديد — على يد الإخوان المسلمين — محتكمة إلى القرآن ، إذن فقد ضاعت الفرصة على الاستعمار .

وإذن فلا بد من تخطيط ... لقد رسموا خطة قوضوا بها دعائم ثورة اليمن ... فهل يفرحون بهذا النصر مكتفين به ؟ إنهم ليسوا السذج ولا البسطاء .. إنهم أبعد نظراً وأشد حذراً لقد فهموا أن الذى أشعل هذه الثورة التى أحبطوها يستطيع أن يشعل ثورات فى أماكن أخرى ويستطيع أن يعيد الكرة فى اليمن نفسها ... فهل يكون هدفهم تتبع الثورات والعمل على إحباطها ؟ ! إن هذا أمر يطول أمده ولا يرجى أن تكون له نهاية .. فليكن هدفهم إذن محاولة القضاء على الروح التى تنفخ الحياة فى كل مكان ... فليكن هدفهم طمس مصدر النور الذى ينفذ شعاعه إلى الظلام فيبدده حيث كان ... فليكن هدفهم التضامن مع أى كان ، والتحالف مع الشيطان للقضاء على الإخوان المسلمين .

تهديد أمريكى مقنع :

نشرت الصحف المصرية فى ذلك الوقت ترجمة لما جاء بإحدى كبريات الصحف الأمريكية عن حسن البنا ما ملخصه «وصفته شكلا وثقافة وسناً وذكاء ومقدرة على حسن الأداء وعلى تملك قلوب سامعيه وعلى سيطرته على المجتمع الإسلامى ثم عقبت على ذلك بقولها : إن هذا الرجل هو أقوى رجل فى العالم الإسلامى اليوم ولا يمكن أن يغلب إلا أن تصير الأحداث أكبر منه»

ولم نفهم نحن الإخوان فى ذلك الوقت من تعقيب الصحيفة فى قولها «إلا أن تصير الأحداث أكبر منه» أن هذا أسلوب خطير من أساليب التهديد وأن هذه الصحيفة بهذه العبارة تستحث قوى الشر فى كل مكان أن تتجمع لوضع مخطط للقضاء على هذا الرجل الذى ضاقوا به ذرعاً ... وإذا كانت السياسة الأمريكية سياسة أقرب إلى الصراحة فإن السياسات الأخرى فى الدول الاستعمارية كانجلترا وروسيا هى سياسات التكتم والسرية المطلقة .

وهذه الدول لا تأخذ على عاتقها إلا التخطيط ، أما التنفيذ فإنها تسخر له غيرها ممن هم ألصق بالمجال الذى يخططون له ويحيكون المؤامرات لتنفذ فيه .. وقد يصل إحكام المؤامرة إلى حد أن يقوم المسخر بتنفيذها وهو لا يشعر أنه مسخر بل يعتقد أنه يقوم بها لحسابه الخاص .. وقد

وجدت هذه الدول فى مصر من يتحرقون شوقا إلى القيام بأى دور للقضاء على الإخوان المسلمين : وجدت ملكا غارقاً فى شهواته يرى الإخوان أكبر خطر على شهواته التى لم يعد يعيش إلا بها فهو يرى القضاء عليها قضاء عليه ، ووجدت حزباً حاقداً موتوراً رضى رجاله أن يكونوا سدنة شهوات هذا الملك الفاجر ، فوجودهم مرتبط بوجود هذا الملك بشهواته ، وإذا طهرت البلاد من رجس هذا العرش العفن كانوا هم أول من يركلوان بالأقدام .. ووجدت حزباً كبيراً منافساً يمكن استغلاله فى تشويه صورة الإخوان فى أعين الشعب .. ورأوا شباباً كثيراً متسكعاً يمكن إغراؤه بما يرضى نزعاته .. وبهذا صارت مهمتهم ميسرة .

وفى الصفحات التالية نسوق إن شاء الله بعضاً من هذه الخطط :

١ – البوليس السياسى :

وهذا أسلوب مكشوف وبدائى ، وقد لجأت إليه الحكومات المصرية على اختلاف أحزابها ضد الإخوان . فهم يبثون رجال هذا البوليس فى المجتمعات الإخوانية على أمل أن ينقلوا إلى الحكومة أسرار هذه المجتمعات ... وكان الإخوان بفراستهم يكتشفون الشخصيات المتنكرة لهذا البوليس ، كما أن الإخوان كانوا إذا أرادوا أن يتداولوا فى أمر ذى بال لم يتداولوا إلا فى اجتماعات خاصة يعرف كل منهم فيها أخاه ولا يستطيع أى شخص آخر أن يتسرب إليها .. على أن نظام الأسر المتسلسل والذى يربط كل الإخوان العاملين كان جداراً متيناً يجعل التسرب أو التسمع أمراً مستحيلا .

وإذن فإن الذى كانوا يتوخونه من بث رجال هذا البوليس فى اجتماعات الإخوان من وصولهم إلى أسرارهم قد فشلوا فيه ...

على أن كثيرين من هؤلاء وهم ذوو ضمائر ميتة – كانوا يستبيحون لأنفسهم أن يختلفوا كلاماً وينسبوه إلى الإخوان ليشعروا رؤساءهم أنهم يعملون عملا .. والعجيب أن هذا الغش كان يروج على رجال هذه الحكومات

ومع أن تسليط هؤلاء الرجال على مجتمعات الإخوان لم يحقق شيئاً مما كانت تأمله الحكومات ، فإن كثرة تطفلهم على هذه المجتمعات خوف بعض من كان يغشى هذه المجتمعات من ذوى الإيمان الضعيف فجعلهم يحجمون عن غشيانها ؛ فقد كان من المألوف فى أثناء إلقاء محاضرة أسبوعية فى شعبة من الشعب أن يدخل ضابط من البوليس السياسى ويطلب فض الاجتماع وأن تقوم مشادة

بينه وبين إخوان الشعبة وقد يؤدى ذلك إلى أن يأخذ المسئول عن الشعبة إلى أقرب قسم بوليس ويحرر له محضراً .

ويجب أن يكون معروفاً أن البوليس السياسى فى تلك الأيام لم يكن يعمل لحساب الحكومة المصرية وحدها بل كان يعمل لحسابها ولحساب السفارة البريطانية بل إن بعض ضباطه كانت صلتهم بالسفارة البريطانية أقوى من صلتهم بالحكومة المصرية ، ولم يكن هذا يغضب المسئولين بالحكومة . وقد كان مثار فخر يحسد المسئولون فى الحكومة المصرية عليه القائمقام محمد ابراهيم إمام مدير البوليس السياسى أن تنشر الصحف المصرية صورة له والسفير البريطانى السير رونالد كامبل يسلمه نيشان الإمبراطورية البريطانية فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٧ تقديراً لخدماته .

ولقد كان منظراً مألوفاً أن ترى القائمقام محمد ابراهيم إمام أو أحد رجاله داخلا دار المركز العام ومعه أمر بمنع اجتماع أو بمصادرة عدد من المجلة أو استدعاء بعض الإخوان للتحقيق معهم..وقد يتحداه الإخوان فى بعض الأحيان ؛ وهكذا كانت العلاقة بين الإخوان وبين البوليس السياسى أو القسم المخصوص كما كان يسميه البعض كحرب سجال يقيدون الإخوان مرة ويتحداهم الإخوان مرة أخرى .

وهذا الأسلوب من أساليب مضايقة الدعوة والكيد لها قد اتبع منذ فجر قيامها لم يفتر يوماً واحداً مع اختلاف درجات ضغطه . فكان يزداد الضغط فى بعض الأحيان ويخف فى أحيان أخرى ، كما كان يشتد على شعبة من الشعب ويفتر مع شعبة أخرى .. وعلى كل فلم يكن ذا تأثير خطير على الدعوة أمام تنظيماتها المحكمة البناء .. ولكن دورهم الخطير مع الإخوان سيأتى ذكره فى مكان آخر إن شاء الله .

٢ — جمعية إخوان الحرية

من أساليب السياسة الإنجليزية الماكرة أنها حين تخطط لما بين يديها من ظروف لا يشغلها هذا عن أن تخطط فى نفس الوقت للمدى البعيد ؛ فكان المفترض وقد اشتعل أوار الحرب العالمية وانجلترا نفسها هى الهدف الذى تصب فوق رأسه حممها ويراد تدميره وإزالته من خريطة العالم ، كان المفترض أن يكون تخطيط الإنجليز مقتصراً على محاولة إنقاذ بلادها وبلاد حلفائها من هذه الويلات ، ولكن الذى حدث أن الإنجليز لم يكتفوا بالتخطيط لهذا وحده بل كانوا يخططون فى نفس الوقت لمقاومة التيار الجديد الذى أخذ يكتسح مصر والبلاد العربية والإسلامية لا يقف أمامه شىء ، ألا وهو تيار الإخوان المسلمين .

لقد أخذ الشباب ينفض من حول الزعامات التى صنعوها وينضوى تحت لواء الإخوان المسلمين ، مع أن لعبة الزعامات كانت لعبة ناجحة تمام النجاح واستطاع الإنجليز بها أن يشغلوا الشباب عن الجد وعن اللب قانعاً بالشعارات وبالقشور ؛ فإذا استطاع الشباب أن يرفعوا زعيماً إلى سدة الحكم استقر فى خاطرهم أنهم قد حققوا كل آمال بلادهم ، ولا عليهم بعد ذلك ، فليطمئنوا وليفرحوا وليناموا ويستغرقوا فى النوم فقد تحقق مالا أمل بعده .

فإذا كانت هذه اللعبة قد انكشف زيفها واتضح أمرها وتبين الشباب أنهم كانوا مخدوعين فانفضوا عنها إلى الإخوان المسلمين ، إذن فلابد من التفكير فى لعبة أخرى تكون أشد تأثيراً وأقوى إغراء لجذب هذا الشباب جذباً يصرفه عنهم .

اتجه تفكيرهم إلى جذب الشباب من أحط غرائزه – وهى أسهل مايقاد منه الشباب – ولكنهم اتبعوا خطة الشيطان حين يخطط لإغواء الصالحين ؛ فهو لا يدخل عليهم ناهياً إياهم عن صلاحهم بل يدخل عليهم مباركاً ماهم عليه من صلاح ليأنسوا إليه فيسلسوا له القياد فيقودهم بعد ذلك إلى مهاوى الضلال .

واقتداء بالشيطان فى خططه الخادعة أنشأوا جمعية أطلقوا عليها «جمعية إخوان الحرية» فالإخاء الذى يفخر الإخوان بالدعوة إليه وتمكينه بين النفوس رفعته هذه الجمعية شعاراً لها . وبلاد مثل مصر تشكو وطأة الإحتلال وتطالب بالحرية يكون للفظ الحرية أجمل صدى فى أسماع شبابها ... ورؤساء هذه الجمعية إنجليز مؤهلون تأهيلا خاصاً يسهل لهم سبل الاتصال بالمصريين وبالعرب فهم يتكلمون العربية وعلى درجة عالية من الثقافة ، وعلى دراية واسعة بأحوال البلد الذى سيعملون فيه ، وفضلا عن ذلك فهم مزودون بسلاحين قاطعين هما المال والنساء .

من هم رؤساؤها ؟.

لم تكن هذه هى المحاولة الأولى من الإنجليز لإرساء أساس لجمعية تناوىء الإخوان المسلمين فقد أنشأوا فى سنة ١٩٤٠ جمعية فى القاهرة سموها «جمعية الإصلاح الوطنى» . أسندت رياستها لجمال الدين هيورث دن وهو إنجليزى سبق له أن أقام فى مصر وتعلم العربية الدارجة وادعى الإسلام وتزوج من مصرية مسلمة كانت تقيم معه فى لندن.. وقد أنشأ مطبعة أمام السفارة البريطانية لإصدار المنشورات المضللة ... وانتهت هذه المحاولة بالفشل فلجأ الإنجليز فى أثناء الحرب العالمية الثانية إلى إنشاء جمعية إخوان الحرية .

وقد أسندوا رياستها للمستر فاى وكان محاضراً سابقاً بكلية التجارة بجامعة القاهرة ثم انتقل

إلى قسم النشر بالسفارة البريطانية . ومن زعمائها الآنسة فريا استارك التي ألفت عدة كتب عن العرب ، والمستر سكيف رئيس القسم الإنجليزي بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً .

وقد بدأت باتخاذ مقر لها في بيت السناري بحارة منج شارع الكومي بالسيدة زينب ثم لم تلبث أن افتتحت لها فروعاً وشعباً في طول البلاد وعرضها حتى القرى مقتفية في ذلك طريق الإخوان المسلمين في الدخول بالدعوة إلى أعماق البلاد حتى إن بعض الصحف المصرية قد نشرت في مارس سنة ١٩٤٧ عن رحلة قام بها في ذلك الوقت المستر فاي إلى الوجه القبلي يصحبه من يسمى بالشيخ الزواوي وذكرت الصحيفة أنهما اتصلوا بعرب الجهمة والأنصار وامتدت رحلتهما إلى قنا وأسوان.. ولما كان التقرب إلى الإنجليز في ذلك الوقت هو البضاعة الرائجة وكانت خزانة الحكومة البريطانية مفتوحة على مصراعيها فسرعان ما تضخمت هذه الجمعية بما ضمت لعضويتها من ذوي المصالح والمنافقين ، وبعد أصدرت الجمعية في ذلك العام كتاباً باللغة العربية في ثلاثمائة صفحة يتضمن أسماء أعضائها وكان بينهم أناس يحتلون مراكز خطيرة في المجتمع .. وكانت الجمعية تصدر نشرات لا تستحي أن تشيد فيها بدور بريطانيا في فلسطين وبتدخل أمريكا في الشئون الداخلية للدول الصغيرة كما تنشر فيها خطب السفير البريطاني .

خطة الجمعية وأهدافها :

لم يكن الإخوان لينزعجوا للعدد الضخم من الأسماء الرنانة وغير الرنانة التي انضوت تحت لواء هذه الجمعية والتي حواها المجلد الضخم ذو الثلاثمائة صفحة الذي أصدرته ، فإن هؤلاء هم غثاء السيل وممن قال الله في أمثالهم «لوكانوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم» وإنما أزعج الإخوان هو خطة جهنمية وضعتها هذه الجمعية الايقاع بالشباب الغض الإهاب الخالي الذهن السهل القياد .

لمقر الجمعية في القاهرة مؤثث بأفخر الأثاث ومزود بجميع وسائل الترفيه ثم توجه الجمعية الدعوة إلى الشباب في معاهده الدراسية وفي نواديه الرياضية وفي مختلف أماكن تجمعاته لحضور محاضرة لرئيس الجمعية أو لأحد محاضريها في مقرها مساء يوم محدد ، وموضوع المحاضرة جذاب يتصل بالحرية التي هي من حق كل المجتمعات ، فيستجيب لهذه الدعوة في أول الأمر عدد قليل من الشباب .. وحين يستمع إلى المحاضرة ويتمتع بالجلوس على الطنافس والرياش وتقدم إليه المرطبات صيفاً والمشروبات الساخنة شتاء مع بعض الحلوى الفاخرة ؛ فيخرجون من هذه المحاضرة لا هجين بالثناء على ما رأوا وما سمعوا وما قدم لهم من طعام وشراب . فإذا ما دعت الجمعية

إلى محاضرة أخرى تضاعف عدد المستجيبين وهكذا حتى يصل الحال إلى التسابق للظفر بالجلسة المتعة المشبعة والتى لا تكلفهم كثيراً ولا قليلا .

حينئذ .. وبعد أن يطمئن القائمون على الجمعية إلى أن مجموعة ضخمة من الرواد قد أصبحوا أسرى هذه المتعة الحلال حتى الآن .. يبدأون تطعيم محاضراتهم التى تدور كلها حول التغنى بالحرية وأنها أشرف مايطلب – بلون من الحرية فيه الإغراء هو حرية الاختلاط بين الشباب والفتيات .. وتبدأ الفتيات التابعات لقيادة الجمعية فى مجالسة هؤلاء الشباب ومجاذبتهم أطراف الحديث وما أسرع الشباب الذى استهوته من قبل المتعة الحلال إلى الاستجابة إلى المتعة الجديدة التى هى أشد إغراء من الطعام والشراب والتى تبدأ عادة بشىء فى ظاهره فى حدود الحياء والأدب ثم تتدرج حتى تصل إلى الحرام .

وهكذا يأخذ القادة «المرشدون» فى التوسع فى معنى الحرية بعد أن أوقعوا ضحاياهم فى شرك الإثم وفقد كل منهم احترامه لنفسه ، لتتجه المحاضرات إلى العقيدة ، وتأخذ فى توجيه سهام النقد نحوها ، وتبرز المتمسك بعقيدته فى صورة المتعصب المتزمت ، وأن الحرية تقتضى أن يدع عقيدته جانباً حتى لا تكون هناك عوائق تعوق سبل الأخوة بين الناس من مختلف الأديان.

ويلاحظ أن إقناع صرعى شهواتهم بمثل هذا لايحتاج إلى كبير جهد ولا إلى عظيم عناء ، فتجريد الواحد منهم من عقيدته ماهو إلا إجهاز على جريح مثخن بالجراح ؛ ولذا فإن المحاضرات التى كانت تنمق بأقوى الأساليب إقناعاً تتحول بعد صرع الشباب أمام شهواتهم إلى ما يشبه التعليمات والأوامر لا تستغرق وقتاً ولا تتخللها مجاملة ، ولذا ترى خطوات الانحدار تتوالى فى سرعة مذهلة لا تلبث أن ترى الشباب فى نهاية المنحدر أشبه بالجثة الهامدة لأنها فقدت إنسانيتها وفقدت حتى آدميتها .

فى الخطوات الأخيرة التى تتخذ مع هذا الشباب للإجهاز على ما بقى فيه من آدمية حتى يبدو أمام نفسه حيواناً أو بهيمة يعقد حفل يضم الجنسين وتقدم الخمور وتعزف الموسيقى المثيرة للأعصاب حتى تلعب الخمر بالعقول ويفقد كل الحاضرين سيطرتهم على أعصابهم ويغيبوا عن وعيهم ولا تستيقظ إلا حيوانيتهم وتطفأ الأنوار . وإذ يترك للحيوانية العنان فلا يفيق الجميع إلا وقد وجد كل نفسه فى حضن فتاة .

ومن الأساليب التى قد يعجز الشيطان عن ابتكار مثلها ، أنه إمعاناً فى إذلال الشباب وتمادياً فى الاستيلاء عليه وأسره وقطع صلته بالحياة وتحويله إلى آلة يسخرونها حيث شاءوا ... إنهم لا يكتفون باستعمال الفتيات التابعات للجمعية فى الإيقاع بالشباب بل يكلفون هؤلاء الشبان –

تمشياً مع نداء الحرية – باصطحاب أخواتهم معهم ، فيحضرن و يمررن بالخطوات التى مر بها إخوتهم حتى يصلن إلى الحضيض الذى انحطوا إليه .

ولقد وصل الأمر إلى أن انتهت حفلة من الحفلات الصاخبة التى أشرت إلى طبيعتها الحيوانية فلما أصبح الصباح وجد أحد الشبان نفسه فى حضن أخته .. ولقد سمعت بأذنى قوماً أعرفهم من أهل حى السيدة زينب يتحدثون فى حزن وأسى عن هذا الشاب وأخته وما آل إليه أمرهما فى تلك الليلة وكان الشاب وأخته من أهل الحى نفسه ومن أسرة سميت أمامى .

فطبيعة خطة هذه الجمعية طبيعة جهنمية ؛ فهم يجهدون أنفسهم فى محاولة جذب الشباب إلى الجمعية مرة واحدة ، ثم يتركون هذه المهمة لهذا الشباب نفسه بعد أن جردوه من آدميته ليقوم عنهم بهذه المهمة ... وقد اعتمدوا فى ذلك على خطة نفسية تتلخص فى أن الشاب بعد أن غرر به حتى فقد آدميته يتولد فى نفسه حقد على زملائه الشبان الذين لا زالوا يحتفظون بآدميتهم وإنسانيتهم وعقيدتهم ، وهو إذ يرى نفسه عاجزاً عن أن يسترد ما فقده فإنه يحاول أن يراهم وقد فقدوا مافقده ليتساووا معه .. ولذا فإن شبان الدفعة الأولى أوضحايا الدفعة الأولى يلحون بكل الوسائل على جر زملائهم من الشبان للذهاب إلى دور الجمعية متكتمين عنهم ماحدث لهم ، غير ذاكرين لهم إلا مايغريهم بالذهاب لسماع المحاضرات والاستمتاع بالمقاعد الوثيرة والمشروبات المرطبة و الحلوى الشهية دون مقابل ، ولا يزالون يغرونهم حتى يستجيبوا فينالهم مانال سابقيهم وهكذا .

مثال لمحاولات سابقة :

ويجدر بنا أن نذكر أن الانجليز منذ أحسوا بظهور دعوات جادة فى مصر أخذ الشباب يلتف حولها و يستجيب لندائها وذلك فى منتصف الثلاثينيات ، حاولوا بث أفكار معاكسة لهذه الدعوات تتمثل فى دعوة الشباب إلى نوع من الميوعة مثيرين فيه نزوات الغرائز الوضيعة ، محاولين بذلك فض الشباب عن هذه الدعوات الجادة النابتة حديثاً .. وإذا كان بعض كتابنا الكبار الآن قد لبسوا رداء الجد والفضيلة فإن بعضهم كان فى ذلك الوقت مطية ذلولا لترويج هذه الأفكار الدنيئة ، فقد كان أحد هؤلاء الكتاب يترجم كتباً كان الكتاب الواحد منها بمثابة شحنة مستوردة من الديناميت تكفى لتدمير أخلاق أمة ولم يكتف هذا الكاتب بذلك بل أنشأ جمعية أنسيت اسمها الآن ولكننى لم أنس آثارها فى تخنيث الشباب وسلب روح الرجولة منه .. والذى جعلنى غير ناس هذه العملية مع طول الأمد الذى انقضى على أيامها أنه كان لنا معها حديث طويل .

وبدأ هذا الحديث – وأنا طالب فى كلية الزراعة – بأن رأينا بعض زملائنا من الطلبة أخذوا يصففون شعورهم بطريقة مثيرة ، وأخذوا يلبسون بنطلونات ملفتة للنظر ، وأخذوا ينشرون

بين الطلبة أفكاراً تدعوا إلى التخنث وإلى مهاجمة المتدينين والداعين إلى الدين باعتبار ذلك رجعية .. وأخذت هذه الأفكار تنتشر كما انتشرت مظاهر التخنث فى المظهر والملبس بين الطلبة وكان هؤلاء يحملون شارة خاصة لهذه الجمعية .. فكان أن تصدينا – نحن الإخوان – لهم ، وأخذنا نجادلهم أمام الطلبة فى أفكارهم ، ولكن انتشار الفساد أسرع من تقبل الحق ، فنحن كنا حين ندعو إلى الجد كأنما نقد فى صخر أماهم إذ يدعون إلى الفساد والتخنث فكأنما كانوا قد خلى بينهم وبين ما يشتهون .

ولقد كان هذا حافزاً للدعوتين الجادتين أن توحدا جهودهما فى الوقوف أمام هذا التيار الجارف ؛ فوقف الإخوان ومصر الفتاة فى الكلية وقفة كريمة .. وكان لى صديق من شباب مصر الفتاة فى كلية الزراعة اسمه محمد محمود نصار وكان شاباً صالحاً قوياً لا يخشى فى الحق لومة لائم .. فتداولنا معاً فى أمر هذا الشباب الذى يزداد عدده يوماً بعد يوم ؛ تستهويه الكلمات التى تخاطب فيه شهوته ؛ واستقر رأينا على خطة رجونا أن يكون فيها الحل لهذه المشكلة .

كان قد أظلنا إذ ذاك شهر رمضان وكان من مقتضيات ظهور هذه الجمعية بمظهر المحتقرين للدين أن يستحلن أعضاؤها بالإفطار .. وكان يشد من أزر أعضاء هذه الجمعية فى تحديها للدين والمتدينين أستاذ قدم من أوربا فى نفس هذا العام ، ومما يؤسف له أنه أستاذ مصرى مسلم ..وكنت وصديقى نصار قد استمددنا خطتنا من قوله تعالى «فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون» فاتفقنا على أن نحطم رأس هؤلاء الداعرين المتمثلة فى شخصيتين هما شخصية هذا الأستاذ وشخصية الطالب الذى يعتبر زعيم الفكرة الإجرامية .. ودخلنا قاعة المحاضرات فتعمد الأستاذ أن يشعل سيجارة وبدأ الطالب الزعيم يتناول قطعة من الشيكولاته .. وتنفيذاً للخطة تحرش نصار بالطالب يريد منعه من تناول الشيكولاته فرفع هذا صوته محتجاً على نصار ومستنجداً بالأستاذ الذى تدخل قائلا : ماهذا التدخل فى حرية الغير .. كل إنسان حر يفعل ما يشاء . فيقوم أحد الطلبة الإخوان ويقول للأستاذ : إن للحرية حدوداً بحيث لا تؤدى إلى إيذاء الغير . فيرد الأستاذ بأن هذا تعصب . فيقول له نصار : وأنت كذلك يجب أن تراعى إحساسنا وتطفىء السيجارة . فيرى الأستاذ فى هذا إهانة لكرامته ويصيح بصوت مرتفع بأنه يحتقر هذا التعصب وهذا الجهل وهذه الرجعية . فيرى نفسه وقد أحاط به مجموعة من الطلبة الإخوان يؤازرهم طلبة متدينون ويتقدم نحوه نصار ويقول له: أطفىء السيجارة وإلا فستضرب ضرباً تعرف به قيمة نفسك . فيلقى بالسجارة راغماً ويدوسها الإخوان بأحذيتهم ويخرج هارباً إلى مكتب

العميد ويطلب منه أن يحميه من فلان وفلان ويعين اسمى واسم نصار فيرسل العميد معه من يخرجه من باب خلفى للكلية ... وفى المحظة التى هرب فيها الأستاذ لاذ بالفرار الطلب الزعيم والطلبة يلاحقونه بالتهديد .

ومن أروع ما يسجل بالفخر والإعجاب أن العميد الأستاذ محمود توفيق الحفناوى باشا حين سمع شكوى الأستاذ قال له قبل أن يستدعينا : أنت المخطىء لأنك بإعلانك الإفطار فى رمضان خرجت عن حدود الأدب والخلق والذوق الذى كان جديراً أن يتحلى به أستاذ مثلك .. ولما استدعانا بعد ذلك العميد ذكرنا له ماداًب عليه هذا الأستاذ من تحد للدين والعرف والخلق فأثنى على مافعلنا وعمل على إبعاد هذا الأستاذ عن الكلية .

وكانت هذه الخطة كفيلة بالقضاء على هذه الجمعية.وما أجبن الباطل إذا ما واجهه حق قوى .

وسائل الإخوان فى مكافحة جمعية إخوان الحرية :

حين ظهرت هذه الجمعية فى القاهرة فى أثناء الحرب العالمية فهم الإخوان أنهم هم المقصودون بها ، وأنها أنشئت خصيصاً لتكون معول هدم لما يبنيه الإخوان ، وأنها سلاح ضدهم أقوى من أسلحة الهجوم والمواجهة ، وأنها تحتاج منهم إلى تخطيط دقيق لمقاومتها وإحباط خطتها ، وقد كانت خطتهم لمقاومتها تقوم على المحاور الآتية :

أولا : أوفدوا إلى مقر هذه الجمعية مجموعة من كرام الشباب من الإخوان لاستطلاع أحوالها وجمع معلومات عن قادتها وعن مهمة كل فرد من أفراد هذه القيادة ، وتتبع خطوات هؤلاء الأفراد داخل مقر الجمعية وخارجه والإلمام باتصالاتهم والوصول من هذا التتبع إلى مصدر تمويلهم .

ثانياً : أوفدوا مجموعة أخرى من الإخوان للاشتراك فى نشاطات الجمعية والتظاهر بالتجاوب مع القائمين بهذه الأنشطة – مع الاحتفاظ بأنفسهم من التلوث بحجج مختلفة – حتى يلموا بكل ما يحدث للشباب داخل هذه الاجتماعات إلماماً عن معاينة تنفى كل شك وأن ينقلوا صور ما يحدث إلى قيادة الإخوان أولا بأول .

ثالثاً : أوفدوا بعد ذلك – وبعد أن عرفوا عن هذه الجمعية كل شىء – مجموعة أخرى من الإخوان الأقوياء الحجة والواسعى الثقافة إلى الاجتماعات العامة للجمعية التى تلقى فيها المحاضرات باعتبار هذه المحاضرات هى المصيدة التى يقع بين فكيها الفرائس من الشباب الساذج الخالى الذهن– ومهمة هذه المجموعة هى التعرض بالنقد إلى الأفكار التى تتضمنها هذه المحاضرات ، على أن يتبادل

أفراد المجموعة — الذين يجلسون في أماكن متفرقة — هذا التعرض واحداً بعد الآخر حتى يلقوا أولا ظلالا من الشك على هذه الأفكار أمام الحاضرين لتتزعزع ثقتهم بالمحاضرين ، ثم يتدرج أفراد المجموعة فى المناقشة حتى يبدأوا فى كشف ألاعيب الجمعية وفضحها أمام الشبان فضحاً خفيفاً فتؤجل المحاضرة .

رابعاً : تكرر المجموعة حضور المحاضرة فى الموعد الذى أجلت إليه وتكمل مهمتها بالمهاجمة والنقد والمناقشة المنطقية ثم العنيفة ثم بفضح ألاعيب الجمعية وإفسادها للشباب البرىء والقضاء على مثله وعقيدته ونشر روح الانحلال الخلقى بعد وقوعه فى الشرك ... وهنا يحتد المسئولون فى الجمعية مكذبين هذه الادعاءات فيقوم فرد — هو أحد أفراد المجموعة التى تضمنها البند ثانياً — ويقف بين الحاضرين ويعرفهم باسمه وبتاريخ انضمامه للجمعية ويقص عليهم الخطوات التى اتبعتها الجمعية معه ومع زملائه لإفساد أخلاقهم وتلويث شرفهم وبث روح الانحلال العقدى والخلقى فيهم وما رآه بنفسه مما اقترف مع زملائه فى خلال حفلات ماجنة دبرت لهم ... وهنا تتعالى أصوات الاحتجاج على الجمعية من كل مكان ويسود الهرج ويحدث بعض التحطيم فى أمتعة الجمعية ويلوذ المحاضر ومن معه من المسئولين بالهرب .

وهذه الخطوات التى أثبتها آنفاً هى خطة وضعت فى دار المركز العام على أنها مجرد أفكار ، غير أنها حين وضعت موضع التنفيذ جاء الواقع مصداقاً لها كأنما كانت وحياً فقد حدث كل ما تصوره واصفوها وكانت وسيلة ناجحة لإحباط نشاط الجمعية فى المجال الشبابى الخطير .

خامساً : كان ظهور هذه الجمعية من أقوى البواعث على النشاط فى تكوين الشعب فى القاهرة فلم يمض عام إلا وكانت الشعب قد عمت جميع أحياء القاهرة . وكان الذى دعا الإخوان إلى ذلك أنهم أرادوا أن يجعلوا صوت الدعوة قريباً من الشباب فى كل مكان فيقيمون بذلك تحصينات لهذا الشباب تحميه من إغراءات الفساد بمختلف صورها ، فإن أخطر شىء على الشباب أن تتركه خالى الذهن أمام الغارات الوافدة بما تحمله من مظاهر خادعة فلا تلبث أن تجد فى ذهنه الخالى أرضاً خصبة تنغرس فيها وتنمو وتترعرع ولا يسهل بعد ذلك نزعها بعد أن ثبتت جذورها

عرفت هواهـــا قبل أن أعرف الهوى　　　فصادف قلبــاً خاليــاً فتمكنـــا

فمنذ ذلك الحين أخذ الإخوان فى تقسيم القاهرة إلى مناطق يتحمل مسئولية الإشراف على الدعوة فى كل منطقة منها مجلس يكرس جهده على نشر الدعوة فى منطقته وتأسيس الشعب فى أنحائها ومباشرة أنشطة الدعوة فى كل شعبة منها ؛ فمحاضرة أسبوعية وفريق جوالة للشباب فيها ومدرسة

جمعة للأطفال بها وكتيبة للصفوة ممن نضجوا من العاملين فى أنشطتها حيث دراسة القرآن وحفظه مع مسابقات فى الحفظ والتفسير .. ثم يفد إلى محاضرة الثلاثاء بالمركز العام من تسعفه ظروفه فيستوعب شحنة قوية يفرغها فى شعبته طيلة أيام الأسبوع .

سادسا : قام الإخوان الطلبة فى كليات الجامعة والمدارس على اختلاف أنواعها بحملة توعية لإخوانهم وزملائهم جعلت هذه المعاهد والكليات مغلقة فى وجه دعاة هذه الجمعية بعد أن كانت آمالهم معقودة على هذه المجتمعات الشبابية الزاخرة بالصيد السمين السهل الاصطياد - كما أن قسم العمال بالمركز العام ضاعف من نشاطه فصارت المصانع ومراكز التجمعات العمالية بالقاهرة والإسكندرية فى مأمن من غارات هذه الجمعية وأفكارها الخطرة الهدامة .

أثر خطة الإخوان:

إذا قلنا إن خطة الإخوان إزاء هذه الجمعية قد نجحت فليس معنى هذا أن الجمعية قد أغلقت دورها وانسحبت من البلاد ، وإنما كان نجاح الخطة فى إنقاذ عنصر الشباب من بين براثن هذه الجمعية وتحصينه ضد أفكارها ومغرياتها .. وهذا العنصر هو العنصر المرجى ففساده ضياع للبلاد وقضاء على مستقبلها وصلاحه هو تأمين للبلاد ومستقبلها .. أما العناصر الأخرى الذين ظلت دور هذه الجمعية بعد ذلك تعج بهم فهم حثالة الناس مهما علت مراكزهم لأنهم عبيد المادة وطلاب المنافع والمتلونون بكل لون وهذه أصناف لا يعيرهم الإخوان اهتماماً لأنهم يكثرون عند الطمع ويقلون بل ينعدمون عند الفزع .

وقد ظلت الجمعية موجودة ذات دور وذات أعضاء ولكنها كسيحة تنفق على أعضائها وتهيئ لهم الفرص الحرام حتى جاء من بصق عليها بصقة واحدة فذابت فى التو واللحظة وصارت كأن لم تكن .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامـــــر

(٣) إعلان الحرب على الجريدة اليومية

لا أعتقد أن عناصر النجاح لمشروع لإنشاء جريدة يومية توفرت من قبل أو ستتوفر فيما بعد ، كما كانت متوفرة لإنشاء جريدة يومية للإخوان المسلمين ... فالمال متوفر حيث جيوب الإخوان أغنياء وفقراء مفتوحة للمشروع لا تغلق دونه ، والثقافات المختلفة التى يحتاج إليها التحرير والطبع

والإعلان واستقاء الأخبار متوفرة ومتوثبة للعمل تطوعاً أو بأجر زهيد .. وجمهور المشترين الذى يعتبر شراء هذه الجريدة عبادة كالصلاة والصوم جمهور ضخم تزخر به أنحاء البلاد فى كل مدينة وفى كل حى وفى كل شارع وفى كل قرية مهما نأت عن العمران .

واذا كان فرد من أسرة «تقلا» قد استطاع أن ينشئ جريدة يومية هى «الأهرام» وتمكن من إصدارها مائة عام . وإذا كان فردان هما مصطفى أمين وعلى أمين قد استطاعا أن ينشئا جريدة «الأخبار» وأن يستمرا فى إصدارها أكثر من عشرين عاماً .. وتجد هذه الصحف مكانها فى كل بيت تقريباً ... أفلا تستطيع أقوى هيئة فى مصر وأعظم هيئة تنظيماً أن تصدر جريدة يومية وأن تكون حتى فى مستوى جرائد الأفراد ؟ .

لم يفكر الإخوان المسلمون فى إصدار جريدة يومية إلا بعد أن اطمأنوا إلى توفر جميع إمكانيات نجاحها على أعلى مستويات النجاح ... كان ينقصهم الأرض التى ينشئون عليها دار الجريدة فاشتروا قطعة أرض فى قلب القاهرة تزيد مساحتها على نصف فدان ، ووضع أكبر مهندسى معمارى فى مصر الدكتور سيد كريم تصميم البناء المكون من اثنى عشر طابقاً .وقدرت تكاليف إنشائه ، وأسست شركتان مساهمتان إحداهما لإنشاء المطبعة والأخرى لإصدارالجريدة وجمع المال ، وخاطب المسئولون فى شركة الطباعة أكبر شركات أوربا لعرض ما عندها من أحدث نماذج المطابع .. ولما كان إنشاء الدار وورود المطبعة يستغرق أكثر من عام فقد رؤى إصدار الجريدة مؤقتاً فى مطبعة كبيرة اشتريت منداخل البلاد ريثما يتم البناء وتصل المطبعة الحديثة من الخارج .

فما الذى حدث بعد ذلك ...... وهل نجح المشروع ؟ ؟

إن الإجابة على هذا السؤال مأساة تاريخية .. وإنها لجريمة ضد هذا الشعب أن تخفى حقيقة المأساة عن هذا الجيل المجنى عليه والذى نشأ فى ظل الظلام .. فإن تعريف هذا الجيل بهذه المأساة سيفتح عيونه على حقائق مرعبة ، وسيكون فى استطاعته بعد ذلك أن يقيم كثيراً من عناصر التاريخ المخفاة عنه أو المزيفة عليه ...

حتى نحن الذين كنا نعيش وسط المعارك فى ذلك الوقت ، وكنا نعتقد أننا أصبحنا – بعد أن عركتنا الأيام – أدرى الناس بالناس المعايشين لنا ، وكنا نعتقد أننا قد أحطنا بكل الظروف المحيطة بنا ، وبالألاعيب والمؤامرات التى يمكن أن تحاك ... حتى نحن قد فوجئنا بما أذهلنا وسلب ألبابنا وكاد أن يقذف اليأس فى نفوسنا .

لقد كان إصدار الجريدة اليومية تجربة لا أقول قاسية بل إنها أقسى تجربة مرت بنا .. إنها جرحت قلوبنا وقهرت نفوسنا وكشفت لنا أن أعداء الإسلام أقوى مما كنا نعتقد وأكثر مما كنا نظن ... وأقنعتنا بأننا كنا مسرفين في حسن الظن .

يبدو أن الإنجليز — وهم المخططون لكل مؤامرة وإن عهدوا بتنفيذها إلى صنائعهم — كانت نظرتهم إلى مشروع الجريدة اليومية على الوجه التالي :

قالوا لأنفسهم ولصنائعهم : إذا كان الإخوان وهم يعدمون وسائل النشر والإعلام إلا الكسيح منها قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من القوة حتى اكتسحوا الميدان السياسي متخطين كل ما ألقي في طريقهم من عقبات ، فكيف إذا توفرت لهم أقوى وسائل النشر والإعلام وهي الجريدة اليومية ؟ ! .. إذن لقضوا على كل معارض ولسحقوا منافسيهم سحقاً ولملكوا زمام الحكم لا في مصر وحدها بل في العالم العربي بل ولحققوا أمنيتهم في إحياء الخلافة الإسلامية ... إذن فلنحل بكل وسيلة مشروعة وغير مشروعة بينهم وبين الإفادة من هذه الجريدة اليومية .

وسائلهم في محاربة الجريدة اليومية :

لم يتورع الإنجليز وصنائعهم عن استخدام أقذر الأساليب في محاربة هذه الجريدة ... وقد استفرغوا جهدهم في سبيل تحقيق الفكرة التي استبدت بعقولهم ،وهي أن حرمان الإخوان من هذه الجريدة هو آخر سهم في جعبتهم لوقف المد الإخواني الجارف .. وقد أخذت وسائلهم في الحرب الصور الثلاث التالية :

أولا : حرب التحرير

كان في أوساط الإخوان من الكفاءات النادرة ما يكفي لتحرير جميع أبواب الجريدة بأوفى ما تحرر به الصحف خبراً ومقالة وأسلوباً وتعليقاً .. إلا أننا نعلم أن الناس قد ألفوا أسماء معينة يسعدهم أن يقرأوا لها ، وإذا رأوا مقالا ممهوراً بتوقيع واحد منهم اعتقدوا أن في هذا المقال من الافتنان ما يشبه الوحي في الوقت الذي قد لا يكون فيه ما يستحق أن يقرأ ... وقد عرضت هذه الفكرة على الأستاذ المرشد فأيدها وسألني عمن أختار من الكتاب المرموقين ليكتب عندنا ، فاقترحت اسم الدكتور محمود عزمي ... وكان الدكتور محمود عزمي في ذلك الوقت صحفياً مشهوراً ليس له لون حزبي وكان يعد أعظم المعلقين السياسيين في مصر وكان يكتب تعليقاته في أكثر من جريدة

فوافق الأستاذ المرشد على التراخى وانتدب أحد الإخوان الذين يعرفونه للاتفاق معه على أن يكون المعلق على الأنباء السياسية بجريدة الإخوان وله أن يقدر أتعابه كما يشاء ... وكنا واثقين أنه سيسارع مستجيباً لا سيما والجريدة مضمون توزيعها من أول عدد على أوسع نطاق كما أننا تركنا له تقدير أتعابه بنفسه ولكن المفاجأة المذهلة كانت حين جاء الرسول ليقول : إن الرجل يطلب مهلة قبل أن يعطى الكلمة ... وانقضت المهلة فكان جواب الرجل «الاعتذار» ... واقترح غيرى من الإخوان أسماء أخرى واتصلوا بهم بعروض سخية فكانت أجوبتهم «الاعتذار»

وبدأنا حينئذ نحس كأن يداً خفية تمتد فى الظلام برسائل لهؤلاء الكتاب وحين يقرأها الكتاب يحجمون ويعتذرون . وقلبنا مع الأستاذ المرشد الأمر على وجوهه فخرجنا بهذا التصور الذى أيأسنا من فئة الكتاب الصحفيين المحترفين . وجلسنا مع الأستاذ المرشد نستعرض عدة أسماء ننتقل من اسم لآخر من غير المحترفين ولا نجد فى أنفسنا الجرأة لمفاتحة أى منهم لما نعلم من نواحى ضعف فى كل منهم قد توقفهم معنا موقف الصحفيين المحترفين ...

وأخيرا خطر لى خاطر شمت فى انبلاجه فى خاطرى نور الأمل يشق ظلمة اليأس التى أحاطت بنا ، فقلت : يا أستاذ حسبنا ما نالنا من خيبة أمل حين اتجهنا إلى الغرباء نلتمس عندهم العون ، فلندع الغرباء جانباً ولنتجه إلى من تربطنا بهم وشائج المبادئ وروابط الوطنية . قال : ومن تقصد إذن ؟ قلت إن الحزب الوطنى هو أقرب الوطنيين إلينا ونكاد نعتقد أنه جزء من دعوتنا ، كما يحس أعضاؤه بأنهم كذلك منا ، وحافظ رمضان باشا رئيس الحزب الوطنى شخصية صارت فى الأيام الأخيرة من الشخصيات ذات الشهرة فى الأوساط المختلفة..وإذا قرأ الناس له فى جريدتنا فسيكون ذلك عاملا من عوامل إقبالهم عليها .. وبينك وبين الرجل صلة قوية ، ولا إخاله إذا كلمته إلا مسارعاً إلى الكتابة لا سيما والحزب الوطنى ليس له جريدة تنطق بلسانه .

فتهلل وجه الأستاذ المرشد ، وكأنه وقع على طلبته التى كان يفتقدها ، وأمسك بالتليفون وطلب حافظ رمضان باشا فرد عليه وتبادل معه التحيات والأشواق والأستاذ يبتسم ثم أخذ يفاتحه فى الموضوع الذى اتفقنا عليه .. وسرعان ما اختفت الابتسامه من وجه الأستاذ ولاحظنا أن حل محلها تقطيب يشعر بالألم وينم عن الغضب .. وأنهى الأستاذ المكالمة ووضع التليفون وتنهد طويلا وقال بصوت متهدج كأنما خرج مهزوماً من معركة :

وزهدنى فى الناس معرفتى بهم　　　وطول إختبارى صاحباً بعد صاحب
فلم ترنى الأيام خلا تسرنى　　　مباديه إلا ساءنى فى العواقب

نفهمنا ما حدث ، وأطرقنا جميعاً ذاهلين لا ندرى ما نقول ولا ندرى ما نفعل وطال صمتنا حتى قطع الصمت صوت الأستاذ المرشد يقول :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

حافظ رمضان الذى كنا ندخره لخطير الأمور ... يتخاذل حين نطلبه لكتابة مقال فى جريدة الإخوان ؟ ! ما هذه المفاجآت ؟ ! وبمن نثق بعد ذلك ؟ ! ... هل جريدة الإخوان غول مخيف يبعث الرعب فى قلوب الصحفيين ؟ ... كلهم خافوا منها ... حتى حافظ رمضان ؟ ! ياحسرة على العباد .

قلت : يا أستاذ ... إن حافظ رمضان بعد أن دخل الوزارة — خارجاً على سنة أسلافه من رؤساء الحزب الوطنى – قد صار فى عداد عبيد القصر ... ولا بد أن الملك – وهو فى نظرهم واهب القوى والقدر – قد أوحى إلى عبيده جميعاً بمقاطعتنا .

وإذ ذكرنا هذه المواقف المخزية حتى من رجال كنا نعدهم من الأبطال ، فينبغى أن نذكر بالفخر والإعجاب موقف الأستاذ محمد الشافعى اللبان الذى استجاب وحده لنداء الأستاذ المرشد وصار بكل شجاعة يوالى الكتابة فى الجريدة مع أنه كان من كبار الموظفين الحكوميين .

ثانيا : حرب الإعلان :

من المعروف أن أهم مورد تعتمد عليه الصحف لتعويض مصروفاتها هو أجور الإعلان ، ذلك أن التوزيع مهما اتسع نطاقه فإن إيراده لا يفى بما صرف ... ولهذا تبذل الصحف قصارى جهدها فى الوصول بتوزيعها إلى أرقام مثيرة حتى يكون ذلك مغرياً للمعلنين أن يعلنوا عن منتجاتهم فيها ... وأكثر الصحف إعلانات هى أغناها وأكثرها مورداً ، وأقل الصحف إعلانات هى أفقر الصحف ويعتبر هذا نذير إفلاسها .

وجريدة كجريدة الإخوان المسلمين اليومية ، سبق إصدارها دعاية واسعة واستقر فى أذهان الناس جميعاً فى مصر وفى خارج مصر ان توزيع هذه الجريدة على أوسع نطاق مضمون بضمان الفروع والشعب المنتشرة فى كل مكان .. كان مفروضاً أن تنهال عليها طلبات الإعلان لأن دوافع المعلنين إلى الإعلان فيها مكتملة ... ولهذا كان من أوائل ما اهتمت به إدارة الجريدة قبل إصدارها أنها أنشأت إدارة للإعلان على أعلى المستويات . وقد تكونت هذه الإدارة من فئتين : فئة ذات خبرة سابقة وفئة لا خبرة لها ولكنها تأنس فى نفسها ميلا واستعداداً لهذا النوع من العمل

أما الفئة ذات الخبرة السابقة فإنها عناصر كان لها مكان مرموق فى صحف أخرى ولكنها تركت مكانها ، وضحت بما يدره عليها من إيراد استجابة لنداء من ضميرها بوجوب وضع خبرتها فى خدمة أول صحيفة يوميه إسلامية كان إصدارها أملا عزيزاً طالما تاقت إليه نفوس المؤمنين ولكنه كان بعيد المنال .. أما وقد تحقق فلا أقل من تجنيد الخبرات له ... واذا ذكرنا هذه الفئة فيجدر بنا أن نذكر بالثناء والتقدير الأستاذ عبد المجيد وافى الذى كان إذ ذاك الشاب الأزهرى الموهوب الذى كان آية فى فن الرسم ، والذى كان دعامة فى جريدة الأهرام فترك مكانه فيها وقدم نفسه وموهبته وخبرته فى خدمة الجريدة الناشئة ضارباً بما عرضته عليه جريدة الاهرام من إغراء مادى عرض الحائط لأنه اعتبر انتقاله هذا واجباً يمليه عليه الضمير ويفرضه عليه الدين .

وأما الفئة الأخرى التى تكونت منها إدارة الإعلان وهى فئة لم يكن لها سابق خبرة ولكنها تأنس فى نفسها استعداداً فكان نواتها أخ كريم كان إذ ذاك حديث التخرج فى كلية التجارة وقد أعرض عن وظائف الحكومة وجاء مسارعاً إلى قسم الإعلان بالذات فى الجريدة ذلك هو الأخ الكريم الأستاذ محمود عساف .

وضمت إدارة الإعلان أيضا مجموعة من الإخوان الشباب من ذوى الكفاءات المختلفة ، وكانت مجموعة المندوبين مثالا للنشاط واللباقة ، وهى المجموعة التى ينتشر أفرادها فى مختلف أنحاء القاهرة للحصول للجريدة من أصحاب المتاجر والمصانع والشركات على عقود للاعلان مدداً يتفق عليها ... وقد ابتكر الأستاذ محمود عساف عدة ابتكارات فى عالم الإعلان كشفت فعلا عن مواهبه وقدراته كما أن الأستاذ عبد المجيد وافى أتى بالعجب العجاب فى إبراز فكر الأستاذ محمود عساف بالرسم .

وقد فصلت بعض التفصيل فى أ الإعلان وتكوينها وشخصياتها لأ بين للقارئ إلى أى مدى كان الاهتمام بالإعلان وإلى ا لهذه الجريدة إمكانيات النجاح فى عالم الإعلان بل إمكانيات الاكتساح فى هذا الميدان ... وإذا كان تزويد إدارت الإعلان فى مختلف الصحف اليومية بالكفاءات مرهونا بما تغدقه الصحف من أموال فإن جهاز الإعلان فى جريدة الإخوان قد اجتمع له ما لم يجتمع لصحيفة يومية من الكفاءات القادرة لم يجمعها إلا دافع من القلوب ونداء ملؤه الإخلاص والتفانى .

تحرك جهاز الإعلان وهو يجمع فى يديه كل مقومات النجاح وبذل أكرم الجهود وواصل

الاتصال بالشركات والمصانع والمتاجر عارضاً عليهم تصميمات مبتكرة ذهل لروعتها كل من رآها ، متساهلا في الأجر حتى يتم الإغراء ... ولم يستطع مسئول واحد في كل هذه الجهات أن يظهر عيباً في تصميم أو يلاحظ نقصاً في ابتكار أو حتى أن يكتم إعجابه بما عرض عليه من تصميمات أو أجور ، ولكن المفاجأة كانت في الحصيلة الضئيلة لهذه الجهود ... كانت الحصيلة عقوداً من متاجر تربطها بالإخوان وشائج ، أما المتاجر الكبيرة والمصانع الضخمة والشركات ذات الثراء فقد وقفت موقف الإحجام دون سبب ولا مبرر ، فقد أكثر «المندوبون» من التردد عليها يطلبون من المسئولين فيها مجرد إبداء الأسباب .. فلم يحظوا بجواب .

هبت أجهزة الإخوان بوسائلها المختلفة بحثاً وتنقيباً وراء السر الدفين لهذه الظاهرة العجيبة وانتهى البحث بالوصول إلى السر ... وكان السر يكمن في دار السفارة البريطانية التي كانت تقبض بإحدى يديها على دفة الاقتصاد المصري كما كانت تقبض بيدها الأخرى على دفة السياسة المصرية ، فقد كانت أكثر الشركات الكبرى والمتاجر الرئيسية ملكاً للأجانب . كما كان القصر الملكي وما يتبعه مما كانوا يسمونه وزارات واجهة مصرية للسفارة البريطانية .

شركة الإعلانات الشرقية :

ولما كان الإنجليز يقدرون مدى خطورة القلم الحر على سياستهم الاستعمارية ، وكانت سياستهم تنبني دائماً على عدم المواجهة ، فقد وضعوا خطة لإخضاع الصحف لسلطانهم بمهاجمتها من من الخلف عن طريق التحكم في مصادر الإعلان ... ولم يكتفوا بأن أكثر الشركات والمتاجر ملك لهم بل وحدوا المصب الذي نصب فيه الاعلانات من أي مصدر من المصادر حتى ولو كان المصدر مصرياً في شركة للإعلان أنشأوها وجعلوها فرعا في مصر لوزارة المستعمرات البريطانية وأطلقوا عليها زوراً وبهتاناً وتضليلا اسماً هو براء منها هو «شركة الإعلانات الشرقية» وهي الشركة التي كان كل العاملين فيها من رجال المخابرات البريطانية ومن مدبري المؤامرات من دهاقين اليهود . والتي حيكت بين جدرانها وفي مكاتبها كل المؤامرات الإجرامية ضد الشعب المصري وإن كان الذين تطوعوا لتنفيذها — وبالأسف — مصريين ممن أغرتهم مناصب الحكم وأعماهم الذهب البراق عن الحقيقة فباعوا أنفسهم لمن سخروهم لتدمير أهلهم وبلادهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

ولكي ألقي بعض الضوء على هذه الشركة حتى تتضح للقارئ حقيقتها سأكتفي بإيراد فقرات من مقالات نشرتها إحدى صحف الوفد في ٢٢ حتى ٢٤ مارس سنة ١٩٤٧ أيام كان الوفد خارج الحكم تحت عنوان «صحف شركة الإعلانات الشرقية وحقوقنا الوطنية» :

«دأبت الصحف التي تصدر في مصر بلغات أجنبية عن شركة الإعلانات الشرقية على تحدى الشعور الوطني المصرى والسودانى ، فطالعتنا جريدة «لا بورص إجبشيان» أول أمس بمقال التناحي فندنا مزاعمه في عدد أمس وعدنا إليه اليوم في مكان آخر . وخرجت علينا «الإجبشيان جازيت» مساء أمس بخطاب مفتوح إلى المصريين من زعم لنفسه صديقاً لمصر وسنرد عليه غداً .»

«والمسئول عن صحيفة» «لا بورص إجبشيان» هو «جان ليجول» وقد اتفق أخيراً مـــع الصهيونيين على العمل معهم في فلسطين ، وسيشد رحاله بعد قليل إلى هناك ليقوم بدوره في محاربة قضية العرب العادلة بعد أن أدى دوره في مصر في محاولة النيل من قضية مصر ومعاضدة الاستعمار البريطاني في استغلالنا والوقوف حجر عثرة في طريق تقدمنا »

«كشفنا الستار في عدد أمس عن الألعبان «جان ليجول» داعية الاستعمار والصهيونية . وهو الذي ظل طوال مدة الحرب ينفث سمومه من أبواق «شركة الإعلانات الشرقية» التي يتولى إدارتها العامة «هنرى حايم» الصهيوني تحت إشراف ضباط انتدبتهم القيادة العليا البريطانية بدعوى مراقبة تحرير صحيفتي «الاجبشيان جازيت» و «الاجبشيان ميل» التين تصدران باللغة الإنجليزية»

ومن المؤلم حقاً أن نقول : إن الصحف التي كانت تصدر في مصر في ذلك الوقت — مهما اختلفت أسماؤها وانتسبت في ملكيتها وتحريرها إلى أحزاب مصرية أو إلى أشخاص مصريين فإنها جميعاً في حقيقتها لم تكن إلا نشرات تصدر عن شركة الإعلانات الشرقية، فللكتاب في كل صحيفة منها أن يكتبوا ما يشاءون ولكن في نطاق حددته لهم هذه الشركة ، وهم يلزمون بالطاعة والامتثال لأنها تستطيع أن تقطع عنهم أجورهم بحرمان جريدتهم من الإعلانات ... ويلاحظ أن الجريدة الوفدية التي نقلنا فقرات من مقالاتها في شأن هذه الشركة كانت تعاني أزمة إعلانات لأن سياسة الوفد في ذلك الوقت كانت تقضي بمهاجمة الإنجليز .

ولو أن جريدة أخرى غير جريدة الإخوان قد اتبعت معها هذه الطريقة الجهنمية لأغلقت أبوابها من أول يوم ، ولكن جريدة الإخوان استطاعت أن تواجه هذه الحرب الشعواء لأن الإخوان كانوا يعتبرونها جزءاً من حياتهم فرصدوا لها ما يقيم أودها ويسد ثغراتها .

وقد يخطر لسائل أن يسأل : ألم يكن الإخوان — وهم ذوو خبرة بالواقع الأليم لبلادهم — يتوقعون هذا الموقف الذي ووجهوا به قبل أن يواجهوا به ؟ والجواب على هذا هو أن الإخوان كانوا حقا يتوقعون الكثير من الإنجليز وأذنابهم، لكنهم لم يكونوا يتوقعون أن تصل الخسة بهم إلى

هذا الحد ، كما لم يكونوا يتصورون أن لشركة الاعلانات الشرقية عن السيطرة على مصادر الإعلان هذا القدر الذى تستطيع به وقف الصحف من الصدور إذا شاءت وقفها .

ثالثا – حرب التوزيع :

دأب الإخوان منذ أول عهدهم بإصدار مجلات تنشر أفكارهم على توزيعها بأنفسهم عن طريق التسليم باليد فى القاهرة ، وعن طريق البريد فى الأقاليم حيث يرسلون إلى كل بلد بها شعبية كمية من كل عدد ، حتى إذا وصلت الكمية إلى الشعبة تولت توزيعها على أعضائها ، وتجمع المتحصل من بيع المجلة وترسله إلى المركز العام عن طريق البريد أو عن طريق أحد أعضائها المسافرين ... وبهذه الطريقة كانت توزع كميات كبيرة من المجلة قد لا تحظى بمثلها مجلات مشهورة فى مصر فى ذلك الوقت .

لكن هذه الطريقة لا تصلح لتوزيع جريدة يومية أخص خصائصها أنها – بما تحوى من أنباء وتعليقات – هى بنت يومها ، فإذا فات يومها فقدت قيمتها وعادت قصاصة من ورق قد تصلح لأشياء مختلفة لكنها لا تصلح للقراءة...ومعنى هذا أنإصدار جريدة يومية يقتضى أن تصل نسخها إلى القارئ – مهما بعد مكانه – فى نفس يوم صدورها بل فى نفس ساعة صدورها إن كان ذلك ممكناً ، ولا يتأتى هذا إلا بجهاز متخصص للتوزيع مزود بجميع الوسائل الحديثة وله مراكز تابعة له فى كل محافظة ومدينة وقرية .. وقد تمرست بهذا العمل شركات قليلة العدد .. وقد فهمنا أخيراً أن هذه الشركات كانت تنتهى جميعاً إلى يد واحدة .

وكان على جريدة الإخوان أن تتعاقد مع إحدى هذه الشركات . وقد تعاقدت فعلا ، وكانت سيارات هذه الشركة تحمل قبل فجر كل يوم نسخ الجريدة وتأخذ مسارها مع الجرائد الأخرى كالأهرام والأخبار والمصرى وتصل معها إلى كل مكان فى القطر ، ومن مراكز التوزيع تسلم إلى الموزعين أى باعة الصحف .

ولم يكن قراء الصحف فى تلك الأيام بالكثرة التى نراها الآن ، فكان على الموزعين أن يبذلوا جهوداً لإغراء الناس بشراء الصحف حيث يرتبط دخل الموزع بالعدد الذى يوزعه .

والمفاجأة التى أذهلت الإخوان فى هذا الميدان أنه فى مساء كل يوم كانت تصل إلى إدارة جريدة الإخوان فى القاهرة مرتجعات بالآلاف ويصل معها فى نفس الوقت أضعاف عدد هذه المرتجعات شكاوى من الإخوان فى كل مكان بأن الجريدة لم تصل إليهم .. فتتصل إدارة الجريدة بشركة التوزيع لافتة نظرها إلى هذه المفارقات فتقوم شركة التوزيع بإطلاع مندوب الجريدة على

كشوف التوزيع التى توضح أن الجريدة تصل إلى جميع الموزعين فى كل مكان من القطر ... وصارت هذه الظاهرة تتكرر كل يوم .

وكشف الإخوان السر العجيب .. فاتضح أن الشركة – شركة التوزيع – توصل الجريدة إلى الموزعين فعلا – حتى تكون أمام القانون منفذة بنود العقد – ولكنها فى نفس الوقت ترسل عن طريق مندوبيها تهديدا شفوياً إلى كل موزع بأنه إذا أظهر جريدة الإخوان ووزعها فسيكون عرضة للاستغناء عنه وإبداله بغيره ثم أتبعت الشركة التهديد بإغراء مؤداه أن تعطى للموزع مكافأة تتناسب مع عدد النسخ التى يحبسها عن التوزيع من هذه الجريدة .

وقد أنبئت وأنا بالقاهرة بهذا الكشف العجيب إلا أننى لم أكد أصدقه – لتجاوزه حدود التصور – حتى ذهبت إلى بلدتى رشيد لقضاء فترة من الصيف فيها فرأيت الإخوان يشكون مر الشكوى من عدم وصول الجريدة إليهم إلا أعداداً قليلة جداً .. وكان لى على موزع الجرائد فى رشيد أياد تجعله دائماً مسارعاً فيما يرضينى، وكان يعلم أن من أوائل ما يرضينى أن يوافينى فى منزلنا بالجريدة فى صبيحة كل يوم طيلة فترة إقامتى برشيد فلاحظت أنه يحضرها يوماً ويتخلف عن إحضارها أياماً فشددت عليه الطلب حتى أحرجته ثم أنذرته فبكى الرجل وأخذ يفضى إلى بما هو واقع تحت طائلته من أسلوبى التهديد والإغراء من شركة التوزيع ، واعترف لى بأنه يحاول أن يحبس النسخ كلها عن التوزيع لولا خوفه من بطش بعض الإخوان فيكتفى بتوزيع بعض النسخ ويرد إلى الشركة الباقى وهو معظم ما يرد إليه كل يوم ، وأنه يستفيد مادياً من جريدة الإخوان بهذه الطريقة بأكثر مما يستفيده من توزيع الجرائد الأخرى مجتمعة .

لم يقف الإخوان أمام هذه المؤامرة مكتوفى الأيدى ، وإنما حاولت كل شعبة بجميع الوسائل انتزاع نسبة لا بأس بها من نسخ الجريدة من الموزعين بحيث يحصل معظم الإخوان على نسخ منها . لكن هذا الأسلوب وإن كان قد أرضى شوق الإخوان إلى مطالعة جريدتهم إلا أنه لم يحقق الأمل الذى كان يرتقبه الإخوان من إصدار جريدة يومية تصل إلى أيدى غيرهم من الشعب قبل أن تصل إلى أيديهم ، لأنها عن هذا الطريق وحده كانت ستغزو بأفكارهم – غزواً يومياً – ميادين فسيحة شعبية ضخمة ليس من اليسير غزوها بطريقة أخرى .

<u>النتيجة :</u>

بهذه الحرب الضروس الثلاثية الشعب استطاع التحالف الإجرامى أن يقضى على جريدة الإخوان اليومية ... نعم إن الجريدة لم تحتجب ولم تتوقف عن الصدور ، إلا أنها فقدت قيمتها التى أنشئت

من أجلها ، وأصبحت أشبه بنشرة خاصة تصدرها مجموعة من الناس لنفسها .. وقد أدى هذا إلى التوقف عن المضى فى مشروع بناء دار المطبعة والجريدة الذى أشرنا إليه ... فقد برزت بظهور الجريدة فى ثوبها المؤقت عوامل لم تكن فى حسبان الإخوان وهى المؤامرات الثلاث التى أومأنا إلى طرف يسير منها .. وكان التعقل والروية يقضيان بإعادة النظر فى هذه المشاريع وإعادة صياغتها من جديد على ضوء هذه العوامل .

وكانت النية متجهة إلى التخطيط الذى أساسه عدم الاعتماد على الغير فى أية جزئية تتصل بالجريدة من قريب أو من بعيد ، فيبدأ أولا بغزو إخوانى مكثف لميدان الإعلان بإنشاء شركة له ثم اقتحام ميدان التوزيع بإنشاء شركة أخرى له . وعندما يتمكن الإخوان من هذين الميدانين يبدأون فى مشروعى المطبعة والجريدة ... وقد بدأ الإخوان فعلا اقتحام ميدان الإعلان فأنشأوا مكتباً للإعلان فى الإسكندرية فى ميدان المنشية ، وخطا هذا المكتب خطوات موفقة كانت مبشرة بنجاح كبير .

ولم يكن الإخوان عاجزين عن دخول هذه الميادين بل والسيطرة عليها فلديهم كل مقومات النجاح ولقد بدأوا قبل ذلك بقليل مشروعاً لا يقل أهمية عن هذه المشاريع وهو إنشاء المدارس الخاصة وبدأوه فى الإسكندرية أيضا ونجح نجاحاً باهراً ... ولكن هذا النجاح وما يعرفه المستعمرون من مقدرة الإخوان على إحراز النجاح فى الميادين الأخرى التى أشرنا إليها والتى احتكروها لأنفسهم باعتبارها المؤمنة لقبضتهم على عنق البلاد ، كل ذلك جعلهم يحيكون خيوط مؤامرة جديدة حاكتها أيديهم الخفية ونفذتها العقول الغبية والأيدى الملوثة حتى يوقفوا المد الإخوانى المكتسح قبل أن يصل إلى هذه الميادين .

(٤) الفتنة الثالثة
أو الاقتحام إلى البناء الداخلى للدعوة

عانيت الكتابة فى هذه المذكرات حتى الآن عن فتنتين ، وهأنذا أبدأ المعاناة فى الكتابة عن فتنة ثالثة .ولقد عبرت عن الكتابة فى هذه الفتن بالمعاناة لأن الكتابة فيها تمض النفس وتجرح القلب وتكاد تقطع نياط الفؤاد ، فكل ما ينال الدعوات من أذى خارجى لا ينفذ إلى داخلها هو أذى تتحمله نفوس المؤمنين لأنه سحابة صيف عن قريب تقشع ، والعزاء فيه للمؤمنين أن بناءهم الداخلى رصين متماسك ، أما إذا كانت المصيبة فى البناء الداخلى نفسه فهى المصيبة التى لا عزاء فيها ، ولا

أمل فى إجتيازها أو الخروج منها إلا أن تمتد إلى البناء يد القدرة الإلهية فتحفظه من الانهيار .

وإذا كانت عوامل الفتن تنشأ فى الدعوات بنشوئها ، فان هذه العوامل تكبر وتستفحل بنمو الدعوات واتساع نطاقها ، وإذا كانت محاصرة الفتن - والدعوات لا تزال محدودة الانتشار - أمراً سهلا وميسوراً فإن محاصرتها والإحاطة بها إذا اتسع نطاق الدعوات ليس بالأمر السهل ولا الميسور لأن الفتن تكون فى هذه الحالة متشعبة ضاربة بشعبها وشظاياها فى كل اتجاه .

وقد وصلت دعوة الإخوان المسلمين فى الزمن الذى نحن بصدد الحديث عنه من سعة الانتشار واتساع النطاق إلى الحد الذى أشرنا إليه آنفاً ، والذى صارت بسببه هدفاً تراش السهام له من كل جانب وتوجه نحوه من كل اتجاه ، وصارت وقايتها هذه السهام أمراً متعذراً أشد التعذر .

ومعالجة الحديث عن هذه الفتنة تتطلب الإلمام بطرف مما يتصل بالشخصيات التى كانت محور رحاها . وفيما يلى سنحاول بإذن الله إلقاء شعاع من الضوء على هذه الشخصيات :

الدكتور إبراهيم حسن : طبيب نابه ، من أسرة تنتسب إلى الصوفية فى الشرقية . اتخذ له عيادة فى حى السيدة زينب قبالة المدرسة السنية على مقربة من دار المركز العام فى شارع الناصرية ... اتصل بالدعوة فى القاهرة فى وقت مبكر ، وعقدت فى عيادته اجتماعات هامة . وقد عينه الأستاذ المرشد وكيلا للدعوة ، وهو رجل هادئ الطبع ، ولا أذكر الآن كيف تعرف على الدعوة ولكن يخيل إلى أنه تعرف عليها عن طريق عبد الحكيم عابدين الذى كان إذ ذاك حديث التخرج فى كلية الآداب - والذى رجح عندى أن يكون تعرفه عن طريق عبد الحكيم أن عبد الحكيم كان أكثر الإخوان اختلاطا به حتى إن أكثر وقته كان يقضيه فى عيادته .. ومجال نشاط الدكتور إبراهيم فى الدعوة كان محدوداً حيث تغلب عليه النزعة الصوفية كما أن عمله الخاص كان يشغل أكثر وقته وقد ظل يشغل منصب الوكيل العام فى الدعوة حتى نزح إلى القاهرة الأستاذ أحمد السكرى فقلده هذا المنصب وصار الدكتور إبراهيم الوكيل الثانى .

الأستاذ أحمد السكرى : شاءت الأقدار أن أتعرف على الأستاذ أحمد السكرى فى منزلنا برشيد .. فبعد أن اتصلت بالدعوة فى القاهرة فى سنة ١٩٣٦ ذهبت إلى رشيد لأقضى ردحاً من الإجازة الصيفية بها .. وفى خلال هذه الفترة زارنا بالمنزل زائر كريم - وكان منزلنا فى ذلك الوقت مثابة الطارئين على رشيد من كرام رجال العلم والدين من الموظفين - وكان هذا الزائر موضع

تكريم وإعزاز من والدى وعمى . وقد كان والدى حريصاً على تعريفى به ... وكان هذا الزائر الكريم هو الأستاذ أحمد السكرى .

وقد قص على الأستاذ أحمد القصة التى بسببها وجد فى رشيد ، وهى تتلخص فى أنه – وهو من كرام أهل المحمودية – أنشأ جمعية دينية فى المحمودية أحست الأسرة التى كانت تهيمن على البلد بأن وجود هذه الجمعية ينتقص من هيمنتها ، فأخذت هذه الأسرة فى العمل على إحباط هذه الجمعية وفض الناس عنها فلما لم تجد لجهودها فى هذا السبيل أثراً عملت على حرمان الجمعية من منشئها ومحور الحركة والنشاط فيها ببذل الجهد فى نقله من المحمودية .. ولما كان الأستاذ أحمد فى ذلك الوقت يعمل سكرتيراً للمدرسة الابتدائيه بالمحمودية فقد أسفرت جهود هذه الأسرة مع جهود مضادة من قبل الأستاذ أحمد عن نقله إلى رشيد سكرتيراً لمدرستها الابتدائية ... وفهمت من الأستاذ أحمد أنه مع هذا النقل لم يلق السلاح فصلته بالمحمودية لم تنقطع وإشرافه على الجمعية مستمر ولا ينقضى أسبوع حتى يكون بالمحمودية .

وحتى تلك اللحظة التى أتم فيها سرد قصته هذه على لم أكن أعلم عن صلته بالأستاذ حسن البنا كما أنه أيضاً لم يكن يعلم عن صلتى به .. وباعتبارى من دعاة الإخوان المسلمين رأيت من الواجب على أن أقدم إلى الأستاذ أحمد دعوة الإخوان المسلمين لا سيما وقد لمحت فيه غيرة إسلامية جارفة وهمة عالية فأخذت أتحدث إليه عن الدعوة وأشرح له جهودنا الإسلامية فى الجامعة .. وقد لاحظت فى أسارير والدى وعمى فى أثناء حديثى إعجاباً بهذه الدعوة – ولم يكونا قد سمعا عنها من قبل – وكنت أتوقع أن أرى وأسمع من الأستاذ أحمد مثل هذا الإعجاب ولكننى سمعت منه غير ما كنت أتوقع... سمعت منه تهوينا من شأن الدعوة وقائدها بأسلوب يشعر بالسخرية والاستعلاء ، فيقول وهو يبتسم «مش الشيخ حسن . ؟ دا كان عندنا فى المحمودية ولما عملت الجمعية عملته سكرتير لها وكنت أنا رئيسها» وأخذ يتحدث عن الشيخ حسن» وعن نفسه بهذا الأسلوب مما أثارنى فبدرت منى – مع حرصى الشديد على إحاطته بكل مظاهر الحفاوة والإكرام – عبارات عاتبنى عليها والدى بعد انصراف الأستاذ أحمد .. ولكن هذه العبارات كشفت للأستاذ أحمد عن حقائق كان يجهلها هى أن «الشيخ حسن» هذا مهما قال فيه ومهما سخر منه ومهما استعلى عليه فإنه أسس فى القاهرة دعوة برز بها على مسرح الحياة المصرية وأنه استطاع أن يوجد لدعوته هذه مكاناً فى الجامعة المصرية التى كانت تتقطع الأعناق دون اقتراب بدعوة للإسلام من أبوابها ، وأنه صار يعالج قضايا خارج حدود مصر لبلاد عربية هوت إليه وإلى دعوته أفئدة قادتها وزعمائها كقضية فلسطين وقضية المغرب وأنه يصدر مجله أسبوعية أصبح لها قراء فى الجامعة المصرية وفى الأزهر وفى أنحاء مصر وخارج

حدود مصر .. كشفت عباراتى للأستاذ أحمد عن ذلك كله وعن أكثر منه ... فأخذ يقارن هذا الانطلاق وهذا الأفق الفسيح بالنظرة الضيقة والأفق الموضعى المحدود الذى يعيش فيه والذى ظن أنه هو الحياة كلها .

وقد تحدثت بعد رجوعى إلى القاهرة إلى الأستاذ المرشد فيما كان من تعرفى على الأستاذ أحمد وفيما قصه على من أمر نضاله ضد هذه الأسرة — ولكنى لم أذكر له ما كان من حديث فيما يتصل بشخصه — فوجدت أن الأستاذ المرشد كان على علم بهذا النضال وأنه كثيرا ما أخذ على الأستاذ أحمد قصر جهوده على هذا الأسلوب .

ويبدو أن عباراتى قد عملت عملها فى خاطر الأستاذ أحمد فقرر فى نفسه قراراً باتجاه جديد — ولم تطل إقامته برشيد فقد بذل جهوداً رجع بها إلى مكانه بالمحمودية — وكان قراره الجديد أن يعمل على الخروج من حدود الدائرة التى يعيش فيها فأخذ يكثر من زيارته للأستاذ المرشد بالقاهرة ويصل حبله بحبال الدعوة بها وصار يحضر جلسات مكتب الإرشاد حتى تهيأت الظروف لانتقاله فى وظيفة بوزارة المعارف إلى القاهرة فأسند إليه الأستاذ المرشد منصب الوكيل العام للدعوة وهو المنصب الذى كان يشغله — كما قدمنا — الدكتور إبراهيم حسن .

وهنا رأيت من حق الدعوة على أن أفضى إلى الأستاذ المرشد بالذى دار بينى وبين الأستاذ أحمد فيما يتصل بشخصه والذى كتمته عنه حيث لم يكن هناك داع لإثارته ما دام الأستاذ أحمد بعيداً عن القاهرة .

ولم يكن الاحتكاك بينى وبين الأستاذ أحمد قد اقتصر على ماحدث بينى وبينه فى منزلنا برشيد ، بل جدت أمور أخرى تكرر معها الاحتكاك فقد كنت — كما قدمت — أقضى فترة من إجازة الصيف فى المرور ببلاد محافظة البحيرة التى كنت أعتبرها من مسئوليتى كما كان الأستاذ المرشد يعتبرها كذلك ... ولما كانت المحمودية إحدى مراكز البحيرة فكنت أمر على دار الإخوان بها . ونشأ الاحتكاك من مرورى بهذه الدار ... فهذه الدار كانت تعتبر نفسها بدعاً من دور الإخوان المسلمين ، فدور الإخوان فى أنحاء القطر كله إذا دخلت أيا منها تشعر بأنك فى فرع من فروع الدعوة يدين بالولاء للمركز العام ولقائد الدعوة ولكن دار الإخوان فى المحمودية إذا دخلتها لم تشعر فيها بهذه المعانى وإنما تحس منها معانى الاستقلال والولاء لقيادة أخرى وقد آلمنى ذلك وصارحت إخوان الدار بشعورى ولفت نظرهم إلى مظاهر فى الدار كالصور المعلقة لا تشعر من آراها بأن هذه الدار شعبة من شعب الإخوان المسلمين كما أن من استمع

إلى حديثهم لم يشعر بولاء لقيادة الدعوة . وقد طلبت إلى إخوان الدار أن يبلغو ا الأستاذ أحمد بملاحظاتى ... وكررت الزيارة لهذه الدار فلم أجد تغيراً قد طرأ عليها مما يتصل بملاحظاتى ، فأحسست فى هذا الإصرار دلالات خطيرة لاسيما والمسئول عنه قد أصبح فى أبرز مكان فى الدعوة بعد المرشد العام . ولا أحد غيرى يعرف عنه ما أعرف ولا يحس الذى أحس ، فاستقر رأيي على مفاتحة الأستاذ المرشد فى هذا الموضوع الخطير الذى يوشك إذا لم يعالج ويوضع له حد أن تنهار به الدعوة .

وكان ذلك فى عام ١٩٣٨ على ما أتذكر أو قبل ذلك وكنا فى سفر بالقطار إلى الإسماعيلية وكنت أحد رفقاء الأستاذ المرشد فى هذا السفر فانتهزت هذه الفرصة – وكان من عادة الأستاذ فى السفر أن يحاول الانفراد بنفسه ليستعيد مع نفسه قراءة أكبر قدر من القرآن مغمضاً عينيه – فانتقلت إلى جانبه وطلبت إليه أن يستمع إلى فى حديث خاص يحرج صدرى فأقبل على وأخذت أقص عليه موضوع الأستاذ أحمد السكرى منذ التقيت به فى منزلنا برشيد حتى آخر مرة زرت فيها دار الإخوان بالمحمودية ... فحاول الأستاذ أن يهون الأمر ويشعرنى بعدم أهميته فى أول الأمر ، ولكنه رأى منى جداً لم يكن يتوقعه حيث قلت له : إن هذه الدعوة لم تعد دعوتك وحدك ، ويخيل إلى أنك حملت حديثى إليك على محمل أننى أحدثك فى أمر شخصى يخصك وحدك تتهاون فيه إن شئت ... إن هذا الأمر هو من أخطر ما يتصل بكيان الدعوة ، ومن حق كل فرد انتسب إلى هذه الدعوة وبايع عليها أن يعرف هل لهذه الدعوة قيادة واحدة أم أكثر من قيادة ، وقد رأيت أن أفضى إليك بما يحتبس فى صدرى باعتبارك أحق الناس بالإلمام به وأقدرهم على معالجته فإن أصررت على الاستهانة به فسيكون من حقى أن أكاشف به جميع الإخوان ليتولوا هم علاجه .

فلما رأى الأستاذ منى هذا الأسلوب الجاد البالغ الجد ترقرقت عيناه بالدموع ووجه إلى عبارات كأنما يسرها فى أذنى وقال : «والله يا محمود إننى كنت أعرف كل الذى قلته من قبل أن تقوله وأعرف أكثر منه وقلبى يتقطع ألماً لهذا الذى أعرفه ، ولكننى كنت حريصاً على أن لا يعرف ذلك أحد غيرى ... أما وقد عرفته فأستحلفك بالله أن لا تفضى لأحد به وتجعل ذلك سراً بينى وبينك وأن تدع لى معالجته فى الوقت المناسب فإن مصلحة الدعوة تقتضى إرجاء هذا الأمر الآن» . فقلت له : أعطيك العهد والموثق على ذلك ، ولكن موضوع دار الإخوان فى المحمودية لن أسكت عليها فلقد هددتهم فى آخر زيارة لها إذا لم تزل مظاهر التمرد والنشوز التى بها أن أتقدم بمذكرة إلى مكتب الإرشاد أطلب فصلها من الإخوان المسلمين .. فقال الأستاذ سأبلغ الأستاذ أحمد ملاحظاتك عن المحمودية وسأحاول التقريب بينك وبينه .

وأبلغ الأستاذ المرشد الأستاذ أحمد بملاحظاتى عن شعبة المحمودية وبعزمى على التقدم إلى مكتب الإرشاد طالباً فصلها .. ولما كان الأستاذ أحمد حريصاً على أن لا يذيع أمر المحمودية وما فيه من دلالات على الاستعلاء على قيادة الدعوة فقد جلس إلى ووعد بإزالة ماطلبت إزالته من دار الشعبة وقد فعل .

وكان الأستاذ الأستاذ المرشد حريصاً فى كل مناسبة على التقريب ما بينى وبين الأستاذ أحمد كما كان الأستاذ أحمد حريصاً على تذكيرى بالعلاقة الشخصيةالتى بينه وبين والدىوكنتمنجانبى حريصاًعلى تأكيد احترامى الشخصى له ولكننى أرى حقوق الدعوة فوق هذا المستوى الشخصى، كما أن الأستاذ المرشد كان حريصاً ما استطاع على الإشادة بالأستاذ أحمد وتقديمه فى المواقف التى يعلم أنه يجب أن يقدم فيها ؛ لعل ذلك يمحو من نفسه الشعور الذى يعرف الأستاذ أنهقد يحتمل فى نفسه .

والأستاذ أحمد السكرى كفاءة لا شك فيها ورجل نشأ فى أحضان التصوف وتربى فى البيئة التى تربى فيها الأستاذ المرشد فى المحمودية على يد الأستاذ الشيخ محمد زهران وترافق والأستاذ المرشد فى كل عمل دينى واجتماعى قاما به فى المحمودية ، ولما كان الأستاذ أحمد يكبر حسن البنا سناً وكان حسن البنا لا يزال طالباً صغيراً فى الوقت الذى كانيعمل فيهالأستاذأحمد بالتجارة فكان طبيعياً أن يكون الأستاذ أحمد فى التكوينات الإدارية لهذه الأعمال الدينية والاجتماعية رئيساً فى حين كان الطالب الصغير سكرتيراً .. والأستاذ أحمد ذو مواهب يغبط عليها فهو خطيب مطبوع ذو حنجرة ذهبية يخرج الكلام منها كأنه موسيقى .وذو قوام فارع وسمت جميل وهندام جذاب–إذا رأيت سمته واستمعت إلى حديثه أحسست أنك أمام رجل من أبناء الطبقةالأرستقراطية فى ذلك العهد . ومع أن دراسته الرسمية لم تتعد الثانوية فإن ثقافته واسعة ، وعقليته ناضجة وأفقه فسيح ولسانه قويم ، وغيرته على الإسلام نابعة من قلب عامر، وكان جديراً بالمنصب الذى أسنده الأستاذ المرشد إليه فى الدعوة .

وقد قدمت أن الأستاذ المرشد كان يقدمه فى المواطن التى يعلم أنه يتطلع إلى التقدم فيها . فكان يختاره سفيراً له فى مقابلة العظماء من المسئولين من رجال الدولة ورؤساء الدول العربية ورجال القصر وساسة البلاد ، ولكنه كان كثيراً ما يحذره من الانزلاق فى هاوية الافتتان بمظاهر حياتهم وما يتقلبون فيه من بذخ ورفاهية ، ويذكره بأننا لسنا إلا دعاة إلى الله وحملة لشعلة الإيمان به والرجوع إليه والعمل بدينه .

والوقع أن هذا التحذير وهذا التذكير كان لابد منهما لأن كثيرين منا لا سيما المحتكين منا بالبيئات الأرستقراطية المتعالية الغارقة فى الترف والمظاهر الأخاذة الخادعة ، كانوا ينسون حقيقة مهمتهم وجوهر دعوتهم فى غمرة هذه المظاهر ؛ فلقد كان البون شاسعاً بين حياتنا التى نعيشها وحياة هذه البيئات ، ولولا هذا التذكير والتحذير لفقدنا أنفسنا فى تيارهم .

وقبل أن أنهى تقديمى لشخصية الأستاذ أحمد السكرى للقارىء أنقل من «مذكرات الدعوة والداعية» الذى كتبه الأستاذ المرشد بقلمه ولم أطلع عليه إلا هذا العام (١٩٧٧) فقرتين تتصلان بما جاء فى هذا التقديم ويلقيان بعض الضوء على ما عالجناه من نقاط فى هذا الموضوع :

جاء فى صفحتى ١٣٥ ، ١٣٦ من «مذكرات الدعوة والداعية» التى سجل فيها الأستاذ بعض أحداث الدعوة حتى سنة ١٩٣٩ ما يلى :

خواطر :

حضر إلى اليوم .... و ... من المحمودية . وتكلمنا كثيراً عن جمعيات الإخوان المسلمين. أريد أن أكتب عنه فلا يتسع لى مجال الكتابة فأكل أمره إلى الله ، وأسأل الله أن يوضح لى الطريق الذى أسير فيه .

على أن ملخص خطراتى أن فرعى جمعية الإخوان بالمحمودية وشبرا خيت سوف لا تنفع كثيراً لأنها أنشئت بغير أسلوبى ، ولا ينفع فى بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسى وبمجهود الإخوان الحقيقيين الذين يرون لى معهم شركة فى التهذيب والتعليم وهم قليل . ونفس فرع الإسماعيلية ستحدث فيه تعديلات كثيرة ولكنه سيسير سيراً نافعاً إن شاء الله .. إنه لله ...

إنه قائد موهوب ولكنه منصرف بهذه القيادة وهذه المواهب إلى السفاسف ، يسرف فى وقته لا يقدر له قيمة ، قلبه مملوء بأوهام لا حقيقة لها ومنصرف إلى ناحية لا تثمر إلا العناء ، فالاعتماد عليه ضرب من المخاطرة العقيمة .

والأخ الشيخ ... له أساليبه الخاصة به ، وهو ينظر إلى كأخ زميل فلا يصغى لآرائى إلا قليلا ومن هذه الناحية يكون توحيد الفكرة ضرباً من التعسر ، فالاعتماد عليه مخاطرة كذلك .

نفسك ياهذا وإياك والخلق

ربك ونفسك وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين

من الطريف أن الأخ الزائر من المحمودية رأى هذه الكتابة فى حينها فكتب بخطه فى الصفحة المقابلة هذه العبارة : «سامحك الله أيها الأخ الكريم؛»لقد تغاليت فى ظنك هذا ، وكل ما أرجوه أن تبدى لك الأيام غير ما ظننت . ولست أزكى نفسى فالله أعلم غير أنك لابد راجع إلى صوابك فى ، عالم أن النفس التى أحملها بين جبينى هى نفس علم الله فيها بعلمه السابق الأزلى أنها تضطرم غيرة وتتفتت حسرة وأسى على أما أصاب الإسلام وأهله .

وجاء فى صفحتى ٢٥٢ ، ٢٥٣ ما يلى :

« الحفلة الكبرى للاخوان المسلمين »
« سراى آل لطف الله»

«الإخوان المسلمون صرحاء فى دعوتهم لا ينون عن بذل أوقاتهم ومهجهم فى سبيلها ، ولا تفوتهم الفرص والمناسبات لتدعيم الحق وإزهاق الباطل ونشر لواء الإسلام . فهم قد رأوا فى مجلس النواب والشيوخ معركة كلامية طالما أذكوها ومهدوا لها ، وهم الآن يريدون تدعيمها، وسيجمعون النواب والشيوخ المحترمين فى صعيد واحد بغض النظر عن حزبيتهم وألوانهم السياسية . وسيكون منهم روح القوة والعمل على نصر دين الله ، وسيكون ذلك فتحاً مبيناً له مابعده إن شاء الله . وسيكون هذا الحفل الجامع فى سراى آل لطف الله بالزمالك ...

هذا سيكون حفلا رائعاً تتجلى فيه دعوة الإخوان المسلمين بأجلى مظاهرها إن شاء الله . وسيكون من بين حضرات الخطباء الأفاضل : سمو الأمير شكيب أرسلان ، وسعادة علوبة باشا ، والأستاذ الكبير محمود بسيونى والنائب المحترم سعد اللبان وفضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف دراز والدكتور عبد الحميد سعيد ومدكور بك والدكتور عبد الوهاب عزام .. الخ.

وسيتولى فضيلة المرشد العام شرح وجهة نظر الإخوان المسلمين من روح الإسلام . وسيؤمها كبراء المملكة المصرية ورجال الأحزاب السياسية وقادة الرأى ليسمعوا كلمة الإخوان المسلمين والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

«من آثار حفل تكريم النواب بسراى آل لطف الله» .

«انتهى حفل النواب بسراى آل لطف الله وكان ملحوظاً فيه حضور ممثلين للأحزاب المصرية المختلفة وللطبقات المختلفة كذلك.وقد كان لهذا الحفل آثار بدت طفيفة ولكنها تحولت إلى عميقة عنيفة بعد فترة قصيرة من الزمن . فقد اعتقد فريق من الإخوان أن الأستاذ أحمد السكرى الذى

كان يشرف على نظام الحفل ويقوم بتقديم الخطباء كان يتملق بعضهم والملق يكرهه الإخوان ، وكان يحاول أن يظهر بمظهر المتصدر الآمر الناهي وليس ذلك من خلق الإخوان . وكان يؤثر بعض الناس بالتقديم ويحول بين غيرهم وبين المنصة ، ويوجه الأمور توجيهاً يظهر فيه الغرض الخاص . والإخوان لا يفهمون إلا لغة الوضوح والاستقامة التامة . وفي أول اجتماع بعد الحفل ظهرت هذه الملاحظات وأخذت أدافع عنها وأفسر مظاهرها لهؤلاء الإخوان تفسيراً حسناً وأحملها على أفضل المحامل وهم غير مقتنعين . وكان هذا الشعور نواة لتفسيرات لا حقة لتصرفات كثيرة مشابهة ، ومازال يتضخم حتى صار أساس لفتنة ذهبت بمجموعة من خيار الإخوان وحالت بينهم وبين العمل في هذا الميدان . وسيمر بنا تفصيل ذلك في حينه ولله في خلقه شئون . »

الأستاذ عبد الحكيم عابدين مرة أخرى :

تناولنا شخصية عبد الحكيم عابدين من قبل أكثر من مرة كان عبد الحكيم في خلالها لا يزال الطالب اليافع أو المتخرج الناشىء الذي لم يتمرس بعد بمسئوليات الدعوة وتبعاتها الثقيلة ، ولكن السنوات التي مرت عليه بعد ذلك وأثقلت كاهله بتبعاتها وأحداثها قد جلت مواهبه وصقلت قريحته وكشفت عن قدراته مما جعله أهلا لأن يشركه الأستاذ المرشد معه في التصدي لأعقد المشاكل وأخطر الأمور. وهي المشاكل والأمور التي كانت من قبل وقفاً على الأستاذ أحمد السكري ... ولا أقصد بهذه العبارة أن أقول إن الأستاذ المرشد قد أعفى الأستاذ أحمد مما كان يكله اليه من خطير الأمور وإنما قصدت أن أقول إن الأستاذ المرشد أراد أن يستفيد للدعوة من مواهب عبد الحكيم وقدراته فأشركه مع الأستاذ أحمد في النهوض بالأمور الجسام التي تضاعفت مشاكلها وثقلت تبعاتها بتشعب الدعوة واتساع رقعتها والتحامها ميادين جديدة بحيث أصبحت هذه الأمور الجسام ينوء بحملها رجل واحد .

ولم تكن هذه المواهب وهذه القدرات جديدة على عبد الحكيم عابدين فقد أشرت إلى طرف منها منذ كان طالباً ، وكل ماحدث أن مرور الأيام جلى هذه المواهب وأبرز هذه القدرات. فمع أن عبد الحكيم لم يكن حسن الهندام ولا المتأنق في ملبسه بل كان في هذه الناحية أقرب إلى عكس ذلك فإنه كان بحدة ذكائه واتقاد قريحته وسرعة بديهته ورشاقة لفظه وسعة حفظه للقرآن والشعر وسجيته الأدبية وغامر روحانيته وحسن بداوته (التي أشار إليها المتنبي في قوله : (وللبداوة حسن غير مجلوب) . فإنه كان مقبولا ومحببا إلى نفوس طبقة من الناس لم تكن لتعرف عن الدعوة

شيئاً لولا تسلل عبد الحكيم إلى قلوبها وامتزاجه بنفوسها . لكل كبار أطباء القاهرة ، وكل أساتذة الجامعة وعلية القوم من أعرق الأسر وأكرم العناصر لم يعرفوا الدعوة إلا عن طريق عبد الحكيم . وليس معنى معرفة هؤلاء بالدعوة واقتناعهم بأفكارها أنهم انتظموا جميعاً فى تشكيلاتها أواحتلو مناصبها وإنما قد صار للدعوة باقتناعهم بها صف له صداه فى أوساطهم وفى الرأى العام بعد ذلك ، وهذا كسبه له قيمته وله وزنه . و ما كان لدعوة كدعوة الإخوان المسلمين تريد أن تؤخذ بفكرتها لتكون أساساً لحكم البلاد أن تجد لفكرتها سبيلا إلى واقع الحياة دون أن تقتنع بها هذه الطبقة التى مهمتها التثقيف والتوجيه .

وقد نهض عبد الحكيم بما ألقى على كاهله من جسام أمور الدعوة نهوضاً كريماً وأظهر مقدرة جعلت اسمه يلمع بجانب اسم الأستاذ أحمد ، وسر الأستاذ المرشد لذلك كما سر الإخوان جميعاً أن وجدت الدعوة وقد تضاعفت مسئولياتها من أبنائها من يشارك فى حمل العبء وهذا دليل على خصوبة الدعوة وحسن استجابتها ونجاح أساليبها كما أنه يشير بتحقيق آمالها ووصولها إلى غايتها .

ولكن هل عم هذا السرور جميع الإخوان . ؟

الأستاذ حسين عبد الرازق :

يقتضينا الحديث عن حسين عبد الرازق أن نتحدث عن أسرة عبد الرازق التى ينتسب إليها والتى هو أحد أفرادها وإن لم يكن من الشخصيات البارزة فيها .. وربما كان انتسابه إلى دعوة الإخوان هو الذى أبرزه وجعل لاسمه ذكراً بين أفراد هذه الأسرة . وهذه الأسرة من الأسر الشهيرة المرموقة فى الصعيد وموطنها قرية إبى جرج إحدى قرى مركز بنى مزار بمحافظة المنيا ..وهى وإن كانت أسرة ميسورة الحال إلا أن شهرتها لا ترجع إلى يسر حالها فهناك أسر أخرى أيسر حالا وأوسع ثروة ولكنها لا تحظى بمثل شهرة آل عبد الرازق الذين امتازوا على غيرهم بكثرة المتعلمين وذوى المناصب الكبيرة من أبنائهم .

وكان أبرز أبناء هذه الأسرة فى المجتمع المصرى اثنان هما الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى كان استاذاً للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب حين كنا طلبة بالجامعة والشيخ على عبد الرازق الذى كان مدرساً بأحد المعاهد الأزهرية والذى وضع كتاباً سماه «الاسلام وأصول الحكم» حاول فيه نفى أن يكون للاسلام صلة بالحكم من قريب أو من بعيد ، وقد ثار الأزهر فى ذلك الوقت على هذا التهجم على الإسلام وعلى محاولة تجريده من أصل من أصوله المقررة وحاكم المؤلف

محاكمة علمية انتهت بإصدار قرار بسحب شهادة العالمية منه ... وكان لوضع هذا الكتاب فى تلك الوقت دوافع سياسية كما كان لواضعه طموح سياسى فقد استطاع بوضعه هذا الكتاب أن يصيب عدة أهداف ، لقد أثار ضجة كبيرة وجدلا حاداً فى المجتمعات وفى الصحف لفت النظر إلى واضعه وأكسبه بروزاً فى المجتمع كما أنه أرضى المستعمر – وقد أشرنا فى فصول سابقة إلى محاولات الانجليز تجريد الإسلام من هذه الناحية بالذات . – وإن كان فى نفس الوقت قد أغضب الملك الذى كان يريد الاستزادة من السلطة عن طريق الأزهر مما كان يراه الإنجليز خطراً عليهم.. وكان للماسونية فى تحقيق أغراض الانجليز باصدار هذا الكتاب اليد الطولى فقد كانت هى اليد الخفية التى تتحسس فى المجتمع المصرى الأشخاص الطموحين الذين يصلحون لأداء أدوار معينة على المسرح المصرى .

الأستاذ كمال عبد النبى :

عندما كان يذكر الأستاذ حسين عبد الرازق كان يذكر دائماً الأستاذ كمال عبد النبى، ولست أعرف السبب فى ذلك نلعلهما كانا صديقين التحقا بالدعوة معاً وربما كان التحاقهما بالدعوة عن طريق الأستاذ عبد الحكيم عابدين وإن كان الذى أقطع به هو أن الأستاذ حسين عبد الرازق قد تعرف على الدعوة عن طريق الا ستاذ عبد الحكيم .

نشوء الفتنة وتطورها :

١ – قد يكون نشوء الفتنة قد بدأ بترسبات فى أعماق نفس الدكتور إبراهيم حسن حين انتقال الأستاذ أحمد السكرى إلى القاهرة وأسند إليه الأستاذ المرشد منصب الوكيل العام الذى كان يشغله الدكتور إبراهيم ، فاعتبر الدكتور ذلك إهانة له موجهة من الأستاذ المرشد شخصياً ، ولكنه أسر ذلك الشعور فى نفسه لأن الظروف فى ذلك الوقت لم تتح له أن يفعل أكثر من ذلك.

٢ – يتبين للقارىء من تحليل الشخصيات الذى أثبتناه آنفاً أن الأستاذ أحمد السكرى قد رضى بمنصب الوكيل العام وبإسناد المرشد كل خطير الأمور إليه رضى بذلك كحد أدنى لأنه كان يرى نفسه أكبر من هذا وأحق بما هو أعظم . أما وقد قضت الظروف بهذا القدر فقط فلا بأس بذلك مؤقتاً.واحتكار البروز فى الأوساط الراقية والمجتمعات ذات الشأن كفيل بتوسيع نطاق هذا القدر شيئاً فشيئاً مما يقرب الأمل المنشود ، وإذا لم يتحقق الأمل فإن استمرار احتكار البروز فى هذه الأوساط سيجعل منصب الوكيل العام هو المنصب الذى يدير دفة الدعوة والذى يرجع إليه فى كل شئونها .

٣ – لم يكن إصهار عبد الحكيم إلى الأستاذ المرشد موضع ارتياح من الأستاذ أحمد السكرى خشية أن يكون فى هذا الإصهار تقريب لعبد الحكيم من نفس الأستاذ المرشد لا سيما والأستاذ أحمد يعرف عن مواهب عبد الحكيم ... وإن كان الأستاذ أحمد يثق فى قرارة نفسه أن الأستاذ المرشد لا يعدل بالصلة الروحية أية صلات أخرى من قرابة أو صداقة أو نسب ... وقد تم الإصهار بعد أن اقترن بمؤامرة حيكت له وخرج منها عبد الحكيم سليما معافى بعد تجربة قاسية .

٤ – ماكانت مؤهلات عبد الحكيم الخلقية من هيئة وملبس ومنشأ فى أسرة فقيرة لتؤهله أن يجد لنفسه طريقاً إلى الأوساط الراقية والمجتمعات ذات الشأن ، ولكن فوجىء الجميع وأولهم الأستاذ أحمد بأن مواهب عبد الحكيم وميزاته التى أشرنا إليها أهلته للسبق إلى هذه الأوساط حتى أصبح اسمه ألمع من اسم الأستاذ أحمد فيها ، أضف إلى ذلك أن طبيعته غير الارستقراطية قربته إلى نفوس عامة الإخوان الذين لم يكونوا يأنسون إلى الطبيعة الارستقراطية .

٥ – كان الأستاذ المرشد – كدأب أصحاب الدعوات – يلتمس التأييد لدعوته من جميع الأوساط البيئات . وإذا كانت الدعوة قد قامت على أكتاف عامة الناس وضعفائهم ، فإنه كان يتوق ويتمنى لو أن الله تعالى هدى إلى دعوته الأغنياء وذوى الأبهة والسلطان . وهذه طبيعة لم يخل منها بشر حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم «أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى » .

واستجاب للدعوة بضعة أفراد من هذه البيئات المتعالية ... ومع أن الأستاذ المرشد كان يوسع لهم فى مجلسه ويغدق عليهم من بشره ، فيرحب بمقدمهم ، ويخصهم بتكرمته إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا أن يمتزجوا بالإخوان ولا أن يزيلوا حجاب الكلفة بينهم وبينهم ، فكان لابد لوجودهم فى مجتمع إخوانى من وجود الأستاذ المرشد فيه ، كأنما هو المادة الموصلة بين الفريقين ، فإذا لم توجد المادة الموصلة انقطع التيار .. وما أكثر ما عانى الأستاذ المرشد فى سبيل مزج هذه الفئة بسائر الإخوان ، ولكنه لم يحقق الكثير مما كان يأمل فى هذه الناحية .

هناك أفراد من هذه الطبقة كان امتزاجها بسائر الإخوان امتزاجاً كاملا من أول يوم غشوا فيه مجتمعات الإخوان من أمثال حسن العشماوى ومنير الدلة وهرون المجددى ... لكن أفراداً آخرين لم يمتزجوا مما يدل حقاً على أن الأرواح جنود مجندة ، ماتعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وصدق الله العظيم «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

وكان هؤلاء الأفراد هم الهدف السهل لمحاولى النيل من الدعوة ، وكان الأستاذ حسين عبد الرازق والأستاذ كمال عبد النبى بالتبعية من هؤلاء الأفراد .

٦ — بعد التحاق الأستاذ حسين بالدعوة بفترة غير قصيرة أخذت السراى الملكية فى انتهاج سياسة جديدة تستهدف احتواء أسرة عبد الرازق التى اعتبرت السراى انضمام فرد منها إلى الإخوان وانتظامه عضواً فى الهيئة التأسيسية تطوراً خطيراً يخشى معه أن يستفحل أمرها باستيعابها العنصر الوحيد الذى ينقصها وهو عنصر الأسر الكبيرة ذات النفوذ والثراء ... وبدت خطوات هذه السياسة متتابعة فيما يلى :—

أ) اختير الشيخ مصطفى عبد الرازق فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وزيراً للأوقاف فى وزارة أحمد ماهر .

ب) وبعد ذلك بنحو عام عينه الملك شيخاً للأزهر وهو شرف ما كانت تحلم به الأسرة طوق الملك به جيدها .

حـ) وفى ١٤-٢-١٩٤٦ أنعم الملك على الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخ الأزهر بوسام كبير

د) فى ١٩-٢-١٩٤٧ توفى الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو شيخ للأزهر ، وفى ٢٢ من نفس الشهر تقدمت هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف بالتماس إلى الملك تطلب إصدار عفو عن الشيخ على عبد الرازق بعد عشرين سنة من القرار الذى يحرمه من تولى أى منصب حكومى ... حتى يتولى فضيلته وزارة الأوقاف وقد كان وتولى هذه الوزارة .. وما كان لهيئة كبار العلماء أن تتقدم إلى السدة الملكية بطلب العفو عن الرجل الذى طرده الملك منذ عشرين سنة إلا أن يكون ذلك بإيعاز من الملك نفسه .. وبعد أن صدر العفو وتولى الشيخ على عبد الرازق وزارة الأوقاف قامت الهيئة بمقابلة رئيس الديوان الملكى لإبلاغ جلالة الملك شكرها على هذا التفضل .

هـ) فى ١-٣-١٩٤٧ كانت خطة التمرد التى أعلنها الأستاذ حسين عبد الرازق قد بلغت أوجها فصدر قرار بإيقافه وإيقاف الأستاذ أحمد السكرى والدكتور إبراهيم حسن والأستاذ كمال عبد النبى باعتبارهم خارجين عن الجماعة .

وقد رأيت أن أضع بين يدى القارىء الوقائع بتسلسلها وبتواريخها حتى يلمح فى هذا التسلسل كيف تطورت الأمور بمندوب هذه الأسرة فى الإخوان المسلمين هذا التطور الفجائى

المريب ؛ فلقد التحق حسين عبد الرازق بالدعوة عن طريق عبد الحكيم عابدين كما قدمت ، وكانا لا يكادان يفترقان ، وكان عبد الحكيم جرياً على طبيعته البدوية يقضي مع حسين فى بيته الوقت الطويل ويعتبر بيت حسين بيته فيطلب الطعام بنفسه ويشيع السرور فى البيت بأسلوبه الأدبى المحبب ، وبنفسه الصافية الشفافة ، فإذا حبست الشواغل عبد الحكيم عن زيارة حسين طلبه حسين فى كل مكان حتى يعثر عليه ... وظلت هذه العلاقة على هذا الحال دون فتور نحو عامين كانا خلالهما مثلا كريماً للصديقين الحميمين .

٧ — كانت أقرب شعب القاهرة إلى المركز العام شعبة حى عابدين وكانت تضم مجموعة أكثرها من الطلبة والشباب الصغير من صغار الموظفين ، وبقدر ما كان حسين عبد الرازق على صلة وثيقة بعبد الحكيم عابدين فإنه كان هو وأترابه من كبار القوم لا يختلطون بعامة الإخوان حتى إن هؤلاء الإخوان كانوا يعيبون عليهم هذا المسلك ويعدونه — كما قدمت — ترفعاً لا تقره دعوة الإخوان المسلمين . . ويبدو أن وحياً من الأستاذ حسين أخذ يصل إلى إخوان شعبة عابدين كان من نتيجته أن رأينا هذا الشباب فجأة يشيع قالة سوء عن عبد الحكيم عابدين ورأينا الأستاذ حسين عبد الرازق أول من يتلقفها ويسارع إليها ويتبناها ، ورأينا مجموعة من هذا الشباب تمشى فى ركابه وصارت بطانة له.

وشباب شعبة عابدين بحكم قربهم من المركز العام كانوا العلا أكثر إخوان الشعب اتصالا بالأستاذ عبد الحكيم عابدين ، وكانوا يلوذون به حين يبحث الواحد منهم عن زوجة يطمئن إليها ، وهو يعتبر نفسه والد هؤلاء الشباب ، وقد دخل بيوت أهليهم — كطبيعته البدوية .— وألم بما فى كل بيت من فتيان وفتيات فيتم الزواج على يديه ؛ وباعتبار الزوج والزوجة من أبنائه يزورهما فى بيتهما الجديد ، ويطلب الطعام ، ويمزح معهما المزح الذى يزيدهما امتزاجاً وألفة .

وهذه بلاشك صورة فى ذاتها وهدفها كريمة تستحق الثناء ولكن الذين فى قلوبهم مرض قد يجدون فيها مرتعاً خصيباً لتحقيق أغراضهم وإرضاء نفوسهم .

لقد دخل عبد الحكيم بيت حسين عبد الرازق أكثر مما دخل أى بيت من بيوت إخوان شعبة عابدين فلماذا لم يأت حسين فى يوم من الأيام شاكياً عبد الحكيم دخول بيته ؟ ..

٨ — تقدمت فجأة مجموعة من شباب شعبة حى عابدين إلى المركز العام بمذكرة تتهم فيها الأستاذ عبد الحكيم عابدين بالتحام بيت زميلهم الأخ على عبد المعطى ونرى وسط أسماء الشاكين

اسم شقيق الزوجة . فتهب زوبعة يثيرها أفراد من الماشين فى ركاب الأستاذ حسين عبد الرازق ليترك الأستاذ المرشد كل ما بين يديه من أمور جسام ويتفرغ مهموماً لتحقيق هذه التهمة الخطيرة ويصدر قرارين حاسمين :

الأول : بإيقاف عبد الحكيم عابدين وإبعاده عن المركز العام حتى يصدر قرار بإنهاء هذا الإيقاف أو بجعله دائما

الثانى : بتكوين لجنة تحقيق لا يحضرنى الآن من أسماء أعضائها إلا الاستاذ حسين عبد الرازق والأستاذ كمال عبد النبى ، وقد بقى فى خواطرى هذا الاسمان لأننا يوم صدر قرار تكوين هذه اللجنة تعجبنا وذهب بنا العجب كل مذهب أن يكون هذان هما مثيرى هذه الفتنة — والاستاذ المرشد يعرف ذلك — ومع ذلك يجعلها من أعضاء اللجنة ، وقد ثبت لنا أخيراً أنه كان أبعد نظراً .

وتقوم لجنة التحقيق بالتحقيق فى التهمة فتحدث المفاجأة التى أحبطت تدبيرهم وفضحت مؤامرتهم حين سئل الزوج وهو الاخ على عبد المعطى الذى نوهنا عنه آنفاً فكذب كل ما قيل واستنكر ما أثير وأثنى على الاستاذ عبد الحكيم عابدين أحسن ثناء وقال : إن الاستاذ عبد الحكيم عابدين ما قام بينى وبين زوجتى إلا بما يقوم به الوالد للتوفيق بين أبنائه — ولم يكتف الأخ على عبد المعطى بما قرره أمام اللجنة بل ذهب إلى الاستاذ المرشد وأعاد امامه ما قرره أمام اللجنة ، فلم يسع الاستاذ المرشدبعد ذلك إلا أن يصدر قراراً بإنهاء فترة إيقاف عبد الحكيم عابدين وإعلان براءته .

ولا يفوتنى أن أذكر أننى مع كل ما بينى وبين عبد الحكيم عابدين من صداقة وطيدة وثقة تامة متبادلة فإننى باعتبارى بشراً وجدت نفسى أمام الحملة المسعورة التى أثارها هؤلاءالمرجعون وقد اهتزت هذه الثقة فى نفسى ، ووجدتنى ألقى عبد الحكيم فى المركز العام وأعرض عنه ، وقد لاحظ عبد الحكيم ذلك أكثر من مرة فاقتحم على والدموع تترقرق فى عينيه ووجه إلى عتاباً باكياً أن تؤثر المؤامرة حتى تهز ثقة محمود عبد الحليم فى أخيه عبد الحكيم . . وقد أجبته وأنا أغالب الدموع فى عينى بقولى : معذرة يا عبد الحكيم إنك عزيز على نفسى وحبيب إلى قلبى ولكن الدعوة أعز على وأحب إلى ، ويجب أن تلزم بيتك حتى يتم التحقيق .

وقد قصدت من ذكر ما كان من لقائى مع عبد الحكيم فى غمار هذه الفتنة أن أبين إلى أى مدى وصل تأثير الدعاية الأثيمة التى أثارتها هذه الفئة والتى سهروا على تفجيرها تفجيراً يهز القلوب ويقتلع الثقة من النفوس .

وقد فقدنا فى غمار هذه الفتنة أخاً كان أثيراً لدينا هو الأخ الدكتور إبراهيم حسن الوكيل

الثانى للاخوان.ولست أدرى حتى اليوم هل كان اعتزاله لمجرد تأثره بهذه الدعاية التى ثبت زيفها أم كان لشعوره بأن منصبه فى الدعوة لم يعد يحظى من اهتمام الإخوان بمثل ما كان يحظى به من قبل، فرأى التعلل بالتأثر بهذه الدعاية فرصة يخفى وراءها السبب الاصيل .

ولما ظهرت براءة الاستاذ عبد الحكيم عابدين وأعلنت هذه البراءة ، اعتقد الإخوان أن الامر قد انتهى عند هذا الحد ، وأن كل أخ ممن رتعوا فى الفتنة سيستغفر الله ويرجع إلى مكانه فى الدعوة ولكن الغريب فى الامر أن حسين عبد الرازق وكمال عبد النبى وهما كانا من أعضاء لجنة التحقيق وكانا أولى الناس بالرجوع إلى الحق قد ركبا رأسيهما وأصرا على رأيهما دون مبرر وأعلنا اعتزالهما محتويين الدكتور إبراهيم حسن والعدد الذى كان مفتونا بهما من أعضاء شعبة حى عابدين على أن من هذا العدد من فاء إلى الحق ورجعوا بعد ذلك نائبين .

وهكذا فعل التأثير العائلى فى رجل آمن بفكرة وبايع عليها ثم رأى أنها صارت تتعارض مع مصالح أسرته فضحى بفكرته فى سبيل هذه الأسرة . وصدق الله العظيم حيث يقول « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين».

٩ — فى ذلك الوقت نفسه وفى غمار هذه الاحداث الخطيرة ووسط تلك الضربات المذهلة المفاجئة وعلى أثر عدد من أوجه النشاط الاجتماعى والسياسى برز فيها دور عبد الحكيم عابدين ممثلا للدعوة فى مصر وخارج مصر ؛ فاض الكيل بالاستاذ أحمد السكرى الذى كان يعانى من قديم شعوراً خاصاً أشرنا إليه . . ويبدو أنه رأى هذه الظروف القاسية فرصة سانحة فبدأ بإثارة أن الاستاذ المرشد قد هضم حقه وسلبه اختصاصه وتخطاه بما خص به عبد الحكيم عابدين من اتصالات وتمثيل للاخوان فى مواقف هامة ، وبدت من الأستاذ أحمد بوادر فيها رائحة التمرد لأول مرة وحاول الأستاذ المرشد رده إلى الصواب فقابله بالإصرار فرأى الاستاذ المرشد أن يرجع فى هذا الأمر إلى الهيئة التأسيسية فدعاها إلى الاجتماع وأذكر أن هذا الاجتماع ظل ثلاث ليال متتالية كل ليلة تبدأ من صلاة المغرب وتستمر حتى صلاة الفجر فطلوع الشمس .

وقد بدأ الاستاذ المرشد الحديث فى الليلة الأولى فسرد المواقف التى دعت إلى تكليف الأستاذ عبد الحكيم عابدين بما عهد إليه به وأوضح الأستاذ أن ذلك لا يمس كرامة وكيل الإخوان ولا

ينتقص من قدره فى قليل ولا كثير إلا أن تكون هناك حساسية ، وأن هذه الحساسية لا ينبغى أن يكون لها وجود فى مجتمع قائم على الإيمان والأخوة ثم تطرق من ذلك إلى أن لقائد الدعوة أن يعهد بما يشاء لمن يشاء لأنه أدرى بالأصلح للأداء وله على الجميع حق الطاعة . . ثم طلب إلى الاستاذ أحمدأن يقول ما عنده فشرح وجهة نظره ثم دارت بينه وبين بعض الأعضاء مناقشات تدخل فى بعضها الأستاذ المرشد ، واستمرت المناقشات طيلة الليلتين الأولى والثانية .

وفى الليلة الثالثة فاجأ الأستاذ المرشد الجلسة بإثارة الموضوع الذى كنت تكلمت معه فيه فى أوائل أيام اتصالى بالدعوة فى خلال عامى ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ والذى أشرت إلى طرف منه فى بدء الحديث عن هذه الفتنة . وقد طلب الى الاستاذ المرشد أن أشرح للهيئة الموضوع بالتفصيل ففعلت . . ودارت مناقشات طويلة حول الموضوع استغرقت الليل كله . . ويبدو أن حديثى إلى الهيئة كان له وقع عميق فى نفوس الاعضاء بدا أثره فى مناقشاتهم حتى أيقن الاستاذ أحمد أن الاتجاه الإجماعى للهيئة ينذر بفصله مع أنه كان يطمع أن يجد من الأعضاء من يسند ظهره ويؤازر موقفه على أن الاستاذ المرشد لن يثير إلا موضوعه مع الأستاذ عبد الحكيم عابدين .

وأذن الفجر وأقيمت الصلاة وصلينا خلف الأستاذ المرشد ، ثم استؤنفت الجلسة ، وكان مفروضاً أنها تستأنف لأخذ الاصوات على قرار . . ولكن الذى حدث أن الأستاذ أحمد طلب الكلمة ، فوقف وتحدث حديثاً حلواً كأنما غسلت الصلاة قلبه ، وكان حديثه اعترافاً بأخطائه وتوبة إلى الله منها ورجوعاً إلى الحق وقد طلب فى آخر كلمته الصفح منى نحوه فقمت من مكانى وتوجهت اليه وعانقته وتبادلنا القبلات وكلانا تنهمر دموعه سروراً وفرحاً . . . وكانت ساعة من أجمل ما مر علينا من ساعات الحياة فاضت فيها عيون الجميع وتعانقت قلوبهم وصفت نفوسهم ووقف الأستاذ المرشد فحمد الله تعالى وأثنى عليه إذ وفق إلى هذه النهاية الطيبة وقابل اعتذار الاستاذ أحمد إليه بالإشادة بفضله .

وانقضى الاجتماع وطلعت الشمس وانصرف أعضاء الهيئة كل إلى بلده مسروراً ليحمل إلى إخوانه هذه البشرى المأمولة والنتيجة الطيبة .

ارتداد : ما كاد أعضاء الهيئة التأسيسية يصلون إلى بلادهم حتى فوجئوا بموقف أذهلهم وخلع ألبابهم ، ذلك أن صحف حزب الوفد — التى كانت فى ذلك الوقت تشن حملة على الإخوان — صدرت بنبأ عجيب أن الاستاذ أحمد السكرى الوكيل العام للاخوان المسلمين استقال من الإخوان المسلمين ثم إن صيغة استقالته لم تكن مجرد صيغة استقالة بل كانت تهجماً على الدعوة وعلى مرشدها .

كان اللغز المحير هو أنه لو كان فى نية الأستاذ أحمد الاستقالة فلم لم يستقل فى جلسة الهيئة التأسيسية التى امتدت ثلاث ليال متتالية قبل أن يواجه بالنقد ؟! ولم أعلن اعترافه بأخطائه فبكى وأبكى وأحس لأول مرة أن قلوب ممثلى الدعوة فى كل مكان قد انفتحت له وبعد أن عانقه عناق حب وصفاء من واجهوه بالنقد ؟! . .

لو كان فى نيته الاستقالة لما انتظر حتى يرشق بالسهام من كل جانب . . بل لما حضر هذا الاجتماع الذى كان يعرف أنه سينعقد لمحاكمته . . . ولا ستقال احتجاجاً على مجرد الدعوة لاجتماع يعقد لمحاكمته . . ولكان بهذه الاستقالة قد تفادى موقف الاتهام .

استعرضنا الموضوع من جميع نواحيه وعللناه من مختلف احتمالاته فلم نجد لهذه الاستقالة المفاجئة مع الظروف التى سبقتها معنى ولا مبرراً ولا يمكن أن تتسق مع مقدماتها . . فلابد أن يكون عامل خارج عن الموضوع قد تدخل ، وأخذنا نستعرض ما خطر على بالنا من عوامل حتى اهتدينا إلى العامل الأقرب احتمالا .

كانت قد توطدت صداقة بين الأستاذ أحمد وبين الاستاذ حسين عبد الرازق منذ انضوى الأخير تحت لواء الدعوة ، ولكنها صداقة من نوع آخر غير النوع الذى يربط بين حسين عبد الرازق وعبد الحكيم عابدين انها صداقة ارستقراطية لم يتعودها الإخوان فى مجتمعاتهم . . وكان الأستاذ حسين يعرف مآخذ الإخوان على الأستاذ أحمد وأن الإخوان لا يتغاضون عنها ، كما كان يعلم أنه ليس من السهل قبول الأستاذ أحمد توجيه اللوم اليه من أجل هذه المآخذ . . وكان موقناً بأن جلسة المحاكمة إذا لم تنته بانفصال الأستاذ أحمد فلا أقل من أن تنتهى بتوسيع شقة الخلاف بينه وبين الإخوان . . أما وقد انتهت الجلسة بما لم يكونوا يحتسبون . . بالمصافاة والوئام . . إذن فلابد من التدخل .

لقد كان الأستاذ أحمد السكرى صيداً سميناً لهواة الصيد فى الماء العكر وما كان أكثرهم فى ذلك الوقت . . إن الجميع فى ذلك الوقت كانوا يتربصون بالإخوان شراً ، القصر وأحزابه والوفد الذى خلع العذار فى إعلان حرب دنيئة على الإخوان . . ومن وراء هؤلاء جميعاً الإنجليز الذين هم العدو الاصيل الذى استطاع بمكره أن يجد فى هؤلاء المصريين ما يغنيه عن أن يضرب بيده . . .

ولا شك فى أن حسين عبد الرازق كانت تنطوى جوانحه على عناصر من الخير ، لكن يبدو أن هذه العناصر لم تكن من القوة بحيث تثبت أمام عناصر أخرى تكالبت عليه من أسرته فانهار بين يديها وصارت تحركه بعد ذلك حيث تشاء . . . وكأن أسرته رأت أن تثبت « لسيد البلاد » الذى

بوأ عميدها منصب مشيخة الأزهر والذى احتضن ابنها بعدأن أصدر ضده قانون الحرمان لمدة عشرين عاماً وبوأه منصب وزارة الأوقاف أن تثبت له ولاءها وتفانيها فى خدمته ، ولم يكن فى يديها ورقة تلعب بها فى هذا المضمار أربح من ابنها الذى كان من الإخوان المسلمين فسلطته على أحمد السكرى بحكم الصداقة بينهما .

ولم يكن حسين عبد الرازق أبله حتى يوجه صديقه بعد أن يشحنه إلى الارتماء على أعتاب القصر فإنه يعلم أن أحمد السكرى مهما شحن ضد إخوانه فهو يربأ بنفسه أن يكون فى هذا الموضع . . وإذن فليكن التوجيه إلى الوفد الذى كان فاتحاً ذراعيه لأصغر صغير من الإخوان فما بالك بالوكيل العام للاخوان .

ونجح التدبير الأثيم ، وصارت « صوت الأمة » لسان حال الوفد تطالعنا كل صباح فى صدرها بكلمات للأستاذ أحمد السكرى . . وكان حزننا شديداً وأسفنا عميقاً لا لهجمات الأستاذ أحمد على الإخوان فإن ذلك لم يضر الإخوان فى قليل ولا كثير ، ولكن كان أسفنا أن يقع مثل الأستاذ أحمد فى الفخ ، وأن يتمكن الأعداء لامن الإيقاع به فحسب بل ومن إحراجه فى كتابة يعلمون أنها تقطع عليه خط الرجعة .

كان الأستاذ أحمد السكرى أعز على نفس الأستاذ المرشد من أن يراه مخطئاً فلا يقيل عثرته ، وأكرم عليه من أن يتركه مهما كثرت المآخذ عليه دون أن يأخذ بيده . . ولكن الشحنة التى شحنها الأستاذ أحمد أذهلته عن نفسه وغشت على بصيرته حتى لم يعد يرى أبعد من موطئ قدمه مع أنه ممن لا يغيب عن مثله أن هؤلاء الذين تلقوه فى أحضانهم بغضا عتهم الكذب وهدفهم الاستغلال ولامكان فى صفوفهم لرجل لم يعش منذ حداثته إلا فى رحاب الدين والأخلاق..فإذا استقبلوا مثله لايلبثون بعد أن يستعملوه فى أغراضهم أن ينبذوه نبذ النواة .

ولكن الأستاذ أحمد لم يدع للأستاذ المرشد فرصة يقيله فيها من عثرته بعدأن كتب ما كتب أو بالأحرى والأدق بعد أن استكتبوه ما أرادوا فأوغر بذلك صدور الإخوان نحوه فى كل مكان. وجدير بى أن أقرر أن الأستاذ المرشد كان شديد الحرص على أن يحمى عرض الأستاذ أحمد فلم يكن حتى جلسة الهيئة التأسيسية التى أشرت إليها والتى عقدت خصيصاً لمحاكمته يسمح بأن يعلم بالمآخذ التى أخذت عليه إلا أعضاء الهيئة ليس غير ، وكان الاتجاه المقرر أن لايثير الأعضاء فى بلادهم ما دار فى الجلسة حول هذه المآخذ حتى تظل صدور الإخوان بعيدة عن الحرج نحو الأستاذ أحمد..

أما وقد أوغر الأستاذ أحمد بنفسه صدور الإخوان نحوه فلم يعد للأستاذ المرشد سبيل لإقالة من عثرة ولا لأخذ بيد . . ومن هنا كان حزن الأستاذ المرشد وأسفنا . . وكان ما توقعناه فقد استغل اسمه فترة ثم اختفى ، بدأوا بإبراز كلمته فى صدر الجريدة ثم تقهقروا بها إلى داخلها ثم ألقوا بها فى زاوية منها ثم لما رأوا أن لا أثر لها ولا نتيجة قد تحققت منها عدلوا عنها .

(٥) مع الوفد وجها لوجه

ألمنا فى صفحات سابقة بمناسبات قليلة ألقت بعض الضوء على تصور كل من الهيئتين الوفد والإخوان كل منهما للأخرى ، ويتلخص هذا التصور فى الصورتين الآتيتين :

الوفد يتصور الإخوان جماعة دينية بالمعنى المبتور للدين الذى استقر فى أذهان الناس من أنه « دروشة » وعلى رأس هذه الجماعة شاب طموح يريد أن يستغل هذه الجماعة ليبرز حتى يصل إلى كرسى البرلمان ، وأن هذا الشاب من السهل على الوفد احتواؤه وإرضاء طموحه بصورة أو بأخرى

والإخوان يتصورون الوفد ثروة شعبية ضخمة اختلسها مؤسسه سعد زغلول وورثها من بعده مصطفى النحاس ، وكان ذلك كله قد تم فى غفلة من صاحب هذه الثروة الأصيل وهو الدعوة الإسلامية . . وأنه ما دام صاحب الثروة الأصيل قد استيقظ من غفلته وثاب إلى رشده فقد وجب أن يسترد ثروته . . والإخوان لا يرون اللجوء إلى القوة وسيلة هذا الاسترداد بل يرون انتهاج وسيلة سلمية ملخصها أن نعلن الدعوة الإسلامية عن نفسها ، وتثبت للشعب أصالتها ، وفى هذا الإعلان وحده ما يكفى لإثارة الحنين فى قلوب الأبناء الذين اغتصبوا والذين طالت غربتهم للالتقاء بأبيهم والرجوع فى حضن أمهم .

وعلى هذين التصورين سارت الهيئتان كل فى سبيلها ، فالوفد لا يريد أن يرى الإخوان أكبر من الصورة التى رسمنا إطارها ، والإخوان يعلمون الإطار الذى وضع الوفد صورتهم فيه ، وقد أسعدهم هذا التصور لأنه أتاح لهم فرصة العمل الدائب للاتصال بالجماهير وعرض دعوتهم عليها دون أن يتعرض لهم الوفد بالمعاكسة أو التعويق . . وظل ذلك سنوات اكتسبوا خلالها مكانة مكينة فى قلوب كثرة غالبة من الشعب .

واستيقظ الوفد أخيراً من غروره ، فرأى ثروته المدعاة والتى كان يتيه بها فخاراً قد تسرب أكثرها ، والتفت فوجد هذه الثروة المتسربة وقد اجتمعت عند الإخوان المسلمين . . . فجن جنون الوفد لأنه قد أتى من مأمنه ، فهو لم يكن يحذر هذه الناحية التى كان يراها أهون من أن يعيرها

اهتماماً أو يوليها حذراً . . فكيف استطاعت هذه الجماعة أن تسحب الأرض من تحت قدميه ؟!

الوفد يعلن الحرب على الإخوان :

لقد عاصرت الوفد منذ نشأتى وكنت على مقربة من كبار رجاله، ورأيت بنفسى كيف كان القصر وكيف كانت الأحزاب الأخرى تكيد للوفد وتفعل به وبأتباعه الأفاعيل فكانت تنكل بتابعيه كباراً وصغاراً بل إنها حاولت اغتيال رئيسه . . ورأيت كيف كان الوفد يهاجم القصر ويهاجم الأحزاب فى صحفه وفى خطب رئيسه وفى مجتمعاته ونواديه ... ولكنى لم أر هجوماً للوفد كهجومه على الإخوان المسلمين .

لقد كان هجوم الوفد على القصر وعلى الأحزاب رداً لهجومهم عليه . . هم بدأوه بالاعتداء فهو يرد اعتداءهم ، أما الإخوان فإنهم لم يهاجموا الوفد ولم يتعرضوا له بأدنى إهانة أو اعتداء فلم إذن هجومه الضارى عليهم هجوماً لم يسبق له مثيل .

لقد خلع الوفد العذار فى هجومه على الإخوان وتخلى عن الأخلاق والآداب والمثل واندفع كالمجنون الذى فقد عقله..ونسى أن له أعداء أذاقوه ألوان الهوان والإذلال ولازالوا يذيقونه.. ترك هؤلاء جانبا وتفرغ للإخوان يهاجمهم بكل ما يملك من وسائل ، فسخر لمهاجمتهم صحفه الجاد منها والهازل وألسنته سواء ألسنة الزعماء وألسنة الأتباع ، واستباح فى ذلك الكذب والتمويه والزور والاختلاق . . . ولم يقابل الإخوان هذا الهجوم الغادر بمثله بل تذرعوا بالصبر وواصلوا مسيرتهم فى هدوء وكان الأستاذ المرشد يتمثل بقول الشاعر

من كان يخلق ما يقول فحيلتى فيه قليلة

وقد سبق لى أن ذكرت أن بدء شعور الوفد بخطورة الإخوان عليه كان فى تجربة حكومة إسماعيل صدقى حين قرر الوفد إسقاط هذه الحكومة إبان توليها الحكم وحشد كل قواته الشعبية ووسائله الإعلامية لذلك ولكنه عجز عن إسقاطها حين أعلن الإخوان تأييدهم لها . . وقدتولت هذه الوزارة الحكم فى فبراير سنة ١٩٤٦ . . ويعتبر هذا التاريخ هو الوقت الذى أخذ الوفد يراجع فيه خططه ويعدلها على ضوء هذه المفاجأة التى أذهلته وطارت بصوابه وقد اتخذ تعديلها الأسلوب الآتى :

أقنعت زعامة الوفد أعضاءه بأن خطورة الإخوان المسلمين عليه تفوق خطورة كل أعدائه لأنها تنازعه الزعامة الشعبية نفسها التى هى رأس ماله . . وإذن فلابد من حشد كل الوسائل المتاحة للوفد ضد الإخوان المسلمين . . وهذه الوسائل نوعان :

نوع تقوم به فروع الوفد في أنحاء البلاد ضد شعب الإخوان بها من التحرش بهذه الشعب وتوجيه السباب والألفاظ النابية إلى أعضائها وإثارتهم بمختلف وسائل الإثارة ومحاولة جرهم إلى معارك وقد قامت فروع كثيرة من فروع الوفد بهذه المهمة في مختلف البلاد ولكن تعليمات الأستاذ المرشد كانت عاصمة لهذه الشعب من الاستجابة لهذه المحاولات حيث اعتصموا بالصبر —وهم قادرون على المواجهة والتأديب — ففوتوا على هذه الفروع تحقيق ما كانوا يأملون . . ولم تنجح هذه المحاولات إلا في جهة واحدة هي بور سعيد حيث دبر فرع الوفد بها هجوماً مباغتاً على الإخوان في دارهم فكان لزاماً على الإخوان أن يدافعوا عن أنفسهم فأدى ذلك إلى اصابات في الجانبين تولت النيابة تحقيقها وقدمتها إلى القضاء . . ومع ذلك فقد ذهب الأستاذ المرشد بنفسه إلى بور سعيد واجتمع بأهل بور سعيد من الجانبين وشرح لهم موقف الإخوان وأن دعوتهم تجمع ولا تفرق وأنهم وقد اعتدى عليهم فهم في سبيل جمع القلوب وتصفية النفوس وتوحيد كلمة الأمة قد تسامحوا في حقهم . . أما في الجامعة فقد حاول الطلبة الوفديون التحرش بالطلبة الإخوان فقمعهم الإخوان بوسيلة ألجمتهم حين احتكم الطرفان إلى عامة الطلبة إذ دعا ممثلو الوفد إلى الإضراب ثلاثة أيام ودعا ممثلوا الإخوان إلى الاضراب يوما واحداً فاستجاب الطلبة إلى رأى الإخوان ورفضوا الرأى الآخر ، كما قام الوفديون بمحاولات أخرى في الجامعة باءت كلها بالفشل .

والنوع الآخر من الوسائل تقوم به الصحافة الوفدية التي كانت تمثلها في ذلك الوقت صحيفة « المصرى » التي كان يصدرها الأستاذ محمود أبو الفتح وأخواه الاستاذان حسين أبو الفتح وأحمد أبو الفتح ومع أن هذه الجريدة كانت جريدة حزبية تمثل حزب الوفد وتطلع كل يوم على الناس بآرائه المعارضة للحكومات المختلفة ومع أنها كانت تفيض أنهارها في كل عدد منها بالمقالات الضافية المؤيدة للوفد فإنها كانت تفيض أيضاً بروح الجد ونزاهة القلم وعفة اللسان . . ولذا فإنها كانت أوسع الصحف اليومية انتشاراً وأكثرها قراء وأقواها تحريراً وأغزرها مادة وحيوية . .

وأرادت زعامة الوفد صحيفتها هذه المعبرة عن آرائها أن تفسح من صفحاتها للحملة التي يعدها الوفد على الإخوان المسلمين ولكن الأستاذ محمود أبو الفتح وأخواه عارضوا في ذلك وربأوا بجريدتهم أن تلطخ صفحاتها بالبذاءة والكذب والاختلاق . . فعدت زعامة الوفد ذلك تمرداً من آل أبي الفتح وقررت أن تصدر صحفاً أخرى يكون أصحابها الممثلين الرسميين للوفد حتى لا تتمرد على نشر ما يقرر الوفد نشره فأصدرت صحيفتين يوميتين هما « الوفد المصرى » و « صوت الأمة » وقد تقدم بطلب الترخيص بإصدار الجريدة الأخيرة (صوت الأمة) إلى وزارة الداخلية الأستاذ محمد صبرى أبو علم باشا السكرتير العام للوفد شخصياً لما يعقده الوفد على هذه الجريدة من آمال

كبار وحشد لتحريرها مجموعة من أعظم الكتاب وأشهرهم منهم الدكتور طه حسين والدكتور محمود عزمى والدكتور عزيز فهمى والاستاذ محمد عبد القادر حمزة ، وصدر العدد الأول منها فى أول أغسطس سنة ١٩٤٦ . وقد يكون من الأحداث الهامة ذات الدلالة فى هذا الصدد أن العدد الأول من جريدة الإخوان اليومية قد صدر فى ٥ مايو سنة ١٩٤٦

وقامت جريدة « صوت الأمة » بالمهمة الملقاة على عاتقها نحو الإخوان فى أول الأمر بحذر ودون إسفاف ، ولعل الوفد كان يتربص بالإخوان موقفاً حرجاً مما يعترى الدعوات فيكون هجومه المركز فى هذه الحالة إجهازاً على الإخوان كما يجهز العدو الضعيف الغادر على جريح . . فلما اعترى « الإخوان » هذا الموقف الذى كان يترقبه وكان من صنع القصر وأحزابه رآها الوفد الفرصة السانحة لتوجيه هجومه إذ يكون الإخوان قد حصروا بين نارين .

لما بدأ الوفد يشم رائحة الفتنة الثالثة بين صفوف الإخوان أخذ يعد العدة لإذكاء نار حملته على الإخوان وإمدادها بوقود جديد من البذاءات والسفاهات وهجر القول.وراح ينحط بها فى هذا الحضيض مستمداً من خيوط الفتنة وقائع اختلاقها اختلاقاً . . وأخذت « صوت الأمة » تخرج علينا كل صباح بسيل من الشتائم والسباب وألفاظ يعاف القلم أن يشير إليها تحت عنوان أوحى إليهم به ما يعتمل فى صدورهم من حقد هو « هذه الجماعة تهوى » ويبدلونه فى بعض الأيام بالعنوان « هذه الجماعة تسقط » .

وقد استخدمت « صوت الأمة » إخواننا الذين أشرنا إليهم قبلا والذين صنعوا الفتنة الثالثة ورتعوا فيها ، استخدمتهم بعض الوقت حتى إذا استنفدوا أغراضهم ألقوا بهم فى سلة المهملات وبدأوا فى أسلوب جديد من أساليب الافتراء بنشر قوائم طويلة بأسماء أعضاء من مختلف البلاد استقالوا من الإخوان وكان هذا برهاناً جديداً على كذب ما تنشر هذه الجريدة فكل بلد من هذه البلاد التى نشرت أسماء المستقيلين منه يعرف أن هذه الأسماء لم تكن فى يوم من الأيام أعضاء فى الإخوان وإنما هم من الوفديين .

وقد يظن القارئ فى تعبيراتى عن بذاءة ما كانت تنشره «صوت الأمة » بعض المبالغة ، ولكن أعداد هذه الجريدة مازالت تحتفظ بها المكتبات العامة فى القاهرة والإسكندرية وبعض العواصم فليرجع إليها من شاء . . وأنا ذا شخصياً – وقد كنت ملامساً للأحداث وأعرف الناس بكذب ما تنشره الجريدة – قرأت ما نشرته « صوت الأمة » فى صبيحة أحد الأيام وكان بأسلوب تعف العاهرات عن النطق به فأثارنى حتى إننى ذهبت إلى الاستاذ المرشد وسألته منفعلا : هل قرأت ما كتبته

« صوت الامة » اليوم ؟ فأجابنى مبتسما : نعم قرأته إنها ليست « صوت الأمة » إنها « صوت آلامه » وكان الاستاذ المرشد يشير بذلك إلى ما يشتعل فى صدور هؤلاء الناس من الحقد وما يتميز به جحيم حقدهم من الغيظ لفداحة ما ألحقه الإخوان بهم من خسائر شعبية لا يسهل تعويضها .

على أن سفه هذه الجريدة وإسفافها لم تسلم منه جريدة « المصرى » وهى لسان حال الوفد والتى لولاها لما وصلت آراء الوفد وتوجيهاته إلى الشعب فهى وحدها من جرائده التى تصل كل صباح إلى كل بيت وإلى كل يد أما جرائده الاخرى فهى محدودة الانتشار ، ومع ذلك فإن « صوت الأمة » فى نفس الوقت الذى كانت تهاجم فيه الإخوان كانت تهاجم « جريدة المصرى » لتقول فى عددها الصادر فى ١٢ – ٥– ١٩٤٧ تحت عنوان « جريدة المصرى وأخبار اليوم إخوان » : ليس عجيباً أن تمضى جريدة « المصرى مع سنن «أخبار اليوم » فى محاولة إلصاق كل اتهام إلى الوفديين خدمة للحكومة وللعهد الحاضر ، لأن الجريدتين شركة واحدة وأغراض واحدة . . ولا يغرن القارئ محاولة هذه الجريدة الإيهام بأنها وفدية « معتدلة » فذلك زعم واضح الكذب ومنهار من تلقاء نفسه وإن كان أصحابه يتعلقون بأهدابه لأن لهم فيه مآرب أخرى .

نماذج من عفة الإخوان فى الرد على الحملة :

ما كان لنا حين نعرض نماذج من رد الإخوان على هذه الحملة أن نسمح لأنفسنا بأن نورد نصوصاً من فحش القول الذى لطخوا به صحيفتهم . . على أن ما كتبه الإخوان فى هذا الصدد لم يكن رداًعلى سفههم وإنما هى كتابة موضوعية بعيدة كل البعد عن أساليبهم .

(١) بعد عدة أشهر من بدء الحملة الوفدية الأثيمة وفى أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٧ كتب الاستاذ المرشد خطاباً إلى النحاس باشا رئيس حزب الوفد سلمه إليه الاستاذ عبده قاسم السكرتير العام للإخوان فى ذلك الوقت جاءت فيه الفقرات الآتية :

«إن الوفد يعلن خصومته للإخوان ويحاربهم بأسلحة وأساليب غريبة عجيبة لا تتفق مع خلق أو دين أو مصلحة . . . وصحفه تفيض أنهارها بألفاظ جافية تشمئز لها كل نفس مهذبة» .

«إن الوفديين لا يزالون يفكرون بعقلية سنة ١٩٢٠ فيقولون : إن الأمة هى الوفد والوفد هو الأمة وإن الشعب قد منحه توكيلا لا نقض فيه ولا إبرام . ويسقطون من حسابهم ربع قرن فى حياة هذا الوطن ، تبدلت فيه الأرض غير الأرض وتغيرت النفوس . . وانتقل إلى الدار الآخرة أكثر الوكلاء والموكلين على السواء . . وهذا التفكير تخلف عن ركب الحياة . . وعلى هذا الأساس يحارب الوفد الإخوان كما حارب الشبان وكثيراً من الجماعات» .

« إن الوفد فى أيامه الأخيرة قد تخللت صفوفه طوائف وأفواج من ذوى والآراء الخطرة والمبادىء الهدامة الذين لا يدينون بغير الشيوعية» .

«وهل ترون أن الوفد قد أدى واجبه بهذا الموقف السلبى الذى يقفه فى هذه الساعات العصيبة فى تاريخ الوطن مع أنه كان ولا يزال فى وسعه أن يعمل الكثير لو أراد . وأية فائدة تعود على الشعب من مهاجمة صدقى باشا فى سهوم جيا توق وشغل الناس بهذا الهراء أو من مهاجمة حافظ ومضان باشا بغير الحق وهو الرجل العف اليد واللسان ... إنه فى استطاعته أن يرسل الوفود إلى عواصم الدول الأجنبية وإلى مقر هيئة الأمم المتحدة تناضل عن حق مصر» .

٢ — وعقب هذا الخطاب أخذت جريدة الإخوان اليومية تنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان «بطلان التوكيل» تأتى فيها بحيثيات كثيرة تثبت أن التوكيل الذى منحته الأمة المصرية الوفد المصرى سنة ١٩١٨ قد أصبح باطلا بطلانا أكيداً .

٣ — وفى أواخر شهر يونية سنة ١٩٤٧ نشرت جريدة الإخوان اليومية مقالا للأستاذ المرشد جاء فيه : «والخصومة بيننا وبين القوم أى الوفديين ليست خصومة شخصية أبداً ، ولكنها خصومة فكرة ونظام . هم يريدون لهذه الأمة نظاماً اجتماعيا ممسوخا من تقليد الغرب فى الحكم والسياسة ونحن نريد لها وضعاً ربانيا سليما من تعاليم الإسلام» .

من آثار هاتين الفتنتين :

لم تكن خسائر الإخوان فى هاتين الفتنتين ذات بال ، فإن فقد الأستاذ حسين عبد الرازق واثنين أو ثلاثة من أمثاله وخروج الأستاذ أحمد السكرى لم ينل من بناء الإخوان أى منال ، بل أستطيع أن أقرر أن خروج هؤلاء وحملة الوفد بعد تآمر الأحزاب الأخرى قد أبرز الإخوان أمام الرأى العام الداخلى والخارجى لأول مرة بناء شامخاً له معنى الاستقلال فلا هو شرقى ولا هو غربى .. وكل الذين كانوا يتهمون الإخوان بأنهم يعملون لحساب أحزاب القصر ، وكل الذين كانوا يتهمونهم بأنهم يعملون لحساب الوفد أسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، واعترف الأعداء قبل الأحباء بأن الإخوان المسلمين دعوة مستقلة .

كما أن الجميع بعد أن رأوا ثبات الإخوان فى مواقعهم دون أن تؤثر فيهم حرب الوفد المستعرة المسعورة ... مع أن فى يد الوفد أسلحة ماضية يستطيع القضاء بها على خصومه حين يوجه إليهم بعضها وأن يقضى عليهم بين عشية وضحاها .. ولكنه مع الإخوان لم يدخر سلاحاً إلا شهره

أقر الجميع بعد ذلك أن الإخوان بناء منيع لا ينال بل إنهم القوة العظمى على أرض مصر والبلاد العربية .

أما الإخوان أنفسهم فإنهم قد ازدادوا إيماناً مع إيمانهم بأن الاعتصام بحبل الله هو السلاح الذى لا يفل ، فازدادوا استمساكا بدعوتهم ، وثقة فى قيادتهم ومحبة فيما بينهم .. وأيقنوا أن لهذه الدعوة حقا على معتنقها أن يهبها كل نفسه ويحصر فيها كل آماله ويؤثرها على أهله وماله وعشيرته وإلا كان ممن يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، فوهبوا دعوتهم كل نفوسهم وآثروها على أهلهم ومالهم وذويهم .. وقد اتضح صدق إيمانهم يوم دعاهم داعى الجهاد إلى فلسطين .

مدى كراهية الملك للإخوان :

أثبتت هاتان الفتنتان بما لا يدع مجالا للشك أن جوانح الملك فاروق تنطوى على كراهية عميقة وحقد دفين على الإخوان المسلمين . وأن كراهيته لهم فاقت كل تصور ، فهو يكره الوفد كراهية ورثها عن أبيه ، وكان المعتقد أن كراهيته للوفد تفوق كل كراهية ، فلما وقعت هذه الفتنة تبين أن كراهيته للإخوان تفوق كراهيته للوفد ، فلعله كان الموعز إلى آل عبد الرازق بسحب ابنهم من الإخوان ولعله كان الموعز إليهم بالوسوسة إلى أحمد السكرى لينقلب على الإخوان .. ومع ذلك فقد رضى عن التجائه إلى الوفد مع أن التجاءه إلى الوفد فيه تعزيز للوفد .. وقد طابت نفسه أن يعزز الوفد ما دام هذا التعزيز يرجى أن ينال من قوة الإخوان .

(٦) الشيوعية

لم أكن أجهل وجود تيار شيوعى فى مصر . وباعتبارى من دعاة الفكرة الإسلامية ، كنت أدرس الشيوعية باعتبارها فكرة اقتصادية واجتماعية وسياسية وأدرس أهدافها ووسائلها ومراميها

وكانت لى تجربة قديمة فى أوائل الأربعينيات مع شابين جمعنى بهما قطار الدلتا وسط مجاهل محافظة البحيرة ، وكانا فيما يبدو لى من مظهرهما أنهما موظفان صغيران فى وزارة الزراعة أو فى دائرة زراعية . وكان باديا فى بريق أعينهما حينما جمعهما ديوان القطار بى أنهما سعيدان إذ أتاحت الظروف لهما فرصة الحصول على صيد سمين .. وأخذا ينصبان شباكهما حولى وأنا أتغافل حتى ينكشف لى ما يهدفان إليه فلما تكشف لى أنهما شيوعيان – وكنت خبيراً بأسلوب الشيوعيين فى المناقشة – التفت إليهما وطلبت إليهما أن يشرحا لى كل ما يعرفان عن الشيوعية من مزايا وتعهدت

لها بأن لا أقاطعهما طالما كانا يعرضان على ما عندهما .. على أن لا يعترضانى بأى مقاطعة طالما جاء دورى فى عرض ما عندى عليهما - وهذا الأسلوب الذى اشترطته لإجراء المناقشة هو الأسلوب الوحيد الذى لا يدع للشيوعى مجالا لتمييع المناقشة وتشعيبها إذا ما وجد أن من يناقشه أقوى منه حجة - وبعد أن فرغا من عرض ما عندهما أخذت فى شرح الفكرة الإسلامية لها بطريقة التقسيم إلى بنود يتناول كل بند منها ناحية من نواحى الحياة وطريقة معالجة الشيوعية لها ثم طريقة معالجة الإسلام لها ثم أوازن بين العلاجين مثبتاً نواحى النقص فى العلاج الشيوعى وكيف تلافى العلاج الإسلامى هذا النقص فإذا أنهيت البند أخذت إقراراً منهما بتفوق العلاج الإسلامى .

حتى أنهيت البنود كلها وأخذت إقراراً منهما بتفوق العلاج الإسلامى عليها جميعاً ، طلبت منهما إقراراً بتفوق الفكرة الإسلامية على الفكرة الشيوعية فى إصلاح المجتمع فأقرا بذلك ....

فلما طلبت إليهما بمقتضى هذا الإقرار أن يتركا الشيوعية إلى الإسلام رفضا ، فتعجبت لهذا الرفض الذى ينافى العقل والمنطق وسألتهما عن سبب الرفض مع أنهما سلما بتفوق الفكرة الإسلامية فردا على رداً كأنما أنفذا خنجراً فى صدرى قالا :

إن الفكرة الإسلامية أكمل وأتم فكرة للإصلاح وليس لها دولة تحميها ، ولكن الفكرة الشيوعية على نقصها لها دولة تحميها .

كانت هذه إحدى تجاربى مع الشيوعيين رأيت إثباتها لما فيها من دلالات ، كما كان للإخوان تجارب كثيرة فى هذا الميدان بل وضع الإخوان مؤلفات تناولوا فيها الشيوعية من مختلف وجوهها وقابلوها بالفكرة الإسلامية الرصينة .

كنت أعرف كل هذا عن الشيوعية وأعرف أكثر منه ، وكنت أرى فى معاناة الطبقات الفقيرة فى بلادنا موتعاً خصيباً للشيوعية ،. ولذا كانت دعوة الإخوان تحتضن كل تجمع عمالى صناعى أو زراعى ضد مستغليهم من أصحاب المصانع وملاك الأراضى ، وكانت شعب الإخوان فى المناطق الصناعية كشبرا الخيمة والإسكندرية . وفى المناطق الزراعية ككفر الشيخ موئلا لنقابات العمال والعمال الزراعيين فى الوسايا ، وكان محامو الإخوان سنداً دائماً لهذه التجمعات العمالية ضد أصحاب العمل وملاك الأراضى وكان فى المركز العام قسم خاص للعمال لرعاية مصالحهم وحل مشاكلهم ونشر الوعى الإسلامى فى أوساطهم .

ولم يكن الإخوان غافلين عن الشيوعية باعتبارها فكرة تريد أن تغزو بلادنا - والفكرة لا يقهرها إلا فكرة - فلم تكن وسيلة الإخوان إلى قهر الشيوعية أن يتعرضوا لها بالنيل منها

وتسفيه أهدافها بل كانت وسيلتهم التى رسمها الأستاذ المرشد هى توضيح الفكرة الإسلامية ونشرها على أوسع نطاق ، فنى نشر الفكرة الإسلامية فى مجموعة من الناس فى مكان ما تحصين لهذه المجموعة ولهذا المكان ضد أى غزو يراد سواء أكان الغزو المراد شيوعيا أو غير شيوعى .

كان الأستاذ المرشد يرى أن الوقت الذى نصيبه فى مهاجمة فكرة كالشيوعية نحن أحوج إليه لنشر فكرتنا وتوضيح معالمها وأهدافها .. حتى الكتب التى ألفها بعض الإخوان عن الشيوعية لم يكن المقصود منها أكثر من تفقيه الإخوان فى الأفكار التى يضطرب بها العالم من حولهم .

ومع أن الإخوان لم يتعرضوا للشيوعية تعرضاً مباشراً مما يعده الناس مقاومة إيجابية ، فإن الشيوعية العالمية كانت تعد الإخوان المسلمين ألد أعدائها وأكبر عائق فى طريقها ، فى حين كان حكامنا البلهاء يعتقدون أنهم بقوانينهم التى اعتبرت الشيوعية جريمة يعاقب مرتكبها بالسجن والنفى هم العائق الأكبر أمام الشيوعية ، ولكم استغلت الشيوعية بلاهة هؤلاء الحكام واتخذت من هذه القوانين التى سنوها والقضايا التى نشأت عنها أسلوباً قوياً من أساليب ترويج فكرتها والدعاية لها ولفت النظر إليها واستجلاب العطف عليها باعتبارها فكرة مضطهدة ومجنيا عليها . وكم كسبت الشيوعية أنصاراً عن هذا الطريق ، وهؤلاء الذين عطفوا على الشيوعية واستجابوا لها يلتمس لهم العذر لأنهم رأوا فكرة تضطهد دون يروا فكرة بديلة يعرضها عليهم هؤلاء الحكام .. وهكذا فقد الشعب نفسه بين دعاة يحملون فكرة – أيا كانت هذه الفكرة – وبين حكام يعيشون دون أن يكون لهم مبدأ محدد ولا فكرة فى الحياة وكل بضاعتهم البطش والتنكيل .

ولقد كنت من أشد الناس اقتناعاً بخطة الأستاذ المرشد فى مقاومة الفكر الهدامة بإغفال ذكرها وعدم التعرض لها أو الهجوم عليها ، واستغلال كل الوقت والجهد فى توضيح فكرتنا ونشرها على أوسع نطاق ، كما كنت أعرف أن الشيوعية العالمية تتميز غيظاً من هذا السلاح الإخوانى الرهيب ، وأعرف أننا بهذا السلاح – الذى يبدو للبلهاء سلبياً – قد أغلقنا أمامها مئات البلاد وآلاف المجتمعات فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية .

ومن المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية التى تولت زمام العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية قد رصدت آلاف الملايين من الدولارات لمقاومة الشيوعية فى أوروبا وفى أنحاء العالم ، واتضح بذلك أن الشيوعية قد صارت منذ وضعت الحرب أوزارها أعدى أعداء أمريكا وانجلترا والعالم الغربى كله ... وتمشيا مع هذه الحقيقة كان يجب أن تبارك هذه الدول جهود الإخوان المسلمين التى قضت على آمال الشيوعيين فى أن يجدوا لهم موطن قدم فى مصر .

ولكن يبدو أن هناك عدواً تعتبره هذه الدول أحق بمعاداتها من الشيوعية ، وأن هذا العدو هو الإسلام والدعوة الإسلامية .. ولا أدرى لم تقف هذه الدول من الإسلام هذا الموقف مع ادعائها أنها تعمل من أجل خير البشرية جميعاً ومن أجل المحافظة على حقوق الإنسان .. وهذه هي نفسها الأهداف التي يعمل الإسلام لتحقيقها .. فلم إذن العداء إلا أن تكون هذه الدول تغرر بالشعوب حين تدعى أهدافاً تعمل في حقيقة الأمر على عكسها .

والجديد الذى لم أكن أعرفه عن الشيوعية والذى كان مفاجأة لى هو أن الشيوعية تستبيح لنفسها أن تستغفل الناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وأنها تستغل جهلهم بمجريات الأحداث استغلالا قذراً وأنها فى سبيل ذلك تستعين بالكذب وتلجأ إلى الاختلاق .. إننى أفهم أن تلجأ الشيوعية إلى الكذب لتدعى وتعلن أنها ليست ضد أمانى الشعوب فى الحرية والاستقلال وإدارة شئونها بنفسها فى الوقت الذى تسلب شعبها نفسه فى روسيا حريته وتحرمه أدنى حقوق الإنسان فى اختيار عقيدته ودينه ، فإنها أى الشيوعية تستطيع أن تموه على هذا الاعتداء على الحرية بألوان خادعة من المظاهر الدعائية التى قد تخدع بعض الناس .. ولكن الكذب على الحقائق المسجلة فى الأوراق الرسمية والأرقام المعلنة فإنه كذب قد تخطى حدود الكذب إلى ما يسمى بالفجور .

تأسست شركتا الجريدة والطباعة للإخوان المسلمين وسجلتا فى الإدارة المختصة بالحكومة المصرية باعتبارهما شركتين مساهمتين ، ولم يتعد مجموع رأس مالها معا مائة ألف جنية .. وقررت الهيئة التأسيسية — كما قدمنا — أن يستقيل الأستاذ المرشد من وظيفته فى وزارة المعارف العمومية ليتفرغ لإدارة الشركتين وتحرير الجريدة اليومية ، لقاء مرتب شهرى قدره مائة جنية ، ومنحته الهيئة التأسيسية أسهماً فى حدود مائة سهم قيمتها أربعمائة جنية ليكون ضمن هيئة المؤسسين كما يطلب القانون .

ولم يكن للأستاذ المرشد إيراد قط غير مرتبه من الوزارة من قبل ثم مرتبه من الشركتين من بعد وهذه الأسهم المائة الاسمية .. ورجل مثله له بيت وأسرة وأولاد وظل ينفق على دعوته من مرتبه منذ أول يوم قام بالدعوة فهل يبقى له مدخرات يدخرها ؟

لقد كان بيته حتى آخر لحظة فى حياته شقة فى الدور الأرضى من أربع حجرات فى بيت قديم فى شارع خلف المركز العام القديم فى الحلمية الجديدة ، ولم يكن به من الأثاث إلا ما أبقت عليه يد البلى بعد عشرين عاماً من أثاث مدرس فى مستوى زملائه .. فإذا علمت أنه كان من أبر الناس بأهله وأنه كان يبر أبويه الشيخين فأى مدخر من مال يدخره مثله ؟

فى أواخر الأربعينيات — بعد أن أصدرت حكومة السعديين قرار حل الإخوان بأيام — كنت أؤدى عملى فى أحد محالج القطن فى دمنهور ، وكانت لى صلات طيبة بكل العاملين فى المحلج ، وكان لأحد العاملين بالمحلج من أهل دمنهور ولد فيه كثير من السذاجة وكان يعمل بالمحلج أيضا .. وكدأب كثير من العاملين فى استشارتى فيما يعن لهم جاءنى هذا الشاب الساذج وقال لى : يا فلان .. لقد انضممت إلى الشيوعيين فقلت له متى ؟ قال : منذ أسبوعين فى خلية — سمى لى زملاءه فيها كما سمى لى رئيسها ولم أكن أعرفهم — وقال لى : لقد وزعوا على كل منا فى الاجتماع الأخير ورقة مكتوب فيها معلومات وأرقام وطلبوا منا حفظ — استظهار — هذه المعلومات والأرقام وأنا غير قادر على حفظها وسيقومون بتسميعها لنا فى الاجتماع القادم فما رأيك هل أتركهم لأنى لم أكن أتوقع أن يمتحنونا وقد تركت المدرسة كما تعلم لأنى أكره الامتحانات .. فطلبت منه الورقة فأعطانيها فقرأت فيها ما أذهلنى :

قرأت فيها أن حسن البنا هو أكبر رأسمالى فى مصر وأنه يملك أسهما قيمتها ربع مليون جنيه (بالأرقام والحروف) فى شركة الجريدة ، وربع مليون جنيه فى شركة الطباعة ونصف مليون جنية فى شركة المناجم والمحاجر (وهى شركة إخوانية رأسمالها لم يصل إلى عشرة آلاف جنيه) ونصف مليون فى شركة كتبوا اسمها ولكنى لم أسمع عنها من قبل .. وهكذا أنصاف ملايين وأرباع ملايين فى شركات لا وجود لها حتى صار مجموع ما يملكه أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه

وأذكر حينذاك أنى أطلعت صديقاً لى بالمحلج كان يحسن الظن بالشيوعية على هذه الورقة فتعجب من جرأة هؤلاء الناس الذين افترضوا الجهل والغباء فى غيرهم فذهبوا فى الاختلاق إلى هذا الحد ، وقال : إنى كنت أعتقد قبل قراءة هذه الأرقام وهذه الأسماء للشركات الوهمية أن الشيوعيين قوم جادون ولكننى الآن أصبحت أراهم قوما هازلين .

وقد أيقنت بعد قراءة هذه الورقة أن هناك تواطؤاً بين الغرب والشرق أى بين الرأسمالية والشيوعية على إبادة هذه الدعوة الإسلامية من الوجود .. أما الغرب فأدواته هم حكامنا وأما الشيوعية فإنها تفترس الشباب الغافل خالى الذهن فى غيبة الحقائق عنه وفى ظل حكم إرهابى كمم أفواه البرءاء ليطلق رعاع الشيوعيين عليهم ألسنة حداداً وألسنة كذاباً آمنين من أن يعترض طريقهم من يستطيعون أن يفضحوا كذبهم ويدحضوا افتراءاتهم .

(٧) المحاكمات والتعذيب

فى الوقت الذى كانت قيادات المصريين المتمثلة فى الأحزاب السياسية لاهية فى لعبة

التسلق إلى دست الحكم عن طريق التقرب إلى المستعمر كان شباب الإخوان المسلمين ساهراً أرقاً تتمزق نفسه ألماً وحسرة على ما آلت إليه حال البلاد من فوضى خلقية وانحلال اجتماعي وذل سياسي . يتلمسون طريقاً لإنقاذ البلاد وتخليصها من هذا الدمار الحائق بها ، وكلما استدوا إلى طريق وجدوه بعد قليل مسدوداً ، والذي يسده هو تضامن من الملك وحكام السياسة مع المستعمر تضامن الخادم المطيع لسيده، كل همه أن يرى سيده راضيا عنه ، فهولا يبالي مايفعل مادام ذلك يرضي السيد .

وإذا سدت الطرق المعدة للوصول وأغلقت الأبواب فلامناص من التماس منافذ أخرى مهما أحاط بها الخطر .. لقد كان هذا الشباب الطاهر — الذي وهب نفسه لبلاده — يرى بلاده بيتاً تشتعل النار داخله وقد أغلقت أبوابه ووقف على كل باب حراس يذودون الناس عنها ، كلما حاولت مجموعة منهم دخول البيت من باب من أبوابه لإطفاء الحريق وإنقاذ سكان البيت حال هؤلاء الحراس بينهم وبين الدخول ... فهل أمام هذه المجموعات من ذوي المروءة والنجدة إلا اقتحام البيت بأية وسيلة يستطيعونها ؟...

كان هذا شعور شباب الإخوان وكان هذا حالهم ؛ وجدوا أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر ؛ إما أن يسلموا بالأمر الواقع وقد يئسوا من دخول البيت من أبوابه فيسكتوا مع الساكتين وهم يرون النار تلتهم البيت من داخله مؤثرين السلامة غير عابئين بأهليهم الذين في داخل البيت ، وإما أن يخاطروا باقتحام البيت من منافذه الأخرى .

كانت الفكرة المسيطرة على هذا الشباب هي أنهم لابد من أن يقوموا بعمل ما مهما كانت خطورة عواقبه لفصم عرى التضامن الأثيم بين حكام مصر وبين المستعمر ، لأن كل الشرور التي تحيق بالبلاد لا تأتي إلا من هذا التضامن ... فالمستعمر أجبن من أن يواجه البلاد سافراً وجهاً لوجه ؛ أما بتضامن هؤلاء الحكام معه فإنه يستطيع أن يفعل بأيديهم ما يشاء .. وإذن فإن فصم هذه العرى بينهم وبينه هو وسيلة التخلص منه .. ولكي يشعروا هذا التحالف الأثيم أن هذا هذا الشعب لم يعد لقمة سائغة في حلوقهم ، لابد من أن يقضوا مضاجعهم ويبثوا الفزع في نفوسهم ويثيروا الجو من حولهم .

أعد الشباب الإخواني العدة لهذه الخطة المجازفة وهو يعلم ما ينتظره من جرائها من مطاردة وتنكيل ولكن لابد من تنغيص الحياة على هؤلاء المتواطئين ... وإذا كان الشعب المسكين لايزال يغط في نومه فليتقدموا هم لإيقاظه ... والشعوب المغلوبة على أمرها لا تستيقظ ولا تنتفض إلا إذا تقدمت فئة من أبنائها لمواجهة الظالمين حتى ولو راحت هذه الفئة ضحية مواجهتهم .

وإذا كنا قد تكلمنا فى الفصول السابقة عن قضية فلسطين باعتبارها النكبة الثانية فى التاريخ الاسلامى بعد نكبة الأندلس فإن العنصر الذى اعتمد عليه الاستعمار العالمى فى تأجيج نار هذه النكبة حتى أرسيت على ما أرسيت عليه من تدمير أهل هذه البلادهذاالعنصر هو نفسه الذى كان حليف الإنجليز فى مصر وعقلهم المدبر للمؤامرات ضد أهلها ، ولذا ملكه الأنجليز مرافق البلاد وأعصاب اقتصادها ، كان هذا العنصر اليهودى اليد اليمنى للمستعمر فى مصر فما من مؤسسة تجارية ذات شأن إلا وهى ملك لليهود وما من مرفق من المرافق فى أبرز موقع فى القاهرة إلا وهو ملك اليهود . وكان أكثر هؤلاء اليهود من ذوى جنسية مصرية يحسبهم الجاهل مصريين بالتجنس ، وكانت هذه إحدى الحيل التى لجأ إليها اليهود لتسهيل مهمة المستعمرين فى استغلال الشعب المصرى ونهبه وإذلاله .

ورأى شباب الإخوان أن تقليم أظافر المستعمر الغاصب ، إنما يتم بتأديب أذنابه وبث الذعر فى نفوسهم سواء فى مصر وفى فلسطين .

ومن هذا المنطلق الوطنى النبيل كانت أعمال بطولية رائعة — فغر المستعمرون أفواههم لجرأتها وشجاعتها — قوضت صرح الأمن الذى أقامه حكام مصر للمستعمر ينعم فيه ويستمتع ؛ فبدأ لأول مرة يحس بحرج موقفه وبمخاطر تكتنفه من كل جانب ، وبأن هؤلاء الحكام لم يعودوا الجدار المتين الذى يستند إليه .

ومهما قيل ومهما حدث بعد ذلك ، فإن أحداً لا يستطيع أن ينكر أو يمارى فى أن العالم العربى قد استيقظ من سباته على دوى هذه الضربات ، وأن كل ما تذرع به المستعمرون بعد ذلك من وسائل الضغط والتآمر والإرهاب لم تستطع أن تعيده إلى الزنزانة التى كانوا يسجنونه فيها .. ... وبدأ عهد جديد من المواجهة بين هذا العالم العربى المنهوب خيره المسلوبة حريته وبين غاصبيه حتى تخلص منهم سواء منهم الغرباء ومن كانوا من بنى جلدته .

أما ما يستحق التسجيل بالخزى والعار فهو موقف الحكومة المصرية ، حكومة الأحزاب المصطنعة من خدام القصر وسدنة نزواته ، فإنها قد اتخذت من هذه الأحداث البطولية الرائعة وسيلة للتشهير بالإخوان .. ولا أقول إنها جندت الصحف ؛ فإن الصحف كانت مجندة نفسها لخدمة المستعمر الذى كانت تنعم فى فيض من إغداقه .. وحسبك أن تعلم أن أكثر الصحف المصرية إن لم تكن كلها كانت واقعة فى مجال النفوذ المسيطر لشركة الإعلانات الشرقية التى سبق أن كشفنا الستار المزيف الذى كانت تستتر خلفه من اسمها الخداع .

وقد قصدت الحكومة الصنيعة من وراء هذا التشهير أن تهيء نفوس الرأى العام لتقبل ما سوف تتخذه بعد ذلك ضد هذا الشباب من اعتقال وتنكيل وتعذيب ... وقد فعلت هذه الحكومة ذلك كله ، ثم قدمت عدداً كبيراً منهم آخر الأمر إلى القضاء ... فلم يجد هذا الشباب الإنصاف إلا فى آخر المطاف حين قدم إلى القضاء الذى كان لا يزال بخير .

وإحقاقاً للحق ، ووفاء بحق التاريخ ، واستجابة لقول الله عز وجل «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » تقرر أن هذا الشباب الذى أنجز هذه الأعمال البطولية الرائعة كانت منة سقطة انحرفت ببعض أفراده عن الطريق وخرجت بهم عن الجادة التى حددتها قيادة الدعوة فاتخذوا من تلقاء أنفسهم عملا ضد أحد رجال القضاء ، فأعلنت قيادة الدعوة تبرءها منهم ... وسنفرد إن شاء الله صفحات قادمة للحديث بإفاضة عن هذا العمل وما أحاط به من ملابسات وظروف وما تمخض عنه من نتائج .. كما تتناول الأعمال البطولية التى أشرنا اليها هنا بالإفاضة مكتفين فى هذا الفصل بهذه الإشارة العابرة .

وكل ما استطاعت الحكومة أن تتقرب به إلى المستعمر زلفى فى صدد هذه الأحداث أنها سخرت جهاز إعلامها المتمثل فى الإذاعة والصحف -التى كانت تحت طائلة الرقابة والأحكام العرفية- فقلبت الحقائق ووصمت الإخوان بالوحشية والاعتداء على المسالمين الآمنين ، وادعت عليهم أنهم قد أعدوا العدة لقلب نظام الحكم ثم انتهزت فرصة القبض على بعض الإخوان والتحقيق معهم فسلطت عليهم سفهاءها وجلاديها فأذاقوهم ألواناً من التعذيب وصنوفاً من التنكيل .. محاولة بذلك الفت فى عضد هذه الدعوة ، وتحطيم معنوياتها أملا فى أحد أمرين : إما أن تزول من الوجود وتختفى من المسرح ليخلو الجو لهم مع سادتهم المستعمرين ، وإما أن تغير من خط سيرها على الأقل وتنتهج نهجاً آخر تعفى نفسها فيه من أخطار مواجهة المستعمر ... لكن شيئاً من ذلك لم يتحقق لهم وظلت الدعوة ثابتة على مبادئها أرسخ من الجبال الشم .. ولنا عودة إلى هذه المحاكمات فى الجزء القادم إن شاء الله من هذه المذكرات .

(٨) استغلال حرب فلسطين للقضاء على الدعوة

نعود فى هذا الفصل أيضاً إلى حرب فلسطين التى كانت فى فصل سابق أحد المظاهر التى تجلت فيها قوة الإخوان تجلياً أخفت كل صوت شعبى فى مصر وفى العالم العربى كله .. وأعود

إلى ذكرها فى هذا الفصل لأننى أعتبر هذه الحرب كما أنها كانت مظهراً لقوة الإخوان فإنها أيضاً كانت مصيدة أعدت لاصطيادهم ولقد أستطيع إبراز هذا المعنى فى الصور الآتية التى أعرضها بين يدى القارىء :

أولاً : إظهار قوة الإخوان :

لم يكن نهوض الإخوان بأعباء القتال فى فلسطين وسيلة انتهزوها لإظهار قوتهم كما قد يتبادر إلى بعض خلاة الأذهان عن حقيقة الإخوان وطبيعة دعوتهم وطريقة تربيتهم فإن نكران الذات هو الصفة المميزة لشخصية الأخ المسلم ؛ وكيف لا وهو يفقه أمر الرجل الذى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية أيهم فى سبيل الله ، ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » ، كما أنهم يعرفون أن هذا القتال ليس إلا نوعاً من العبادة ويقرأون قول الله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً»

ولقد حاولت فى الفصل السابق إيراد نتف من وصف بعض المواقع فى هذه الحرب ليتبين للقارىء أن هذا الشباب الذى ترك أهله وعمله وماله وتجارته وانخلع من كل متاع الحياة ، لم يذهب إلى فلسطين إلا لتحقيق أمل واحد هو أن يحظى بالشهادة فى سبيل الله ؛ وإلا لوكان يطلب متاع الدنيا لما تحرك إلى قتال لا يجد فيه مؤازرة من حكومة ولا تشجيعاً من أحد يرجى عنده أجر أو تؤمل لديه منزلة ... فما بالك وهو يذهب إلى قتال يجد كل الجهات التى يتجه إليها طلاب الدنيا تعاديه وتتربص به وتضع العراقيل فى سبيله .

ومنذ أول يوم فى هذه الحرب رأى متطوعو الإخوان بأعينهم أن إخوانهم الذين استشهدوا لم تقرر الحكومة لأهلهم معاشاً ولم ترصد لأبنائهم وزوجاتهم تعويضاً وحتى الصحف والإذاعة لم تعلن أسماءهم ولا حتى أشارت إليهم ... فكيف يبقى هؤلاء المتطوعون فى صفوف القتال — وهم مخيرون وقد علموا هذه المواقف — إلا إذا كان هدفهم أسمى من ذلك وأكرم وهوما وعدهم الله به فى قوله «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» .. كما أنهم يعلمون علم اليقين أن الهيئة التى ينتسبون إليها لا تملك أن تعطى وإنما هى تنفق على الضروريات التى لا غنى عنها من جيوب أعضائها الذين هم عادة من طبقة الفقراء وأشباه الفقراء .

وقد أوضحت من قبل أن اتصال الإخوان بقضية فلسطين اتصال قديم يوم كان الشعب المصرى عامته وخاصته يجهلون كل شيء عن هذه القضية .. والذين يريدون أن يظهروا على مسرح حياة الشعب لا يربطون أنفسهم بقضية مجهولة وإنما يربطون أنفسهم بما يشغل بال الناس ويستولى على ألبابهم .. وقد واصل الإخوان العمل لهذه القضية التى كان هدفهم أن يشهروها بأنفسهم لا أن يشهروا أنفسهم بها .

أما أن هذه الحرب قد أظهرت للعالم قوة الإخوان ، فهذه حقيقة لا مراء فيها ، ولكن هذه الحقيقة لم تكن هدف الإخوان ولا مما سعى الإخوان له .. وليس ذلك بغريب فى تاريخ الدعوة الإسلامية فالرعيل الأول من المجاهدين سجل التاريخ لهم بمداد الفخر مواقف فى حروبهم لازال العالم يتغنى بها ومع ذلك فقد كانوا أئمة المخلصين .

وما كان للإخوان أمام تطور الأحداث فى قضية فلسطين من خيار فى موقف يتخذونه ، فما كان لقوم نذروا أنفسهم لهذه القضية منذ أول أيامها أن يتخلوا عن إجابة ندائها فى الدور الحاسم من أدوارها ، وهو اليوم الذى كانوا يترقبونه من قديم ، ولم يكن ليبطئ بهم عن الاستجابة لهذا النداء أن يعرفوا ما وراء هذه الاستجابة من إظهار العدو — الحكومة المصرية العميلة والمستعمر — على مدى قوتهم ، فإن هذه الاستجابة كانت أشبه برد الفعل الذى لا يمكن التحكم فيه أو كانت بمثابة الدفاع عن النفس وهو مالا مجال معه للاختيار .

ثانيا : استعداء اليهود حلفاءهم ضد الإخوان :

لم يكن اليهود يجهلون حقيقة الإخوان المسلمين بل كانوا يعرفونهم من قديم منذ أوائل الثلاثينات وكانوا أشد الناس حذراً منهم وكراهية لهم وحقداً عليهم .. وكانوا موقنين منذ قرار هيئة الأمم فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين من أن الإخوان لن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا القرار .. ولهذا أخذ اليهود فى كل مكان فى العالم يعدون لحملة استعداء لحلفائهم ضد الإخوان لأنهم يعلمون أن لا طاقة لهم بقوم يشتهون الموت ولا يهابون شيئاً ..

ونسوق هنا جزءاً من مقال كتبته لفتاة صهيونية تدعى «روث كاريف» ونشرته لها جريدة «الصنداى ميرور» فى مطلع ١٩٤٨ ونقلته جريدة «المصرى» لقرائها فى حينه . قالت فيه الكاتبة :

«إن الإخوان المسلمين يحاولون إقناع العرب بأنهم أسمى الشعوب على وجه البسيطة ، وأن الإسلام هو خير الأديان جميعاً وأفضل قانون تحيا عليه شعوب الأرض كلها . ثم استطردت

تصف خطورة حركة الإخوان إلى أن قالت : والآن وقد أصبح الإخوان المسلمون ينادون بالمعركة الفاصلة التى توجه ضد التدخل المادى للولايات المتحدة فى شئون الشرق الأوسط وأصبحوا يطلبون من كل مسلم أن لا يتعاون مع هيئة الأمم المتحدة ، فقد حان للشعب الأمريكى أن يعرف أى حركة هذه . وأى رجال يتسترون وراء هذا الاسم الرومانتيكى الجذاب اسم «الإخوان المسلمون» وقالت — وهذا هو بيت القصيد — : إن اليهود فى فلسطين الآن ، هم أعنف خصوم الإخوان المسلمين ، ولذلك كان اليهود هم الهدف الأساسى لعدوان الإخوان وقد قام أتباعهم بهدم أملاك اليهود ونهب أموالهم فى كثير من مدن الشرق الأوسط ، وهم يعدون الآن العدة للاعتداء الدموى على اليهود فى عدن والبحرين وقد هاجموا دور المفوضيات والقنصليات الأمريكية وطالبوا علنا بانسحاب الدول العربية من هيئة الأمم المتحدة .

«وبعد هجوم عنيف على سماحة المفتى الأكبر السيد أمين الحسينى وعلى المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن البنا ختمت مقالها قائلة : وإذا كان المدافعون عن فلسطين — أى اليهود — يطالبون الآن مجلس الأمن بإرسال قوة دولية لتنفيذ مشروع التقسيم الذى أقرته هيئة الأمم المتحدة ، فإنهم لا يطالبون بذلك لأن الدولة اليهودية فى حاجة إلى الدفاع عن نفسها ، ولكنهم يريدون إرسال هذه القوة الدولية إلى فلسطين ، لتواجه رجال الإخوان المسلمين وجها لوجه ، وبذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقى الذى تمثله هذه الحركة .

وإذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة فى وقت قريب ، فان أوروبا ستشهد ما شهدته فى العقد الماضى من القرن الحالى إذ واجهتها حركة فاشية نازية ، فقد تواجهها فى العقد الحالى إمبراطورية إسلامية فاشية تمتد من شمالى أفريقيا إلى الباكستان ومن تركيا إلى المحيط الهندى .»

ولم يكن هذا المثال هو الأول من نوعه ولا الأخير فقد دأبت الصحف الأوربية والأمريكية على نشر مقالات طويلة من هذا النوع كلها استعداء لهذه الدول على الإخوان المسلمين .

ومن العبارات ذات الدلالة الخطيرة ما نشرته إحدى الصحف الأمريكية فى تلك الفترة وسبق أن أشرت إليه فى فصل سابق حين وصفت الأستاذ حسن البنا وصفاً دقيقاً استعرضت فيه سماته البدنية وسماته الفكرية والنفسية ثم قالت : إنه صار أقوى شخصية فى الشرق العربى ، وإن هذه الشخصية لن تهزم إلا أن تصير الأحداث أقوى منها .

والدلالة التى تطل من وراء هذه العبارات هى أن الجريدة — الواسعة الانتشار — تسوق هذا

الوصف الدقيق لشخصية المرشد العام للإخوان المسلمين فى أسلوب تحذيرى فيه معنى استعداء الشعب الأمريكي وحلفائه وحثهم على تدبير مؤامرات لخلق أحداث جسام تقهر هذه الشخصية ، وتقضى على عظمتها وتسلبها المقدرة على بسط سلطانها على الشرق العربى الذى تعتبره حكومات هذه الدول الكبرى مجال نفوذها .

ومما تجدر الإشارة إلية أن العالم العربى فى ذلك الوقت كان يعج بالأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية ، فى مصر كانت الأحزاب والزعامات التى طالما أشرنا إليها كما كان فى سورية ولبنان والعراق حزب البعث السورى الذى يدعى أنه قام لبعث العرب من سباتهم ضد المستعمر ، كما كان بسورية الحزب القومى السورى .. إلا أن المستعمرين حين جد الجد لم يوجهوا حملتهم إلى حزب من هذه الأحزاب ولا إلى هيئة من هذه الهيئات التى تنادى بأنها ضد الاستعمار والمستعمرين وإنما وجهوا حملاتهم إلى الإخوان المسلمين وألقوا بثقلهم كله عليهم وحدهم ، ذلك أنهم كانوا يعلمون أن جهود هذة الأحزاب والهيئات لن تتعدى خطباً تلقى ومقالات تنمق وشعارات يهتف بها ومظاهرات إن قامت فهى مزايدات للتنافس على الحكم فى ظل سلطة الاستعمار .. أما الإخوان المسلمون فقد جرب المستعمر معهم وسائله فلم تفلح واحدة منها لأنهم أصحاب فكرة يؤمنون بها ولا يقبلون المساومة عليها .

ثالثا : استنفاد جهود الإخوان :

ومما لا شك فيه أنه كان لنداءات اليهود واستعداءاتهم صدى فى نفوس حلفائهم فى أنحاء العالم ، ولابد أن هؤلاء الحلفاء قد دبروا أمراً ووضعوا خطة وشرعوا فى تنفيذها لا سيما والوقوف فى وجه الدعوة الإسلامية الزاحفة أمر طالما شغلهم من قبل أن يظهر اليهود على مسرح الأحداث .. فإذا كان القدر قد وضع اليهود فى مواجهة الإخوان المسلمين .. إذن فلتكن الخطة هى الوقوف وراء اليهود يمدونهم بالمال والأسلحة الحديثة والتدريب ثم استغلال إخلاص الإخوان لدعوتهم وتهافتهم على القتال ، فتلقى هذه الدعوة بفلذات كبدها فى المعركة فتستنفد قوتهم أولا حيث تطحنهم الحرب طحناً ثم تبدأ مباشرة المؤامرة العالمية للاجهاز عليهم .

رابعاً : الحاقدون بين عاملين :

كان الإنجليز والمستعمرون عموماً قد حددوا اليد التى سيضربون بها الإخوان المسلمين ، واطمأنوا إليها ، وعلموا أن هذه اليد تتحرق شوقاً إلى أن تستخدم فى ضرب الإخوان لأن قلوبها

متلئة حقداً عليهم ، ولولا أنها لا ترى فى نفسها القوة الكافية لضربتهم من زمن بعيد . وهى لذلك تنتظر فى شوق وتشوف إلى قوى خارجية تسندها وتشد من أزرها .. ولم تكن هذه اليد إلا الملك السادر فى غيه وعصابته من المستوزرين من السعديين ..

فلما صدر قرار تقسيم فلسطين وقابله العرب والمسلمون فى كل بقاع الأرض بغضب جارف ، وكان اتجاه الجميع فى العالم العربى أن لابد من عمل إيجابى ، وأعلن الإخوان عزمهم على اقتحام ساحة القتال ، وجد الحاقدون أنفسهم أمام أمرين أحلاهما مر : هل يفسحون المجال للإخوان ليرسلوا متطوعيهم إلى فلسطين ؟ وإذا دخل هؤلاء المتطوعون المعركة — مع مايتصفون به من فدائية وبسالة — فإنهم سيرفعون من ذكر الإخوان فى مصر وفى العالم كله .. وهم-أى الحاقدون- يرون فى ذلك القضاء المبرم على نفوذهم بل على وجودهم ... أم يحولون — بمالهم من سلطات حكومية — بين متطوعى الإخوان وبين الخروج إلى ميدان المعركة فيضمنوا بذلك الحد من ازدياد المد الإخوانى فى نفوس الشعب ؟

وفى هذا الصدد ننقل من كتاب الاستاذ كامل الشريف «الإخوان المسلمون فى حرب فلسطين» ما يلى :

«جاء شهر مايو من عام ١٩٤٨ وكان بداية تحول كبير فى مجرى الحوادث إذ أنهى فيه الإنجليز انتدابهم وختموا آخر صفحة لسياستهم فى فلسطين .. وظن الإخوان أن عهد التضييق والإرهاب قد انتهى بانسحاب الإنجليز ، وأنهم يستطيعون الآن إدخال قواتهم دون خوف أو وجل وأن الوقت قد آن ليفى مرشدهم العظيم بوعده ليدخل إلى فلسطين عشرة آلاف مقاتل كدفعه أولى كما سبق له أن قرر فى برقيته المشهورة التى بعث بها إلى زعماء الدول العربية فى اجتماعهم «بعالية» .. ظن الإخوان ذلك ولكن جاءت الحوادث لتخلف ظنهم وتقنعهم أن سياسة الإنجليز باقية وإن انسحبت جنودهم من الميدان ..

طلب الإخوان من حكومة النقراشى باشا السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط فى الجزء الشمالى من صحراء النقب فرفضت الحكومة هذا الطلب وأصرت على عدم السماح لهم بذلك ، مما اضطر بعضهم إلى طلب السماح لهم بالقيام فى رحلة علمية إلى «سيناء» فوافقت حكومة النقراشى بعد إلحاح شديد ، وحضرت تلك المجموعة إلى «سيناء» وتسللت منها إلى فلسطين سراً حيث لحقت بها دفعات أخرى تسللت بطرق مختلفة ، وكانت حيلة دخلوا بها إلى فلسطين . وبدخول هذا الفوج بدأ القتال الفعلى فى صحراء النقب ، فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية بصلابة وعناد رغم قلة عدده وضعف أسلحته ، وتجمع حوله المجاهدون من أهل فلسطين وبدأت حرب عصابات منظمة

كانت تبشر بنجاح رائع .. ومر شهران وعلمت الحكومة فطلبت إلى المركز العام سحب قواته من النقب ، وكان طبيعياً أن يرفض الإخوان ، الجأت الحكومة إلى قطع الإمدادات والتموين ومراقبة الحدود بشدة لتضمن عدم وصول شئ منها إلى المجاهدين حتى تضطرهم للعودة إلى مصر ، ورأى المجاهدون أنفسهم خلال قتالهم الرائع يعيشون أياماً طوالا على التمر والماء وعلى الخبز اليسير الذى يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر ....

بقى المجاهدون فى ميدانهم يعملون ، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة ورعاية حتى دخل الجيش المصرى وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية فى النقب ، واشترك الإخوان فى معظم العمليات الحربية التى قام بها . وكان طبيعياً أن ينقص عددهم بفعل المعارك الطاحنة وما سقط منهم فيها من الجرحى والشهداء .. وحتى فى تلك الأوقات الحرجة لم تحاول الحكومة أن تراجع موقفها وأن تسمح للإخوان بدخول الميدان ولا لتعويض هذه الخسائر الكبيرة فى الأفراد بل شددت رقابتها أكثر من ذى قبل . وكان الإخوان يعلمون حقيقة الموقف فى فلسطين ويتشوقون للحاق بإخوانهم ، ولكن قيود الحكومة كانت تقف حائلا دون التنفيذ مما اضطر كثيرين منهم إلى المجئ سيراً على الأقدام .

ولا زلت أذكر ذلك اليوم الذى حضرت فيه جماعة من الإخوان قوامها خمسة عشر شاباً لم تكن تزيد أعمارهم عن السادسة عشرة وكانوا كلهم طلاباً فى المدارس الثانوية . وسألتهم عن سبب مجيئهم فقالوا إنهم يرغبون فى تأدية فريضة الجهاد بعد أن نجحوا فى امتحاناتهم لهذا العام . ثم أخذوا يقصون على أنباء رحلتهم الشاقة وكيف غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع فى قطارات السكك الحديدية ، وكيف ساروا مسافات شاسعة فى صحراء سيناء الموحشة بمعونة دليل من البدو .

ثم لجأت الحكومة السعدية إلى حيلة أخرى فأمرت بوليسها أن يمنع عودة المجاهدين الذين يغادرون الميدان لزيارة أهلهم فى إجازات قصيرة ، حتى ينقص عددهم وينتهى أمرهم ، وقد فطنا إلى الحيلة بعد مدة فألغينا الإجازات وقررنا نسيان الأهل والولد حتى نضيع على الحكومة فرصتها ونستمر فى جهادنا» .

ويقول الاستاذ كامل الشريف : «طالب اللواء الموادى بك قائد الجيش المصرى فى فلسطين بإحضار عدد كبير من شباب الإخوان وإرسالهم فوراً إلى الميدان ، وسافر لهذه الغاية إلى القاهرة الأستاذ الشيخ محمد فرغلى رئيس الإخوان فى فلسطين . ولقد حدثنى الصاغ محمود لبيب

وكيل الإخوان للشئون العسكرية أن عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية قد استدعاه فى ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنيد هذا العدد لأن خطورة الموقف العسكرى تتطلب إرسالهم على وجه السرعة ، ومضى الصاغ لبيب فاتصل بشعب الإخوان فى القطر وأمر كل شعبة بتجهيز فرد واحد من أعضائها وإبقائه مستعداً للسفر فى مدة معينة .

ولكن ما إن تناهى النبأ إلى مسامع النقراشى باشا حتى هاج وماج ورفض قبول الفكرة من أساسها ولم يستطع الإخوان تعليل ذلك الرفض حتى جاءت الحوادث القريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة ، وهى أن النقراشى كان مشغولا فى ذلك الوقت بتنظيم خطة للقضاء على الإخوان ومحوهم من الوجود» .

ولقد رأيت أن أنقل هذه الفقرات لأكشف لأبناء هذا الجيل المضلل عن صفحة من صفحات الخزى والعار عمل الساسة المتواطئون مع العدو على طمسها وحجبها عنهم تزويراً للتاريخ وستراً على جرائمهم التى تتضاءل أمامها الخيانات العظمى .

ولكن هل استكان الإخوان ويئسوا ورضوا من الغنيمة بالإياب ؟ لا بل إنهم لجأوا إلى حيلة أخرى هى أنهم قدموا شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية .

ويتضح من ذلك أن الحاقدين قد استقر رأيهم على أن يحولوا بين الإخوان وبين الوصول إلى أرض المعركة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .. ولكن لأن هذه الحرب لم يكونوا هم الطرف الوحيد فيها بل كانت الدول العربية أطرافاً فيها أيضاً فانهم لم يستطيعوا الحيلولة الكاملة التى أرادوها بل كل ما استطاعوه هو الحد من عدد الإخوان ، وحرمانهم من الأسلحة الكافية والذخيرة اللازمة .

خامسا : الانقضاض من الخلف على المجاهدين :

لما خرج الأمر من يد الحاقدين ورأوا أنفسهم أمام أمر واقع من تدفق المتطوعين من الإخوان على الميدان فى فلسطين . لا سيما بعد أن ساءت حال القوات المصرية فى الميدان نتيجة سوء تصرف الحكومة السعدية وخضوعها السياسى بل تواطئها مع المستعمر فقد حاصرت قوات اليهود الجيش المصرى وطلب قائد الجيش المصرى أن يمد بقوة من الإخوان المسلمين لإنقاذ الموقف وأنقذ الإخوان الموقف فعلا وفكوا الحصار عن الجيش المصرى وأشادت قيادة الجيش بالإخوان المسلمين كما أشادت صحف العالم بهم .. حينئذ أكل الحقد قلوب السعديين كما أكل قلب معبودهم فاروق .

وقد أعماهم الحقد الأسود فسلكوا طريقاً ظنوا أن فيه نجاتهم وتدمير الإخوان ، فكان فيه

دمارهم ودمار البلاد . وكان فيه التمكين لليهود .

أما الطريق الذى سلكوه والذى وجههم إليه الأخطبوط العالمى للتآمر الأمريكى الأوروبى فى خدمة اليهودية العالمية والذى اكتملت بسلوكه سلسلة المؤامرات للقضاء على الإخـوان المسلمين ، فسنرجئ تناوله بالحديث إلى الجزء الثانى من هذه المذكرات إن شاء الله وهو يتضمن الحلقتين التاسعة والعاشرة الباقيتين من خطط التآمر التى عالجنا منها ثمانى حلقات حتى الآن . وهاتان الحلقتان هما قرار الحل واغتيال المرشد العام .

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الباب الأول

فى شارع الناصرية

الفصل الأول

العمل الطلابى المنظم

الفصل الثانى

الدعوة على مفترق طريقين

الباب الثانى

فى ميدان العتبة الخضراء

الفصل الأول

إبراز الإخوان باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

الأخذ بأساليب عملية فى التكوين والتربية ونشر الدعوة

الفصل الثالث

مهاجمة الانجليز واليهود والانطلاق بقضية فلسطين

الفصل الرابع

الفتنة الأولى

الباب الثالث

فى ميدان الحلمية الجديدة فى المبنى القديم

الفصل الأول

فى البناء الداخلى

التركيب البنائى للدعوة فى هذه المرحلة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الفصل الثانى

فى العمل الوطنى فى ظل الحرب العالمية الثانية

الموضوع الصفحة

الباب الرابع
فى ميدان الحلمية الجديدة
فى الدار الجديدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية

الفصل الأول
وصول الدعوة إلى قمة النفوذ الشعبى

الفصل الثانى

فى قضية فلسطين

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث

خطط التآمر العالمى للقضاء على الدعوة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق الرسمية

٧٩/٤٧٦٤